

د. مهاب السعيد



الإجابة القرآنية

كيف أجاب القرآن عن أسئلتك الوجودية؟



الإجابة القرآنية



الكتـــــاب : الإجابة القرآنية

المــــؤلـــــف : مهاب السعيد

تصميـم الغلاف : أحمد الصباغ

تنسيـق داخلي : سمر محمد

رقـــم الإيــداع : 2018/15368

I.S.B.N : 978-977-6541-85-6

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com



الإجابة القرآنية

كيف أجاب القرآن عن أسئلتك الوجودية

د. مهاب السعيد




بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الإنسانة الأهم في حياتي، أمي الحبيبة، التي وهبتني كل شيء، وكانت بالنسبة إليّ دائمًا مصدر الدفء والطمأنينة.

إلى أبي الغالي الذي تعلمتُ منه أكثر مما يظن، واقتديتُ به أكثر مما يعلم.

إلى زوجتي، وحبيبتي، وصاحبتي، وناصحتي، وملهمتي، وقمري الذي يطلع كل مساء من نافذة الكلماتِ.

إلى أخي الأكبر الحبيب الذي يرعاني دائمًا، وأخواتي الأربعة اللائي أحبهنّ أكثر كثيرًا مما أقول.

إلى توأم روحي الذي يعلم نفسه جيدًا، وإلى صديقي الأعز صاحب اليوسفي، وإلى صاحبي الأقدم (الأنتيم)، وإلى رفيق كفاحي المدعشر، وإلى ابن أختي الذي يدّعي أنه ليس كذلك، وإلى رفاق دربي الثمانية.

إلى أخي الأحبّ الذي صار صهري الألطف.

إلى معلمي الأول الذي كان أول من همس في أذني أن أترك أثرًا قبل الرحيل.

المحتويات

اختبار مفتوح في كتاب واحد

(هي مجرد مقدمة)

"عند هذا التفاوت الكبير في الاختيار يتحول الأمر من عملية (ذوق) و(اجتهاد) إلى عملية (صواب وخطأ)، الأمر لم يعد راجعًا إليك في تحديد كتابك الواحد الذي ترغب فيه، الأمر صار اختبارًا لك عمّا إذا كنت ستنجح في اختيارك لهذا الكتاب تحديدًا أم لا"

هناك مثل إنجليزي قديم يقول:

"A jack of all trades is a master of none"

أي أن من يقوم بحرف كثيرة، لا يُجِد شيئًا منها! ويقابل ذلك عند العرب قولهم: «كثير الكارّات قليل البارات»، والبارات هي الدراهم، أي أن من يعمل الكثير من المهن لا يملك الكثير من المال، باعتباره لن يجيد أيًّا منها. بالطبع هذا لا ينطبق على بلادنا، ولا ينطبق على (عم جمال) حارس العقار الذي يمسح السيارات ويغير أسطوانة الغاز ويحمل الحقائب ويصلح السباكة ويجعلك تتحسر على دخلك كطبيب الذي لا يتفوق على دخل عم جمال.

في المعرفة والقراءة هناك مثل لاتيني آخر يقول: «خذ حذرك من رجل الكتاب الواحد»، بالطبع ترجمت المثل مباشرة ولم أنقل أصله لأني لو اكتشفت أن أحدًا ممّن سيقرؤون هذا الكلام يجيد اللاتينية بالفعل فسيتوقف قلبي رعبًا!

خذ حذرك من رجل الكتاب الواحد، لأنه ببساطة لن يكون رجلًا سهلًا على الإطلاق، هذا رجل أفنى حياته في قراءة تفاصيل هذا الكتاب -الذي سيكون كتابًا هامًا في العادة- وأتقن كل معارفه. كما كان يقول (بليني): «علينا أن نقرأ كثيرًا ولكن في كتب قليلة»!

تشتهر هذه الهواية بين الكتّاب بشكل خاص، حيث إنه من أسهل طرق تنمية الكتابة هي العكوف على كاتب بعينه أو كتاب ما لحفظ وإجادة أسلوبه ومن ثم يبدأ من حيث انتهى هو ليضيف سماته الخاصة.

خذ عندك مثلًا (وليام جونز) البريطاني الذي كان يُتم قراءة أعمال (شيشرون) -أشهر خطباء روما القديمة- كل عام مرة! لم يكن جونز هو المولع الوحيد بشيشرون، فحين سُئِلَ (أرنو) الفرنسي عن أفضل وسيلة يمكن للمرء أن يكون فيها صاحب أسلوب جيد في الكتابة نصحه بالقراءة اليومية لأعمال (شيشرون) فقال له السائل: أنا أقصد الأسلوب الجيد في اللغة الفرنسية وليس اللاتينية، فقال له أرنو: «في هذه الحالة فإن عليك أن تقرأ أيضًا لشيشرون»!

كان (ديموشينس) يستمتع بتاريخ (ثيوديوس) لدرجة أنه نسخه ثماني مرات بيده! ومن جديد، لو كنتَ تعلم من هو ديموشينس أو ثيوديوس فسوف يتوقف قلبي أيضًا من الرعب. وكانت كتب (ميكافيللي) لا تفارق يد (نابليون بونابرت)، وبنفس الحماس الذي جعل (بروتس) «الذي يعرفه كل واحد منا من عبارة يوليوس قيصر: حتى أنت يا بروتس» يقضي آخر ليلة له يلخص نسخة من (بوليبيوس) الذي كان يعشقه في الليلة التي سبقت معركته مع أوكتافيوس وأنطونيوس. ويُقال أن (فولتير) كان يضع على مكتبه دائمًا نسخة من (أتالي) لـ (راسين).

في تراثنا الإسلامي هناك نماذج أشد غرابة، فلدينا مثلًا كتاب (صحيح البخاري) الذي وقع في غرامه الكثير من المحققين الأوائل للدرجة التي تجعلهم يكررونه عشرات المرات، حتى كرره (سليمان بن إبراهيم اليمني) ١٥٠ مرة، وكرره (أبو بكر بن عطية) ٧٠٠ مرة!

حتى في غير كتب السنة وقع مثل هذا الغرام. مثلًا (المزني) ظل ينظر في كتاب (الرسالة) للشافعي خمسين عامًا. بينما درس (ابن تبان) كتاب (المدوّنة) ألف مرة! وأما (أحمد بن عمر اليماني) فقد اشتُهرَ بمعرفة كتاب (الوسيط في الفقه الشافعي) للغزالي، حتى كان يعرف أين مكان المسألة فيه، وفي أَيِّ صفحة هي، بعد أن أُصِيبَ بالعمى!

لو كنتَ قد ضقتَ ذرعًا بهذه المبالغات التي لا تكاد تُصدّق في عشق الكتاب الواحد، فدعني أزيدك من الشعر آخر بيت، حين أذكّرك أن هناك من هؤلاء من تغيّرت أسماؤهم بالكامل تبعًا لهذا العشق، فـ (جمال الدين الأشمومي) صار اسمه: (الوجيزي) من كثرة عنايته واهتمامه بكتاب (الوجيز في الفقه الشافعي) للغزالي، ولُقِّبَ (الزركشي) بـ (المنهاجي) نسبةً إلى (منهاج الطالبين) للنووي، بينما عُرِفَ (محمد بن سليمان محي الدين) بـ (الكافيَجي) لكثرة اشتغاله بـ (الكافية) في علم النحو!

هؤلاء وأولئك من محبي الكتاب الواحد قد اختاروا طواعيةً ألا يلتفتوا للكثير من الكتب، وآمنوا من داخلهم أنه ليس كل ما هو مكتوب فهو جدير بالقراءة، تلك القاعدة التي نتعلمها نحن بالطريقة الصعبة حين نفني الكثير من أعمارنا في قراءة الهراء، وحين نتابع بشغف المهاترات الموسمية التي تنتهي بمرور الوقت وتفنى معها الأعمار والهمم.

في أحد أعداد مجلة (المختار) التي كانت ترجمة لمجلة (Reader's Digest) الأمريكية (أعلنت هذه المجلة إفلاسها منذ سنوات قليلة) كتب أحدهم مقالًا تافهًا لا يحوي أي شيء ذي قيمة طالبًا من قرّائِه أن يتجاهلوا هذا المقال! من فضلك لا تقرأ هذا المقال، فهو لن يفيدك بأي شيء. كذا ظل الكاتب طوال المقال يذكر قرّاءَه، واعتبر نفسه قد فشل إن استطاع أحد بالفعل في الوصول إلى آخره. معنى أنك قرأت هذا المقال لآخره، أنك لن تستطيع أن تتجاهل أي شيء مقروء. بمعنى آخر أنت قد ضعت يا صاحبي وسط ملايين العناوين المطبوعة التي لا تعنيك بشيء!

على أن اختيارك للكتاب الواحد هذا قد يعني نجاحك أو فشلك المعرفي في الحياة، فلا أظن أنك تحب أن تفني عمرك في دراسة وتحليل أحد مجلدات (ميكي) مثلًا! وعلى ذكر (ميكي) عليك أن تتذكر أيضًا أن (هوي ودوي ولوي) - أو (سوسو ولولو وتوتو) كما نعرفهم نحن في مصر- كانوا يملكون كتاب (الكشّافة) الذي يحوي كل شيء وكل سر في الحياة، من جديد فإن ثقافة الكتاب الواحد تتكرر في الوعي الإنساني بأبسط صور هذا الوعي: قصص الأطفال!

مقوّمات اختيار هذا الكتاب نحتاج إليها فقط حين تكون البدائل متكافئة ومحيّرة، أما عند عدم تكافؤ هذه الاختيارات، وعند وجود الفجوة العملاقة بين إحداها والبقيّة، فإن ذكر مقومّات الاختيار وطرائقه يعتبر ضربًا من المزاح الثقيل، أو السخرية المقنعة. إنه وكأني أحاول إقناعك أن وجبة اللحم المشويّة ذات الرائحة النفاذة والطعم الشهيّ أفضل من شطيرة الفول البارد التي أعدها لك (عم أشرف) بأصابع متسخة على عربة مهترئة في شارع يغرق في مياه الصرف!

عند هذا التفاوت الكبير في الاختيار يتحول الأمر من عملية (ذوق) و(اجتهاد) إلى عملية (صواب وخطأ)، الأمر لم يعد راجعًا إليك في تحديد كتابك الواحد الذي ترغب فيه، الأمر صار اختبارًا لك عمّا إذا كنت ستنجح في اختيارك لهذا الكتاب تحديدًا أم لا.

وحين نتحدث عن القرآن الكريم، فإننا -لا شك تعلمون- لا نستطيع أن نضعه في مقارنة مع أي كتاب آخر، إذ إن القرآن كلام خالق الكون، إرشادٌ من الحكيم، إخبارٌ من علام الغيوب، تزكيةٌ من الحي القيوم، تربيةٌ من رب العالمين، ورسالته إلى ساكني هذا الوجود المترامي الأبعاد. كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل ٦). القرآن ليس فقط الاختيار الصائب لكتابك الواحد ولكنه المفترض أن يكون هو الاختيار الوحيد! فلو كان هناك كتابٌ يغني عن بقية الكتب فهو قطعًا هذا الكتاب المعجز: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت ٥١). إن المتبحّر في علوم القرآن هو أولى الناس بالتحذير اللاتيني: خذ حذرك من رجل الكتاب الواحد!

ولكن، لحظة! هل يعني هذا أننا سوف نجد مفاتيح جميع العلوم والمعارف في القرآن؟ آمن بذلك رجال ثقال مثل (أبي حامد الغزالي)، وبرغم ذلك، فهو خطأ تمامًا. ليس لأنه غير واقع فحسب، ولكن أيضًا لأن القرآن لم يدّع ذلك قط. لم يقل القرآن أنه سوف يغنيك عن كتب الهندسة والرياضيات والعلوم الطبية، أو أنك لو أطلت التأمل فيه قليلًا وكنت على قدر جيد من الطهارة فسوف تلمح فيه أسرار الحضارة البشرية! في المقابل نجد الآية صريحة: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل ٦٤).

القرآن دائم التذكير لنا على أن مهمته هي هداية الناس، وإنارة طريقهم الوعر المليء بالمزالق، وإيصالك إلى رب البريّة جَلَّجَلَالُهُ، ووضع الضوابط والقواعد التي يريد لنا الله أن نتعايش ونتحاكم بها. بينما تفاصيل الدنيا وكيفية تيسيرها، فأنتم أعلم بشئون دنياكم!

والسؤال هنا، حين نتحدث عن الأسئلة الوجودية الكبرى في الحياة، عن أسئلة الغاية والمآل، عن النهايات المرتقبة للحيرة الإنسانية، عن ألغاز الوجود ومعنى الحياة ذاتها، فإلى أي هذين القسمين تراها تنتمي في رأيك؟

هل سبق لك أن شعرت أن هناك سؤالًا ما أو مجموعة أسئلة تشعر وكأنها أقرب لشفرة موحّدة قد بُرمجت عليها كل الكائنات البشرية؟

لا أقصد طبعًا الأسئلة التي سألناها كلنا ونحن صغار مثل: لماذا السماء زرقاء؟ لماذا يجب أن أذهب للمدرسة؟ لماذا تحب سلاحف النينجا البيتزا إلى هذا الحد؟ فصحيح أن هذه الأسئلة يشترك في الحيرة بشأنها كل البشر إلا أن دافعها الفضول وليس أكثر.

ولكني أتحدث عن نوعية الأسئلة الوجودية التي تتعلق بفهمنا للواقع الذي وجدنا أنفسنا فيه فجأة!

تلك الأسئلة التي وجدنا أنفسنا مغموسين فيها دون أن ندري. حيث انزلق وعينا الإنساني الذكي بشكل مفاجئ من ذلك العالم الساكن الغامض الذي كان يحيا فيه حين لم نكن بعد شيئًا مذكورًا إلى عالم مادي واقعي تمامًا يمكننا فيه أن نشعر بهواء البحر، وبطعم الحلوى، وبرائحة الأزهار، وبصوت منبهات السيارات في الشارع المزدحم. ونشعر أيضًا فيه بمذاق الجمال، وبدفء الحب، وبرهبة العجز وألم الخيانة.

وجدنا أنفسنا في عالم مادي أقل غموضًا مما يبدو في أذهاننا السريالية المليئة بالمعاني المجردة، مع وعي فريد أكثر تعقيدًا ممّا تحتاجه المتطلبات الحياتية! حينها بدأنا نتساءل: من أين أتينا؟ وإلى أين سنذهب؟ ترى ما المصير؟ ترى من أوجدنا؟ ترى ماذا يريده منا؟

ثم قد تتخذ هذه الأسئلة طعم الاحتجاج أحيانًا! لماذا رسبت في الاختبار ونجح زميلي؟ لأنني اخترت ألا أذاكر. إذًا لماذا أنا أقصر منه طولًا؟ هل اخترت أنا أيضًا كذلك؟ إذن هناك من الأشياء ما أختاره وهناك ما لا أختاره!

هذا يذكرنا بإحدى رباعيّات (صلاح جاهين)، المكتوبة بالعامّية المصرية:

نظرت في الملكوت كتير وانشغلت. وبكل كلمة (ليه؟) و(عشانيه؟) سألت. أسأل سؤال،
الرد يرجع سؤال. وأخرج وحيرتي أشد مما دخلت. وعجبي!

***

نحن إذن في هذه الأسئلة أمام اختبار مفتوح المدة، أسئلته مشتركة تمامًا في معظمها. ولكن هناك اختلافات يسيرة فيها تبعًا لكل طالب، حيث إنك ترى أنه في النهاية كل منا لديه أسئلته الخاصة، ولربما يستعصي عليه شيء يكون يسيرًا جدًا على بقية الزملاء، ولربما العكس!

هذا الاختبار هو أقرب لنوع الاختبار المفتوح، حيث يمكنك أن تدخل إلى لجنة الامتحان بكل ما تشاء من الكتب والمراجع والملخّصات. ذلك النوع من الاختبارات الذي يهدف إلى اختبار فهم

الطالب للمعلومة وكيفية تطبيقه لها على الواقع ، وليس قدرته على الحفظ والاسترجاع . لم نعرف هذا النوع من الاختبارات في تعليمنا المجاني على كل حال، حيث قد لاحظ البعض أن مستقبلك قد يكون مهددًا بالخطر لو لم تستطع تذكّر السبب الذي كان من أجله يحب طه حسين أن يأكل البليلة.

على أن هذا النوع من الاختبارات ليس جنة للطالب، فبحسب دراسة أعدتها جامعة (نيو ساوث ويلز) في أستراليا: (UNSW)، فإن أكبر الأفكار الخاطئة التي يحملها الطلاب نحو الاختبار المفتوح هو أنهم ليس عليهم الاستذكار له، وأنه قطعة من الكعك في السهولة. بينما الأمر ليس كذلك على الإطلاق!

أوضحت الدراسة أيضًا أن الطلاب الذين لا يستذكرون قبل الاختبار المفتوح يعانون من مشكلة متكررة وهي عدم قدرتهم على إيجاد المعلومة داخل الكتاب أصلًا. للدرجة التي تجعلهم يظنون أن المعلومة المراد الوصول إليها لا علاقة لها بموضوع الكتاب الذي دخلوا به إلى اللجنة، مع شعور بأنهم قد خُدِعوا!

المسألة بسيطة. أنت بالفعل لا تحتاج إلى أن تحفظ الكتاب عن ظهر قلب، ولكنك تحتاج كي تصل إلى ما تريده منه أن تفهمه فهمًا كاملًا وأن تكون قراءتك فيه متكررة وواعية ودقيقة. فبالرغم من أنك لن تحتاج إلا إلى كتاب واحد، إلا أن تناولك لهذا الكتاب يجب أن يكون مختلفًا حتى تحصل منه على كل أجوبة أسئلتك.

حتى لا تقع في الخطأ المتكرر الفادح وتخرج لتقول أن القرآن ليس فيه الجواب! بل أنت حينها فقط قد رسبت في الاختبار!

تفاصيل وأسرار

(هي في الحقيقة مقدمة ثانية ولكني أدعي العكس)

"تقول لي: يجب أن نتحدث مع الملحد أو الحائر بالأدلة العقلية وبالمنطق والحجة. وأنا أوافق على ذلك تمامًا. كل ما في الأمر أنني وجدت أن القرآن منجم خصب مليء بكل هذه الأشياء المباركة. إن كنت تعتبره كلام بشر، فما المشكلة؟ اعتبره كذلك. أنت من البداية كنتَ تفتح كتابي لتبحث عن كلام البشر!"

امتلأت الثقافة الشعبية الغربية بقصص ألواح التوراة، وصارت مادة خصبة للخيال في نسج الأساطير حولها، نحن أمام الكتاب الوحيد الذي تواتر للبشر نزوله من السماء مكتوبًا كما هو، هذه قدسية خاصة بالتأكيد.

تحدثوا عن أن هذه الألواح تحتوي أسرار المخلوقات الأخرى الغيبية من غير البشر، أو أنها تحدد بوضوح موعد القيامة، وأنه ليس لأي أحد أن يقرأها.

ربما كانت من آثار هذه المبالغات الخيالية ما وصل إلينا عن بعض التابعين من أخبار إسرائيلية واضحة أن هذه الألواح كانت تزن سبعين بعيرًا أو أنه لم يطلع عليها إلا أربعة منهم موسى وعيسى عليهما السلام.

الله أعلم بحقيقة هذه الألواح، إلا أن أقل ما يمكن أن نتفق عليها أنها بالفعل مميّزة!

مما ذُكِرَ لنا في القرآن من ميزاتها هي أنها تحوي تفاصيل كل شيء، كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف ١٤٥). حتى قيل إنها كانت سبعة أجزاء رُفِعَت ستة منها لما ألقاها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في لحظة غضب حين رأى قومه يعبدون عجلًا سمينًا لمجرد أنه له خوار!

قيل إن هذه الأجزاء الستة كانت تحوي تفاصيل كل شيء فعلًا، وإنما بقي السبع الأخير فقط الذي يحوي المواعظ والأحكام. على أن الأرجح عند الكثير من علماء التفاسير أن هذا غير صحيح، لقد بَقِيَت ألواح التوراة كاملة مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكانت تحوي تفاصيل كل شيء بالفعل كما ذكر القرآن، ولكن ليس بالمعنى المتبادر للذهن من كلمة (كل شيء)، بل المقصود كل ما ينفع بني إسرائيل من المواعظ والأحكام!

على هذا المعنى فالقرآن الذي بين أيدينا يحوي كل شيء أيضًا، بل وأكمل وأنفع. اللهم إلا أنه قد يكون أقل في تفاصيل تقرير الأحكام التي جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا فيها مجالًا للاجتهاد في أمة محمد ﷺ لم يكن موجودًا مثله عند بني إسرائيل، وهذه رحمة لا شك مهداة إلى الأمة التي ستبقى حتى آخر الزمان بكل ما يشهده آخر الزمان من تغيرات وتطورات تستدعي الاجتهاد وتستدعي عباءة الأحكام الواسعة التي تدل على أن هذه الأمة قد أوتيت بالفعل مع كل عسر يُسرَين.

١٣٦ مرة هي عدد مرات ذكر اسم نبي الله (موسى) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القرآن. ورد ذكره في ٣٤ سورة من القرآن! أي تقريبًا ثلث سور القرآن. ومع ذلك أنت لا تستطيع أن تعرف إن كان له من

الإخوة أحد غير هارون وأخته التي راقبته من بعيد. لا تستطيع أن تعرف إن كان وُلِدَ له من الأولاد أحد، أو عمّا إذا كان غنيًا أو فقيرًا. لا تستطيع أن تعرف ماذا كانت مهنته بعد أن خرج من مدين، أو ماذا كان لباسه المفضل، أو كم تزوّج من النساء.

القرآن يعلمنا إذن أن نحرص على ما ينفعنا، وأن الله يحب من الأمور معاليها ويكره سفاسفها، وأنه من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه!

❧

في الكتب التي نكتبها نحن البشر قد توجد علاقة عكسية بين كثرة التفاصيل وبين الإثارة والمتعة والتشويق. فكلما كان المقال غارقًا في التفاصيل كان هذا معناه أنه مثير للملل. ربما لهذا السبب تشيع في الأدب السياسي ظاهرة الـ **Time lapse** حين يحلل الأديب السياسي ظاهرةً ما باستخدام المرور السريع على الأحداث، بينما في علم التحليل السياسي يشيع الـ **Slow motion** أكثر، حين يقوم المحلل السياسي بالوقوف بك على نقطة زمنية ولا يتزحزح عنها عدة عشرات من الصفحات لتصاب أنت بنوبة ملل عصبية وتموت.

لا توجد هذه المفارقة قطعًا في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو يحوي كافة التفاصيل التي نحتاج إليها: ﴿**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (يوسف ١١١). في كتاب من مجلد واحد من ستُّمئة صفحة يمكنك أن تقرأه كاملًا في عدة أيام، بل ويمكنك أن تزور أصغر قرية من قرى بلدكم لتقابل الأطفال الذين لا يعرفون بعد كيف يقسمون بالعدل أربع برتقالات على اثنين، وبرغم ذلك يحفظون هذا الكتاب المعجز عن ظهر قلب، لا يتعثر لسانهم ولا تتداخل حروفه ولا تشتبه آياته على عقولهم التي لمّا تنضج بعد! وهذا لأنه: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ (القمر ١٧)!

تتميز هذه التفاصيل القرآنية بأنها يسيرة الإفضاء إلى المطلوب مباشرة! فكما يقول (فضل الرحمن) في كتابه (الإسلام)، فإن القرآن احتوى على القدر اليسير جدًا من العقيدة الكلامية النظرية، فقط الحد الأدنى الذي لا يقوم الدين بدونه. أو كما يقول ابن رشد: «الطرق الشرعية إذا تُؤمِّلت وُجدِت في الأكثر قد جمعت بين وصفين، أحدهما أن تكون يقينية. والثاني أن تكون بسيطة غير مركبَة. أعني قليلة المقدمات فتكون نتائجها قريبة من المقدمات الأُوَل». واستقى ابن رشد منهجه الاستدلالي القائم على (التدرج السلس في البراهين) من القرآن، وكان يقول عنه أنه لا يعدل بهذا المنهج الاستدلالي شيئًا.

هذه التفاصيل القرآنية تتميز أيضًا بالعزة حيث لا تظهر لأي أحد! وبمنطق شبيه بلوحات متحف اللوفر التي نراها أنا وأنت فلا نفهم ما المثير للإعجاب في هذه اللوحة التي تحوي على ما يبدو

قرصًا غير مكتمل من (الفلافل) يحيط به فطر عفن الخبز، قبل أن نسمع الخبير الفني بجانبنا يصيح بانبهار من الطريقة الموجزة التي شرحت بها هذه اللوحة أزمة الإنسان الحديث في المتطلبات الروحانية! على ما يبدو تبين أن قرص الفلافل هي عجلة الوجود وعفن الخبز كان عفنًا حقيقيًا! ربما الفرق بين موضوعنا وبين هذا المثال أنني حين أحدثك عن إجابات القرآن المخفيّة فأنا لا أحاول الاحتيال عليك بخلافهم!

لذلك قد تجد -لعجبك- أن هذه التفاصيل قد تكون داعيًا للجدال أو للكفر أو للنفور عند البعض! كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (الإسراء ٤١). ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء ٨٩). ﴿لَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف ٥٤).

فبالرغم من أنه كتاب لا يدخله الشك أو الريبة أو الاستثناءات إلا أنه لا ينتفع به حقًا أو يهتدي إلا من يستحق: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢). فالانتفاع (الكامل) بكتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يكون إلا للمؤمنين به جَلَّجَلَالُهُ!

على سبيل المثال تكثر في القرآن قصص الأنبياء التي لن ينتفع بها أحد بطبيعة الحال بقدر ما ينتفع المؤمنون، حينها يستطيعون أن يفهموا سنن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المبثوثة في هذا التاريخ المحفوظ في كتابهم المُطَهَّر. لذلك انظر إلى تخصيص المؤمنين بالنفع من القصص القرآني في آخر هذه الآية: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود ١٢٠). لأن من لا يؤمن بالقرآن سيعتبر هذه القصص من البداية ضربًا من الخيال البشري وسيتعامل معها كما نتعامل نحن مع الميثولوجيا الإغريقية التي تتحدث عن رأس ميدوسا ونهر الموتى والحصان المجنّح الوفي: مصدر تسلية فقط مع بعض منثورات الحكمة!

ولكن بهذا المنطق فجمهور القرآن سيكون من المؤمنين فقط! إذن ما تكون وظيفة القرآن؟! أليس هو المعجزة التي أوتيها النبي ﷺ؟ أليس هو كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي يسمعه الجميع فيعرف من يريد الله أن يهديه منهم أنه ليس بكلام البشر؟!

ذكرني ذلك بصورة وجدتها على الإنترنت تظهر كيسًا عملاقًا ومكتوب عليه بحروف كبيرة: سكر، ومكتوب عليه بالأسفل بخط صغير: خال من السكر! إذن ما الذي يحويه هذا الكيس الغامض؟! هل رأيت من قبل من يحذّر مرضى الحمى الروماتيزمية من تناول الأسبرين؟ أو يمنع مريض السكر من حقن الأنسولين؟ سيحوز هذا على جائزة أفشل طبيب في العصر الحديث. الدواء إنما صُنع لاستخدام المريض، فكيف تخبرني أنه لن ينتفع به؟!

بالمثل فإن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قد وصف هذا القرآن بأنه شفاء، فقال جَلَّجَلَالُهُۥ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ**﴾ (يونس ٥٧). والمريض هو أولى الناس باستخدام الترياق، فلا تخبرني أن الكافر لن ينتفع به، بل الحقيقة أنه لا يوجد ما هو أكثر نفعًا له من هذا الترياق، فكل ما سواه سيكون أقل منه، أنقص منه، أضعف بما لا يقاس، كما قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ**﴾ (المرسلات ٥٠). أي: بأي شيء آخر تراهم ينتفعون بعد هذا القرآن؟؟ الإجابة: لا شيء!

لذلك فلا عجب من أن نجد أن مهمة النبي ﷺ الدعوية تكاد تكون اقتصرت على تلاوة القرآن وتبيينه للناس! ﴿**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ**﴾ (النمل ٩١-٩٢).

ليس هذا معناه أن مجرد وقع الكلمات لها تأثير سحري على الناس، وإن كان هذا موجود بالفعل لدى الكثيرين حتى بين غير الناطقين بالعربية منهم. إلا أن حجة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على عباده لا تقوم بمجرد وصول الألفاظ المجردة، ولكن بفهمها أيضًا، فنحن لا نتحدث عن تعاويذ سحرية مثل تعاويذ التحكم في قصص هاري بوتر، وإنما عن معانٍ حكيمة تشتمل على رؤوس الحجج العقليّة والمحاجات المنطقية مُدمَجة بالأحاديث العاطفية الّتي تمس حاجة الإنسان من الداخل ويشعر بأنها تفهمه وتجيبه دون أن يسأل، ويشعر أنه مرحّب به كضيف أتى من بعيد في بيت دافئ وسط صحراء الحياة الجرداء في ليلة باردة.

في حالة القرآن فأنت تقوم مع الكافر أو الحائر أو الباحث عن الجواب (وفي هذه الحالة فإن هذا الشخص قد يكون أنت) بمهمة تهيئة جهاز المذياع المُلتَقِط لموجات الراديو، أنت لا تتدخل في هذه الموجات لتغيّرها حتى تلائم طبيعة أحد، ليس لك أن تَفعل ذلك، ولا يحق لك أن تتحرج مما جاء فيها أصلًا: ﴿**كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ**﴾ (الأعراف ٢). أنت تقوم بضبط جهاز الاستقبال للآيات الحكيمة، تشرح أنت معنىً مبهمًا، توضح لفظًا مشكلًا، تتخير من الآيات ما هو أنسب لحاله، تتخير من الحجج ما يجيب على سؤاله، ثم تترك المجال بعد ذلك لتلك المعجزة أن تقوم بأثرها. فإن كان الله يريد أن يهديه فمن تراه سيمنع عنه ذلك؟!

تقول لي: يجب أن نتحدث مع الملحد أو الحائر بالأدلة العقلية وبالمنطق والحجة. وأنا أوافق على ذلك تمامًا. كل ما في الأمر أنني وجدت أن القرآن منجم خصب مليء بكل هذه الأشياء المباركة. فتخيرتُ منها وعرضتها عليك، ثم شرحتُ لك لماذا هي جواب عقلي كامل عن أسئلتك. فإن كان لديك بقية إيمان فسوف يكون عليك أن يزداد يقينك بهذا الكتاب المعجز الذي أجابك عن

كل شيء. وأما إن كنت تعتبره كلام بشر، فما المشكلة؟ اعتبره كذلك. أنت من البداية كنتَ تفتح كتابي لتبحث عن كلام البشر!

ما سبق من الكلام يمكن أن نستخلص منه أن القرآن حجة سماعية ملزمة للمؤمن إذا قيل له: قال الله كذا، قال سمعنا وأطعنا، هذا هو ما علينا أن نتوقعه من المؤمن. وأما الكافر فلنا أن نتوقع ألّا تمثل له آيات القرآن إلزامًا في طاعته، ولكن سيبقى ما في القرآن حجة عقلية كاملة عليه هو أيضًا، وستبقى حجج القرآن العقلية مطلقة القوة والجلاء، يختبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها العباد، أيهم يستمع الهدى فيتبعه، وأيهم يتبع هواه! ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (الزمر ١٧ -١٨).

القرآن فيه تفصيل كل شيء للحائر في الجواب. فيه الهداية والإرشاد للباحث عن التقوى والرشاد. فيه الشفاء لمن به مرض عضال. فيه الكفاية للسائل عن الحجة.

أخبرني إذن.

من أنت من هؤلاء؟ وأتيت هنا تبحث عن أي شيء؟

حين يَخبُرُك الإله

(هي في الواقع مقدمة ثالثة ولكني أحاول خداعك)

"الآن المطلوب منك أن تتحدث مع هؤلاء جميعًا بحديث واحد ويصل إلى كل واحد منهم وصولًا كاملًا، ليشعر أن هذا الحديث موجه له هو دون باقي البشر. هل تقدر؟! الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالطبع يقدر"

«أجديدٌ أم قديمٌ أنا في هذا الوجود؟ هل أنا حرٌ طليقٌ أم أسيرٌ في قيود؟ هل أنا قائدُ نفسي في حياتي أم مقود؟ أتمنّى أنني أدري، ولكن.. لست أدري!

وطريقي ما طريقي، أطويلٌ أم قصير؟ وهل أنا أصعد أم أهبط فيه أم أغور؟ أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير؟ أم كلانا واقفٌ والدهر يجري؟ لستُ أدري!

أتراني قبل ما أصبحتُ إنسانا سويًا. أتراني كنت محوًا أم تراني كنت شيئًا؟ ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبديًا؟ لست أدري، ولماذا لست أدري؟ لست أدري!»

الأبيات السابقة هي جزء من (الطلاسم) لـ إيليا أبو ماضي. ذلك الشاعر الموهوب الحائر الذي ظل ينقّب في المكان الخطأ عن أجوبة أسئلته. هي في الواقع أسئلتنا كلنا ولكنه أجاد التعبير عنها في قصيدته الشهيرة، أجاد أن يخرج الحالة العائمة التي يشعر بها الإنسان حين يواجه بنفسه الضئيلة بحرًا من الحيرة والشكوك.

مثل زعيم المافيا (الحقيقي) الذي اتصل بالممثل الذي قام بتمثيل دوره في أشهر أفلام المافيا ليشكره على أدائه المشرف! حتى أن هذا الممثل يقول: «تعرفت على بعض من أعضاء المافيا الإيطاليين، وكلهم قالوا أنهم أحبوا أني أديت الدور بتحدٍّ وأنفة، وهكذا حتى اليوم عندما أكون في إيطاليا فإنني لا أستطيع أن أدفع شيكًا وإقامتي هناك تكاد تكون مجانية». حاز هذا الممثل على جائزة الأوسكار عن نفس الدور، لكنه اعتبر هذه التزكية من هؤلاء المجرمين هي أكبر جائزة وتقدير لموهبته التمثيلية!

أن تجد من يعبر عما بداخلك تمامًا أو يفهم ما تريد قوله، هذا هو الغرض الحقيقي لكل قارئ للأدب في العالم. ولعل شهرة (دستويفسكي) الروسي لا تنبع من متعة رواياته المعقدة بقدر ما تنبع من قدرته الفائقة على وصف الحالة النفسية لأشخاص رواياته، تشعر أن هذا الأديب يصل إليك بالفعل، وهي الكلمة التي يفضل النقاد الأمريكيين إطلاقها على من يعجبون بعمله الأدبي فيقولون عنه: «He gets you»!

لقد خُلقنا على هذه الحالة! مجموعة من المشاعر المعقدة المتداخلة التي تزورنا بين الحين والآخر. القليل منّا يجيدون التعبير عمّا بداخلنا وهؤلاء يصيرون أدباء، والقليل منّا يجيدون دمج هذه الحالة الشعوريّة بطبيعة الحياة من حولهم وهؤلاء يصيرون فلاسفة، والقليل منّا يجيدون فهم هذه المشاعر وتحليلها وتفكيكها وهؤلاء يصيرون علماء وأطباء نفس، والقليل منّا لا يجيد أن يسيطر على هذه الحالة المتداخلة ولا يقدر على أن يكبح جماح عقله السابح في الملكوت، وهؤلاء على الأرجح هم نزلاء الآن في أحد مراكز العلاج النفسي!

على أن أكثر الناس لا يهتمون بهذه الرفاهية! ولا يكون لديهم الوقت أو الفراغ النفسي الكافي للبحث عن الطنين النفسي الذي يعتريهم، هؤلاء هم الذين يجرون خلف لقمة العيش في جد وإصرار ولا يريدون من دنياهم إلا الكفاف، حينها ينظر هؤلاء للأصناف الأربعة السابقة نظرة استخفاف، بالتأكيد هم يفكرون أن أمهات هؤلاء تنفق عليهم فيجلسون طوال اليوم ليأكلوا اللحم ويقضوا وقتهم في الهراء!

هذا الاختلاف بين البشر ليس في ترجمة حالاتهم النفسية فقط، ولكن أيضًا في أنواع هذه الحالات! لذلك أجهد علماء النفس أنفسهم في تصنيف شخصيات البشر. خرجت نظريات تؤكد على التصنيف البيولوجي لطرائق التفكير! فقالوا لك أنك تفكر بعقلانية لأن نصف مخك الأيسر أنشط من الأيمن وزميلك يفكر بتلقائية وتحرر لأن النصف الأيمن هو الأقوى! وهذا هو السبب في كونك لا تستطيع أن تنام لأنك لم تحسم أمرك بعد في عدد الساعات الكافية لك في النوم كي يمكنك أن تواصل عملك في الغد بجد ونشاط، بينما صديقك لا يستطيع أن ينام أيضًا ولكن لأنه يريد بالفعل وبدون سبب واضح أن يتأكد من (الويكيبديا) إن كانت البطاريق لديها ركبة أم لا!

هناك نظريات أخرى تصرّ على أن البيولوجيا لا تتحكم في اختلاف الطبائع إطلاقًا وإنما البيئة هي العامل المؤثر الحقيقي على تلكم الاختلافات، حينها يمكننا أن نقسّم البشر إلى أربعة أقسام، أو ثمانية، أو ستة عشر.. إلخ. وهكذا تتوالى النظريات التي تحاول الإمساك بتصنيف مناسب للبشر، وبغض النظر عن النظرية الأصوب والأكمل فيها، فإننا في النهاية ندرك أنه مهما كثّرنا من عدد التصنيفات، يبقى البشر أكثر تعقيدًا وتنوعًا من أن تستطيع إحاطته بعدد معين من الأنواع، نحن -وعلى المستوى النفسي الوجداني - مختلفون جدًا! وهذا لأنه ببساطة كل منا يملك عالمًا كاملًا بداخل رأسه، يعرفه ويألفه ولا يتخيل له أي عالم آخر!

الآن المطلوب منك أن تتحدث مع هؤلاء جميعًا بحديث واحد ويصل إلى كل واحد منهم وصولًا كاملًا، ليشعر أن هذا الحديث موجه له هو دون باقي البشر. هل تقدر؟!

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالطبع يقدر. والأسلوب القرآني مناسب تمامًا للإجابة عن أسئلتك الوجوديّة.

تعالوا نتحدث عن عشرة أمثلة فقط كي نفهم هذا.

١ - المادّية والتجريديّة:

أظن أن أطوار عمر الإنسان من الطفولة للشباب للشيخوخة تمر على مراحل مختلفة من مقادير ونسب متفاوتة من تركيب الطبيعة المادية والتجريديّة فيه. في الأطفال مثلًا نجد أن طبيعتهم المادية مهزومة ومتهالكة أمام العاطفة، لذلك لا يرى أي طفل أنه يكذب على أبويه حين يخبرهم أن له

صديق يدعى (بهلول) وله أربعة عيون وثلاثة أرجل ويعيش معه في نفس الغرفة ولكن لا يظهر إلا له، هو في الواقع لا يكذب فعلًا، هو تخيّل وجوده، وكان هذا في نظره سببًا كافيًا جدًا لأن يؤمن أنه موجود بالفعل. في المقابل يواجه أزمة في فهم لماذا والده حزين ومكتئب لأنه ليس معه مال كافٍ للإنفاق. ما المشكلة ألا يكون مع والده مال طالما هم يحبون بعضهم البعض؟!

في مرحلة الشباب والكهولة يغلب الظهير المادي أكثر ويمسك هو بزمام الأمور ويردف أخاه التجريدي خلفه، لذلك فالعمل والإنتاج أهم بالطبع من زيارة الأهل والاطمئنان على الأقارب، ولذلك أيضًا يمكنه أن يفسد أيامه بالاكتئاب لأن راتبه ضئيل فلا يتسنى له أن يلاحظ أن ضحكة ولده الرفيعة بديعة بالفعل.

ربما تكون أكثر المراحل اتزانًا هي مرحلة الشيخوخة حيث يصير الرجل قادرًا على الاستمتاع بوقت فراغه متأملاً في هدوء في سنن هذه الحياة، لكنه لا ينسى أبدًا آلام ظهره التي تذكره باستمرار بطبيعته المادية التي تنتمي إلى هذا العالم.

ربما لهذا اعترف (برتراند راسل) أنه يُنشِئ مذهبًا فلسفيًا جديدًا كل بضعة سنوات! لقد كان -مثلنا جميعًا- يتأرجح بين حالات شعوره المختلفة.

يأتي النص القرآني ليخاطب شخصية الإنسان المادي / تجريديّة بشكل متزامن مترابط بديع! كما يقول مثلًا جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى ٣٢ -٣٤). جعلتك الآية تفكر في أن جريان السفن بفعل الريح هو ما جعلك تعبر طرفي الأطلسي في أمان وسرعة، هناك قائمة كبيرة من القوانين الفيزيائية المادية تمامًا تفكر فيها الآن! قانون الطفو الذي جعل الماء يتحمل كل هذا الثقل على ظهره لأنه قد أزاح كمية ماء مساوية! قانون الجاذبية الذي جعله يستقر على ظهره أصلًا بدلًا من أن يتابع رحلته إلى (الأتموسفير)! قانون الحركة، ودوران الرياح بفعل اختلاف المناطق المناخية، والقصور الذاتي، والديناميكا الحرارية، وبقاء الطاقة.. إلخ

أنت حينها شعرت بتعظيم الله عز وجل، تعظيم قدرته على خلق كل هذا الكون المتوازن، تعظيم ربوبيته الذي جعل الطبيعة تنحني رغمًا عنها بالقوانين التي افترضها خالقها عليها، وتعظيم حكمته حين خلق الأشياء فأحب أن يجعل لكل شيء منها سببًا!

وقبل أن تنتهي الآيات تنبّه الجزء العاطفي بداخلك أن الله الذي خلق هذه الأشياء وأجرى هذه القوانين، قادر تمامًا على إيقاف كل هذه القوانين وتعطيلها أو عكسها، أو أن يُجري عليها لائحة أخرى من القوانين التي لن تكون في صالحك. فتظل راكدًا على ظهر البحر، أو تغَرق إلى القاع بسبب ذنوبك التي ما تبت منها ولا استغفرت.

أنت حينها شعرت بالخوف من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، شعرت بالرهبة من مقامه، شعرت بإجلال عظمته، شعرت بالامتنان والشكر للإله الحليم الذي يعلم ما فعلتَه البارحة وبرغم ذلك جعلك تمرّ بسلام.

لقد تم الأمر بنجاح إذن! تم حث هذا الإنسان على التفكير باستخدام شقّي طبيعته المختلفين بعد أن تعلما أخيرًا في ظل النص القرآني كيف يفكرا معاً ليصلا إلى نفس النتيجة: الافتقار إلى الله!

٢ - فقط، انظر بجانبك:

لا توجد إعلانات تليفزيونية لسيارة الـ (لامبورجيني)، وذلك لأن هؤلاء الذين يستطيعون أن يتحملوا ثمنها لا يجلسون أمام التلفاز! وأما لو سألت، فكيف يقومون بالدعاية لمنتجهم، فدعني أسألك: وهل تحتاج اللامبورجيني إلى الدعاية؟

وبالمثل، تفتخر شركات أخرى مثل شركة (رولز رويس) للسيارات وشركة (زارا) للملابس أنهم قد وصلوا إلى مرحلة شهرة وموثوقيّة لا يحتاجون معها إلى الدعاية أيضًا! ومن ثمّ لا تقوم هذه الشركات بأي دعاية لمنتجاتها، بمنطق: ومن الذي يحتاج إلى أن يقنعه أحد بأن يشتري من (زارا)؟!

فكرتُ في هذا حين لاحظت أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد أنزل القرآن على البدوي العربي القابع في صحرائه فلم يقل له: لعلمك هناك مجرة وهناك ذرّة، ولكنك لا تدري! هناك عالم خفي تمامًا عنك، هناك معجزات في الخلق لا يمكنك أن تتخيلها!

لا، لا يحتاج الإله حين يتكلم إلى هذا! يستطيع أن يبهر هذا العربي تمامًا من واقع صحرائه وأنعامه وخيامه، لا يحتاج إلى أن ينظر إلى ما وراء زمنه وكأنه لا توجد معجزات كافية في زمنه! لا يحتاج إلى أن يقدّر قدرة الله في مخلوقات بعيدة تمامًا عنه مكانًا وزمانًا، وكأن ما خلقه الله من حوله غير كافٍ!

يعتاد الناس على المعجزات كما يعتادون على النعم. نرى سقوط شهاب من السماء أمرًا مثيرًا، ولكننا لا نلحظ أن بقاء القمر في صفحة السماء دائمًا هو أشد إثارة! لذلك تجد الكثير من عبارات القرآن تذكرنا بالآيات المعتادة: الشمس، القمر، الليل، النهار، ماء المطر، تربة الأرض، أو جمال حُمرة طلع النخيل!

لذلك كان ما قاله الله جَلَّجَلَالُهُ لهذا العربي القديم: فقط، انظر بجانبك! ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾ (الغاشية ١٧ -٢٠).

وحين أراد الله جَلَّجَلَالُهُ أن يجعله يعتبر بمن سبقه لم يقص عليه القصص التي لا ندري عنها شيئًا والخاصة بالأنبياء الذين أرسلوا إلى أستراليا أو النبي الذي بُعِثَ في الهنود الحمر. بل حدّثه عن القوم الذين كانوا يسكنون المساكن التي يسكنها الآن، الذين تبلغ ديارهم مسافة عدة أيام من داره، الذين يمر على آثارهم في أسفاره: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۞ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۞ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۞ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الصافات ١٣٣ -١٣٨). ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (إبراهيم ٤٥).

لماذا؟؟

لأن الإله لا يحتاج إلى أن يتفاخر بما لا يعلمه هذا الأعرابي ولا يبلغ عقله. بل كل خلقه معجز، كل عقابه شديد، كل سننه ماضية، كل عِبَرِه مبكية! فقط، انظر بجانبك!

٣ - الرمزيّة:

جرّب أن تبحث في أي محرك بحثي عن صورة بعنوان (work)، ستظهر لك آلاف الصور. ولأن خوارزميّة البحث تقضي بأن تأتيك النتائج بكل الصور المتعلقة بالكلمة المبحوث عنها، فإنك ستجد هذه الصور مختلفة جدًا ومتباينة. قد تجد مكتب عمل، أو مجموعة من الأشخاص يمثلون شركاء العمل، أو شاب يبتسم بسماجة ويمثّل زميل العمل، أو ورقة عليها خطة عمل، أو إضراب قام به مجموعة من الأشخاص احتجاجًا على قواعد العمل.. إلخ

جرّب بعدها أن تبحث في نفس المحرك البحثي عن صورة بعنوان (work symbol)، ستظهر لك صور أقل بكثير في العدد وفي التباين، معظم هذه الصور ستكون صورة أيقونيّة تمثل شخصًا بلا وجه يلبس قبعة عمل واقية، أو يمسك حقيبة، أو تجد صورة ترسين متقاطعين، أو لافتة الطريق التي تقول احذر منطقة عمل.. إلخ

الرمزيّة تقوم باختزال المعنى في أقل حجم ممكن، تعطيك الصورة التي تصلح بمفردها على إيصال المعنى المطلوب، وتنجح في إشعارك بكل التجريديات والمفردات التي تقبع خلفها.

ولأننا اعتدنا معشر البشر على الشعور بهذه الرمزيّة وفهمها في حياتنا اليومية، ولأننا نفهمها أسرع ونتفق عليها أكثر، تجد القرآن يحوي عددًا لا بأس به من الصور الرمزيّة التي تجدها تعبر عن الكثير من الكلمات والمعاني في صورة صغيرة.

على سبيل المثال اقرأ قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ (الأنبياء ١٠٤). لا بد أنك تخيّلت ناطحات سحاب نيويورك ومصانع طوكيو

وجامعات هارفارد وكامبريدج وكل رموز الحضارة المادية الحالية، وهي تُطوى بعد أن دُمّرت! لا بد أنك تخيّلت المرأة الجميلة التي تكاد تفتنك، والهاتف الذكي ذا السبعة آلاف، والسيارة الفارهة التي تجسّد حلم حياتك وهي يتم طيّها! لا بد أنك تخيلت الأحقاد والضغائن والخلافات والتكبر والغرور والكذب والخيانة وهي يتم طيها! لا بد أنك تخيلت التعب والحزن والألم وابتلاء الدنيا وحرقة فوات لذة المعصية ومشقة الطاعة وهي يتم طيها!

صورة رمزيّة تعني أن الحياة بأكملها صارت ماضيًا متهالكًا، انتهى من دون رجعة، وانتهت معه الكثير من الأشياء التي تعد الآن هامة، ولكنك تعلم كقارئ للقرآن أنه سيتم طيّها!

خذ عندك مثالًا آخر، في قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ**﴾ (القمر ٣١). يتكلم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن الحال التي صار عليها قوم ثمود بعد ما أنزل الله عليهم العذاب. صاروا مثل بقايا الحشائش الجافة التي تهشمت من دهس أقدام الراعي لها حين احتظر ماشيته في المكان! صورة رمزيّة فائقة الجمال تجعلك في كل مرة تدوس فيها على حشائش جافة أن تتذكر ثمود الذين جابوا الصخر بالواد!

كمثال ثالث، تأمل قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ۝ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (المائدة ٣١-٣٢).

لا تحاول إقناعي أن عقلك الآن لا يحوي صورة ابن آدم المسجى على الأرض بدمائه وبجانبه أخيه يبكي على صخرة مغطيًا وجهه في ندم، ثم يقوم ويحاول أن يقلّد الغراب في دفنه لأول قتيل في تاريخ البشريّة، بينما تتجلى في الأفق الآية الكريمة التي تخبرك أن من قتل نفسًا فكأنما قتل كل الناس! هذه صورة ذهنيّة رمزيّة قويّة للغاية، اختزلت عدة صفحات في علوم النفس والاجتماع والقيم، تشرّبها ذهنك بسهولة ويسر حينما تكلم الإله!

٤ - كما يحب أن يقولها:

هناك قصة قديمة لرجل ادّعى أنه يقرأ عقول الناس ويعرف ما الذي يفكرون به، نظر له الناس من حوله بريبة وشك ثم قال له أحدهم: إذن أخبرني لو كنت صادقًا فيمَ أفكر الآن. قال له: تفكر أني محتال!

هذا رجل لا يقرأ عقول الناس ولكنه عبقري بالتأكيد! ذكّرني بنبوءات (حظك اليوم) المثيرة للغثيان التي تخبرك أنك برج (الجدي) لذلك عليك أن تتوقع اليوم (خبرًا سعيدًا ولكن يصيبك

بالتوتر). بينما زوجتك برج (القوس) فعليها أن تحذر من (استغلال أدعياء المحبة المحيطين بها). ستجد في النهاية أن هذا وذاك ينطبقان عليكما معًا في النهاية، وأنهما ينطبقان على كل شيء في الحياة، هو نوع من الشرك بالله الذي وحده يعلم ما في الغيوب، وضرب من ضروب الاحتيال السخيف الذي يستحقه كل من يظن أن كرات غازيّة عملاقة متناثرة في الفضاء تتحكم بمصيره على الأرض!

ولكن في حالة القرآن فإنه بالفعل يقرؤك. إذ إنه كلمة من قام بإنشائك. ﴿**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ (الملك ١٣ -١٤).

حين تراقب الكثير من الإعجابات على تعليقٍ ما على أحد مواقع التواصل الاجتماعي، فأنت حينها تعاصر خبرة بشريّة شهيرة اسمها الكوديّ: (كانت على طرف لساني)، أن تجد من يقول ما تودّ قوله كما تريد أن تقوله! بل وأحيانًا كثيرة أفضل حتى مما كنت ستقوله.

في قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ (الأعراف ١٧٣). يتحدث الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن الشبهة التي سيرددها بنو آدم يوم القيامة لو لم يكن قد أخذ الله عليهم الميثاق، كانوا سيقولون لقد وُلِدنا على الشرك، آباؤنا هم المخطئون وليس نحن!

تشعر أنه لم يكن سيخطر على ذهنهم أن يصيغوها بهذه الصيغة، هذه صياغة ممتازة جدًا، كما يريد الكافر صاحب هذه الشبهة أن يقولها تمامًا. ثم تُفاجأ بأن هذه الشبهة ذات الصياغة الممتازة ليست فقط مردودة يوم القيامة، ولكنها مردودة في الدنيا وفي الكتاب الذي بين يديك نفسه، أي أنها أفضل ما يمكنهم قوله من شبهات، وهي خائبة تمامًا ولا تصمد أمام حجة الله القائمة عليهم!

وعند العذاب والعياذ بالله يقولون: ﴿**رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾ (المؤمنون ١٠٦ -١٠٧). من جديد، كما يودّ أي واحد منهم أن يقولها، هذا هو تمامًا ما يتخيل أنه كبشري اعتاد طوال حياته أن يعتذر للناس بـ (غصبًا عني) و (أنا آسف لن أعود) ستكون هذه الجملة بهذه الصياغة تمامًا ما يودّ قوله! ولكنه يتحسّر ويخاف ويتوجع لو علم أن رد الله عليه حينها سيكون: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ (المؤمنون ١٠٨)! خيبة الأمل الكاملة حين يعلم أن أفضل حججه لم تأتِ بأي نتيجة. حينها تتذكر أنت أنك في الدنيا متروك للعمل والاختيار، بينما يوم القيامة لا يوجد إلا الحساب على ما سبق تقديمه من العمل، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عن ذلك اليوم أنه: ﴿**لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**﴾ (النحل ٨٤). !

٥ - الأجزاء الصغيرة:

من الصعب تحديد ما هو أبلغ ما قاله شعراء العرب، على أن معلّقة امرؤ القيس من ضمن المرشّحات لذلك بالتأكيد، تلك التي تبدأ بالبيت الشهير:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ.. بسقط اللوى بين الدخول فحوْملِ..

هذا رجل قد هام حبًا بحبيبته، بمنطق: إذا كان يحفظ العنوان التفصيلي للبيت الذي كانت تسكنه، فما بالك بما هو أهم من ذلك وأعظم؟!

يشيع هذا المنطق لدينا ويعرفه كل واحد منّا حين يقال له: (فلان يحضّر الدكتوراه في لبن العصفور). فما دام يعرف في لبن العصفور فلا بد أنه يعرف إذن كل شيء!

حين يحدثنا القرآن عن مثل هذه الأجزاء الصغيرة فإنه لا شك يترك المجال لخيالنا البشري -وما أوسع الخيال- لتخيّل ما أكبر منه من الأجزاء. وما خفي كان أعظم.

مثلًا يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام ١٣). وهو هنا يوجّه فكرك إلى امتلاك الله وإحاطته لتلك الأشياء الساكنة الخفية الصغيرة في الليل، مثل دبيب أقدام النمل على رمال الصحراء، أو حفيف أوراق الشجر اليابس في غابة مهملة على حدود سيبريا. فما بالك بامتلاكه لما يتحرك في وضح النهار، لما هو أظهر لأعيننا ووعينا؟!

ويقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ (فصلت ٤٧). حينها لا تتساءل عمّا هو أكبر من ذلك، تقلبات الأمم، ونزوات الأفراد، وغلبات الشهوات، وتضرعات الليل. كل ذلك كان أظهر وأسهل في أن يعمله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من علمه لتلك الثمرات التي تخرج من قشرتها!

وفي مجال الإنعام والفضل والتكرّم من الخالق، فحين تسمع قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (التين ١). تفكر في كرم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي يذكرك بفضله في خلق هذا النبات البسيط وتلك الفاكهة الصغيرة حلوة المذاق والتي لو لم تكن موجودة لما أثّر ذلك على حياتك المادية ولا وجودك في شيء. ولكن منّ الله عليك بها لأنه هو الأكرم الذي يعطي بسبب وبلا سبب، يعطي من يستحق ومن لا يستحق، يعطيك ما تحتاجه وما لا تحتاجه! حينها تتذكر كرم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ما هو أكبر من التين ومن الزيتون. وهذا كثير لا يحصى!

أجزاء صغيرة نبهك القرآن إليها لتنظر إلى الصورة الأكبر والأشمل من باب الأولى، حينها يصل لك الجواب في نفسك بشكل أضخم بكثير مما قيل في اللفظ بالفعل! وتصل إلى الجواب عن سؤالك بشكل أوضح مما كان يبدو ظاهرًا على هذه الآية أو تلك!

٦ - مقياس الواقع:

في اللحظات التي تستيقظ فيها من نومك في الصباح تمرّ بمرحلة من حياتك أحب أن أسميها: (الدَهْوَلة)! أنت لا تعلم من أنت ولا ما أنت؟ هل أنا جزء منفصل عن السرير الذي أنام عليه؟؟ نعم بدأت أتذكر، أنا كائن مستقل له وجود منفصل! ثم من هي هذه المرأة التي توقظك والتي لم ترها من قبل في حياتك؟ هي تصرّ على أنها أمك منذ فترة لا بأس بها من الزمن!

تنظر لها بعينين حمراوين كالبنجر محاولًا أن تتذكر ما كانت خطة (تيمور لانك) في محاربة (دارث فيدر) على ظهر (الفيل دامبو) قبل أن تدرك أن هذا كله حلم متخلّف، وأن هذه هي أمك بالفعل! وتبدأ حواسك كلها في العودة ببطء لتدرك أنك تحتاج إلى ملء معدتك وإفراغ مثانتك ومطّ عضلاتك!

على مائدة الإفطار، تعال نحلل ظاهرة (الدَهْوَلَة) هذه. أنت كنت في حالة هلامية غير مفهومة، عالم الأحلام والسبات النومي الذي هو انقطاع بحق عن الحياة التي اعتدناها. طوال حياتي كنت أسخر من كُتّاب الروايات الذين يجعلون بطل روايتهم يحاول التأكد إن كان هو في حلم أم حقيقة، ويضيّع الأحمق نصف الرواية في محاولة التفكير في هذا اللغز بينما لا أحد يخلط في يقظته بين الحقيقة والحلم حقًا إلا لو كان مصابًا بـ **Delirium** كامل!

أنت في واقعك تشعر بالموجودات كلها حولك وتشعر بنفسك لتدرك أن هذا كله حقيقي تمامًا، وهو الفرق بين الحالة التي أنت فيها الآن تستمتع بأكل لقيمات البيض المقليّ وبين الحالة التي كنت فيها تطير فوق فيل مكتنز كبير الأذنين لتشارك في حرب النجوم.

الحالة الواقعية التي تَخبُرُها الآن مميزة تمامًا تجعلك تفصل بين الحلم واليقظة، بين المرض والصحة. هي الأساس الواقعي الذي تقيس عليه كل ما سواه إن كان واقعيًا أم لا.

فالقرآن كما اعتدنا يفهمك وتفهمه حين يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ**﴾ (الذرايات ٢٣). أي أن ما نعدكم به من الحياة الآخرة، لا شك فيه، سيكون الأمر حقيقيًا تمامًا وواقعيًا بشدة كمثل يقينكم في أنكم تنطقون الآن وتتكلمون! كمثل ثقتكم في حواسكم التي تشعركم بأنكم موجودون في هذا العالم. أليست هذه اللغة التي نتحدث بها؟ أليس هذا هو الذي نقيس عليه واقعيّة الأمور؟

٧ - البلاغة التي ننتظرها:

لا يوجد من يعقّد الفن مثل هؤلاء الذين يحاولون تقعيده ! مثلًا حين تشاهد لوحة جميلة مريحة للعين والأعصاب، فهذا منظر جميل، لقد صنعها الفنان ليبهجني وحصل على مبتغاه، وانتهت القصة عند هذا الحد، تصبحون على خير. لكن يصر واحد من هؤلاء على أن يذكرك بأن هذه اللوحة رُسِمَت في العصر كذا والذي كان لا يؤمن بـ كذا. لذلك فهي تعبر عن بلابلابلابلا. أكاد أجزم أن ذَلك الذي رسمها لم يكن يعلم كل ذلك، لقد رسمها من أجل أن يبيعها ليطعم أولاده، وهذه البقعة لا تمثل إيمانه بالبوهيمية وإنما كانت بقعة زيت من بقايا البطاطس أيها البائس! من فضلك دعنا نستمتع بهدوء، لقد عقّدتم الحياة بأكملها، وترفضون أن تتركوا لنا بقعة واحدة هادئة بسيطة.

بالمثل لا أذكر أني استمتعت أبدًا بدروس (تاريخ الأدب) في الثانوية العامة، شعر (البحتري) رائع حين تقرؤه عل فراشك في ليلة ممطرة، لكنه يتحول إلى كتلة من التعاسة في رأيي حين يندمج بتاريخ الدولة العباسية والصراعات السياسية التي أثرت عليه وتظهر آثارها في قصيدة وصف الربيع . لماذا تكرهني؟!

مثلما كان (علي عزت بيجوفيتش) يقول: «لو قرأنا شرحًا للوحة، سنلاحظ مفارقة غريبة: شرح معقد وعقلاني للغاية في مقابل بساطة اللوحة وسذاجتها أحيانًا. لا يمكن تفسير أي لوحة، والطريقة الوحيدة لفهم أي لوحة هي أن نشاهدها».

بالطبع لا أُقلّل قيمة الدراسة الأكاديميّة للفنّ، ولا النقد الأدبي التاريخي، هي بالطبع علوم محترمة ولها مريدوها، ولكن من منظوري أنا الشخصي لا أستمتع بهما قدر استمتاعي بالفن أو بالأدب نفسه! ولربما السبب الوحيد الذي يجعلني كذلك هو أنني غير خبير بهذه الأمور، فالمرء عدو ما يجهل، ولا أرى سببًا يجعل هذا لا ينطبق عليّ.

الفن شعبي في قاعدة جماهيره، يفهمه الجميع . و(الحد الأدنى) من تذوّق البلاغة قد لا يحتاج بالضرورة إلى شاعر ولا إلى لغوي ولا إلى فصيح، وبالتأكيد لا يحتاج إلى مؤرخ أو أكاديمي. البلاغة مخلوق في الإنسان جهاز استقبال لها يعرفها وهي قادمة ويهشّ لها ويبشّ، وترحل وهو قد تم إطرابه وإنعاشه. وربما لهذا اعتاد الشعراء أن يحتلوا الجهاز الإعلامي كله بين العامة من الناس في العصور الوسطى والقديمة، انحسر هذا الدور الآن عنهم وتخلوا عنه للأفلام الهوليودية التي بالتأكيد ستتفوق عليهم في سحر مؤثراتها الآخذة.

المحسنات البديعية والجناس والاختصار والقصر والتقديم والتأخير والتشبيهات البلاغية والصور والقوافي يعشقها الناس جميعًا، خصوصًا هؤلاء الذين يعشقونها من دون أن يعلموا أن اسمها المحسنات البديعية! يمكنك أن تختبر ذلك بالنظر إلى القصائد والأغاني الهابطة التي تشتهر وسط العوام لترى أنها مليئة بالقوافي، والتقطيعات الموسيقية للألفاظ!

ولأن القرآن قد نزل ليخاطب الناس على اختلاف مشاربهم، تجده أبلغ ما يكون حتى يوافق حبهم لهذه البلاغة، ولأن الذي خلقهم يعلم ذلك: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (التكوير ١٥ -١٨). ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (الانشقاق ١٦ -١٩).

لم يتكلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالقرآن بشكل بلاغي لأنه يحتاج إلى ذلك، أو لأن التقسيمات الموسيقية للعبارات تُغير من مدى اتصاف كلام ما بالحق أو الباطل! بل لأن هذا مما يوافق الطبيعة التي خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها الناس، وبنفس الطريقة التي اختار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها القرآن باللغة العربية حين نزل على العرب، هذا غير أن البلاغة من أعمدة اللغة العربية بالمناسبة، وهذه لغة عمالقة الشعر العربي الذين نزل القرآن يتحداهم

٨ - قشعريرة متقطّعة:

لو كنت تسكن في مدينة ساحلية وكنت تقرأ هذا الكتاب في وقت الصيف فعليك أن تذهب إلى البحر الآن لتراقب الأطفال وهم يلعبون بطائراتهم الورقيّة. انظر إلى هذه الطائرة، لماذا لا تسقط على الأرض؟! هذا لأن قوة الرياح ومقاومة الهواء كانا أكبر في حالتها من قوة الجاذبية، بينما الرياح لا تستطيع أن تحمل جسدك ذا الثمانين كيلو جرامًا بهذه السهولة، في حالتك فقوة الجاذبية أكبر. لكنك بالطبع لا تسكن في مدينة ساحليّة لأن الحياة ليست بهذا السخاء، وعلى الأرجح تقرأ هذا الكلام في الشتاء، لذلك انس كل شيء قلته!

حين نشاهد الموجودات من حولنا في الحياة نلاحظ أن ثبات هذه الموجودات إنما يكون بفعل التوازن بين قوتين مختلفتين، الأرض تحب أن تطيش لتصطدم بالزهرة وتهلكنا جميعًا، لكن قوة الطرد المركزية الناتجة عن دورانها حول الشمس تمنعها من ذلك، وهي أيضًا تحب أن تحتضن المريخ من آن لآخر، إلا أن قوة جاذبية الشمس لها لا تسمح! وبالمثل فإن كل خلية من أجسادنا تحتفظ بمقدار ثابت من المياه بداخلها في الحالات الطبيعية لأن تركيز الأملاح بها متناسب ومتوازن مع تركيز الأملاح خارجها، أعدك أنه حين يحدث اختلال في هذا فأنت ستزور الطبيب الباطني قريبًا. عافاني الله وإياك من كل سوء.

حين تقرأ القرآن فإنك تجد تأرجحًا دائمًا في حالتك الشعوريّة بين الإحساس بالتهديد والاطمئنان. والجمع بينهما عسير عمومًا حين تتعامل مع واحد من البشر له صفات ناقصة فيغلب عليه إما الشدة أو اللين، أما مع الإله فإن رحمته كاملة وكذلك عزته، هو حليم إلى أقصى درجة قد تتخيلها وأعلى من ذلك، وإن عذابه شديد إلى درجة لا يتحملها بشر!

هذا التأرجح الشعوري يصفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه فيقول: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ (الزمر ٢٣).

إن المؤمن الكامل إيمانه يفترض أن يصاب بقشعريرة حين يسمع آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتهديد الذي يملأها، إنها قشعريرة حقيقية كتلك التي يصاب بها جلدك حين يفاجئك قط مذعور يجري نحوك في فناء بيتكم المظلم في ليل ساكن. لكن ما أن تكمل سماع آيات الكتاب الحكيم حتى يتم استبدال هذه القشعريرة بلين كامل واطمئنان نفسي هادئ كذلك الذي تشعر به مع نسمات الصباح الدافئة والشمس المنيرة وحركة الناس إلى أعمالهم بعد أن قضيت ليلة سوداء مع رواية رعب بارعة قرأتها وأنت تسكن في البيت وحدك بدون سبب واضح. كل شيء على ما يرام، الحياة هادئة وساكنة!

ينبع هذا التردد الشعوري من الطريقة المتداخلة التي تصف بها الآيات العذاب والنعيم معًا، يمكنك أن تعود إلى رشدك وتتوب من ذنبك فتحصل على هذا النعيم، ويمكنك أن تتمادى في ضلالك فتقع في هذا العذاب! آيات مثل قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۝ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ۝ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ۝ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ**﴾ (ص ٤٩ -٥٨).

أو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۝ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۝ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾ (الدخان ٤٣ -٥٦).

لكني أراك تسأل عن دخل هذا في أمر جواب القرآن عن أسئلتك!!

في الحقيقة أن هذا التردد الشعوري وهذه القشعريرة المتقطعة تنقلك باستمرار بين حالتيْ الترغيب والترهيب، يبقيك هذا في موضعك دون أن تطيش نحو اليمين أو الشمال، وبنفس الطريقة التي تبقى فيها الأشياء حين يؤثر عليها قوتان متضادتان في الاتجاه متساويتان في القوة! أنت في هذه الحالة أكثر اتزانًا وعقلًا واستيعابًا لحقائق الوجود.

أنت في هذه الحالة لا يغلب عليك اليأس العدمي (النيتشَوي) إياه، ولا يغلب عليك المرح البوهيمي المنحلّ، أنت تشعر بالخوف من أن تضيع حياتكَ فيَ الاتجاه الخاطيء، وتشعر بالأمل لكونك تدرك أن هناك أصلًا اتجاه صحيح.

هذا يدفعك ليس فقط لتقبّل الإجابات التي يلقيها القرآن في نفسك عن أسئلتك وتصديقها، ولكنه أيضًا يفتح لك المزيد من هذه الأسئلة!

٩ - الثنائيّات الداعمة:

في القرآن نجد عددًا لا بأس به من الثنائيات الداعمة، تدعم أحدها الآخر، فيكفي أن تتأمل في صحته حتى توقن بصحة أخيه!

كمثال على ذلك دعونا نتأمل هذه الآيات: ﴿**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا**﴾ (النبأ ١ -١٧).

بدأت الآيات باستنكار سؤالهم عن البعث، ثم مرت على بعض ملامح الخلق في الكون ثم انتهت بالتأكيد على البعث! ما العلاقة؟! إنها الثنائية الداعمة التي تخبرك أنه لكي تؤمن بوجود غيب لا تراه، لكي تؤمن بوجود شيء لا تدركه الآن، لكي تستدل على حدوث أمر جلل أنت لا تتخيل كيفية حدوثه. فعليك إذن أن تأخذ جولة في هذا الكون الفسيح لتتأمل في رفاهية الأرض وصلاحيتها للحياة، وفي تشييد الجبال ووظيفتها المحكمة، وفي الطريقة التي اختارها الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لبقاء النسل، والطريقة التي اختارها لتجديد الطاقة الإنسانية، والطريقة التي اختارها لتقسيم الزمان وتوزيع الأدوار عليها، وفي السماوات البعيدة، والشمس المانحة للحياة، والسحاب المحمّل بالرزق، والأرض الموزّعة للطعام، والمناظر البهيجة للجنات الملتفة.

هل انتهيت من جولتك؟؟

إذن أخبرنا، هل الذي فعل كل هذا يعجز عن البعث؟! لا، إذن فالبعث في أقل أحواله أنه مُحتَمل. ثم أخبرنا، هل يمكن أن يكون كل هذا من قبيل العبث وتزجية الفراغ والعياذ بالله؟! لا، إذن فالبعث منطقي ومفهوم، وغير مُستغرَب إلى هذا الحد.

ماذا كانت العلاقة بين السحب الكثيفة في السماء وبين اليقين في أن يوم الفصل كان ميقاتًا؟؟ إنها الثنائية الداعمة التي جعلتك تنظر إلى خلق الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في الوجود فارتبطت نفسك ليس فقط بقدرة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وليس فقط بجماله سبحانه، وليس فقط بإتقانه وإحسان خلقه، ولكن أيضًا بخبرة الله وحكمته الذي لا يخلق خلقًا عبثًا، ولا يتركهم من بعد ذلك سدًى!

١٠ - حديث من المتعال:

روى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إنكم تفعلون أفضل العبادة: التواضع». وقال يوسف بن أسباط: «يجزي قليل التواضع عن كثير الاجتهاد». وقال ابن السمّاك لعيسى بن موسى: «تواضعك في شرفك خيرٌ لك من شرفك»! ويقول سينيكا: «التواضع يمنع ما يبيحه القانون». وقالوا لـ تشرشل: فلان متواضع، فقال: «إنه لديه الكثير مما يتواضع بسببه»! بينما كان رد جولدا مائير على موقف مشابه: «إنه ليس هامًّا أصلًا كي يتواضع»!

في موقع الإنسان من الإله، ربما تكون كلمة جولدا مائير هي الأنسب: أنت لست هامًّا أصلًا كي تتواضع! لذا فحين تقرأ القرآن تشعر بحديث استعلائي استغنائي من الدرجة الأولى! صاحب هذا الكلام لن ينزل عن إرادته قيد أنملة من أجل أي واحد منّا! لن يقرر إنزال آية فقط لأن أحدنا طلبها! لن يعجّل أو يؤجّل قدرًا قدّره لأننا نريد ذلك!

يظهر هذا الخطاب الاستعلائي في بعض آية موجزة: ﴿**فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**﴾ (النساء ١٥٣). كلمات يسيرة تتمتمها بلسانك ثم تسارع بعدها إلى الأخذ بطرف ثوبك وتعتدل في جلستك خوفًا وهيبةً وإجلالًا.

يظهر أيضًا في نبرة الاستغناء الواضحة والمتكررة في هذا الكتاب، فيقول مثلًا جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا**﴾ (الإسراء ١٠٧). ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ (الكهف ٢٩). هذا منطقي إذ إننا أقل من الهباء في ملكوت الرب، لا يكاد يبالي بنا: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**﴾ (الفرقان ٧٧)!

يظهر أيضًا من خلال بعض الشبهات التي يقولها الكفار بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ثم لا يُرد عليها في هذا السياق، ربما لأنها أسخف من اللازم مثل قولهم: ﴿**رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ**﴾ (ص ١٦). أي: عجل لنا عذابنا في الدنيا حتى نصدق أنه يوجد عذاب في الآخرة! مستوى متدنٍّ للغاية من الـ I.Q ! فأغفلهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وكانت الآية التي تليها: ﴿**اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ (ص ١٧). فلنستمع إذن قصة القرآن عن داوود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ولندع هؤلاء السفهاء!

على أن أكبر ما يظهر فيه العلوّ من كلام الكبير المتعال أن في بعض الآيات تشعر أنه لا يمكن إلا أن يكون صادرًا إلا من عند ملك الأكوان! حين تسمع مثلًا قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۞ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**﴾ (الرعد ١٢ -١٣).

فالنظرة المعتادة التي ينظر بها البشر -وخصوصًا هؤلاء الذين عاشوا في عصر ما قبل الثورة العلمية- إلى البرق والرعد والملائكة كانت نظرة الإجلال والخوف والرهبة. لا عجب إذن من

أن الإغريق قد جعلوا كعادتهم إلهًا للرعد والبرق، وجعل وثنيّو العرب الملائكةَ بناتَ الله، وجعل النصارى واحدًا من هذه الملائكة (الروح القدس) أقنومًا من أقانيم الإله!

كل هؤلاء تأثروا بالنظرة المرتاعة المعتادة من البشر لهذه القوى العاتية. بينما المتعال يتحدث عنها باعتبارها أشياء منكسرة لسيدها، تعظّمه وتخاف منه وتصطف مع باقي جنوده ساعيةً في خدمته وإمرار إرادته.

لحظة! لا تشرد مني من فضلك. أنا هنا لا أتحدث عن إثبات أن القرآن هو من عند الله. ولا أعدد في أوجه بلاغة القرآن. أنا أتحدث عن نقطة معينة: كيف حين تحدث القرآن أثبت لنا أنه يفهمنا أكثر مما نفهم أنفسنا، وأنه أنسب من يمكن أن يجيبنا عن أسئلتنا الوجودية.

فالنبرة الاستعلائية المستغنية في القرآن قد ناسبت تمامًا طبيعتنا البشرية. حين يقف القرآن أمامنا كمعلم حكيم يصبر على سخافات جهلنا ويملي علينا الصواب بطريقة يقينية أكيدة حاسمة منهية لطريق حيرتنا الطويل، فالـ (شكّية) لا تصلح كمنهاج حياة. نحتاج إلى إجابات حاسمة قطعية تريحنا من عناء الريبة.

كما كان (مونتيني) وبعد أن أدرك هشاشة عقله، يفضل أن يتّبع شيئًا ما على أن يبدع شكًا جديدًا! كما كان (ترِنتيُوس) يقول: «حين يكون العقل في ارتياب، فإن أخفّ شيء يرجح الميزان».

نحن الذين نبحث عن أخفّ شيء! نحن الذين قابلنا في حياتنا الكثير من عدم التأكد، نحن الذين غرقنا في النسبية حتى النخاع، نحن الذين سئمنا من أنصاف الإجابات المرتعشة، يعطينا القرآن هدية اليقين!

ها قد انتهيت أخيرًا من الثرثرة ومن تعداد الأمثلة!

عشرة نقاط حاولتُ من خلالها إقناعك أن أسلوب القرآن في إجابة أسئلتك ملائم لك -أنت الإنسان- تمامًا، وكأن هذا تفصيل وتدقيق من علام الغيوب. ولا عجب فهو ﴿**لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ (الأعراف ٥٤). ولا عجب فهو الذي قال: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ (هود ١). ولا عجب فهو الذي قال عن المعتصمين بهذا القرآن: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾ (النساء ١٧٥).

عن أسئلتك الوجودية

(كنتُ أود مصارحتك أنها مقدمة رابعة، ولكني أثرتُ مللك للأسف)

"القرآن يعدك بنهاية حيرتك الإنسانية، بقبس النور الذي سوف يطل على مدقّات روحك المظلمة، بجذوة النار التي سوف تلتهم زوائدك الفكرية، يعدك بأن تصبح في حكمة الكاهن البرهمي، وسعادة المرأة العجوز!"

«إننا نبكي عندما نولد، لا عندما نموت» كذا قال الأمريكي (توماس بيلي ألدريتش) معبرًا عن معاناة الوجود وعذابات الأسئلة وضيق سجن الحيرة. ولكن في حالة الكاهن البرهمي الذي قابله فولتير، فهو قد تمنى ألا يكون قد وُلِدَ من الأساس!

لما سأله فولتير عن سبب هذا الإحباط أخبره أنه منذ أربعين سنة يعتقد أنه مُركّب من المادة ولكن لا يستطيع أن يقنع نفسه بحقيقة ذلك. فلما سأل فولتير جارة الرجل العجوز عمّا لو كانت تشغل نفسها بحقيقة خلقها كما يفعل الكاهن البرهمي لم تفهم سؤاله، وأخبرته أنها تكتفي باعتقادها بإله الهندوس، وتعتقد أنها سوف تكون أسعد الناس لو سكبت قليلًا من ماء النهر المقدس على جسدها.

عاد فولتير للكاهن البرهمي فقال له: ألا تشعر بالخجل لتكون في كل هذا الشقاء، وجارتك العجوز قد أراحت نفسها مما أنت فيه؟ قال له: «لقد قلت لنفسي أكثر من مرة إني لو كنت جاهلًا كجارتي العجوز لكنتُ سعيدًا، ومع ذلك فإن مثل هذه السعادة الغافلة لا أرغب فيها»!

أحيانًا أفكر، في الحقيقة وبغض النظر عن أية اعتبارات، أيهما أكثر حكمة؟ أو السؤال بصيغة أدق: أيهما تريد أنت أن تكون مكانه؟ الكاهن البرهمي المكتئب أم الجارة السعيدة البلهاء؟

❦

وصف (أرسطو) مهمة الفلسفة بأنها السؤال الذي يُسأل وسوف يظل يُسأل، وسيبقى موضع خلاف إلى الأبد، وهو: ما الوجود؟ أو ما الموجود؟!

أجاب أرسطو إجابته الخاصة عن هذا السؤال في كتابه (الميتافيزيقا)، وهي كلمة تعني (ما وراء الطبيعة)، وأؤكد لك أنها لا تمت بصلة لرفعت إسماعيل لو خطر هذا ببالك. وكتابه هذا يعتبر حجر الزاوية في الفلسفة، ويصفه البعض بأنه كتاب الكتب، ويصفه آخرون بأنه اللحظة الحاسمة في تاريخ الغرب الأوروبي بأسره. ويعتقد (هيدجر) أن ما توصل له أرسطو ومن قبله أستاذه (أفلاطون) قد استمر وبقي في صور مختلفة من الفلسفة.

ما الوجود؟ هذا هو السؤال الوجودي الأول، ومنه انبثقت بقية أسئلة الميتافيزيقا. ما الإنسان؟ ما موقعه من هذا العالم؟ هل هو حر؟ هل يوجد له خالق؟ ماذا يريد هذا الخالق؟ ما الأخلاق؟ وما الخير والشر؟ وماذا يا ترى يوجد بعد الموت؟

حسنًا، الآن لدينا في إجابة هذه الأسئلة موقف الكاهن البرهمي، ولدينا جارته العجوز، ولنبدأ بالجارة العجوز. على سبيل المثال كانت إجابة (فرانك ويلتشيك) وهو عالم فيزيائي أمريكي:

«يبدو أن الكون ليس إلا واحدًا من تلك الأشياء»! تبين أن الأمر بسيط! الكون واحد من تلك الأشياء التي هناك، لا أدري فيم يتشاجر القوم؟! أطلق الفيلسوف الأمريكي (ويليام جيمس) لقب (ذوو العقول الصحية) على هؤلاء الذين لديهم استعداد لحسم الأمور بهذه الطريقة.

رأى (هيوم) أن العقل له حدود، ورأى أن الميتافيزيقا تتجاوز حدوده، لذا قرر أن كل بحث فيها هو نوع من الأوهام والسفسطة. واعتبر بعض الوضعيين المناطقة أيضًا الأسئلة الوجودية الكبرى أنها تعابير لا معنى لها، ونوع من اللغو غير المشروع، يخبرونك أن عليك أن تفكر في الأمر على أنها كلمات ينطقها الأطفال قبل أن يتعلموا الكلام، لم يتعلموها من أحد لأنها في الحقيقة لا تعني أي شيء على الإطلاق! مجرد عبث. هكذا كانوا ينظرون إلى الأسئلة الوجودية الكبرى في الحياة! لذلك كان فيلسوف اللغة البريطاني (جون أوستين) يرد عليهم بأن وجود هذه التعابير على مر الزمان والأجيال يعني أن لها فعالية في إنتاج الفروق وكشف الروابط. ما يجعل من الأولى تفهم التعبير قبل محاولة تصحيحه. بمعنى آخر كان أوستين يحاول أن يقنعهم أن يفهموا هذه الأسئلة أولًا قبل أن يُخرِسوا أصحابها!

لذلك اعترفوا في النهاية، مثل (كارناب) الذي قال أن الأسئلة الوجودية الكبرى هي أسئلة مشروعة وصحيحة ولكن العقل التصوري لا يستطيع الإجابة عنها. أو مثل (هاينمان) الذي قال أن مشكلات الميتافيزيقا غامضة ولكنها تظل مشكلات تحتاج إلى إيضاح ومناقشة. أو مثل (راسل) الذي اعترف بوجود قضايا صحيحة وحقيقية لا يمكن اختبارها أو البرهنة عليها.

لاحظ (بيجوفيتش) أن سبب ظهور النظرية العامة للنسبية أن آينشتاين قد لاحظ أن ثمة مشكلة ما في الوقت الذي كان يجزم فيه الجميع أن كل شيء واضح ومحدد وعلى ما يرام! وعلى حد تعبير (كارل ساجان): «كل سؤال هو صرخة لفهم العالم، ليس هناك ما نسميه سؤالًا غبيًا». وكان (محمد بن سيرين) يقول: «كانوا يرون حسن السؤال يزيد في عقل الرجل». بينما يقص علينا الله عز وجل خبر فتية الكهف الذين أخرجتهم أسئلتهم الوجودية من جوار قومهم، فـ ﴿**قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا**﴾ (الكهف ١٤).

❧

من ذلك الذي سيزعم أن أسئلتك الوجودية غير مشروعة؟! أسئلة الغاية والمآل ومعنى الوجود هي ما قادت (تولستوي) إلى الإيمان بالله بعد خمسة وثلاثين عامًا من فقده.

ولكن يا ترى ما سبب ارتباط هذه الأسئلة بالـ (العقلانية) و(الحرية) و(الاستقلالية) و(النزعة إلى المذهب الإنساني)؟ وهل لنا أن نتوقع أن تنعطف إلى الحارة المجاورة؟ تلك التي تتعلق بالله ومحاكمة أفعاله والتمرد عليه والزعم بأن الإنسان لم يعد في حاجة كبيرة إلى وجوده؟

ما سر تحول أسئلة الميتافيزيقا من (تلك الأسئلة التي تقود إلى الإيمان) إلى (تلك الأسئلة الخبيثة التي نعلم جميعًا ما ستقود إليه)؟ وهل كان هذا هو ما يقصده (أليستر ماكجراث) حين قال: «إذا كان الإلحاد الجديد يريد تفعيل جدل حول الدين، فقد نجح يقينًا. فجأة أصبح الجميع يريد التحدث عن الله»؟! أو هل هذا ما كان يقصده داعية الإلحاد العجوز (ريتشارد دوكنز) حين تحدث عن القطط التي لم تمثل قطيعًا بعد ولكن أعدادًا معقولة منها تستطيع أن تصدر ضوضاء مزعجة لا يمكن تجاهلها؟!

هل نحن بصدد أصداء لضوضاء قطيع قطط دوكنز الضالة؟

والسؤال الأهم من كل ذلك، هو السؤال الذي طرحه الأستاذ (عبد الله الشهري): لو كنا حقًا أبناء الطبيعة الخُلّص، هل كان سيفتقر خيار الإلحاد إلى مكابدة، أم سيكون فطرة؟ وهل كنا سنجد في طرد فكرة الإيمان أدنى عناء، أم سيكون سليقة؟

cs&so

وعلى كل حال، ومهما كانت إجابتك عن الأسئلة الكثيرة السابقة، فدعني أطمئنك بأني أدّعي أني أعرف خلاصك، أدّعي أني سوف أدلك على الكتاب الوحيد الذي يحوي كل شيء يخص إجابات أسئلتك الوجودية، ذلك الكتاب الذي ذكر الله تعالى عنه أنه: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (المائدة ١٦). وامتن علينا بأنه: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (الحديد ٩). بل ذكر أن هذا في الواقع هو سبب نزول القرآن من لدنه: ﴿**الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ (إبراهيم ١).

القرآن يعدك بنهاية حيرتك الإنسانية، بقبس النور الذي سوف يطل على مدقّات روحك المظلمة، بجذوة النار التي سوف تلتهم زوائدك الفكرية، يعدك بأن تصبح في حكمة الكاهن البرهمي، وسعادة المرأة العجوز!

cs&so

يبقى لنا أن أريك بعض هذه الأسئلة وكيف أجاب القرآن عنها.

هل الله موجود؟ كيف لنا أن نتأكد من ذلك؟ ومن أوجده إذن؟ كيف نستوعب صفاته الكاملة المثيرة للعجب؟ ولماذا تسلّم أنه إله معبود؟ أليس من الممكن أن يكون خالقًا وفقط، تركنا بعد أن أوجدنا ولم يتصل بنا قط؟

إن رفضت تلك الفكرة، فأخبرني إذن لماذا لا يظهر لنا؟! لماذا عليّ أن أؤمن به وهو في غيب عني؟ لماذا لا تكون الآيات التي أنزلها قاطعة ساحرة لا يكفر بها أحد؟ وهل هو واحد أم ثلاثة أم أكثر من ذلك؟ تقول: واحد، لماذا بالضرورة تجزم بذلك؟

بل وقبل ذلك كله: لماذا خلقنا أصلًا؟ لنعبده، وهل يحتاج لعبادتنا؟ ليختبرنا، وهل يهمه نتيجة اختبارنا؟

وعلى ذكر الاختبار، لمّا يفشل أحدنا في الاختبار، هل هو من أراد له أن يفشل أم أن هذا الفاشل هو من اختار؟ وما أدرانا بأنه يوجد يومٌ للنتيجة؟ لماذا تجزم بكل هذه الجرأة بأن هناك يومًا سنُبعث فيه؟ الأنبياء قالوا لنا، جيد أنك طرحت هذه النقطة، من أدراك بصدق هؤلاء الأنبياء؟ وعلى الأخص من أدراك بصدق النبي محمد ﷺ؟

وإن أنهيت كل ما سبق من أسئلة فعليك أن تجيبني عن وجود الشرور في الدنيا. هل الله يقدر أن يمنعها؟ لماذا لا يفعل إذن؟! أليس أرحم بنا من أمهاتنا؟ وهل هناك عدل في توزيع الأرزاق في الدنيا؟

بل هل هناك عدل في وصول حجته إلى كل العباد؟ لماذا يوجد عذاب في الآخرة؟ ولماذا هو بكل هذه الشناعة والأبديّة؟ ألا يعد ذلك ظلمًا؟! أن يتم تعذيب الكافر لأنه وُلِدَ على دين آخر؟ لماذا لا تسلم بصحة أي دين غير الإسلام؟ ولماذا سمح الإله بكل هذا التفرق والتنوع في الأديان؟

على أني في النهاية لن أدعك أيضًا إلا بأن أسألك عن النتائج العلمية الأخيرة؟ تزعم أن القرآن به كل شيء، فأخبرني عن نظرية التطور والانفجار الكبير العشوائي. لماذا لا يكون هذا هو التفسير الأصوب للحياة؟ وبعد أن فسر لنا العلم معظم أسباب الظواهر المعروفة، لماذا ما زلت تحتاج إلى إله؟!

أسئلة كثيرة هي! فلنبدأ إذن دون إبطاء.

السؤال المُندَسّ

(عن سؤال: هل يوجد إله؟)

"بدون الله، لا توجد رؤية فلسفية متماسكة تشكل فهمنا لهذا العالم، لا توجد مبادئ عقلية ضرورية سابقة على وجودنا، لا يوجد سبب يجعلنا نثق في نتائج عقلنا، بدون الله لا يمكننا أن نزعم بوجود أية حقيقة بائنة عن عالمنا المادي الطبيعي! لا نحتاج إلى أن ندلل على وجود الله، بل نحتاج إلى وجود الله حتى نزعم أننا نستطيع الاستدلال على أي شيء!"

لا يفهم الطفل ما المضحك حين يسأل: لماذا كان الناس يعيشون في زمان (إسماعيل ياسين) بدون ألوان؟ لماذا لم يفكر أحدهم قط في أن يلبس ملابس ملوّنة على سبيل التغيير بدلًا من اللونين الأبيض والأسود المُعتادَين!

يسمعه أبواه يردد ذلك فينفجران ضحكًا، وحين تجتمع العائلة يصرّان على إعادة فتح هذه المسألة أمامهم، «قل لعمّك يا حبيبي السؤال الذي سألته أمس»، ومن جديد ينفجر (عمّو) في الضحك دون أن يفهم الطفل ما المضحك إلى هذا الحد.

مسألة سخافة سؤال ما هي مسألة نسبية في النهاية. أذكر أني رأيت مقالة على الانترنت تتحدث عن أغبى عشرين سؤالًا تم سؤالهم على (تويتر). كانت هناك أسئلة حمقاء بالفعل، مثل: «هل الأفريقيّة ديانة؟!» -«ما هو الاسم الأخير للرئيس أوباما؟!» - «لماذا نقول الساعة الآن أربعة إلا ربع ؟! أليس الربع هو خمسة وعشرين سنتًا، إذًا لماذا نطلقه على الخمس عشرة دقيقة؟!».

على أن هناك بضعة أسئلة لم أفهم لماذا تم اعتبارها غبية، وهذا كان لأني لست على علم بموضوع هذه الأسئلة، مثلًا كان هناك سؤال: «ما المسافة بين ميامي وفلوريدا؟؟» لم أفهم لماذا يعتبر هذا غباءً، هذه امرأة تريد أن تعرف المسافة بين ميامي وفلوريدا! لكني عرفت بعد ذلك أن ميامي جزء من فلوريدا أصلًا، هذا مثل أن تسأل عن المسافة بين المهندسين والقاهرة! حسنًا، لقد تبين أنه كان بالفعل سؤال أحمق، فقط كان عليّ أن أكون عالمًا بجغرافيا الولايات المتحدة حتى أدرك ذلك!

بالمثل أؤكد لك أنك لو دخلت إلى أحد مدارس تعليم القرآن وسألت: هل هناك قلقلة على حرف الذال؟ وقتها سينظرون لك في برود محاولين إخفاء ضحكاتهم. ولو دخلت إلى أحد محاضرات الفيسيولوجيا في أقرب كلية طب وسألتهم: «هل الغدة النخاميّة مسؤولة عن تكوين نخامة الأنف؟؟» فإني أؤكد لك أنه سيتم طردك من المكان سريعًا. ولو دخلت إلى أحد فصول الفيزياء في معهد MIT وسألتهم: «ما الفرق بين الوزن والكتلة؟؟» فإنه سيتم ترحيلك إلى مدينتك في أقرب وقت!

كل هذه الأسئلة تبدو لغير المختصين بها أسئلة معقولة، ربما يعرفون إجابتها ولكن يقدّرون حق أولئك في السؤال، يرون اتهامك لهؤلاء بالسخف أمرًا شديد التعصب والغرور. بينما في الحقيقة أنت كمختص على حق، وكل طبيب سيؤيدك في أن تلكم كل من يسأل سؤال الغدة النخاميّة إياه في أنفه لكمة يستحقها.

فبالنسبة للمؤمنين والمتأملين في الوجود لن يجدوا أغرب من السؤال الذي يتساءل عن الدليل على وجود الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. ورحم الله أولئك الرسل الذين واجهوا شكًا من قومهم في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فما كان جوابهم إلا: ﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ (إبراهيم ١٠). تشعرك الآية أنهم كانوا يضربون كفًا على كف، ولا يتصورون كيف يتساءل أحدهم عن الله!

المؤمن لا يقف في مسألة وجود الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ موقفًا محايدًا أو مترددًا أو ضعيفًا حتى، بالنسبة له فالله أوضح شيء في الوجود يمكنه أن يشك حرفيًا في وجوده شخصيًا قبل أن يشك في وجود صانع هذه الحياة بأكملها. وهو يقرأ قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾ (الحديد ٣). ويتذكر حينها التفسير النبوي في الحديث الذي رواه الإمام مسلم رحمه الله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»!

على أن القرآن لا يخاطب المؤمنين بالله فقط، فكما ناقشنا في الفصول السابقة، سيكون لديه الجواب الكامل غير المنقوص على هؤلاء الذين يشككون في هذه الحقيقة، وسواء كان ملحدًا يدّعي أنه متيقن من عدم وجود الله: Atheist. أو واقفًا في المنتصف مدّعيًا أنه لا يوجد ثمة سبيل علمي أو عقلي يمكننا من التيقن بوجود الله أو عدمه: Agnostic. أو كان مؤمنًا حائرًا يراوده هذا السؤال من آن لآخر ولمّا يصل بعد إلى حالة الاطمئنان التي تسود صدور غالب المؤمنين.

والقسم الأعجب ممّن يخاطبهم القرآن بأدلة وجوده هم هؤلاء المعتقدون في وجوده ولكنهم لا يفعلون ما يدل على هذه العقيدة! مثل الذين كانوا عامّة من خاطبهم النبي ﷺ والذين كانوا إذا سُئلوا: ﴿**مَنْ خَلَقَهُمْ**﴾: ﴿**لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ (الزخرف ٨٧).

لماذا يخاطب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأدلة وجوده إذن من لا يشكك في ذلك ابتداءً؟ لأنهم لم يؤمنوا بالرسل ولا باليوم الآخر، ولم يحرّموا ما حرّم الله، ولم يحلّوا ما أحل الله، لأنهم كانوا من المجرمين الذي لا يبالون بحدود الله ولا يرقبون في المؤمن إلًّا ولا ذمة، لأنهم كانوا يقولون أنها حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين.

كل هذا يدل على أنهم لم يؤمنوا بالله حقًا، وعلمهم بوجوده علم ناقص. لا يمكن أن يكونوا على يقين كامل بوجود الله ثم يكبر عليهم إلى هذا الحد ما ندعوهم إليه، لذلك قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ**﴾ (الدخان ٧-٩). فحتى لو لم يكونوا في شك من وجود الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهم في شك من بقية سلسلة الإيمان!

لذلك فإن التيقن الكامل بحقيقة وجود الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يثبّت قمة الهرم العقدي فيكون ما بعده أمرًا سهلًا. كيف أقنعك بترك الحرام السهل اللذيذ أمامك أو فعل الطاعة الشاقة باستمرار لو لم تكن متيقنًا تمامًا بوجود الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن ثم التيقن بعذابه وبنعيمه؟!

كما روى لنا ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله جمع الناس يومًا وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق، والمكذب به هالك»! ثم نزل. والمقصود، كما يقول ابن كثير رحمه الله من قوله «المصدّق بهذا الأمر أحمق»: «أي لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله، وهو مع ذلك مصدق به موقن بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى في لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه، فهو أحمق بهذا الاعتبار».

ولذلك لربما كان التعرّف على أدلة وجوده من الحلول الناجعة لذلك المؤمن ضعيف الإيمان المداوم على المعاصي الهاجر للطاعات، أن يتذكر أن الله موجود حقًا. موجود جدًا!

❧

أريد أن أسألك: ما هو حاصل جمع ١+١ . بالطبع الناتج = ٢. لكن في علم الأدوية الطبي، فالناتج ربما يكون ٣ أو ٤!

هذا ببساطة لأن هناك ظاهرة في علم العقاقير والأدوية تسمّى: **synergism** ومعناها: التآزر. وتعني أن هناك عقارًا يعطينا نتيجة، وعقارًا يعطينا نتيجة أخرى، ولكن عند استخدامهما معًا تحصل على نتيجة أكبر من مجموع كليهما! في هذه الحالة ١+١=٣!

هذا هو السبب أن الكثيرين من مدمني الخمر الأوروبيين يموتون من جرّاء خلط الخمر بالمنوّمات فلا يستيقظون من نومهم أبدًا. في الماضي كانوا يظنون أن هذه حالات انتحار، قبل أن يكتشفوا ويفهموا ظاهرة التآزر هذه، هم بالفعل لم يأخذوا جرعة منوّم زائدة، ولكن جهازهم العصبي المركزي تأثر كثيرًا من هذا التآزر العنيف بين الكحول والـمنوّمات.

نشاهد ظاهرة التآزر هذه في التعاون والتناسق الملحوظ بين آيات القرآن وبين آيات الله في الكون. القرآن ينبهك إلى جمال السماء، ولكنك لن تدرك ذلك بسهولة حتى تنظر إلى الأعلى فترى هذه السماء المحكمة!

لذلك كانت من ضمن الوسائل التي تقودك إلى الإيمان: السمع والبصر والعقل، وعدم استخدامك لهم بالشكل الصحيح الذي يقودك للإيمان يعني أنك لم تقم بالوظيفة الأساسية التي خُلِقوا من أجلها، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا**

﴿وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (الأحقاف ٢٦). ويكون حالك حينها كمن أهداها حبيبها ببغاءً، ثم سألها في اليوم التالي إن كان أعجبها أم لا، فأبدت تململًا حيث إن طعمه لا يختلف عن طعم الدجاج!

ولذلك تجد أن عنصر الإبهار الكوني يتكرر في القرآن، كدعوة صريحة لك بأن تدعك من كسلك، وأن تذهب إلى أقرب شرفة وتتأمل قليلًا في خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ (الأنعام ٩٩). ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس ١٠١). ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت ٢٠). والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد تكفّل بذلك! تكفّل بأن يريك هذه الآيات، بل تكفّل بأن تعرفها! كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (النمل ٩٣). وعليك أنت فقط ألا تتجاهلها، ألا تعاندها، ألا تنكرها! ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (غافر ٨١). ؟!

***

وردني اعتراض على الطبعات الأولى من هذا الكتاب الذي تقرؤه الآن، قال أصحاب الاعتراض أنني أعدد الكثير من العناصر مما يُصعّب عليهم مهمة تصنيفها تحت بنود معينة في أذهانهم. كبرهاني ابن رشد مثلًا: دلالة الخلق والاختراع، ودلالة العناية والإحكام. أما أنا فأضع أكثر من ٢٠ عنصرًا من أدلة وجود الله وأزعم أن كلها من القرآن، فكيف هذا؟

والحقيقة أن اعتراضهم أثار تعجبي، يعني كانوا يقولون: (البحر يحب الزيادة)، أو بتعبير أقل سوقيّة: لماذا تُحجّر واسعًا؟ ناهيك عن أن ابن تيمية اعترض على ابن رشد كثيرًا قصره أدلة وجود الله من القرآن على هذين الدليلين، وكان ابن تيمية يرى أن أدلة وجود الله في القرآن لا تُحصى كثرةً وكلها تدخل في نطاقات مختلفة وطرق متنوعة.

هل هناك عشرون دليلًا فقط على وجود الله؟ بالطبع لا! الأدلة تكاد تكون لا نهائية في العدد. ولكن دعنا نفترض أنه لا يوجد إلا هؤلاء العشرون، مجرد افتراض. الآن قد جاء دور منكري وجود الله. أين أدلتكم العشرون؟!

نعم، يا سيدي الفاضل، أنت مُطالب كمنكر لله عز وجل أن تأتي بأدلة مثلي تمامًا، في الحقيقة أنت مطالب ليس فقط بالرد على الأدلة اليقينية، ولكن والظنية أيضًا، بل ومجرد الاحتمالات. أنت كرجل يقدم برهانًا سلبيًا على قضية تحتمل أو لا تحتمل، مطالب بأن ترد على كل (احتمال) يثبت الوجود! مثلما يقول (مورتيمر آدلر): «يمكن برهان نظرية وجود إيجابية، أما نظرية الوجود السلبية (إثبات العدم) فلا يمكن برهانها أبدًا»!

***

كان الأستاذ (عبد الله الشهري) يرى أن أم الملامح التي تميز الإلحاد الجديد هي الثقة المفرطة والاطمئنان والركون إلى ما ذهبوا إليه، وهو الأمر الذي لاحَظَ أن القرآن قد دل عليه، حين قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ** ﴾ (يونس ٧).

ومثل هذه الثقة يملك المؤمنون بالله أضعافها، فبالنسبة لهم الله هو أوضح ما في الوجود، لذلك تتأمل رد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه: ﴿ **قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۝ قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ (الأنبياء ٥٥ -٥٦). هي رسالة لكل من يرددون أنه لا توجد حقيقة مطلقة، بل كل واحد من المؤمنين يشهد تمامًا على هذه الحقيقة المطلقة.

ففي الحقيقة إنه أمرٌ مخجِل بالنسبة إلى شخص يوقن بهذه الحقيقة بكل هذا الجلاء أن يضطر إلى مثل هذا النقاش والحجاج عن وجود الله، والأخذ والرد في المسائل القطعية قد يؤدي إلى إيهام إخفائها كما قال ابن تيمية. ويذكرنا ذلك بالقصة التي تُنسب للإمام الرازي لما سار في سكك مدينته وحوله تلامذته يتهافتون للمسير خلفه، فسألت امرأة عجوز: من هذا؟ قالوا لها: ألا تعرفينه؟ هذا الذي أقام ألف دليل على وجود الله. قالت: لو لم يكن في قلبه ألف شك ما احتاج إلى ألف دليل! لما بلغت الرازي الكلمة قال: اللهم إيمانًا كإيمان العجائز!

وبرغم أن الجدال في وجود الله قديم قِدَم الجدل نفسه، إلا أنه دائمًا ما كان الاستثناء في وسط السواد الأعظم من المؤمنين بوجوده، كما قال داروين: «أما وجود حاكم لهذا الكون فهو أمر قد دانت له أعظم العقول». لذلك تجد أن أول كتاب يصدر يصرح بالإلحاد في أوروبا كان عام ١٧٧٠، وفي بريطانيا عام ١٧٨٢.

كان (باسكال) يقول: «إذا كان القليل من الفلسفة يبعد عن الله فإن الكثير منها يرد إليه»، ولفرانسيس بيكون جملة شبيهة. بينما قد شكّ ديكارت في كل شيء باستثناء أمرين، وجود وعيه، واعتبر تفكيره دلالة عليه، فأطلق كلمته الشهيرة، أنا أفكر إذن أنا موجود. ووجود الله، وهو أمر تأكد من صحته لأن الله على حد تعبيره: «فكرة لا يمكن أن أكون مصدرها، جوهرًا لا متناهيًا سرمديًا ثابتًا مستقلًا كله علم وكله قدرة». فتساءل ديكارت كيف لوعيه المتناهي أن ينتج هذا الجوهر لا المتناهي؟!

وسط العلماء التجريبيين، تجد دهشتهم أكبر من هؤلاء الذين يجادلون في الله، فنجد (كريستيان أنفينسن) الحائز على نوبل في الكيمياء الحيوية يقول: «أعتقد أنه لا يلحد إلا مغفل»! ويقول الرياضي (وولفجانج سميث): «لا شيء أظهر يقينًا ولا دلالة من حقيقة وجود الله». ويقول

الفيزيائي (يوجين ويجنر) الحائز على نوبل: «مفهوم الإله يساعدنا على اتخاذ قراراتنا في الاتجاه الصحيح». ثم يقول: «أخشى أننا كنا سنكون مختلفين عما نحن عليه الآن لو لم نكن نملك هذا المفهوم».

ولكن لماذا؟ لماذا هذا المفهوم بهذه الأهمية؟ هل يمكننا أن ندّعي أن وجود الله عز وجل هو الركيزة الأساسية لضمان أن الحقيقة حيقية كما يقول (عبد الوهاب المسيري)؟

بدون الله، لا توجد رؤية فلسفية متماسكة تشكل فهمنا لهذا العالم، لا توجد مبادئ عقلية ضرورية سابقة على وجودنا، لا يوجد سبب يجعلنا نثق في نتائج عقلنا، بدون الله لا يمكننا أن نزعم بوجود أية حقيقة بائنة عن عالمنا المادي الطبيعي!

لا نحتاج إلى أن ندلل على وجود الله ، بل نحتاج إلى وجود الله حتى نزعم أننا نستطيع الاستدلال على أي شيء!

لذلك كان يقول شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن القيم: «كيف تطلب الدليل على من هو دليل كل شيء؟» وكان كثيرًا ما يتمثّل بيت الشعر القائل: «وليس يصحّ في الأذهان شيءٌ.. إذا احتاج النهارُ إلى دليل»!

يمكننا أن نلاحظ أن القرآن دلّنا على هذا المعنى، في مناظرة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ٢٣). ما كنهه؟ كيف تثبته؟ ما درجة وجوب وجوده؟ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الشعراء ٢٤). أي كما قال الطبري في تفسيره: «إن كنتم موقنين أن ما تعاينونه كما تعاينونه، فكذلك أيقنوا أن ربنا هو رب السماوات والأرض وما بينهما». أو كما قال الشوكاني في فتح القدير: «إن كنتم موقنين بشيء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان»!

لنبدأ إذن مضطرّين للتنزل إلى هذه المجادلة الحزينة!

تسأل: ما الدليل على وجود الله؟ تفضل إذن...

١

وجود الأشياء

"إن جميع المعجزات طبيعة وإن الطبيعة نفسها معجزة"

أبو حامد الغزالي

في ١٩٦٧ تم إطلاق معاهدة الأمم المتحدة للفضاء الخارجي، كان من ضمن بنودها بند غريب ينص على أن القمر لا يُعدّ ملكية خاصة بأي دولة من الدول! من هي تلك الدولة البلهاء التي ستدعي أن لها الحق في القمر؟! فكرتُ وقتها أن هذه من الأمثلة الغريبة التي تدل على أن القوانين البشرية ساذجة بحق.

ولكن الحقيقة أنه في بداية الثمانينات أرسل بائع سيارات مستعملة أمريكي يُدعى (دينيس هوب) إلى منظمة الأمم المتحدة يخبرهم أن هناك ثغرة في القانون الخاص بهم والذي ينص على عدم جواز ملكية القمر لأي دولة من الدول لكنه لم يتحدث عن الأفراد، فبالتالي هو يدّعي حق الملكية للقمر لنفسه ويطالبهم بإثبات خطئه القانوني! بالطبع لم يردّ أحد على خطابه المتخلف ومن ثمّ أعلن دينيس هوب لنفسه بالفعل أنه يملك القمر! أمر ظريف للغاية ولكنه سيزداد ظرفًا بعد ذلك.

قام بطباعة حقوق للملكية لبيع فدان القمر الواحد بـ ١٩،٩٥ دولار. تغيّر السعر بعد ذلك إلى ٣٦،٥ دولار بعد إضافة تكاليف الشحن والتوصيل لشهادة البيع وبعد إضافة (الضريبة القمريّة) التي وضعها! ولكن يوجد تخفيضات كبيرة بالطبع لمن يشتري أكثر، مثلاً هناك من اشترى منه ٢ مليون ونصف فدان بربع مليون دولار أمريكي فقط. صفقة ممتازة!

أعلن هوب (الجمهورية الديمقراطية) لمالكي القمر، وعيّن نفسه (الرئيس المَجَرّي) لها، وتوسّع في تجارته بعد ذلك، وبدأ في بيع كواكب المجموعة الشمسية بعد أن ادعى ملكيتِها هي الأخرى! بالطبع كلما بعدت عن الأرض كانت أرخص، وبنفس منطق تدنّي سعر الأرض في (العاشر) بالنسبة إلى (التجمّع الخامس)! لذلك يمكنك شراء كوكب بلوتو بأكمله من هوب بربع مليون دولار.

لقد كسب هوب أحد عشر مليونًا من الدولارات من بيع أراضي القمر، من الذي لا يريد أن يدفع عشرين دولارًا فقط لشراء فدان من القمر ويأخذ شهادة أنيقة ويعلقها في غرفة مكتبه ليمزح حولها مع الأصدقاء، هذا شيء **Fantastic** بالتأكيد، لذلك يُقال أن من ضمن زبائنه رؤساء سابقين مثل: جورج بوش وجيمي كارتر ورونالد ريجان، ونجوم هوليود مثل: توم كروز وتوم هانكس وجورج لوكاس، بل وشركات كبرى مثل ماريوت وفنادق هلتون!

وبغض النظر عن كل هذه القصة المسلّية فإني أؤكد لك أن أحدًا لا يمتلك القمر بالفعل، ولا الشمس ولا الكواكب ولا النجوم. بل ولا يمتلك أحد أي قطعة من الأرض فعلًا، فيومًا ما سيموت ويتركها لمن خلفه، وفي لحظة من اللحظات سيبيعها أحد ورثته، أو سينقطع نسله أو يضيع نسبه أو تقوم ثورة تأميم، فتأخذها الحكومة لتبيعها لمن يدفع أكثر، في النهاية فإن مليارات البشر ستتعاقب في آلاف السنين على نفس القطع من الأرض لتعيش عليها قليلًا ثم تتركها.

لا يمكنك يا هوب أن تكون مالكًا للقمر لأنه كان موجودًا دائمًا من قبل أن يتعرف جدك على جدتك، وسيظل موجودًا بعد أن تصطحب ملايينك العشرة إلى القبر. لا يمكنك أن تزعم أنه ملكك لأنك لا تملك حتى سياراتك المستعملة القديمة بشكل كامل، فما الحديد الذي صُنِعَ منها إلا جزء من تركة الحديد التي تركها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للبشر يتوارثونها!

عندما وُجدنا في هذا الكون رأينا أنه يوجد الكثير من الأشياء من حولنا، رأينا أننا موجودون في ملكية خاصة بالفعل، ولكنها لا تعود إلى أي واحد منا. فلم يتكلم غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقال: أنا المالك!

يخبرنا القرآن بمبدأ الملكية المتفردة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حين يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (المؤمنون ٨٤ -٨٥). في الواقع لم تكن ثمّة إجابة أخرى يمكنهم أن يجيبوا بها غير هذه الإجابة!

❧

أنا قطعًا لا أملك الذاكرة لتلك اللحظة الحدّية في طفولتي البكر التي تفصل بين اللاوعي والوعي، أو بين النسيان والتذكر، ولا أستطيع أن أجزم بأول ذكرى لي أو أول شعور كان عندي! أنا موجود منذ فترة لا بأس بها، هذا هو كل ما أعلمه! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا**﴾ (مريم ٦٧). ويذكرنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بحقيقتنا قبل هذا الخلق: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**﴾ (الإنسان ١).

أثناء هذه الفترة وجدت الكثير من الأشياء التي اعتدتُ على وجودها، الكثير من الخلائق من حولي. أسير في زحام ميدان (العتبة)، أو في الحرم في إحدى ليالي رمضان، أو في أحد

الأسواق التجارية الحافلة بالبشر، لأدرك أن هذا خلق كثير. ومن صُنع مقارنة يسيرة بين هذا العدد وبين العدد المفترض في كل بقاع العالم، أدرك أننا أكثر بكثير مما نتخيل، ويتبين لي حينها أن رقم (سبعة مليارات) –الذي نقرؤه عن تعداد البشر دون أن نتخيله فعلًا– هو رقم كبير بالفعل!

عليك حينها أن تفكر في كل هؤلاء البشر الذين ماتوا في طاعون القرون الوسطى وحروب التتار والحروب العالمية الناتجة عن غرور قادة أوروبا المخابيل، أو الذين ماتوا في ظروف عاديّة، أو هؤلاء الذين عاشوا قبل أن يتعلم التاريخ التسجيل. الأعداد مخيفة. تتناسب هذه الأعداد مع الآية التي تذكرنا بأن: ﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ (البقرة ٢١). ونفهم حينها رد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي سُئِلَ: ﴿**وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الشعراء ٢٣). قال: ﴿**رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾ (الشعراء ٢٦)!

❀

بيّنت دراسة لعالم النفس المعرفي (جاستين باريت) أن أطفال ما قبل سن المدرسة يستطيعون التفريق بسهولة بين الأشياء (الطبيعية) والأشياء (المصنوعة)، ويمكنهم أن يجزموا أن الإنسان قد خلق الأشياء (المصنوعة) ولم يخلق الأشياء (الطبيعية). في الحقيقة كانت هذه النتائج مثيرة وعجيبة بالفعل؟ من شرح لهم ذلك؟

هناك الكثير من الأشياء (الطبيعية) من حولنا، تلك التي وجدناها لما وجدنا أنفسنا في الحياة ونعرف أنها: دائمًا هناك!

على سبيل المثال، ضُمّ يديك أمام وجهك، بين كفيك مساحة لا تتعدى عشرة سنتيمترات مربعة، ترى ماذا يوجد هناك؟

الغبار الذي يملأ فضاء الغرفة ويملأ بالتالي ما بين كفيك يتكون ٧٠٪ منه من خلايا جلد بشرية ميتة، سواءً منك أو من أحد أفراد الأسرة. تذكر أننا نفقد كل دقيقة ٤٠ ألفًا من خلايا الجلد باستمرار. وعلى أطراف أناملك توجد نتوءات صغيرة تساعد أصابعك على الإمساك بالأشياء، وبنفس الطريقة التي تساعد بها الحُليمات الدقيقة بلسانك على التشبث بالطعام. أما الضوء الذي يضرب ظفر أصبعك الصغير فيحمل ثلاثة آلاف تريليون فوتون ضوء على الأقل. وفي يدك من الداخل تسبح بلازما الدم وفيها ١٠٠ مادة مذابة وأكثر، وترتاح في تجويف عظام يدك الخلايا العظمية العجوز التي أتمّت مهمتها منذ سنين ببناء كل هذه العظام.

ولو خرجنا من مساحة كفك إلى الجسم ككل فسنجد شعر رأسك الذي يحتوي على ١٠٠ ألف شعرة، بالقرب من بويصلة كل منها خلية دهنية خاصة لتشحيم الشعر بالزيت اللازم للّمعان. أو كليتك التي ترتاح على وسادة خاصة مكوّنة من الخلايا الدهنية الكبيرة. أو سنجد الأعداد

المخيفة التي تتكدس في جسمك النحيل، ٣٠٠ مليون حويصلة هوائية للتنفس، كل خلية جسدية بها عشرة آلاف مليار ذرة، وأنت تملك منها في جسدك مائة تريليون خلية ، وعشرة أضعاف ذلك من البكتيريا! و١٠٠ ألف فيروس في العطسة الواحدة، وكتاب وراثي بداخل كل خلية من خلايانا مكتوب بما يوازي حوالي ٢٠٠ ألف صفحة مكتوبة بالبنط الصغير. ويختلف عن الكتاب الوراثي لأي إنسان آخر بـ٣ مليون طريقة على الأقل لو استثنينا توأمك المتماثل إن وُجِد. وبالمناسبة، فسريرك المنزلي الذي تجلس عليه الآن يحتوي في الحقيقة على ٢ مليون عثة غبار. وعلى العموم فمقابل كل إنسان واحد يوجد مليار حشرة على كوكب الأرض!

بدخولك إلى المطبخ ستلاحظ أن سبب تحول نصف التفاحة التي تركتها البارحة إلى اللون البني أن الفينول الذي في خلاياها قد تفاعل مع أكسجين الجو، وأن سبب انتفاخ العجين الذي أعدته أمك للفطائر أن إنزيمات الخميرة عند اختلاطها بالماء والسكريات أطلقت فقاعات ثاني أكسيد الكربون الذي رفع العجين لضعف حجمه. وأما الملاعق المتناثرة على رخام المطبخ فسوف تلاحظ أن النيكل المخلوط بالحديد فيها أصله من الجارنيريت، وأما ورق الألومونيوم المُلقَى هناك فأصله من صخر البوكسيت. ربما سيدفعك ذلك للشرود قليلًا في بقية الأحجار، مثل حجر الكالسيت الذي يكوّن الكهوف البعيدة هناك حين يُذيبه ماء المطر الحمضي، أو الحجر الجيري المتكون من بقايا الكائنات البحرية في البحار الأستوائية منذ عصر الديناصورات لنستخرجه نحن ونسحقه ونصنع به سيراميك هذا المطبخ ودهانات حوائطه.

لو خرجت إلى حديقة، فترى ماذا يوجد هناك؟

ربما ستلاحظ ذلك الثقب الدقيق في الغلاف الخارجي الصلب لبذرة النبات والذي يعطي الإذن للبذرة كي تبدأ في النمو. أو ربما لاحظتَ الحلقات المتزايدة في جذع كل شجرة، تزداد كل عام حلقة جديدة. أو ذلك الأنبوب الممتد من قلم السمة إلى المبيض حاملًا حبة اللقاح التي سوف تبدأ الإخصاب ومعها الحياة الجديدة. أو العيون الخمسة لذلك الزنبور المكوّنة من مئات العُديسات الصغيرة جاعلة الحياة بالنسبة له أشبه بزجاج الموازييك. أو القشرة الحمراء الصلبة التي تغطي الجناحات الرقيقة لحشرة الدعسوقة. أوقرون استشعار العثة التي تدرك بها الروائح من بعد ألف متر. أو رأس دودة السيسليان العظمي الذي يمكنها من الحفر في التربة لإيجاد غذائها. أو القرون الطويلة لذكر خنفساء الأيل الذي يستخدمها في الصيد والقتال.

ربما تنظر إلى النجوم، وتتساءل: ترى ماذا يوجد هناك؟

مليارات المجرات ربما تقترب من التريليونات. في مجرتنا فقط عدد من النجوم يستغرق عَدُّها منك خمسة آلاف عام. أمام عينيك فقط في المساحة الضئيلة التي تراها من السماء يمكنك أن

تحصي ٢٥٠٠ نجمًا بعينك المجردة. وأما السحب الركامية هناك فتحمل كل واحدة منها ما يكفي لملء ٥٠٠ ألف حوض استحمام. وكل قطرة ماء منها تكونت من ٢ مليون قُطيرة سحبية.

ربما تنظر إلى سطح الماء، فتلاحظ تلك الحيوانات الصغيرة الطافية. يرقة الكابوريا التي هي في حجم حبة الأرز، أو حيوان اللافارسين الذي يعيش داخل فقاعته المخاطية الخاصة، أو مجدافيات الأرجل بقرونها الشبيهة بالباراشوت. أو النجوم الريشية التي تلعق الطعام الذي يطفو بأذرعها المغطاة بالريش. أو الديدان السهمية الصيادة التي تحاول اقتناص غذائها وسط كل هذا الزحام.

ربما تنظر قليلًا إلى عمق الماء، فتجد حلزون الولك الذي يصنع أصدافه من الترسبات الطباشيرية في البحر، أو تلاحظ المراوح الموجودة أسفل ذيل القريدس تساعده على الحركة، أو صدفة المحارة التي تأخذ حبة من حبات الرمال فتغطيها ببعض المواد الصدفية لتتحول إلى اللؤلؤ الرائع الثمين.

لو دخلت إلى غابة، فماذا يوجد هناك؟

ربما ستلاحظ القشرة الليفية لجوز الهند الذي نصنع منه الحبال، أو النتوء المقعر الموجود في مؤخرة جمجمة الأسد لتثبيت عضلات فكه الضخمة. أو كومة روث الفيل التي تحتوي على ٧٠٠ خنفساء. أو ذكر الضفدع القابلة الذي يربط بيضه بخيوط حول قدمه. أو النتوءات الملونة على ظهر السمندر الصيني ليسرّب منه الغازات السامة وقت الخطر، أو الأشكال الساطعة على ظهر السمندر الناري ليرش منه الغاز السام الذي يسبب العمى.

ربما ستجد نبتة من نبات (الشيلم)، الذي تحتوي جذورها على ١٣مليون جُذَيرة، عليها ١٤ مليار شُعَيرَة، لو تم وصلها بعضها ببعض لوصلت بين قطبي الأرض الشمالي والجنوبي. ربما ستلاحظ غزال الإيمبالا وهو يعير أذنيه لطائر نقار الماشية الأحمر لينظّفها من القراد. أو دودة القز التي نستخرج من كل شرنقة لها ٣ كيلو متر من خيوط الحرير الطبيعي.

ربما ستلاحظ أيضًا كلبًا من كلاب البراري، حينها دعني أذكرك أنه تم اكتشاف ٤٠٠ مليون كلبًا منها في مستعمرة واحدة في تكساس. وربما سيكون حظك سعيدًا وتشاهد قوس قزح الناتج عن انكسارات دقيقة لشعاع الضوء داخل قطرات المطر المتساقطة.

ربما ستلاحظ مجموعة من الجيوب!

قملة الخشب، الحيوان القشري الوحيد الذي يعيش في اليابسة، لها جيب على الجانب السفلي تضع فيه البيض. والبجعة لها جيب أسفل منقارها تستخدمه في الصيد، وأما الجيب الذي يملكه الكنغر أو الكوالا فمهمته إكمال نمو الوليد الصغير غير مكتمل النمو.

ربما ستلاحظ مجموعة من الألوان! من أين أتت؟

طائر البشروش الوردي يكتسب لونه من الصبغات الموجودة بطعامه. والشعاب المرجانية الخلابة تكتسب ألوانها البديعة من الطحالب المتطفلة عليه. وحجر الفيروز الكريم يكتسب لونه السماوي الرائق من النحاس! وأما شجرة الهيدرانجيا فتكتسب ألوان أزهارها من حموضة التربة، فالتربة الحمضية تعني زهورًا زرقاء، والتربة القلوية تعني زهورًا قرنفلية، والتربة المتعادلة تنتج زهورًا بيضاء.

لماذا توجد الأشياء؟ لماذا يوجد شيء بدلًا من لا شيء؟ كان هذا هو السؤال الوجودي الأول الذي طرق ذهن الإنسان.

لماذا الوجود بدلًا من العدم؟ لماذا الكينونة بدلًا من الفراغ؟ ولماذا كل هذا الوجود المعقد؟ المزدحم؟ المُكثّف؟ لماذا ليست الأشياء من حولنا قليلة؟ أو بسيطة؟ أو يمكن تفسير وجودها باختزال؟ لماذا كل هذه الألغاز في مساحة كفي المضمومة، أو نظرة عابرة لصفحة الماء، أو لمحة للسماء، أو دقيقة تأمل في مطبخ البيت؟

والسؤال الأهم من كل ذلك، لماذا من بعد ذلك يحاجّون في الله؟!

القرآن يحدثنا عن كل تلك (الأشياء) التي هناك، فيقول: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ (يونس ١٠١).

فما تراها تغني الآيات والنذر فعلًا عن قوم لا يؤمنون؟!

٢

وجود الأشياء بالطريقة التي هي عليها

"أنا مهتم حقيقةً بمعرفة، هل كان بإمكان

الله أن يخلق الكون على نحو مختلف؟!"

ألبرت آينشتاين

في حكاية (أرسطوفان) في كتاب المأدبة لأفلاطون نجد أن الكائن البشري الأول كان كيانًا كرويًا له رأس بوجهين وأربعة أقدام وأربعة أيادٍ وأربعة آذان وعورتان. وكان هذا الكيان الكروي -كأي كرة تحترم نفسها- يتدحرج بحركة سريعة وعنف حتى انزعج (زيوس) منه، فقام -كأي عجوز يحترم نفسه أيضًا- بقطع الكرة إلى نصفين، فصار النصفان هما الذكر والأنثى، وقام (أبوللو) بعد ذلك بالجراحة والخياطة اللازمة لتحسين المظهر!

هذا شبيه بالفكرة التي وردت في بعض نصوص (زارادشت)، حيث نجد أن مخلوق الخالق (ييما) هو وحش يجمع بين الجنسين ثم ينقسم إلى اثنين. وأما الهندوس فلديهم في فلسفة (الفيدا) أن أصل الزوجين كان من تزاوج التوأم الأول (يامي) و(ياما)، مثل بعض قدماء المصريين الذين تخيلوا أن الخالق خلق زوجين هما (شو) و(تفنوت) منهما جاء الذكر والأنثى.

خيال الأقدمين لم يتوقف عند هذا الحد، حيث أنهم قد لاحظوا أن نطاق الثنائية الكونية أوسع من مجرد الثنائية الجنسية. فهناك السماء والأرض، والليل والنهار، والماء والنار. فتحكي لنا الفلسفة (الطاويّة) عن القطب الأسود (الين) والقطب الأبيض (اليانج)، وهما في اعتقاد أبنائها منبعان لكل شيء في الحياة. وأما السومريون فوجدوا أن الماء -وهو في نظرهم حياة العالم- له قطبان، المياه العذبة (آبسو) والمياه المالحة (تيامات)، ومن ازدواج (آبسو) و(تيامات) نتج (مومو) وهي المياه الحية، الروح ذاتها أو العقل.

في عصرنا الحديث تجاوزنا كل هذه الترهات المسلّية والأسماء الطريفة، ولكننا مع ذلك لم نتجاوز رؤية الثنائية الزوجية للكون من حولنا، بل ربما ازددنا بها يقينًا! فوجد الكيميائيون في الذرة البروتونات والإلكترونات، ووجد البيولوجيون في الخلية أيونات الصوديوم الموجبة وأيونات الكلور السالبة، ووجد الفيزيائيون في الفضاء المادة وضديد المادة، والطاقة ونقيض الطاقة! حتى قال عالم الفيزياء (أنثوني زي): «علم الفيزياء ما كان ليوجد لولا وجود التناظر في الكون، أحب أن أفكر في المصمم النهائي ضمن مفهوم التناظر، إنه إله التناظر!». صرنا ننظر إلى الوجود فلا نرى إلا مجموعات متناسقة من الثنائيات! هذه الزوجية التي قال عنها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (الذاريات ٤٩).

تلك الزوجية وجدناها حتى في اتجاهاتنا المتضاربة! فكما نحب الدنيا، فجزء منا يرغب في سرعة الفناء. كما نحمل بداخلنا ما يدفعنا للفلاح من العزيمة والإرادة ووازع الله في صدورنا، فنحن نحمل حتمًا ذلك الذي يجرّنا إلى أرض اليأس من سهولة الشعور بالإحباط والرغبة في التقاعس وحب الكسل. كما نجد الخير مبهرًا في نقائه وصلابته وصلاحية منطقه، نجد الشر جذّابًا في بهرجه وسهولته ووعوده غير المنقطعة باللذائذ.

ثم لما تأملنا في الوجود أكثر وجدنا أننا بالأحرى في نظام زوجي متكامل! النور والظلام، القبح والجمال، الأمل والقنوط، الخوف والسرور.

ما أبدع (قتادة) إذن لما قرأ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ (الشورى ١١) ففسّر كلمة (يذرؤكم) بأنها: «عيشٌ من الله يُعيّشكم فيه»..! كان قتادة ومن قبله ابن عباس يرون أن الحديث في الآية عن الأزواج لا يدور حول بدء الخلق فقط، ولكن عن المعيشة كلها!

جميلٌ أن الله ذكّرنا بذلك في نفس الآية التي تؤكد أنه ليس كمثله شيء. لطيفٌ أن الله عز وجل قد قصد إلى كل مخلوقاته بالزوجيّة حتى يصبح هو -فقط- صمدًا واحدًا متفردًا لا يشابهه أي شيء. ذلك الفرد الأحد الذي تعالى عن ذلك النظام الزوجي السائد وتكبّر عليه. ذلك الإله الذي جعل الحياة كلها أزواج ليكون هو الفرد الصمد وحده! ليست لديه اتجاهات متضاربة، وإنما هو الحق وليس يشوبه الباطل، هو الجميل وليس يدركه قبح، هو المحسن وليست تقربه القسوة.

لماذا توجد الأشياء بالطريقة التي توجد عليها؟

لماذا الزوجية تصبغ كل شيء في هذا العالم؟

إننا أمام نظام زوجي متكامل للحياة بأكملها، واحد من الأمثلة الكثيرة على أناقة الكون Elegancy ونظامه وقصده وتحديه للعشوائية. هذه بالتأكيد طريقة مختارة من الله اعتدنا على وجودها، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (يس ٣٦).

❧

واحدة أخرى من ملامح (وجود الأشياء بالطريقة التي عليها) هي طريقة التناسل والتكاثر.

التكاثر الجنسي يكاد يكون عالميّ الانتشار بين جميع صور الحياة المعقدة. فجميع حقيقيات النواة تقريبًا تنغمس فيه في دورة من دورات حياتها، والغالبية العظمى من النباتات والحيوانات تُعتبر جنسية إجباريًا، فهي عاجزة تمامًا عن التكاثر بدونه. والأنواع غير الجنسية التي تتكاثر بالاستنساخ بشكل عملي نادرة للغاية، مثل حيوانات مجهرية تسمى الدوارات العلقيّة، والتي صارت مشهورة بيولوجيًا بوصفها استثناءات نادرة في عالم محكوم عليه بطريقة واحدة مختارة للتناسل!

كل هؤلاء البشر الذين وُجِدُوا من بعد آدم إنما صُنعوا بنفس الطريقة المعتادة، طريقة التناسل والتكاثر الجنسي التي نعرفها جميعًا. ولا توجد وسيلة أخرى لصنع كائن بشري غيرها، اللهم إلا أن يكون معجزة من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد أتت لتحدي البشر بأسباب أخرى غير الأسباب المعتادة لهم كحالة عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وكان من نتاج هذه الطريقة أن كان التواصل البشري قائمًا على قاعدة الأرحام المتفق عليها بين جميع البشر، هذه من أمثلة الوجود المعتاد الذي لا نعرف غيره! هذه الطريقة التي تحدث عنها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**﴾ (الفرقان ٥٤).

❧

لاحظنا أيضًا في دروس الأحياء أن جميع المخلوقات الحية تحتاج إلى الماء كي تبقى على قيد الحياة، هناك مثال أو مثالَيْن لكائنات تكسر هذه القاعدة فقط لأن أجسامهما تحتوي كل كمية الماء المُرَادَة، لذلك تقتصر مهمة ناسا الآن في البحث عن الماء على كوكب المريخ، لأن جميع علماء الأحياء يعلمون أن الماء = إمكانية الحياة.

يمكنك أن تتعرف على أن هذه هي الطريقة التي خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليها المخلوقات من قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنبياء ٣٠).

❧

اعتدنا في الوجود أيضًا الطريقة التي نحسب بها الأيام والشهور والسنين، والطريقة التي نقسّم بها ساعات اليوم تبعًا للنهار والليل، الطريقة التي تجعلك تعلم ما المقصود من أن تقول لك محطة القطار: سينطلق القطار في السابعة مساءً، أو ما المقصود من أن يُذكِّرك المحاضر أن الاختبار سيكون في يوليو القادم، أو ما الذي يعنيه أبوك حين يعدك بأن يزوّجك في العام القادم! ما الذي يعنيه الزمان وتقسيماته، لماذا اعتدنا على أن نقسّمه بهذه الطريقة؟؟

لم نكن لنقدر على تقسيمه لولا أننا نعلم المدة التي تدور بها الأرض حول نفسها فحددت لنا مقدار ما نعنيه بكلمة (اليوم)، والمدة التي تدور بها حول الشمس، فحددت لنا ما المقصود بكلمة (السنة). ثم قسمنا اليوم إلى عدة أجزاء متساوية سميناها الساعات، والساعات إلى دقائق، والدقائق إلى ثوانٍ... إلخ. وما كنا لنتفق على هذا لولا أن هذه المدة ثابتة لا تتغير!

لم نكن لنقدر على ذلك لولا أننا اعتدنا الطريقة التي خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليها الوجود حين قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ (يونس ٥).

على أن هذا غير كافٍ، لا بد من نوع اتفاق بين البشر على الطريقة التي سيقسّمون بها هذا الزمان، وإني أظن أنك مهما رجعت للزمن لن تستطيع أن تجزم بمن كان أول من استخدم أيام الأسبوع السبعة التي نعرفها، أو أول من قسّم السنة إلى اثني عشر شهرًا! كل هذا من الوجود المعتاد الذي أقرّه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علينا، كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ**﴾ (التوبة ٣٦).

ويأخذنا القرآن إلى ما هو أبعد من ذلك. إلى الملاحظات اليومية التي نراها في الحياة، تأمّل مثلًا قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا**﴾ (الفرقان ٤٥-٤٦). ينبهك إلى مشاهدة فعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في حركة الظل الذي اختار للضوء حين خلقه ألا يمرّ من الأجسام المعتمة تاركًا وراءه بقعة كبيرة غير مضاءة تتحرك مع حركة الجسم. من الذي اختار للضوء أن يسلك هذا السلوك؟؟ إنما هي هكذا!

وهكذا، تلاحظ أنه الوجود المعتاد الذي لا نعرف غيره منذ أن تعرفنا على الحياة. إنها الطريقة التي اختارها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لتصريف هذه الدنيا ولا بد لنا من اتباعها.

من جديد نسأل: لماذا توجد الأشياء بالطريقة التي توجد عليها؟ ألا تدل هذه السنن الثابتة المختارة على القصد، على النظام، على انتفاء العشوائية والفوضى؟ ألا يدل ذلك على إرادة عليا

تقف وراءها؟ ألا يدل ذلك على إله لطيف يسيطر على كل هذا؟ إله لو شاء لغيّر نواميسه وطرقه. كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة ٦٠-٦١)!!

ينبهنا القرآن إلى هذا الدليل على وجود الله، لما ذكر لنا مناظرة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع النمرود، لما قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (البقرة ٢٥٨). فقال له النمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (البقرة ٢٥٨). والصحيح أن النمرود قال ذلك على سبيل الاستهزاء، فهو لم يكن ليرى أن إحياء الله وإماتته دليل عليه فعلًا، لذا ردّ عليه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ (البقرة ٢٥٨). ائتِ بكون غير هذا! اخلق شيئًا على طريقة مخالفة. اجعل نواميس الكون تسير عكس الصورة المعتادة. اثبت لنا أن الأشياء لم يُقصَد أن توجد بالطريقة التي هي عليها!

كما قال (بول ديفيز): إن العلماء يستيقظون ببطء على حقيقة غير مريحة، يبدو الكون على نحو مريب، وكأنه قد حُدِّدَ سلفًا». أو كما همهم (فِريد هويل) متذمّرًا: «وكأن أمره قد دُبِّرَ بليل»!

لا توجد إجابة فعلًا للنمرود ولا لغيره!

فلا عجب من أن تكون خاتمة الآية: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ٢٥٨).

٣

الهشاشة

"الإنسان المعاصر الذي أوغل في العلوم التجريبية لم يفعل شيئًا لفهم نفسه، فبقي الإنسان: ذلك المجهول"

ألكسيس كاريل

في ١٩٨٨ نشر (فرانك كلوز) كتاب: (النهاية، الكوارث الكونيّة وأثرها في مسار الكون)، هذا كتاب لطيف ومبشّر جدًا، هو يشرح لك فقط بالتفصيل كيف أن الحياة على الأرض على الأرجح ستنتهي في يوم من الأيام حين ترتطم بكويكب أو نيزك عملاق من تلك المليارات التي تسير في الفضاء بشكل عشوائي - مثلما حدث مع الديناصورات منذ ملايين السنين حسب آخر النظريات قبولًا - لتسبب انفجار يقضي على الحياة في نصف الأرض ثم ينثر سحابة سوداء كثيفة من التراب إلى طبقات الغلاف الجوي لتعلق هناك لمئات السنين فتقضي على ما تبقى من حياة على الأرض ببطء.

هذا ما لم يكن الجسم الذي ترتطم به الأرض أكبر من الأرض نفسها، مثل ارتطام مجرّتين يتقاطعان في المسار الذي يدوران فيه. حينها لحسن الحظ لن تكون هناك أي سحابات سوداء، ولكن ستفنى الأرض كلها في لحظة بالطبع!

على أن هذا من الممكن ألا يحدث، ولكن يذكّرنا (كلوز) في نهاية الكتاب أن ما هو أكيد ومضمون أن يحدث أن الشمس ستفنى في النهاية وتتضخم للمرة الأخيرة قبل أن تنفجر تمامًا. هذا مصير محتوم للشمس اتفق عليه كل علماء الفضاء، ويبقى أن ننتظر حدوث ذلك. نسيت أن أقول أن تضخم الشمس يعني أن تسيح الأرض بما عليها في ثوان معدودة لأن قرص الشمس ستصل حدوده إلى حدود كوكب المشترى. وبالطبع نحن كبشر لا نملك أن نفعل شيئًا إلا أن نحاول أن نهرب قبل حدوث ذلك إلى كوكب آخر على منظومة شمسيّة أخرى ويكون مؤهلًا للحياة، وحظ سعيد لنا في فعل ذلك!

أخبار مبشّرة، شكرًا لك يا كلوز.

بالنسبة لمن يؤمن بالله واليوم الآخر فنحن نعلم يقينًا أن هناك يومًا للنهاية، وهذا اليوم معلّق بمشيئة الله وحده، تتغيّر فيه كل القوانين الفيزيائية ويتم تخريب العالم فيه تمامًا كعقد منظّم متناسق يتم فرطه بشكل مفاجئ.

لكن ليس عليك أن تكون بالضرورة مؤمنًا حتى تعلم أننا في غاية الهشاشة، وموقفنا من ناحية القوة والضعف في غاية السوء. في ١٩٤٤ وأثناء اقتحام الحلفاء لأوروبا توقفت كل الاتصالات الإلكترونية فجأة وعُزِيَ ذلك إلى انفجارات حدثت في مجرة أندروميدا التي تبعد عنا ٢,٥ مليون سنة ضوئية. وهناك نوع من الزلازل الفاجعة يحدث على وجه الأرض ويتسبب عن تغيرات على سطح الشمس!

التكنولوجيا الحديثة رائعة لكنها لا تصمد أمام زلازل اليابان ولا تسونامي المحيط الهادي. والسيارات الحديثة ذات معدلات أمان عالية إلا أنها لن تسعفك إذا سقطت بها من فوق جبل أو ارتطمت بشاحنة عملاقة. والمحافظة على الصحة بالرياضة والطعام الصحي خيار موفّق لكن بالطبع هذا لا يمنع الإصابة بالسرطان أو بمرض فيروسي غامض يقضي عليك بسرعة قبل أن يتسنى للأطباء حتى معرفة ما أصابك. وفي اللحظة التي تجلس فيها متأملًا في ثرواتك أو أملاكك أو القرارات الحكيمة التي أصدرتها للسيطرة على المنطقة التي تحكمها في العالم، قد تكون هناك قطعة دماء متخثرة في طريقها الآن لغلق شريان رئيسي في المخ، قد لا تستطيع بسببها السير أو الكلام أو الأكل حتى بعد ذلك.

نحن في غاية المسكنة والضعف، كائنات هشّة تمامًا في هذا الكون الفسيح، وليس الفضاء المرعب بأخطر علينا من أوعيتنا الدموية التي نظن أننا نمتلكها! وبين هذا وذاك توجد الآلاف من المخاطر والانكسارات التي قد تصيب هذا الكائن الهش: الإنسان.

هذا الفقر الكوني للإنسان والضعف المتأصّل فيه عبّر عنه القرآن بقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (سبأ ٩).

إنها قلة الحيلة الإنسانية التي ينبني عليها ألا يستطيع أن يفعل شيئًا إلا أن يقف متفرّجًا إذا أراد الله أن يهلكه! ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ (الرحمن ٣٣-٣٥).

هذا الضعف وهذه الهشاشة، ليست في العجز عن منع الكوارث فقط، ولكن أيضًا في العجز عن جلب المنافع إن أراد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يوقفها. فمن ذا الذي استطاع أن ينقذ الآلاف من رؤوس الماشية التي أُعدِمت بينما الإنسان في حاجة إلى لحمها ولبنها حين تفشّى فيها مرض كروتزفيلد جاكوب (جنون البقر)؟! ومن الذي استطاع أن يحمي الحقول الخضراء من هجمات

الجراد التي تأكل المحاصيل والإنسان في أمسّ الحاجة إليها. بكل التكنولوجيا التي معنا ما زلنا عاجزين. كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ**﴾ (الواقعة ٦٣ -٦٥). لن يكون في جعبتنا إلا الصراخ والعويل!

حين تشرب الماء من أحد زجاجات المياه المعدنية القائمة على استخلاص المياه الجوفيّة، فأنت أمام محاولة بشريّة للتخلص من السموم والكيماويات التي أهدتها الثورة الصناعية لمياه الأنهار. والآن تخيّل لو تخلخلت طبقات الأرض وغارت بداخلها كل هذه المياه، هل تقدر أن تعيد استخراجها؟ إن آلات التنقيب والحفر البشرية حتى الآن لا تستطيع أن تصل إلى أعماق أبعد من عدة كيلومترات. حينها تستطيع أن تفهم قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ**﴾ (الملك ٣٠).

بل أحيانًا أشعر أن الإنسان أكثر هشاشةً من شركائه في الخليقة، وأنه كائن دخيل على بقية الكائنات في الكوكب! كل الكائنات من حوله تتأقلم تمامًا مع ظروفها بلا مشاكل، بينما نحن نحتاج إلى الكثير من الضبط والتغيير حتى نستطيع النجاة.

فأنت ترى الدُبة القطبية تعيش في درجات حرارة أسطورية دون أن تحتاج إلى معطف صوفي أو جورب شتوي. وترى الثعلب الاستوائي يعيش في مناخ مجرم في حرارته دون أن تبدو عليه أعراض الـ (فرهدة) التي نراها على أوجه الناس في أتوبيسات شهر يونيو!

تستطيع أن تتبين أن قطة منزلك قد تعيش عمرها بأكمله على البسكويت الخاص بها موحد الطعم دون أن تملّ منه، وبالطبع لم تُجرّب سمكة القرش أي أطعمة أخرى بخلاف الـ (Seafood) دون أن تشعر بأنها بحاجة إلى كوب شاي أو بعض الحلوى الجيلاتينية لتغيير مذاق الفم.

الفكرة أننا كبشر نعاني من (الاحتياج) أكثر بكثير من أي كائن آخر، دائمًا هناك شيء ما نحتاجه كي نبقى على قيد الحياة، ثم هناك أشياء أخرى نحتاجها حتى نشعر بكمال الرفاهية التي نحتاج إليها. وعندما تُلبّى كل رغباتنا نقوم بابتكار عادات وحاجات جديدة، ونبكي عندما لا نحصّلها!

هذا يتفق فيه الجميع بالمناسبة، فصاحب أعلى شهادة علمية في الفيزياء التجريبية يحتاج إلى سخان ماء في حمامه، وصاحب النصيب الأكبر في أسهم مطاعم (ماكدونالدز) يحتاج إلى (ملّاحة) على سفرته.

إذن من بين سكان الأرض نحن الأحوج والأنقص والأضعف، نحن أكثر الكائنات امتلاكًا لخلل واضح في ملكيتها لأنفسها! لو كان أذكى كائن في الأرض بكل هذه المسكنة وقلة الحيلة، فنحن نعيش إذن في غابة مليئة بالكائنات المسكينة غير المسيطرة، وأشدهم مسكنةً هو -يا للعجب- أكثرهم غرورًا!

هذا وحده كفيل بشعورك بوجود إله فوقك، كما يقول تعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ۞ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل ٥٢ -٥٣).

ﮔ

ماذا عن هشاشتنا النفسية؟ الإنسان من حيث هو إنسان كائن مسكين بحق! يمكنه أن يزعم القوة ويدعي الاستغناء ولكنه يعلم من قرارة نفسه أنه ليس بهذه القوة على الإطلاق!

عن نفسي مثلًا، فقد كان لدي كابوس يراودني كثيرًا حين كنت طفلًا. هو أن أتوه وأضل عن طريق بيتي وأجد نفسي في شوارع غريبة وسط أشخاص أغرب. لسبب ما كان هذا أكثر ما يخيفني في الطفولة، أكثر من الوحوش الخضراء والعناكب السوداء وعضّات الألم أو أنات الوباء. كنت في الكابوس أسير في طريق جديد وأعلم من داخلي أنه لن يوصلني إلى البيت بسبب ما أشعر به، أو بمعنى أدق بسبب ما لا أشعر به! كنت لا أشعر بالصواب.

لم يختفِ الكابوس عنيّ قط. كثيرًا ما ينتابني في اليقظة بعدما كبرت نفس الشعور القاسي: لا أشعر بالصواب. ثمة شيء خطأ. لا أدري في أغلب الأحيان بدقة ما هو. ربما مكاني خطأ. ربما أنا مع الأشخاص الخطأ. ربما أنا أفعل الأشياء الخطأ. لربما أضيع حياتي في المعافرة في الطب بينما أنا خلقت لأكون منسق حدائق بارع، ربما سوف أشعر بالسعادة أكثر لو كنت تخصصت معرفيًا في دراسة الأمراض التي تصيب زهرة عباد الشمس في أندونيسيا. لربما صديقي الذي ابتعدت عنه منذ سنين كان توأم روحي، ربما أنا أسكن على بعد شارعين من المكان الذي هو من المفترض أن يكون بيتي.

أحيانًا وبشكل مفاجئ غالبًا، لا أشعر بالصواب، أشعر بالتيه، بالحيرة، بالوحشة من حياتي التي اعتدتها، بالتعجب من الجدران الأربعة التي أنظر إليها الآن، بالدهشة من وجه البائع الذي يناولني بقية أموالي، بالخوف من السيارات التي تحيط بي في الزحام، بالحنين إلى وطن لم أزره من قبل.

لا أدري إن كان هذا مرضًا أم حاجة عاطفية أم لمحة فلسفية أم مجرد دلال آخر. ولكن ما أعلمه أنه لا يوجد ما يقدر على إخراجي من هذه الحالة سوى عناق دافئ مع أحجار الثبات في تلك الدوامة الغامضة التي أدعوها مجازًا: شخصيتي!

أمي، أبي، زوجتي، إخوتي، بضعة نفر من أصدقائي. هؤلاء الذين أراهم وأجالسهم فأشعر بالصواب مجددًا. إنهم الأعمدة التي توفر التوازن لموازين قلبي المتأرجحة، فتات الخبز التي نثرها هينزل في الغابة كي يعرف طريق العودة، قوقعة اتزان أذني الداخلية التي تحميني من الإصابة بالدوار، المفاتيح المرسومة أول السطور تدلني على بداية ألحاني الجديدة وعلامة نهاية ألحاني البائدة.

يا إلهي العظيم! إلى كم بلغ إبداع وجمال صنعك؟! كيف خلقتني على هذه الصورة المعقدة؟ أشعر من داخلي بأني أحوي العالم بأكمله، أشعر بأن وعيي يحيط بالوجود، أشعر بأن خيالي قد أعطاني تذكرة قطار دائمة يمرح ويسرح في كل ركن من أركان الكون. وبرغم ذلك أعلم يقينًا أنه سوف تتلاشى معالمي في اللحظة التي يرحل فيها عني بضعة نفر!

يا ربي، أنا القوي الضعيف، أنا القادر العاجز، أنا المستغني المحتاج، أنا الإنسان الذي خلقته ليكون شاهدًا على قدرتك، حين ينظر في الكون فيندهش بأنه مفهوم، ثم ينظر في نفسه فيعلم يقينًا أنه لن يفهمها قط!

كما ذكر الرياضي (ليونارد أويلر) أن الرياضيات قد فسرت كل العلم ما عدا النفس والله! وقال الفيلسوف الفرنسي (مونتيني): «كيف أثق في هؤلاء الذين يحدثونني عن علة الفلك الثامن، بينما هم عاجزون عن فهم أقرب الأشياء إليهم: أنفسهم؟!».

الهشاشة النفسية التي تعلم أنها أصابت إنسانًا يدّعي أنه جِّلد قاسي صلب مثل (نيتشه) والذي صدّع رؤوسنا بالحديث عن أخلاق الأقوياء والحاجة إلى خلق جيل جديد من الإنسان السوبر مان الذي لا يتورع عن إيذاء الضعيف والظلم حتى في سبيل القوة والتقدم.

تجد أن نيتشه -وكما ذكر كتّاب سيرته- كان كائنًا حساسًا هشًا إلى أبعد مدى، ويحكون أنه فقد عقله وهو في الرابعة والأربعين لما رأى حصانًا يضربه سيده بالسوط ضربًا مبرحًا فاقترب منه وأجهش بالبكاء وعانقه ثم سقط على الأرض، ويقال أنه في أعوامه المتبقية من حياته لم يستعد عقله فيها قط!

لذلك كان هذا الفقر وهذه الهشاشة من أدلة وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنك لا تشعر بقدرة الله أكبر ما تشعر بها إلا وأنت غارق في العجز حتى أذنيك. حين تتيقن من فقرك ومن فقر كل شيء حولك، يكون يسيرًا عليك أن تشعر بشعور غامض يقضي بأن هناك قوة مطلقة ما، تلجأ إليها! كما يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ (يونس ٢٢).

ولكن! لم يقنعك ذلك؟ لم تفهم ما العلاقة بين هشاشة الإنسان وبين شعوره بوجود إله فوقه؟ أدعوك لقراءة الفقرة التالية إذن.

٤

الحاجة

"يقول الملحدون أن الله لم يخلقنا، ولكن نحن الذين خلقناه، ولكن لماذا خلقناه؟ وليس مرة واحدة بل آلاف المرات، وفي كل مكان على الأرض"

علي عزت بيجوفيتش

بحسب تدريبات (الريكي) العلاجية التي بدأت في اليابان على يد (مياكوا يوسوي)، يجب عليك كي تتحسن صحتك وتشعر بالسلام أن تجلس في وضع استرخاء تام وضوء خافت ثم تتكلم بصوت خفيض مع أعضاء جسمك عضوًا عضوًا وتقول: كيف حالك رئتي؟ ثم تجيب أنت على نفسك: أنتِ سعيدة وبصحة جيدة. كيف حالك معدتي؟ أنتِ سعيدة وبصحة جيدة. كيف حالك كبدي؟.... إلى آخر الأعضاء المباركة.

وأما في دورات (التشي كونغ) الصينية فيجب عليك أن تتخيل طاقة (التشي) الكونية وهي تدخل إلى جسدك من خلال منافذك العلوية، وتقوم بإغماض عينيك وتخيل الطاقة الكونية وهي تدخل إلى كل عضو لتملأها بالصحة والسعادة. ولكن يحذرك مدرّبو التشي كونغ من توجيه الطاقة الكونية ناحية الدماغ أو القلب بشكل مباشر لأن هذا قد يسبب تلفًا عظيمًا بهما، نحن نتعامل مع أمور خطيرة ولا نعبث هنا. وبالطبع يمكنك أن تقوم بـ (جلب الحبيب) على الطريقة الصينية عن طريق تجميع الطاقة الإيجابية بين راحتي يدك لتصنع (كرة المحبة) وتقذفها على من تشاء، ولكن برفق، لتجده ينجذب إليك بقوة الطاقة الكونية.

وجاء في أعداد مجلة (الطريق إلى الطب البديل) في أغسطس ٢٠٠٣ عن التأثير الروحي للتماثيل حسب فلسفة (الفونغ شوي) أن تماثيل البط الخشبية في المنزل جاذب مهم للوئام بين الزوجين.

وأما في دورات (الماكروبيوتيك) المستوحاة من فلسفة الديانة الطاوية وبوذية زن، فتتعلم فيها أن تتجنب أكل اللحوم والألبان والعسل والفواكه! لا أدري كنه الغذاء المتبقي لك من بعد ذلك ولكن عمومًا فيجب أن تمضغ اللقمة ٦٠ مرة قبل بلعها، إلا لو كنت تملك مرضًا عضويًا فيجب عليك حينها ألا تبلع اللقمة إلا بعد مضغها ٢٠٠ مرة! بالطبع وجبة الغذاء سوف تنتهي في عدة سنين بهذا

المعدل، ولكن الأمر يستحق، فهم يؤكدون أن الماكروبيوتيك يشفيك من جميع الأمراض، وهو ما آمن به ١٩ مريضًا بالسرطان فتوقفوا عن الدواء واعتمدوا هذه الحمية، فماتوا جميعًا بحسب جمعية السرطان الأمريكية.

الأمثلة السابقة جزء من التطبيقات التي ابتكرتها بعض ديانات الشرق والمتأثرين بها، مثل الديانة الطاوية والبوذية والشنتوية والهندوسية والمهاريشية. يؤمن معظم هؤلاء بأنه لا يوجد إله ما، وإنما الكون كله هو موجود واحد، هو العقل الكلي عند الإغريق، أو العقول العشرة عند الفلاسفة، أو الطاو في فلسفات الصين، أو براهما عند الهندوس، أو النور الأعلى عند المانوية، أو السفاريت عند القبالة، أو الجوديسات عند الغنوصية والهونا.

ثم أنه ولكي نكون في تناغم روحي مع هذا الكون علينا أن نسعى إلى الاتصال بهذه الطاقة الكونية عن طريق الجسم الأثيري المحيط بنا كالحبل (الأورا) والمنافذ الروحية (الشكرات) والمسارات الروحية في أجسامنا (الكونداليني) والموازنة بين نسب المتناقضات (الين واليانج) في الأغذية والروائح والأشكال الهندسية.

هذه الديانات إلحادية! هؤلاء الذين ابتكروا لنا هذه التطبيقات الروحية ملحدون لا يؤمنون بوجود إله أصلًا، وهم برغم ذلك يسعون إلى (الروحانيات) مثل المؤمن وأكثر!

يبدو لي أن الإنسان، من حيث كونه إنسانًا وبكامل غض النظر عن الاعتقاد الذي اختاره لنفسه، فهو يرفض أن يقنع بسهولة بأن يكون مجرد مادة! يبدو لي أن الإنسان لن ينجو بسهولة من ذلك البحث المحموم الذي خلقه الله عز وجل فينا نحو نور السماوات والأرض، ولن يفلت من تلك المجاعة الروحية التي يعاني منها!

***

منذ أربع سنوات صدر كتاب بعنوان (كيف يغير الله عقلك) لعالمَيْن أمريكيين أحدهما عالم أعصاب يشرحان فيه كيف أن تصوير نشاط الدماغ عند المتدينين والملحدين أثبت الأثر الإيجابي الكبير للإيمان بالله على الصحة البدنية والنفسية والعقلية للإنسان. وفي كتاب آخر لعالم الأعصاب (كيفن نيلسون) يُدعى: (الدافع لله، هل تم تسليك الدين في عقولنا؟)، ذكر كيفن أن هناك ربط عميق في أدمغتنا بين الروحانية وبين أن تكون إنسانًا!

كان (ريتشارد دوكنز) يعاند كعادته ويقول: «قدرة الدين على جلب السلوان لا تجعله حقًا». فنبّهنا (ديفيد بيرلنسكي) إلى أن هذا كلام صحيح في مجرّده ولكن على المرء أن يتساءل عن سبب امتلاك الدين لهذه القوة لمنح السلوان ووجه استئثاره بهذه القوة على مدار التاريخ الإنساني كله!

يقول المثل الإنجليزي (لا يوجد ملاحدة في الخنادق). ويذكر لنا المؤرخون أنه ليس مجرد مثل. فمنذ ألفي عام يقول المؤرخ اليوناني (فلوطرخس) والمشهور عندنا باسم (بلوتارخ): «قد نجد مدنًا

بلا أسوار، أو بدون ملوك أو حضارة أو مسرح، ولكن لم يرّ إنسان مدينة بدون أماكن للعبادة والعُبَّاد». ويقول (برجسون) بعده بنصف قرن تقريبًا: «لقد وُجِدت وحتى الآن مجتمعات إنسانية بدون علم ولا فن ولا فلسفة، ولكن لم يوجد مجتمع إنساني بدون دين». ويقول المؤرخ الشهير (ويل ديورانت): «حتى المؤرّخ المتشكك لديه احترام متواضع للدين لأنه يراه مؤديًا لوظيفته، ولا غنى عنه في كل أرض وجيل».

ويرى الفيلسوف (هيجل) أن التدين عنصر أساسي للإنسان وجزء من ماهيته. ويلاحظ الأستاذ (زكي نجيب محمود) أن الإنسان يتميز عن غيره من الكائنات بإدراكه للربوبية، ويقترح أن يكون اسمه: الكائن المتدين. وهو مثل اقتراح (كارين أرمسترونج) في كتابها (مسعى البشرية الأزلي، الله لماذا)، حيث اقترحت تسمية الإنسان بـ Homo Religious بدلًا من Homo Sapiens.

يزعم (انجلهارت) و(ويلزل) في كتابهما: (الحداثة، التغير الثقافي، والديمقراطية) أن إنسان العصر الحديث قد تجاوز الحاجة إلى الإله والأديان بما أظهره من سيطرة على عناصر الطبيعة وانخفاض أزمات الغذاء وارتفاع معدلات الأعمار. وتضاءلت الحاجة إلى طمأنينة الأديان. ولكن هل هذا صحيح؟ هل إنسان العصر الحديث أقل حاجة إلى طمأنينة (الروحانيات) فعلًا؟!

لدينا مثلًا (أوجست كونت) لما أسس المدرسة الوضعية، رفض في فلسفته كل ما هو اعتقادي أو غيبي، واعترف فقط بالمادة والتجربة المحسوسة. ولكنه بعد ذلك يفاجئنا بالدعوة إلى دين جديد! اسمه (دين الإنسانية)، وفيه نعمل لصالح كائن أعلى وهو البشرية، ومن ثم نضمن خلودها. هذا شبيه إلى حد كبير بـ (الدين) الذي أسسته الماركسية بشكل مستتر، حيث تكون فيه الدولة هي المعبود، والبروليتاريا هي الروح القدس، والحاكم هو النبي المعصوم الذي لا يُسأل عما يفعل، وتنبؤاته قطعية، وآراؤه حقائق لاهوتية، والحزب يجمع الكهنة وينظمهم.

لذلك ذكر (جوستاف لوبون) في كتابه (سيكولوجية الجماهير) أن القناعات الفكرية للجماعات في عصور التغيرات الكبرى تتخذ طابعًا خاصًا وسماه: الحس الديني، ويتمثل في حب كائن أعلى والخضوع له، ومعاداة كل ما هو غيره.

ولكن هل العصر الحالي استثناء؟ وهل التغيرات الحالية التي سببتها النزعة الإنسانية تجاه التحرر والإلحاد مختلفة عن كل تلك التغيرات التي رصدها (لوبون)؟

لاحظ الأستاذ (إلياس بلَكَا) أن الممارسات الباطنية بمختلف أشكالها من قبلانية، وإخفائية، وتنجيم، وكيمياء خفية، قد عادت بقوة في العصر الحالي خاصة في الغرب. وفي (المكتبة الفلسفية الهرمسية) في أمستردام حوالي ٤٠٠٠ عنوان في الكتب المتخصصة في الباطنية فقط. وأما البوذية فوصل عدد ممارسيها في الاتحاد الأوروبي إلى مليونين ونصف، وفي الولايات المتحدة خمسة ملايين، وارتفع عدد معتنقي البوذية في فرنسا من ٢٠٠ ألف في ١٩٧٦ إلى ٦٠٠

ألف في ١٩٩٧ ولهم حوالي ٢٠٠ مركز ودير في فرنسا، حيث تملأ البوذية الفراغ الروحي الكبير لدى معتنقيها وعزاء النفس وتهدئتها.

تجمّعات الملحدين ليست أفضل حالًا، فقد رصد الأستاذ (عبد الله العجيري) تأسيس بعضهم لـ(كنائس الإلحاد)! في كندا وبريطانيا وأمريكا وغيرهم، وإقامة الاحتفالات والأعياد، مثل عيد ميلاد داروين، ويوم الإلحاد العالمي، ويوم الزندقة والكفر في ٣٠ سبتمبر من كل عام!

وفي سنة ٢٠٠٨ قام مركز Pew للأبحاث بعمل مسح للانتماءات الدينية في الولايات المتحدة، ومقارنتها بالمذهب الديني المُلَقَّن في الطفولة، فوجد أن أقل نسبة استبقاء لمذهب الطفولة كان من نصيب الإلحاد واللا أدرية، أكثر من نصف هؤلاء الأطفال (٥٤٪) لا يبقون على ما تمت تنشئتهم عليه من الإلحاد أو اللا أدرية.

يبدو لي أن الإنسان يحتاج حقًا إلى الله! يبدو لي أن الإنسان يحتاج حقًا إلى وجود الله!

مثل (فولتير) الذي صرّح بأنه «إذا لم يكن الله موجودًا، فإن علينا اختراعه»! أو مثل (داروين) الذي كتب رسالة إلى صديق له بتاريخ ١٧ يونيو ١٨٦٨ يخبره فيها أنه سعيد لأنه وجده متدينًا، ووضّح له كم يعاني هو من جفاف روحي شديد بسبب العلم المادي حتى كأنه (ورقة شجرة جافة)، مما جعله أحيانًا يبغض العلم المادي. أو مثل (سام هاريس) داعية الإلحاد الشرس الذي أبدى اهتمامًا كبيرًا بروحانيات ديانات الشرق، وكتب كتابًا أسماه: (الصحوة، دليل إلى الروحانية بدون دين)! أو مثل (فرانك شفر) الذي كتب كتابًا عنوانه كوميدي للغاية: (لماذا أنا ملحد يؤمن بالله)!

كان الإمام (ابن القيم) رحمه الله يقول: «في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة لا يزيلها إلاّ الأنس به. وفيه حزن لا يذهبه إلاّ السرور بمعرفته وصدق معاملته. وفيه قلق لا يسكنه إلاّ الفرار إليه. وفيه فاقة لا يسدها إلاّ محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له».

❦

تلك الحالة التي هي مزيج من الحيرة والتيه وجوع قارص لا يعلم صاحبه ما الذي قد يشبعه! تلك الحالة هي التي عبر عنها القرآن بلفظ بديع، فقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ**﴾ (الأنعام ٧١)

حَيْرَان!

٥

العناية

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

سورة النمل آية ٢٥

أعرف واحدًا من أحلامك! في الصيف القائظ أنت تحلم ببطيخ بدون بذر، أليس كذلك؟ كلنا يتمنى ذلك في الحقيقة، وهذا يدفعنا إلى التفكير في سبب وجود البذور في وسط ثمار الفاكهة الشهية لتفسد علينا فرحتنا بها.

سبب ذلك هو أن النباتات لا تكسب شيئًا من طرح الثمرة بكل هذا الإهدار في الطاقة والمكونات الغذائية إلا لكي تكون طُعمًا يحوي بداخلها أطفاله (البذور) ويجذب الطيور والحيوانات والبشر بألوانها الزاهية وروائحها الشهية لأكلها ومن ثم نشر بذورها وإتمام عملية التكاثر. بالنسبة للنبات فسبب وجود الخضراوات والفواكه هو إغراؤنا لمساعدته بالزواج. بالطبع نحن نحتال على حيلة النباتات بطريقة أخرى، حيث يجمع الفلاحون منا هذه البذور ويزرعونها في قطع مخصوصة من الأراضي لينتفعوا أكثر بالغذاء، النبات يمدنا بثماره وهو يحسب أننا سوف ننشرها عشوائيًا كالطيور البلهاء ولا يعلم أننا أذكى من ذلك.

على ذكر الطيور البلهاء، فالنبات يستغل بلاهة الطيور، فلدينا مثلًا الجوز واللوز والبندق وغيرها من (المكسّرات) عبارة عن بذور مخصوصة مليئة بالسعرات والمواد الغذائية كي تساعد النبات الجديد في النمو بسرعة، هي أطفال النباتات ومرفق معها كل ما يلزم هذه الأطفال من غذاء تحتاجه، ولأنها كذلك، فالنبات يحميها بقشرة صلبة للغاية حتى لا تأكل الطيور أطفالها وتكتفي بنشرها في التربة الخصبة بعد أكل الأوراق، ولكن الطيور البلهاء ليست بهذه البلاهة حيث لها أيضًا حيلة!

فالببغاء مثلًا لديه منقار معقوف ومخالب ثلاثية، المخالب تمسك بحبة الجوز والمنقار المعقوف (الشبيه بعتلة فاتحة العلب المعدنية) يتمكن من كسر القشرة الصلبة ويحصل على الغذاء الدسم

السمين بداخلها، الببغاء يفعل ذلك لأن وزنه ثقيل ولو أكل أوراق النباتات حتى يشبع فسيثقل هذا وزنه أكثر ومن ثم يعجز عن الطيران، فيلجأ لهذه الحيلة حتى يحصل على غذاء خفيف الوزن عظيم الفائدة. الببغاء ينجح في الفرار من الحيل النباتية ويتمكن في نفس الوقت من الاحتيال على قوانين الكتلة والجاذبية.

وبعد أن يموت الإنسان الأذكى منهم جميعًا يتحلل في التربة ليمتص منه النبات كل النيتروجين بداخله، من وجهة نظر النبات فهو الذي نجح بحيلته في البقاء، إنه وكأنه قد رعى الإنسان وأعطاه كل ما يحتاجه كي يكبر ويسمن ويموت ويتحلل وينتج له كل هذا النيتروجين الثمين! ولو نظرت إلى متوسط عمر الإنسان ومتوسط عمر الأشجار مثلًا لعلمت أن هذه ليست فكرة غريبة تمامًا.

هناك الكثير من الحِيَل عند مخلوقات الله، لا ندري من أين تعلموها! زهرة (الهندباء) تتخذ شكل المظلة فتحتال على قوانين الجاذبية وتطير لمئات الأمتار لتتكاثر. وزهرة (الأوركيديا) تتخذ شكل أنثى النحل لتجذب الذكر إليها فتلصق به حبوب لقاحها. وأما زهور الزنابق فتطلق رائحة شبيهة باللحم المنتن الذي تعشقه الذباب لتجذبه إليها لنفس الغرض. بينما نبات (الكرمية) المتسلق فيلتف على نفسه ويربط عقدة، تجف وتتمدد، حتى تنفجر لتطلق بذور اللقاح في كل مكان.

يقطع عنكبوت الحصاد أحد أرجله الثمانية حين تطارده فريسة كي يلفت نظرها بعيدًا عنه وينجح في الفرار. ويضرب طائر الكيوي الأرض برجله حتى تخرج الديدان له فيلتهمها. ويطلق جذر نبات الجوز بعض المواد الكيماوية التي تمنع نمو الطماطم أو البطاطس أو البرسيم بجانبه لأنها تنافسه على الغذاء. بينما يقع النحل على بعض الزهور السامة عمدًا كي يخلط السم بالعسل بنسبة لا تضره هو ولكن تقتل كل من يتعدى على خليته بالالتهام.

إنها مخلوقات الله الذي مكّن كلًا منها من مقدار كافٍ من الحِيَل الناجحة! فتقدر كلها على النجاة، وتنجح كلها في البقاء، وتتنافس جميعها على موارد محدودة، فيخرجون وقد احتالوا جميعًا على بعضهم، ونجحوا جميعًا بطريقة ما في اجتياز طريق الحياة الوعر!

هذا ليس بعجيب على الله لسبب بسيط، أن الله عز وجل هو الواسع. ﴿**قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ (آل عمران ٧٣-٧٤).

الواسع يسع الجميع بعنايته، ويعطي الجميع ولا ينفد ما لديه، ويحرس الجميع ولا يكلّ بما عليه، ويهدي الجميع فلا يصير إلا إليه. فدنيانا ضيقة، وربنا واسع!

أمثال هذه العناية هي أدلة على وجود من يعتني بكل هذه الكائنات. انظر إلى مثال آخر: عيون الحيوانات المختلفة!

يقتنص الصقر مثلًا طعامه من المحيط بسهولة، وذلك لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أهداه عينين في مقدمة رأسه متجاورين كعيني الإنسان، كل واحدة من هاتين العينين ترى ثلثي الصورة ببعدين فقط: الطول والعرض. مما يمكنه من أن يركبهما في مخه ليرى صورة ثلاثية متداخلة: الطول والعرض والارتفاع. هذه الظاهرة تُدعى في علم البصريات: Stereopsis، أي القدرة المخّية على إدراك العمق وخلق صورة ثلاثيّة الأبعاد من صورتين ثنائيتي الأبعاد. بواسطة هذه القدرة فقط يستطيع الصقر أن يقتنص السمكة من المحيط بسهولة لأنه يحدد مدى العمق الذي تسبح فيه تحت سطح البحر.

على أن هذا ليس كل شيء، فلأن شعاع الضوء الصادر من السمكة ينكسر عند خروجه من الماء إلى الهواء فإن من يراها بشكل جانبي سينخدع في عمقها الحقيقي. أنت هنا تتعامل مع ظاهرة انكسار الضوء وهي ظاهرة يعرفها كل من يرى ملعقة في كوب من الماء فيشعر أنها مكسورة. ما الحل لكي ترى هذه الملعقة غير مكسورة؟ أسمعك تقول: أنظر إليها من أعلى كوب الماء وليس من الجانب. وهذا هو بالضبط ما يقوم به الصقر حيث لا ينزل للاصطياد إلا حين يرى فريسته بزاوية رأسية!

من الذي اعتنى بهذا الصقر فجعل لديه العينين المتجاورتيْن ثم علّمه أن ينظر إلى فريسته بهذه الطريقة؟ ربما تقول أن هذه هي الطريقة التي خلقت عليها كل الخلائق. لكن في الحقيقة الغزال سيخالفك الرأي.

الغزال والأرنب وغيرها من الفرائس اللذيذة التي تعيش في الغابات يملك كل منهم عينين على جانبي رأسه متباعدين، كل واحدة من هاتين العينين تشاهد صورة مختلفة عن التي تشاهدها الأخرى، هذا لا يصنع لديها صورة مجسّمة ثلاثية الأبعاد مثل التي تحتاجها الحيوانات الصيّادة، حيث إنها لا تحتاج إلى ذلك لأنها تأكل النبات أصلًا، والنبات لا يتحرك. بينما عيناها وبهذه الطريقة تصنع لها صورة بانورامية واسعة المجال، يمكنها أن ترى ما يزيد عن الـ ١٨٠ درجة من مجال الإبصار بهذه البانوراما بالمقارنة بـ ١٢٠ درجة تقريبًا للحيوانات ذوات العيون المتجاورة. هذا هو بالضبط عين ما يحتاجه الغزال كي يأخذ الحيطة وينجح في الفرار من هجمات الفهد الذي يشتهيه!

يا لها من عناية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمخلوقاته، نجد القرآن يحدثنا عنها حين يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود ٦). ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت ٦٠).

يمكنني أن أجول بك طوال الكتاب في أمثلة لا تُعد على عناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمخلوقاته في خلقه لهم تبعًا لما ينفعهم. والإنسان له نصيب الأسد من هذه العناية الفائقة، خذ مثالًا على ذلك: المثانة.

أعلم أن مثانتك -كمعظم البشر- تتغابى كثيرًا، ففي أوقات الحاجة الشديدة لدخول الحمام تكون قدرتها على التحمل كبيرة جدًا فقط إلى اللحظة التي تقترب فيها بالفعل من أحد دورات المياه، حينها تصاب مثانتك بالجنون الفوري، وتفقد كل قدرتها على التحمل.

وسبب ذلك أن خلاياك العصبية على قدر من الذكاء يجعلها لا تُستثار كثيرًا بالإشارات التي ترسلها لها المثانة حتى يكون هناك مجال لإفراغها بالفعل، خلاياك العصبية وقتها تحرص على ألا تحيل حياتك جحيمًا.

لحسن الحظ مثانتك لا تتغابى عند النوم، برغم أنك قد تنام أكثر من سبع ساعات متواصلة إلا أنها لا تزعجك في الغالب برغبتها في دخول الحمام، هذه المرة فالسبب هو الهرمون المضاد لإفراز البول ADH والذي يزداد إفرازه بشكل ملحوظ من غدتك النخامية ليلًا عند النوم، فيعمل الهرمون على تقليل ترشيح الماء من الكلى إلى المثانة، بمعنى آخر كمية بول أقل في مثانتك تستطيع تحمّلها، حتى تواصل نومك من دون أن تبلل فراشك.

وحين تُصاب بدوار الحركة والرغبة في الغثيان والقيء حين تكون على ظهر سفينة جارية في الماء أو تقرأ الجريدة في السيارة، فسبب ذلك أن الدماغ تلقى معلومتين متضاربتين، إحداهما من الجهاز الدهليزي في الأذن الداخلية تخبره بأننا بالفعل نتحرك، والثانية من العيون التي تخبره بـ: لا تصدق الأذن الداخلية، فنحن لا نتحرك، كل شيء مستقر أمامنا. مما يُشعِر الباحة المنخفضة Area Postrema الموجودة في الدماغ بأن أحدهما مصاب بالخَرَف والهلوسة، ويفترض أن هناك من السموم ما قد سبب هذا، فيُحفّز الجسم للغثيان والقيء لطرد هذه السموم. هو في الواقع هنا يحاول أن يحميك!

وأما حين تصاب بالرعشة في البرد وترتجف فإن جسدك في الحقيقة لا يقوم بعمل عابث، بل هو يعلم تمامًا ما يفعله، هذه الرعشة مسئولة عن إكساب الحرارة بالطاقة الحركية لخلايا جسدك التي تعاني من نقص درجة الحرارة في هذا الجو البارد، فيبقى سيتوبلازم الخلايا في حالة سائلة ودرجة لزوجة مناسبة.

تتثاءب فتعلم أن جسدك يحتاج إلى النوم، يسيل لعابك فتعلم أن الطعام الشهي الذي أمامك مفيد لك غذائيًا، تعطش فتتدارك نفسك قبل أن تدخل في نوبة جفاف، وتشعر بالألم فتفهم أن هناك جرح لا تراه في ظهرك يحتاج إلى أن يُعالَج حتى لا يتلوث.

جسدك يعتني بنفسه بشكل جيد، بل بشكل ممتاز! وربما أكثر من أي كائن حي آخر. لا يوجد الكثير مما تقلق بشأنه بخصوص جسدك وقدرته على تكييف أوضاعه مع الظروف المحيطة، لقد خلقك الله بنظام تشغيل داخلي رائع و Updates متجددة في كل ثانية. قد فرّغك الله من مشقة الاعتناء بتريليونات الخلايا التي تملكها، وهناك جيوش من الأنزيمات والهرمونات والأنسجة الضامّة المتخصصة تسهر على عنايتك ٢٤ / ٧.

***

بالمناسبة، دعنا نتحدث قليلًا عن الفوبيا!

نعرف جميعًا الفوبيا، ويمكننا أن نتتفهم بعضها، مثل رهاب الأماكن المغلقة والأماكن المرتفعة ورهاب البحر. لكن هناك أنواعًا طريفة من الفوبيا لا نتصور أن يعاني أصحابها من الخوف والهلع الشديد لهذا السبب فعلًا، مثل الخوف الشديد من التصاق زبد الفول السوداني بسقف الحلق Arachibutyrophobia والخوف من المرايا Catoptrophobia ومن البلالين Globophobia ومن الكباري Gephyrophobia ومن الدجاج Alektorophobia وهناك بالطبع المرض الذي يملكه الرجال جميعًا بدرجات مختلفة Gynophobia أو الخوف من النساء!

لماذا تحدث الفوبيا؟ هناك عدة تفسيرات، ربما من أقربها التفسير البيولوجي العصبي القائم على أن مريض الفوبيا تستقبل (لوزَتُه) إشارة واحدة فقط!

هل ازداد الأمر تعقيدًا بالنسبة لك؟

اللوزة أو الأميجدالا هي جزء صغير يقع في الفص الصدغي للدماغ وهو المسئول عن ترجمة شعور الخوف والهلع إلى حركات احترازية تتعامل مع هذا الهلع، تهيئك اللوزة للركض والهروب من الخطر، أو الصراخ لاستدعاء من ينقذك، أو حتى التجمد خوفًا ببساطة حتى لا تطيل عذاب نفسك وتلتهمك الوحوش المفترسة بسرعة.

أشار عالم الأعصاب الأمريكي (جوزيف لي دو) أن اللوزة تصلها معلومة الخطر من خلال طريقين، طريق سريع وقذر -كما سماه- عبر المهاد المخي، وهو طريق سريع جدًا ولكنه غير دقيق إطلاقًا حيث يمكن لزبدة الفول السوداني أن يتم تفسيرها في مخك من دون أن تعلم على أنها مخلّفات حيوانية مقززة، وطريق آخر بطيء ولكنه دقيق عبر نصف الكرة المخي الذي يفهم جيدًا ما هو الخطر وما هو الإنذار الكاذب.

مريض الفوبيا حين يرى الشيء الذي يخاف منه لا تصل له إلا إشارة واحدة هي إشارة المهاد غير الدقيقة، فيقع في الخوف غير المبرر من أشياء غير مؤذية على الإطلاق، فنراه نحن ونتساءل في تعجب عن ذلك الغبي الذي يخاف من البلالين، ويرانا هو ويندهش كيف أننا مثله لا نخاف منها والتي يفسرها مخه بطريقة ما على أنها: (شيء وغد آخر جاء كي يقتلك).

خلق الله عز وجل لك هذه الميكانيزمات المختلفة وراقبها وهي تعتني بك وتحميك من التخبط وسط مخاطر هذه الحياة، خلق لك طريقة حماية حسّاسة تجاه أدنى أذى تجعلك تتهيأ للدفاع ضد الخطر قبل حتى أن تفهم، خلق في دماغ كل واحد منا أم هستيرية مذعورة تصيح على طفلها في لهفة في كل لحظة تشتمّ فيها الخطر قادمًا من بعيد.

لذلك فحين ترى مريض الفوبيا الذي يهرب في هلع من الدجاج، فلا تخبر أحدًا بأن ذلك يذكرك بقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ (الأنبياء ٤٢). لا تخبر أحدًا بذلك لأنهم لن يفهموك أبدًا!

✽✽✽

وأما العناية المخصوصة، فتعني ذلك الخلق المخصوص لكل كائن بما يلائم عيشه وظروفه وبيئته واحتياجاته. وذلك لأن الله عز وجل هو القيّوم الذي به يقوم كل شيء!

ولدينا من أمثلة هذه العناية المخصوصة ما هو أكثر بكثير مما نظن.

الحرباء تملك تحت جلدها خلايا صبغية بألوان مختلفة، ليتغير لونها إلى الأسود عند الغضب لتخيف أعداءها، وإلى اللون الباهت عند الخوف لتتماهى عن عيون أعدائها. ولعاب الخفاش مصاص الدماء يحوي مادة مخدرة كي يمتص دماء ضحيته على غفلة منها، ومواد مانعة للتجلط تجعل الدماء تسير في سلاسة إلى فمه. والعدسة الخلفية في عين الصقر تمكّنه من تكبير الأشياء البعيدة. بينما فرخ الطيور يكسر بيضته بسن صغير يوجد على فكه العلوي ويختفي مباشرةً عند خروجه إلى الهواء.

الريش الناعم للبومة الثلجية يمكنها من الطيران والاصطياد في صمت تام، ومنقار الكروان الطويل يمكّنه من الوصول للديدان داخل الطين الرخو، وأجنحة طائر القطرس المحيطي طويلة ورفيعة كالشراع تمكنه من السفر فوق المحيط بالأيام دون أن يتعب، وثلاث ساعات من النوم فقط تكفي الخروف لأنه يحتاج إلى يقظته للحذر من الأعداء.

بيض طائر الزمّار الذي يعيش على الشاطئ ألوانه مُموّهة على شكل الرمال لتحميه من الطيور، والحلزون الكوبي يأخذ شكل بيئته أيًا كانت، وسمكة الشفنين ذات جسم مُفلطَح يخفيها عن

الأنظار بكفاءة في أعماق البحر، ويملك الضفدع الشيلي بقع عيون وهمية على ظهره تظهره وكأنه أفعى خطيرة ليخيف الأعداء.

عند الخطر، يطلق الظربان رائحة كريهة، وتدخل السلحفاة قفصها، ويتظاهر الأبوسوم بالموت لمدة تصل إلى ست ساعات، وتنتصب ٢٥ ألفًا من الأشواك على ظهر القنفذ، وأما الأرنب البري فيتغير لون جلده في الشتاء إلى الأبيض فيصعب على الذئب أن يصطاده.

لما يتسلق النمل ساق نبات (الميموزا) تعتدل ساقه فجأة ليسقطه من عليه. ونبتة التبغ (ترشّ) النيكوتين على حشرة المنّ فتصيبها بالشلل. وتركّز شجرة (السنديان) حمض التنيك في أوراقها كي تصيب الحيوانات المهاجمة بعسر الهضم فلا تقتات عليها ثانيةً.

وعلى ذكر النمل، فنجده يُربّي قملة النبات كأنها ماشية ويحميها مقابل ندى العسل السكري الذي تفرزه له ويعشقه، وزهرات النبات تعطي الحشرات رحيقها المجاني لقاء لصق حبوب لقاحها على ظهر الحشرة لتنقلها إلى مياسم أزهار أخرى وتتزاوج.

ماذا عن الأقدام؟ للحشرات ستة أقدام، ترفع ثلاثة منها وتترك ثلاثة على الأرض مثل أرجل المقعد لتحتفظ بتوازنها، وللبشروش المائي أقدام مُكفّفة تمنعها من الغوص في الطين، ولأقدام الضفدع وسائد لزجة تثبّتها في المستنقع الرطب، ولأقدام الأسد وسائد رخوة تحميها من وعورة الغابات، وأما الوزغ فبأسفل أقدامه ممصّات تساعده على تسلق الأشجار وشعيرات دقيقة تساعده على التمسك بالأسطح الناعمة كالزجاج.

وماذا عن الفم والأسنان؟ أنياب النمر قاطعة كالخناجر، وأسنان الأسد الخلفية تشبه المقصّات، وقواطع الغزال الأمامية آكل الأعشاب منتظمة كآلة جز الحشائش، وفك أفعى الأَصَلة العاصرة غير مثبّت بجمجمتها فيمكّنها من ابتلاع فريستها مهما كان حجمها، وفم الذبابة المنزلية شبيه بالممسحة (الشرشوبة) فتطلق اللعاب على السكر الصلب يذيبه ثم تمتص الناتج ببطء، وأما الدودة الشريطية فليس لها فم، فتمتص الطعام المهضوم الذي تعيش فيه من خلال جلودها.

وأما الحركة، فنجد أن نجم البحر يتحرك بالتلاعب بضغط الماء عن طريق أنابيبه الدقيقة أسفل قدمه، ويجري البوند ستيكر حرفيًا فوق الماء بأقدامه الشبيهة بالفرشاة الرفيعة مستغلًا توتر الماء السطحي، ويفرز الحلزون الضعيف عديم العضلات سائله المخاطي اللزج لينزلق للأمام، وأما البطريق فله بطون سمينة تمكّنه من التزحلق على الجليد.

تملك السلحفاة البحرية ترسًا انسيابيًا للحركة يشبه العجلة، والحبّار يسحب الماء ويضغطه بقوة فيتحرك بالدفع النفّاث كالطوربيد، وأخطبوط النوتي يملك أصدافًا داخلية يملؤها بالهواء ليطفو

كالغواصة، وتتحرك مجدافيات الأرجل على سطح الماء بقرون استشعارها الممدودة كالباراشوت، بينما أوتار أقدام الكانجارو تتمدد كالأستك عند الهبوط فتدفعه لأعلى ثانيةً مثل الزنبرك.

فيحدثنا القرآن عن الله الذي يقوم على حاجات كل نفس حية فيقول: ﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ (الرعد ٣٣)!!

هذه الأمثلة من العناية لا يمكنها أن تقترب من جزء من الألف من الأمثلة المبثوثة بالفعل في كتب الطب والأحياء وسائر العلوم الطبيعية. بتنا الآن على يقين من أن هناك اعتناء كامل بالإنسان، وبكل الأحياء. هذا الاعتناء الذي نجده في القرآن، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ (لقمان ٢٠).

عدة الآلاف من الأمثلة التي حدثتك عن أنها مبثوثة في الكتب، كل هذا - مع بقية نعم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ التي نعرفها– من جملة الأمثلة الظاهرة. وما لم نعلمه بعد وما لن نعلمه أبدًا هو من النعم الباطنة!

إنه الله الذي خلق فسوّى، وقدّر فهدى، ولم ينسَ من قبلها أن يخرج المرعى!

٦

الإعداد

"لا بد أن الكون كان يعرف بطريقة ما أننا قادمون!"

فر يمان ديسون

رائحة شواء (الباربيكيو) هي ما فضح البشر أمام (آلهة) الأوليمب فعرفوا أن هناك من سرق النار من أجلهم! كان هذا السارق هو (بروميثيوس) الذي نال عقابه في صورة رخ عملاق يأكل كبده كل صباح، وسبب ذلك أن زيوس -كبير آلهة الأوليمب- قد استشاط غضبًا من المهارة الصناعية والفنية التي نالت البشر بعد اكتشافهم سر النار.

هكذا نظرت الأساطير الإغريقية إلى النار، أعظم اكتشاف اكتشفه الإنسان كما يقول (داروين). نعلم أن برومثيوس غير حقيقي، ولكننا لا نعلم شيئًا عن الطريقة التي اكتشف بها الإنسان سر النار فعلًا!

بالمناسبة، ما هو أول شيء صنعه الإنسان؟ القلاع، المنجنيق، السيف، أم السيراميك؟! بالطبع هو السيراميك! حيث تشير الدلائل أن الإنسان كان يصنعه بكفاءة منذ عشرة آلاف عام، منذ أن لاحظ أن النار تزيد من قساوة الكتل الطينية وتحولها لأواني فخارية.

بعد ذلك لاحظ أن تسخين الصخور للطهي نتج عنها مخلفات من كريات معدنية صغيرة متراكمة في الرماد، فاكتشف التعدين. بعدها ربما بثلاثة آلاف عام عرف كيف يصهر النحاس، ثم خلطه بالقصدير لصناعة البرونز، وصنع من البرونز كل شيء تقريبًا، فيما يعرف بالعصر البرونزي حوالي ٣٥٠٠ قبل الميلاد. بعدها نجح في صهر الحديد، المعدن السحري للتشكّلات المختلفة، ودخل العصر الحديدي حوالي ١٢٠٠ قبل الميلاد. ثم استطاع السيطرة على بقية المعادن السبعة للعالم القديم، الذهب والفضة والرصاص والزئبق.

لم تفعل النار كل ذلك وحسب، ولكن حولت أيضًا ماء البحر إلى ملح بالتقطير. والخشب إلى قطران. والراتينات إلى زفت وتيربنتين لصنع الدهانات. وحجر الكالسيت إلى جير وأسمنت

للبناء. النار أهّلتنا للثورة الصناعية ثم قادتها بحرقها للفحم الحجري والنباتي في المحركات البخارية، ومن بعدها الثورة التكنولوجية التي مكنتنا من الوصول إلى حافة كوكب بلوتو. صنع الإنسان كل هذه الحضارة ووقف فخورًا بنفسه بعدها.

ولكننا ما زلنا نسأل كيف استطاع الإنسان أن يُسخّر النار؟!

مبدئيًا ساعدت الطبيعة خيال الإنسان في ذلك بما أشعلته من الحرائق الطبيعية، حمم البراكين، وحرائق الغابات الناتجة عن البرق، من دون هذه الحرائق الطبيعية لم يكن ليقدر على تخيل ظاهرة النار أو محاولة تقليدها.

الإنسان لم يكن ليقدر على إشعال النار أيضًا لولا أن الأرض ككوكب لها حجم معين، هذا الحجم المضبوط بدقة ساعد على أن يحتفظ الغلاف الجوي بخواص تدعم التنفس والاشتعال معًا. حيث يجب أن تكون جاذبيته قوية كفاية للحفاظ على العناصر الثقيلة مثل النيتروجين والأكسجين وثاني أكسيد الكربون في غلافه الجوي، وتكون ضعيفة كفاية ليتخلص غلافه الجوي من النسب الزائدة من الهيدروجين والهيليوم. احتفاظ الأرض بالحجم والجاذبية المثالية سمحت لها بتكوين غلاف جوي يسمح لنا بإشعال النار.

نسبة الأكسجين الموجودة في الغلاف الجوي يجب أن تكون مضبوطة تمامًا أيضًا. حيث يتناسب معدل اشتعال الشعلة مع السعة الحرارية لكل مول من الأكسجين، فبالتالي لو كانت نسبة الأكسجين إلى النيتروجين أقل من ١٢٪ فلن تتمكن النار من الاشتعال في الظروف الطبيعية المحيطة. والاختبارات التي أجريَت بواسطة البحرية الأمريكية أثبتت أن النار سوف تنطفئ بإضافة المزيد من النيتروجين إلى الغلاف الجوي. دعك من أن نسبة الأكسجين لو زادت عن (٢٥٪) فسيؤدي هذا إلى حرائق لا يمكن السيطرة عليها، كما يُظَنّ أنه قد حدث في الحقبة الرطبة (العصر الكربوني للأرض). إذن نسبة الأكسجين الحالية (٢١٪) مثالية لنتمكن من إشعال النار، ثم نتمكن من السيطرة عليها.

حرق الخشب أو الفحم قد يكون أمرًا اعتياديًا تمامًا حين تراه أسفل كوز الذرة، ولكن الاحتراق (الذي هو تفاعل بين الأكسجين وبين الكربون المختزل في الفحم أو الخشب) فريد فعلًا، حيث يكسبنا كمية الحرارة اللازمة وفي نفس الوقت غير قابل للانفجار، وذلك لم يكن ليتم لولا الخمول النسبي النادر الذي تتميز به ذرتا الأكسجين والكربون.

وأما المعادن الانتقالية مثل الحديد والنحاس فتمتلك ذراتها الخواص المناسبة لتفعيل الأكسجين (برفق) في التفاعلات الكيميائية فتقل مقاومة الشد الخاص بها في درجات الحرارة العادية فيصبح المعدن طريًا يمكننا من تشكيله في صورة قضبان حديدية أو عوارض فولاذية أو أسلاك نحاس تسمح بتوصيل الكهرباء بكفاءة.

لم نكن لنقدر على السيطرة على النار أيضًا بدون الوقود المناسب! أغصان الخشب اللينة تكفي لتسخين (البرجر) ولكن لا تكفي لإذابة المعادن في أفران الصهر، ولكن الطاقة الناتجة عن احتراق الفحم الصلب تقدر على ذلك. إذن لن يمكننا أن نغفل دور الأشجار الضخمة في صنع النار. يمكننا أن نفكر إذن في عملية البناء الضوئي التي كونت هذه الأخشاب، أو في ظاهرة النفق الكمومي الفيزيائية التي تستغله صبغة الكولورفيل حتى تتحفز إلكتروناتها بالضوء المرئي وتهرب إلى مراكز التفاعل في الكلوروبلاست، أو في الليجنين المقاوم للتحطم بالإنزيمات والذي يوفر عنصر المتانة للخشب، أو السليلوز في سيقان النباتات الذي يوفر قوة شد مقاوم للمط وقوة ضغط مقاوم للثني، أو الماء الذي يصل بخاصيته الشعرية لارتفاعات تقارب المائة متر داخل عروق الأغصان العالية.

ولكن كل هذا يعني أن هناك كائن ما على الأرض قد تمت تهيئته لصنع النار والتحكم بها، ولكن هل هو بالضرورة الإنسان؟ الإجابة هي نعم بالتأكيد!

أشار عالم الأحياء (مايكل دنتون) مرارًا إلى أنه فقط الكائن الحي الذي يقارب أبعادنا وتصميمنا بطول من متر ونصف إلى مترين وامتداد ذراعين متحركين بطول متر تقريبًا ينتهيان بأطراف متلاعبة (اليدين) هو من يقدر على التحكم بها. بينما كائن صغير مثل الكلب لن يقدر على الاقتراب منها للتحكم بها دون أن يقع في محيط هالتها الحارقة. كما أنه لن يقدر على بناء الأفران اللازمة، لأن الطاقة الحركية للكائن تزيد مع زيادة الطول مرفوعًا للقوة الخامسة، لذا لا يمكن للنمل أن يستخدم مطرقة، لأن الطاقة الحركية للمطرقة المناسبة لحجم النمل صغيرة جدًا لدفع مسمار بحجم النمل.

أما لو افترضنا وجود كائن كبير مثل عملاق يسير على قدمين، فسيكون مقيدًا بالجاذبية وسيدفع ثمن طوله بالضعف النسبي لتأثير عضلاته، وهذا يفسر لنا كيف أن النملة تحمل وزنًا مقارب لوزنها مما يعطينا انطباعًا أن النملة أقوى منا، ولكن قياس عضلات الحشرات أثبت أنها ليست أقوى، إنما هي تستغل القاعدة القائلة بأن قوة العضلات تزداد بزيادة (تربيع) الطول، أما الوزن فيزداد بزيادة (تكعيب) الطول.

لم يكن لبروميثيوس دخل لما وصلت له البشرية من تطور. بل كانت الطبيعة مهيأة تمامًا كما كنا نحن مُهيّؤون أيضًا للتحكم في جذوة النار التي قادت حرفيًا لكل شيء. كما كان عالم الأحياء الكبير (ألفريد راسل والاس) يجادل بأن الطبيعة لم تكن مناسبة للحياة فقط، ولكن كانت مناسبة لحياة الإنسان بالذات. وكما قال عالم الرياضيات (فريمان ديسون): «لا بد أن الكون كان يعرف بصورة ما أننا قادمون»!

ذلك المسكين كان يجادلني بأن الحضارة البشرية الآن صارت في غنىً عن (دَروشَة) فكرة الله والعناية والربوبية والنعم، بينما أفكر أنا في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۞ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ (الواقعة ٧١-٧٢). وأفكر أننا مدينون بحضارتنا تلك لله الذي جعل الإنسان صانعًا للنار، وأسأل نفسي: من أعدّ كل هذا لمجيء الإنسان؟!

ﮪ

ماذا عن الصناعات المتقدمة؟! منذ أن بدأ الإنسان يكثر في عدده علم أنه يحتاج إلى المزيد من الصناعة لملاقاة حاجة كل هؤلاء، بحث في الطبيعة فوجد فيها ما يلائمه! مثل السيليكون الذي صنّع منه الترانزستور واستخدمه بعد ذلك في كل صناعاته الإلكترونية. مثل لحاء الشجر الذي صنّع منه الورق واستخدمه في تخليد المعرفة الإنسانيّة. مثل الإيثيلين الذي استخلصه من النفط وصنّع منه أوعيته البلاستيكية. ومثل الحديد الذي يصنع منه سياراته وقطاراته وآلات مصانعه العملاقة. من جديد يحدثنا القرآن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد اعتنى هذه المرة بالإنسان أيضًا ووفّر له ما يلائمه من هذه المتطلبات الصناعيّة. كما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد ٢٥).

ﮪ

وحين تسير بسيارتك الحديثة على الطريق الصحراوي وتضطر إلى الوقوف في صحراء مقفرة لأن سيارتك قد نفد منها الوقود. حينها تفكر في أهمية مصادر الطاقة حقًا. لم تكن تعيرها هذا الاهتمام حتى لاحظتَ أنك بدونها ضائع في الصحراء تمامًا بينما جالون صغير من الوقود كان سيوصلك بأمان إلى بيتك! حتى لاحظتَ أن الدول إنما تتصارع وتتقاتل وتقوم وتسقط لتسيطر على مصادر الطاقة! حتى لاحظتَ أنه لا يوجد شيء واحد يتحرك في هذا الكون من دون أن تكون هناك طاقة نابعة من إحدى قوى الكون الأربعة، الجاذبية والكهرطيسية والقوة النووية الكبيرة والقوة النووية الصغيرة.

ماذا عن هذه الطاقة؟ أين هي من عناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ يمكنك أن تلاحظ أن هذا الإعداد لم ينقطع، منذ أن كان اعتماد الإنسان في مصادر طاقته على نار الحطب البسيطة، فذكّرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن بذلك، بطاقة النار التي تُدفئنا في الشتاء: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (القصص ٢٩). أو تمدنا بأنواع الانتفاعات المختلفة: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ (الرعد ١٧).

وبعد أن تقدم الإنسان بدأ يحتاج إلى ما ينتج الطاقة الأكبر، فاكتشف أن عناية الله الفائقة كانت أسبق حين أسكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الملايين من هذه الأشجار في باطن الأرض منذ آلاف السنين فتحولت إلى فحم قامت بسببه وعلى أثره الثورة الصناعية.

ما زال الإنسان يحتاج إلى المزيد. وما زال يكتشف أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم تنقطع عنايته عنه لحظة، ها هو يكتشف المزيد والمزيد من بحيرات النفط في باطن الأرض الناتجة عن تحلل الحيوانات المقبورة في باطنه منذ آلاف السنين. ليستخلص منه الكيروسين والغاز الطبيعي وأنواع الوقود المختلفة للسيارات والطائرات.. إلخ

نظر حوله فوجد أن شلالات المياه والرياح والطاقة الشمسيّة هي طاقة مخلوقة منذ القدم ولكنه لم يدرك ذلك، بدأ يولد منها الكهرباء ويستخدمها لإدارة مصانعه ومنازله.

وحين يفنى هذا النفط فإن الإنسان ما زال محاطًا بالإعداد الذي أعدّه الله عز وجل من خلال حقول اليورانيوم، ذلك الحجر السحري والذي يمكنه أن يخصّبه ليحصل منه على طاقة نووية جبارة تفوق كل ما سبق. وحين يحتاج إلى المزيد والمزيد في المستقبل فالله أعلم كم ما سيكتشفه من مصادر طاقة خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأعدّها في أرضه لعناية ذلك الإنسان الهشّ!

﴿﴾

المرض له قصة أخرى أكبر وأعجب. لماذا يجد الإنسان نبات (ستّ الحسن) Atropa belladonna فيستخلص منه الأتروبين القادر على إنقاذ الآلاف من الناس حين يصابوا بنوبة اعتلالية تثبيطية عن طريق الجهاز العصبي الباراسيمبثاوي! من جديد تتلاقى الحاجة الإنسانية مع وجود بُغيته في الطبيعة!

لماذا نجد نبات الأفيون Opium فنصنع منه معظم المسكّنات القوية التي يعرفها الإنسان؟؟ حين ترى مريض السرطان الذي يئنّ من الألم ثم يأخذ قرص المسكن السحري فيصير قادرًا على مواصلة حياته الباقية في سلام، فلتعلم أنها رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي خلق له هذا النبات منذ الأزل وأسكنه ذات الأرض التي يعيش عليها!

بل لماذا هناك شفاء للأمراض أصلًا؟ وسواء كانت تُشفى من تلقاء نفسها مثل نوبات الالتهاب الرئوي، أو كانت تُشفى بسبب الجهاز المناعي الجبار الذي نتمتع به مثل معظم أمراض العدوى والطفيليات، أو كانت تُشفى بسبب هذه العقاقير المستخلصة من النباتات أو الحيوانات أو الكيماويات المبثوثة أيضًا في الوجود؟! إنها عناية كاملة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والذي قال عنه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء ٨٠).

﴿﴾

هذا الإعداد المُسبَق إنما هو من أدلة وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. كما تسير في الصحراء فتجد من أعدّ لك مأدبة عظيمة مليئة باللذيذ من المأكولات والمشروبات. لحظة، بل باللذيذ الذي تحبه أنت دون غيرك من المأكولات والمشروبات! من تراه أعدها؟ ولأي غرض غير رعايتك؟

لو تخيلنا أن هذا كون عشوائي لا إله فيه، فلماذا أجد فيه الماء الذي أحتاج إليه؟! ومن أدرى هذا الكون أن هناك إنسانًا سيحتاج إلى الماء؟؟ ولماذا هناك كل هذه الأطعمة التي أحب مذاقها وأحتاج إليها؟؟

فتأمل معي قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**﴾ (عبس ٢٤ -٣٢). أصناف المأكولات التي سوف تأكلها في هذه المأدبة تم إعدادها في وقت أطول مما تظن، وكل هذا من أجل غرض واحد فقط: (متاعًا لكم ولأنعامكم)!

تأمل مثلًا شطيرة (الشاورما) ذات الشعبية الكبيرة! -أتحدث عن واقع مصر بشكل خاص- لا بد أن كثيرًا ممن يأكل هذه الشطيرة يشعر بمقدار من اللذة تجعله ممتنًّا بالفعل لذلك الشيف العظيم الذي مسّ شغاف قلبه، وبشكل أكبر لِتلكُمُ الجنيهات العشرة التي وجدها في جيبه صباح اليوم.

ولكني أتساءل عن عدد هؤلاء الذين سيمتنّون لسنابل القمح التي أنتجت هذا الخبز الرقيق الهشّ. ولحمض الخلّيك الذي سمح لهم بالاستمتاع بطعم (المخلّل). ولاجتهاد ضوء الشمس في دوام عمله الذي لو قلّ عن ١٢ ساعة ما كانت نبتت أي حبّة بصل. ولدرجات الحرارة العالية التي سمحت بنموّ حقول الفلفل الأخضر. ولدرجة حموضة تربة الطماطم والتي لم تزد عن ٧ أبدًا ولو على سبيل السهو فسمحت بنموّه. ولتلك العلاقة الحسابيّة غير المتوازنة بين وزن الدجاجة الثقيل وقوة أجنحتها الضعيفة، فجعلت ذلك الطائر اللذيذ من الدواجن الرخيصة التي تقدر على شرائها، فلا بدّ أن (شاورما الحمام) كان سيكون أغلى ثمنًا بكثير!

كم من الناس سيفطن إلى كمّ المخلوقات التي خلقها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكم الظروف، والشروط، والمعايرة، التي ضبطها وهيّأها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، حتى تستطيع أن تأكل هذه الشطيرة فتشعر بلذة الشبع وانتشاء الطعم اللذيذ!

هناك نوع آخر من الإعداد لا نلحظه، برغم أننا نراه عشرات المرات! وهو العناية الإلهية بخلقه في إنزال المطر لهم! إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ دائم الامتنان على خلقه بهذه النعمة في القرآن كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (الأنعام ٩٩). غير أن الحياة المدنيّة قد أخفت عنا تلك العبرة بكل هذه المربعات الخرسانيّة والتطبيقات الذكيّة على هاتفنا المحمول والتي تصحبنا في كل مكان نذهب إليه. حتى جعلتنا قد نتعجب أو لا نصدق الحقيقة القائلة أن كل ما نحن فيه من الحياة إنما قد نشأ عن ماء المطر!

فسواء كنت تشرب ماءك من صنبور بيتكم أو كنت تشربه من زجاجة مياه معدنيّة، ففي كل الأحوال أنت لا تشرب إلا ماء المطر! فمنبع نهر النيل عبارة عن بحيرة فيكتوريا العملاقة التي تتكون من الأمطار الاستوائية الغزيرة، وبنفس الطريقة التي ينبع بها نهر الأمازون من أمطار جبال الإنديز الكثيفة! وتدّعي شركات المياه المعدنية أنها استخلصت ماءها من الآبار العميقة وليس من (الترعة) أمام مصنعهم، وعلى فرض أننا صدقناهم فمياه الآبار ليست إلا تجمعات الأمطار التي تساقطت فوق حيوان الماموث من آلاف السنين فأسكنها الله الأرض! كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ**﴾ (المؤمنون ١٨).

أنت تشتري عشاءك من البقالة في صورة بعض معلبات الفول والجبن الرومي وشرائح البطاطس المقليّة، لكنك في الحقيقة لم تكن لتتنعم بهذا العشاء لولا ماء المطر الذي أنبت البطاطس والفول والعشب الذي تغذت عليه أنثى البقر التي تأكل لبنها في صورة قطعة جبن رومية صفراء!

ماء المطر مسئول أيضًا عن هذا الكتاب الذي تقرأ فيه الآن، فهو الذي أنبت الشجر الذي أُخذَ لحاؤه ليُصنع منه هذا الورق الأبيض، وهو الذي أنبت العشب الذي تغذى عليه الجاموس قبل أن نأخذ حافره ونصنع منه الغراء اللاصق الذي يربط كعب هذا الكتاب ببعضه! وماء المطر مسئول أيضًا عن معطفك الذي تلبسه وسواء كان من الكتّان المزروع أو من الصوف المأخوذ من خروف لم يكن ليحيا لولاه. وعن الخشب الذي يكوّن أجزاء سريرك أو مقعدك الذي تجلس عليه الآن. وعن أصواف السجادة التي تزيّن غرفتك. بل وحتى عن الوقود الذي يملأ خزان سيارتك، فما هو إلا زواحف عملاقة مدفونة منذ ملايين السنين كانت في شبابها أيضًا تحيا بماء المطر!

إنها القوة التي أودعها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قطراتٍ بسيطة. إنه الخيط الذي يربط دُمَى (الماريونيت) المغرورة التي تدعي أنها كائنات ذكيّة قادرة على غزو الكون. إنه دليل الرحمة الذي لم يقطعه الله عنا منذ خلقنا برغم كل ما نقوم به من إمعان في الفساد في الأرض. إنه برهان الفقر والضعف، إنه دليل العجز والحاجة، إنه التذكير لنا بأننا وبرغم شهادات بوسطن ومصانع موسكو وناطحات سحاب دبيّ، سنظل دائمًا في حاجة إلى إمدادات السماء التي اختص الله وحده بعلمها ولم يجعل علمها عند أحد، لا مَلَك مُقرَّب ولا نبيّ مُرسَل! إنه الدليل على أننا لا نملك شيئًا ولكننا برغم ذلك لا نحتاج إلا لله! كما يذكرنا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بذلك في قرآنه: ﴿**إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ**﴾ (لقمان ٣٤). وكما يمتنّ علينا سبحانه فيقول: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾ (الحجر ٢٢).

لماذا أدّعي أن وجود الماء في الطبيعة من حولنا هو نوعٌ من الإعداد المُسبَق؟ ربما هذا لأن الماء ليس مجرد سائل عادي. إنه شيء مختلف عن أي شيء آخر! وكما يقول الشاعر الإنجليزي (ويستن أودين): «لقد عاش الآلاف بلا حب، ولكن لم يعش أحد بلا ماء».

تقول النكتة الإنجليزية، أن ثلثي جسم الإنسان عبارة عن ماء، ومعنى ذلك أن كل واحد منا في الحقيقة عبارة عن (خيارة) مع بعض المشاكل النفسية فقط!

جسمنا يحتوي على ٤٠ لترًا من الماء بالفعل، نحن نسبح داخليًا في بركة من الماء، من أول الدم السابح في أوعيتنا الدموية وحتى أصغر خلية من خلايانا. لذا نحتاج إلى ٢ لتر من الماء يوميًا لنحافظ على صحتنا.

أُجريَت دراسات حديثة قام بها علماء أعصاب بجامعة (ميلبورن) الأسترالية على عينة عشرينية من الرجال والنساء وتشمل إجراء مسح على أدمغتهم بالرنين المغناطيسي أثناء العطش وبعد الارتواء بالماء، فوجدوا أن تناول الماء (شريطة أن يكون بدون أي إضافات) ينشّط القشرة الحزامية الأمامية والقشرة المدارية الجبهية، وهي مناطق ترتبط باتخاذ القرارات العاطفية. أي أن أمخاخنا مبرمجة للتعرف (فقط) على الماء الصافي وتوليد الشعور بالارتواء بعد تناوله. وهذا يفسر سبب عدم ارتوائنا بأي سائل آخر إلا الماء عند الشعور بالعطش.

عن توفّر الماء من حولنا، فالماء يغطي ٧١٪ من سطح الأرض، ولكن هذا لا يعني أن الأرض كوكب مائي، بل هو كوكب صخري في الحقيقة، وبالنسبة لكتلة الأرض الكلية فالماء لا يشكل إلا ٠،٢ ٪ من كتلتها! يمكنك أن تفكر في الماء على أنه الكريمة التي تغطي كعكة الأرض التي كانت لَتكون بالغة الكآبة من دونه!

حين تشرب كوبًا من الماء فإن عدد الجزيئات فيه أكبر من عدد الأكواب التي يحويها البحر كله، لذلك يؤكد لك علماء البيولوجيا على أنه في كل كوب تشربه هناك على الأقل جزئ مائي واحد فيه قد مر من مثانة أرسطو! وأنا لا أدري الصراحة ما سر هذا (القرف)، يعني كانت الفكرة ستصل بشكل كامل لو قالوا لنا أن الجزئ قد مر من دموعه مثلًا. وسبب ذلك في الحقيقة أن نفس ذرات الماء الموجودة على الأرض حاليًا هي هي تلك التي كانت موجودة عليه منذ تاريخ الأرض ذاتها. يمكنك اعتبار الماء أقرب إلى مدوّن تاريخي يشهد على كل شيء بخصوصنا، كعجوز كان دائمًا هناك طوال الوقت ولا يشعر به أحد.

الطلة الشمسية التي تطلع علينا كل صباح تبث لنا مقدارًا من الطاقة كل يوم أكبر من الطاقة التي أنتجها الجنس البشري منذ أسكنه الله الأرض وحتى الآن. الماء وحده من ينجح في اقتناص هذه

الطاقة، وهو بالمناسبة يعطينا جزءًا من هذه الطاقة في مهابط الشلالات والسدود. ويستغل بعضها في القيام بدوره في نحت وتشكيل القارات وشق الأنهار ورسم خريطة العالم كما نعرفها اليوم.

على عكس معظم المركبات المعروفة، يوجد الماء في درجات الحرارة العادية في الطبيعة بحالاته الثلاث، الصلبة والسائلة والغازية. وعلى عكس كل المركبات المعروفة تقريبًا يتميز الماء بأنه يتمدد بالبرودة، الغالبية العظمى من المركبات الكيميائية الأخرى تتقلص بالبرودة وتتمدد بالحرارة. أما الماء فنجده يتمدد عند التجمد إلى ٩-١١٪ من حجمه تقريبًا، وذلك لأن جزيئاته تتباعد بعضها بعيدًا عن بعض عند احتباسها في التركيب الثابت للحالة الصلبة. وهذا التمدد هو السبب في أنك تجد (كانز البيبسي) وقد انفجر عند نسيانه في (الفريزر).

هذا التمدد يؤدي إلى أن الصورة الصلبة للماء (الجليد) أقل كثافة من الصورة السائلة منه، لذلك يطفو الجليد فوق السطح ليعزل بقية المحيط المتجمد عن البرودة ويبقى أسفله عند ٤ درجات مئوية بالظبط. بهذه الخاصية الفريدة في الماء حافظ الله على حياة ملايين الكائنات بأسفله.

على المستوى الجزيئي للماء، فذرات الأكسجين والهيدروجين فيه تتلاحم بقوة كـ (عاشق) و(معشوق)، يؤدي ذلك إلى استقطاب جزئ الماء واكتسابه خاصية كهربية فريدة، هذه الخاصية الكهربية هي السبب في تلاحم جزيئات سطحه بقوة شبيهة بالمغناطيس اسمها التوتر السطحي (Surface Tension)، مما يسمح لشفرة موس أن تستقر على سطحه دون أن تغطس لأسفل.

وهذه الخاصية هي المسئولة أيضًا عن قدرة الماء الكبيرة على الإذابة، على سبيل المثال فنصف المركبات المعروفة توجد في الطبيعة مُذابة في الماء، وهناك من العناصر مثل الفلزّات القلوية مثل الصوديوم والبوتاسيوم لا توجد في الطبيعة في صورتها النقية أبدًا لأنها تعشق التفاعل مع الماء. وقدرة الماء الكبيرة على الإذابة هو ما جعل منه الراعي الرسمي لمعظم ما يأكله ويشربه الإنسان، عليك أن تتذكر ذلك في كل مرة تشرب فيها كوبًا من أحد العصائر.

وهذه الخاصية الكهربية بالمناسبة هي المسئولة أيضًا عن صعود الماء إلى أطراف سيقان الأشجار العالية، بما يسمى الخاصية الشعرية (Capillary)، حيث يتسلق الماء إلى أعلى ضد اتجاه الجاذبية عن طريق التجاذب بين ذراته وبين جدران الأوعية الشعرية، لأن السطح كله متماسك. الشعرية البسيطة تلك ترفع الماء لمسافات تصل إلى مائة متر. ويجعل عمود الماء متصلًا غير منكسر خلال سحبه إلى الأعلى لأن خصائص التماسك الفريدة بين ذراته تجعل لعمود الماء قوة توترية شبيهة بتلك التي تملكها المعادن! بهذه الطريقة البسيطة حافظ الله عز وجل على حياة النباتات الطويلة وقدرتها على النمو.

ذكر الله الماء في ٦٤ موضعًا من القرآن على سبيل الامتنان بالنعم، وجميعنا يحفظ الآية التي تذكرنا بأنه: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ (الأنبياء ٣٠). ولكن ربما لأننا ظننا أن الآية تقف بنا فقط على المعنى السطحي المبدئي بأننا (نحتاج إلى الماء حتى لا نشعر بالعطش)، ربما لذلك لم ننتبه إلى مغزى السؤال الذي يختم الآية، حين قال الله عز وجل بعدها: ﴿**أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنبياء ٣٠).

الأرض مُعدّة للحياة. هي ذلك المكان الذي وجدت أنه مناسب لك جدًا بينما كل مكان آخر من حولك، وكل كوكب آخر تسمع عنه مكان مخيف وعر مقزز مميت لك للغاية.

ولكن هل نحن لم نبحث كفاية؟

في سنة ١٩٦٦، أعلن (كارل ساجان) عن مُعامليْن أساسيين فقط لأن يكون الكوكب صالحًا للحياة، وجود نجم من نوع مناسب، ووجود كوكب يبعد عنه مسافة مناسبة.

ولأن عدد الكواكب في كوننا تُقدّر بأكثر من أكتليون (١٠ ٢٧) فبالتالي عدد الكواكب الصالحة سيكون سبتليون (١٠ ٢٤). مما يعني أن هناك الكثير من الحياة الذكية هناك قد نشأت بشكل طبيعي (كما من المفترض لهم أننا نشأنا) وكل ما في الأمر أن نجيد الإصغاء إلى إشاراتهم. فتم إطلاق مشروع البحث عن حياة ذكية خارج الأرض (SETI) وظل العلماء يستمعون إلى أية إشارة، ولكن لم يجدوا أي شيء! أوقف الكونجرس المشروع الخائب سنة ١٩٩٣، وظلت قطاعات خاصة تبحث، فلم يجدوا أي شيء!

الفكرة أنه مع تقدم المعارف العلمية اكتشفنا أن الكوكب الصالح للحياة يحتاج إلى أكثر من المعاملين اللذين افترضهما ساجان، ومع الوقت أدركوا ذلك، فأصبحت العوامل الضرورية المطلوبة ١٠ ثم عشرين ثم خمسين، والآن وصلت إلى أكثر من ٢٠٠، وما زال العدد يستمر في الإطالة كلما عرفنا عن الحياة أكثر.

تشرح معضلة (فيرمي) Fermi Paradox هذه الفكرة بدقة، حيث تقرر التناقض بين الاحتمالية العالية لوجود عدة صور من الحياة في هذا الكون الشاسع، وبين الغياب الحقيقي على أرض الواقع لرصد أي صورة من صور هذه الحياة إن وُجِدت.

يقول (بيتر شنكل) أحد مؤيدي هذا المشروع: «كانت المجهودات المبكرة للبحث عن حضارات فضائية في مجرتنا تتسم بروح تفاؤلية مبالغ فيها. وفي ضوء المكتشفات الحديثة يبدو أنه من المناسب أن نضع جانبًا نشوة التفاؤل المفرطة هذه، ونكون أكثر واقعية، يبدو أن الأرض أكثر تميزًا مما كنا نظن»!

وفي رأي (ريتشارد دوكنز): «بالمقارنة بغالبية الكواكب فإن هذه الأرض تعد جنة، وأجزاء الأرض هي جنة بأي مقياس. ما هي احتمالات أن كوكبًا التُقطَ عشوائيًا تتوفر فيه كل هذه الخصائص اللطيفة؟ حتى أفضل الحسابات تفاؤلًا كانت لتجعل النسبةَ أقل من واحد في المليون»!

ويقرر دوكنز أن ذلك من حسن حظنا بالتأكيد!

يحدثنا القرآن عن الأرض التي أعدها الله عز وجل لمعيشة الأحياء عليها، فيقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا**﴾ (المرسلات ٢٥-٢٦). وكما يقول الفرّاء: «تكفتهم أحياءً على ظهورها في بيوتهم ومنازلهم، وتكفتهم أمواتًا في بطنها، أي تحفظهم وتحرزهم». ويحدثنا عن (تدبير) الله عز وجل لكل ما نحتاج إليه، فيقول سبحانه: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ**﴾ (يونس ٣١).

كل تلك العناية، كل هذا الإعداد، إنما يدلان على أن الإنسان ليس بمفرده، وأنه لا يقوم وحده، أن هناك إلهًا يحوطه ويرعاه، ويعطيه كل ما يريد من قبل حتى أن يسأله، إنه وكأن كل حاجة كانت عندك قد أجابك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنها من قبل حتى أن تعاني من فقدها! إنه وكأن كل رغبة لديك وجدتها وقد لُبِّيت كانت سؤالًا سمعه الله منك وأجابك، كما قال سبحانه في كتابه: ﴿**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ**﴾ (إبراهيم ٣٤).

الفرق الوحيد أنه لم يضطرّك فعلًا إلى السؤال قط!

٧

الهداية

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾

سورة النمل آية ٦٣

في قصة (هنزل) و (جريتل) الألمانية، التي هي من المفترض أنها قصة أطفال برغم بشاعتها، تحكي عن امرأة أقنعت زوجها أن يترك أولاده في الغابة ويرحل لِيَتُوها ولا يستطيعا العودة للبيت فيوفّرا لقمة عيشهما! استطاع الطفلان الوصول في النهاية للبيت لأن الولد الصغير كان ذكيًا كفاية لأن يترك من خلفه فتات خبز على الطرق فيميّز الطريق الذي سار به مما مكّنه في النهاية من الوصول إلى بيته وإنقاذ نفسه هو وأخته. بالطبع لقد مرّا في المنتصف على بيت ساحرة كانت تريد شيّهما والاستمتاع بهما على العشاء لكنها في النهاية قصة لطيفة بحق!

فتات الخبز هذه تكون دائمًا مبثوثة وبشكل طبيعي في الأرض، فالتضاريس المحفوظة التي لا تتغير، والطرق الثابتة التي لا تتبدل، والجبال التي يعرف الناس بها الطريق ثابتة لا تبرح مكانها، لولا ذلك لكان الناس يمشون في ذات الطريق عشرات المرات فلا يمكنهم حفظه أبدًا، وبنفس الطريقة التي تاهت بها امرأة في الصحراء لأنها كانت تُعلّم مكان زوجها بسحابة فوقه! لذلك يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كتابه: ﴿**وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ (الأنبياء ٣١).

والسبب الأكبر وراء هذا الاهتداء كان في الطريقة التي حدّد بها الإنسان الأول الجهات الأربع: الشمال والجنوب والغرب والشرق. والتي اعتمد عليها بعد ذلك في عمل (البوصلة) والملاحة. هذه الجهات الأربع عرفها الإنسان من حركة النجوم، ومن التشكيلات المميّزة التي جعلها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تتشكل بها وأوحى إلى الإنسان أن يستخدمها في تحديد جهاته، مثل مجموعة وعاء الدب الأكبر ومجموعة أوميجا والرجل السابح، ومعرفة النجم القطبي. في المرة التالية التي تكون فيها على ظهر طائرة وتتعجب من الطريقة التي يستطيع بها الطيّار أن يصل إلى وجهته في هذه السماء المظلمة، فتذكّر أن الإنسان قد بنى أجهزة ملاحته اعتمادًا على هذه الجهات

الأربع . مرة أخرى يمتنّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علينا بهذه الهداية، فيقول: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل ١٦).

في عالم عشوائي متخبط لا يوجد له صاحب ولا راعي ولا رقيب، سيصبح هذا الاهتداء الكوني من المعضلات! لماذا كل شيء مرتّب ومنظّم إلى هذا الحد؟

***

واحدةٌ أخرى من معاني هذا الاهتداء الربوبي، هي تلك الاهتداءات إلى المصالح والمنافع!

مثل ما جاء في العدد (١٧٠) من مجلة العلم، أن طائر (الزرزور) يلتقط أوراق ٣٤ نوعًا من بين ٦٣ نوعًا من النباتات المنتشرة حوله، ويركّز على ٩ فقط منهم، ويضعها حول عشه. قبل أن نعرف نحن في النهاية أن هذه الأوراق بالذات تمنع دورة حياة القمل. وبعد تجربة نزعوا فيها أوراق (الزرزور) من حول عشه نما في عشه نصف مليون قملة بالمقارنة بثمانية آلاف فقط كانت تنمو فيه بحماية أوراقه المختارة!

وأما العدد (١٩٠) من نفس المجلة فذكر أن أنثى القرد النبّاح تعمد إلى نوع معين من النباتات لا تأكله عادةً في وقت التزاوج للتحكم في درجة حمضيّة بويضاتها، لأن الحيوان المنوي لذكر القرد النبّاح قلوي الوسط.

هل نحن هنا بصدد طريقة كيميائية معقدة لتنظيم النسل تعرفها القردة النبّاحة؟!

تبتلع الطيور الحصى والرمال عمدًا كي تساعد على عملية الطحن للطعام داخل معدتها لأنها لا تملك ضروسًا طاحنة، ولو تم منعها من ذلك تُصاب بعسر الهضم. من هداها إلى هذه الطريقة؟ ومن أخبر ذكر الفيل أن خصيته الموجودة في تجويف بطنه تحتاج إلى درجة حرارة منخفضة فيعمد إلى صعود الجبال العالية في موسم التزاوج؟ ومن علّم أنثى الفيل أن بحثها عن بِركة الماء عند الولادة سيخفف من وقع صدمة الوقوع لجنينها البالغ ١١٥ كجم؟

يعرف البطريق أبناءه وسط نصف مليون طائر بطريق متكدسين على جزيرتهم. وينقر (نقّار الخشب) فروع الشجر أعلى مكان تواجد اليرقات تمامًا بدون أن يعلم أحد كيف عرف أماكن تواجدها! ويتوجه جذر النبات أثناء نموه ناحية أكثر مناطق التربة رطوبة. ويبني العنكبوت مصيدته من خيوط جافة يعلمها هو ويسير عليها، وأخرى لزجة تعلق بها الحشرات. بينما يبني النحل خليته بشكل سداسي الأضلاع ليستغل المسافات بشكل مثالي، ويجفف ٦٠٪ من ماء العسل ليجعله مقاومًا لنمو البكتيريا فيه.

تهاجر بعض أنواع الأوز من سيبريا إلى الهند عبر الهيمالايا وتصل إلى وجهتها في نفس

التوقيت تمامًا كل عام. وأما الطيور المائية المهاجرة من (نيوفاوندلاند) و(جرينلاند) شمال أوروبا فتعرف وجهتها إلى جزيرة معينة في المحيط الأطلسي، برغم أن أقرب أرض لهذه الجزيرة تبعد ثلاثة آلاف كيلو متر! من الذي علّم أسراب الطيور المهاجرة من كل مكان في العالم إلى وجهة محددة، من علّمهم هذه الوجهة؟ وكيف يصلون إليها؟

أو من علّم الطفل الرضيع أن غذاءه متوفّر وموجود في ثدي أمه؟! ومن علّم الحيوان المنوي الخريطة الجغرافيّة المعقّدة التي عليه أن يسير حسبها حتى يصل من مهبل المرأة إلى قناة فالوب لكي يلتقي بالبويضة ويخصّبها بميكانيزم ما زال غير معروف لعلماء الفيسيولوجيا حتى اليوم؟

نوعيّة هذه الاهتداءات (التعليمية) حكى القرآن عن واحدة منها حين يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (النحل ٦٨ -٦٩).

سأل فرعونُ موسى وهارونَ عن الله، عن كنهه، عن مكانه، أين هو؟ ما هو؟ كيف يبدو؟ لماذا علينا الخوف منه؟ لماذا يجب أن نحبه؟ لماذا نصبح طواعيةً عبيده؟ قال له: ﴿**فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى**﴾ (طه ٤٩).

فأجابه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ (طه ٥٠).

٨

الاختلاف

"لو كنت تكره الاختلافات فلسوف تموت مللًا!"

طوبا بيتا

من بين أجمل الأكلات في الحياة: البيتزا الإيطالية! وبرغم أنها تبدو طعامًا (إمبرياليًّا) للغاية، وتكاد تشعر في مذاقها بطعم الحياة الغربية نفسه، إلا أنه في النهاية لا يوجد ما قد يمنعني من هذه الأكلة، اللهم إلا أن تكون بطعم التونة التعيس.

في المرة القادمة التي تأكل فيها إحدى شرائح البيتزا فعليك أن تلاحظ ذلك المزيج الجميل في طعم المكوّنات المختلفة من صلصة الطماطم وشرائح الفلفل الأخضر وقطع الزيتون الأسود وعجين الدقيق وفطر عيش الغراب.

ما يصنع هذا المذاق الفريد هو التجاور بين المذاقات المختلفة لهذه النباتات المتباينة في فمك. وهو أمر يثير العجب لو لاحظت في الكيفية التي نبتت بها كل هذه النباتات من نفس التربة ونفس الماء الذي يرويها ونفس الطلّة الشمسيّة التي تمدها بالطاقة كل صباح!

هذه المعجزة التي تحدث عنها القرآن، حين قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (الرعد ٤).

التنوّع والاختلاف الخلقي الإلهي يمكنك الشعور به في التأمل في وجوه البشر، سبعة مليارات من البشر لا يتطابقون شكلًا مع بعضهم البعض! فحتى التوائم المتماثلة تستطيع أمهاتهم التفريق بينهم بلمحة خفيّة تحت الحاجب أو فوق الشفة العليا! إنه الإبداع التصويري مرة أخرى والذي تحدث عنه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فقال: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (آل عمران ٦).

ماذا عن بصمة اليد؟! كل الخبراء الجنائيين يعلمون أن الخطوط والدوائر الصغيرة التي تشكّل شكلًا مميزًا على جلد الإنسان لا يتكرر إلى يوم الدين، هناك مجرم أمريكي اسمه (جون ديلنجر) حاول إزالة بصمات أصابعه بالحمض ولكنها لما ظهرت بالجلد الجديد الذي تكوّن له كانت مثل سابقتها تمامًا.

يستطيع الخبير الجنائي أن يميز مائة صفة مختلفة في كل بصمة عن غيرها، ويقولون أننا كي نجد شخصين يتشابهان في صفتين فقط من المائة فإن علينا أن نفحص ستة عشر شخصًا، أما لو أردنا أن نجد شخصين لهما البصمات نفسها تمامًا فإن علينا أن نبحث وسط ٦٤ مليار بصمة في أربعة مليارات عام! كل البشر حيّهم وميّتهم يملك كل واحد منهم بصمة متفرّدة تميّزه عن الآخرين، وبنفس الطريقة التي يتميز بها بالنمط الفريد للاختلاف التضاريسي الدقيق على قزحيّة عينه، أو في بصمة صوته، أو في طريقة مشيته! كل هذه اختلافات بين البشر، يبدع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مع كل خلق من خلقه فيها.

هذا الاختلاف ليس اعتباطيًا بل هو مقصود تمامًا. من الصعب افتراض أن الطبيعة الصمّاء قد قصدت على أن تخلق الأشياء باختلاف وببصمة خاصة لكل منها. التكاثر اللاجنسي مثلًا يحافظ على الموارد ويحافظ على الصفات الجيدة للكائن الحي، لذلك كان من الألغاز الموجودة عند البيولوجيين الدراونة هو محاولة تفسير سبب إبداع الطبيعة للتكاثر الجنسي الذي بطبيعة الحال لا يفضله الكائن الفرد بأي حال، وإنما هو في مصلحة النوع ككل، بتوفير أكبر كم ممكن من التنويعات المختلفة!

السبب أنه كما ذكرنا، فالإبداع في خلق كل كائن ببصمته الخاصة مقصود وليس اعتباطيًا أبدًا. ولفهم ذلك سوف نثرثر قليلًا عن فراشات دودة القطن!

فالرومانسية بين فراشات دود ورق القطن جميلة حقًا! حيث تفرز الأنثى (فيرمونًا) يصل إلى قرون استشعار الذكر فيتوجه إليها مباشرةً وما أن يبلغها حتى يفرز هو (فيرمونًا) آخر يشوّش على فيرموناتها ويمنع توافد المزيد من الذكور الطامعين. سمّى علماء البيولوجيا فيرمون الذكر هذا بفيرمون الرومانسية لأنه من الواضح أن ذكر الفراشة يريد من أنثاه أن تكون له هو فقط.

الفيرمونات هي رسائل كيميائية بين أفراد النوع الواحد، يمكن النظر إليها على أنها روائح بلا رائحة. يتم استقبالها في الحيوانات بجهاز جاكوبسون، وهو جهاز متصل مباشرةً بالمخ، وثبت في ١٩٩١ وجود جهاز شبيه اسمه VNO لدى البشر بالقرب من الحاجز الأنفي، وهناك عدة دراسات بدأت منذ السبعينات أثبتت وجود الفيرمونات البشرية، يبدو بالفعل أننا نتواصل كيميائيًا مع بعضنا البعض بدون أن نشعر عن طريق هذه الفيرمونات، وهو بالمناسبة افتراض علمي مُقترح لتفسير الحب من أول نظرة، وفي هذه الحالة فالتوصيف الأدق له هو الحب من أول (شمّة)!

أجرى عالم البيولوجيا السويسري (كلاوس فدكيند) تجربة غريبة، حيث وضع سترات ٤٤ رجلًا في صناديق مغلقة منفصلة، ثم جعل ٤٩ امرأة تستنشق رائحة (أو بمعنى أصح: فيرمونات) سبعة صناديق منها! كان (فدكند) قد قام قبل التجربة بقياس التشابه والاختلاف الجيني بين الرجال والنساء موضع الاختبار، عن طريق أنتيجينات كرات الدم البيضاء (HLA)، وجعل في الصناديق السبعة المخصصة لكل امرأة ثلاثة من قمصان الرجال المشابهين لها جينيًا وثلاثة من قمصان الرجال المختلفين معها جينيًا وقميص نظيف للمقارنة. كانت النتائج كما توقعها فدكيند، حيث فضّلت النساء بشكل واضح فيرمونات الرجال المختلفين معها جينيًا.

وهذا يجرنا إلى دراسة أخرى قامت بها (كارول أوبر) في الولايات المتحدة، حيث قامت بفحص (HLA) المتزوجين في مجتمع الهاترايت المغلق والذين لا يتزوجون إلا من بعضهم البعض، فوجدت أن الزيجات (التي كانت تتم عن حب) كانت بين أفراد متباينين جينيًا أيضًا بين أفراد القبيلة.

تخبرنا هذه التجارب أننا كبشر قد خلقنا الله عز وجل ننجذب بطبعنا إلى الزواج من صاحب / صاحبة المحتوى الجيني المغاير لنا! هذا يضمن للنسل أن يكون دائمًا جديدًا في صفاته الوراثية، مختلفًا عن كل من أبويه، ومغايرًا لكل ما هو حوله! لقد خلقنا الله عز وجل بطريقة تضمن لكل كائن بشري أن يبدأ حياته متفردًا.

تذكّر ذلك دائمًا! تذكّره حين تكون في الحياة غريبًا مستوحشًا من وحدتك لتعزّي نفسك بأنك لست في الحقيقة وحيدًا، ولكنك مميز. تذكّره حين ترى الناس من حولك يتغيرون فتفتخر أنت بذاتيّة مبادئك. تذكّره حين تحس بعِظَم موقفك بين يدي الله حين تقف متفردًا أمام الإله الفرد ليس بينك وبينه ترجمان، ليكلمك أنت، ويحاسبك أنت، على أفعالك أنت. أنت فقط! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ **لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا** ﴾ (مريم ٩٤-٩٥).

❧

وماذا عن اختلاف لغات البشر ولهجاتهم؟ ليس فقط بين اللغات المختلفة التي يقال أن عددها يصل إلى سبعة آلاف بحسب منظمة اليونسكو. ولكن أيضًا في اللكنات واللهجات بين أبناء اللغة الواحدة!

كنا نظن أن هناك إنجليزيّة واحدة مثلًا، ولكننا اكتشفنا أن هناك الـ (Posh accent) التي يتحدثها بعض الإنجليز الذين يُشار لهم بالرقي وهم يشربون شاي الساعة الخامسة، وهناك اللهجة التي كانت خاصة بطبقة العمال الفقيرة (Cockney accent)، واللهجة الدارجة (Standard English)، ولهجة السود (BVE). ناهيك عن أهل مقاطعة (ويلز) الذين ليسوا فقط ذوي لكنة إنجليزية خاصة، وإنما لهم لغة أخرى تمامًا.

ثم هناك الإنجليزية الأسكتلندية وهي نوع من إلقاء الطوب وليس الكلام! وهناك الإنجليزية الأيرلندية وهي نوع من السباب الغليظ لا أكثر! وهناك الإنجليزية الأسترالية التي هي شيء مختلف تمامًا برغم أنها نفس المصطلحات اللغوية! حين يكون (الحصان الميّت) تعبير يعني (الكاتشب)، و(لا تبصق الدمية) معناه: (أشعر بالأسف من أجلك).

ثم هناك بالطبع الإنجليزية الأمريكية، والتي تختلف تمامًا تبعًا للجهة الشرقية أو الغربية من أمريكا، وإني أؤكد لك أن سكان (تكساس) يتم التعرف عليهم في (نيويورك) بالسهولة ذاتها التي تتعرف فيها على مصري سوهاجي في الإسكندرية!

ما سبب هذا الاختلاف اللغوي الشاسع؟ في سفر التكوين العبراني وردت محاولات لتفسير كيفية اختلاف ألسنة البشر إلى هذا الحد. زعموا أن هذا كان عقابًا من الإله الذي لم يحب محاولات صنع برج بابل الذي ينوي الوصول إلى السماء، فقام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بـ (بلبلة) لسانهم وفرّقهم في الأرض: (وَكَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً، وَحَدَثَ فِي ارْتِحَالِهِمْ شَرْقًا أَنَّهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً فِي أَرْضِ شِنْعَارَ وَسَكَنُوا هُنَاكَ... قَالَ الرَّبُّ: «هُوَ ذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَهذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالآنَ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ»... لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا «بَابِلَ» لأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ) (سفر التكوين ١١: ١ -٩).

بدأت الفقرة بالحديث عن ارتحال مجموعة من البشر، من هم؟ بالتأكيد هؤلاء الذين كانوا في الفقرة الأخيرة التي سبقت هذه مباشرة: (هؤُلاَءِ بَنُو سَام حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ كَأَلْسِنَتِهِمْ بِأَرَاضِيهِمْ حَسَبَ أُمَمِهِمْ. هؤُلاَءِ قَبَائِلُ بَنِي نُوح حَسَبَ مَوَالِيدِهِمْ بِأُمَمِهِمْ. وَمِنْ هؤُلاَءِ تَفَرَّقَتِ الأُمَمُ فِي الأَرْضِ بَعْدَ الطُّوفَانِ) (سفر التكوين ١٠: ٣١ -٣٢). فبحسب سفر التكوين نفسه هؤلاء الذين بنوا برج بابل كانوا متفرّقين في الأرض بلغات وأنسال مختلفة بالفعل. هذا تناقض بيِّن يجعلنا نتشكك في صحة القصة كلها!

الحقيقة أن هذا (التبلبل) اللساني قد تم غالبًا على مر العصور المختلفة، فكما انحدر البشر كلهم من نسل آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، انحدرت كل اللغات من لغة واحدة، واختلفت وتنوعت وأثر بعضها على بعض، كل ذلك جزء من عظمة الوعي الإنساني القادر على الابتكار والتنويع والتكيف مع متطلبات بيئة جديدة تتطلب لهجة مختلفة أسرع أو أبطأ، أغنى بالمصطلحات المعقدة أو أفقر، مليئة أكثر بالمقاطع الصوتية أو أقل!

مرة أخرى نحن أمام معجزة تنويعية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بديع السماوات والأرض، القائل جَلَّجَلَالُهُ في قرآنه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم ٢٢).

ﷺ

هذا التنويع لا يشتمل على اللون واللغة فقط، ولكن في الطباع والعادات والأعراف بين أهل الثقافات المختلفة، مما يجعلها تدخل في باب الغرائب والنوادر من كثرة ما يتعجب أهل الثقافات المختلفة حين يتعرفون على بعضهم البعض!

ولا أظن أن صدرك قد يتسع لاستطراد طويل في وصف التنويع الذي تجده مبثوثًا في كتب علم الاجتماع بشكل معقد وتجده في أدب الرحلات بشكل أكثر بساطة ومتعة.

فلديك مثلًا أهل البادية والصحراء في موريتانيا فإنهم اعتادوا أن يتعاملوا بالملح الجبلي محل العملات والذهب والفضة لقيمته الكبيرة عندهم. بينما الصوماليون يقسّمون الذبيحة لأفراد العائلة حسب مواقعهم، فمن المعروف أن فخذ الذبيحة للفتيات العازبات، بينما الرقبة والحلقوم للمتزوجات! وهذا خبر غير سعيد للمرأة المتزوجة في الصومال ويعني أنها ستموت من الجوع على الأرجح.

ربما تكون المتزوجات في قبائل (الهوتنتوت) الأفريقية لها مكانة أعلى حيث يقتصر حضور حفلات الزفاف عليهنّ دون العازبات، تلك الحفلات التي يُعد فيها طقسًا أساسيًا أن يقدّم كل من الزوجين (بقرة) لحماته كنوع من إظهار الاحترام!

في الماضي كان البرطانيون في مستعمرات أمريكا الشمالية يستخدمون أوراق التبغ بدلًا من النقود، بينما استخدم الأزتيك الكاكاو، واستخدم الهنود الودع، وأما أهل جزيرة سانتاكروز في المحيط الهادي ففضلوا لفائف الريش لإتمام معاملاتهم المادية المختلفة.

هذه لا شك من لمحات هذا الخالق العظيم الذي قد نوّع بيننا إلى هذا الحد، كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح ١٣-١٤). أي خلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، أو أنه قد نوّع بينكم في الأخلاق والأحوال والصفات.

ﷺ

ولكن هذه الاختلافات ليست بين القبائل والمجتمعات المنفصلة فحسب، وليست حتى فقط بين أبناء المدينة الواحدة، ولكن أيضًا بين الإنسان وبين نفسه! فهناك نوع من التغيّر والتطوير لا شك يخبره هذا الإنسان في نفسه دون أن يفطن مع مرور الوقت! مثل الاختلاف في المرحلة العمريّة وما ينتج عنه ذلك من تغيّر في القوة والضعف: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم ٥٤).

والاختلاف في أحوال هذا الإنسان نفسه، وهذا أوضح من أن أشرحه، فكل إنسان يشعر به حتمًا! فعبور ذلك الحاجز الشفاف الموضوع بدقة بالغة بين مرحلة (الشباب النفسي) وبين (الكهولة النفسية)، هذا العبور لا تفطن له في البداية ولكنك تفاجأ بعد التغير رقم ١٣٦ أنك لم تعد نفسك بشكل كامل!

حين يتغير نمط قراءاتك، فتبدأ في التلذذ بالكتاب الدسم المعقد عن ذلك الكتاب البسيط الواضح. حين تبدأ في النفور الطبعي من المبالغات وأصحابها، وتبدأ في التشكك من ذلك الذي يبدو واثقًا في رأيه أكثر من اللازم. حين تتعلم كيف تجتنب مواطن الجدل لأنك تعلم أنها تنتهي دائمًا بانتصار الطرفين وبخسارتهما أيضًا!

حين تكون قد أخذت بعض دروس الحياة، وتنتظر في قلق باقيها. حين يمتلئ غلاف قلبك الداخلي بالكثير من الندوب والعلامات التي أحيانًا تعبر عن أناس وضعوا على شفتيك ابتسامة، وأحيانًا يضعون الدموع. تعبر عن آمالك الخائبة، وعن نجاحاتك غير المتوقعة. تعبر عن ذكرياتك السعيدة وتلك التي كانت مؤلمة أكثر من اللازم. تعبر عن مفاجآتك بالكثير من البشر، ومفاجآتك أكثر بنفسك أنت! مرحلة تذكرك بأنك لست متحكمًا في نفسك ولا ذاتك. بل أنت بذاتك تتغير!

فكيف لا تؤمن أنك مفطور على الحاجة، مقهور على الضعف، مجبور حين تنكسر، مكسور حين تتجبر، مسرور وقت الطاعة، مستور وقت العصيان؟! كيف لا تتذكر حينها قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۝ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الانشقاق ١٦ -٢٠)؟؟!

كيف بعدما ترى المتغيرات من حولك، وترى كل شيء يركب طبقًا آخر بعد طبقه. وتعرف أنك نفسك من الآفلين، كيف لا تؤمن بعد ذلك بدوام وجه رب العالمين؟!

الاختلاف إنما يدل على إرادة مُخصّصة لهذا الاختلاف! فلو كان التأثير يعود إلى طبائع الأشياء ما كان هناك من سبب لوجود كل هذا التنوع في الكون. بينما القرآن يفسر لنا هذا الاختلاف، فبعد أن ذكر لنا أنواعًا مختلفة من الدواب التي خلقها الله عز وجل، قال: ﴿**يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (النور ٤٥)

يخلق الله ما يشاء.

٩

الإبداع

"يوجد قناع من النظريات فوق وجه الطبيعة كله"

وليام هيويل

لاحظ علماء البيولوجيا أن الفضائيين الذين تخيلهم الإنسان في أفلام الخيال العلمي وهم يخرجون من سفنهم الفضائية بمسدسات الليزر كانوا ينتمون إلى فصيلة الفقاريات، بل والثدييات تحديدًا! بينما في بعض الأفلام والقصص الأخرى كنا كبشر نتخيل الكائنات الفضائية على هيئة كائنات سوداء مقززة ولكنها لم تكن تبعد عن تصنيف الحشرات أو الزواحف.

برغم أنه لو كانت هناك مخلوقات فضائية ليس عليها بالضرورة أن تتبع التصنيف البيولوجي المُتّبع في الأرض!

وهناك من أصحاب الخيال الجيد من تخيل هذه الكائنات أخيرًا على هيئة أشياء رخوة جديدة تمامًا في تصنيفها البيولوجي ولم نعهدها من قبل، ولكنها طبعًا كانت تعتمد على المواد العضوية أيضًا في غذائها وتسعى إلى التكاثر وتحتاج إلى الهواء.

لا يعني هذا بالضرورة أن صناع هذه الأفلام كانوا من الأغبياء أو محدودي الخيال، فلدينا إنسان عبقري مبدع مثل (ستيفن هوكنج) ذكر محاولاته لتخيل حياة في مكان آخر من الكون لا تعتمد على الكربون والكيمياء العضوية المعروفة فكانت أقرب النتائج في ظنه ستكون هي الحياة المعتمدة على السيليكون، وهو ما وجده أمر غير محتمل الحدوث لأن هذا معناه أن الكائنات الفضائية ستكون أنواعًا مختلفة من الصخور! لذلك أعلن هوكنج فشله عن ذلك حينها.

هناك إعلان عجز شبيه خرج من البيولوجي (ريتشارد دوكنز) حين قرر أن علماء البيولوجيا قد عجزوا عن تخيل أن توجد حياة في أي مكان في الكون بدون الاعتماد على الماء.

ماذا عن فن الرسم والتصوير؟!

(كلود مونييه) رائد المدرسة الانطباعية استمدّ إبداعه من انعكاس أشعة الشمس على سطح الماء، الألوان الرقراقة المتأرجحة كأنها أمواج كان هو الأسلوب الذي تراه في لوحاته جميعًا وبالأخص في لوحته (انطباع غروب الشمس) التي سميت المدرسة الانطباعية تيمّنًا بها. وابتكر (بابلو بيكاسّو) المدرسة التكعيبية في الفن بناءً على إيحاء الأشكال الهندسية لل (صخور) و(التلال)، واستلهم فكرته من الطواطم الأفريقية المنحوتة من (الشجر).

وأما ضربات فرشاة (فان جوخ) الدائرية والتي تظهر أشد ما تظهر في أشهر لوحاته: (الليالي النجمية) كانت مستوحاة من تأملاته في نجوم الليل من نافذة المشفى الذي كان يُعالج به، هذه الضربات الدائرية التي صبغت معظم لوحاته بعد ذلك وشكّلت أسلوبه في الرسم، حتى قلّدها (إدوارد مونخ) في لوحة شهيرة أخرى هي (الصرخة).

ماذا عن الصناعات والابتكارات البشرية؟!

تعلّم الإنسان أهمية (العجلات) في صنع الطائرات من مراقبته لسلوط الطيور التي تضم أرجلها إلى بطنها عند الطيران وتبسطهما إلى الأرض عند الهبوط. وابتكر الـ Liquid Crystal Semiconductor في حواسيبه من مراقبة التشابك الكمومي الذي تستخدمه جدران الخلايا الحية لتسريع نقل المعلومات. وفي جراحة العيون، ابتكر طريقة الشق الجراحي الأمثل المائل بثلاثة مراحل في عمليات المياه البيضاء والتي تنغلق بدون الحاجة إلى (خياطة) من دراسته لطريقة فتحات الـ Vortex veins المائلة التي خلقها الله في العين أيضًا.

يجمح الإنسان بخياله وينتج لنا الكثير من الفنون والإبداع ولكنه في أحيان كثيرة يظل أسيرًا أو على الأقل مقلدًا لما وجده هو في الطبيعة من خلق الله!

ربما كان أول من عبر عن هذا المعنى هو الشاعر (إكسينوفانس) الذي انتقد كثيرًا الشاعر الإغريقي الشهير (هوميروس) صاحب الإلياذة والأوديسة، لأنه كان يصور الآلهة في صورة وأخلاق وطباع البشر، لذلك كتب (إكسينوفانس) ساخرًا في أحد مقاطع شعره: «لو كان للخيول والثيران سواعد، واستطاعت أن ترسم بها، لصورت الخيولُ آلهتها في أشكال تشبه الخيول، ولرسمت الثيران آلهتها أيضًا في أجسام تشبه أجسامها».

كان (أبو حامد الغزالي) يقرر أن قدرة الإنسان على التخيل محدودة بتلك الأشياء التي يراها الإنسان من حوله، فيقول في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد): «إن الخيال قد أنس بالمبصرات، فلا يتوهم الشيء إلا على وفق مرآه». ويوافق على هذا الفيلسوف الشهير (جون لوك) الذي كان يرى أن مصادر المعرفة اثنان: (الحس)، والفكر. والفكر عنده يرجع إلى الحس وينطلق من تجاربه، لذلك يقول: «مهما بدت لنا فكرة ما موغلة في التجريد، فلا بد أن ترجع في أصلها إلى أحد هذين

المصدرين». وأما (إيمانويل كانط) فقد أنكر إمكانية التجريد العقلي تمامًا، لأن التجريد عنده عملية تعميم لصورة تقدمها لنا تجربة سابقة.

فيما يخص الإبداع البشري، فنحن كثيرًا ما نقلّد بطريقة أو بأخرى! كما يقول الفيلسوف البريطاني (سيريل جود): «الإبداع هو معرفة كيف تخفي مصادرك جيدًا»! وتمنى (بابلو بيكاسّو) لو يستطيع أن يعزل دماغه ويستخدم فقط عينيه. وثمّة رجل ذكي قال مرة: «إذا ظننت أن الخيال البشري لا حدود له فحاول أن تتخيل لونًا جديدًا لم تره من قبل»!

إنها قوة إبداع الله عز وجل! ذلك الإبداع الذي أسر أذهاننا جميعًا في نطاق خلق الله، فلا نستطيع بسهولة أن نتخيل وجود شيء لم يوجده أو نتخيل طريقة أخرى غير الطرائق المعهودة التي اختارها. الإبداع الذي عرفناه أشد ما عرفناه حين لاحظنا أن أجمل المبدعين من البشر هم فقط هؤلاء الذين أجادوا الإنصات لما توحيه إليهم الطبيعة، هؤلاء الذين حاولوا أن يقلّدوا خلق الله، هؤلاء الذين يحاولون التنصّت على إبداعاته سبحانه.

مثلما يتحدانا القرآن بدعوتنا لذكر نماذج أخرى للخلق غير التي عرفناها من خلق الله، فيقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ (لقمان ١١).

فأروني!

تنظر إلى لمحة أخرى من لمحات هذا الإبداع والتنوّع حين تتأمل في كم أنواع المخلوقات الموجودة في الأرض، كم القدرات الفريدة التي تتميز بها، كم الخصائص الغريبة التي تتباين بها!

تستطيع أن تمسك بموسوعة (التاريخ الطبيعي) من إنتاج مؤسسة (سميثسونيان) المشرفة على متحف التاريخ الطبيعي في واشنطن. وقتها ستعلم أنك لا تعرف شيئًا حقًا عن العالم الطبيعي الموجود من حولنا على الأرض.

نعرف القريدس والروبيان (الجمبري)، والسرطان (الكابوريا)، وربما جراد البحر كذلك (الإستاكوزا). هذه أربعة أنواع من القشريات نعرفها. لكن في الحقيقية عدد أنواع القشريات التي تعرف عليها الإنسان حتى الآن هو ٤٠ ألفًا!

في خلق الله عز وجل الكثير من التنوع.

هناك ١٠ آلاف نوع من النحل، و٣٥ ألف نوع من العناكب، و٣٧٠ ألف نوع من الخنافس، و٢٥٠ نوعًا من الفيروسات المسببة لنزلة البرد الشائعة، و٧٥٠ نوعًا مختلفًا من الأشجار في الهكتار

الواحد من الغابات المطيرة في الأمازون، ومائة تعبير وجهي مختلف يقوم به الكلب باستخدام أذنيه، بينما يوجد نوع من الرخويات له أصداف تشبه القلنسوة (القبعة)، وتعرفنا منها على خمسمائة نوع مختلف! هناك خمسمائة شكل مختلف للقبعات على رؤوس هذه الرخويات في قاع البحر.

يتعرف الأنف البشري على عشرة آلاف رائحة مختلفة، ويقوم الكبد بخمسمائة وظيفة، ويتحدث البشر ٦٨٠٠ لغة، ويحتوي جسد الإنسان على ٦٠٠ عضلة مختلفة، بينما يحتوي جسد حشرة اليرسوع بالغة الصغر على عدد أكبر من ذلك من العضلات.

في خلق الله عز وجل الكثير من التباين.

الجرافيت والماس يتكون كل منهما من الكربون النقي بتركيب كيميائي متماثل، وبرغم ذلك فأحدهما حجر شديد الليونة يُصنع منه أقلام الرصاص، والآخر حجر شديد الصلادة يُصنع منه خواتم الزواج الثمينة. وجزيرة واياليالي في هاواي ينقطع عنها المطر خمسة أيام فقط في السنة، بينما تمطر السماء على منطقة أتاكاما في تشيلي كل ٤٠٠ عام.

يضع الطائر الطنان بيضة كل عام، والديوميديا بيضة كل عامين، بينما تضع أنثى سمك الإنقليس ٤ مليون بيضة كل عام، وسمكة الباكلاه تضع أكثر من تسعة ملايين بيضة! وطحلب الكلاميدوناس يموت من الحرّ لو زادت درجة الحرارة عن ٤ درجات مئوية، بينما شوهدت بعض أنواع البكتيريا التي تعيش في البراكين وهي تموت من البرودة بعد وضعها في ماء يغلي! وحين ينصهر فلزّ الزئبق عند درجة حرارة الغرفة العشرينية، فإن فلزّ التنجستين يحتاج إلى ٣٤٢٢ درجة مئوية حتى ينصهر.

بيضة النعام قد تزن ١٩ كيلو جرامًا وبيضة طائر الطنان حجمها مثل حبة البازلاء. ولا تتماثل شكلًا أي نُدفتي ثلج برغم أن جميعها يحمل ستة أوجه. وموجات جاما يبلغ طولها الموجي طول الذرة، بينما الموجات اللاسلكية يبلغ طولها الموجي آلاف الكيلومترات وكلاهما من الموجات الكهرومغناطيسية. ويزن الخفاش الطنان جرامين فقط، أي أخف من عملة الربع جنيه، بينما يزن القلب فقط للحوت الأزرق ٦٠٠ كيلو جرام، وكلاهما من الثدييات. وأما الطماطم والبطاطس فنباتان شديدا القرابة ولكنك لا تشعر بذلك في شطيرة الإفطار.

أوراق شجر السرو في حجم الإبرة، وأوراق شجرة الموز يصل طولها إلى ستة أمتار. وينمو البامبو بمعدل ٤٠ سم كل يوم ويصل إلى ارتفاع ٣٦ مترًا، بينما يصل طول التنوب ستيكو إلى ٢٨ سم بعد ٩٨ سنة! ويصنع طائر (خطاف الجرن) عشّه من الطين، بينما (صياد السمك) يحفر عشه على أنفاق الشواطئ، و(نقار الخشب) يحفر عشه في فروع الأشجار.

للأخطبوط ثلاثة قلوب، وللبقرة أربع معدات، وأنثى الفيل الهندي تحمل لمدة ٦٤٨ يومًا بينما أنثى قملة النبات تولد حاملًا أصلًا. تنام الحيتان والدلافين بنصف أمخاخها فقط كي لا تغرق، وينام حيوان الكسلان ٢٠ ساعة، وأما النمل فلا ينام أبدًا.

في خلق الله عز وجل الفريد من القدرات.

جيش النمل يحمل ٢٥ ضعف وزنه، والبرغوث يقفز مسافة تساوي ٢٠٠ ضعف طوله، والقنادس تبني سدودًا لمسافة ثلاثمائة متر، والسم في جلد الضفدعة الواحدة من ضفادع السهم السام يكفي لقتل ألف فأر. وعند السبعين، يكون قلبك قد دق مليار دقة.

ترفرف أجنحة النحلة ٢٥٠ مرة في الثانية الواحدة، وحيوان آكل النمل يقوم بـ ١٥٠ (شفطة) في الدقيقة، ونقار الخشب ينقر ٢٠ نقرة في الثانية بسرعة أكبر من سرعة الرصاصة، والجمال تصمد بدون ماء لأسبوعين ثم قد تشرب ٢٠٠ لترًا من الماء في عشر دقائق. ويُسمع صوت عواء القرد العوّاء من بعد ٥ كيلو متر. ويغنّي ذكر الحوت الأحدب لأنثاه ٢٠ دقيقة.

ووسط كل ما هو غريب وبديع يظهر لنا طائر الكيوي ليعلّمنا أننا لم نر شيئًا بعد! فهو عصفور، ولكن جسمه مُغطّى بالشعر بدلًا من الريش! وله مواء كالقطط، وينبح أحيانًا كالكلب، وعشه تحت الأرض وليس فوق الشجر، وله حاسة شم قوية يندر مثلها وسط الطيور، ويضع بيضة ضخمة يصل طولها إلى ١٢ سم برغم أنه في حجم الدجاج!

هذا التنوّع الخلقي الكبير تحدث عنه الله جَلَّجَلَالُهُ فقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ**﴾ (الشورى ٢٩). بل وتحدث القرآن عن الإعجاز في الاختلافات بينهم فقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (النور ٤٥).

هذا الإله البديع الذي ليست لديه وسيلة واحدة للرزق ولا شكل واحد للخلق ولا طريقة واحدة للأحياء في معيشتهم. هذا الإله الذي أرانا هذا التنويع في أنفسنا قبل أن نراه في غيرنا. هذا الإله الذي يبدع في كل حين شكلًا جديدًا ونمطًا جديدًا للحياة. هذا إله يحب أن يرينا من آياته، ولكن الكثيرين منا غافلون!

١٠

التصميم

"هل صُنِعت العين بدون براعة في البصريات؟

والأذن بغير معرفة مسبقة بعلوم الصوتيات؟"

إسحاق نيوتن

تعاونت (آن ديوران) مع (كارل ساجان) في كتابة سيناريو فيلم في ١٩٧٩، ولكن بعد ذلك حدث أمران، أولًا توقف إنتاج الفيلم، وثانيًا تزوّجا بعضهما! قرر (كارل ساجان) أن يحوّل الفيلم إلى رواية، فكانت رواية (تواصل) Contact والتي تم نشرها في ١٩٨٥. تحكي الرواية عن علماء رصدوا سلسلة من الأرقام المعقدة من الفضاء الخارجي تجعلهم يجزمون أن هناك حياة (ذكية) في مكان ما من الكون تحاول التواصل معهم.

تذكر أن (كارل ساجان) هو عالم فلكي أمريكي أشهر من نار على علم، وأنه كان سبب إطلاق مشروع البحث عن حياة ذكية SETI من حكومة الولايات المتحدة اعتمادًا على رصد أية دلالة (معقدة) من الفضاء. وأما آخر الأمور التي أريدك أن تعرفها عن (ساجان) أنه لم يكن مؤمنًا بالله عز وجل.

والآن نريد أن نسأل: هل تعني رواية ساجان المنشورة في ١٩٨٥ أن سلسلة الأرقام المعقدة الآتية من الفضاء الخارجي تدل على (ذكاء) من صممها، لكن الكون بكل ما فيه لا يدل على ذلك؟!

منذ حوالي قرنين من الزمان أطلق الفيلسوف اللاهوتي (ويليام بيلي) مثاله الشهير: «عندما نجد ساعة على الأرض نستنتج أن مصممًا قد صنعها، فعندما نجد حيوانات ونباتات قد صُمّمت تصميمًا معقدًا، وتتكيف على نحو رائع فينبغي بالمثل أن نستنتج أن خالقًا قديرًا حكيمًا قد صنعها».

أتخيل أن سبب استخدام (بيلي) للساعة كمثال على التصميم هو أنها كانت أعقد ما لديهم من صناعات وقتها، على الأقل هي مثال للصناعة الدقيقة التي لا تتطلب مهارة في الصنع فقط، ولا علمًا كافيًا فقط، ولكن أيضًا حِرَفيّة في العمل، وأناقة في التكوين!

كان (هيوم) واحدًا من المعترضين على فلسفة حجة التصميم من قَبل بالي باعتبار أن الكائنات الحية تختلف عن المصنوعات في أنها تتكاثر، لذلك فالكائنات الحية لربما أتت من كائنات أخرى مثل عنكبوت عملاق أو خضروات مثلًا!

لم يعلق (بيلي) على موضوع الخضروات أو غيره ولكنه سأل: ألا تعد ساعة جيب تقوم بإنتاج نفسها أعقد وأكثر تطلبًا لوجود صانع لها من ساعة جيب أخرى لا تفعل؟

على كل حال، فالسؤال الذي نريد الإجابة عليه، هل ما في الكون من مخلوقات، وما في صنعتهم من تعقيد تدل على التصميم؟

دعنا نفترض شرطًا للتصميم الجيد، وهو أن يكون منظّمًا.

حسنًا، لدينا مثال جيّد على النظام في الخلية الحية. فتلاحظ بدخلها شبكة من الطرق والنقل لخطوط المواصلات الرئيسية بين عضيّات الخلية تسمى الشبكة الإندوبلازمية ER. ومصانع للبروتينات Ribosome ومصانع للطاقة Mitochondria ومصانع لجزيئات متخصصة Golgi Apparatus ومساحات حرق النفايات Lysosomes ومراكز لتخطيط التكاثر Centriole ومخازن للغلال Vacuole وحكومة مركزية هي النواة والتي يتكدس بها الـ DNA المكتوب فيه مُسبّقًا كل شيء يتعلق بهذه (المدينة) وطريقة تنظيمها وعملها.

دعنا نفترض شرطًا آخر للتصميم الجيد، وهو أن يكون (أنيقًا).

حسنًا، لدينا مثال جيد على أناقة التصميم، وهو كتابنا الوراثي الذي يتكون من ٢٠٠ ألف صفحة مقسمة على ٢٣ جزءًا، ومكدسة على شريط خرافي الطول اسمه DNA وسمكه ٢ من بليون من المتر!

اللغة المكتوب بها كتابنا الوراثي مكوّنة من أربعة حروف فقط A,C,G,T وقاموسه مكون في معظمه من ٦١ كلمة فقط، وهذه الكلمات مترادفة ولها عشرون معنًى، هي أسماء الأحماض الأمينية. والكتاب الوراثي يذكر لنا جملًا منها جمل اسمية (تذكر تتابع أحماض أمينية معين) وجمل فعلية (تقول: ابدأ، كفى، توقف... إلخ). والجمل من الممكن أن تتكون من ٨٠ كلمة، أو مئات آلاف الكلمات (جين بروتين الدينورفين طوله ٢ مليون حرف). ومعظم ما في كتابنا الوراثي كلمات غير مفهومة لم نعرف ما تدل عليه بعد!

لم تنتهِ (أناقة) التصميم بعد! فشريط الـ DNA ليس مكدّسًا بطريقة قبيحة، بل ملفوف في سلم حلزوني، تحمل كل دورة منه عشر سلالم بالضبط، وبين كل سلمتين متتابعتين ٣،٤ أنجستروم، ويبلغ عرض السلم اللولب ٢٠ أنجستروم.

كانت أناقة كتابنا الوراثي أكثر من مذهلة بالنسبة للعالم النمساوي (إروين تشارجاف) والذي كان أول من اكتشف أن نسبة القواعد النيتروجينية (الحروف) من النوع A يساوي T تمامًا، ونسبة G يساوي C تمامًا أيضًا، وذلك في كل كائن حي. عُرفت هذه الملاحظة باسم (نسبة تشارجاف). لم يرَ تشارجاف هذا التساوي في الطبيعة من قبل، مما جعله متشككًا حول نتائجه التي تعلمها منه (واطسون) و(كريك) قبل أن يخرجا في ١٩٥٣ بأهم ورقة علمية في العصر الحديث وهي وصف الـ DNA.

دعنا نفترض شرطًا ثالثًا للتصميم الجيد، وهو أن يكون (معقّدًا).

حسنًا، لدينا عدة أمثلة على ذلك في الحقيقة. حركة يدك مع ذراعك لتقوم بشيء ما هي في الواقع نتاج تعاون وتناسق بين ٣٠ مفصلًا و٥٠ عضلة! ولكن هذا ليس بأغرب من خرطوم الفيل الذي يحتوي على ٤٠ ألف عضلة (٧٠ ضعف عدد عضلات جسمك بأكمله) تعمل كلها في تناغم ويستطيع بواسطته اقتلاع شجرة تزن أربعة من الأطنان!

الأغشية الحية للنبات تتكون من جزيئات بالغة الصغر تفصلها مسافات أصغر منها، تسمح بمرور (جزيئات) الماء ولا تسمح بمرور (قطيراته). بهذه الطريقة يحصل النبات على الماء ولا يفقد عصارته النباتية إلى الخارج.

في شباك العنبكوت نجد عقدًا صغيرة تعمل كعاكسات للأشعة فوق البنفسجية لجذب الحشرات. ونجد مكشاف على رأس الحية ذات الأجراس لرصد الأشعة تحت الحمراء والاستجابة في زمن قياسي بالنسبة للأنظمة الحية (٣٥ مللي ثانية). وعلى أنف سمكة القرش نجد هوائي كهربائي يستقبل إشارات الأسماك الضئيلة والبحث عن المختبئ منها تحت الرمال. ونجد لبعض الحيوانات أضواء خاصة، وقيثارة للجراد، وصنوجًا لصرصور الليل، ومجموعة كبيرة من الأفخاخ والمصائد والشباك والأصماغ!

مجموعة كاملة من الأدوات المعقدة تملكها الحيوانات العجماء، حتى ألّف (أندريه تتري) كتابًا كاملًا سماه: (الأدوات عند الكائنات الحية).

دعنا نفترض شرطًا رابعًا للتصميم الجيد، وهو أن يكون (دقيقًا).

ربما شجرة الفيلوستاشيس -والتي هي نوع من الخيزران- يمكنها أن تجيب عن أمر الدقة هذا. حيث يكتمل نموّها وتزهر كل ١٢٠ عامًا بالضبط! وتم رصد هذه الملاحظة لأول مرة سنة ٩٩٩ في الصين، ومن يومها لم تتأخر أو تتقدم عن هذا الموعد أبدًا. وآخر إزهار لهذه الأشجار تم في ١٩٥٩ وينتظر المراقبون إزهارها القادم في عام ٢٠٧٩.

على جبال جامايكا نوع آخر من الخيزران لا يُزهر إلا كل ٣٢ عامًا تمامًا، ولكن إزهاره يكون إيذانًا بموت النبات بعده. وفي إحدى جزر سيشيل بالمحيط الهادي نوع من النخيل ينتج ثماره كل عشرة سنوات كاملة.

دعنا نفترض شرطًا خامسًا للتصميم الجيد، وهو أن يكون (متناغمًا).

سنترك الإجابة هذه المرة للدكتور (ألكسندر جوربوفسكي) والذي لاحظ أن الآلاف من النمل الأبيض تتعاون في بناء جبل بيتي للنمل، وعندما ينتهون إذا به بناء بالغ التعقيد فيه أنفاق وطرق ومخازن للأخشاب وحجرات للبيض. وقد أجريت تجربة، حيث قسموا جبل النمل وهو في أثناء مرحلة البناء إلى قسمين، فكانت النتيجة أن استمر العمل في البناء بالطريقة نفسها، وتم بناء نفس الطرق والممرات والأنفاق في كل نصف منهما ليصبحا جبلين. بل وصنع النمل وصلات مشتركة بين البناءين.

لاحظ أنهم قد قسموا بين النصفين وعزلوا بين النمل العامل في كل نصف بشكل كامل. إن كل نملة لم تكن تعلم ما الذي تفعله جارتها ومع ذلك صنعت شيئًا متناغمًا معها بشكل كامل. إنه وكأن النمل في مجموعه يملك المعلومات الكاملة عن البناء، بينما كل نملة بمفردها لا تملك أي معلومة!

دعنا نفترض شرطًا سادسًا للتصميم الجيد، وهو أن يكون (أصيلًا).

حسنًا، إن الأصالة التي تبحث عنها يمكنك أن تلاحظها في جهاز السونار في الخفافيش والذي يختلف تمامًا عن جهاز السونار في الدلافين. أو في أجنحة الفراشات التي تختلف في بنيتها التشريحية عن أجنحة الطيور ويختلف الاثنان عن أجنحة الخفافيش ويختلف الثلاثة عن أجنحة الزاحف المجنح Pterosaurs.

حاول التطوريّون الزاعمون أن كل الكائنات الحية نشأت من سلف مشترك أن يرتبوا الكائنات في شجرة تطورية واحدة، ولكن وجدوا أنه وفقًا لهذه الشجرة فالعين تطورت عدة مرات على عدة أفرع مختلفة، وفي كل مرة لا علاقة لها بالفروع الأخرى، والجناحات تطورت في أربعة شعب مختلفة من مملكة الحيوان، وهناك الكثير من الحيوانات المتشابهة (جدًا) من المفترض ألا تكون متشابهة (على الإطلاق) لأنه لا توجد صلة أو قرابة تطورية مفترضة بينهم مثل السنجاب الطائر المشيمي والسنجاب الطائر الجرابي، أو الفراء الشوكي للشيهم الأميركي والفراء الشوكي للشيهم الأفريقي. وعُرفت هذه المعضلة باسم Convergent Evolution وله عشرات الأمثلة في الكائنات المختلفة.

بالنسبة إلى من يؤمن بالخلق فهذه ليست معضلة، إنما هو إبداع من الله عز وجل، وأصالة في صنعه المتقن.

التصميم كان باديًا في أعين فلاسفة اليونان، مثل أفلاطون، ومن قبله (أناكساغورس) الذي قال: «من المستحيل على قوة عمياء أن تبدع هذا النظام والجمال، لأن القوة العمياء لا تنتج إلا الفوضى».

رأى حجة التصميم أيضًا فلاسفة روما القديمة كشيشرون، والفلاسفة اليهود كموسى بن ميمون، وفلاسفة النصارى كتوما الإكويني، والفلاسفة المسلمون كأبي حامد الغزالي وابن رشد - فبنوا عليه حججهم الخاصة بوجود الله عز وجل.

بل إن فيلسوفًا لم يكن يرى للحجج العقلية كبير قيمة في إثبات وجود الله مثل (إيمانويل كانط) توقف أمام حجة التصميم واعتبرها دليلًا على الأقل لوجود مصمم ذكي لهذا العالم، ويذكر عن التصميم أنه: «أكثرها إدهاشًا ووضوحًا، وأكثرها اتساقًا مع الحالة الطبيعية من أي دليل آخر، وهو يطلعنا على شيء من حكمة الله وعنايته، وهو في النهاية أكثرها عملية من أي دليل آخر، حتى في نظر الفيلسوف».

أما بالنسبة للعلماء التجريبيين، فلدينا (يوهانس كيبلر) عالم الفلك الأبرز، و(جون راي) عالم الأحياء، و(روبرت بويل) عالم الكيمياء الذي عذبك في محاولة تذكر قوانينه في الفيزياء الحرارية في الثانوية العامة. كل هؤلاء قدموا حججًا على التصميم من وحي مشاهداتهم في مجالاتهم العلمية.

أو كما قال السير إسحاق نيوتن في كتاب (البصريات): «كيف يمكن لأجسام الحيوانات أن يتم إبداعها وصناعتها بكل هذا الفن؟ وما الغايات التي جُمِعت لأجلها أجزائهم المتعددة؟ هل صُنِعت العين بدون براعة في البصريات والأذن بغير معرفة مسبقة بعلوم الصوتيات؟ وكل هذا يوضع في محله بشكل صحيح شديد الدقة! ألا تدل هذه الظواهر على موجود لا مادي حي ذكي كلي العلم؟».

أو كما قال الفيزيائي (جورج جرينشتاين): «تخطر لي الفكرة باستمرار، بأن فاعلًا مريدًا خارج الطبيعة لا بد أنه لعب دورًا». أو كما ذكر فريد هويل: «هنالك مكوّن مفقود في الدراسات الكونية. أصل الكون، كما هو الحال في حل مكعب روبيك، يتطلب ذكاءً». أو كما يقول عالم الأحياء الجزيئية (مايكل دنتون): «لقد بتنا نرى تقريبًا كل سمة من سمات تقنياتنا المتقدمة ممثلة بنظائرها في الخلية. مقنعة جدًا قصة هذا التناظر إلى درجة أن كثيرًا من مصطلحاتنا التي نستخدمها لوصف الواقع المذهل للعالم الجزئي يمكن استعارتها من عالم التقنية في الجزء المتأخر من القرن العشرين».

ويلخّص آينشتاين موقفه من الكون الذي يُنسَب له: «إن معرفة الإنسان عن الكون كطفل دخل مكتبة ضخمة، فيها مجلدات كتبت بلغات متعددة، يدرك يقينًا أن كُتّابًا كتبوا هذه الكتب، ولكنه لا يدري كيف، ولا يفهم اللغات التي كتبت بها، ويدرك يقينًا أن الكتب قد رصت في المكتبة بنظام ما، ولكنه لا يعرفه»!

ولئن لم يذكر لنا القرآن لفظ أن الله (صمّم) الكون، فقد ذكر لنا أنه أحسن خلقه، وأتقن صنعه، وقدّر كل شيء وسوّاه.

فيحدثنا القرآن عن السماء والتي (احتبكها) الله عز وجل وأحسن صنعها ونسيجها: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ**﴾ (الذاريات ٧)، ويحدثنا عن التقدير في خلق كل شيء: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ (الفرقان ٢)، ويقول عز وجل: ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾ (الأعلى ٢-٣).

ﮓ

ولكن لا أظن أن هذا ينطبق على كل الناس! ليس عند الجميع الاستعداد نفسه للاعتراف بما هو واضح. خذ عندك مثالاً على ذلك (راندولف نيس)!

ولنعرف قصة راندولف، دعنا نتساءل أولًا، لماذا تضع أمك طبقة من الزيت أعلى (برطمان) الزيتون؟! وكيف تجعل سطح صينية (المكرونة بالبشاميل) بهذه السلاسة برغم نتوءات أصابع (المكرونة) البارزة؟ وحين تغسل (طاسة) القلي بالماء فقط، فما سر تكوّن كريّات الدهون على السطح؟

فلسفة هذه الأفكار شبيهة إلى حد كبير بطبقة الدموع التي تغلف أعيننا! حيث لا بد من أن تحتوي الدموع على طبقة زيتية Oily layer كـ (برطمان) الزيتون لتمنع التبخر السريع للدموع مما يمنع جفاف العين. ولا بد من وجود طبقة مخاطية Mucin layer تقوم بتحويل سطح القرنية الكاره للماء Hydrophobic إلى سطح محب للماء Hydrophilic وإلا سوف تتكسر طبقة الدموع عليها مثل كريّات الدهون الزيتية على المقلاة. وأما الطبقة الثالثة للدموع فهي الطبقة المائية Aqueous layer التي تملأ التعرجات الدقيقة الموجودة على القرنية فتجعلها سطحًا سلسًا يسمح بانكسار الضوء من خلاله بشكل سليم ليساعد في دقة الإبصار. بينما الجفون فهي أمك التي تقوم بـ (فرد) كل هذه الطبقات وتوزيعها على سطح العين عشرات المرات كل دقيقة.

كان القدماء يقولون: «العين عليها حارس»، والحقيقة أن العين عليها عدة حراس. فالجفون تنغلق تلقائيًا لحماية العين من الضوء الشديد Dazzle Reflex أو من أي شيء يتحرك تجاهها Menace Reflex. وكرة العين تنقلب للأعلى بزاوية ١٥ درجة لحمايتها من كل الأشياء الوقحة التي

قد تحط عليها فيما يعرف بظاهرة (بل) Bell's Phenomenon. ونسبة حمض الأسكوربيك في السائل العيني تبلغ ٢٠ ضعف نسبته في الدم ليخلصها من جسيمات الـ Free Radicals الضارة. ويقوم غشاء (بروك) Bruch Membrane بعمل حاجز بوليسي حازم بين الشبكية وبين الدم الذي يجري فيه الكثير من الأشياء الخطيرة. وتمتص الطبقة المشيمية Choroid الصدمات بطبيعتها الإسفنجية لتحمي الشبكية، بينما يتولى غذاؤها الدموي الغني التعامل مع الحرارة الزائدة الناتجة عن التعرض للضوء. وأما سطح القرنية فنجده يشعر بالألم أكثر بألف ضعف من شعور الجلد به، لينبهك بأدنى خدش قد يصيبه.

بالمناسبة، هل تعلم أن القرنية في تكوينها النسيجي شبيهة بالجلد إلى حد خرافي، فلماذا القرنية شفافة فتسمح بمرور الضوء داخل العين؟ في الحقيقة هناك حوالي ١٢ سببًا لهذا! لن أخاطر بذكرها جميعًا حتى لا تتوقف عن القراءة، لكن هناك منها ما هو بديع بحق. منها على سبيل المثال أن أليافها مرتبة بطريقة دقيقة تجعل المسافة بين كل واحدة والأخرى أقل من الطول الموجي للضوء فيما يعرف بقانون موريس، كما أنه (يُصّادَف) أن معامل انكسار الضوء لكل طبقاتها متماثل تقريبًا، بينما موجات الضوء القليلة المتبعثرة بسبب اصطدامها بألياف القرنية، تلغي بعضها بعضًا بظاهرة الـ Destructive Interference الفيزيائية كي لا (تشوّش) على الصورة المرئيّة. وأما الجسم الزجاجي داخل العين فيحافظ على شفافيته بالنسب المتوازنة بدقة بين ألياف الـ Collagen والـ Hyaluronic Acid.

تستغرق كل رمشة للعين حوالي ثلث الثانية، ولذلك (كان من المفترض) أن يتأثر النظر حين نرمش بأعيننا. ولكن حركة الجفن الفريدة في الإغلاق من الطرف البعيد للطرف القريب كالـ (سوستة) تسبب أن النظر لا يتعرقل إلا عُشر الثانية فقط. وهي مدة أقل من المدة التي تظل فيها الصورة السابقة منطبعة على الشبكية (After Image) فتصبح الصورة متصلة أمامنا، ولا نشعر أننا نغلق أعيننا أصلًا.

كان من المفترض أيضًا أن يتم إضعاف كرة العين بخروج (خرطوم) العصب البصري العملاق منها، لكن جعله الله عز وجل يخرج من خلال غشاء (غربالي) Lamina Criprosa مكون من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ خرم صغير، يحافظ على صلابتها.

وكان من المفترض أيضًا أن نرى الأوعية الدموية التي تمر أمام مستقبلات الضوء في الشبكية (لتغذيتها) داخل أعيننا باستمرار، إنه أمر مزعج للغاية ولكنه منطقي! عدم رؤيتنا لهذه الأوعية (المشوّشة) هو الأمر الغريب، وسبب ذلك أن كل ١٠٠ خلية مستقبلة للضوء يتم تمثيلها بخلية عصبية واحدة تقريبًا. فيتجاهل المخ المُستقبلات المشوّش عليها، ويأخذ الصورة من بقية المائة!

هناك مكان واحد فقط لا يحدث فيه ذلك. وهو مركز الإبصار (Fovea) والذي تمثل كل خلية مستقبلة للضوء بخلية عصبية واحدة. ولذلك فهذا المكان لا تمر من أمامه أية أوعية دموية Foveal Avascular Zone. وهذا لأن الله عز وجل لا ينسى شيئًا.

الجميل أن هناك الكثير من الأشياء المزعجة التي (كان من المفترض) أن تحدث، ولكن العين مظبوطة لتجنبها باحتراف. خذ عندك مثلًا، ظاهرة التشتت اللوني Chromatic Abrasion حين يتبعثر الضوء الأبيض إلى لوني الأحمر والأزرق على أطراف قوس قزح. تعادل شبكية العين ذلك بزيادة تركيزها على النطاق اللوني الأصفر والأخضر. وهناك ظاهرة التشتت المركزي Spherical Abrasion حين ينكسر الضوء من أطراف العدسة بقوة أكبر من انكساره من منتصف العدسة، تتجنبها العين بالحفاظ على قطر صغير لحدقة العين يساوي حوالي ٢ ونصف مللي. عليك أن تتذكر ذلك لما تأخذ قطرة (الأتروبين) الموسّعة لحدقة العين في فحص التجنيد الإجباري لتفاجأ بأنك لم تعد ترى شيئًا تقريبًا.

هناك الكثير من الأشياء التي تُعتبر بالغة (المثالية) في العين الصراحة! لديك مثلًا Muller Muscle التي تعتبر (شماعة) يتم تعليق الجفن عليها كي لا تشعر بإرهاق حمله ورفعه طوال الوقت. ولديك صبغات استقبال الضوء Chromophore والتي تستقبل الضوء بشكل عمودي، مما يعتبر أفضل وضع ممكن لالتقاط الفوتون. وشبكية العين التي يمكنها احتمال توقف الجلوكوز عنها مدة تصل إلى عشر دقائق. والقدرة البديعة للمخ على خلق صورة ثلاثية الأبعاد من صورتي العينين والشعور بالعمق والمسافة.

العين حين تتحرك فهي ليست كأي عضو يتحرك، فبرغم أنها تتحرك ١٠٠ ألف مرة في اليوم الواحد تقريبًا إلا أنه لا يصيبها الإعياء أو الشد العضلي أو ضعف الدقة. عضلات العين يتحكم فيها ضعف عدد الخلايا العصبية التي تتحكم في العضلات العادية، مما يساعدها لأن تتدرج في حركتها بـ (مزاج)! وكمية كبيرة من الأنسجة المرنة بداخلها، تساعد على إكسابها حركات رقيقة متقنة، هذا غير الـ Vestibular Reflex الذي يبقي العين في موضعها دائمًا بغض النظر عن الوضع الذي تتخذه الرأس أو الرقبة، حتى لا نصبح مثل البومة. بينما تساعد الوصلة الكهربائية بين أعصاب العين الأربعة في تنسيق تعاون حركات العين اليمنى مع اليسرى دائمًا، فيما يعرف بقانون شيرينجتون، وقانون هيرينج.

في الحقيقة ككل، فالعين تتصرف مع الصورة كجهاز مركزي متكامل، فخلايا الـ Starburst Amacrine والـ DAPI ٣ Amacrine تستطيع تحديد حركة الأشياء، والـ Horizontal Cells تقوم بتحسين (كونتراست) الصورة، وخلايا Ganglion X متخصصة في التفاصيل، و Ganglion

W منظمة الرؤية الليلية، وGanglion Y مسئولة عن تحديد التغير السريع في الصورة المرئية. بينما يقوم الـ LGB بضبط كمية المعلومات المناسب إيصالها للقشرة المخية، وإهمال ما لا داعي له من ذلك كله!

على بعد ١٥ درجة من مركز إبصارك توجد نقطة عمياء، يمكن اعتبارها بمثابة ضريبة للعصب البصري، لا يمكنك أن تشعر بهذه النقطة في الأحوال العادية ولا أن تدركها، وذلك لأنها بعيدة عن محور إبصارك، ولأنك ترى مجالي إبصار متداخلين لكل عين، كما أن العين لا تبقى في حالة ثابتة أبدًا بل تتحرك بحركات يسيرة جدًا تساعد المخ على أن يملأ الفراغ الموجود بما يعرف بـ Troxler Effect.

في إحدى أفلامه الوثائقية، كان داعية الإلحاد العجوز (ريتشارد دوكنز) يستضيف د. (راندولف نيس) للحديث عن (الأخطاء الموجودة في التصميم الإلهي المزعوم). فكان رأي راندولف أن العين ليست مثالية أو كاملة على الإطلاق! وأن خلق الله ليس على هذه الدرجة من الإحكام! وأن هناك الكثير من عيوب التصميم فيها. وسبب ذلك في رأيه هو وجود بقعة عمياء في مجال الإبصار، مما اعتبره بمثابة (فشل)!

ناهيك عن أن ريتشارد دوكنز نفسه هو صاحب كتاب (صانع الساعات الأعمى) والذي يستدل به باستخدام (أشياء) مثل هذه للدلالة على عيوب (التصميم).

في القرآن نجد لدينا ما يفسر ذلك، وهو قول الله عز وجل: ﴿**وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا**﴾ (الفرقان ٥٥)، أي يكون معينًا للشيطان على ربه، وكأنه سيضره!

في القرآن أيضًا نجد توصيفًا رائعًا لحال هؤلاء الذين لا يتريثون قليلًا قبل أن يتركوا دينهم لأجل (أفكار منتصف الليل) من أمثال هذه، وهو قول الله تعالى: ﴿**وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا**﴾(الأحزاب ١٤). أي هؤلاء الذين يُدعون للكفر بعد الإسلام فيرحبون بذلك ولا ينتظرون إلا قليلًا!

بالمناسبة هناك تفسير آخر لآية: ﴿**وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا**﴾، أي هيّنًا!

11

الاتزان

"أرى عالمًا على حافة السكين، من دون اتّزان، سوف يقع"

فيكتوريا إيفيارد

في عام ١٧٩٨ نشر القسّ الإنجليزي (توماس روبرت مالتوس) كتابه الشهير جدًا: مقالة عن السكان، وسبب أنه شهير جدًا أن (داروين) قد تأثر به إلى أبعد حد مما جعله يصل إلى نظريته الخاصة (بأن الصراع من أجل البقاء كان سبب حدوث التطور) من هذا الكتاب.

قال مالتوس في الكتاب أن أعداد السكان تتزايد في العالم بشكل رأسي، بينما تتزايد الموارد الغذائية والرقعة المزروعة فيه بشكل أفقي، ومن ثمّ -حسب مالتوس- سيأتي على البشر زمان يتقاتلون فيه من أجل لقمة العيش، وتشتعل الحروب من أجل السيطرة على الغذاء. نظرية مثيرة للاهتمام عمومًا، غير أن مالتوس كان مخطئًا في ثلاثة أشياء!

أول هذه الأخطاء أنه أساء تقدير القدرة الاستيعابية للأرض، فحسب مالتوس مثلًا لا يمكن أن تستوعب الجزيرة البريطانية أكثر من عشرين مليون إنسان. بينما بعد صدور كتابه بمئة وخمسين عامًا استوعبت الجزيرة البريطانية ثلاثة أضعاف هذا العدد.

الخطأ الثاني كان الافتراض القائم على أنه طالما نحن نزداد في العدد الآن فسنظل نزداد إلى ما لا نهاية حتى يأكل بعضنا بعضًا! وهو افتراض لدى الكثيرين الآن ممن يصرخون باستمرار: العالم كان ثلاثة مليارات في ١٩٦٠ وصار سبعة مليارات في ٢٠١٥ مما يعني أننا سنصير أربعة عشر مليارًا خلال الأربعين سنة القادمة.

علماء الإحصاء الآن يتحدثون عن نظرية بديلة، فكما يقول عالم الإحصاء السويدي (هانز روزلينج) فإن هناك انخفاضًا شديدًا حدث بالفعل منذ ١٩٨٠، وهذا الانخفاض استمر منذ ذلك الحين ولم ينكسر في الثلاثين سنة الأخيرة! والسبب الذي يجعلنا لا نشعر بهذا الانخفاض، بل نشعر بالزيادة، أننا نعيش الآن ما يسمّى بالفجوة الإحلالية الكبرى، وسببها الرئيسي انخفاض

معدل الوفيات. وأن هذا سيؤدي بنا إلى الوصول إلى رقم عشرة مليارات ومن ثمّ يغلب الظن أن عدد البشرية سيثبت تقريبًا على ذلك. يُتوقع لنا أن نصل إلى (التوازن) خلال الثلاثين سنة القادمة.

على أن الخطأ الأكبر الذي وقع فيه مالتوس في توقعاته، أنه توقع الزيادة الغذائية ستكون بطيئة خطية تزداد بشكل أفقي فقط رغم أن التطور الكبير الذي حدث في التكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية فيما يعرف باسم الثورة الزراعيّة أتاح للبشرية أن يحصلوا على أضعاف الإنتاج الغذائي من نفس المساحة الزراعية!

على سبيل المثال اجتاحت أيرلندا في أربعينيات القرن التاسع عشر مجاعة رهيبة كان سببها أن فطرًا أصاب البطاطس بـ (اللفحة)، هذه المجاعة عُرِفت باسم (مجاعة البطاطس)، وكان سببها أن الظروف الاقتصادية السيئة دفعت ثلث سكان أيرلندا إلى الاعتماد على البطاطس كغذاء رئيسي. نتج عن هذه المجاعة موت مليون أيرلندي وتهجير مليون آخر! أي فقدت ربع سكانها مرة واحدة. وتسبب هذا في تغيير فاصل في تاريخ أيرلندا، بسبب هذه اللفحة.

بينما تمكن العلماء مؤخرًا باستخدام (البيوتكنولوجي) من أن ينقلوا جينًا من البرسيم إلى البطاطس يجعلها مقاومة لهذا الفطر، وهكذا تم الحفاظ على المحصول! المشكلة التي سببت كارثة إنسانيّة، قد تمكن الإنسان بفضل ربه من القضاء عليها تمامًا! هذه تجربة شبيهة بنقل الجينات المسئولة عن تكوين (البيتاكاروتين) إلى الأرز فيجعله غنيًا بفيتامين أ مما يكفي لتحصين الكثير من أطفال دول العالم الثالث من العمى.

هذا غير التهجين الطبيعي الذي جعلنا نتعرف على سلالة القمح الصلد مثلًا (الذي تفصل منه قشوره بسهولة والذي يصنع منه المكرونة)، ثم تهجين آخر نتج عنه قمح الخبز العادي الذي نأكله ويعطي لعجينة القمح الخصائص المتفردة التي تجعلنا نشكله في الكثير من المخبوزات المختلفة.

عندما وصل العالم إلى حدود فوضويّة في ظنهم اكتشفوا أنهم كانوا فقط على أعتاب طفرة جديدة من التوازن الإلهي الذي أقرّه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على هذه الأرض. والذي قد يختل في ظروف معيّنة وأوقات معيّنة أمام أعيننا ظاهرًا لحكمة يعلمها سبحانه. ولكن تبقى سننه الماضية وبشكل إجمالي عام لكل ما يخص هذه الأرض هي الاتزان!

هذا الاتزان الذي أخبرنا القرآن أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يسمح بنقيضه: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر ١٩).

الاتزان الذي يتجلى أيضًا في التقدير الحكيم لدورة المياه! فلو كانت الكمية النازلة لنا من السماء من الماء أكبر لصار هذا معناه مدن غارقة، ومحطات لتوليد الكهرباء فاسدة، وبيوت مهدّمة. ولو كانت أقل فهذا معناه مواسم جافّة يشعر بها الفلاح الذي يريد أن يروي حقول أرزه بدون تقتير! لذلك فهذا التقدير قد ذكرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ (المؤمنون ١٨).

يمكنك أن تتأكد بنفسك من هذا التقدير بزيارة جناح الحضّانات Neonates في أي مستشفى للولادة، ستلاحظ عدة أطفال متراصّين في علب بلاستيكية كبيرة تخرج منها الخراطيم ويكادون يشبهون مخلوقات روزويل الفضائية، وقبل أن تشعر بالفزع منهم سأذكّرك أن هؤلاء أطفال طبيعيين ولكنهم مضطرين للبقاء هنا عدة أيام أو أسابيع أو شهور للإبقاء على حياتهم، فقط لأنهم وُلِدوا مبكرين عن موعدهم بأسابيع قليلة Preterm لذلك هم غير قادرين على مواصلة الحياة كما يقدر غيرهم. حينها يجب عليك أن تتذكر ما قاله لنا القرآن من تقدير وقت الأجنّة: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۞ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۞ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ (المرسلات ٢٠-٢٣).

✽

لما وصل المهاجرون الإنجليز الأوائل إلى أستراليا افتقدوا رياضة صيد الأرانب التي كانت تخلو منها القارة الجديدة، فاستورد (توماس أوستين) ١٢ زوجًا من الأرانب عام ١٨٥٩ وأطلقهم، وبعد عدة سنين تسببت الأرانب في كارثة بيئية وأهلكت كل مراعي الماشية تقريبًا!

ماذا حدث؟

الذي حدث أن الأرانب تكاثرت بدون أي عائق طبيعي لتكاثرها فسببت مشكلة كبيرة، ولكن هذا جعلنا نفكر، ماذا لو أُتيحت الفرصة لكائنات مسالمة بريئة بأن تتكاثر بحرية، هل ستنجو البيئة من ذلك؟

سمك (الباكلاه) الذي يعيش في شمال المحيطين الهادي والأطلنطي، لو تم ترك سمكة واحدة منها محمّلة بالبيض بدون أية عوائق أو مخاطر لها، لملأت المحيط الأطلنطي عن بكرة أبيه خلال عام واحد فقط! أما سبب عدم حدوث ذلك في واقع الظروف الطبيعية، أنه على الرغم من أنها تضع ٩ ملايين بيضة، إلا أن سمكة واحدة تنمو من كل ٨ ملايين، وذلك لأن معظم الأسماك المحيطة (بما فيها أسماك الباكلاه البالغة نفسها) تتغذى على بيضها في المعتاد.

مثال شبيه بذلك هو الفأر، أنثى الفأر تلد عشرين مولودًا كل ثلاثة أسابيع ابتداءً من الشهر الثالث من عمرها وتعيش ثلاث سنوات، لذلك قد يصل نسله من زوج واحد إلى نصف مليار

خلال خمسة سنوات لو تم إخلاء السبيل أمامهم للحياة مما يعني أن يتحول كوكب الأرض إلى كوكب فئران فقط. وسبب أن ذلك لا يحدث (لحسن الحظ الشديد) هو أن الله قد أقرّ التوازن الطبيعي بأن مكّن أعداء الفئران من صيدها بشكل ممتاز، فلدينا البومة التي تستطيع أن تدير عنقها ٣٦٠ درجة بمساعدة الأوعية الدموية اللينة في رقبتها. ولدينا الثعبان الذي يستطيع التعرف على الأجسام التي تختلف درجة حرارتها عن درجة حرارة الوسط المحيط بفرق أقل من ١، درجة مئوية. ناهيك بالطبع عن ذكر الإنسان الذي يضطر إلى إتقان طرق اصطياده كي ترضى عنه زوجته.

الفيل حيوان آخر قد يهدد الحياة بأكملها، فهو يعيش فوق المائة عام ويزن أكثر من سبعة أطنان ويأكل ربع طن من الغذاء كل يوم، لذلك أقرّ الله اتزان الحياة بشكل مختلف هذه المرة، بأن جعل مدة حمل أنثى الفيل ٦٤٦ يومًا، وهي أطول مدة حمل معروفة على ظهر الأرض. مما يعني السيطرة الطبيعية على أعداد الفيلة التي كانت لتأكل كل ما على الأرض.

وأما الطيور الشرهة للطعام، فقد قسّمها الله على اليابسة بتقسيمه للمناطق المناخية، وتغير أنواع الشجر تبعًا، وتوزّع الطيور في كل مكان كنتيجة على ذلك.

ينبّهنا القرآن إلى هذا الاتّزان (الخَلْقي) حين يقول الله عز وجل: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ (القمر ٤٩). أي كل الخلائق مُقدّرة من قبل خلقها، ليس فقط معلومٌ عند الله قدرها، ولكن مكتوبٌ عنده أيضًا من قبل خلقها.

❧

على صعيد آخر، هل سمعتَ من قبل عن معضلة (السجين) الرياضية؟

ماذا لو عمدنا إلى مسجونيْن، وقلنا لكل منهما على انفراد، لو اعترفت على زميلك ولم يعترف هو عليك، فسنسجنه نحن ثلاث سنوات ونفرج عنك. ولو اعترف هو عليك ولم تعترف عليه فسنسجنك ثلاث سنوات ونفرج عنه. ولو لم يعترف أي منكما على الآخر فسيحظى كل واحد منكما بسنة واحدة من السجن. وأما لو اعترف كل واحد على الآخر فسيحظى كل واحد بسنتين من السجن.

الآن كل سجين يفكر، لو كان (أنانيًا) واعترف على زميله فسوف يطلق سراحه لو كان زميله أمينًا وسكت (أي متعاون). وأما لو كان زميله أنانيًا أيضًا واعترف عليه هو الآخر فسيأخذ سنتين سجن. إذن أن يكون أنانيًا معناه أحد هذين المصيرين: (٠-٢).

وأما لو كان مخلصًا ومتعاونًا وسكت، فهنا إما أن يكون زميله متعاونًا مثله ويسكت (سنة سجن) وإما أن يكون زميله أنانيًا ويعترف عليه فيأخذ ثلاث سنوات سجن، إذن ضريبة (التعاون) هي أحد هذين المصيرين: (١-٣).

إن (٠-٢) أفضل حالًا بالتأكيد من (١-٣). الأنانية أفضل من التعاون دائمًا فيما يخص التنافس على موارد محدودة. وهذا هو بالضبط ما أثار خوف عالم البيئة (جاريت هاردين) فنشر في ١٩٦٨ ورقته البحثية الهامة (الضرر الذي يمكن أن تسببه تصرفات الفرد البريء على البيئة).

في هذه الورقة لفت هاردين انتباه العالم إلى ما يسمى بمأساة الموارد العامة المشتركة. يقول لك هاردين، تخيل (مرعى) للماشية. كل راعٍ من مصلحته أن يُزيد من عدد ماشيته، ولكن هذا يعني أن المرعى سوف يتآكل إلى الحد الأدنىً الذي لن يستطيع بعده العشب أن ينمو ثانية، مما سيؤدي في النهاية إلى نضوب المورد.

تحذيرات هاردين كانت حقيقية في حالة سمك القد Cod fish والذي كان يتوفر بكثرة في أحد شواطئ كندا بما يعرف باسم Grand Banks. ولكن فيما بين عامي ١٩٦٠ و١٩٩٠ وبسبب تنافس جشع من الصيادين عليه تم القضاء على الحد الأدنى الذي يحتاجه السمك للتكاثر. تمامًا كما تخيل هرادين مع مثال المرعى.

في الواقع لقد لفت هذا أنظار البيولوجيين إلى سؤال أهم، لماذا لم تفنى الحياة بسب هذه المأساة من قديم الأزل؟!

فكما يقول (كيفن فوستر): «ما الذي يمنع التنافس من تدمير المورد العام الذي تم إيجاده من خلال التعاون؟ هذا السؤال يعتبر واحدًا من أكبر المشكلات الأساسية في التطور البيولوجي»، ويقول (جان كريفت): «أصل الإيثار هو مشكلة أساسية في نظرية التطور»، ويقول (بارفينين) و(ديكمان) في ورقتهما عن الانتحار التطوري: «إذا كانت هذه الظاهرة واسعة الانتشار، فلماذا الحياة ما زالت مستمرة؟»

لماذا هناك تعاون ظاهر بين الأحياء يمنع الأنانية الفردية من القضاء على الموارد المشتركة؟ وما الذي يضمن لكل فرد لا يتصرف بأنانيته أن غيره من الأفراد سوف يلتزم بذلك؟ ما الذي يجعل الكائنات البهيمية العجماء تختار (١-٣) عن (٠-٢) في معضلة السجين؟! بمعنى آخر: كيف أقرّ الله عز وجل هذا الاتزان البديع بينهم وفرضه عليهم؟

لدينا طريقة من طرق حفظ الاتزان في الموارد المشتركة وهي طريقة العقاب (Punishment)، وهو ما يُلاحَظ عند قردة (البونوبو) والتي تعاقب إناثها بالضرب كل من يأخذ أكثر من حصته من الطعام من الذكور.

طريقة أخرى، وهي طريقة التشبّع (Diminshing Returns)، وتعني أن الطعام أو الشراب الزائد تقل منفعته للكائن كلما زاد في كمية تناوله، وهو ما يدفع الخفافيش مصاصة الدماء التي تناولت كمية كبيرة بشراهة إلى مشاركة بعض ما تناولته مع خفافيش جائعة، فيرتاح الأول من التخمة ويرتاح الثاني من الجوع.

طريقة ثالثة، وهي طريقة توازن التكاثر (Stationary Phase) والتي تدخل فيها بعض أنواع البكتيريا مثل E. Coli Wild Type وتعني أنها تحد من تكاثرها تبعًا للأعداد الموجودة منها بالفعل وتبعًا لتوفر الموارد الغذائية في بيئتها، وهذا يتم عبر جهاز معقد من المكبات الكيميائية يسمى (Quorum Sensing) وهو معقد بالفعل لدرجة أني حاولت دراسته كي أنقل لكم بعضًا من طريقة عمله فلم أفهم منه شيئًا.

طريقة رابعة، وهي طريقة الإكراه (Coerction)، مثل ما تقوم به ملكة النحل أو النمل من إطلاق فيرمون (يُكرِه) الشغالات الإناث على عدم إتمام عملية التبويض، وذلك كي تتفرغ الشغالات لرعاية أبناءَ الملكة فقط وإلا لن تسعهم الموارد. والجميل أنه لو حدثت طفرة لدى النمل تمنع الملكة من إطلاق هذا الفيرمون فإن هذا يؤدي إلى عقم الشغالات أيضًا، لأن نفس الجين المسئول عن خصوبة الشغالات هو المسئول عن فيرمون ملكة النحل سابق الذكر! وهو ما يسمى بالجينات متعددة النمط الظاهري (Pleiotrophy). وهذا لأن الله عز وجل هو من يحفظ هذا الاتزان العجيب، وهو لا يُغفِل شيئًا!

اتزان عجيب يطال كل شيء، كل الممالك والعوالم، كل فصائل مملكتي النبات والحيوان. فيحكي لنا القرآن كيف أن ﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ**﴾ (الرحمن ١٩-٢٠). ويحدثنا القرآن عن تقدير الله عز وجل الذي يطول كل شيء، فيقول سبحانه: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ (الرعد ٨).

ﮧ

هناك ظاهرة مألوفة لدى الجنس البشري ويسميها علماء السكان ظاهرة سنوات الحرب، حين يُقتل أثناء الحروب عدد كبير من الرجال، فعلى الفور تزيد نسبة المواليد الذكور من الرجال في السنين التالية حتى يُستعاد التوازن! فما هذا؟!

يقول (ألكسندر جوروبفسكي) عضو أكاديمية العلوم السوفييتية في كتابه (العالم الذي نعيش فيه) عن هذه الظاهرة في عالم الحيوان ككل: «من الحقائق المعروفة من وجهة النظر البيولوجية أن النسبة بين المواليد الذكور والإناث متساوية، فإذا اختلت هذه النسبة السوية تظهر تلقائيًا عملية لإعادة التوازن من جديد، فإذا نقص عدد الإناث في مجتمع ، فإن عددًا أكر من الإناث يولد. وإذا كان لدينا عدد أقل من الذكور، فإن عدد مواليد الذكور يزيد، وهكذا تستمر العملية حتى يُستعاد التوازن. ومن البيّن أن الكائن الحي الفرد المستقل لا يمكنه التأثير على جنس مواليده، بمعنى آخر إننا مرة أخرى أمام ظاهرة ذات قوانين خاصة بها، نحن مرة أخرى نواجه بتأثير يأتي من خار ج كل كائن حي مفرد»!

هل نحن بصدد توازن من نوع خاص، في عدد الإناث والذكور من كل نوع؟ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ (القيامة ٣٩)، ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ (الليل ٣)، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ (النجم ٤٥).

يمكنك أن تلاحظ هذا الاتزان في كل شيء من حولك.

تلاحظه في اتزان الكائنات الحية في تغلبها على ذبذبات الموارد، فلدينا شجر (البلوط) الذي يتغلب على تذبذات الطاقة الشمسية في بيئته بتخزينه الطاقة في ثمار (البلوط)، وتغير براغيث الماء طريقة تكاثرها من جنسية إلى لا جنسية، والعكس تبعًا لتذبذبات الموارد في بيئتها. وتفرد الفراشة الصدفية أجنحتها كي تستقبل أشعة الشمس بشكل عمودي إلى أن تصل درجة حرارتها للحرارة المطلوبة من (٣٢,٥ إلى ٣٥ درجة) ثم تغير وضع أجنحتها بعد ذلك.

تلاحظه في القائمتين الأماميتين للفيل الأقوى من الخلفيتين لتحفظ له توازنه برأسه الضخم. أو في عادة الطيور بعدم بدء الرقود على البيض إلا بعد أن تنزل آخر بيضة حتى ينال البيض جميعًا نفس النمو المتساوي.

أو تلاحظه في نقطة نمو الريشة في النتوء تحت جلد الطيور والتي تصل إلى حد معين وبعدها ينقطع دم الوريد عنها فيتوازن طول ريش الطائر، فلا هو قصير لا يُدفئها، ولا هو طويل يمانع حركة طيرانها.

أو تلاحظه في قول الله عز وجل: ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق ٣).

١٢

الإحكام

"من غير سؤال، فإن حجة الضبط الدقيق هي

أقوى الحجج التي قدمها الطرف المقابل"

الملحد/ كريستوفر هيتشنز

اعتقد السكان القدماء لجنوب أستراليا أن خالق الشمس إنما قذف بيضة نعامة إلى السماء، فأضرمت النيران في مجموعة حطب كانت تتسكع هناك لسبب ما، فكانت هذه هي قصة نشأة الشمس! هذه قصة عظيمة تبيّن المحاولات البشريّة الذكيّة لتفسير الظواهر الطبيعية. لكن (البوشمان) الذين يعيشون في صحراء كالاهاري قد تفوقوا عليهم باكتساح، فهم يعتقدون أن (الإله) قذف بحذائه إلى السماء فثبت هناك وأصبح هو (القمر) الذي نعرفه! الجميل أنهم يقولون أن الإله قد اعتزل منصبه بعد هذه الحركة! يبدو أن إلههم لم يستطع احتمال أعباء الحكم دون حذائه المفضّل.

أصحاب هذه الأساطير كانت لديهم على ما يبدو مشاكل عقليّة خطيرة، إلا أنهم كانوا يملكون مقدارًا كافيًا من الحكمة ليعلموا أن الحياة لا يمكن أن تستمر إلا لو كانت مضبوطة تمامًا بنفس الظروف التي عهدناها عليه.

خذ عندك مثلًا الصينيين الذين يحكون عن زمن أثناء حكم سلالة (هيسا) قبل ميلاد المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بألفي عام، أنه حدث تغير مفاجئ في السماء وظهرت عشرات الشموس في الفضاء مما جعل حياة الناس على الأرض مستحيلة، فأمر الإمبراطور أحد رماة الأسهم المهرة أن يقوم بإسقاط هذه الشموس بواسطة أسهمه! الغريب أنه قد نجح في هذا بالفعل بزعمهم، فكافأه الإمبراطور بحبّة نباتية لو تناولها لنال بسببها الخلود، ولكن زوجته سرقتها منه فقام بنفيها بسبب ذلك إلى القمر! يا له من حظ حسن أن يملك إمبراطور صيني قديم معاهدات تحالف عسكرية مع القمر!

ولكن ما الذي جعل هؤلاء الصينيين -العاكفين على الأفيون فيما يبدو- يفهمون الأضرار الحاصلة على الحياة الأرضية لو ظهرت عشرات الشموس في السماء؟! بالتأكيد لم يكونوا على دراية بالتأثيرات الخطيرة لعدة شموس حول الأرض على التشوّه الزمكاني تبعًا لنظرية النسبية العامة، ولم يكونوا يعرفون أن وقوع الأرض في عدة مدارات حول عدة نجوم سيمنع انتظام الحرارة على سطحها، ويجعلها تدمن الوقوع في مناطق متطرفة الحرارة إما باردة جدًا أو ساخنة جدًا! ولم يكونوا حتى يعرفون بخطر زيادة الأشعة فوق البنفسجية UV والتي تسبب عتامات في عدسة العين وسرطان في الجلد وتغيّرات مزاجيّة. لربما فقط كل ما يعلمونه ما يبدو من الظاهر من أن عدة شموس ستجعل الكوكب أكثر حرارة بما لا يحتمله البشر، وبرغم أن هذا ليس بالضرورة صحيح، إلا أنه يبقى أمرًا محتملًا بقوة.

لم يكن علينا أيها الصينيون أن نبتكر كل هذه القصة لنثبت أننا محظوظون بشمسنا! فنحن نعلم الآن أن وقوع (حظنا) في نجم متوسط الحجم كان مناسبًا تمامًا للمعدّل المتوازن الذي تفنى فيه الغازات المكوّنة للشمس، هذا المعدل يتناسب بشكل طردي مباشر مع حجمها، بمعنى أن لو كانت الشمس أكبر لجعلها ذلك تفنى قبل أن يتسنى للأرض أن تكون عليها حياة مستقرة دافئة!

هذا ليس كل شيء، فالأرض أيضًا في موضع مثالي تمامًا بالنسبة إليها. الشريط الصغير الذي تقع فيه الأرض حول الشمس والذي يُدعى باسم Goldilocks Zone ضيق للغاية، لا بد للأرض أن توجد في هذا الشريط -الذي هو صغير جدًا بالمقارنة بالمسافة التي تفصلها عن الشمس- بحيث لا ترتفع الحرارة فيها للدرجة التي تتبخر بسببها مياه المحيطات ولا تنخفض للدرجة التي يتجمد بسببها كل شيء عليها. وجود الأرض في هذا الشريط الضيّق كان بسبب حسابات دقيقة جدًا تمت لكتلتها وحجمها وشكلها شبه الكروي، لو كانت هذه الأشياء مختلفة لاختلفت سرعتها وتغير موقعها حول الشمس. فهل يمكننا أن نعتبرها صدفة سعيدة أخرى؟!

هناك مثال آخر، وهو ما يعرفه علماء الفيزياء باسم (ثابت الجاذبيّة)، وهو عبارة عن رقم دقيق جدًا مسئول عن اتّزان المعادلات التي نستخلص منها قوة جاذبيّة جسم ما لجسم آخر. هذا الثابت أدقّ مما تتخيل بكثير، حيث إنه لو تم الاختلاف فيه بمقدار جزء واحد من ١٠٦٠ جزء، لكان هذا معناه ألّا يكون هناك أي واحد منا على قيد الحياة!

لكي تتصور ذلك، تخيّل لو أتينا إلى رجل وعهدنا إليه بمهمة أن يكتب في كل (ثانية) تمرّ عليه رقمًا على ورقة، وظل يفعل ذلك لمدة.. ٤٠ مليار عامًا! العدد الذي سيقوم بكتابته في النهاية (لك أن تتخيل ضخامته)، لو اختلّ فيه رقم واحد فقط عن رقم آخر، لكان هذا معناه أن يتغيّر ثابت الجاذبية! أي يتضخّم الكون كله بشكل أسرع ممّا يسمح بتكوّن حياة، أو أن ينهار سريعًا وينكمش على نفسه. بمعنى آخر كون غير مستقرّ أصلًا بالقدر الكافي لوجود حياة بداخله!

ويضرب لنا (روجر بنروز) مثالًا آخر، حيث قام بحساب انخفاض الإنتروبيا ووجود الطاقة القابلة للاستعمال في لحظة نشوء الكون الأولي، في مقابل عدم توافر هذا الشرط الدقيق، فوجد أن احتمالية حدوث ذلك بشكل عشوائي هي واحد على ١٠ أس ١٠ أس ١٢٣.

هذا الرقم لا يمكننا أن نطلق عليه كلمة فلكي لأنه أكبر بمراحل من أي أفلاك متخيلة. عدد الأصفار التي نحتاجها لكتابة هذا الرقم فقط هي أكبر من عدد الذرات الموجودة في الكون كله! ولو افترضنا أن أحدًا ما تمكن من كتابة الرقم فقط على ورقة لامتد من طرف الكون إلى طرف الكون الآخر! إن احتمالية أن تفوز باليانصيب عشرة آلاف مرة متتالية وتصاب بصاعقة برق كل مرة تفوز فيها أقل من احتمالية حدوث هذا بالصدفة!

❧

ليس هذا هو المكان المناسب لذكر الأمثلة والشواهد على الكون المضبوط! فالواقع أن هذه حقيقة مسلّم بها بين علماء الفيزياء والفضاء وبغض النظر عن موقفهم الديني.

فكما يقول عالم الفيزياء الفلكية البريطاني (مارتن ريز): «أينما ينظر الفيزيائيّون يروا أمثلة على المعايرة الدقيقة». ويقول عالم الفيزياء الملحد الشهير (ستيفن هوكنج): «الحقيقة الملحوظة أن قيم هذه الأرقام تبدو وكأنها مضبوطة بشكل جيد للغاية حتى تسمح بإمكانية صنع الحياة»!

ويبدي أستاذ الفيزياء النظرية (ليونارد سوسكايند) تعجبه من أن معطياتنا عن الثوابت الكونية تقف كلها على حافة سكين وكلها مستقلة عن بعضها البعض، وفي الوقت نفسه تتلاقى لتسمح فقط بإحداث الحياة، وتغير أي معطى من هذه المعطيات التي نشأت مستقلة لم يكن يسمح لها بالتلاقي فضلًا عن إمكانية إيجاد حياة أو حتى منظومة كونية.

بينما أحد أبرز علماء الفضاء في القرن العشرين (فريد هويل) والذي كان من أنصار فكرة الكون الثابت -الموجود منذ الأزل بطريقة ما- حتى إنه عارض بشدة نظرية الانفجار الكبير والتي تفترض أن الكون المشاهَد له بداية، وكان هويل نفسه هو الذي أطلق عليها هذا الاسم: الانفجار الكبير Big Bang على سبيل السخرية منها، دون أن يعرف أن هذا الاسم سيثبت على النظرية للأبد! برغم أنه كان غير مؤمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إلا أن (هويل) كان يرى أن الضبط المُحكم للكون لا يمكن إلا أن يعني وجود ذكاء خارق في مكان ما من الفضاء هو المسئول عن ذلك! مع ذلك لم يكن يحب - لسبب ما - أن يعترف بوجود الله! كما يقول: «التفسير العقلي السليم للحقائق يقترح أن هناك ذكاءً خارقًا يسخر من الفيزياء! وأن الأمر لا يستحق أن نتكلم حتى عن احتمالية وجود قوى طبيعية عمياء في الكون! الأرقام التي يحسبها المرء من الحقائق الموجودة تبدو لي ساحقة للغاية لدرجة أن تجعل هذا الاستنتاج مُنزّهًا عن مجرد السؤال!

هذه الدهشة العارمة التي تصيب هؤلاء - الملحدين منهم قبل المؤمنين بوجود الله - كانت وستظل أبدًا الغصّة الأمرّ في حلوق كل من ينكر وجود مُدبِّر حكيم لهذا الكون! مثل الملحد الشهير (ريتشارد دوكنز) الذي صرّح في اجتماع لل (الفرسان الأربعة للإلحاد الجديد) أن السؤال الصعب الوحيد الذي واجهه من قبل المؤمنين، هو كيفية إيجاد تفسير للضبط الدقيق للكون Fine Tuning of the Universe!

غير أن دوكنز دعا إخوانه بعد ذلك في كتاب (وهم الإله) ألا يفقدوا (الأمل) في حل هذا اللغز يومًا! فبالتالي وفي نظر الملحدين، يجب عليك أن تكف عن الإيمان، لكن إياك أن تكف عن (الحلم)!

يعود مصطلح (المعايرة الدقيقة للكون) إلى (براندون كارتر) الذي كتب في ١٩٧٤: (مصادفة الأرقام الكبيرة والمبدأ الإنساني في علم الكونيات)، تبعه الكثير من العلماء وخصوصًا الفيزيائيين منهم إلى التعجب من هذه الحقيقة، منهم (برنارد كار) و(مارتن ريز) في ١٩٧٩، ثم (جون بارو) و(فرانك يلر) في ١٩٨٦.

كتب (مارتن ريز) كتاب (فقط، ستة أرقام). و(بول ديفيز) كتاب (لغز جولديلوكس)، و(جيرالد شرويدر) كتاب (علم الإله)، و(روندي هولدر) كتاب (إنفجار عظيم، إله عظيم)، و(أليستر مكقارث) كتاب (كون مُعايّر بدقة)، و(نيل مانسون) كتاب (الله والتصميم).

كل هؤلاء كانوا يشيرون إلى الحقيقة الغريبة التي تجاهلناها: الكون بكل ما يحويه من فضاء شاسع وغازات متناثرة وأغلفة واقية وأجسامنا الحية التي تمثل عوالم متعددة في حد ذاتها، كل هذا مضبوط تمامًا على مقاساتنا! كما يقول العالم الفيزيائي (ديفيد دويتش): «لو ادّعى أي أحد أنه غير مندهش بالمواصفات الخاصة التي يملكها الكون، فهو يدفن رأسه في الرمال! هذه المواصفات الخاصة مُدهِشة وغير مُحتَمَلة!»

فيحدّثنا القرآن عن هذه الحقيقة حين يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ**﴾ (الملك ٣). ويقول جَلَّجَلَالُهُ في آية أخرى: ﴿**ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾ (السجدة ٦-٧). بل ويشرح لنا ما السبب في هذا الإحكام الذي نراه من حولنا! كما يقول الله: ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾ (النمل ٨٨). إنه العلم والحكمة والإتقان والإحسان الذي يتجلى في خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كله.



فحين تتأمل في كل ما هو مضبوط في هذه الحياة، في كل ما هو محكم الصنع ومتقن الإنشاء، في كل عيب كان من الممكن أن يكون هناك ولم يوجد قط، حينها لا تتيقن فقط في وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولكن أيضًا في خبرته وحكمته وإحسانه. حينها لا يبقى من درن شكوكك شيء!

١٣

الفناء

"أنا قلق بشأن الموت، موتك بطريقة ما غير مقبول

إنها حقيقة مذهلة عن وجودنا هي أننا نموت!"

الملحد/ سام هاريس

بالوشم على ذراع كثير من نجوم (الروك أند رول) الأمريكيين مكتوب: «عِش سريعًا تمت صغيرًا». يكتبون ذلك أيضًا على الجيتار ويعتبرونه شعارًا بينهم. سوف نتحدث عن هذا الوشم بعد قليل، ولكن دعنا نبدأ مع نوستراداموس:

نشر المنجّم الفرنسي المعروف عادة باسمه اللاتيني (نوستراداموس) في ١٥٥٥ كتابه: النبوءات. كان كتابًا مليئًا بالهراء، النبوءات القريبة من زمنه أي المتوقع أن يسأله الناس عنها ويكون وقتها على قيد الحياة كان يكتبها بلغة شعريّة غامضة تصلح في تفسيرها على كل وجه ممكن، بحيث يمكن له هو وأتباعه بعدها أن يدعوا أن هذا الحدث أو ذاك هو ما قصده بتلك النبوءة الملتفّة! بينما النبوءات البعيدة والتي ستحدث بعدما يصير هو وكل من على الأرض وقتها في بطون الديدان، كان يكتبها بلغة واضحة حاسمة، باعتبار: Who cares؟

من نبوءات نوستراداموس في العام الذي تمت كتابة الكتاب الذي تقرؤه الآن فيه (٢٠١٥) أن البشر سيتوصلون إلى ترياق الشباب فيرتفع متوسط عمر الإنسان إلى ٢٠٠ عام. لم يحدث ذلك بالطبع ولم تحدث نبوءته الأخرى في نفس العام بأن يقوم الموتى من قبورهم.

بشكل عام فإن إكسير الشباب من أقدم (الثيمات) وأشهرها انتشارًا في الميثولوجيا الشعبيّة. حلم البحث عن الخلود هو حلم عتيد بالنسبة للإنسان الذي عاش في حياة كانت من سننها الدائمة أن: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ (الأنبياء ٣٤-٣٥).

هناك قصة قديمة لا أذكر تفاصيلها من الرعب القوطي تتحدث عن طبيب استطاع التوصل للصيغة الكيميائية الصحيحة لإكسير الخلود وقام بصنعه بالفعل وتناوله، لم يعد بوسعه أن يموت، فرح في أول الأمر، ثم سرعان ما أدرك أن هذا الإكسير لا يمنع أن تفسد كليتاه تمامًا مع التقدم في العمر ولا أن يصاب بعمى الشيخوخة والتهاب المفاصل. في النهاية صارت حياته كابوسًا، يعيش في جسد فانٍ، لا يقدر على الحياة أو الموت.

لا يهزم أحدٌ الموت فعلًا. في المقابل فإن دورة الحياة والموت تمسّ كل شيء في الدنيا من أول مكونات الجسد الإنساني الذي تمرح فيه الـ Free radicals لتسبب الشيخوخة في كل خلاياه، يبيضّ شعره وتترسب الدهون على أطراف قرنيّته ويتجعّد جلد وجهه، ينحني عموده الفقري وتضمر خلايا الذاكرة وتتدهور قدرة أذنه الداخليّة على إثارة أعصابه السمعيّة. في النهاية يدرك أنه بدأ في سلسلة الفناء، ولا تقدر أعلى العنايات الطبية في العالم من منع هذه السلسلة.

لكن ماذا لو بحثنا جيدًا عن مكان ما تتوقف فيه هذه السلسلة؟ هل يمكننا أن نجد (شانجري لا)؟!

كتب د. سوس كل كتبه للأطفال، ما عدا كتاب واحد: (أنت فقط تصبح عجوزًا مرة واحدة)، فيه تخيل أرض الأحلام (شانجري لا) التي لا يهرم ولا يموت فيها أحد. وجاءت (جريس هالسل) لتدّعي: لقد وجدنا شانجري لا على أرض الواقع فعلًا: في الإكوادور!

قرية فيلكابامبا في الإكوادور نُسِجَت حولها أساطير الشباب الطويل، ذكرت هالسل في كتابها (القدامى، أسرار طول العمر في الوادي المقدس) قصصًا عن (رامون) الذي يبلغ من العمر ١١٥ عامًا ويتسلق الجبال في رشاقة الماعز، وعن (إرازو) الذي يبلغ ١٣٢ عامًا ويعيش في لياقة شاب عشريني.

على الفور تحولت هذه القرية إلى قبلة يحج إليها الأطباء والمعالجون والحالمون بطول العمر والبقاء، يبحثون كلهم، ما الجديد في هذه البقعة يجعل أهلها في صحة وعمر مديد؟

ثبتت خرافة الفيلكابامبا في وثيقتين نشرهما (مازيس) في ١٩٧٩ و١٩٨٢ بعنوان (طول العمر في الفيلكابامبا) ذكر فيها أنه لم يتعد أحدٌ من أهل هذه البلدة فعلًا سن المائة، وأن متوسط عمر أهلها هو ٨٦ عامًا، وأنه لا يوجد فرق في متوسط العمر بينها وبين القرى المجاورة، وأنه يقل بـ ١٥٪ عن متوسط العمر في الولايات المتحدة.

لا يهزم أحدٌ الموت حقًا. ولا حتى في شانجري لا!

ولكن ماذا عن هزيمة الشيخوخة؟!

لما رأى الإغريق الفَجر تخيلوه كإله، أو كـ(إلهة) أنثى والعياذ بالله، وسموها (إيوس)، المشكلة أن إيوس ربّة الفجر لم تكن بالنقاء المفترض للفجر، بل كانت، كمعظم آلهة الإغريق المزعومة: عاهرة!

وتحكي لنا الميثولوجيا الإغريقية أنه ذات يوم وجدت ربة الحب (أفروديت) رب الحرب (أريس) في فراش إيوس، فغضبت عليها وحكمت عليها بالعطش المستمر للشباب! وهكذا صارت إيوس تراود الشباب عن نفسه، وصار لها الكثير من العشاق، منهم أخوين هما (جانيميد) و(تيتونوس)، ولكن (زيوس) كبير الأرباب عندهم أحب (جانيميد) لجماله في أن يصير ساقي الخمر الخاص به، فاختطفه من إيوس، فطلبت منه كتعويض أن يمنح عشيقها الآخر (تيتونوس) الخلود فأعطاها ذلك، ولكنها فطنت بعد هذا أنها نسيت أن تطلب له الشباب مع الخلود، وهكذا أخذت تراقب تيتونوس وهو يهرم يومًا بعد يوم، ويزداد بياض شعره، ويصدّع رأسها بثرثراته المرتعشة النبرات، فسئمت منه وسخطته إلى خنفساء وحبسته في علبة!

الميثولوجيا الإغريقية مسلية وحقيرة، لا يمكن إنكار ذلك، هي هنا تحاول أن (تُفلسِف) تلك الظاهرة المسيطرة على كل ما يتعلق بالدنيا: الشيخوخة!

كان تيتونوس هو الصورة النقيضة لشخصية (دوريان جراي) الخيالية التي ابتكرها الأديب الأيرلندي (أوسكار وايلد)، فتيتونوس كان خالدًا ولكنه لم يحتفظ بشبابه، أما دوريان فهو فانٍ ولكنه شاب دائمًا إلى لحظة الموت، ويمكنك أن تفكر، ترى أيهما أسوأ؟ أن أكون دوريان وأراقب أيام عمري اللذيذة دائمًا وهي تفنى، أم أن أكون تيتونوس وأقضي حياتي في عدد لا يحصى من الأيام غير الممتعة؟! لا يوجد معنى للخلود مع الشيخوخة، لا يوجد معنى للشباب مع الفناء!

كثير من الفلاسفة والأدباء يمتدحون الشيخوخة، وهذا ليس بغريب إذ إن مجال عمل الفلاسفة هو الروح وليس الجسد. يقول أفلاطون: «لا تنجلي عين الروح إلا أن تعشو عين البدن». ويقول تولستوي: «ندين لكبار السن بالرقيّ الأخلاقي في عالمنا». ويقول فواندو: «كلما دنا الجسد من سقوطه، ارتقت الروح إلى ذروتها».

أما شكسبير فوصف الشيخوخة بطريقة مختلفة، فنجد بطل مسرحيته (كما تهواه): جاك، يصف المرحلة الأخيرة من المراحل السبع للإنسان: طفولة ثانية، لا شيء سوى النسيان، فقدان الأسنان، فقدان النظر، فقدان التذوق، فقدان كل شيء. وكلا الطرفين محق بلا شك، ولكن البيولوجيا لا تعرف الروح، لذا تنصر شكسبير أكثر!

يخبرنا البيولوجيون أن الإنسان يفقد ١٠٠ ألف خلية من خلايا المخ كل يوم (تذكر أن هذه الخلايا لا تتجدد). يخبروننا أيضًا أنه حين يصل إلى سن الستين يكون قد فقد نصف براعم التذوق لديه. يخبروننا كذلك أنه بدءًا من سن العشرين، يفقد مخه جرامًا كل سنة.

لحظة، بدءًا من سن العشرين؟! هل نبدأ الشيخوخة من العشرين؟

مفاجأة! أليس كذلك؟

❦

كتب الشاعر الأمريكي (أوجدن ناش): «تبدأ الشيخوخة وتنتهي مراحل وسط العمر، حين يكون عدد نسلك أكبر من عدد أصدقائك». ولكن الإحصائيين لا يبالون بالشعر، فكان رأيهم: في الواقع شيخوختك تبدأ حين تكون قادرًا على صنع أي نسل من البداية!

في دراسة لمعدل الوفيات تمت في الولايات المتحدة في ٢٠٠٩، وجد (بنجامين جومبرتز) أن معدل الوفيات يزيد بزيادة أسية بعد سن البلوغ مباشرةً. على سبيل المثال، يقفز معدل الوفيات من ١٪ إلى ١١٪ بشكل درامي في سن الأربعة عشر عامًا تقريبًا. لاحظ بنجامين أيضًا أن معدل الوفيات يتضاعف كل ٨ سنوات من عمر البشر. وفي الدول الغنية التي يزيد فيها العمر المتوقع للإنسان لا يتأثر هذا التضاعف في المعدل. أي أن الشيخوخة لم تتراجع في الدول الغنية وإنما يتم تأخيرها قليلًا فقط!

❦

هل تذكر وشم نجوم الروك أند رول الذي بدأنا الفصل بالحديث عنه؟ عِش سريعًا تمت صغيرًا. تذكر أن الروك أند رول يعني الصخب والحماس والاندفاع طوال الوقت تقريبًا، إنهم يعيشون حياتهم وكأنها حفلة طويلة. ولكن هل حقًا يموت نجوم الروك أند رول في سن صغيرة لأنهم يعيشون (بسرعة)؟

مات نجم الروك (روبرت جونسون) في السابعة والعشرين بتسمم بالإستركنين، و(جيمي هندريكس) في نفس السن بالاختناق، و(جانيس جوبلين) في نفس السن بالهيروين، و(برايان جونز) في نفس السن بالغرق، و(آمي واينهاوس) في نفس السن بالكحول. وأما (جيم موريسون) فمات في الثامنة والعشرين بالسكتة القلبية. وهناك ٤٠ فردًا آخرين أقل شهرة، جميعهم في نفس السن! يمكنك أن تتأكد من هذه الحقيقة الغريبة بالبحث في الويب عن مصطلح (نادي الـ ٢٧) 27 The Club.

هناك من الإحصائيين من حاول أن يتتبع الظاهرة بالفعل، هل ثمة علاقة بين الروك وبين الموت في السابعة والعشرين؟ مثل دراسة نُشرَت في ٢٠١١ في المجلة الطبية البريطانية، ودراسة أخرى في ٢٠١٥، خلصت الدراسات إلى أنه لا توجد علاقة، ولكن أثبتت أنه بالفعل يموت نجوم الروك في سن صغيرة أكثر من بقية الناس بضعفين إلى ثلاثة أضعاف! على ما يبدو كانوا يعيشون سريعًا وماتوا صغارًا بالفعل!

ولكن حيوان الزبابة Shrew الشبيه بالفأر يعيش حياة أصخب من نجوم (الروك أند رول) بـ ٢٥ ضعفًا. حيث يعاني بسبب جسمه الصغير واحتياجه للحفاظ على حرارته دائمًا وقلة السعرات الحرارية في طعامه الوحيد (الحشرات) مما يؤدي إلى أن يحتاج ضعفي وزن جسمه من الطعام يوميًا. ويستهلك ٢٥ ضعف الطاقة التي يستخدمها مغني الروك لإشعال حفلة صاخبة. لذلك في النهاية يموت حيوان الزبابة في خلال أقل من عام، أي حياته أقصر من مغنيي الروك بـ (٢٥ ضعفًا) أيضًا!

العلاقة بين معدل الأيض وحجم الجسد علاقة عكسية في البيولوجيا، كلما زاد حجم الجسد أدى ذلك إلى مقدار أقل من الطاقة يجب أن يستهلكه الكائن للحفاظ على حرارة جسده، فالفيل يضرب قلبه ٢٥ نبضة في الدقيقة بينما ينبض قلب الزبابة ٦٠٠ نبضة. لو بذل الحوت نفس كمية الأيض الذي تبذلها الحيوانات الصغيرة لاشتعل باللهب وسط المحيط.

قام الفسيولوجي الألماني (ماكس روبنز) في ١٩٠٨ بدراسة حول العلاقة بين معدل الأيض وطول العمر، فقارن بين أرنب الجبل (خنزير غينيا) الذي يبلغ متوسط عمره ٦ سنوات وبين الحصان الذي يبغ متوسط عمره ٥٠ سنة، فوجد أن كلًا منهما يستهلك نفس مقدار الطاقة تقريبًا على مدار حياته لكل جرام من جسده. من وجهة نظر البيولوجيا فإن الموت صغيرًا ضريبة حقيقية للعيش سريعًا!

إنه وكأن كل كائن له مقدار معيّن من (الحياة)! وكأن الفناء يحسب لنا كل ما نستهلكه منها! وكأن نصيبنا من هذه الدنيا محدود للغاية، معدود بالفعل!

كان لغزًا لكثير من علماء الأحياء، كيف أن الكيان المتشابك الناتج عن عملية تكوين مورفولوجي شديدة التعقيد مثلنا عاجز تمامًا عن القيام بوظيفة أبسط بكثير مثل الحفاظ على ما هو موجود!

ثم عرفنا أننا مخلوقون للفناء حين اكتشفنا (التيلومير) على أطراف الكروموسومات، حيث التيلومير تبلى الكثير من قواعده النيتروجينية مع كل انقسام للخلية، فإذا بليَ بالكامل تموت الخلية! يبدو أننا مخلوقون بطريقة تعترف لنا بأننا لن نعيش للأبد، وبطريقة تضمن أننا مع كل تجدد لحياة خلايانا فنحن نمضي خطوة أخرى نحو القبر!

والأعجب من ذلك أن ٩٠٪ من انقسامات خلايانا تحدث ونحن في رحم أمهاتنا، أي أننا نولد ونحن قد استنفذنا ٩٠٪ من شباب الـ DNA الخاص بنا، نحن نولد ونحن مصابون بالشيخوخة بالفعل!

أغلب الناس الذين عاشوا على هذه الأرض هم موتى الآن لو فكرت في ذلك. ونحن أيضًا سوف نموت، ثم سوف نبقى موتى أغلب الوقت! أكثر بكثير من الوقت الذي بقيناه على قيد الحياة. نحن إذن مجموعة من المحكوم عليهم بالإعدام يقبعون بزنازينهم في انتظار أن ينفذ فينا القانون الإلهي: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمن ٢٦).

نحن مجموعة من الموتى الذين لم يموتوا بعد!

قال جاك شورون: «على الرغم من أن الإنسان قد يدرك تفاهته، إلا أن التفكير في الفناء أمر يصعب احتماله». وقال مسروق: «إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله». وقال عمر بن عبد العزيز لأحد العلماء: عظني. فقال له: لستَ أول خليفة تموت! وقال الحسن البصري: «فضح الموتُ الدنيا فلم يترك لذي لبٍّ فرحًا». ورُوِيَ عن النبي ﷺ: «لولا ثلاث، ما طأطأ ابن آدم رأسه، الفقر والمرض والموت، وإنه مع ذلك لوثّاب»! ورُوِيَ عنه أيضًا ﷺ: «إن الله أذل بني آدم بالموت»!

الفناء يعني أن ترى كل شيء على حقيقته. يعني أن تفهم لماذا عليك ألا تتساءل عن جدوى الألم، أو ضريبة المشقة، أو احتمال الصبر. الفناء يشرح لك بهدوء لماذا المُتع التي تراها تمر من أمامك يجب ألا تصيبك بالحسرة. لماذا يجب عليك ألا تغرق في الرغبة حين ترى الفتاة الجميلة أو أكوام النقود المكدسة أو حوض الاستحمام الفاخر في فيلا فارهة في مكان بعيد من العالم. الفناء يهمس في أذنك في كل مرة تنغمس فيها في دورة المادة، أو ترتبك فيها من لا عقلانية الزهد، أو ترتعش فيها من وقع المصيبة. يهمس لك بأن كل شيء سيزول. كل شيء!

أليس حزينًا أن هدف الحياة لا يكتمل إلا بقتلنا؟ أليس حزينًا أن لذة الشباب تكمن في أنه سريع الزوال؟ أليس حزينًا أن الرغبات مثل الحياة فانية، أنها سراب يتجدد، لا يُنال، لا يختفي، لا يثبت، ولا حتى يتردد؟

❦

هذا ليس كل شيء، فبقليل من التأمل تفطن إلى أن الفناء قد طال ما هو أثبت من هذا، مثل الأفكار البشرية ذاتها!

ظن (هيجل) أن التاريخ سوف يثبت بعد قيام الدولة البروسية التي كان يحلم بها، ولم يحدث هذا، مثلما ظن (ماركس) أن نهاية التاريخ سوف تكون بقيام الشيوعية، وأما (فوكوياما) فاعتبر

الليبرالية الغربية التحررية والنزعة الإنسانية (الثايموس) المحطة النهائية لتاريخ البشر، ومن جديد لم يحدث أي من هذا. و(نيتشه) الذي أعلن عن موت الإله قد مات وبقي الإله.

تفنى الأفكار ذاتها ويفنى أصحابها أيضًا باستمرار! مثلما يقول الله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ**﴾ (الأنعام ١٣٣).

ماذا عن فناء حضارات الأمم العظيمة ومجدها؟ حضارة الإغريق العظيمة مثلًا والتي جاء عليها وقت كانت تعلّم البشرية فيه كل شيء تقريبًا، انتهت هذه الحضارة أو كادت، ويمكنك أن تتأكد من ذلك حين تراقب بقية الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي وهي تضيق ذرعًا بإفلاسات اليونان المتكررة والمساعدات المستمرة التي يدفعونها لهم. وحضارة المايا في أمريكا القديمة انتهت فجأة بشكل يحيّر علماء التاريخ والإنسانيات عن السبب وراء انتهائها، فمن المعتاد أن تموت الحضارات ببطء.

ماذا عن الروم الذين سيطروا على نصف العالم منذ عدة قرون من الزمان؟ صاروا الآن مجرد دولة أوروبية متوسطة المكانة تشتهر بعصابات المافيا والأفلام الإباحية وأكلات الباستا! والفرس الذين كانوا يسيطرون على النصف الباقي صاروا الآن دولة طائفيّة تتميز بغباء عنصري وسياسة ثيوقراطيّة وعلاقات دولية بالغة السوء. بل وحتى حضارة العرب العظيمة انتهت للأسف بطريقة لا نقدر على نكرانها.

هذا من غير أن نحتاج إلى أن نذكّر بأحفاد الفينيقيين أصحاب الصناعات البارعة الذين صاروا الآن يستوردون كل شيء تقريبًا، أو أحفاد الفايكنج المحاربين الأشدّاء الذين صاروا يصنعون الجبن الرومي، أو أحفاد الفراعنة المهرة الذين صاروا الآن يحلمون فقط بلقمة عيش نظيفة!

عجلة الفناء تطول الحضارات وعظمة الأمم! والقرآن دائم التذكير لنا بذلك، مع التذكير بالسبب، فيقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (الأنفال ٥٣). ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ**﴾ (الأعراف ١٠٠).

◆◆◆

هذا الفناء الذي هو مصير ثابت لكل ما هو مخلوق في هذه الدنيا أقرب لقانون مسنون على الجميع، قانون لا يمكن خداعه أو تجاوزه، قانون يعني ويؤكد الإرادة النافذة التي تقف خلفه. لذلك جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا الفناء وصفًا لا ينفصل ولا يستقل عن الدنيا، كما تلاحظ في هذا المثل: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا**﴾ (الحديد ٢٠)!

لماذا لا يبقى شيء على حاله؟! ولماذا لا يدوم أي شيء؟! لماذا نلاحظ حتى في قوانين الفيزياء والديناميكا الحراريّة أن الطاقة لا تبقى في مكان واحد بل دائمة الانتقال؟ لماذا تدل الـ (Entropy) على أن كل الكون يتجه للاضمحلال والنهاية والفوضى؟ لماذا نلاحظ هذه الإنتروبيا أيضًا في أنفسنا حيث يولد الطفل أكثر نقاءً ثم تضمحلّ إنسانيته مع جريان الزمن؟ وكأنه مصداق قول الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر ١-٢)!

لماذا الحياة والموت مستمرَان في هذه اللعبة الدورانيّة منذ أن عرفنا الدنيا؟ أليست هذه الطبيعة الفلسفيّة للحياة دليلًا على إرادة عليا نافذة تأبى أن يكون الكمال إلا لها، تأبى أن يكون البقاء إلا لصاحبها؟

لا يوجد في هذا الوجود سوى حيٍّ واحد ومجموعة من الأموات، لا يوجد فيه سوى حقيقة واحدة وبضعة أوهام، لا يوجد فيه سوى شيء واحد باقٍ يستحق أن تفني حياتك في عبوديته، في خدمته، في تعظيمه، في التوسل إليه. أما مَن غيره، فالكلٌ قد خلقوا أمواتًا في هذه الحياة!

كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أهل بيته يقول لهم: «أما بعد، فإنك إن استشعرتَ ذكر الموت في ليلك أو نهارك، بَغُضَ إليك كل فانٍ وحُبِّبَ إليك كل باقٍ، والسلام!»

والسلام.

٤

المشاعر

"من ظهره، يبدو الإنسان كحيوان حقيقي، لكن ما إن يستدير ليواجهني حتى يصيبني حزنه كطلقة نارية في منتصف جبهتي"

سيزار باييخو

ماذا يحدث لو تم نقل المشاعر الإنسانية إلى الجماد؟!

هذا هو ما تخيله الكاتب البريطاني (براين ألديس) حين كتب قصة أدبية قصيرة في عام ١٩٦٩ بعنوان: (الألعاب الفائقة تستمر طوال الصيف)، بطل هذه القصة (ديفيد) هو إنسان آلي طفل تمت برمجته على فهم الحب، فأصبح يحمل للسيدة التي اشترته مشاعر الولد لأمه، غير أن (أمه) هذه لم تستطع أن تبادله نفس الحب فتخلت عنه. هنا يبقى هذا الجماد إلى الأبد غير قادر على التوقف عن الحب، غير قادر على ملاقاة محبوبته، غير قادر على نسيانها! وتنتهي القصة وهو يفكر في مصير حبه المجهول.

كانت قصة حزينة بحق، شبيهة إلى حد ما برواية أخرى لكاتب الخيال العلمي الأمريكي الروسي / إسحاق أزيموف. الذي كتب بعد ذلك في ١٩٧٦ رواية (رجل المِئَتي عام) وفيه يحكي عن إنسان آلي لديه حلم واحد فقط: أن يتحول إلى إنسان! ويختبر في حياته الطويلة الإحساس بالمشاعر الإنسانية.

وهكذا، من أول (بينوكيو) الدمية الخشبية التي تريد أن تصبح صبيًا حقيقيًا، إلى الرجل القصديري في قصة (ساحر أوز) الذي يتمنى أن يكون له قلب. نجد أنه دائمًا ما تتعلق إحدى موضوعات الفن والأدب بفكرة رومانسية واحدة: الكائن الميكانيكي الذي يحنّ ليصبح بشرًا ويجرّب كل هذه المشاعر الإنسانية، وعدم قناعته بأن يكون مجرد أسلاك ومعادن، بل يريد أن يبكي ويضحك ويحب ويخاف وينتشي.

تلك الحيرة لدى هؤلاء الأدباء أصاب علماء الطب أضعافها وهم يحاولون وضع النظريّات لشرح المكان الذي (يشعر) في الإنسان، ما مكان الضحك أو الحزن أو الحب أو الخوف؟ وضعوا بالفعل (تصوّرات) مقبولة لكنها ما زالت غير مؤكدة بعد. وفي حالة تأكدنا من العضو المسؤول عن هذا الشعور أو ذاك، فسيبقى لدينا اللغز الأكبر: كيف تتم استثارته؟!

❧

يعتقد العلماء أن العواطف تتم معالجتها في (الجهاز الحوفيّ) للدماغ، ماذا سوف يحدث إذن لو تم فصل هذا الجزء الذي يعالج المشاعر عن الجزء الذي يعتقدون أنه يعالج التفكير (القشرة الدماغية)؟ النتيجة لا بد من أن تكون قدرة أكبر على التفكير السليم والقرارات السديدة، فجميعنا يعلم أن العواطف هي سم القرارات الصائبة. أليس كذلك؟!

لكن الحقيقة أنه نعم، ليس الأمر كذلك! فبحسب دراسات عالم الأعصاب الدكتور (أنتونيو داماسيو) من كلية الطب جامعة أيوا، أن هؤلاء الذين عانوا من إصابات دماغية عطّلت معالجة العواطف أصبح لديهم شلل عند اتخاذ أبسط القرارات! ومن دون عواطف توجههم صاروا يتناقشون إلى ما لا نهاية حول هذا القرار أو ذاك، مما يقودهم في النهاية إلى العجز عن اتخاذ أي قرار، وقد أمضى أحد مرضى دكتور (داماسيو) نحو نصف ساعة وهو يحاول تحديد موعد مقابلته التالية.

عندما نذهب إلى التسوق فإننا نتخذ لا شعوريًا آلاف الأحكام القيمية حول كل شيء نراه: هذا غال جدًا، هذا ملون جدًا، هذا جيد، ذاك سخيف.. إلخ. بدون القدرة على معالجة العواطف، فالتسوق عند هؤلاء المرضى كابوس، إذ إن كل الأشياء بدت لها القيمة ذاتها! تمامًا مثل الحمار الذي مات جوعًا بين حزمتي قش لأنه عجز عن أن يقرر أي واحدة منهما سوف يأكل!

لقد تبين أننا كي لا نصبح مثل الحمار الميت بين كومتي القش، فإننا نحتاج إلى العاطفة والمشاعر البشرية، تلك التي تلعب دور المدير العام الذي يوازن بين دارات تفكيرنا المتعارضة، ويتخذ قراراتنا الحياتية المختلفة.

ربما بعض الناس ممن يحبون أن يتمتعوا بمظهر (العاقلين) أو (المنطقيين) هم سبب تلك السمعة السيئة التي تتمتع بها كلمة (العاطفة). مثل بعض علماء البيولوجيا الذين أصروا على أن العواطف البشرية هي (نفايات) ثانوية ناتجة من عملية التطور، كانت صدمتهم كبيرة بحق حين فاجأهم الفيزيائيون بأنه من المستحيل أن يقوموا بصنع ذكاء اصطناعي ناجح قادر على البقاء من دون أن يحاولوا بطريقة ما أن يضيفوا إليه عاطفة الخوف من نفاذ شحن البطارية مثلًا أو عاطفة الرغبة في النجاح والتطلع إلى المستقبل لصنع غرض لنفسه وخطة ناجحة لحياته.

هذه المشاعر ليست شيئًا ماديًا بالتأكيد، ربما هي أقرب للغز فلسفي أتى من نفس العالم الذي أتى منه اللغز الأكبر: الروح! فيقول الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء ٨٥).

لذلك اعتبر القرآن هذا الضحك والبكاء مظهرًا من مظاهر القدرة الإلهية! كما يقول جَلَّجَلَالُهُۥ: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ (النجم ٤٣). واعتبر شعورك بالاطمئنان والراحة والحنين في بيتك نعمةً من نعم الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الذي خلق لك هذا الشعور الدافئ وربطه لك بهذا المكان! كما تقول الآية: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ (النحل ٨٠).

❧

غير أن ما يأخذ نصيب الأسد من تلك الألغاز هو لغز شعور الحب نفسه! الحب شيء محيّر وغير مفهوم لكل العلماء التجريبيين، ربما فقط يفهمه الأدباء والشعراء ولكن لا يقدر على فك ألغاز شفراته علماء الطب أو الفيزياء أبدًا!

الحب يعني القدرة على التضحية بسعادة، والشعور بالألفة والارتباط، والشعور بأن بوصلة قلبك تتجه إلى مكان ما رغمًا عن أنفك! الحب يعني أن ينطبع إنسان إلى الأبد في البطانة الداخلية لذاتك. يعني أن تتلاقى نغمتك الروحيّة بمعجزة غير مفهومة مع نغمة أخرى ذات تردد مختلف تمامًا عنك وبرغم ذلك تتشكلان من جديد لبعضكما البعض!

كتبت (جينيفر فولويلر) كتابها: (شيء آخر غير الله) تشرح فيه تجربتها مع الحب الذي هزم الإلحاد وأعادها إلى الإيمان بالله! فقد نشأت في عائلة لا دينية، وانصبغ تفكيرها بالمادية، ولكنها ما لبثت أن أنجبت طفلها الأول، فأخذت تنظر إليه وتقول: «ما هذا الرضيع؟ من زاوية مادية إلحادية بحتة هو مجموعة من التفاعلات الكيميائية المتطورة بصورة عشوائية، وإذا كان الأمر كذلك فكل الحب الذي أشعر به تجاهه ليس إلا تفاعلات كيميائية في دماغي».

ثم نظرت إلى طفلها، وقالت: «ليس الأمر كذلك! ليس الأمر كذلك!»

❧

من أين أتى الحب؟ ليس من المادية بالتأكيد!

الحضارة المادية في أمثل صورها (الطوبيا) لا تعترف بالحب، فحمل الأطفال لا علاقة له بالعاطفة بين الأبوين، في جمهورية أفلاطون مثلًا: «يجب وضع النساء بين سن العشرين والأربعين في غرف خاصة مع رجال بين سن خمس وعشرين وخمس وخمسين. والأطفال الذين يولدون نتيجة لذلك ينبغي تربيتهم وتعليمهم في معاهد الدولة. ويسمح بالعلاقات الجنسية للنساء اللائي يقل عمرهن عن عشرين سنة والرجال الذين يزيد عمرهم عن خمسين سنة، ولكن نتيجة هذا الحب

يجب إزالتها. وإذا وُلِدَ طفل من هذه العلاقة، فيجب تركه حتى يموت جوعًا. فالحياة الأسرية والحب الأسري لا بد مَن إزالتهما»!!

التفكير المادي الطوباوي من المنطقي أن يرفض الحب، لأنه علاقة شخصية لا اجتماعية، ويذكرنا (علي عزت بيجوفيتش) بأن أحد أهداف الثورة الثقافية في الصين كان تعليم الشباب رفض الحب، باعتباره (اتجاهًا برجوازيًا). الحب الوحيد المسموح به كان حب الدولة، حب الاشتراكية، حب ماوتسي تونج! وكانت كتب الأدب الرومانسي ممنوعة في حكمه، وبعد موته وقف الناس في طوابير بالمئات لشراء (آنا كارنينا)!

يلخّص لنا الفيلسوف الشيوعي الملحد (إنجلز) المسألة بوضوح، فيقول: «سيصبح من الواضح أنه لكي يتم تحرير النساء لا بد من تحقيق الشرط الأول لذلك وهو إدخال جميع النساء في النشاط العام، وهذا يعني إلغاء الأسرة المنعزلة». ويرى (ماركس) أن القضاء على الأسرة هو فقط ما سيحوّل الإنسان إلى كائن اجتماعي بكليته، وتقول الناشطة النسوية (سيمون دي بوفوار): «ستظل المرأة مُستعبَدة حتى يتم القضاء على خرافة الأسرة وخرافة الأمومة والغريزة الأبوية».

بالنسبة لهم فالحب هو سم، مجرد ناتج ثانوي عشوائي غير مرغوب فيه من التطور الدارويني كي يدفعنا إلى التكاتف معًا لحماية النسل. لذلك اخترعوا هم أداة أخرى لذلك، وهي الدولة. الدولة سوف تأخذ نسلك لتحميه، أنت كإنسان ذكر مجرد آلة لإنتاج الحيوانات المنوية، وأنت كإنسانة أنثى مجرد إناء طهي لنمو الأطفال بداخله. العملية كلها عملية إنتاج وإعادة إنتاج والتي لَا يعرف المسار المادي غيرهما كما أكد (إنجلز). وفي النهاية يجب عليك ألا تنشغل بشيء إلا بالعمل من أجل الدولة ومصير البروليتاريا. ومرحب دائمًا بك لأن تحظى بالمزيد من الجنس الخالي من الحب لتنجب لنا المزيد من العمال!

لا يوجد مكان للحب، للوفاء، للمودة، أو للسكينة في مجتمع إنساني ينكر وجود الله!

لذلك اعتبر القرآن الحب خصّيصة من خصائص القدرة الإلهية: ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ (الأنفال ٦٣). واعتبره آية من آياته: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الروم ٢١). واعتبره نعمة جليلة من نعمه يمتنّ بها على عباده: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ (الأعراف ١٨٩).

أتريد إقناعي أنه لا يتملكك الإحساس بالله حين يخالط قلبك أحد هذه المشاعر؟!

١٥

الجمال

"عليّ أن أعترف أن الطبيعة تبدو لي أحيانًا أجمل مما ينبغي لها أن تكون"

الملحد/ ستيفن واينبرج

كان (ألبير كامو) يقول: «في قلب كل جمال يكمن شي ء لا بشري». ولم يكن داروين مؤمنًا بوجود الله، ولذلك كان الجمال بالنسبة إليه معضلة حقيقة.

حين طوّر نظريته الخاصة بتفسير نشأة أنواع الكائنات الحية وتطورها عن طريق الانتخاب الطبيعي، أدرك وقتها أن الانتخاب الطبيعي لا يمكنه أن يفسر وجود الجمال. لذلك وبعد سنة من نشره لكتابه الشهير (أصل الأنواع)، أرسل برسالة إلى صديقه عالم النبات الأمريكي (أسا جراي) يقول له فيها: «منظر ريش ذيل الطاووس يجعلني أشعر بالسقم كلما أمعنت النظر فيه»!

ولكن داروين طوّر بعد ذلك نظرية أخرى ونشرها في كتاب (أصل الإنسان) في ١٨٧١ ذكر فيها بأن الاصطفاء الجنسي هو سبب (الإبقاء) على الجمال. بمعنى أن جمال ريش ذيل الطاووس سببه هو أن الأنثى تختار الذكر الأجمل للتزاوج.

المشكلة أن هناك بحثًا تم إجراؤه في اليابان على يد مجموعة من العلماء يرأسهم (ماريكو تكهاشي) من جامعة طوكيو، وتم نشره في ٢٠٠٨، أثبتوا فيه بعد دراسات متأنية على مدار سبع سنوات أن أنثى الطاووس لا تبالي إطلاقًا بجمال الذكور عند التزاوج!

والمشكلة الأكبر من ذلك أن هذه المحاولة الداروينية لتفسير الجمال، لا تدّعي أنها تحاول أن تفسر (ظهور) الجمال، وإنما محاولة (فاشلة) لتفسير بقائه فقط. دعك من أنها لم تقدم تفسيرًا لوجود حاسة تذوق الجمال عند هذه الحيوانات العجماء، ولا لغلبة الحس الجمالي عندهم على ضرورة التمويه (كاموفلاج)، والذي يهدد الفرد الجميل وسط القبيلة بسهولة اكتشافه واقتناصه من الحيوانات الصيادة.

مظهر آخر من مظاهر الجمال والذي لا يمكن تفسيره يكمن في أناقة الكون Elegancy ونظامه، مما يجعل الرياضيات - والتي ترسم قواعده بالأرقام والمعادلات - تشتهر بالجمال، برغم أنه أشهر العلوم المجرّدة البحتة.

حتى يقول الفيلسوف وعالم الرياضيات الشهير (برتراند راسل): «الرياضيات لا تملك بحق الحقيقة فقط، وإنما أيضًا أقصى الجمال». ويقول عالم الرياضيات الإنجليزي (جودفري هاردي): «يجب أن تكون أنماط علماء الرياضيات جميلة كأنماط الرسامين والشعراء، إن الجمال هو أول اختبار، لا يوجد محل دائم في العالم للرياضيات القبيحة». وأما عالم الرياضيات الفرنسي (هنري بوانكري): «الإحساس بجمال الرياضيات وبتناسق الأرقام والأشكال وبالأناقة الهندسية، يعترف به كل علماء الرياضيات الأصليين».

يذكرنا البيولوجي المصري (أحمد مستجير) بأنه «ليست من نظرية علمية نشأت بعيدًا عن اعتبارات الجمال». لذلك يقول آينشتاين: «النظريات الفيزيائية الوحيدة التي نحن على استعداد لقبولها هي الجميلة منها». وهذا شبيه بإقرار ستيفن هوكنج في كتاب التصميم العظيم أن النموذج المقبول لتفسير ظاهرة ما لا بد من أن يكون أنيقًا.

لذلك ما زلنا نتساءل: لماذا هناك جمال؟!

تخيّل لو صحوْتَ من نومك على صوت رديء مثير للاشمئزاز، هو صوت العصافير على الشجرة القريبة من نافذة غرفتك! تخيل لو قمت وفتحت النافذة ثم وجدت ملمس الهواء على بشرتك مقززًا وغير مريح على الإطلاق! تخيل لو نظرت إلى السماء فوجدت لونها (فوشيا)! ثم نظرت إلى الأشجار فوجدت لونها أسود! تخيل لو أصلًا لا توجد ألوان، وكل شيء درجة من درجات الرمادي! تخيل لو أن كل البشر يشبهون القردة، أو أن كل الحيوانات تشبه الفأر! تخيل لو كان أنفك تحت إبطك! أو كانت عيناك فوق سرّتك! تخيل لو كل ما تأكله له طعم واحد، يبقيك على قيد الحياة ولكن له طعم الطين! تخيل لو كل المشروبات الساخنة بطعم زيت الخرْوَع، أو أن كل الأزهار لها رائحة السمك!

تخيل لو كانت الحياة بدون جمال؟ هل تستقيم؟ بالطبع تستقيم! كل شيء سيكون في موضعه، كل الحياة المادية ستستمر كما هي، كل الحياة ستمضي ولن يعطلها شيء. لماذا لم يحدث ذلك إذن؟

لم يحدث ذلك لأن الله جميل. هذا هو التفسير فعلًا. وهذا هو التفسير الوحيد.

لذلك تجد أن القرآن يحدثنا عن مظاهر هذا الجمال! سواء كان جمال الحيوانات: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل ٦). أو جمال النباتات والأشجار: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (ق ٧). أو جمال الحدائق الملتفّة والمتنزّهات: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ (النمل ٦٠). أو جمال السماء: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق ٦). أو جمال اختلاف الألوان وبهجتها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ (فاطر ٢٧ -٢٨). أو جمال الإنسان نفسه وصورته: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن ٣).

الأعجب من هذا الجمال هو إحساسك به! لماذا تشعر بجمال اختلاف الألوان في أزهار الربيع بينما تتقزز من نفس الاختلاف اللوني في مقلب القمامة؟! إنه جهاز الاستقبال الإنساني المضبوط على كيفية فهم الجمال والشعور به! كما يحدثنا القرآن فيقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر ١٦). ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (البقرة ٦٩).

لماذا عليك أن تؤمن بوجود إله؟؟ أعطني تفسيرًا غيره لوجود الجمال في الحياة إذن!
أعطني تفسيرًا لكيفية وجوده، والأهم من ذلك: لماذا وُجِدَ من البداية؟!

١٦

طاعة الوجود

"محض وجود قوانين يمكن فحصها هو

من المعجزات، هذا أمر غير مفهوم البتة"

الفيزيائي/ ريتشارد فاينمان

(راندال مونرو) هو شخص أمريكي ظريف وفيزيائي شاب، قام بإخراج كتاب في ٢٠٠٩ عنوانه: (ماذا لو؟) في هذا الكتاب فائق المتعة يحاول الإجابة بشكل علمي بحت عن الأسئلة العبثية (المتخلّفة) التي قد تراود أذهاننا! استقبل أسئلة الناس فعلًا على بريده الإلكتروني، وبدأ في الإجابة عنها بشكل دقيق.

أسئلة مثل: ماذا سيحدث لو ضرب البرق رصاصة منطلقة في الهواء؟! لو اختفى DNA شخص فجأة، كم من الوقت سيمضي حتى يموت؟! لو قفزت من طائرة ومعي أنبوبة هيليوم وبالون لنفخه، من أي ارتفاع علي أن أسقط حتى يتسنى للهيليوم نفخ البالون بشكل كافٍ كي أهبط بسلام؟! ومن أي ارتفاع عليّ أن ألقي بقطعة لحم حتى تهبط إلأى الأرض مطهوّة من حرارة الاحتكاك؟! كم مكعبات الليجو التي تحتاجها لبناء جسر من لندن لنيويورك؟! وما هو أطول غروب للشمس يمكنك مشاهدته في حالة قيادتك على الطريق بالالتزام بحدود السرعة القانونية؟! وماذا لو اتصلت برقم تليفون عشوائي وقلت: (يرحمكم الله)، ما هي احتمالية أن يكون هذا الشخص بالفعل كان قد عطس للتو؟

كان راندال ينطلق بعدها في وضع القوانين والأرقام والمعادلات والرسوم التوضيحية، ليصل في النهاية لإجابة كل سؤال بشكل حاسم.

طوال الكتاب كان ينتابني شعور بالانبهار. منبهر بخيال البشر الذي أوصلهم لهذه الدرجة من الغباء! ومنبهر ببراعة الكاتب الذي كتب هذا الكتاب في وقت فراغه أثناء دراسته، بدلًا من أن ينشغل بمحاولة تحطيم النسبية كأي طالب آخر في بلادنا يحترم نفسه. ومنبهر بالعلم التجريبي

الذي يعرف الكثير ويبدو كموظف أرشيف في أواخر الخمسينيات ينظر لك بمزيج من الخبرة والملل من فوق نظارة القراءة. ومنبهر قبل ذلك كله بأناقة الكون نفسه!

قبل ذلك لاحظ (ريتشارد فاينمان) -والذي كان يعده البعض أذكى إنسان في زمانه- أن سيطرة الكهروديناميكا الكمية على العالم الطبيعي قد بلغت من الدقة مبلغًا مبهرًا، حيث باستخدام النظرية يمكن قياس المسافة بين (نيويورك) و(لوس أنجلوس) فلا يختلف الناتج عن المسافة المُقاسة بالتجربة الواقعية إلا مقدار عرض شعرة آدمي! النظرية النسبية العامة لآينشتاين بلغت دقة مماثلة مما أدخل التحسينات والتعديلات على نظام تحديد المواقع GPS ليعمل بدقة تثير الغرابة.

لماذا توجد أحكام سائدة في كل ركن من أركان هذا الكون العملاق؟! لماذا تحكمه نفس القوانين؟! لماذا يستطيع طالب جامعي أن يحسب مصير رصاصة منطلقة من مسدس (تسعة مللي) حين تضربها صاعقة برق؟ لماذا يتصرف البرق أصلًا في كل مرة بنفس سرعته ونفس طاقته المعلومة؟ لماذا يمكننا حساب الرقم الدقيق لقوة الجاذبيّة الشمسيّة أو حجم الأرض أو المقدار الدقيق لثابت (بلانك)؟! لماذا نعرف أن سرعة الضوء تساوي تمامًا: ٢٩٩٧٩٢٤٥٨ متر في الثانية، وأن نسبة كتلة البروتون إلى كتلة الإلكترون في الذرة تساوي تمامًا: ١٨٣٦،١٥؟! لماذا لا تجرؤ أي واحدة من قوى الطبيعة على مخالفة القانون الثابت الموجود في كتاب فيزياء مهترئ في حقيبة طالب نحيل ذاهب لمدرسته على ظهر (توكتوك)؟

إنها نفس الدهشة التي أصابت (آينشتاين) حين قال أن أكثر ما أدهشه في الكون أنه مفهوم! إنها نفس الأناقة الكونية التي خلبت لُب (ستيفن هوكنج) فلا يكف عن الحديث عنها بصوته المعدني ونظرته المترددة. إنها نفس المشاعر التي وقعت في قلب (كارل ساجان) لما انطلق يكتب الكتب والوثائقيات ليعرّف الناس على عظمة الكون ويبرر ذلك بأنه قد وقع في الحب!

إتقانٌ كامل من مُوجد هذا العالم في إسباغ قوانينه، وإقرار سيادتها، وإحكام فاعليتها في خلقه! إتقانٌ في (تقعيد) كل حركات الطبيعة، ووضع الحدود المُلزِمة لكل قواها فلا تقدر على مخالفة سيدها! حين نرى الفيزياء شاهدةً على طاعة كل الوجود!

لا يجب عليك أن تكون مثل راندال ولا فاينمان كي تدرك سيادة القوانين في الكون! يمكنك أن تلمس ذلك بنفسك في الواقع حين تضطر إلى تغيير أسلوب حياتك بالكامل مع بداية كل صيف أو شتاء، بعد أن تكون قد تعودت عليه أخيرًا! حين يتغير المناخ فتضطر إلى أن تغير موعد نومك، واستيقاظك، ومشروبك المفضل، والفاكهة التي تصحبها إلى فراشك، والملابس المعلقة وراء الباب، وعدد المرات التي تضطر فيها لزيارة (حمّام) بيتكم!

ما يثير الإعجاب حقًا أن كل هذه التغيرات التي يضطر كل منا إلى صنعها بحياته كانت نتاج تغير زاوية ميل أشعة الشمس على أحد نصفي الكرة الأرضية! فقط زاوية الميل تصنع بنا كل هذا! قانون واحد بسيط صغير أودعه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكون وقت خلقه. ولكنه يتحكم في كل شيء يتعلق بك وعمّا إن كانت رائحة المانجو ستنبعث من أصابعك مساءً أم رائحة البرتقال.

عندما تسمع عن الراكب المسكين الذي غرقت به سفينته في عرض البحر فمات من الظمأ على قطعة خشب طافية، فتذكّر مدى قوة قانون مشاكس صغير كقانون الذوبان والذي جعل ملايين الأمتار المكعبة حوله من مياه البحر الذائب فيه الملح غير صالحة لإرواء عطش من يحتاج إلى كوب واحد! عندما ترى ممثلة كانت تخلب لب الرجال، وقد بلغت من العمر المئتين من السنين وقد صار وجهها يخيف صغار السن وكبار السن ومتوسطي السن، فتذكّر حينها مدى فاعلية وثبات قانون الشيخوخة الذي سنّه الله تعالى في خلقه.

حاول أن تلحظ بسمة قانون الجاذبية المتشفية في هاتفك (الآيفون) الجديد بعد تهشمه على الأرض. أو تلحظ النظرات الشريرة على وجه قانون القصور الذاتي بعد أن تسبب لتوه في قتل شاب نسي أن يربط حزام أمانه. أو تلحظ روعة قانون الغليان في كوب الشاي الممتع وقت العصاري.

كان أعمق دافع فكري عند آينشتاين هو معرفة ما إذا كان لله اختيار في خلق الكون بالطريقة التي هو عليها أم لا؟ كان يتساءل هل هذه القوانين السائدة حتمية أم أنها واقعة تحت مشيئته! مثلما كان يقول: «يدرك كل إنسان يهتم بالعلم بطريقة جادة أنه قوانين الطبيعة تعكس وجود روح كلية أسمى كثيرًا من الإنسان».

سأل عالم الكونيات (جول برماك) غريمَه الفيزيائي (نيل توروك): «ما الذي يجعل الإلكترونات تستمر في اتباع القوانين؟» فدُهِشَ (توروك) من السؤال! ويذكرنا (يول ديفيز) أن: «قوانين الطبيعة تبدو نفسها نتيجة لتصميم غاية في الإبداع». بينما عبّر (ستيفن واينبرج) الملحد في كتابه (كون مصمم؟) عن يأسه من أن يكون لدينا صورة متكاملة ومرضية للعالم لأننا: «سوف نظل نسأل دائمًا: لماذا؟ لماذا هذه النظرية وليست نظرية أخرى؟!» .

يتفق الفيزيائيون -الملحدون منهم قبل المؤمنين- على أن قوانين الطبيعة هي التي تجعل الكون على ما هو عليه، وأنها (ثابتة) لا تتغير، (مطلقة) غير نسبية، (سابقة) على الزمان والمكان، غير مادية، غير مجسمة. لذلك يقول الفيزيائي (جيرالد شرويدر): «قد يبدو هذا الوصف الآن مألوفًا! قريب جدًا من المفهوم الكتابي لله! ليس بجسم، خارج الزمان، قادر على خلق الكون»!! يخلعون على قوانين الطبيعة نفس الصفات التي لما نذكرها على الله عز وجل يسخرون منا لأننا بزعمهم: نفترض شيئًا معقدًا لا دليل عليه.

مثلما تحدث (ستيفن هوكنج) الملحد عن النظرية (إم) أنها قادرة على تفسير كل شيء في الكون، ويضفي عليها الكثير من القدرات الفاتنة، فيعلق أحد الصحفيين البريطانيين على هذا، ويقول: «تستدعي النظرية (إم) شيئًا مغايرًا: محركًا أول، موجدًا، قوة خلاقة... ليس بالإمكان التعرف على هذه القوة باستعمال آلات أو بتوقع رياضي مفهوم، وهي مع ذلك تتضمن كل الاحتمالات. هي تملك (الحضور الكلي)، و(العلم الكلي)، و(القدرة الكلية)، وهي (سر) عظيم. ألا يذكركم ذلك بأحد؟!»

***

طاعة الوجود هذه قد نبهنا إليها القرآن ونبهنا على مدى دلالتها على وجود إله حاكم يخاف منه الجميع ولا يجرؤون على مخالفته. بالأحرى هم لا يستطيعون مخالفته، فطاعته هي الشيء الوحيد الذي يجيدون فعله! كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾ (آل عمران ٨٣). ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ (فصلت ١١).

هذه هي الشفرة التي خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكون عليها، كل قانون من هذه القوانين هو مظهر لقيّومية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لخلقه وقهره فوقهم ورعايته لهم. لذلك يحدثنا القرآن عن أفعال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والتي تعرّفنا على (جزء) من الأسباب الكامنة وراءها من خلال هذه القوانين!

يمكننا أن نقرأ الآية: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**﴾ (الملك ١٩). فنفكر في قوانين الحركة الميكانيكية والقصور الذاتي التي وصفها نيوتن والتي سنّها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وجعلت هذا الطائر لا يقع على الأرض حين يقبض جناحيه! ونقرأ الآية: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ (يونس ٢٢). فنفكر في حفظ الله لنا من خلال قانوني الجاذبيّة والطفو وغيرهما.

***

حتى في غير القوانين الفيزيائية يمكننا أن نلحظ السيطرة الربوبيّة على كل شيء في الكون من حولنا. هذا الكون الذي يخبرنا القرآن أنه سيصير إلى الزوال الفوري في اللحظة التي يمنع الله عنا فيها قيّوميته وحفظه! كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ (فاطر ٤١).

لذلك يمكنك أن تتأمل من حولك فلا ترى في هذا الوجود إلا آثار هذا الحفظ وهذه الرعاية الربوبيّة منه سبحانه.

تلبس قميصك الأبيض قبل الذهاب للعمل فتفكر في حقول القطن التي رواها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمطر! تجلس على مائدة طعامك فتفكر في البحر الهادر الذي سخره الله لنا والذي لولا ما يمدنا به من ملح لكنت تأكل الآن شيئًا شبيهًا بالصابون! تقرأ في صفحات كتابك البيضاء فتفكر في الدبابير التي أوحى الله إليها بأن تمضغ لحاء الأشجار ثم تصنع منه بيوتًا كرتونية، ليتعلم منها البشر كيف يصنعون الورق!

تتحكم في درجة حرارة غرفتك بالـ (ريموت كونترول) فتفكر في العلاقة بين الكهربيّة والمغناطيسية التي حددها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فأنتجت هذه الموجات الكهرومغناطيسية البديعة. تعبث بأصابعك على شاشة هاتفك الذكيّ فتفكر في السليكون الذي أسكنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأرض وجعل له صفات كهربائية خاصة للغاية، ليتمكن البشر من تحويله إلى الترانزستور الذي تقوم عليه صناعاتهم الإلكترونية. تشرب من زجاجة المياه المعدنية فتفكر في الغزال الذي خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثم أقبره في باطن الأرض من ملايين السنين ليتحول إلى نفط يستخلص منه البشر (الإيثيلين) ويحولوه إلى تلك الزجاجات البلاستيكية الصغيرة. تنظر إلى مرآة سيارتك الجانبيّة لتتفادى الصدام مع هذه الشاحنة العملاقة فتحمد الله على أنه قد خلق لك ضوءًا يتمتع بخاصية الانعكاس على الأسطح اللامعة!

يمكنك أن تقوم بهذا التأمُّل طوال اليوم. تنظر إلى كل شيء في حياتك بنظرة مختلفة، نظرة خارج الصندوق بحق كما يقولون! تتجاوز حواسك التي تضع تصوّرًا محدودًا جدًا للموجودات من حولك. وتتجاوز حدود تفكيرك القديمة إلى حدود أبعد. وتصل في النهاية إلى الحقيقة التي أودعها اللهُ الكونَ من حولنا.

وهي أن كل شيء منه وإليه. وأن له الملك وحده. وله الأمر وحده. وله الحمد وحده.

حينها تفهم مدى عظمة هذا التساؤل القرآني: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (الأنعام ١٦٤)؟!

١٧

الإنسان المُرفَّه

"أيًا كان مصدر امتياز البشر في الطبيعة، فإن وجوده أمر جليّ لدرجة أن أي إنكار مستهتر له سيتمخض عنه ضرب من التفاهة"

ديفيد بيرلنسكي

اكتشف صانع النظارات الهولندي (هانز بيرشي) بالصدفة أنه يمكنه أن (يلعب) بترتيب العدسات المحدّبة والمقعّرة، ليصنع منها تلسكوبًا يكبّر الأشياء البعيدة، وجاء (جاليليو) واقترح: لماذا لا نوجّه هذا التلسكوب إلى السماء؟ ومع تطور هذه التليسكوبات حتى وصلت إلى تلسكوب (كيبلر) ثم (هابل)، نكتشف كل يوم أن هناك المزيد والمزيد من تلك الأجرام الضخمة التي لا نساوي شيئًا بجانبها. نتعلم كل يوم أن الكون أوسع مما كنا نظن في اليوم الذي قبله، وأننا لا شيء وسط هذا الكون الفسيح. وأن السبب الوحيد الذي لا يجعلنا نرى المزيد منه هو محدودية آلات فحصنا نحن!

في المقابل، وبعد أن اكتشف (هوك) الخلية الحية، واكتشف (ليفنهوك) الأجسام الصغيرة التي تسبح في الدم، بدأ العلماء يدركون أن هناك المزيد والمزيد مما لا نراه في أجسامنا، نظرنا بالمجهر الضوئي، فوجدناه غير كاف، نظرنا حينها بالمجهر الإلكتروني فوجدنا أننا ببساطة لن نشبع أبدًا! هناك في كل خلية نواة، بداخلها كروموزومات، بداخلها شريط خرافي الطول ومكدّس بعناية من الحمض النووي DNA يحتوي عدد خرافي من الجينات، وكل جين هو تتابع طويل من القواعد النيتروجينيّة.

هناك دائمًا أجزاء صغيرة تتكون من أجزاء أصغر، وهكذا، إلى أن نصل إلى الذرّات الكيميائية البسيطة فائقة الصغر والتي لا نستطيع أن نرى ما بداخلها بوساطة أي ميكروسكوب، ولكن فقط ندرك وجود البروتونات والإلكترونات من تأثيراتها الكهربية، وفي العصر الحالي فإن أقصى ما وصلنا إليه هو (الكواركات) التي تُكوِّن هذه البروتونات. ماذا يوجد داخل الكواركات؟ بالتأكيد

عالم آخر أوسع مما نظن! من جديد يدرك الإنسان أن هناك عالمًا أوسع بكثير من أن يستطيع أن يحيط به لأن آلاته ليست بالقوة الكافية.

الوجود غير متناه بالنسبة إلينا، وهو واسع للغاية على (مقاساتنا)! إما أكبر منّا بكثير أو أصغر منّا بكثير. لا بد إذنٍ أننا جزء صغير في مكانة متوسطة من هذا العالم الواسع. وما نراه منه هو وسيلة لإثارة دهشتنا بتخيّل كم ما لا نراه.

تعلمنا حينها أن الإنسان من حيث حجمه هو كائن تافه تمامًا ليس له وزن أو قيمة، نحن هباءة في الملكوت، والعالم (الماكرويّ) الكبير لا يبالي بنا، والعالم (الميكروي) الصغير لا يدري بوجودنا. والغرور البشري العتيد إياه ليس له داعٍ على الإطلاق!

ولكن برغم ذلك لا يوجد كائن آخر بالذكاء الكافي كي ينظر حوله ليرى حجمه الحقيقي. نحن صغار الحجم أمام كون عملاق، ولكن كوننا ندرك حقًا أننا صغار الحجم وسط مليارات الكائنات التي لم تعرف هذا بعد يعني أننا أذكى ما في هذا الكون العملاق! هذا ليس لاستحقاقنا ذلك. ولكن محض تفضيل وتكريم من خالق كل شيء: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾ (الإسراء ٧٠).

كان الأعرابي يرى الناقة التي تفوقه بكثير في الحجم والقوة وبرغم ذلك تذعن له برأسها وتسمح له -هو الصغير الضعيف البائس- أن يركب على ظهرها ويمسك بزمامها ويقودها حيث شاء! لذلك أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يلاحظ هذا التسخير العجيب الذي يدل على قدرته جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**﴾ (الزخرف ١٣). أي وما كنا نقدر ولا نطيق أن نطوّع هذه الناقة لو لم يكن الله قد سخّرها لنا.

أما نحن فلم نعد نركب الإبل -إلا في رحلات سافاري كي نشعر بالنوستالجيا والدراما- ولكن صرنا نركب سيارات الدفع الرباعي ويخوت البحر الأحمر وطائرات البوينج، بكل هذه الميكانيكا الفائقة التي تحويها، وكل هذه الحركات الانزلاقية الناعمة، وكل هذه الروعة التنظيميّة التي قدّرنا الله عليها فصرنا نجلس على كرسي في السماء ونأكل الفول السوداني بضعة ساعات لنصل إلى النصف الآخر من العالم! لقد صرنا إذن في حاجة أكبر إلى هذا الدعاء وهذا التذكر! صرنا نشاهد لمحات من هذا التسخير أعظم وأجل من التي كان يراها الأعرابي القديم.

هناك جانب آخر من هذا الترفيه البشري، وهو في موقعنا من الكون!

في ٢٠٠٤ كتب (جلويرمو جانزالز) و(جاي ريتشاردز) كتابهما (الكوكب المميز)، وفيه خلصا إلى نتيجة غريبة: موقعنا من الكون مثالي تمامًا حتى نستطيع أن نكتشف الكون ونتعلم عنه!

أدخل (جانزالز) و(ريتشاردز) في حساباتهما مفهومًا هندسيًا مهمًا، وهو الضبط المثالي المقيد، وهو يعني أن في أحد الظروف الفردية فقط كان من الممكن أن تكون الأرض أفضل من هذا، ولكن في مجموع الظروف فنحن في الوضع المثالي! فكّر في حاسوبك الشخصي المحمول مثلًا (لاب توب)، بالتأكيد ستكون شاشته أفضل لو كانت بحجم ٤٠ بوصة، ولكن هل هذا سيجعله عمليًا للحمل والتنقل؟ فبالمثل، لو كانت الأرض قرب مركز المجرة مثلًا كان هذا سيعطينا رفاهية أفضل لاستكشاف الثقب الأسود الموجود هناك، ولكن الضوء الساطع هناك كان سيحول دون اكتشافنا لأي من النجوم الأخرى.

وهكذا، أثبتا أن حجم القمر وبعده عن الأرض، وغلافنا الجوي الصافي، ومقدار جاذبية الأرض بالتحديد، وكتلة شمسنا، وموقعنا في المجرة، كل ذلك لم يجعل الأرض صالحة للحياة فقط، ولكن كان ضروريًا أرضًا لاستكشاف الكون من قبل العلماء، أو على حد تعبيرهما: «البشرية، وبطريقة استثنائية، موضوعة في موقع ملائم تمامًا من أجل فك مغاليق الكون، هل كنا محظوظين فقط بهذا الخصوص؟»

لا يمكننا أن نغفل أن هذا لا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (النمل ٩٣)!

ولو كنا نتحدث عن الإنسان المُرفَّه، فماذا عن التعليم؟ لماذا الإنسان يتعلم؟!

فحتى قرون قليلة من الزمان كان العالم كله يؤمن بأن صحة الإنسان واعتلاله قائمة على المقادير التي يحتويها جسمه من الأخلاط الأربعة: البلغم والدم والمرارة والصفراء! ليس في الأمراض الجسديّة فقط، بل النفسية والذهنيّة أيضًا، بل وحتى في تقسيمات أنماط البشر والشخصيات المختلفة!

لم يكن هذا أقصى ما يستطيع الإنسان الوصول إليه من خيال واسع، فقد آمن الكثير من الأطباء أيضًا في العصور الوسطى أن هذه الأخلاط الأربعة تزداد وتقل مع حركات النجوم والكواكب، فالمرارة السوداء قد تغلب على شخص ما، ولأن لها خاصيتي البرودة والجفاف، ولأن كوكب (زُحل) له نفس الخاصيتين، فبالتالي يمكننا أن نستنتج وجود ارتباط عاطفي بين

المرارة السوداء وبين حركة زُحل! لذلك يمكننا أن نعكس هذا التأثير ونعالج من غلبت عليه المرارة السوداء بنقيض كوكب زُحل والذي هو: كوكب المشترى والشمس اللّذان يتميزان بالحرارة والرطوبة! لذلك على من يعاني من هذا المرض أن يكثر من ارتداء الملابس البرتقالية الزاهية وأن يأكل التوابل (الشمسيّة) مثل الزعفران والقرفة!

وبذلك يذهب المريض إلى الطبيب من (إياهم) فيصف له أهمية تناول الزعفران للتخلص من آلام المرارة! يأكل المريض أطنانًا من الزعفران ثم يموت، فيهز الطبيب رأسه في أسى بأنه على ما يبدو حركة المشترى كانت ضعيفة أكثر من اللازم، لا بد أنه لم يلبس الكثير من الملابس الصفراء الزاهية كما أمر الطبيب إذن!

هذه النظرية تبدو لنا الآن شديدة الغباء والظرافة، على أنها في مجدها كانت تبدو للناس أقصى درجات العلم والمعرفة. للدرجة التي جعلتها في الوجدان الجمعي البشري إلى يومنا هذا. فأنت حين تتكلم عن أحدهم فتقول أنه في (مِزَاج) جيد –وهذا مصطلح مشترك بين اللغات المختلفة بالمناسبة– لأنه تبدو عليه آثار السعادة والأمل، فأنت حينها تتحدث من وحي نظرية الأخلاط الأربعة التي كانت تدّعي أهمية وجود تناسب مزاجي بين هذه الأخلاط لانضباط الحالة النفسية. والكلمة الإنجليزيّة: Melancholy والتي تعني الاكتئاب والسوداويّة، إنما أصلها الكلمة اللاتينيّة: Melaina chole والتي تعني: المرارة السوداء! وكلمة Jovial الإنجليزية التي تعني الفرح والجزل تعني حرفيًا: له علاقة بكوكب المشترى Jupiter!

يمكنك أن تقارن بين هذا الدجل وبين كتب علم الأمراض الحديثة التي تتحدث عن علم وتجربة بأسباب المرض وكيفية علاجه. هذا تقدّم إنساني لا شك فيه، وتطوّر معرفي كبير. نراه نحن فننبهر ولا نعلم التاريخ الطويل لهذا التقدّم والإلهامات المتتالية لرجال كانوا حلقة الوصل بيننا وبين جزء أصيل من هذه المعرفة.

بدايةً من (إدوار جينَر) الذي نظر إلى الأبقار وهي مصابة بجدري البقر Cowpox، ولاحظ أن الأعراض التي تعاني منها تشبه إلى حد كبير الأعراض التي يعاني منها الإنسان حين يصاب بالجدري Smallpox، ففكّر: لربما يكون مسبب المرضين متشابه. ولأن جدري البقر أخفّ بكثير من جدري الإنسان ولا يسبب الوفاة، ولأنه معروف عن جدري الإنسان أن من يصاب به مرة واحدة ثم لا يموت يصبح منيعًا ضد المرض، فلماذا لا نحقن السوائل الحيوانية الملوّثة بجدري الأبقار في الإنسان فيصبح منيعًا ضد كليهما! الفكرة غريبة وجنونيّة إلى حد كبير، ولكنها ناجحة إلى أقصى حد، لقد كانت القصة البسيطة السابقة هي اختراع التطعيم نفسه Vaccination والذي تمت تسميته بهذا الاسم تبعًا لـ Vacca اللاتينية التي تعني: بقرة.

كان من نتاج هذا التطعيم أن فيروس الجدري الذي يجد علماء الحفريّات آثاره على أجساد المومياوات المحنّطة منذ أكثر من عشرة آلاف عام والذي كان السبب في انقراض معظم قبائل الماساي في أفريقيا والهنود الحمر في الأمريكتين، تم القضاء عليه تمامًا من على وجه الأرض بشكل كامل: Eradiacation كما أعلنت منظمة الصحة العالمية في ٨ مارس ١٩٨٠! هذا غير طبعًا العشرات من الأمراض التي قمنا باستخدام نفس المبدأ التطعيمي معها، التهاب الغدة النكافيّة والحصبة وشلل الأطفال والالتهاب السحائي وغيرها من التطعيمات التي أنقذت الملايين من البشر.

إنه نصر عظيم إذن مبنيّ على الفكرة البسيطة الملهمة التي دخلت إلى عقل إنسان عن طريق ما، لذلك كان إدوارد جينَر يقول عن اكتشافه ذلك: «أنا لست مندهشًا أن الناس غير ممتنين لي، أنا فقط مندهش أنهم غير ممتنين لله لأجل الخير الذي سخرني كأداة لتبليغه لرفقائي من البشر»!

هناك طفرات أخرى تمت في علم الجراحة الطبية، كمثل تلك التي كانت على يد الطبيب المسلم الأندلسي / أبو القاسم الزهراوي، المعروف في الغرب عادة باسم Albucasis. اخترع أبو القاسم وبشكل بديع مبتكر للغاية أدوات جراحة دقيقة، حتى إن بعضها ما زال يستخدم إلى يومنا هذا بعد مرور أكثر من ألف عام.

في غير الطب هناك المئات من هذه الأمثلة، فالنموّ الأُسّي سمة مميزة للمعرفة البشرية، كل المعرفة التي قدمها الإنسان حتى عام ١٩٠٠ تضاعفت في ١٩٥٠، ثم تضاعفت مرة أخرى في ١٩٦٠، وتتضاعف كل سبع أو ثماني سنوات. مما يجعل تجاوز قرون من التنمية العادية في زمن قصير ممكنًا باكتساب هذه المعرفة، وهذا ما قامت به اليابان بعد ثورة Meiji حيث حدث توسع مفاجئ في التعليم، وكان دستورها وقتئذٍ يحتوي على خمس مواد فقط، وآخر مادة منها: «يجب اكتساب المعرفة أينما كانت».

كل هذه المعارف العلميّة تدل على قدرة الإنسان على تخطي حدود الموجود، والقفز فوق أسوار الواقع الذي يحوطه، إنه دليل على اتساع الأفق الإنساني ولا محدوديّة الخيال البشري والكم غير المتوقع من المنجزات الناتجة عن إثارة هذا الوعي.

من علّم الإنسان كل هذا؟ ذلك الذي خرج من بطن أمه لا يعلم كيف يفعل أي شيء غير البكاء. هذه الطفرة المعرفيّة بين الحال التي بدأ عليها الحياة وبين الحال التي يصل إليها بعد عدة أعوام يسيرة كفيلة بإشعارنا بحجم المعجزة، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (النحل ٧٨).

ربما تظن أن التعليم البشري فقط هو ما أوصله إلى هذه الحالة، ولكنك حينها لن تجد تفسيرًا للكيفية التي نبتت بها كل العلوم، أو الطريقة التي نشأت بها قيمة العلم نفسه في عالم مادي

عشوائي لا صاحب له، ولن تجد حتمًا وسيلة لتفسير القدرة الإنسانية على إضافة المزيد والمزيد إلى هذه المعرفة، والقدرة الفرديّة على الإنتاج والزيادة، لربما بعد أن تحتار في ذلك تهتدي بهذه الآية، حين يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق ٣ -٥).

على أن أكبر سمات هذا الإنسان المُرفَّه، قدرته على صنع الحضارة والتقدم! كمثال على ذلك، انظر إلى حالنا الآن.

ففي روما القديمة كان الأغنياء فقط هم من يملكون القدرة على أكل الخبز الليّن، برغم أنها ملكت نصف العالم تقريبًا! ولكن هذا ليس بغريب، لأن (قيصر) نفسه كان مسكينًا بالمقارنة بحالنا! لو أراد بعض الهواء البارد فأقصى ما يمكنه الحصول عليه هي النسمات التَعسة الناتجة عن مروحة الريش مختلطة برائحة عرق ذلك العبد الأسود الذي يحركها له. أرخص أَنواع مراوحنا الكهربيّة تنتج هواءً أفضل من هذا، بل وخاليًا من العرق أيضًا!

ولو أراد قيصر التنقّل في شوارع روما، فهو قد بلغ من السؤدد والمكانة ما يجعل أربعة رجال يحملونه على مِحَفّة فاخرة إلى أي مكان يريده، لكن بالتأكيد هذا لا يساوي شيئًا بجانب أقل سيارة متهالكة في زماننا. والفارس الهمام الذي يُهلك نفسه في الصحراء عدوًا حتى لا يؤخر عن قيصر رسائله المهمة بضعة أيام، بالتأكيد لم يكن أسرع من بريدنا الإلكتروني في أبطأ سرعات الانترنت طرًّا. وشيء ما يخبرني أن طعام قيصر كان رائعًا، ولكنه بالتأكيد كان لينبهر بـ (الشيش طاووق) و(الكريم كراميل)!

أي أن قيصر الذي غزا العالم كان سيموت من الصدمة لو علم أن أقل موظف في مجلس الدولة يعيش عيشة أهنأ مما عاشها فعلًا. وأنه سيأتي على الناس زمان يتنعّمون فيه بالكثير من المتع الجديدة تمامًا والتي لم يفكر فيها أسلافهم!

يذكر العالم الأمريكي (جاليوس روبرت أوبنهايمر) أن التقدم التكنولوجي الذي حدث في آخر ٤٠ عامًا يفوق التقدم الذي حدث في آخر ٤٠ قرنًا. زادت المسافات المتاحة للإنسان من $١٠^{١٠}$ إلى $١٠^{٤٠}$، والحرارة من $١٠^{٥}$ إلى $١٠^{١١}$، والضغط من $١٠^{١٠}$ إلى $١٠^{١٦}$.

لو نظرت إلى حال البشرية ككل لوجدت أننا في (عصر النعيم)! عصر سادت فيه أدوات الراحة، وقلت فيه الكثير من المشقة. عصر قد ظهر تفضّل الله علينا بتعليمه البشر الكثير من أسرار المخترعات والمكتشفات الحديثة كما فعل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من قبل مع داوود عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ**﴾ (الأنبياء ٨٠). عصر قد مكننا الله

فيه من البنيسلّين، والديجيتاليز، والأتروبين! عصر قد منّ الله علينا فيه بالمحرّكات والترانزستور والستالايت! عصر زاد فيه ظهور منة الله على الإنسان، وظهور حنانه، وظهور رحمته.

الإنسان مدلل، لأن الكون لا يتصرف معنا بحجمنا الحقيقي! إنه التمكين الذي هو في الحقيقة أكبر من قدرنا المنطقي! والتسخير الذي هو واحد من مظاهر وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإرادته في هذه الحياة. كما يخبرنا القرآن فيقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية ١٣). ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك ١٥). ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (الأنعام ١٦٥).

١٨

الإنسان القيّم

"إذا لم يكن الله موجودًا فالإنسان غير موجود، بالنسبة لي فهذه مثل مسلمة إقليدس، لا تحتاج إلى برهان، وفوق كل اعتراض"

علي عزت بيجوفيتش

هل لاحظتَ من قبل في رواية (أوليفر تويست) أن (تشارلز ديكنز) كان يريد أن يقول ببساطة أن: (العرق دسّاس يا جماعة)؟! حسنًا، لقد لاحظ عالم الأحياء التطورية (ريتشارد لوينتون) ذلك.

وصف (ديكنز) الطفل الفقير (جاك دوكنز) بأن له أنفًا أفطس، وحاجبان مستويان، وعين ماكرة، ووجه كوجه العامة، ناهيك عن أن إنجليزيته لم تكن جيدة. أما الطفل (أوليفر تويست) فبرغم أنه تم إذلاله في ملاجئ الأيتام طوال حياته إلا أنه طفل شاحب نحيل، أسلوبه راقٍ، روحه صلبة، وبرغم أنه لم يعلمه أحد قواعد اللغة إلا أن إنجليزيته كانت مثالية بالطبع! وفي النهاية نكتشف (غموض) الرواية. لقد كان (دم) تويست هو دماء الطبقة الراقية، فجده ضابط بحرية ووالده غني. وهكذا، لقد فهمنا كل شيء!

هناك رواية شبيهة لجورج إليوت وهي (دانيال ديرونيدا) حيث ينزع الشاب إلى حب كل ما هو يهودي، ويتم تفسير ذلك في نهاية الرواية: أمه كانت يهودية! وفي رواية (روجون ماجارت) نجد حبكة مشابهة، ويقول مؤلفها (إميل زولا) في مقدمتها: «للوراثة قوانينها كالجاذبية».

كانت الثورات تقوم تحت شعار (المساواة للجميع) برغم أن الكل كان يعرف أن هذا الشعار لم يكن صحيحًا في أي زمن، إلا أنه من الصعب حشد الناس للقتال تحت شعار (المساواة للبعض)، يذكرنا ذلك بمزرعة حيوان (أورويل) التي كتبت فيها الخنازير أن جميع الحيوانات متساوية إلا أن بعض الحيوانات أكثر مساواةً من البعض! كانوا يدّعون أنهم يزيلون الحواجز الظالمة بين الطبقات ومن ثم يتساوى الجميع. ولكن لا يتساوون في النتائج ولكن في الفرص. حيث يحصل الجميع

على فرص متكافئة، ولكن لأننا في الحقيقة غير متساوين فإن هذا سوف يبين الحواجز البيولوجية اللازمة على حد تعبير (ريتشارد هرنستين) عالم النفس من جامعة هارفارد أكبر منظّري الحتمية الجينية.

الحتمية الجينية تعني أننا في مجتمع هرمي بطبعه، وأنه من المستحيل التساوي في المكانة الاجتماعية، وأننا محكومون بطبيعتنا الوراثية. باختصار: العرق دسّاس، لا تتعبوا أنفسكم.

ولكن هل هذا صحيح؟ هل نحن نساوي جيناتنا؟

إن الدراسات البيولوجية الحديثة وضّحت أن صفات الكائنات الحية تتأثر بالجينات ولكنها أيضًا تتأثر بدرجة الحرارة والرطوبة والتغذية والروائح والمشاهدات والأصوات (التعليم). بل إن عدد الشعيرات تحت جناحي ذبابة الفاكهة غير متساوٍ عن اليمين والشمال مما أثبت نوعًا من (ضجيج النمو) ويعني أنه أحيانًا تحدث اختلافات عشوائيَّة في نمو الخلية وتقاسمها.

هناك من الدراسات ما يتتبع التوائم المتماثلة التي نشأت في ظروف مختلفة، وهي دراسات معشوقة لدى علماء النفس والبيولوجيا. فإذا استطعنا إثبات أن التوأم المتماثل المنفصل يشترك في نسبة الذكاء مثلًا، نستطيع أن نثبت أن الذكاء جيني ولا يتأثر بالبيئة. ولكن في معظم هذه الدراسات لا تكون التوائم منفصلة فعلًا، فلربما كان أحدهما مع أبويه والآخر تبنته الخالة. ولربما كانا يشتركان في نفس المدينة أو المدرسة. هناك دراسة واحدة كانت لتوائم منفصلة فعلًا بشكل قاطع وهي الدراسة التي قدمها السير (سيريل بيريت) وأثبت بها أن ٨٠٪ من الذكاء موروث. المشكلة أن الصحفي (أوليفر جيلي) من صحيفة (التايمز) والبروفيسور (ليون كامن) من جامعة برينستون تتبعا دراسة (بيريت) فأثبتا أنه قد لفق أسماء الحالات ونتائج البحث وكل شيء تقريبًا! لقد كانت من أكبر الفضائح في علم النفس والبيولوجيا.

لا توجد دراسات دقيقة لإثبات الحتمية الجينية، في المقابل هناك الكثير مما يمكن أن يقال في عكس ذلك.

ففي ١٩٧٥ نشر (كنج) و(ويلسون) في مجلة Science دراسة شهيرة عن التشابه الجيني بين الإنسان والشمبانزي والذي وصل إلى حدود أكبر بكثير مما كان يتوقعه أي أحد. ولكن في القسم الثاني من دراستهما أبدى المؤلفان تعجبهما من حقيقة أن الاختلافات الظاهرة الجسدية والعقلية بين الإنسان والشمبانزي في الفك والحوض والقدم والدماغ (مما تطلب وضعهما في عائلتين بيولوجيتين مستقلتين) لا تتناسب مع التشابه الجيني الكبير، مما يقترح وجود أنظمة لتنظيم الجينات، ووجود أنظمة أعلى منها لتنظيم هذه الأنظمة! وكل ذلك لا نعرف عنه شيئًا! من الواضح أن الجينات ليست كل شيء!

في سبعينات القرن الماضي نشر (إدوارد ويلسون) كتابه (علم الاجتماع البيولوجي) ونشر (ريتشارد دوكنز): (الجين الأناني)، ومن وقتها صار (علم النفس التطوري) تيمة محببة لدى علماء النفس الذين يرون أن الإنسان لسبب ما قد كيّف (استراتيجيات التجاوب مع البيئة) في العصر الحجري القديم، وأطلقوا عليه (عصر التكيف التطوري)، ثم حدثت بعد ذلك الكثير من الحِقب التي لم يحدث فيها شيء، ثم احتفظنا بنتاج العصر الحجري في أدمغتنا. بالتالي يمكننا أنْ نفسر بالبيولوجيا التطورية سبب الحروب، وعشقتنا للجمال، والخوف من الثعابين، والغيرة، والزنا، وحتى حب القيل والقال.

على سبيل المثال يخبرك هؤلاء بـ (حقائق مختبئة عنك) وهي أن الرجال يحبون الشقراوات الفاتنات. على حد تعبير (ديفيد بيرلنسكي) فإنه لو كانت هذه حقيقة مختبئة عنا، فهي لم تكن مُخبّأة بشكل جيد! يخبرونك أن سبب ذلك أن الرجال كنّ يبحثن عن النساء اللاتي يتمتعن بالصحة ففضلوا تلك التي تمتلك صفات جنسية ثانوية جيدة، يتساءل (بيرلنسكي) إن كان تكيفنا التطوري حدث في العصر الحجري فلماذا لا يبحث الرجال عن النساء ذوات العضلات القوية والظهر المتين والأرجل العريضة إذن؟ كانوا ليَكُنَّ أكثر كفاءة في البحث عن الطعام بالتأكيد.

لذلك كان (ديفيد ستوف) يطلق على (علم النفس التطوري) اسم: «حكايات داروينية خيالية». ويقول (جيري كوين) وهو دارويني ملحد: «هناك ميْل آخذ في التزايد بشكل مزعج من قبل علماء نفس وبيولجيين وفلاسفة لـ (درونة) كل جانب من الجوانب السلوكية للإنسان، لتتحول تلك الدراسات إلى (لعبة) علمية جماعية، إن إعادة تشكيل الطرق التي (يُحتَمل) أن الأشياء تطورت من خلالها ليست علمًا، وإنما مجرد (حكايات)».

فكّر في الإحباط الذي سيملكه من يظن أنه نتيجة حتمية لما يمليه عليه الـ DNA. فكّر في الحسد الذي يمكن أن يأكل قلبه حين يظن أن غيره قد نجح لأنه كان فقط محظوظًا وراثيًا. فكّر في المادية القميئة التي سوف تُعشّش في روح من يظن أنه محض دمية من الماريونيت ترقص على أنغام شفرته الوراثية. فكّر في العنصرية الزائفة والشعور بالتفوق عند من يفترض أنه أفضل من غيره لأنه قد وُلد على الجينات الصحيحة. فكّر في الشعور بالوهن، والركون إلى العجز، والاستسلام قبل بدء الصراع الذي يعاني منه من يظن أن هناك خارطة مُسبَقة لمستقبله مكتوبة داخل خلاياه تجبره على اتباعها.

أنتَ لستَ جيناتك.

أنتَ ذلك الكائن المُتوَج بحرية الاختيار والإرادة حين عرض الله عز وجل ﴿**الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ**﴾ (الأحزاب ٧٢) أنت

ذلك الكائن القيّم الذي خاطبه الله فقال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (المدثر ٣٧) أنت ذلك الكائن المُكرّم بالعقل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء ٧٠).

ملمح آخر من ملامح قيمة الإنسان، وهي في قدرته على إثارة المفاجآت!

على سبيل المثال فقد قسّموا مجموعة من الناس عشوائيًا إلى فريقين وأعطوا أعضاء أحد الفريقين مجموعة من أكواب القهوة، وهذه المجموعة تمثل البائعين، وأما المجموعة الأخرى فتمثل المشترين، ثم طلبوا من كل واحد تقييم سعر بيع / شراء كوب القهوة، فكان متوسط السعر الذي اقترحه البائعون مالكو الأكواب هو ٧,١٢ دولار، ومتوسط السعر الذي اقترحه المشترون كان ٢,٨٧ دولار. أثبتت هذه التجربة أننا نقدّر الأشياء التي نمتلكها بأكبر من حجمها غالبًا.

في تجربة أخرى قاموا بإعطاء مجموعة من الناس أشياء عشوائية، كانت الأشياء المُعطاة لا تتفق غالبًا مع رغبات الشخص الذي أخذها، ومع ذلك فحين سُئلوا إن كانوا يريدون المقايضة أو الاستبدال، أجاب ٧٠٪ بالرفض! من جديد -ولأنهم فقط امتلكوها- صار التخلي عنها أصعب. فهل كان هذا سبب قول الأقدمين بأن عصفورًا في اليد خير من عشرة على الشجرة؟!

التجارب السابقة عصفت بفكرة كانت من المسلمات بالنسبة إليّ، حيث أنني كنت من المؤمنين بأن البشر دائمًا تسعى إلى الشيء الذي لا يمتلكونه ويزهدون فيما لديهم بالفعل، مثلما يقول الإنجليز: «العشب دائمًا أكثر اخضرارًا على الجانب الآخر»، ويقول المثل الكوري: «تبدو كعكة الأرز أكبر وهي في يد الغير».

عقلي البشري -كجميعنا في الواقع- يتوق إلى فهم سلوك الناس من حوله عن طريق تنميطها وتصنيفها وافتراض القواعد والتنميطات. يجعلنا ذلك نشعر بالاطمئنان، كوننا نستطيع في المرة القادمة أن نتنبأ بأفعال الناس طالما يسيرون حسب القاعدة التي نعلمها. لذلك نشعر بعدم الارتياح الذي يورثه مقدار أكبر من الحكمة يعلمنا بأننا حين نأتي إلى تصرفات البشر، فالقواعد النمطية تخيب تمامًا في كثير من الأحيان.

لاحظ الفيلسوف البريطاني (چوليان باجيني) أن هناك قانونًا في الحكمة الشعبية أن لكل مثل مثلًا مضادًا، فلدينا: «من يضحك أخيرًا يضحك طويلًا»، ولكن: «الطائر المبكر يصطاد الدودة»! نقول: «من يتردد يضل طريقه»، ومع ذلك فـ: «كل الأشياء تأتي لمن ينتظرون»!

«عقلان أفضل من واحد» ولكن: «كثرة الطهاة تفسد الحساء». و«العقول العظيمة تفكر بطريقة متشابهة» ولكن: «ما يظنه شخص ما لحمًا قد يكون سمًا بالنسبة للآخر». وبالطبع: «الوقت ليس متأخرًا أبدًا» وبالرغم من ذلك: «لا يمكنك أن تعلم كلبًا عجوزًا خدعة جديدة»!

جزء كبير من احترام الناس هو في احترام تفرّدهم واختلاف تجاربهم الشخصية، حينما تجد من يتحدث بثقة شديدة عن رؤيته للكيفية التي ستمر بها الأحداث لأنها (حدثت من قبل)، أو تجد من يتشبث بأحد المشاهير الناجحين ليرجوه بأن يقص قصته ليقتدي بها، أو تجد من يعمم أحكامه على طائفة معينة فقط لأنهم متشابهون، فهؤلاء جميعًا اشتركوا في أنهم لم يحترموا تفرّد وذاتية النفس البشرية بالقدر الكافي!

هل تذكر لما تحدثنا عن أنك لستَ جيناتك؟ فهاكَ قاعدة أخرى، أنت لستَ الآخرين أيضًا! لا يجب عليك أن تفشل لأن من كانوا في ظروفك فشلوا، لا يجب عليك أن تثق في نجاحك كذلك فقط لأن هذا من المفترض أن يحدث! لا يوجد شيء من المفترض أن يحدث، طالما أنت إنسان فبداخلك مخزون لا ينبض من المفاجآت التي يمكنك أن تفجرها لنا، يمكنك ببساطة أن تثبت في أي لحظة خطأ حكيم صيني عاش في قرن ما أطلق مثلًا وقاعدة لتكسرها أنت لأنك كنت أكثر تعقيدًا من أن تحتويك مجموعة من الأمثال والقواعد.

هل يوجد شيء محفز لصنع الأشياء العظيمة أكثر من علمك بأنه لا يوجد أحد يمكنه أن يتوقع ما ستفعله؟!

عرّف (ألبير كامو) الإنسان بأنه ذلك الحيوان الذي يرفض أن يكون كذلك! ومن وجهة نظر (هوايتهايد) فهذا الإنكار وهذا الرفض العظيم هو جوهر الموقف الديني.

قدرة الإنسان على التمرّد، على تخطي المألوف، على تجاوز المُتوقع، على شق طريقه الخاص وسط غابات المقلدين هو ما جعل له كل هذه المسئولية الفردية التي قررها القرآن كأشد ما تكون، فيقول سبحانه: ﴿**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ (الإسراء ١٥)

❧

في بعض العيادات في الهند المختصة في الفحص المبكر لجنس الجنين، تعلق لافتة: (ادفع ٦٠٠ روبية الآن ووفر خمسين ألفًا فيما بعد)! والمقصود أنك سوف تجري الفحص بـ ٦٠٠ روبية، فلو كان الجنين أنثى فيمكنك أن تجهضها، وتوفر خمسين ألفًا ثمنًا للمهر فيما بعد (في الهند فالنساء هم الذين يدفعون المهور للرجال). والسؤال الآن: لماذا أُصِبتَ بالاشمئزاز الآن من هذه اللافتة؟!

لماذا يحتفظ الإنسان بقيمته من حيث هو إنسان؟ لماذا نلاحظ أن كل ما يتعلق بمشاعر الإنسان العزيزة، بمآثره الملحمية، بذكرياته الغالية، كل ذلك غير عقلاني ومع ذلك هو أهم لدينا من الأشياء العقلانية التي تخصه؟ لماذا يصبح الملك شخصية ثانوية في الرواية التي يقدر خادم البيت أن يكون بطلها لما سلط الكاتب الضوء على عالمه الداخلي الثري؟ لماذا لاحظ الفيلسوف البولندي (بوجدان سوخودولسكي) أنه بجانب التاريخ السياسي للأشياء فهناك تاريخ آخر للإنسان؟ ذلك الذي يتحدث عن المُثُل والدين والفلسفة والفن والأخلاق. إنه تاريخ الارتقاء الداخلي للإنسان!

ماذا يمكن أن يحدث للإنسان القيّم حين يفقد قيمته؟ ماذا يمكن أن يحدث حين يصبح سلعة تباع وتُشتَرى في أسواق النخاسة الحديثة؟

أحد تقارير الاتحاد الدولي لحقوق الإنسان ذكرت أنه يوجد في البرازيل حوالي ٧ ملايين فتاة قاصر أعمارهن من ٨ إلى ١٢ سنة يعشن على البغاء! وفي منطقة (دورادوس) حوالي ١٢٠٠ بيت دعارة، أغلقت الشرطة ثلثها فقط لأنه كانت تعمل فيها فتيات تحت سن العاشرة! والرقم الرسمي لعدد اللاتي يعملن في البغاء في مدينة (ريسيفي) هو ٩٠ ألف امرأة يعانين كلهن تقريبًا من الأمراض التناسلية. وحسب وزارة الصحة البرازيلية فهناك ستة ملايين مواطن يعانون من الأمراض التناسلية المنتقلة بالجنس. وكتب المخرج السينمائي (جلوبير روشا) عن هذه المأساة: «تدخل فتيات العائلات الفقيرة إلى عالم البغاء، يبيعهن الآباء ويغتصبهن السادة، وبعد ذلك يلقين حتفهن تحت وطء مرض السل والجوع وطعنات السكين وطلقات الرصاص والأمراض التناسلية».

هناك نوع آخر من سوق النخاسة تعاني منها المرأة وهو الشاشات. في سنة ١٩٧٥ كانت الأفلام الإباحية في فرنسا والدنمارك وألمانيا الغربية تمثل أكثر من نصف مجموع الأفلام المعدة للعرض، وفي باريس وحدها ٢٥٠ دار سينما لعرض الأفلام الإباحية. لذلك تأسست في النرويج عام ١٩٨١ (مجموعة العمل ضد الإباحية والدعارة)، ويقول منظرو هذه الحركة أن أعظم خطر على البشرية بعد خطر القنبلة الهيدروجينية هو خطر الإباحية.

ولئن كانت الإباحية هي النظرية، فالاغتصاب هو التطبيق، كما جاء في إحدى بيانات الحركات النسوية المعارضة للإباحية. فهناك خمسين ألفًا من حالات الاغتصاب يُبَلّغ عنها سنويًا في ألمانيا الغربية، وحوالي ٢٥٠ ألف حالة في الولايات المتحدة. وتظهر البيانات أن حالات الاغتصاب أكثر انتشارًا في بلاد الحريات الجنسية بحوالي مائة ضعف من البلاد المحافظة!

حذّرنا القرآن من ذلك، فذكر مخاطبًا الإنسان الذي كرّمه الله عز وجل: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأعراف ٢٦-٢٧). وهو هنا يربط بين تكريمنا وبين زينتنا بالاحتشام وحفظ العورات والعفة.

لماذا ترفض فطرتنا أن تتعامل مع الإنسان على أنه بهيمة تمارس الجنس في أي مكان ومع أي أحد؟ ما سر تلك القيمة التي نكنها لأنفسنا، لأجسادنا، لعوراتنا، لمشاعرنا وعلاقاتنا الشخصية؟ هل يمكن أن يعني ذلك أننا -من داخلنا- نعلم أننا لسنا قردة، لسنا أبناء الطبيعة، لسنا ركامًا من النفايات الناتجة من خشاش الأرض؟

❦

وماذا يمكن أن يحدث للإنسان القيّم حين يجادل أحدهم في قيمته؟ كيف ننظر لهؤلاء الذين يقسمون الناس حسب ألوانهم أو قبائلهم؟

في ١٩٧٤ كُتِبت رواية صينية بعنوان (الحد المائي)، أو حسب ترجمة (بيرل بك): (جميع البشر إخوة). تمت مهاجمة الرواية بعنف لأنها توجه رسالة سلبية في التعليم، لأن مدخلها لا طبقي! وفي المجر في أواخر القرن الماضي أمرت وزارة التربية والتعليم بتصنيف التلاميذ إلى ستة فئات حسب حروف الهجاء وحسب طبقتهم بالطبع. وحتى منتصف التسعينات كانت بعض الكنائس في أمريكا مكتوب عليها: للبيض فقط!

لا نعرف هذه الطبقية في الإسلام، فبتعبير مالكوم إكس فإن الإسلام مصاب بعمى الألوان! لا يفرق بين الناس إلا بمعيار واحد: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (الحجرات ١٣).

ولكن لماذا نستنكر الطبقية من الأساس؟

إن المساواة والإخاء بين الناس ممكنة فقط في حالة كان الإنسان مخلوقًا من الله كما قرر بيجوفيتش! المساواة ليست طبيعة مادية ولكن خصوصية أخلاقية، المساواة نوع من السمو الداخلي الإنساني. أما لو نظرنا للناس ككائنات اجتماعية، أو كأشياء مادية، فإنهم غير متساويين! أخلاقيات أفلاطون خذلته فيما يخص الطبقية، فجمهوريته عنصرية بامتياز! بينما الأديان السماوية فقط هي ما تقرر أن كل البشر أمام الله سواسية. حتى ادّعى (نيتشه) أن الدين كان خدعة من الضعفاء لخدعة الأقوياء بألا فرق بينهم.

إذا لم يكن الله موجودًا فإن الناس ليسوا متساويين!

❦

الإنسان ذو القيمة لم يكن ليحصل على قيمته لولا أنه صنيعة الله عز وجل، لولا ذلك لكان علينا أن نندهش ثم نعترض على تلك المكانة الخاصة التي يفترضها لنفسه في العالم. تلك القيمة التي تستمد مصدريتها و(استمرايتها) من الله سبحانه. من جوار الله سبحانه!

يشرح لنا القرآن ذلك بهدوء وبسلاسة، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ (التين ٤-٦).

﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ**﴾؟!



١٩

الوعي البشري

"كمبيوتر المستقبل سيكون قادرًا على عمل كل ما يقوم به الإنسان فيما عدا أمرين، أن يكون متدينًا وأن يكتب شعرًا"

الشاعر السوفييتي/ فوزنسكي

لو احتجنا أن نضحّي بقربان بشري على أن نستبدله بذكاء اصطناعي متطور، فمن سوف نختار؟ نادل (جرسون) كافيتريا اللواء على طريق سوهاج؟ أم نادل كافيتريا (زعفرانة هاوس) على طريق الغردقة؟!

في البداية دعني أعرفك على المتسابقيْن، نادل كافيتريا الزعفرانة الفاخرة مهذب، أنيق، يرتدي ملابس نظيفة، يتحدث ثلاث أو أربع لغات، يحفظ قائمة الطعام الطويلة عن ظهر قلب، يسجل كل ما تقوله له بدقة في مذكرة صغيرة، ولا يؤخّر عنك طلباتك، ولا يخلط أبدًا بين أنواع الـ (ستيك) المختلفة.

على اليسار يقف نادل كافيتريا اللواء الفقيرة، شاب تعيس أشعث، قائمة الطعام فيها ستة أصناف فقط ولا يبالي بحفظها، يشير بكسل للورقة المُعلّقة على الحائط لتختار منها ويقف في الركن يراقب بصمت دخولك للكافيتريا، يستمع إلى طلبك ولا يحرك ساكنًا حتى يلاحظ أولًا إن كنت قمتَ بدفع حساب الوجبة مسبقًا أم لا، يميّز تمامًا المكان الذي اخترته بعدها للجلوس وسط عشرات الطاولات المتشابهة، ويتكلم بصوت خفيض مميز للعامل في المطبخ بالكود الخاص بوجبتك، دعك من أنه سوف يتأكد أولًا من مظهرك إن كنت من أرباب (البقشيش) أم مسافر فقير آخر لن يبالي به.

المفاجأة أن الذكاء الاصطناعي سوف يحل محل الأول بسهولة وبكفاءة منقطعة النظير لكنه لن يقدر أن يحل محل الثاني أبدًا!

يخبرنا قانون (مور) أن قدرة الحاسوب تتضاعف كل عامين، قدرة هاتفك المحمول الحاسوبية الذي تحمله الآن بين يديك أكبر من قدرة كل أجهزة ناسا مجتمعة عندما قامت بوضع أرمسترونج على سطح القمر عام ١٩٦٩. تطور الحاسبات كان واعدًا ومبشرًا للغاية، وعندما تغلب حاسوب IBM (ديب بلو) على بطل العالم في الشطرنج (جاري كاسباروف) عام ١٩٩٧ كان هذا نصرًا كبيرًا للحاسوب. لكن سرعان ما تبين أن التجربة لم تخبرنا شيئًا حول الذكاء أو الوعي! وكما عقّب عالم الحاسوب (دوجلاس هوفشتادتر): «يا إلهي! اعتقدتُ فيما مضى أن الشطرنج يحتاج إلى التفكير، لكنني أعلم الآن أنه لا يتطلب ذلك»!

لفهم ذلك يمكننا أن ننظر بعين الاعتبار إلى المثال الذي ساقه فيلسوف اللغة (جون سيرل)، تخيل أنك تجلس في غرفة مغلقة ومعك كتاب ترجمة الكلمات الصينية، بحيث يمكنك أن تبحث فيه بسرعة فائقة. والآن تخيل أن أحدهم يسألك سؤالًا بالصينية، فتقوم أنت بترجمة ما يقول والرد عليه ببراعة. هل يعني ذلك أنك تفهم حرفًا في الصينية بالفعل؟ يحاجج سيرل بأن الروبوتات تستطيع فقط أن تتحكم بشكل أعمى في رموز من دون أدنى فهم لما تعنيه، حيث هناك فرق كبير بين بناء الجملة وبين دلالة ألفاظها، هو ذات الفرق بين القاموس وديوان الشعر!

لذلك فإن أكثر الروبوتات تطورًا الآن (مثل روبوت هوفر على سطح المريخ) تملك ذكاءً أقل من حشرة! وأحد أنجح المحاولات لصنع روبوت ذكي كان محاولة (رودني بروكس) لصنع روبوت COG وهو ما كان يطمح لأن يصل إلى ذكاء طفل في الشهر السادس من عمره. وقد باء للأسف بالفشل في ذلك.

حين يدخل روبوت إلى غرفة مليئة بالأثاث فهو لا يرى مقعدًا وطاولة، ولكنه يرى مجموعة من الأشكال والمنحنيات ويحاول أن يفسرها، وكما يقول بيل جيتس، فإن حتى القدرة على التفرقة بين باب مفتوح ونافذة يمكن أن يكون في منتهى الصعوبة بالنسبة إلى الروبوت. وفي مختبر الذكاء الاصطناعي في الـ MIT تعجز الروبوتات عن أن تقلد إنجازات الصراصير، مثل التحرك في غرفة مليئة بالأثاث والعثور على أماكن للاختباء، أو حتى إدراك الخطر، تذكر أن إنجازًا كهذا تقوم به ذبابة الفاكهة بكل سهولة وفي الأبعاد الثلاثة، تلك التي لا يحتوي دماغها على أكثر من ٢٥٠ ألف خلية عصبية.

أما الدماغ البشري، فهو يحوي ٤٠٠ ألف ضعف العدد الذي يحويه دماغ ذبابة الفاكهة من الخلايا العصبية!

الدماغ البشري، ذلك الكائن المعقد. في الحقيقة هو أكثر تعقيدًا مما تتخيل. فالمائة مليار خلية عصبية التي تتكدس في جمجمتك يمكنها أن تخزن كمية من المعلومات والأفكار الممكنة يساوي

٢ مرفوعة للأس مائة مليار في كل توليد عقلي مُتخيّل، وهو رقم فلكي غير معقول، أو على حد تعبير العالم الفيزيائي (ميتشيو كاكو) أنه أكبر كم من المعلومات يمكن تخزينه في مجرة درب التبانة ككل! وأما الحاصل على نوبل (ديفيد هابل) فرأيه أن شبكة الخلايا العصبية «لا نظير لها من ناحية التعقيد في الكون المعروف بأسره». ويقول (لويجي أجناتي) من جامعة مودينا: «إن الخلية العصبية ذاتها على درجة من التعقيد كعالم مصغر قائم بذاته». ويقول (توماس بوجيو): «إن الخلية العصبية ليست نوعًا من الترانزستور كما كان يُعتقَد حتى وقت قريب، وإنما هي معالج دقيق حقيقي».

والجميل أن العقل البشري يفعل كل ذلك باستهلاك كمية من الطاقة لا تتعدى العشرين واط! أي نفس كمية الطاقة التي تستهلكها (لمبة السهّاري) أمام باب حمام بيتك!

وبالعودة إلى سؤالنا الأول، أي النادليْن سوف نختار؟ فيخبرنا المستقبليون أن علماء الحاسوب والصنّاع المهرة والمحاسبين بل وحتى الجراحين، يمكن أن يتم استبدالهم سريعًا بالذكاء الاصطناعي في المستقبل، تلك المهام التي تعتمد على الدقة وحساب الاحتمالات وسرعة التصرف. بينما عمال النظافة ورجال الإطفاء ربما لن يمكن استبدالهم أبدًا، لأن ما يقومون به يعتمد على النماذج، فكل قطعة نفايات أو نار مشتعلة هي تجربة جديدة، لا يمكن للروبوت إدراكها أبدًا ما لم تتم برمجته عليها مسبقًا!

وذلك لأنه مهما تطور الذكاء الاصطناعي لن يمكننا أبدًا أن نتجاوز عقبة (الإدراك والترميز) التي يتميز بها ذلك الوعي الذي أعطاه الله لنا حين خلق الله آدم فعلمه الأسماء كلها، ليكون شاهدًا على علم الله وحكمته وقدرته وإحاطته بكل ما يتعلق ولا يتعلق بهذا الكون، وبالحركات والسكون، والخلايا والظنون. ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ (البقرة ٣١-٣٣).

***

ما هو الوعي؟ ما هو الوعي فعلًا؟ الإجابة ليست سهلة كما تتصور. فالفيزيائي (ليونارد مولدينو) -والذي يشارك (ستيفن هوكنج) في كتابة كتبه الأخيرة- قد ذكر في أحد اللقاءات التليفزيونية أنه لا يوجد تفسير فيزيائي للوعي، ولم يجد عند أحد من العلماء تعريفًا للوعي.

كان الوعي البشري صداعًا بالنسبة إلى (ألفريد والاس) أيضًا. تذكر أن (والاس) قد توصل إلى نظرية الانتخاب الطبيعي في نفس الوقت الذي توصل فيه داروين إليها، وكلاهما كان قلقًا من

نظريته. ولكن بينما كان داروين قلقًا من نظريته لأنه كان يظن أنها صحيحة، كان والاس قلقًا لأنه كان يظن أنها مخطئة!

كتب (والاس) في ١٨٦٩ مقال: (السيد تشارلز لايل حول المناخ الجيولوجي وأصل الأنواع) أوضح فيه أن الوعي البشري -مع جملة من السمات الجسدية الأخرى للإنسان- هو من أكبر الألغاز التي واجهته، حيث أنه في رأيه (أكبر) و(أعقد) كثيرًا مما يتطلبه الإنسان للبقاء! إنه وكأنك تعطي حارس بيتكم سلاحًا نوويًا ليحرس البوابة من دخول الأغراب! وهذه المفارقة عُرِفَت باسم (مفارقة والاس). لماذا كل هذا الوعي المعقد في حين كنا نحتاج على الأرجح إلى ذكاء أعلى قليلًا من القردة العليا كي يتفوق الجنس البشري على بقية الأحياء الأرضية؟ وانتهى والاس في النهاية باعتبار الوعي نفحة من نفحات الإله، واستثنى الإنسان من سلسلة التطور بالانتخاب الطبيعي.

يذكرنا ذلك بالفيلسوف الملحد (توماس نيجل) والذي كتب كتاب (العقل والكون، لماذا التصور المادي النيو دارويني للطبيعة يكاد يكون خطأً قاطعًا؟). كان كتابه غريبًا، إذ إنه ملحد ويرفض التفسير المادي للطبيعة! وفي الحقيقة ما دفعه لذلك هو ثلاثة ألغاز لم يجد لها تفسيرًا ماديًا: الوعي، والإدراك، والقيم.

التفسير المادي للوعي شبيه بتصور الطفل عن مكان وجود المذيع في شاشة التلفاز. بالنسبة له هو داخل هذا الصندوق لأنه يراه صادرًا منه! هكذا ينظر الماديون إلى الوعي: لابد أنه بطريقة ما (محشور) في أدمغتنا! حتى وإن كنا لا نملك كبير معرفة عن كيفية حدوث ذلك!

كما صدّرت دورية (دراسات الوعي) الأمريكية Journal of Consciousness studies مقدمتها بثلاثة لأسئلة، كان أول سؤال منها: كيف يمكن للعقل أن يتصل بالدماغ؟

وفي حين يظن بعض العلماء أن مقدمة الجبهة في القشرة الدماغية في الإنسان هي المسئولة عن تشكيل وعيه، كان للعالم (داماسيو) رأي آخر، حيث نشر في ٢٠٠٢ دراسة بعنوان: (Humans and Great Apes share the same large frontal Cortex) وهي كما تبدو من العنوان تذكر أن كلًا من الإنسان والقردة العليا يشتركون في ذات القشرة الدماغية الأمامية، فلماذا تميز الإنسان عنها بوعيه المعقد إذن؟!

عدم ثبوت ارتباط الوعي البشري بالدماغ من المفترض أن يهدم أطروحات الإلحاد من أساسها، أو على الأقل من المفترض أن يمنح الملحدين قدرًا كبيرًا يستحقونه من الشكوك وعدم التيقن، كما ذكر داعية الإلحاد الأكبر (ريتشارد دوكنز)، في حوار له مع (نك بولارد): «من جهة المبدأ إن كانت الذات شيئًا مغايرًا للدماغ فينبغي أن تعيش بعد أن يتعفن الدماغ».

الجميل أنه في ذات الحوار، سأله (نك) إن كان يوافق على مقولة (سوزان لاكمور) التي كتبت في مجلة (الشكاك): «أعتقد أن فكرة أننا موجودون مجرد وهم، فكرة أن هناك (أنا) في الداخل تتخذ القرارات والفعل وهي مسئولة هي مجرد وهم كبير ضخم». كان تعليق (دوكنز) على هذه المقولة الجريئة: «أنا سعيد حتمًا بأننا نتاج لأدمغتنا، وأنه متى ما ماتت فإننا نزول، القول بأن مفهوم (نحن) مجرد وهم هي طريقة جيدة للتعبر عن الفكرة، ولكني لا أتمنى أن ألزم نفسي بالقول بأن شعورنا بأنفسنا مجرد وهم. بالتأكيد أشعر أن ثمة (أنا)!!».

بمعنى آخر فإن دوكنز يريد أن يقول: لا يوجد أي إنسان يمكن أن يدّعي أن شعوره بذاته وهم، ولكننا لا نملك أية فكرة عن كيفية شعور الدماغ المادي بذاته وإدراكه لوجوده، لذلك فإنني سوف أقول كلامًا طويلًا كعادتي ينقض آخره أوله كي لا أضطر إلى الاعتراف بهذه الحقيقة المحرجة بالنسبة إليّ.

في الحقيقة فإننا مع فكرة الإلحاد أمام معضلة ثنائية من النوع الممتاز، فإما أن يكون وعينا البشري غير مادي، وهذا يعني أن ثمة تدخل إلهي ما، وإما أن ندّعي أن وعينا مادي بالكامل، وقتها سيكون علينا أن نجيب على عدة أسئلة.

أولها، كيف يمكن للدماغ المادي أن يدرك وجود ذاته؟ كيف يمكن إدخال الوعي في نطاق الفيزياء أو الكيمياء؟ يقول أستاذ الفيزياء (برايان بيبارد) في جامعة كامبريدج: «المستحيل بالتأكيد هو أن يُطلَب من فيزيائي نظري مُسلَّح بحاسوب ذي قدرة غير محدودة، أن يستنتج من قوانين الفيزياء أن بنية معقدة ما، هي بنية تعي وجودها!»، ويعلق الفيزيائي الملحد الشهير (ستيفن واينبرج) على هذا فيقول: «أعترف أنني أجد في هذا الموضوع بالغ الصعوبة وليس عندي خبرة بأمثاله».

ثاني الأسئلة التي يجب علينا أن نجيب فيها على سؤال العقل المادي هو: كيف يمكن لنا أن ندرك التجريد؟ كيف يمكن للعقل المادي أن يتخيل، مجرد تخيل، وجود شيء مُجرّد غير مادي؟ كيف يمكن للعقل المتناهي المحدود أن يتخيل وجود شيء غير متناهي وغير محدود مثل (الله)؟ إن سؤالًا كهذا كان من العمق بمكان أن دفع (ديكارت) أشهر شكّاك في التاريخ إلى الإيقان بوجود الله عز وجل.

وأما ثالث الأسئلة وأهمها، فهو كيف لنا إن كان دماغنا ماديًا أن نثق به؟!

عبّر (داروين) عن هذه المعضلة في رسالة له إلى صديقه (وليام جراهام) بتاريخ ٣/ ٧/ ١٨٨١: «ينتابني دائمًا شكٌ فظيع حول ما إذا كانت قناعات عقل الإنسان والذي بدوره تطور من عقول كائنات أدنى تتمتع بأية قيمة أو تستحق أدنى ثقة»!

ويقول فيلسوف الوعي الملحد (توماس نيجل) السابق ذكره: «قيام الفرضية التطورية نفسها على العقل يجعلها تطوق نفسها بنفسها».

أو كما ذكر المفكر الأيرلندي الشهير -صاحب سلسلة روايات نارنيا إن كنت قد سمعت عنها- (كليف لويس): «لنفترض أنها مجرد ذرات داخل جمجمتي تعطي ناتجًا ثانويًا يسمى فكرًا، إذا كان الأمر كذلك، كيف أثق أن تفكيري صحيح؟ ولكن إذا لم أستطع أن أثق بتفكيري، فلن أستطيع أن أثق في الحجج التي تؤدي إلى الإلحاد، وبالتالي لا يوجد سبب لأكون ملحدًا أو أي شيء آخر، إلا إذا كنت أؤمن بالله»!

نحن هنا أمام مفارقة: يجب عليك أن تؤمن بوجود الله حتى تستطيع أن تثق بعقلك قبل أن تنكر وجود الله! لذلك كان يقول الأستاذ (عبد الله الشهري): «سيظل الإلحاد حالة مُفرّغة ومفردة معطلة عن أية دلالة ما لم يكن هناك ما يمكن الإلحاد به».

إن ذلك قريب فعلًا من قول الله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ (يونس ٣٥). أي كيف تُسوّي بين القائم بذاته المقيم لغيره في دلالتهم وكنههم ووجودهم وهدايات سعيهم، وبين خلقه الذين لا يهتدون إلا أن يُهدَوا؟!

❧

هناك لغز آخر يواجه القائلين بتطور الوعي البشري، وهي كيف نفسر ذلك الترابط والتناظر بين وعينا ووعي أجدادنا الذين عاشوا قبل آلاف السنين؟

إن هناك فرقًا بيّنًا بين ما تركه الأقدمون لنا من علوم الحضارة وبين ما تركوه لنا من فنون الثقافة المختلفة. حيث سجّل لنا (بيجوفيتش) تلك المفارقة بين (طبيعيات) أرسطو والتي يذكر عنها (راسل) أنه في ضوء العلم الحديث لا توجد منها جملة واحدة صحيحة! وبين (ميتافيزيقياته) والتي تعتبر العصر الذهبي للفلسفة!

فلك (بطليموس) عفا عليه الزمن مثله مثل طب (جالينوس)، بينما الدراما الهلّينية، وأشعار (هوميروس)، وكتابات (شيشرون) الأخلاقية، ومسرحيات (يوربيدوس)، وملحمة (المانيوشو) اليابانية و(المهابهاراتا) الهندية، أثبت الزمن أنهم لا يزالون يصلحون لتجلي الوعي البشري في جمال وانسجام عبر الأزمنة والحضارات.

ذكر هنري سيمل في مؤتمر علوم الحفريات سنة ١٧٦٠ في (نيس) أن رسوم إنسان (نياندرتال) الذي عاش في الكهوف منذ ٧٠ ألف سنة بيّنت أنه كان يعيش نفس الحالة النفسية التي يعيشها

الإنسان الحديث. وفي باريس سنة ١٩٦٦ تم إقامة معرض لفن حضارة المايا الأمريكية، حيث انبهر الزوار من جمال المنحوتات المعروضة، وعلى حد تساؤل أحدهم: «كيف انبثق هذا الفن في القرن الرابع من غابات (بيتن) و(شياباس)»؟!

ويقرّ (بابلو بيكاسّو) الفنان الأسباني الشهير أنه أدرك دلالة فن الرسم ومغزاه من الأقنعة الأفريقية القديمة المنحوتة من الخشب، كما ذكر معظم الفانين المعاصرين مصادر إلهامهم والتي كانت في معظمها من الثقافات القديمة في أستراليا وأفريقيا وأمريكا. وفي معرض (البدائية في القرن العشرين) الذي أُقيم في متحف الفن الحديث بنيويورك سنة ١٩٥٨، تم عرض الأعمال الفنية الأوروبية الحديثة جنبًا إلى جنب مع أعمال فنانين مجهولين من دول أقل تقدمًا. بينما وُجِدَت رسوم الإنسان القديم والتي يعود الكثير منها إلى ٣٠ ألف سنة في (ألتاميرا) بإسبانيا، و(لاسكو) بفرنسا، و(ماشكا) ببولندا!

إننا متصلون بأجدادنا عبر الأزمان، وبإخواننا في البشرية عبر القارات والحضارات المختلفة، لا يمكن فهم ذلك في نطاق الوعي / الدماغي المتطور ببطء، حيث كان من المفترض أن نتجاوز فلسفات أرسطو أو قصائد امرؤ القيس، في المقابل نجد لدينا نوعًا من (الجنسية الإنسانية) التي تربط الجميع بمشكاة واحدة، مشكاة يمثل فيها الوعي البشري أكبر الألغاز وأجمل النفحات الإلهية، فتذكر لنا السنة أن الله قد خلق آدم على صورته، ويذكر لنا القرآن أن الله قد نفخ في آدم من روحه: ﴿**ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾ (السجدة ٩).

ඏ

ماذا عن اللغة؟

يرى الأستاذ إلياس بلكا ألّا شيء يميز الإنسان عن غيره من الكائنات بعد الخصوصية البيولوجية أكثر من اللغة، اللغة هي وسيط بين الإنسان والوجود، نسق من الرموز يصنع له قالبه الاجتماعي والثقافي، لذلك يقول (بول ريكور): « الغاية الأولى لفلسفات اللغة هي إيضاح نظام الرموز الوسيط بين العالم والإنسان».

اللغة هي وسيلة امتلاك الإنسان لعالم خاص به وفي نفس الوقت خارج عنه! فيقول فيلسوف اللغة الألماني (هامبولت): «اللغات هي تصورات للعالم، فبقدر تعددها واختلافها تتعدد صور العالم وتختلف» وهو هنا يوضّح لنا العلاقة البيّنة بين الوعي الإنساني واللغة التي تمثل مرآة له. لذلك كان كثيرًا ما يجادل (نعوم تشومسكي) فيلسوف اللغة الشهير بأن نشأة اللغة لا يمكن أن يتم بمنأى عن إله. بينما كان يرى (جون سيرل) فيلسوف اللغة الأشهر أن اللغة هي علامة التميز التي يمتلكها الوعي البشري عن أي ذكاء اصطناعي محتمل.

ففي القرآن يوضّح الله لنا لغز اللغة، فيقول سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم ٢٢)، ويقول: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة ٣١).

ෆ

وماذا عن تلك المساحة الداخلية الشاسعة للخير والشر ؟ الإنسان القادر على ارتكاب أفظع الجرائم وأنقى التضحيات، ذلك الذي يحمل بداخله أسمى معاني الخير وأقذر الطباع الغدّارة ويترك له المجال لاختيار أيهما يفعل.

الإنسان المتمرد على طبيعته الحيوانية الطيّعة الجبرية فنجده يشرئبّ بعنقه إلى ما وراء حدود بيئته أو النطاقات المرسومة لأفعاله، يتمرد على السلطة وعلى مجتمعه وعلى ثقافته بل وحتى على أوامر الإله ذاتها!

إن الله وحده هو القادر على خلق وعي يتمتع بالحرية! يمكننا أن نلمح هذه المعجزة في بداية سورة الإنسان حين يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۞ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان ٢-٣).

ෆ

الطفل حين يصل إلى مرحلة (لماذا) المزعجة يكون تجسيدًا للوعي البشري الفضولي الذي عرف أن سؤال (لماذا) المستمر هو سمة من مسات منطق التفسير الذي اكتشفه منذ الطفولة على حساب راحة أبويْه، وكل من لديه طفل في السادسة من عمره يعرف أن كل إجابة له عن سؤال (لماذا) تنتج (لماذا) أخرى، وهكذا إلى أن تجن. كما اعترف فيلسوف العلم الملحد (بيرت لبتون): «أتذكر بوضوح لحظة اتضح لي أنه مهما كانت إجابة أمي عن آخر (لماذا) أقولها، فبإمكاني ببساطة أن أرد بأن أسأل (لماذا) عن الجواب نفسه، وهكذا حتى تنفد أجوبة أمي أو ينفد صبرها».

عانى العلماء والفلاسفة نفس معاناة الأطفال، فقد لاحظ الفيلسوف (برتراند راسل) أن الأسئلة البسيطة التي طرحها العلماء تبيّن لهم حين حاولوا الوصول إلى أجوبتها أنها أسئلة أساسية وليست بسيطة. وكان المثال الذي طرحه راسل على تلك الملاحظة هو ذلك السؤال الذي يسأله الأطفال جميعًا، وهو سؤال: «لماذا السماء زرقاء؟».

أول مرة تم توجيه هذا السؤال لي أجبت بتلقائية شديدة: «لأنها تعكس لون البحر»، ثم قلت لنفسي بعدها: بل العكس أيها المتخلّف، الصراحة أنني لم أقل ذلك لنفسي ولكن قاله لي من حولي. وهم محقون بلا شك.

بعدها عرفت أن السماء زرقاء لأن اللون الأزرق هو أكثر الأطوال الموجية في اللون الأبيض معاناةً لظاهرة التشتت الضوئي Scattering، أي أن ضوء الشمس الأبيض (يتبعثر) منه اللون الأزرق أكثر من غيره من الألوان فنرى السماء زرقاء.

لكن -وبالعودة إلى ما قاله راسل- تبين أن هذا لا يجيب عن السؤال ولكنه يطرح المزيد من الأسئلة، مثل: لماذا اللون الأبيض به سبعة أطوال موجية مختلفة لسبعة ألوان؟ لماذا يعاني الضوء من ظاهرة التشتت الفيزيائية حين يصطدم بذرات الغبار البسيطة؟ كيف تتعرف شبكية أعيننا على اللون الأزرق أصلًا؟ وما هو اللون؟ هل هو خدعة من المخ لتفسير ترددات موجات الضوء المختلفة؟ وهل الواقع المشاهَد موجود فعلًا أم أنه محاولة تفسيرية من الوعي لفهم المحيط المادي كما تقول المدرسة الشكوكية Skeptical ؟!

وهكذا كان سؤال الأطفال البريء عن سبب لون السماء بأنها زرقاء سببًا لمجموعة أخرى من الأسئلة، تقود لمجموعة ثالثة من الأسئلة، وهكذا، حتى نجد أنفسنا نصل إلى التساؤل عن الوجود والعدم والمادة والوعي والمقارنة بين مدارس أرسطو وأفلاطون! وإلى آخره من الجدال الوجودي الذهني Intellectual الذي يعتبره البعض مقدسًا لا تجوز الحياة إلا به، ويعتبره البعض محض هراء يأتينا من أناس لا يسدّون منافذ روحهم بما يكفي من لحوم الضأن. وعلى الأرجح فكلا الفريقين مصيب بطريقة ما!

الخبرة البشرية الفلسفية ليست صلبة تمامًا، بل تعتمد على قاعدة ملخلخة تتساءل طوال اليوم عن وضعها القانوني وعمّا إذا كان موثوقًا بها أم محض اختراع، وتفسيراتنا للواقع ليست نهائية لأن التفسيرات دائمًا تحتاج إلى تفسيرات ولأن مجرد كلمة الواقع تحتاج إلى عدة مجلدات ضخمة فقط لاحتواء الجدل الموجود حول صحتها، وفي اللحظة التي نرتاح فيها من عناء البحث عن الجواب تكون عقولنا في مرحلة قفز إلى تساؤل جديد، وابتكار لسلسلة أخرى تمتد مثل أخواتها إلى ما اللانهاية.

كان (عبد الله الشهري) يرى أن الكون بالنسبة إلينا هو كون إنساني لأنه يشد انتباه العقل الإنساني ويسترعي اهتمامه، والعقل يكون في أحسن أحواله وأجود صوره حين ينفتح على أسئلة المعنى والغاية والمآل.

لربما لهذا كان السلف يعتنون بالتفكر ويعتبرونه بمثابة بوابة رحبة غير مزدحمة للوصول إلى الله عز وجل. فكان (إبراهيم بن أدهم) يقول: «الفكرة مخ العمل، وكان (سفيان بن عيينة) يقول: «الفكرة نور تدخله إلى قلبك»، وأما (يحيى بن معاذ) فكان يرى أن «أبناء الدنيا يجدون لذة الكلام، وأبناء الآخرة يجدون لذة المعاني»!

في كون من التساؤلات الممتدة في وعينا البشري إلى اللا حدود كالفضاء السرمدي، في واقع تشوبه النسبية والتشكك في كل شيء تقريبًا، في وجود أوسع من معارفنا وأضيق من وعينا البشري! في عالمٍ كهذا يصير وجود الحقيقة المطلقة الكائنة بذاتها ضروريًا ليس فقط لاتساقه ولكن لاستيعابنا له أصلًا! كما عبر (جيروم كارل) الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء فيقول: «مفهوم الإله هو خلاصة أسمى خبرة يمكن أن يتصورها الإنسان في وجوده»

تلك الحقيقة القادرة على أن تزن كل الأمور النسبوية العائمة، وتحدّ كل غياهب التفسيرات الشاردة، وتثبت وجود كل تلك الأشياء التي تفتقر إلى غيرها لإثبات وجودها! في ضوء ذلك يمكننا أن نستوعب حجم المعنى الكامن في قول الله عز وجل: ﴿**فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**﴾ (يونس ٣٢).

أنّى تُصرَفون بالفعل؟!

٢٠

القيم

"لو كان بإمكان الشمبانزي أن يصف ما يميز الإنسان

لأشار أولًا إلى أنه الكائن الذي يقتسم الطعام مع الآخرين"

عالمة الأنثروبولوجي/ جلينا إيزاك

اليابانيون يرون أن المرأة الجميلة لا بد أن تكون دقيقة القدمين وضيّقة الخطى، ويُفضّل أن تكون قصيرة القامة. الأمريكيّون يختلفون في الرأي بشدة، فالمرأة الجميلة لديهم طويلة القامة وشقراء. ومعنى هذا أن المرأة الأمريكية الجميلة لن تساوي أربعة جنيهات في دول وسط وجنوب أفريقيا الذين يعتبرون صفار الشعر عيبًا أو عقابًا إلهيًا، في المقابل هم يعشقون المرأة شديدة سواد البشرة التي تدل على جمال أصلي المنشأ، وعرق شديد الصفاء. أهل الإسكيمو لن يبالوا بكل هذه الأشياء لأن أصل الجمال عندهم في الرائحة!

تنقل لنا الميثولوجيا الإغريقية عادة قطع النساء الأمازونيات للثدي الأيمن، واعتاد شعب البانو في أوقيانيا أن يثقبوا جمجمة الوليد الصغير بأسنان سمكة القرش، وفي قبيلة المانجيتوس في زائير يربطون عصبيات حول رأس الوليد لتستطيل جمجمته، وعند الإنكا كانوا يضعون حلقات معدنية في ثقب شحمة الأذن حتى تصل الشحمة إلى الكتفين، بينما عند المايا كانوا يستجملون المرأة الحولاء! فيضعون كرة من الراتنج بين العينين للبنت الصغيرة حتى تصبح آنسة حولاء جميلة.

عند أهل الموزمبيق اعتادوا أن يخلعوا الأنياب والقواطع لأنها قبيحة، وأما الداهميون فكانوا يبردون كل الأسنان لتصبح أنيابًا لأنها عندهم جميلة. وقبيلة بادونجر كانت تحب أن تحوّل نسائها إلى زرافة بوضع أسطوانات معدنية حول أعناق الفتيات تبدأ من طول ١٠ سنتيمترات إلى ٤٠ سم. وحتى القرن التاسع عشر كانت المرأة الموريتانية تشرب ٢٠ لترًا من حليب الناقة يوميًا في الأيام التي تسبق الزواج حتى تهدي زوجها الجديد عشرة كيلوجرامات من السِمنة التي يعشقها!

لم نتفق على مواصفات تفصيليّة واضحة للجمال إذن. المسألة نسبيّة في معظم هذه التفصيلات.

هناك جوانب أخرى لـ (نسبية). في الفن اليوناني القديم نجد أعلى التطور في النحت والمسرح ولا نجد أثرًا للموسيقى. وخلال العصر الرومانتيكي في أوروبا احتل الشعر الصدارة في الأدب، بينما في القرن التاسع عشر تصدرت الرواية المشهد. كما بعض الأمم كانت تفضل نوعًا من الفنون على مدار معظم تاريخها بشكل لافت، الموسيقى عند الألمان، والشعر عند الفرنسيين، والنثر عند الروس، والرسم عند الأسبان والإيطاليين.

بالمثل يمكنك أن تجد مواصفات (الظرافة) تختلف من ثقافة لأخرى، السينما الألمانية الصامتة، والـ (سيت كوم) الأمريكي، والـ (ستاند أب) البريطاني، والمشّخصاتي المصري. كل هذه وسائل قد جادت بها المخيّلة البشريّة لإضحاك الناس. اختلاف الثقافات لا يعني فقط اختلاف (الخلفيّة) المفترضة للنكتة، ولكن أيضًا يعني الاختلاف الكبير في الوسيلة المفضّلة لتلقّيها. مرة أخرى نتعامل مع مسألة كنا نظن أنها عالميّة الذوق ثم تبين أنها نسبية تمامًا!

العديد من الأشياء التي تعتبرها مقاييس عامة ومتفق عليها للأشياء يتبين لك أنها عامة فقط في المحيط الذي حولك. بينما نجد أن قيم الحرية والصدق والوفاء والعدالة والعطف على الفقير والإحسان إلى الناس هي قيم مشتركة فعلًا بشكل تام بين جميع البشر، إنها شفرة مكتوبة بعناية يسير عليها كل هؤلاء دون خلاف يذكر!

ما سر ذلك؟

دعونا نجيب عن هذا بطرح ثلاثة أسئلة: هل هناك قيم مطلقة وأخلاق موضوعية في العالم؟ ومن أين أتت؟ وهل يمكن تفسيرها بمنأى عن وجود الله؟

CSSD

هل هناك أخلاق موضوعية في العالم؟ دعنا نبدأ بالتساؤل عن هذا أولًا.

عندما يُسأَل الملحدون عن هذا فهم يقعون في ورطة، لو قالوا: نعم توجد أخلاق موضوعية مطلقة في العالم، فسيكون علينا أن نسأل: من أين أتت؟ فالسلوك الأخلاقي إما أنه لا معنى له، وإما أن له معنى يتمثل في وجود الله. وأما لو قالوا: لا، لا توجد أخلاق موضوعية ثابتة، فهم بذلك يجوّزون أن يفعل الإنسان أي شيء، وينسفون الأساس القِيَمي لمعاني الخير والشر. وقتها سيلفظهم الجميع ببساطة مثلما حدث لـ (ديفيد سلفرمان)!

في المناظرة التي جمعت ديفيد مع (فرانك توrليك)، صرّح ديفيد بأمانة بما يوافق عقيدته الإلحادية، وقال: «لا وجود لقيم أخلاقية ذات طبيعة موضوعية مطلقة، وجميع ما يتبناه المرء من قيم هي أمور نسبية إضافية». فأُلزِمَ بلوازم هذه النظرة، فسُئِلَ عن تعذيب الأطفال وأكلهم، فقال: «لا بد أن نواجه مثل هذه الأسئلةَ الصعبة»!

فبحسب هذه الرؤية، لا يوجد أي شيء خاطئ في أن تغتصب أو تقتل، كما عبر دوكنز عن ذلك بصراحة فقال: «العلم الطبيعي ليس لديه طريقة للحكم على ما هو أخلاقي. إن هذه المسألة متروكة للأفراد والمجتمع». وقال: «ما الذي يمنعنا من القول بأن هتلر كان على صواب، أعني هذا سؤال صعب فعلًا»! ولما سُئِل: «اعتقادك أن الاغتصاب أمر سيء هو اعتباطي تمامًا كحقيقة أننا تطورنا بخمسة أصابع بدلًا من ستة؟» قال: «نعم، تستطيع قول ذلك».

كيف يمكننا أن نعيش في مجتمع مع رجل ملحد يؤمن بهذه الأفكار؟ وعلى حد تعبير سام هاريس الذي كان يقول أن بعض الأفكار من الخطورة بمكان ما يجعل من الضروري معاقبة أصحابها، وكان يقصد بالطبع المسلمين. إلا أن كلمته بالفعل تنطبق على هذه الحالة، كيف يمكنني أن أثق في جاري الذي يسكن بجوار أطفالي إذا كانت هذه هي فكرته عن الأخلاق والقيم؟ ربما لذلك قال فولتير اللاديني: «أريد من امرأتي وخادمي وخياطي أن يؤمنوا بالله لكي يقل غشهم لي»!

إنها المعضلة التي عبر عنها (ديفيد بيرلنسكي): «بما أنه لا وجود لحقائق مطلقة، فلا وجود لأخلاق مطلقة. من هذين الموقفين، لا أحد يؤمن بالأول، ولا أحد مستعد للعيش مع الثاني! هذا بالضبط هو المأزق الذي نجد أنفسنا فيه».

يمكننا أن نفطن إلى حجم هذه المعضلة من التأمل في كلمة دوكنز التي ذكرها في لقائه على الجزيرة الإنجليزية: «أنا ضد الداروينية ولا أطيقها حين يتعلق الأمر بحياتنا». هو هنا لديه مجموعة من القيم (الفوْقية) التي تجعله يحكم على الداروينية (الطبيعة) بأنها لا تُطَاق ولا تصلح لحياتنا. فمن أين أتت هذه القيم المتعالية؟ إنها لا تتناسب مع الإلحاد مطلقًا ولا تتوافق مع مادية الإنسان. لذلك كان يقول (عبد الوهاب المسيري): «الفلسفة الهيومانية في الغرب بتأكيدها القيم الأخلاقية المطلقة، تعبير عن الإله الخفي، وعن البحث غير الواعي من قبل الإنسان المادي عن المقدس». ولربما هذا هو معنى كلمة (بيجوفيتش) الشهيرة: «يوجد ملحدون على خُلُق، ولكن لا يوجد إلحاد أخلاقي»!

كتب أفلاطون: «يسأل سقراط: هل الحسن حسن لأن الله أراده كذلك؟ أم أنه جعله حسنًا لأنه حسن؟» بمعنى آخر، وتعالى الله على ذلك، هل يمكننا أن نقول أن الله (شرطي) ينفّذ القانون الأخلاقي؟ أم أنه هو الذي سنّ هذا القانون؟ وهل يمكننا أن نتصور على الله أن يأمر بالقتل والاغتصاب مثلًا؟

هذه أزمة فلسفية كبيرة بالمناسبة وليست هيّنة أبدًا، ما سببها؟ سببها أن القيم الأخلاقية اكتسبت قدرًا من الإطلاق يجعلنا لا نتصور -مجرد تصور- أن تكون الأمور على خلاف ذلك.

ﻡﻢ

ننتقل إذن إلى السؤال التالي، من أين أتت هذه القيم؟ ولماذا تكون مطلقة؟ ولماذا هي متجاوزة للزمان والمكان؟ لماذا لا يمكنك أن تتصور أن بعض الكائنات المخلوقة على مجرة أندروميدا سوف تفترض أن الأمانة والصدق صفات قبيحة؟ لماذا لا يمكنك أن تتخيل أن يتوافق الناس على حسن السرقة أو الغش في الألفية العاشرة؟

كيف يمكن للطبيعة أن تنتج تصورات فوق طبيعية؟ وكيف يمكن للمادة أن تطلق أحكامًا موضوعية غير خاضعة للمادة؟ وما سر الارتباط بين عالم الحسن والجمال الاستاطيقي، وبين عالم القيم والأخلاق؟ فما معنى قولك أن الوفاء (جميل)؟ أو أن الخيانة (قبيحة)؟

تساءل (هيوم) إن كان يمكن اشتقاق (ينبغي) من (يكون). ولكن هذا غير ممكن. لا تعرف الطبيعة (ينبغي)، لا تعرف غير (يكون). إن عالميْ القيم والحقائق منفصلان. وكما يقول (مارتن لوثر): «إن الأمر لا يعني أن ٥+٣ ينبغي أن تكون ٨، ولكن لأنها في ذاتها تساوي ٨». إن الطبيعة لا تعترف بما ينبغي أن يكون، ولكن بما هو كائن.

الأخلاق هي ثغرة في العالم المادي، ثغرة في الطبيعة، ثغرة معرفية وزمنية وقِيمية وعقلية، حتى تساءل أستاذ علم الأخلاق الإنجليزي (برنارد ماندفيل): «ما أهمية الأخلاق لتقدم المجتمع والتطور الحضاري؟» وأجاب بعدها نفسه: «لا شيء! بل لعلها تكون ضارة».

لو كنا أبناء المادية الخلّص لكان من المفترض ألا نحتاج إلى الأخلاق كي ننشيء الحضارة والتطور، لأنها بالفعل ضارة ومعطّلة، ولكن العكس هو الذي حدث، كمثال على ذلك تأمل في الشيوعية.

جاء في المانيفستو الشيوعي أن الأخلاق مجرد خدعة برجوازية، فبالتالي لقد تخلت عنها البروليتاريا (طبقة العمال الكادحة) بلا رجعة. ثم في المؤتمر الدولي الثاني للشيوعية تمت مراجعة هذه النقطة، حيث أكد على بعض الأخلاق الهامة للبروليتاريا، مثل: العدالة الاجتماعية.

ولأن الأخلاق بالفعل ضارة ومعطلة للحضارة المادية، فقد رجع لينين إلى قواعد المانيفستو ليؤكد: «الاشتراكية العملية في مجملها ليس فيها ذرة من الأخلاق». ولكن لسبب ما -سوف نعرفه بعد قليل- لم ينجح معه ذلك، فعاد واقترح: (نسبية الأخلاق)، بمعنى آخر: سوف نأخذ من الأخلاق ما يفيد نصر البروليتاريا فقط، وهذا سوف يكون تعريف الأخلاق بالنسبة لنا. وهو ما

تبناه (ستالين) من بعده بطبيعة الحال فأكد للناس أن تقوية النظام البوليسي (القمع) والتوسع في العقوبات (الإعدامات الجماعية) هي من الوسائل الداعمة لنصر البروليتاريا فبالتالي هي أخلاقية تمامًا. لا تقلقوا، سوف نقتلكم بأخلاقنا كاملة!

وفي الصين وكوريا الشمالية اضطرّت الشيوعية إلى استعارة بعض الأخلاق من الأديان مثل خلقي التواضع واحترام كبار السن، واهتمت الحكومات الشيوعية بنشر هذه القيم وسط الناس. بالطبع تحول التواضع إلى (الانسحاق)، واحترام كبار السن إلى (تأليه رأس الدولة)، لكن ما علينْا من ذلك.

ما الذي حدث؟ ولماذا اضطرّت الشيوعية في (تطبيقها) إلى مخالفة (تنظيرها)؟ لماذا وجدت أنها تحتاج إلى الأخلاق برغم أنها رفضتها أيديولوجيًا؟

الفكرة أنه كان يسيرًا بالنسبة إلى أشهر فيلسوف مادي (ماركس) أن يذكرنا بضرورة رفض الأخلاق والمثاليات لأننا بذلك سوف نعود لمشابهة الأديان، كان هذا يسيرًا بالنسبة له لأنه قابع في مكتبته في ألمانيا يؤسس لأيديولجيته مع إنجلز. بينما الذين حاولوا أن يطبقوا الشيوعية بالفعل في روسيا والصين، وجدوا أنهم لا يستطيعون أن يعلنوا هذا بالسهولة نفسها، بل بالعكس، كي ينشئوا مجتمعًا ويحافظوا عليه يحتاجون إلى أن يطالبوا الناس بالمزيد من (البذل) و(التضحية)، بالمزيد من (الوفاء) لقيم الشيوعية، بالمزيد من (الإخلاص) لمبادئ المانيفستو. باختصار كانوا يحتاجون إلى أخلاق جنودهم كي يقيموا إمبراطوريتهم التي يزعمون أنها ترفض الأخلاق!

وعلى ذكر ماركس، فبالمناسبة، لماذا احتاج (ماركس) إلى ابتداع نظرية الاغتراب (Alienation) والتي هي نظرية إنسانية أخلاقية في مجملها؟

نفس ما حدث بالنسبة إلى الفيلسوف المادي اليوناني (أبيقور) والذي اشتهر بتأسيس مذهب اللذة والسعي إليها، فنجده ينصح تلامذته بأن ينالوا قسطًا من الـ (أتاراكسيا) وهي هدوء العقل والتأمل الروحي والتمتع المعنوي بالبعد قليلًا عن اللذات! لقد ناقض أبيقور نفسه مثلما فعل من بعده لينين وماركس.

فالسؤال الحقيقي كما وضّح (بيجوفيتش) «ليس ما إذا كان الملحد المادي من حقه أن يعظ باسم الإنسانية والأخلاق، وإنما السؤال هو هل يمكنه أن يفعل ذلك ويبقى على ما هو عليه في حدود المذهب المادي لا يبرحه»؟!

لذلك لما يُسأل الملحدون المعاصرون عن السؤال (الأنطولوجي) للأخلاق، يهربون منه للسؤال (الإبستمولوجي) للأخلاق! بمعنى آخر: بدلًا من أن يجيبوا: كيف ظهرت هذه القيم الموضوعية المطلقة في عالم المادة؟ يجيبون بدلًا من ذلك عن سؤال لم يسأله أحد: كيف لنا أن نعرف ما هي القيم الصحيحة وما هي القيم الخاطئة؟

وهو الأمر الذي لاحظ الأستاذ (عبد الله العجيري) أنه تكرر في مناظرة (كريستوفر هيتشنر مع فرانك توريك) ومناظرة (كريستوفر هيتشنز مع وليام لين كريج)، ومناظرة (لورانس كراوس مع وليام لين كريج)، ومناظرة (دان باركر مع ترينت هورن).

الأمر كما يقول (إيمانويل كانط) -والذي أسس رؤيته الفلسفية في إثبات وجود الله، لا على العقل (الذي هو عنده مجرد عقل عملي قائم على التجربة) ولكن على الأخلاق: «شيئان اثنان يملآن العقل بإعجاب ومهابة متجدديْن ومتزايديْن كلما كررنا النظر فيهما، الأفلاك المرصعة بالنجوم، والقانون الأخلاقي فينا».

في الحقيقية، فإن وجود القيم الأخلاقية السائدة المطلقة دليل مستقل على وجود الله، كما عبر عن هذا الدليل الأستاذ (عبد الله العجيري): لو الله غير موجود، فالقيم الأخلاقية الموضوعية غير موجودة، وبما أن هذه القيم المطلقة موجودة، فالله موجود.

الأمر بهذه البساطة!

***

ينقلنا هذا إلى السؤال الثالث والأخير: هل يمكن تفسير هذه القيم المطلقة بمنأى عن الله عز وجل وعن دينه؟

عند (زينون الرواقي)، فالأخلاق هي الزهد، وهو كان طبيعيًا، واعتبر أن الزهد هو انسجام مع الطبيعة. ولكن الحقيقة أن الزهد عكس ذلك، هو مناقضة الطبيعة.

ربما كان (أبيقور) أكثر اتساقًا مع الذات، فقد كانت الأخلاق عنده هي صراع اللذة والألم، الإنسان يهرب من الألم إلى اللذة، ومع الوقت صار هذا بالنسبة له يعني الخير والشر! وطوّر مذهب اللذة من بعد ذلك (هولباخ) في العصر الحديث.

أخذ (سام هاريس) الملحد المعاصر الشهير مذهب اللذة بعد أن صبغه بالصبغة التي يعشقونها جميعًا: العلم التجريبي. وكتب كتابه: (المشهد الأخلاقي، كيف يمكن للعلم التجريبي أن يحدد القيم الإنسانية؟). وفكرته باختصار: ما يرتقي بعافية الإنسان هو الأخلاق الصحيحة، وما يتعارض معها فهو القيم الفاسدة.

هناك تصورات داروينية شبيهة للأخلاق، مثل كتاب (مايكل شرمر): علم الخير والشر، وكتاب (روبرت هايند): لماذا الجيد جيد؟ وكتاب (مارك هاوزر): عقول أخلاقية، وكتاب (روبرت بكمان): هل بإمكاننا أن نكون صالحين بدون الله؟ وهو عنوان الكتاب الذي لا بد أنه ذكرك بما قلناه قبل قليل من أن الملحدين يتعمدون الهروب من السؤال الأنطولوجي للأخلاق إلى السؤال الإبستمولوجي لها.

ما نسيه هاريس ورفاقه هو أن يوضحوا لنا ما هو الدليل على أن معيارهم صحيح؟ في عالم ينفون فيه وجود القيم المطلقة فلا توجد من باب أولى المعايير المطلقة، لا يوجد صواب وخطأ أصلًا. وهذا هو ما دفع (ريتشارد دوكنز) الملحد الأكبر إلى الاعتراف بذلك في كتابه (وهم الإله): «ليست جميع الأحكام المطلقة مُستمَدّة من الدين، ولكن من الصعب جدًا الدفاع عن القيم الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين»!

وللفيلسوف (باسكال) تفسير أوضح لهذه المعضلة: «الإنسان يبقى عاجزًا عن معرفة الخير الحقيقي والعدل بمعزل عن الإيمان». وأما الفيلسوف البريطاني (سايمون بلاكبيرن) فيقول: «إن المشكلة عبارة عن إيجاد مساحة للأخلاق أو إقامة الأخلاق في النظام اللا أخلاقي والمجرد من السحر (يعني الدين والماورائيات عمومًا) الذي نعيش فيه».

حتى هؤلاء الذين يدّعون محاولة إيجاد أساس إخلاقي بعيدًا عن الدين تجدهم يضطرون إلى مناكفة الدين في دعواهم، لماذا تفعل ذلك؟ بمعنى آخر: لماذا يرتبط الدين والأخلاق في ذهنك لا شعوريًا فتحاول دفع ذلك؟ يلخّص (بيجوفيتش) الموقف كعادته: «في تاريخ علم الأخلاق لا يوجد عمليًا مفكر جاد لم يكن له موقف من الدين، إما عن طريق استعارة الضرورة الدينية كمبادئ للأخلاق، أو عن طريق محاولة إثبات عكس ذلك».

***

كيف أجاب القرآن إذن عن سؤال الأخلاق والقيم؟

وضح لنا القرآن الإجابة عن أول الألغاز: لغز القيم الأخلاقية المطلقة التي وجدناها في الوجود: الله هو من وضعها في الأرض حين خلقها: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**﴾ (الرحمن ٧ -٨). والله هو الذي خلق فينا هذه القيم، وفطرنا على هذه الأخلاق: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (النحل ٩٠).

وضح لنا القرآن لغزًا آخر وهو لغز الاطّراد التاريخي على الأخلاق، والإجماع الإنساني عليها، بطريقة أخرى: كان هذا من بقايا وحي الأنبياء على مر العصور.

مثل الوصايا العشر في سفري التثنية والخروج في التوراة التي تتحدث عن الحقوق المادية مثل السرقة والزنا والقتل وشهادة الزور والشهوة، والتطويبات ومواعظ الجبل في الإنجيل والتي تتحدث عن السمو الروحي الأخلاقي مثل: (طوبى للمساكين بالروح، فإن لهم ملكوت السماوات – طوبى للرحماء فإنهم سيُرحمون – طوبى للجياع والعطاش إلى البر فإنهم سيشبعون... إلخ).

كل هذه القيم التي جاء بها الأنبياء من قبل محمد ﷺ، وصنعت ذلك الإجماع الإنساني الفريد، حدثنا القرآن عنها، فقال عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام ١٥١-١٥٣).

كمثال على ذلك تأمل في خلق يسير: أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك.

تجده عند (طاليس) أحد الحكماء الإغريق السبعة الذي سُئِل: كيف تحقق حياة أكثر استقامة، فقال: «عندما لا نفعل ما نستهجن فعله من جانب الآخرين». وتجده عند (بيتاكوس): «لا نفعل ما نؤنّب الغير على فعله». وتجده عند معلم الصين (كونفوشيوس)، وعند (فيثاغورس): «ما لا أريد أن أفعله بنفسي لا أفعله للآخرين». وتجده عند (شيشرون) الروماني: «كل ما تأخذه على الآخرين ينبغي أن تتجنب فعله أنت نفسك». وتجده عند (هيليل) اليهودي الفلسطيني: «ما لا تريد أن يُفعل بك لا تفعله بجارك». وتجده عند (كانط) الألماني في العصر الحديث: «اعمل فقط وفقًا لمبدأ تريد أن يكون قانونًا عامًا».

فهل يمكنك ألا تلاحظ أن ذات الحكمة قد نبه عليها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما ذُكِرَ في إنجيلي (متى) و(لوقا): «افعل بالآخرين ما تحب أن يفعله بك الآخرون». أو محمد ﷺ في الحديث الذي رواه عنه البخاري ومسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»؟!

لذلك كان يقول (ابن تيمية): «إنه ليس في الأرض مملكة قائمة إلا بنبوة أو أثر نبوة، وإن كل خير في الأرض من آثار النبوات».

فتجد كل نبي (يتمم) ويكمل أخلاق الناس التي أسسها الأنبياء من قبلهم في وجدان الناس، ويجد الناس لها أثرًا في فطرتهم التي تصرخ بالقيم المطلقة التي لا يستطيعون منها فكاكًا. فهذا نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول كما في إنجيل متى: «لا تظنوا أني جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء، ما جئت لألغي بل لأكمل». وهذا نبي الله محمد ﷺ يقول كما روى مالك في الموطأ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

يحدثنا القرآن عن ذلك، فربطت سورة يس بين النبوة وبين الاهتداء فقال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يس ٣-٤) وذكّر مؤمن آل ياسين قومه بتلك الحقيقة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس ٢٠-٢١) ويذكّرك القرآن بخلاصة دعوة نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (هود ٨٨). ويذكر لك ما كانت مهمة أتباع الأنبياء في كل زمن ومكان: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ (هود ١١٦).

القرآن، وبصفته كتاب من عند الله عز وجل الذي فطرنا على القيم الحميدة والأخلاق يأتي متسقًا مع ذاته جدًا في هذه الحقيقة، فيذكر لنا أبو حامد الغزالي في كتابه (جواهر القرآن) أن عدد الآيات التي تدعو إلى الأخلاق النظرية في القرآن ٧٦٤ آية، وعدد الآيات التي تدعو إلى الأخلاق العملية ٧٤١ آية، ومجموع ذلك ١٥٠٥ آية. يعني ربع آيات القرآن في الأخلاق! كما يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء ٥٨). ويتمثل النبي ﷺ ذلك فيكون خلقه القرآن كما ذكرت عنه زوجته عائشة رضي الله عنها. ويخبرنا النبي ﷺ كما روى الترمذي عن أبي هريرة أن: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا».

يخبرك القرآن بإجابة لغز آخر: هل الدين حين يدعو المؤمن به إلى التزام الأخلاق مقابل الجزاء الأخروي هو امتداد لمذهب النفعية كما يزعم (أوجست كونت): «إن كان أي امرئ لا يكون صالحًا إلا لخوفه من غضب الله أو لطمعه في إنعامه، فإنه في الحقيقة لن يكون صالحًا ولا محبًا للخير»؟

يجيبك القرآن على ذلك بأن جعل الله الخير مرادفًا للعمل: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران ٩٢). وربط بين الإيمان والعمل الصالح سواء بشكل صريح أو في معناه في أكثر من خمسين موضعًا. والأهم من كل ذلك أن وضح أن ميزان نجاة العبد يوم القيامة هو في صلاح نفسه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء ٨٨-٨٩).

القرآن لا يرى انفصامًا بين العمل الصالح وبين صلاح هذا الإنسان في ذاته كما يراه كونت. وحقيقة أننا نعمل العمل الصالح في انتظار جزاء الله عز وجل لا يعني أن لدينا الاستعداد للعمل الخبيث لو لم يكن هناك ذلك الجزاء، بل يعني أن الدين في ذاته صالح فلا يقبل من أتباعه ألا يكونوا صالحين.

وأما آخر الألغاز التي يجيبك عنها القرآن في سؤال القيم، هو ذلك الربط القرآني البديع الذي أشار إليه (عبد الله الشهري): ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الجاثية ٢٢). ارتباط غريب بين الأخلاق وبين صورة الكون وبين صورة الإنسان المخلوق على هيئة تمكنه من فهم هذه الأخلاق والقيام بها!

لماذا فطرنا الله عز وجل على تلك الفطرة الصارخة بكل قيمة حسنة؟ ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ (الروم ٣٠).

لأن الله هو مصدر كل الحسن في الوجود! ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود ٥٦).

٢١

المعنى

"إذا كان الله مجرد اسم عابث، إذا كان كل شيء ينتهي بالنسبة لنا بالموت، فلنا أن نتساءل إن كانت الحياة تستحق أن نعيشها"

أوجسط أوت

أكره الذهاب إلى صالة اللياقة (جيمنازيوم) بشدة، وهذه معلومة مخجلة قد أصبحتم تعرفونها عني للأسف، ولا سبيل للرجعة في ذلك. ما السبب؟ كل شيء عندهم -احم- ثقيل جدًا!

وبرغم أن هناك الكثير من الأكدار في الحياة، ما هو أشد بكثير من حمل أكياس البقالة الثقيلة على سلم بيتنا، إلا أنه ولسبب مجهول فعلًا بالنسبة لي، يرتبط حمل الأشياء الثقيلة عندي بالشعور بالعناء، وكنت دائمًا أحتاج إلى أن أذكر نفسي لماذا عليّ أن أفعل ذلك؟ وما معنى كل هذا بالنسبة إليّ؟ فعلى خلاف معظم الآلام، فحمل الأثقال هو ألم اختياري، يمكنك أن تتخلص منه ببساطة فقط لو تركت ما تتمسك به. ربما لذلك تشيع الملصقات التحفيزية في صالات الرياضة! تحتاج إلى الهدف الواضح كي تصبر على ألم اختياري كهذا!

ولا أؤمّل على كل حال أن يفهمني في ذلك أحد، اللهم إلا لو كان (ألبير كامو) الذي اختار (سيزيف) بالذات كي يتحدث عن عبثية الغاية من الحياة!

من هو سيزيف ومن ألبير؟

سيزيف هو ذلك الشاب الأسطوري في الميثولوجيا الإغريقية والذي من المفترض أنه خدع الموت. لذلك حكم عليه (زيوس) بعقاب أسطوري، أن يحمل صخرة إلى قمة جبل، ثم ما إن يصل حتى تقع منه، فيقوم بحملها مرة أخرى صعودًا للجبل، وهكذا إلى الأبد!

أما ألبير كامو فهو الروائي والفيلسوف الفرنسي من أصل جزائري والذي اكتشف في مرحلة من مراحل عمره أهم أفكاره الفلسفية: الإنسان يعيش في حياة عابثة بدون معنى، يشقى ويكابد لا هدف، يعيش ويموت دون أن يملك القدرة على الحكم على حياته إن كانت تستحق أن تُعاش أم لا، تمامًا كسيزيف في حمله للصخرة عابثًا. وحيث أن ألم تحمل البقاء على الحياة يشابه ألم حمل هذه الصخرة الثقيلة إن كان كلاهما نوع من العقاب العابث عديم الجدوى! لذلك ذكر في مقدمة كتابه (أسطورة سيزيف): «هناك مشكلة فلسفية وحيدة في الانتحار، فالحكم بأن الحياة تستحق أن تُعاش يسمو إلى منزلة الجواب عن السؤال الأساسي في الفلسفة».

ولكن (كامو) كان يرى أن على الإنسان أن يدرك أن الوجود عابث مجرد من المعنى ولكن في نفس اللحظة يتمرد على ذلك ويأباه ويثور عليه. ومزيج الشعور بعبثية الحياة ومقاومة ذلك الشعور واليأس من القدرة على المقاومة، كل ذلك يشكل مع بعضه مذهب (العبثية) الفلسفي Absurdism.

لم يكن (كامو) هو الفيلسوف العبثي الوحيد، فقد وضع (سورين كيركيجارد) بذور هذه الفكرة من قبله. كما كان الأديب (صامويل بيكيت) من رموز العبثية أيضًا، والذي كتب مسرحيته (في انتظار جودو) ليجسّد فيها عبثية الحياة من وجهة نظره، حيث تدور المسرحية في إطار حوار ممل غير هادف بين شخصين في انتظار شخص ثالث لن يصل أبدًا!

حين توصل البعض إلى ذلك الظن المرعب: (لا يوجد إله، لا أحد يبالي بنا، لا يوجد هدف أو غاية من الوجود) انقسموا حينها إلى ثلاثة مذاهب. العبثية التي سبق شرحها، والوجودية Existentialism، والعدمية Nihilism.

العدميون مثل (فريدريك نيتشه) يعتقدون أن لا معنى من الحياة وكفى! لا يجب علينا أن نقاوم هذه الحقيقة أو نحاول تزيينها. أما الوجوديون مثل (جان بول سارتر) يعتقدون أن لا معنى من الحياة في ذاتها إلا ما يضفيه عليها الإنسان من معنى، وهو الأمر الذي لا ينطوي على كبير منطق كما لا بد أنكم لاحظتم، فانشق عنهم العبثيّون كما ذكرنا.

يمكن النظر إلى هذه المذاهب الثلاثة على أنها نوع من الاحتجاج على عدم وجود الألوهية! احتجاج على حقيقة أن الإنسان غير ممكن تحقيقه. مثل الكلمة التي وصف بها (سارتر) الموقف: «الإنسان عاطفة تافهة لا جدوى منها». أو مثل تعبير (كامو) في رواية (الغريب): «في عالم خبا فيه الوهم فجأة وانطفأ الضياء يشعر الإنسان بالاغتراب. فلا توجد ذكريات عن وطن مفقود، ولا أمل في الوصول إلى أرض موعودة».

يتضمن ذلك فكرة أن الإنسان والعالم ليس بينهما تناغم. ليسا مصنوعين من ذات المعيار. تتضمن هذه المذاهب الصراخ بحقيقة نعلمها جميعًا ونتجاهلها: كل شيء (تافه) و(عابث) و(عدم) إذا كان الإنسان يموت إلى الأبد! إنها الفكرة التي عبر عنها القرآن: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ (المؤمنون ١١٥).

ﵗﵘ

ذات مرة قال (كارل ساجان): «إننا نجعل لحياتنا معنى بجرأة أسئلتنا وعمق أجوبتنا». نوعيّة هذه الأسئلة العميقة التي نجدها في أنفسنا في نهاية اليوم، واصطلحنا لسبب ما لا أعلمه على تسميتها بالـ Over-thinking هي ما يجعل لحياتنا معنى كما يقول ساجان، ولكنها إن لم يكن لدينا أجوبة عميقة عليها فسيتحول ذلك لنوع من أنواع القلق والدوار، تمامًا مثل ما يحدث في الغرب حيث يشيع عندهم مشكلة (عُصَاب يوم الأحد) Sunday Neurosis حين تعود من عملك في آخر الأسبوع لتراقب الانتهاء المتواصل السريع للساعات القليلة التي سوف تقضيها في راحة قبل العودة إلى العناء مرة أخرى، لذلك فمن الطبيعي أن تسأل: لماذا أفعل كل ذلك؟ وما معنى البقاء على الحياة بالنسبة إليّ؟

ربما الـ Over-thinking والـ Sunday Neurosis هي مجرد تنويعات حديثة لذات الفكرة التي عبر عنها الكاتب الألماني (جان باول ريشتر) تحت اسم (الشقاء الكوني) Weltschmerz أو بالإنجليزية: World-Pain للتعبير عما يشعر به الإنسان الذي يدرك أن الواقع أضيق من أحلامه، وشروره أسبق لأحزانه.

وكتب (مارتن إيسلن): إن أفضل من عبر أدبيًا وبشكل واضح عن خصائص الحالة الروحية للأوروبيين جميعًا هم الكتاب النمساويون». لماذا؟ ما الذي فعله النمساويون؟

نجد أن أشهر كتاب مسرحهم مثل (فولفجانج باور) و(توماس برنهارد) يتحدثون عن ظاهرة (البلادة الروحية) التي تصيب أبطال مسرحياتهم، والناتجة عن عدم إدراك مغزى الوجود الإنساني، ويحاولون ملء هذا الفراغ الروحي بالجنس والمخدرات، رغم وعيهم بأنه لن يفيد، وتنتهي حالة العبثية هذه بالعنف الوحشي في أغلب الأحيان.

ذكر (فيكتور فرانكل) صاحب الكتاب الشهير (بحث الإنسان عن معنى) إحصائية غريبة قامت بها مؤسسة بحثية في جامعة (هوبكنز) وتضمنت عينة من ٧٩٤٨ طالبًا في ٤٨ كلية مختلفة. حيث سُئِلُوا: «ما هو أهم شيء بالنسبة إليك؟». فكانت إجابة ١٦٪ منهم هو: تحصيل أكبر قدر ممكن من المال، بينما كانت إجابة ٧٨٪ منهم: إيجاد هدف للحياة ومعنى لها! فطن (فرانكل) إلى أهمية الشعور بالمعنى للإنسان الذي خلقه الله عز وجل في هذه الحياة هشًا. فأسس لنظرية في علم النفس تهتم بالمعالجة النفسية بالمعنى Legotherapy.

وذكرت صحيفة (الكفاح) الصادرة من بلجراد في يناير ١٩٨٧، أن الطبيب الياباني (جيرو إيتام) سيقوم بقيادة مجموعة من مرضى السرطان للصعود إلى قمة جبل (مون بلون) ليثبت أنه يمكن قهر السرطان بإيجاد هدف للحياة. وهي ذات المجموعة التي كانت تسلقت جبل (توجي) في 1985 وتعرف باسم (جمعية العلاج بالسرطان بأهداف الحياة).

يحتاج الإنسان إلى غاية من حياته، وإلى معنى يدركه لوجوده حتى لا يصاب بالجنون، وقتها فحتى الانتحار -كما بين كامو- لن يقدر عليه لأنه لن يملك القدرة على الحكم إن كانت الحياة تستحق أن نعيشها أم لا.

فيحدثنا القرآن عن (العقلاء) الوحيدين على الكوكب، أو بتعبير القرآن: أولي الألباب. والذين ينظرون إلى هذا الكون فيعلمون أن ثمة شيئًا يقبع في كواليس مغزاه، هؤلاء الذين **﴿يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾** (آل عمران ١٩١)

❧

لو كان للوجود معنى في وجداننا لما أمكن فهم ذلك إلا بوجود الله، ولكن هل للوجود معنى في وجدان الإنسان؟

أشهر فيلسوف مادي (ماركس) قد حوّل رموز المادة إلى رموز معنوية بدون أن يفطن! فلا يمكنك أن تخطئ أن البروليتاريا ورأس المال عنده هي رموز للخير والشر، للحق والباطل. وكما ذكر (برتراند راسل) عنه أن ماركس «كان يبشر بأمل كوني لا يمكن تبريره إلا إذا كان صاحبه من المؤمنين بالألوهية».

وماذا عن الزهد؟ لماذا اتجه الإنسان للزهد؟ ولا يشترط أن يكون ذا دافع ديني بالضرورة. لديك الرواقيون في يونان القديمة، والكلبيّون في روما، والرهبان المسيحيون في صحاري مصر، وفي الهندوسية فالزهد هو القاعدة الثالثة مما يطلق عليه (نياما يوغا). هذا غير كهنة البراهمة والبوذية والكونفوشيوسية والزرادشتية والطاوية والمانوية. كل الأفكار الروحية الديني منها واللاديني حرصت على الزهد. إنها طريقة الإنسان للشعور بذاته في عالم المادة. الشعور بأنه ليس مادة!

وتشير الرؤوس المنحوتة في (جريهون) والتي ترجع إلى ٦٠٠٠ عام قبل الميلاد، أن ناحتها كان يؤمن أن الرأس مستقر الروح، وفي جزيرة (إيستر) ركز ناحتو الرؤوس على الوجه فقط. واهتم جميع الرسامين بتصوير وجه الإنسان، والأهم من ذلك تصوير العالم الداخلي الثري الذي يكمن خلف وجه الإنسان. ولعلك تذكر ما قالوه لنا في المدرسة عن أشهر لوحة في العالم: الموناليزا.

ماذا تعني الفنون؟ ماذا تعني الدراما الإغريقية والأشعار العربية والرسوم الإيطالية والأقنعة الأفريقية؟ كما يقول (بيجوفيتش) فالفن ممكن فقط إذا كان الإنسان مختلفًا عن الطبيعة، إذا كان غريبًا عنها متميزًا، فكل الفنون تحكي قصة متصلة لغربة الإنسان عن الطبيعة، ترينا الإنسان في صورة مثيرة قادمة من المجهول!

وصف (هوبرت) و(موس) طقوس سحر الصيد التي كان يقوم بها الإنسان القديم في بعض القبائل البدائية قبل أن يخرج للصيد، هناك طقوس للتطهير، وطقوس للترشيح، وطقوس للقبول. هناك التمثيل الذي كان يقوم به للفريسة التي يرغب في الظفر بها. هناك المحظورات التي كانت تخضع لها النساء في البيوت أثناء عملية الصيد. هناك رقصات خاصة، وعلامات يجب ملاحظتها، وأحلام يجب انتظارها قبل الخروج للقنص. وهكذا وبدلًا من أن ينشغل الإنسان في هذه القبائل بالإعداد الجسدي كالحيوانات كان يرسم ويصلي ويصوم.

ما الذي جاد به الوعي الإنساني أولًا؟ الشعر أم النثر؟ الإجابة الغريبة أن البشر كانوا أسبق للشعر من النثر! لكن هناك ما هو أغرب أن البشر كانوا أسبق للميتافيزيقا وأفكارها من الفيزيقا ونظرياتها! اهتم الإنسان بعالم ما وراء الطبيعة قبل أن يهتم بعالم الطبيعة المادي. صار العالم واقعيًا فحسب بقدر ما نضفي عليه من صبغات أنفسنا، بقدر ما نجد فيه من المعاني. وعلى رأي أفلاطون: «يكون العالم المادي حقيقيًا بقدر ما يوجد فيه من أفكار».

القرآن يشير لك إلى هذا المعنى البديع! الإنسان بداخله يملك الشعور بالمعنى الكوني الغامض الذي قد جاء من خلف الواقع ومن وراء الاعتياد. ذلك الشعور الذي ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما قال: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ (الروم ٨)!

غير أن هناك من الناس من لا يحب ذلك. فكرة البحث عن غاية للحياة أو معنى لها أمر يثير في نفوس الكثير من الملحدين الجُدد مزيجًا من القلق والتوتر والغيظ والـ (نرفزة)!

لدينا (دوكنز) الذي قال: «ما لدي لأقوله عن سؤال لماذا هو لماذا تظن أن من حقك أن تسأل هذا السؤال»! وفي أحد لقاءاته مع الجمهور الأسترالي سأل أحدهم: «ما الغاية من وجودنا؟» فقال: «هذا سؤال فارغ! ولا معنى له، وأي سؤال عن الغاية لا ينبغي أن يعنينا».

ولدينا (بيتر أتكنز) الذي قال: «سيدي، السؤال بـ لماذا هو سؤال سخيف فحسب»، و(لورانس كراوس): «ينبغي أن نكون حذرين على وجه الخصوص من أسئلة لماذا»، و(ستيفن واينبرج): «إن كلمة لماذا تنطوي على مزالق كثيرة».

وعلى ذكر (واينرج) الذي كان يؤكد أن الكون كلما أصبح قابلًا للفهم أكثر بدا فارغًا أكثر! نجد أنه لم يكن هكذا دائمًا، فقد كان ثاني كتبه (الدقائق الثلاثة الأولى) يبحث عن إمكانية إيجاد هدف للعالم. ثم ذكر في كتابه (أحلام النظرية النهائية) أنه كان متسرعًا حين كان يبحث عن ذلك، فالكون عبارة عن منظومة فيزيائية لا معنى لها، وأن هذا التسرع كان من قبيل «الحنين إلى عالم تسبح فيه السماوات بحمد الله» على حد تعبيره!

لا يسمحون لأحد بأن يسأل لماذا حتى لا يثير اضطرابًا في طمأنينتهم الزائفة التي بنوها لأنفسهم. نتذكر بسهولة عند ذلك قول الله عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ**﴾ (محمد ١٢).

الكون ليس له معنى عند الملحدين، لأنهم سبق وأعلنوا موت ذلك الذي كان يجعل لكل شيء في الوجود معنى! والإنسان جزء من هذا الكون، فالإنسان عندهم ليس له معنى أيضًا.

لذلك كان يقول عالم البيولوجيا السوفييتي (ترونيم ليسينكو): «نحن لا ننجب بشرًا في الاتحاد السوفييتي، ولكن ننجب كائنات حية نقوم بتحويلها إلى طهاة وأطباء وميكانيكيين». وقد كان للغرابة (فخورًا) بذلك الكلام.

وبالطبع فالأدب ليس له عندهم معنى، كما كان سجّان الكاتب الروسي (أندريه سينيافسكي) يقول له: «أود لو أضع الكتاب جميعًا من أول شكسبير وحتى دستويفسكي في مصحة المجانين، إنهم يعترضون سبيل الحياة الطبيعي»! وتحولت عندهم الرواية إلى رواية الإنتاج، وظهر أول نوع (ميّت) من هذا النوع في روسيا على يد (جلادكوف) فكان اسم الرواية: (الأسمنت)!

لا معنى عند من ينكر وجود الله للحس الجمالي Aesthetic، أو الأخلاقي Moral، أو القِيَمي Value-Oriented، أو الإنساني Anthropic، أو الأدبي Ethical، أو العاطفي Emotional. لا يفهم الإلحاد إلا الميكانيكا!

هذا هو ما حدث للشاب الملحد المسكين الذي أرسل إلى (ويليام لين كريج) بعد نشره مقالًا عن معنى الحياة قائلًا له: «لقد دمرت حياتي بروفيسور كريج». فقد اكتشف على حد تعبيره أن العدمية لا يمكن أن تُعاش Nihilism is unlivable.

هذا المصير هو ما نلاحظ أن القرآن حذرنا منه: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (المدثر ١٩)!



ماذا يحدث لحياتي حين تجردني من المعنى؟ حين تعطيني رواية دسمة ثقيلة مثيرة إلى حد ما ثم تمد يديك لتقطع صفحات آخر فصل فيها تاركًا إياي أتساءل عن كل الثغرات التي وجدتها في الحبكة، عن مغزى الذروة وخاتمة الحكاية؟

ماذا يحدث لحياتي حين تجردني من التفسير؟ ماذا يحدث للأسئلة اللزجة العالقة بوعيي كذبابة سقطت في شباك عنكبوت لم يتعمد صيدها قط؟ ماذا يحدث للحيرة التي طاردتنا في محاولات الهروب؟ هل من العدل أن تجردني حتى من إجابات الصدى عن صرخاتي اليائسة في الوادي العميق؟

ماذا يحدث لحياتي حين تنزع منها الفهم؟ حين تخبرني أننا لا نعلم لماذا كنتَ تتألم، لا نفهم ما فائدة الحرمان، لا نملك أية فكرة عن أسباب أوجاعك، والتي لن يسمعها أحد.

هل الركض خلف متع الحياة مفهوم لديك؟ كيف تتفهم الراكضين خلف سراب الصحراء، الباحثين عن الكنز أسفل قوس قزح، الشاربين من مياه البحر المالحة رجاء سد العطش؟

ماذا يحدث لحياتي حين يكون علي أن أنتظر فناءها في كل لحظة؟ البسمة ستتلاشى قبل أن تبدأ لأني لمحت بطرف عيني نهايتها، المرأة الجميلة أراها بعد أن تجعّد وجهها بسنين ثمانين، ويأتيني المجد يتهلل فلا ألتفت له، فالأموات لا يتمجّدون.

تتركني في الحياة القاسية الجامدة تقرصني كما تشاء، وتنزع مني قدرتي على الفهم، على الصبر، على الاحتمال. تنتشل أملي وسعيي وتخبرني ألا جدوى من الانتظار. تفسد ألواني التي صبغتها على الأشياء من حولي. تعبث ببوصلة اتجاهاتي التي لا أعرف طريقي بدونها. تخرّب الثوب المنمّق الذي نسجتُه ليستر عراءها القبيح. تمحو حِكَمي وأمثالي وقيمي التي ارتضيتُها. تسلبني نظرتي نحو الغروب، وابتسامة رضاي حين المَصيبة، ودمعة انكسار دافئة تلذذت باستسلامات ضعفي.

تنتزع أحشاء روحي وتطرحها أرضًا، وتقول هذا غير مهم في الحياة.

وهل من بعده تهم الحياة؟

٢٢

المستحيل!

"كم مرة قد قلت لك، إنك حين تتخلص من المستحيل

فإن ما يبقى لك –ومهما كان مستبعدًا– لا بد أنه الحق"

شِرلوك هولمز مخاطبًا واطسون

في ٢٠٠٣ تم الحكم على ممرضة الأطفال الهولندية (لوسيا دي بيرك) بالسجن مدى الحياة بتهمة قتل أربعة أطفال والشروع في قتل ثلاثة آخرين.

ما الدليل على أنها فعلت ذلك؟ في الواقع لقد قدم الادعاء مجموعة ضعيفة جدًا من الأدلة، وأقوى أدلتهم كان وجود نسبة كبيرة من عقار الديجوكسين في تشريح طفلة منهم تدعى (آمبر) ولكن بشهادة خبراء آخرين في الطب الشرعي فإن تأثيرات مشابهة يمكن أن تحدث طبيعيًا في حالة الوفاة.

الدليل الأقوى الذي أدان (دي بروك) هو الاستدلال الإحصائي القائم على استبعاد أن تحدث كل هذه المصادفات سيئة الحظ من الوفاة الطبيعية لهؤلاء الأطفال في فترة الحياة المهنية لممرضة واحدة في ثلاثة مستشفيات مختلفة! وشهد عالم النفس القانوني (هينك إلفرز) أن نسبة حدوث ذلك طبيعيًا تقترب من ١ في كل ٣٤٢ مليون حالة!

قدم الادعاء وقتها حجة قانونية تُعرف بـ (الدليل القائم على تسلسل الارتباط) ويعني بأن ضآلة الاحتمال الناتجة عن تلك العملية الحسابية تعني أن عبء تقديم الدليل القطعي عند تقييم الحالات كمجموعة ينبغي أن يكون أخف منه عند التحقيق في حالة واحدة. بمعنى آخر، جادلت النيابة أننا لا نحتاج إلى تقديم دليل قوي لإدانتها، فالأرقام الإحصائية قامت عنا بالمهمة! وبناء على ذلك تم إيداع بروك للسجن مدى الحياة وغلق القضية تمامًا.

بعد بضعة سنوات قام فيلسوف العلوم (تون ديركسن) بكتابة كتاب بعنوان: (لوسيا دي بي، إعادة بناء لضلالة العدالة)، وفيه نشر بذور الشك في الدليل الإحصائي الذي أدان بروك.

بعدها قام عالما الإحصاء (ريتشارد جيل) و(بيت جرونيوم) بإعادة الحسابات، حيث وجدا أن هناك الكثير من الأخطاء البدائية تمت في حساب إحصائيات الرقم، من ضرب احتمالات غير مستقلة ببعضها، إلى اصطياد مصادفات ظاهرية في عدد كبير من الأحداث، وبحساباتهما وجدا أن الرقم الحقيقي لاحتمالية حدوث ذلك هو واحد إلى ٢٥. وفي ٢٠٠٧ كتب (مارك بوخانان) في مجلة Nature مقالاً أوضح فيه أن احتمالية حدوث كل هذه الجرائم ربما تكون أبعد إحصائيًا من أن تكون الوفاة طبيعية وصدفة.

قام (ريتشارد جيل) بقيادة حملة جمع ١٣٠٠ توقيعًا من الشعب الهولندي تم تقديمها إلى وزير العدل لطلب إعادة محاكمة بروك. وفي ٢٠١٠ تم تبرئة (بروك) تمامًا وخرجت من السجن وحصلت على تعويضات لقاء سجنها سبعة أعوام بدون وجه حق لتصبح قضية رأي عام بطبيعة الحال.

الرقم الاحتمالي الذي أدان بيرك في نظر القضاة وأودعها السجن مدى الحياة كان احتمالية بعيدة للغاية، ولم يحاجج أحد القضاة بأنهم كانوا مخطئين حين أدانوها استنادًا على هذا الرقم البعيد. تذكر أنه لم يبرئها أصلًا إلا إثبات أن الأرقام في الحقيقة لم تكن كذلك! وهذا الرقم هو واحد من كل ٣٤٢ مليون مرة، أي واحد على ٣ مضروبًا في ١٠ أس ٨.

رقم مجنون بالتأكيد! فهل أنت مستعد لسماع مجموعة من الأرقام الأكثر جنونًا؟!

سأقوم معك بلعبة تشبه ألعاب برامج المسابقات.

خذ عشر قطع من النقود المعدنية والصق على كل واحدة منها رقمًا من ١ إلى ١٠، الآن لديك عشر قطع من النقود كل منها يحمل رقمًا مختلفًا ويتساوون تمامًا في ملمسهم مما يعني أنك لا تستطيع التفرقة بينهم بلمسة يدك. حسنًا، ضعهم في جيبك واخلطهم جيدًا.

المطلوب أن تخرج لي العملة التي تحمل رقم (١). ما احتمال أن تنجح في فعل ذلك؟ لو كنت تصغي لمدرس الإحصاء في الثانوية العامة لعلمت أن هذا الاحتمال هو ١ / ١٠. أي من ضمن كل عشر محاولات (يُتوقع) لك أن تحظى بنتيجة واحدة صحيحة مقابل تسع محاولات فاشلة.

ستحاول، وبعد عدة محاولات تزيد أو تقل عن العشرة ستحصل على عملتك. الآن المطلوب منك أن تعيدها إلى جيبك وتكرر التجربة، ولكن هذه المرة فإني سأطلب منك أن تنزع من جيبك عملتين، بحيث الأولى تحمل رقم (١) والتالية لها مباشرة تحمل الرقم (٢). ما احتمال فعل ذلك؟

في الواقع احتمال ذلك أبعد مما تتخيل، فإن مع كل عشر محاولات للحصول على القطعة الأولى ستكون هذه محاولة واحدة فقط للحصول على التالية لها، ولأننا نحتاج إلى عشر محاولات في العملة الثانية فهذا يعني أننا نحتاج -إحصائيًا- إلى مئة محاولة للحصول على العملتين بالترتيب المذكور.

هذه قاعدة في الرياضيّات والإحصاء، تعني أن التتالي المرغوب فيه لاستخراج الكائن المرغوب فيه يزيد من (أسّ) الرقم وليس قيمته، أي في حالة عملتين متتاليتين تحتاج إلى عدد من المحاولات يساوي: $١٠^{٢}$!

وبعد ما يقرب من مئة محاولة أعد العملتين مكانهما. الآن المطلوب منك أن تخرج لي العملة التي تحمل رقم (١) ثم العملة التي تحمل الرقم (٢) ثم العملة التي تحمل الرقم (٣) .. إلخ إلى أن تكون العملة العاشرة التي تخرجها تحمل الرقم (١٠).

هذا يعني ببساطة، أن عدد المحاولات اللازمة لكي (يتوقع) منك أن تفعل هذا بشكل صحيح هو $١٠^{١٠}$، ولكي تدرك فداحة هذا الرقم، فهو يعني ببساطة أنك لو أحضرت كل رجل وكل امرأة وكل طفل من كل دولة من كل قارة في العالم لكي يقوم بالمحاولة فإنه على الأرجع لن يتمكن ولا واحد منهم للوصول إلى التتابع الصحيح! وأن عليك أن تقوم بتسعة مليارات وتسعمئة وتسعة وتسعين مليونًا وتسعمئة وتسعة وتسعين ألفًا وتسعمئة وتسع وتسعين محاولة فاشلة، حتى تحصل على فرصة محاولة ناجحة وحيدة!

هذا هو المثال الذي ذكره (كريسي موريسون) في كتابه الممتع: (الإنسان لا يقوم وحده) والذي ألفه للرد على كتاب (الإنسان يقوم وحده) لجوليان هكسلي، حفيد توماس هيكسلي، والذي سيأتي ذكره بعد قليل. وهذا المثال يجعلنا نفهم فداحة خطأ من يظنون أن العشوائية قد تكون هي السبب الحقيقي وراء نشأة هذا الكون!

ذكرني ذلك بالقصة الكلاسيكية القديمة التي أشك في صحتها الصراحة، والتي تخبرنا أن الملك الفارسي استدعى مخترع رقعة الشطرنج كي يكافئه على عمله، وطلب منه أن يتمنى أي شيء يريده، فطلب منه هذا المخترع أن يكافئه بحبتي قمح فقط يضعها على المربع الأول للرقعة، وأربع حبات على المربع الثاني، وثمانية على المربع الثالث، وست عشرة على المربع الرابع وهكذا إلى أن يصل إلى المربع الأخير في الرقعة والذي يحمل رقم ٦٤.

غضب منه الملك واعتبره قد أهانه. أنا أخبرك أن تتمنى ما تريد من الملك وبدلًا من أن تطلب مني الذهب والأراضي والمناصب، تطلب مني بعض القمح!

لكن الملك الجاهل لم يكن يعلم أن الرجل قد طلب منه بالفعل أكثر مما يملك كل ملوك الأرض! فإنه لو كان تتبّع المتتالية الهندسيّة المذكورة إلى آخرها لعلم أنه مطلوب منه أن يضع في المربع رقم ٦٤ عدد $٢^{٦٤}$ من حبات القمح. أي ما يساوي: ١٨٤٤٦٧٤٤٠٧٣٧٠٩٥٥١٦١٦ حبات من القمح! أي أنها كمية من القمح أكبر بكثير جدًا من التي زرعتها البشريّة منذ أن خلقها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ! هذا لأن قوة المتتاليات الهندسيّة مخيفة فعلًا.

وبالعودة إلى (كريسي موريسون) فإن مثاله يذكّرنا بالتجربة الحقيقية التي قام بها (المجلس القومي البريطاني للفنون) الذي كان يرد على معضلة (هكسلي).

توماس هكسلي كان أشد مؤيدي داروين حماسًا، والذي آمن بالتطور ربما أكثر مما آمن به داروين نفسه، حتى لقبه الكثيرون بـ «بولدوج داروين»، والبولدوج نوع من أنواع الكلاب الوفية! قال هكسلي أن العشوائية يمكنها أن تفسر لنا الوجود لو أعطينا لها الوقت الكافي. فضرب لذلك مثالًا بأنه لو ظلت مجموعة من القرود تجرّب بشكل عشوائي تمامًا أن تضرب بأرجلها على آلة كاتبة لربما وجدنا في النهاية أن لدينا قصيدة لشكسبير!

قام المجلس القومي للفنون بوضع مجموعة من ستة قردة في قفص مع جهاز كمبيوتر، وبعد مضيّ شهر واحد أنتجت القردة خمسين صفحة مكتوبة بشكل عشوائي من ضربات القرد الذي يمرح في القفص جيئة وذهابًا بحثًا عن موزة أو مغازلًا لصديقته. قاموا بتحليل هذه الأوراق الخمسين فلم يجدوا أي قصيدة لشكسبير، في الواقع هم لم يجدوا أي كلمة مكتوبة صحيحة، حتى لو كانت هذه الكلمة (a) أو (I)، هذا لا يمثل كثيرًا من العجب، إذ إنه لو افترضنا أن لوحة المفاتيح بها ٣٠ حرفًا، فإنشاء أبسط كلمة في اللغة الإنجليزية، وهي حرف التنكير (a) يتطلب أن تقوم القردة بالضغط على حرف مسافة ثم a ثم مسافة. أي أن محاولة ذلك تبلغ احتمال واحد صحيح من أصل $٣٠^{٣}$ محاولة فاشلة، أي احتمال واحد من أصل ٢٧ ألف محاولة فاشلة!

قام (جيرالد شرويدر) بالاستعانة بهذه التجربة للإمعان في إذلال هكسلي بمثاله المتخلف. قال جيرالد أن لإنتاج قصيدة صغيرة جدًا لشكسبير، وهي إحدى قصائد السوناتا والمتكونة من ٤٨٨ حرفًا فقط، وبفرض أننا استعنّا بلوحة مفاتيح مقتصرة على الحروف الأبجدية فقط: ٢٦ حرفًا، فهذا معناه أن احتماليّة نجاح القردة في ذلك هو $٢٦^{٤٨٨}$ محاولة! أي احتمالية نجاح واحدة في مقابل $١٠^{٦٩٠}$ محاولة فاشلة.

هذا رقم كبير جدًا، أكبر من أن أكتبه كما فعلت في قصة الشطرنج، لو حاولت أن أكتبه لاستهلكت ما يقارب العشرين صفحة من هذا الكتاب لكتابة العدد فقط! عدد البروتونات والإلكترونات والنيوترونات في الكون كله أصلًا لا تزيد على $١٠^{٨٠}$! أي أن عليك إيجاد مليارات

مليارات مليارات الأكوان فقط كي تملأها عن آخرها بالمحاولات الفاشلة التي ستقوم بها القردة من أجل إنتاج هذه القصيدة.

ماذا عن الزمان الذي ستستغرقه أيضًا؟؟ أورد (أنتوني فلو) الملحد السابق تعقيبًا على التجربة فقال أنه لو افترضنا تحويل ذرات الكون كلها إلى معالجات حاسوبيّة بالغة، كل معالج منها يزن واحد على مليون من الجرام، وقام كل معالج منها بمليون محاولة في الثانية منذ لحظة الانفجار الكبير إلى يومنا هذا (١٣،٧ مليار سنة) فكل المحاولات التي ستقوم بها هو $١٠^{٩٠}$ فقط. أي لم نقترب حتى بعد من الرقم المراد: $١٠^{٦٩٠}$!

هكذا يتبين لنا أن هذا مستحيل، ولكن في حالة نشأة الحياة بالعشوائية والصدفة فإننا لا نحتاج إلى ٤٨٨ حرفًا فقط كما في قصيدة شكسبير، بل نحتاج إلى ٢٠٠ ألف حرف! وسأشرح لك ذلك حالًا إن شاء الله!

فالملاحدة الذين ارتضوا نظرية التطور بديلًا عن وجود الخالق افترضوا أن الخلية الحية الأولى قد تم إيجادها بالصدفة عن طريق تفاعلات كيميائيّة عشوائيّة أنتجت الخلية الحية الأولى من الماء، بالطبع بعضهم يقول أنه قد تم إيجادها عن طريق فضائيين زاروا الأرض منذ فترة طويلة إلا أننا سنفترض أننا لم نسمع هذه الكوميديا، ولنتمسك إذًا بأكثر هذه الخيارات عقلانيّة: الصدفة.

طبقًا لنظريّة الحد الأدنى من الجينات، لا يمكن أن توجد أية خلية حية لها القدرة على إنتاج الطاقة والتكاثر إلا وهي تحتوي على الأقل ٢٠٠ جينًا. وهو ما يساوي في حدود ٢٠٠ ألف قاعدة نيتروجينية متراصّة بترتيب دقيق، لا يُقبل أي اختلاف أو خطأ في ترتيبها. أي ٢٠٠ ألف حرف! احتماليّة نشأة هذه الخلية بالصدفة إذن هو احتمال واحد صحيح في مقابل $١٠^{١٠٠٠٠٠}$ احتمال خاطئ!

ماذا عن خلق البروتين الذي يكوّن هذه الخلايا ويقوم بوظائفها؟

طبقًا لحسابات البروفيسور (والتر برادلي) والبروفيسور (تشارلز ثاكستون)، في كتابهما (لغز أصل الحياة)، فإن احتمالية تكون بروتين واحد بسيط جدًا بالصدفة ويحتوي على ١٠١ حمض أميني هي ١ إلى $١٠^{١٩١}$. وطبقًا لحسابات عالم الطبيعةالسويسري (تشارلز يوجين جاي) فإن خلق بروتين واحد بالصدفة يستغرق ١٠٢٤٣ مليار سنة (لاحظ أن عمر الأرض هو ٤،٥ مليار سنة فقط. وطبقًا لحسابات العالم الملحد (مانفريد إيجن) الحاصل على جائزة نوبل في الكيمياء لعام ١٩٧٨ فإن جميع ذرات المياه على كوكبنا لا تكفي لإنتاج جزئ بروتيني واحد بالصدفة. وأنه لو افترضنا أن الكون كله ملئ بمواد كيميائية تتحد مع بعضها البعض للمساعدة في عملية الخلق البروتيني ذلك، فإن البلايين الأربعة عشر من السنين منذ نشأة الكون لا تكفي لإنتاج بروتين واحد.

ولو افترضنا وجود حساء بدائي معد سلفًا من الأحماض الأمينية وتجاوزنا هذه الخطوة وتجاهلناها، فماذا عن الرقم المطلوب إذن لنشأة أحد أبسط الكائنات الحية (بكتيريا مثلًا) فقط بالصدفة من هذا الحساء لتتطور بعد ذلك إلى أنواع الأحياء المختلفة طبقًا للداروينية؟

بحسابات البيوفيزيائي (التطوري) الأمريكي (هارولد موروويتز) في كتابه (تدفّق الطاقة في البيولوجيا)، فاحتمال تكوين حياة خلوية كاملة بسيطة جدًا من الصدفة وتتكون فقط من ١٢٤ بروتين تساوي ١إلى$١٠^{٨٠٦٠}$ وأما حسابات (فريد هويل) الفيزيائي (الملحد) الشهير، فقد حسب احتمالية تكون حياة خلوية تحتوي فقط على ٢٠٠٠ بروتين، فوجد احتمالية نشأة ذلك بالصدفة هي ١ إلى $١٠^{٤٠٠٠٠}$!!

كي ندرك معنى هذه الأرقام، يضرب لنا (هف روس) مثالًا: لو غطينا قارة أمريكا بأكملها بالعملات المعدنية إلى آخرها وصنعنا منها جبلًا يصل إلى القمر، ثم فعلنا ذلك في... بليون قارة أخرى! كلها مغطاة بالعملات المعدنية حتى تصل إلى القمر، ثم اخترنا عملة واحدة فقط من كل ذلك ولونّاها باللون الأحمر، ودفعنا رجلًا مصعب العينين إلى التقاطها، فإن احتمالية أن يلتقطها بالفعل هي واحد من أصل $١٠^{٤٠}$ احتمال. (قارن هذا بالأرقام المذكورة أعلاه).

ولكن هناك من الناس من لا يسعفهم علمهم بالرياضيات ليفهموا حجم هذه الأرقام المكتوبة، يظنون أنه طالما هناك رقم مكتوب فالأمر على ما يرام، فمن يدري؟ من الممكن أن يحدث هذا فعلًا!

الفكرة أنه طبقًا لحسابات عالم الرياضيات (وليم ديمبسكي)، فإذا كانت احتمالية وقوع شيء ما مقابل عدم احتمالية وقوعه أقل من ١ على $١٠^{١٥٠}$ فهو مستحيل الحدوث عمليًا على أرض الواقع! من أين وصل إلى هذا الاستنتاج؟ باستخدام ثلاثة معطيات متفق عليها بين جميع العلماء مؤمنهم وملحدهم.

هذه المعطيات هي كالتالي: أولًا عدد الجسيمات الأساسية في الكون كله تساوي $١٠^{٨٠}$. ثانيًا لا يمكن أن يحدث أي تغير لمادة من حالة إلى حالة في زمن أقل من (زمن بلانك) وهو زمن ضئيل جدًا يساوي الثانية مقسومة على $١٠^{٤٥}$. ثالثًا عدد الثواني التي مرت منذ نشأة الكون (١٤ مليار عامًا) أقل من $١٠^{٢٥}$ ثانية.

فبالتالي لو افترضنا أن كل جسيم من جسيمات الكون كله من بروتونات ونيترونات وغيره في داخل كل ذرة داخل كل جزيء في كل الكون الموجود، قام بعدد من التغيرات عددها $١٠^{٤٥}$ تغيرًا في كل ثانية (لا يمكن فيزيائيًا حدوث تغير في أي مادة في زمن أقل من هذا)، ولديه كل الثواني منذ نشأة الكون كله ليقوم بالتجربة، فسيكون هذا معناه $١٠^{٨٠}$ مضروبًا في $١٠^{٤٥}$ مضروبًا في ١٠

^{٢٥}. يساوي $١٠^{١٥٠}$. وأي احتمالية أضعف من هذه فمعناه أنه ببساطة مستحيل الحدوث. فما بالك بالأرقام الهائلة المذكورة منذ قليل؟!

أقسم بالله العظيم أنني لا أفهم فعلًا كل هذا العناد الذي يتمتع به الملحدون! لذلك كان المحلل النفسي (كارل شترن) العائد من الإلحاد يقول: «الإيمان أن عالمنا المدهش من الممكن أن يكون قد تطور بالصدفة العمياء هو جنون. وأنا لا أقصد البتة الجنون بالمعنى الشتائمي، وإنما بالمعنى العلمي للاضطراب العقلي. حقيقةً، في مثل هذه الرؤية تشابه كبير مع بعض خصائص التفكير الشيزوفريني الفصامي».

هو جنون بالتأكيد، ولكنه جنون لا يعفيهم من المسئولية أو استحقاق العقاب، وإنما نوع من الجنون ذكره أهل النار عن أنفسهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك ١٠-١١)

بيْدَ أن هناك فكرة عبقرية قد تفتقت في ذهن بعض الملحدين. الكون قد نشأ من لا شيء! مثل (لوارانس كراوس) الذي كتب كتابه (كون من لا شيء) وقدّم (ريتشارد دوكنز) الكتاب ذاكرًا عنه أنه طفرة في عالم الفيزياء ذكرته بالطفرة البيولوجية التي قام بها داروين بكتابه (أصل الأنواع). ويبدو أنها كانت طفرة خفيّة لا تظهر إلا للأصدقاء حيث كان دوكنز هو الوحيد الذي رآها.

ولكن أثناء قراءة الكتاب يفاجئنا (كراوس) أن اللاشيء الذي يتكلم عنه هو في الحقيقة (شيء)، ولكنه شيء بسيط جدًا، فهو بذلك يعتبره (لا شيء). بمنطق شبيه بمنطق الأطفال الذين يصرون أن شربهم الماء في نهار رمضان لا ينقض صيامهم لأنهم شربوا (حاجة بسيطة).

(دوكنز) كان مؤيدًا لرؤية كراوس هذه كما ذكرنا وفي حواره مع (جورج بل) في البرنامج التليفيزيوني الأسترالي (Q&A) حاول أن يشرح مفهوم العدم الذي يتحدث عنه هو وكراوس، فقال: «يمكنك أن تنازع في المراد بـ (لا شيء) لكن أيًا ما كان فهو (شيءٍ بسيط)». هنا قاطعه الجمهور ضاحكًا، فعبّر دوكنز عن استيائه وقال: «لماذا يبدو هذا مضحكًا؟» دعك منهم يا سيد دوكنز، لا يوجد أي شيء مضحك على الإطلاق فيما تقوله.

في نفس اللقاء فاجأنا بالتالي: «بالتأكيد أن حدوث شيء من لا شيء مضاد للبديهة، بالطبع المنطق السليم لا يسمح بحدوث شيء من لا شيء، ولهذا الأمر مشوق ومثير للانتباه، ويجب أن يكون مشوقًا ومثيرًا للانتباه لأجل قدرته على إحداث الكون! يجب أن يكون ثمة شيء غامض هو الذي أخرج العالم إلى الوجود!».

بمعنى آخر هو شيء Fantastic وطريف جدًا، فلا بد أنه حقيقي!

هذا عن بديل الصدفة المحتمل. فماذا عن بدائل أخرى؟ نفي السببية مثلًا؟!

ربما تتعجب مني إن قلت أن هناك بالفعل من نفى هذا القانون العقلي المجرّد. ولكن هذه هي الحقيقة! ديفيد هيوم هو أشهر مثال على هذا، قال أن كوننا كلما فعلنا (أ) يحدث (ب)، لا يعني أن (أ) سبب لـ (ب) ! هما يحدثان معًا فقط ولكن لا يعني ذلك أن أحدهما سببًا للآخر! هذه خبرة بشرية مطّردة لا تكفي لإقامة البرهان على السببية.

الذين ينفون السببية لا يفطنون إلى معضلة أشار إليها الدكتور سامي العامري، أنهم وفي نفيهم للسببية سيستخدمون برهانًا عقليًا مكونًا من مقدمات ونتائج: (بما أن... إذن). أي أنهم سيضطرون بدون أن يفطنوا إلى استخدام السببية للبرهنة على بطلان السببية! لذلك كان (ابن رشد) يقول: «فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل».

ولكن (هيوم) لم يكن يعني فعلًا أن ينفي السببية، هو فقط ينفي قدرتنا على البرهنة عليها، ففي رسالة له إلى (جون ستيوارت) عام ١٧٥٤ قال: «لم أدّع يومًا مثل هذا الادعاء السخيف، أن شيئًا يمكن أن ينشأ بدون سبب. الذي قلته فقط أن جزمنا بخَطأ تلك الدعوى لم يكن ناشئًا لا من حدس ولا من برهان. وإنما هو من مصدر آخر»!

ماذا عن بديل ثالث: أن نكون نحن -ككائنات ترتع في هذا الكون- من خلقنا بعضنا البعض؟! لا، لن ننحدر إلى هذا المستوى من الحضيض العقلي ونسوّد الصفحات في الرد على هذه الترهات!

هذه البدائل عن وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تصمد أمام عقل ابن أختك الطفل الصغير الذي لا يفهم بعد ما هي الأشياء التي تؤكل والأشياء التي لا تؤكل، ولكنه برغم ذلك إذا ضربه أحدهم على مؤخرة رأسه سينظر خلفه ليرى ما (سبب) هذا!

كل هذا قد لخّصه القرآن في آيتين حين خاطبنا بالبديل المحتمَل عن وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ**﴾ (الطور ٣٥-٣٦). لما سمع جبير بن مطعم النبي ﷺ وهو يصلي بهذه الآية في صلاة المغرب قال: «كاد قلبي أن يطير»!

وقال الله تعالى عن كل البدائل المحتملة الأخرى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ (الحج ٧٣). لن يحدث أن نثبت وجود أي بديل عن وجود الخالق،

لأن كل البدائل الأخرى المحتملة (الصدفة والعدم والعشوائية والفوضى والدوْر) أقل منّا في قدرتنا وعلمنا، وبرغم ذلك لا نقدر نحن على أن نخلق ذبابة ولو اجتمعنا لها!

إنها الحقيقة التي يصرّون على محاولات الفرار منها ولا يستطيعون!

برغم كل شكوكهم، برغم كل عنادهم، برغم كل الشبهات والحجج والبراهين التي يقدمونها. في النهاية ليس ثمّة بديل يُعقَل عن وجود الخالق العظيم! ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ (مريم ٦٥).

هل تعلم؟

لماذا هو سؤال مندس؟

لأنه سؤال دخيل على فطرتك، سؤال يقودك إلى إيمان أعمى خبيث! نعم، أخي الفاضل أنا هنا لأدعوك أن ترفض الإيمان الأعمى! أدعوك أن تكفر بالجنون، تكفر بالخواء، تكفر بالغرور البشري الأحمق، تكفر بالثقة المفرطة في المستحيلات.

كي تتساءل عن وجود الله، فعليك أن تؤمن بالوهم. القيم الأخلاقية وهم، الإرادة الحرة وهم، معنى الوجود هو وهم، وغايته وهم، ووعيك البشري وهم، وإنسانيتك وهم.

عليك أن تكون كالملحد (ويل بروفاين) حين قال: «لا آلهة، لا حياة بعد الموت، لا قاعدة حقيقية للأخلاق، لا معنى نهائي للحياة، لا إرادة حرة للإنسان. أنت هنا اليوم وسترحل في الغد، هذا كل ما في الأمر. ليس هناك أدنى أمل في وجود معنى عميق للحياة الإنسانية. نعيش، ونموت، ونفنى. نفنى بشكل نهائي حين نموت»!

عليك أن تؤمن بالكثير من الأشياء العظيمة، عليك أن تؤمن أن كل شيء وُجِد من لا شيء. أن العدم يعطي الحياة. أن العشوائية تنتج الدقة. أن الفوضى تنتج المعرفة. أن اللاوعي ينتج الوعي. أن اللامنطق ينتج المنطق. أن تفترض أن الأشياء وُجِدَت بالطريقة التي هي عليها لأنها تحب ذلك. أن هشاشتك ليس لها ما يبررها، وحاجتك لله ليس شيئًا مهمًا للحديث عنه. أن كل ما في الكون ليس دليلًا على العناية، أو الإعداد، أو الاهتمام. أن الكون خالٍ من التوازن، أنه ليس هناك دليل على التصميم، ولا أثر على الإحكام. أن القيم قد نشأت بطريقةٍ غامضة، والجمال هو معجزة ما، والمشاعر سوف نعرف سرها بعد حين. ولا تنس في النهاية أن تؤمن أنك مجرد حيوان آخر ليس له قيمة.

بدون الله أنت لاهثٌ خلف الأشياء، خلف الكثير من الحاجات، والكثير من المطامع، ثم ما أن تحصّلها حتى تصير جميعًا نوعًا من حطام يابس، جزءًا من ماض خرب، ضربًا من حزنٍ أليم. حزن من يعاين أنه لا شيء يشبعه، ولا شيء يكفيه، ولا حتى هناك شيء يدوم.

سوف تُحصّل اللذات ثم تراقب فناءها بين يديك. سوف يموت من حولك أحباؤك، سوف يهاجر أصدقاء عمرك إلى بلاد أفضل، سوف يتوارى جمال وجهك خلف التجاعيد، سوف يبرد مذاق وجبتك الشهية على شفتيك، سوف يذبل وقع كلمات الحب على مسامعك، سوف ينتهي

الشبق في لحظة بعينها، ثم تعاين بعد أن تأخذ كل ما تريد أنك لا زلت جائعًا، فقط لم تعد تعلم شيئًا عن كنه وجبتك المشتهاة، ولا تعلم الجهة التي تبيعها.

بدون الله أنت إنسان متشائم متخوّف حريص، تخاف على أموالك التي تتبدد، تخاف على صحتك التي تتناقص، تخاف من حوادث الطريق المفاجئة والأوبئة المتوحشة وضربات قلبك التي تحاول همسًا تخبرك بأن قدراتها على المثابرة محدودة.

تخاف من فرص الحب أن تتجاوزك من بين الملايين في الزحام، تخاف من أمواج الحزن مالحة المذاق من أن تكون أقوى من قدرات سباحتك المتواضعة، تخاف من برد الوحشة أن يدركك حين يخترق جلدك بعد أن تتفاجأ بأنه لم يكن سميكًا كما كنت تحسب.

بدون الله أنت وهم من صنيعة الكيمياء، أنت بقايا مهملة من كرات غاز منفجرة في زمان سحيق، أنت ركام من فرص الحيوانات المقتنصة من قبلك لتبقى على الحياة، أنت احتمال غير مرجَّح للوجود، أنت حدث عشوائي كان من الممكن ألا يحدث.

بدون الله أنت عدم، منه بدأت، فيه تحيا، ثم إليه تصير.

بدون الله أنت في عالم الأنانية المطلقة، أنت نتاج السعي إلى الذات، أنت خالٍ من الحب، من التضحية، من الطيبة، من الحنان، أنت مدفوع بجيناتك لادّعاء الجمال حتى تحصلَ على مبتغاك، بدون الله أنت في حقيقتك شر مستطير، أنت خبث يتصنع، أنت قلب أسود يرسم على وجهه ابتسامة أمام الناس.

بدون الله لا ينبغي لك أن تسامح نفسك.

بدون الله أنت وحيد، أنت محاصر بالألم، أنت ممنوع من الصراخ، من الكلام، من الشكوى. أنت في عالم من الصمم، لا يسمعك أحد ولا يبالي. أنت هباءة في كون قد أهملك، نقطة في بحر لا يبحث عنك، ذرة غبار سابحة في الهواء لن يفتقدها أحد، ولن يحنّ عليها مخلوق.

بدون الله أنت سوف تكون لا شيء ثم لن تكون من بعدها شيئًا.

السؤال الخطأ

(عن سؤال: من خلق الله؟ وعن صفات الله، وأشياء شبيهة)

"تقع إجاباتها بالتأكيد خارج نطاق هذه الحدود. إنها في البيت المظلم الذي لن نستطيع أن نرى ما به فنقرر أن نبحث عنها في الإضاءة الخارجيّة رغم أنها ليست هناك! نحن نبحث في المكان الخطأ وبالأدوات الخطأ، ثم نندهش حين لا نصل إلى إجابة حاسمة ملموسة!"

لسبب ما يعشق جمهور الصحافة والإذاعة العناوين التي تعدهم بـ (كشف المستور)! سارع إلى معرفة السر الذي عرفه الفريق صلاح الدماطي من المشير عبد الحكيم عامر شخصيًا. هل أنت مستعد لمعرفة هذا (المستخبي) يا سيدي؟ إن عبد الناصر كان يعشق صيد البط وهو يلبس ملابس نومه البيضاء! ثم بعد أن تعرف السر تدرك أن المعرفة عبء بالفعل! أن تعيش في مجتمع من السُذّج ممن يظنون أن عبد الناصر كان يصيد البط مرتديًا بدلته الأنيقة بينما أنت وحدك تعلم الحقيقة!

وبرغم هذا الفضول البشري الخرافي، فإننا نتقبل بسهولة أن تكون هناك أسرار غير مفهومة فعلًا في الواقع وفي التاريخ. بل وقد نجد لذة لهذا الجهل أو ذاك ويصبح مادة خصبة لإثارة الخيال الشعبي. أتحداك إن كنت ستتذكر من هو (كينيدي) أصلًا لو كان قاتله قد عُرِفَ وقتها! أو كنت ستسمع عن (جاك السفّاح) إن كانوا قد تأكدوا من هو بالفعل!

نتقبل كل هذا لأننا برغم أنوفنا ورغم فضولنا لمعرفة كل شيء، وكل سر، وكل مستور. فإننا نتعلم دائمًا أننا محدودون بقدراتنا البشرية التي هي أكثر مسكنةً مما يظنه الكثيرون!

هل تظن أن علماء الطب يعرفون)الميكانيزم(الذي به يتم إطلاق عملية الولادة أو الطريقة المؤكدة التي تشرح كيفية وقوعنا بالنوم؟! أو تظن أن علماء الفيزياء المتخصصين يفهمون حقًا وبشكل كامل الأبعاد المخيفة لنظريّة الكم وتطبيقاتها المحتملة في الحياة؟! كم مرة وجدت علماء التاريخ يتحدثون عن (الفجوات المعرفيّة) أو وجدت علماء الاجتماع يتحدثون عن (السلوك الغامض للجماهير) أو وجدت علماء النفس والسلوك يستخدمون كلمات مثل: (ربما) (من المحتمل) (نظن).. إلخ؟!

على أنني لن أغضب كثيرًا من علماء الفيزياء عندما لا أستطيع فهم (نظرية النسبية) مثلًا بشكل كامل مهما حاولت، لن أغضب طالما يحدد هاتفي مكاني بتقنية الـ GPS المعتمدة في دقتها على نفس النظرية! طالما ستقوم بإرشادي بنجاح إلى مقابر قرية (المربّعين) -وهو مكان حقيقي بالمناسبة - فإني سأثق بها وأعتبرها حقيقية حتى لو بدا إثباتها الرياضي أشبه بطلاسم سحرة الفودو، وبدا إثباتها الفلسفي أشبه بقصص تان تان!

لا نحتاج إلى فهم كل شيء إذن حتى نحصل على الثقة! لا نتضايق إن (تشابه علينا) أو التبس. يكفينا أن نتأكد من وجوده، يكفينا أن نرى آثاره، يكفينا أن نفهم (الكثير) من الأشياء الأخرى (المُحكَمة) التي أتت لنا من (نفس المصدر)! جميعنا يقوم بذلك فيما يختص بعلوم البشر. لكن حين نأتي إلى علوم الإله، فيما يختص به، وبكينونته، وصفاته، حينها يتحول بعضنا إلى ذلك المحقق البوليسي الذي (يدّعي) أنه لا يرضى في حياته بأقل من أن يفهم كل التفاصيل والأسباب، ولو لم يفهمها فالأمر بسيط، يشطبها من قاموسه كأنها لم تكن!

يمكننا أن نكشف من هذه المفارقة أن هؤلاء احتاجوا إلى طريق قرية (المربّعين) أكثر من احتياجهم إلى طريق الآخرة! أنهم وثقوا في العالم الأشقر صاحب المعطف الأبيض أكثر من وثوقهم في (العليم) نفسه! يمكننا أن نكشف أن فيَ قلوب هؤلاء ريبًا وشكًّا وزيغًا وأنهم كانوا الفريق الخاسر في أحد هذين القسْمين: ﴿**أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ (آل عمران ٧).

فهناك من ضيّع محكمات عقله ودينه وما تأكد منه بتأمله في الخلق والسنن والكون، من أجل أمر التبس عليه أو استشكله، واعتبر أنه كائن عبقري بطبعه لا بد أن يكون محيطًا بكل شيء وإلا فلا!

وهناك من اعتبر ما يعلمه وما يثق فيه وسيلة للتأكد واليقين فيما يجهله ويختبئ عنه، لماذا؟؟ لأن كلًّا من عند ربنا! المصدر واحد، فمن صَدَقَني في الأولى فسيصدُقني في الثانية.

❧

لا يتعلق هذا بقطاعات من المعرفة محرّم علينا أن نخوض فيها كما تخيّل الإغريق آلهة الأوليمب كحكّام أوتوقراطيين يحرّمون على البشر الصناعات والفنون فحرموهم من النار حتى سرقها لهم بروميثيوس فصارت الأرض مليئة بالمنجزات البشريّة.

بل يتعلق بقطاعات من المعرفة لا يمكننا أصلًا أن نصل إليها بأي حال، إنه وكأننا فعلنا مثلما فعل (جحا) حين أضاع نقوده فأخذ يبحث عنها أمام البيت تحت شمس الظهيرة، فمرّ عليه رجل عرض أن يساعده وسأله: أين أضعت نقودك بالضبط؟ قال: في البيت. قال: ولم تبحث عنها هنا؟! قال: لأن البيت مظلم وهنا مضيء!

عقولنا لها حدود لا يمكنها أن تتخطاها، وحواسنا أشد منها محدوديّة بكثير، وأسئلة مثل: (من أين جاء الله؟!) أو (كيف يوجد إله كامل وبكل هذه الصفات المعقّدة الكاملة فجأة وبدون تفسير علمي؟!) أو (كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل رغم أن هذا الثلث يتغير وقته بين البلدان المختلفة باستمرار؟!) أو (كيف يستوي الله على العرش؟!) تقع إجاباتها بالتأكيد خارج نطاق هذه الحدود. إنها في البيت المظلم الذي لن نستطيع أن نرى ما به فنقرر أن نبحث عنها في الإضاءة الخارجيّة رغم أنها ليست هناك! نحن نبحث في المكان الخطأ وبالأدوات الخطأ، ثم نندهش حين لا نصل إلى إجابة حاسمة ملموسة!

كي نفهم هذا، لنرَ كيف أجابنا القرآن!

١

الصمديّة

"حسبي الله وكفى، يسمع الله لمن دعا، ليس وراء الله منتهى"

من دعاء النبي ﷺ

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي بن كعب قال: قال المشركون للنبيّ ﷺ: انسب لنا ربك. فأنـزل الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۝ اللهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ (الإخلاص ١ -٤).

هذه قصة مشكوك في صحتها، كما جاء في أثر آخر رواه الإمام الطبري أيضًا مشكوك في صحته أن رهطًا من اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، هذا الله خلق الخلق، فمن خلقه؟ فغضب النبيّ ﷺ حتى انتُقِع لونه، ثم ساورهم غضبًا لربه، فجاءه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فسكنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه. قال: يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۝ اللهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ (الإخلاص ١ -٤).

على ذلك لم يثبت دليل صحيح في سبب نزول هذه السورة العظيمة على قول كثير من علماء الحديث، إلا أنه قد ثبت أن النبي ﷺ قد دعانا إلى تذكرها في كل مرة نسأل فيها أنفسنا هذا السؤال: من خلق الله! ففي الحديث الذي رواه النسائي: «يوشك الناس أن يتساءلوا بينهم حتى يقول قائلهم: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا: الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد».

لا يمكن لنا أن نتكلم عن نسب الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ! من خلقه أو أوجده. لأننا نتحدث عن (خالق) وليس مخلوقًا. فبالتالي لم يخلقه أو يوجده أحد. في المقابل نلاحظ في هذا الجواب القرآني الموجود في سورة الإخلاص، أن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قد ذكر أنه (الصمد).

الصمد عند العرب من الكلمات التي لها المعاني الكثيرة، مثلًا يطلقون الصمد على ما ارتفع من الأرض، وعلى السيد المطاع في قومه، وعلى ما ليس له جوف، وعلى أي شيء يتجه إليه الإنسان، وعلى ما يُلجَأ إليه عند الحاجة.

لذلك اختلف السلف في معنى كلمة (الصمد) في حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مثلًا قال (عكرمة) أنه يعني: «الذي لم يخرج منه شيء، ولم يلد، ولم يولد». وقال (أبو وائل): «هو السيد الذي انتهى سؤدده» وقال كل من (الحسن) و(قتادة) أنه: «الباقي بعد خلقه»، وأحب (الزجاج) أن ينهي هذا الخلاف كله وقال: «وأصحّه أنه السيد المصمود إليه في الحوائج»، وأكثر ما يعجبني هو ما قاله (أبو عبيدة) من أن: «الصمد هو الذي يُصمد إليه، ليس فوقه أحد»!

هناك تلازم واضح في ذكر صفة الرحمن بين كونه: لا يحتاج إلى أحد، ولا يلد ولا يولد ولا يخرج منه شيء، ولا يحتاج إلى طعام ولا إلى شراب. وبين كونه: يُصمد إليه في الحوائج ويبقى بعد خلقه وليس ثمة شيء فوقه ولا بعده. لأنه لا يمكن أن يكون ذلك القائم على حاجات العباد تنقصه بعض الحاجات هو الآخر، إذ من سيكون المسئول إذن عن أن يلبيها له؟! لو كان من أوجد كل شيء يحتاج إلى شيء ما كي يوجده، لوقعنا في دائرة مفرغة لا خروج منها!

هذا شبيه بالمثال الشهير، جندي يقف على الحدود ومأمور ألا يضرب النار على عدوّه إلا حين يأخذ الأوامر ممّن فوقه، على أن من فوقه مأمور ألا يُصدر ذلك الأمر إلا لو أخذه ممّن فوقه، ومن فوقه مأمور أيضًا ألا يُصدر هذا الأمر إلا لو أخذه ممّن فوقه.. إلخ

عرفتُ أنا وأنت هذه السلسلة اللانهائية، ثم علمنا أن هناك من ضرب النار بالفعل. فبشكل بديهي جدًا سوف تتيقن أن السلسلة سابقة الذكر لم تكن غير نهائية، بل كانت هناك رتبة عسكريّة ما رفيعة الشأن لا تحتاج ولا تنتظر الأوامر، بل أصدرت هي الأمر بشكل ذاتيّ تمامًا وبدون الحاجة إلى أحد!

لذلك كان رد الفيلسوف الملحد (وليام رو) في كتابه (الحجة الكونية) على البرهان القائل بأن (إذا لم يكن للزمان أول، فلا يمكن أن يكون له وجود)، أن قال: «من الصعب أن نظهر بدقة الخطأ في هذا الاستدلال».

فالصمد إذن لا يحتاج إلى أن يلده أحد أو يوجده أحد، لماذا؟ لأنه هو من يُصمَد إليه في الحوائج، من يُعتَمد عليه في الإيجاد، هو من أصدر الأمر الذاتي لنا بـ كن فكنّا. لو كان ثمّة شيء وراءه لما كنّا في الوجود!

ولهذا السبب فرق الفلاسفة العرب بين ما هو (ممكن) الوجود، وما هو (واجب) الوجود، كما فصل الغزالي في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد). ممكن الوجود يتصور عليه العدم مثل الكون، بينما واجب الوجود هو سبب وجود كل شيء غيره.

ولطالما اتفقنا أنه ليس هناك سبب لوجود الله، فبالتالي التساؤل عن هذا السبب هو تساؤل خاطئ بلا معنى! إنه وكأني أسئلك عن طعم الأمانة أو لون المتر؟ نوعية من الأسئلة العبثية التي من الأفضل تجاهلها بدلاً من الاسترسال فيها. مثلما قال (ديفيد بيرلنسكي) في كتابه (وهم الشيطان): «حين يتعلق الأمر بأشياء تتمتع بوجود ضروري، فمن الإسراف أن نفترض أكثر من واحد. فهناك شيء واحد وجوده ضروري، وإن لم يكن ضروريًا فهو أزلي، وما دام أزليًا فلا علة له. ولا يوجد معنى للسؤال عن علة من لا علة له»!

ولذلك دعانا النبي ﷺ إذا أتانا هذا السؤال أن نستعذ بالله وننتهي. لأن التساؤل عن مصدر واجب الوجود لا معنى له، فعلاجه الانصراف عنه، لا الاسترسال فيه. فلم يكن قبل الله شيء، ولن يكون من بعده شيء، فليس وراء الله منتهى، وليس من ورائه مرمى. الله متعالٍ عن الـ (قبل) والـ (بعد)!

أو كما يقول الدكتور سامي العامري: «أزلية الله ليست في الزمان، وإنما هي لا زمنية. فهو متعالى على الزمان، وليس في زمان لا متناهٍ! هو أول بلا ابتداء، وليس أولاً بابتداء زمني».

وهو ما نلاحظ أن القرآن قد دل عليه في قوله تعالى: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (الجن ٢٨). فكل شيء لا بد قبله شيء، هل يمكنك أن تعود بعقلك لكل الموجودات المتخيلة حتى تتخيل رقم (١)؟ فحتى رقم (١) الله قد أحصاه. الله تعالى هو الأول الذي قد أحصى كل شيء من بعده!

٢

حين سرقوا منا جوابنا

"ليس الإشكال بين الملحد والمؤمن حول شرعية التساؤل عن الحقيقة النهائية، وإنما حول: ما هي الحقيقة التي تعتبر نهائية؟"

أوستين فرار

تقول الطرفة أنه في أحد المصحّات العقلية وجد أحد المرضين مريضًا يقنع من حوله أنه نبي مرسل من عند الله. فأخذ يتندر بذلك مع مريض آخر توسم فيه العقل، فقال له: إن هذا الرجل هناك يدّعي أنه نبي أرسله الله. فقال له المريض العاقل: دعك منه. من الواضح أنه مجنون، أنا لم أرسل ذلك الرجل إلى أحد!

في مصحة المجانين فقط يمكنك أن تشتكي لأحدهم أن فلانًا يظن أنه نبي، فقط لتكتشف أنك اشتكيت إلى من يظن أنه الإله. ولكن في حالة الرجل العاقل الذكي (براتراند راسل)، فقد كان هو من اشتكى لنفسه وجود هذا (المجنون)، وهو من رد على نفسه بشيء (مجنون) آخر؟ فهو قد رفض الإيمان بالله لأنه: «إذا كان لا بد بأن يكون لكل شيء سبب، فلا بد أن يكون لله أيضًا سبب». وفي ذات الوقت نجده من أكبر المدافعين عن فكرة (الكون القديم) الذي لم يخلقه أحد! ويبرر ذلك في كتابه (لماذا أنا لستُ مسيحيًا) بـ: «فكرة أنه لا بد أن تكون للأشياء بداية تعود في الحقيقة إلى فقر خيالنا»!

يعني هو يرفض إجابة المؤمنين: الله هو السبب الأول ولم يخلقه أحد. ولكنه في ذات الوقت يسرقه منا ويضع مكان كلمة (الله): (الكون). وهو نفس ما فعله (كارل ساجان) ولكن بطريقة أكثر صراحة، فيقول في كتابه Cosmos إن الكثير من الشعوب تحمل في ثقافتها جوابًا مألوفًا عن أصل العالم بقولها: (إن الله قد خلقه من العدم)، وإن الشجاعة تقتضي أن نسأل: (فمن أين جاء الله؟)، وإذا قيل إن الله موجود بلا ابتداء، فلماذا لا نرجع خطوة إلى الخلف ونقول: إن الكون كان موجودًا منذ الأزل؟

عقليتهم ترفض أن يكون هناك ما لا سبب له، ولكنهم مع ذلك قبلوا بأن يقولوا ذلك عن الكون، لأن هذا كان هو الحل الوحيد لاتساق رؤيتهم المادية عن الكون. إنهم كانوا يحتاجون إلى ذلك فتغاضوا ببساطة عن كل تلك الحجج التي ساقوها لنا ليثبتوا أنه لا يصح أن نقول عن شيء ما: لم يخلقه أحد. كما قال الفيلسوف (ترنس ماكينا): «وكأن العلم الطبيعي يقول: أعطني معجزة واحدة، ومن هناك ستسير الأمور بشكل سلس وبتفسيرات طبيعية»!

يااااه! هل تذكر الجدال بأن الكون قديم أم حادث؟ هل ما زال أحدكم يذكر ذلك الهراء الذي حشرناه في أدمغتنا ونحن ندرس كتب العقيدة وعلم الكلام؟ استهلك الغزالي ثلثي كتاب (تهافت الفلاسفة) تقريبًا للرد على (ابن سينا) و(الفارابي) في هذا. كانت مسألة (الكون القديم) هي أكبر (المشاكل) التي يحتاج عالم العقيدة إلى مواجهتها وهو يجادل الفلاسفة، كانت هي المسألة الحاضرة في كل كتب ابن تيمية تقريبًا. أين ذهب كل هذا التراث الآن؟ تبخّر! بمنتهى البساطة قد تبخر!

تبين خطؤهم حين فاجأهم (فيستو سليفر) و(إدوين هابل) و(ميلتون هيوماسيون) باكتشافهم العلاقة بين الانزياح الأحمر للمجرّات (Redshift) وبين المسافة، ويعني ذلك الطريقة التي يتغير بها ضوء المجرّات حين تبتعد عن أجهزة المراقبة، هذا أثبت بعد ذلك أن الكون في الواقع يتمدد، وهي الملاحظات التي أدت إلى نظرية الانفجار الكبير (Big Bang Theory)، وتعني أن الكون المشاهَد بدأ في التكوّن منذ ١٣,٧ مليار عام تقريبًا، والتي بقيت مجرد فرضيّة حتى أتت الدلائل عليها من قياس الخلفية الإشعاعية الكونية عام ١٩٦٤. وكما يقول (ستيفن هوكنج): «اليوم تقريبًا يؤمن الجميع أن الكون، والزمن نفسه، لهما بداية مع الانفجار العظيم».

وبعد أن استقرت نظرية الانفجار الكبير في وعي علماء الفيزياء، أخذوا في التساؤل: يا للحماقة! كيف لم يفكر أحد في ذلك من قبل؟! بالطبع الكون حادث، لا يمكن علميًا أن يكون قديمًا لعدة أسباب.

على الفور تذكر الفيزيائيون أن القانون الثاني للديناميكا الحرارية لن يتفق مع فكرة الكون الأزلي، فلا بد من أن يكون الكون قد فني من الحرارة تمامًا لو كان موجودًا منذ الأزل، وهو ما لا بد أنك لاحظتَ أنه لم يحدث.

وأبدى الفيزيائي (بول ديفيز) أيضًا في كتابه (عقل الإله) رأيه في أن العمليات الفيزيائية كلها لا تتفق مع فكرة الكون القديم: «اليوم، نحن نعلم أنه لا يمكن لنجم أن يستمر في الاحتراق إلى الأبد، إذ لا بد أن يفقد وقوده. الكون الأزلي يتعارض مع استمرار وجود العمليات الفيزيائية التي

لا رجعة فيها. إذا كان بإمكان النظم الفيزيائية أن تخضع لتغييرات لا رجعة فيها بمعدل محدود، فهي إذن ستنتهي من تلك التغييرات في زمن لا نهائي مضى».

لذلك نجد (ستيفن هوكنج) يبدي تعجبه من تلك (المُسلّمة التي لم يفطن لها أحد من قبل)، في كتاب (تاريخ موجز للزمن): «كان الكشف عن توسعِ الكون أحد أكبر الثورات الفكرية في القرن العشرين. من السهل أن نتساءل بصورة متأخرة: لمَ لم يفكر أحد في ذلك من قبل؟! لقد كان على (نيوتن) والآخرين أن يدركوا أن الكون الثابتَ لا بد أن يبدأ عن قريب في الانكماش تحت تأثير الجاذبية»!

وبعد أن استقرت فكرة أن الكون له بداية. أدركوا كم هي هذه الفكرة مزعجة بالنسبة إليهم! إنه كما يقول (روبرت جاسترو): «بالنسبة للعلماء الذين عاشوا معتمدين على قوة المنطق، فالقصة تنتهي وكأنها كابوس، فقد قطع جبالًا من الجهل، وبينما هو يكاد أن يقهر أعلاها متجاوزًا الصخرة الأخيرة، إذا هو بمجموعة من اللاهوتيين يرحبون به، وإذا هم جلوس هناك منذ قرون»!

لقد سرقوا منا جوابنا، ووضعوه على شيء آخر، ثم تبين أنه لا يناسب مقاسه!

حين كنا نقول لهم: الله هو السبب الأول لكل الوجود، لم يخلقه أحد، ولا يصح أن نتساءل عن سبب ما لا سبب له. قالوا لنا حينها: حسنًا، سوف نأخذ هذا الكلام ونقوله عن الكون.

المشكلة يا سيدي ليست فقط أن كلامك قد تبين خطؤه لاحقًا. ولكن المشكلة لماذا كان يسيرًا عليك أن تؤمن بأي معجزة غير مفهومة، شريطة ألا تكون الله؟!

المشكلة يا سيدي أني أجدك في هذه الآية: ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ (الزمر ٤٥).

٣

تفسير التفسير

"لا نعرف من أنباء الغيب إلا مقدار ما كُشِفَ لنا، وأعلمنا جل ذكره أنه استوى على العرش ولم يخبرنا كيف استوى"

الحسين بن الفضل البجلي

تخيّل أنك سوف تكون على متن أول سفينة فضائية تهبط على سطح كوكب نبتون، أنت الآن على الكوكب البارد بحيث لم يسبقك إلى هنا أحد، ولا حتى ربوبوت هوفر. الآن أنت قد توغلت في أحد المغارات الثلجية، ودخلت أحد الكهوف، و... ما هذا؟! هذا هاتف من النوع (سامسونج إس ٦) بنظام تشغيل (أندرويد) يقبع أمامك على أرضية الكهف، وحين فتحته وجدت فيه آخر أفلام هوليود من إنتاج ٢٠١٧. ما تفسيرك؟! أحد البشر بالطبع قد وصل هنا أو قام بإيصاله إلى هنا بطريقة ما. هل يمكن أن يكون هناك تفسير آخر؟!

والآن، سؤال منطقي: كيف وصل هذا البشري إلى هنا؟ متى؟ على أية سفينة؟ لماذا لم يخبر أحدًا؟ إن تفسيرك في الواقع قد قاد إلى مجموعة من الأسئلة الأعقد! تفسيرك يحتاج إلى تفسير وأنت لا تملكه. لذا فأنا سأفترض أن تفسيرك خاطئ، وأقول: عذرًا، أنت مُخرّف. هذا الهاتف لم يقم أحد البشر بإيصاله إلى هنا!

هل يمكنك أن توافقني على افتراضي ذلك؟ بالطبع لا! أنت قدمت تفسيرًا جيدًا. في الواقع قد قدمتَ التفسير الوحيد. وعدم امتلاكك لتفسير التفسير، أو كون جوابك على السؤال قد جلب مجموعة أعقد من الأسئلة، كل هذا لا يعني أن تفسيرك خاطئ، هو يعني فقط أن معرفتك محدودة، هذا كل ما في الأمر!

(دوكنز) من هؤلاء الذين سيفترضون الافتراض السابق، يقول أننا لا يمكننا أن نزعم أن الله هو خالقنا لأننا لا نعلم كيف جاء الله. ولأن عالم الطبيعة عادةً هو فيلسوف أحمق كما قال آينشتاين، ولأن (دوكنز) نفسه من طائفة العِلمويين الذين يرون أن الفلسفة قد ماتت، لهذه الأسباب نجده يقع في هذه الأخطاء البدائية البسيطة.

لذلك يعلق الفيلسوف (ألفن بلنتنجا) على كتاب (وهم الإله) لدوكنز: «العديد من حججه تستحق علامة فشل مدرسية في حصة فلسفة غير ناضجة، إذا جمعنا ذلك إلى لغة الكتاب المغرورة والمتعالية، فسيكون الأمر مزعجًا». ويقول الناقد البريطاني (تيري إيجلتون) عن ذات الكتاب: «تخيل شخصًا يسهب في الحديث عن علم الأحياء، ومبلغه من العلم فيه لا يتجاوز ما ورد في موسوعة الطيور البريطانية، ثم حاول أن تكوّن فكرة عما يمكن أن تشعر به عندما تقرأ لدوكنز وهو يتحدث في علم اللاهوت».

في الحقيقة فدوكنز يمثل إحراجًا لفلاسفة الملحدين أنفسهم! مثل الفيلسوف الملحد (جوليان باجيني) الذي أكد أن حركة الإلحاد الجديد تصيبه بالخجل. والفيلسوف الملحد (مايكل روس) الذي كتب في صحيفة الجارديان عن دوكنز وكتابه: «لقد كتبتُ أن كتاب (وهم الإله) قد جعلني أشعر بالخجل كملحد، وقد قصدتُ ذلك. في محاولة لفهم كيف من الممكن أن يستغني الله عن سبب، يدعي المسيحيون أن الله موجود بالضرورة. لقد بذلتُ جهدي لأحاول فهم معنى ذلك. (دوكنز) وجماعته يجهلون مثل تلك الادعاءات ويستهزئون بمن يسعون لفهمها، فضلًا عن الإيمان بها. وبالتالي، مثل طالب جامعي في سنته الأولى، بإمكانه أن يسير بفخر بين الناس سائلًا غيره بصوت عال: (ما سبب وجود الله؟) وكأنه حقق كشفًا فلسفيًا عظيمًا».

طالب في السنة الجامعية الأولى بالطبع لن يستطيع أن يفهم أن الإلزام بوجود تفسير للتفسير لا يلزم من يقدم التفسير.

لذلك يقول الفيلسوف (الملحد أيضًا) (جريجوري داوز) يرد على دوكنز في كتابه (الألوهية والتفسير): «يبدو أن دوكنز يفترض أن كل تفسير ناجح لا بد عليه أيضًا أن يفسر تفسيره. ولكن ذلك مطلب غير معقول. إذ إن العديد من تفسيراتنا الأنجح تثير ألغازًا جديدة، وتقدم لنا أسئلة جديدة تحتاج إلى أجوبة».

ونجد الفيلسوف (الملحد أيضًا) (بيتر لبتون) في كتابه (الاستدلال على أفضل تفسير) يقول: «ليس من الواجب أن تكون التفسيرات نفسها مفهومة، فبإمكاني أن أفهم لمَ لم تأتِ أنت إلى الحفلة إذا قلتَ أنك تعاني من صداع شديد، حتى لو لم تكن لدي أدنى فكرةَ لِمَ أصابك الصداع. ما يفسر غيره لا يحتاج هو نفسه إلى أن يُفهَم».

ولأن هذه الحقيقة كانت واضحة تمامًا لكل الفلاسفة على مر العصور، لم يقل أحد من فلاسفة الدليل الكوزمولوجي (وهو الدليل الذي فصّله الفلاسفة العرب بإثبات وجود الله بحجة وجود خلقه ويسمى أيضًا الدليل الكلامي نسبةً إلى علم الكلام عند المسلمين) أن كل شيء لا بد له من سبب. بل كان كلامهم واضحًا: كل شيء (حادث) لا بد له من سبب.

فبالتالي يفقد الفيلسوف (إدوارد فزر) أعصابه وهو يتكلم في مقاله (المادية الجديدة) في مجلة (المجلة الأمريكية)، ويقول: «في الحقيقة، لم يقدم البتة أحد من المدافعين المشهورين عن الدليل الكوزمولوجي في تاريخ الفلسفة الحجة الغبية: (لا بد لكل شيء من سبب). لا (أفلاطون)، ولا (أرسطو)، ولا (الغزالي)، ولا (ابن ميمون)، ولا (توما الأكويني)، ولا (يوحنا دانز سكوتس)، ولا (ليبنتس)، ولا (صموئيل كلارك)، ولا (رجينال جريجو لاجرنج)، ولا (مرتمر أدلر)، ولا (ويليام لين كريج)، ولا (ريتشارد سونبرن)، ولا أحد غيرهم في حدود علمي».

يخبرنا القرآن أنه ليس علينا، ولا ينبغي لنا أن نتتبع حبل التفسيرات حتى آخره، لا يجب علينا أن نحمّل أنفسنا عناء اقتفاء السبب وراء السبب طالما لم يكن لدينا به علم: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ (الإسراء ٣٦).

لماذا ليس لدينا به علم؟

في الفصول القادمة مزيد من التفسير.

٤

مسكنة الحواس

"كل ما توهمه قلبك، أو رسخ في مجاري فكرتك،

أو خطر في معارضات قلبك، فالله بخلاف ذلك كله"

عمرو بن عثمان المكي

منذ عدة سنوات تم إصدار قانون في مدينة (مونزا) الإيطاليّة بعدم جواز احتفاظ محبو الحيوانات الأليفة بالسمكة الذهبيّة -والتي تعدّ من أشهر أسماك الزينة- في أحواض السمك الكروية، وفسّر مجلس المدينة السبب وراء هذا القانون بأنه شيء وحشي الاحتفاظ بها في حوض مقوّس الجوانب، لأنها حين تحدّق إلى الخارج ستتكون لديها صورة مشوّهة عن الواقع !

ماذا عن تشوّه صورة الإنسان عن الواقع إذن؟!

الفيلسوف الفرنسي (مونتيني) أشهر شُكّاك عصر النهضة، لاحظ أن بعض الحيوانات لا تملك بعض الحواس كالرؤية والسمع، ومع ذلك لا تشعر أنها محرومة منها، فتساءل: لماذا لا يكون الإنسان محرومًا بدوره من حاسة ما، خاصة بإدراك أشياء لا يعرفها، وهو لا يشعر بفقد هذه الحاسة الهامة؟ وهو ذات التساؤل الذي قدّمه الفيلسوف المسلم (أبو حامد الغزالي).

يمكنك أن تظن أن ما تراه أمامك من الموجودات، هو كل ما هو موجود فعلًا حولك. بينما في الحقيقة شبكيّة عينك لا يمكنها أن تشعر إلا بنطاق معيّن (ضيّق جدًا) من الأطوال الموجيّة للأشعّة الضوئية يقع بين ٤٠٠ و ٧٦٠ نانو متر. فقط نطاق صغير من الضوء (٣٠٠ نانومتر)، وكل ما يقع خارج هذا النطاق لا يمكنك رؤيته.

تذكر أن طيف الموجات الكهرومغناطيسية (الذي يكوّن الضوء جزءًا منه) تقع في نطاق واسع جدًا بين موجات الراديو ذات الطول الموجي الكبير ($١٠^{٥}$ نانو متر) وموجات الكوزميك (تلك القادمة من الفضاء وناتجة عن بقايا للانفجار الكبير) ذات الطول الموجي الدقيق جدًا ($١٠^{-٦}$ نانو متر) هذا هو النطاق الذي نعرفه فقط حيث لا يمكننا التعرّف على شيء منها إلا ما تسمح أجهزة

رصدنا بالتعرّف عليه، فالله أعلم ببقية النطاق الحقيقي! معنى ذلك أننا (كبشر نرى ٣٠٠ نانومتر فقط) ندرك بأعيننا جزءًا من ٣٠ مليار جزء من الأشعة الكهرومغناطيسية! فقط!

يمكنك أن تظن أيضًا أن كل ما تسمعه هي كل الأصوات من حولك. بينما في الحقيقة أذنك لا تستطيع التقاط موجات صوتية إلا في حدود ترددات معينة تقع ما بين ٢٠ هرتز و ٢٠ ألف هرتز (يقل هذا المدى الأقصى إلى ١٢ ألف هرتز فقط في حالة كبار السن). هناك من الحيوانات ما يستطيع سماع نطاق من الترددات أكبر وأقل من ذلك بالمناسبة، وهو السبب الذي يجعلها تشعر بالزلازل قبل وقوعها، لأنها تسمع صوت انزلاق صفائح القشرة الأرضية قبل أن تنتقل الحركة على سطح الأرض بالفعل.

وتبقى في النهاية الفكرة التي نريد إيصالها ثابتة: أنت لا ترى ولا تسمع ولا تشعر إلا بنطاق ضيق جدًا من هذه الحياة، وحواسك محدودة بالفعل!

وبالعودة إلى السمكة الذهبيّة، فإن حواسنا تقوم معنا بالدور الذي تقوم به جدران القفص الزجاجي المقوّسة: إعادة تهيئة للواقع بما يتناسب مع كيفية إدراكنا له! بمعنى آخر: هذا ليس هو الواقع كله، ولكن هذا هو مقدار الواقع الذي تمّت (تهيئتنا) على أن نعلمه!

ناهيك عن حدود أخرى للحس: الأماكن البعيدة عنا نحن كبشر! المجرات التي تقبع هناك في زاوية بعيدة من الكون، ماذا يحدث فيها؟ وهل هناك غير هذا الكون الذي نعيش فيه؟ هل هناك أكوان أخرى في أماكن أخرى من خلق الله؟ لا نعلم شيئًا!

✿✿✿

وفيما يخص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصفاته وكيفيتها نجد القرآن يحدثنا عن ذلك فيقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام ١٠٣).

لذلك لم يفلح موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في طلبه: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف ١٤٣). لأن جواب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه كان: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ (الأعراف ١٤٣).

لا يمكننا أن نقيس الله تعالى على أي شيء رأيناه أو سمعناه من قبل، وذلك لأن الله عز وجل ليس كمثل أي شيء آخر أدركته من قبل حواسنا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى ١١).

لذلك شرح لنا ابن تيمية أن الله هو في الحقيقة (غيب الغيب) وذلك لأن: «التفكير والتقدير إنما يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس، وذلك يكون في الأمور المتشابهة، وهي المخلوقات. وأما الخالق فليس له شبيه ولا نظير، فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه».

إذن أحد الأسباب التي تمنعنا من الوقوف أمام صفات الله عز وجل وقوف التحدي، هو أن حواسنا تقوم بظلمنا باستمرار ونحن لا ندري!

٥

حافة العقل

"إن للعقل حدًا ينتهي إليه كما للبصر حد ينتهي إليه"

الإمام الشافعي

أقنعني أحدهم أن رواية (إدوين إبوت) القس الإنجليزي الشغوف بالرياضيات، التي كتبها في العام ١٨٨٤ وتُدعى (الأرض المسطحة) هي رواية ممتعة للغاية، ومن ثمّ قرأتها بناءً على هذه التزكية، ليتبين لي أنها لا شيء أكبر من مجرد (فكرة غريبة) معروضة في قالب أقرب للإملال.

الرواية في رأيي متوسطة من الناحية الفنية، وهذا خلاف لرأي بقيّة العالم في الغالب، يبدو أنني البشري الوحيد الذي قرأ الأرض المسطحة ثم لم يحبها. غير أنني وقعت في غرام الفكرة البسيطة التي قدّمها والتي سأحكيها لك حالًا!

نحن نعيش في عالم ثلاثي الأبعاد: الطول والعرض والارتفاع. على سبيل المثال أنت تنظر إلى الكتاب الموضوع أمامك على المنضدة فتشاهد له عمقًا، فتعلم أنه كتاب، لو لم تشاهد هذا العمق لقلت عنه أنه (صورة كتاب) ملصوقة على المنضدة.

بالمثل، الفرق بين المستطيل والعلبة (التي هي في الاصطلاح الهندسي: متوازي مستطيلات) أن العلبة لها عمق بينما المستطيل له بعدين فقط: الطول والعرض.

ماذا سيحدث لو كان هناك عالمًا ثنائي الأبعاد وكل ما في هذا العالم هو كائنات لها طول وعرض فقط؟ هذا هو ما تخيله إدوين إبوت في روايته: الأرض المسطحة، رحلة إلى عالم ثنائي الأبعاد.

أخذ بعد ذلك يشرح في الكيفية المعقدة التي يعرفون بها بعضهم البعض، في هذا العالم فكلما ازداد الكائن في الرفعة الاجتماعية كان هذا معناه عدد أكبر من الأضلاع له، حتى تصل إلى أعلى مرتبة لديهم وهو الدائرة. يتعرّفون على بعضهم البعض عن طريق انعكاس الضوء على هذه الأضلاع، وحدة انكساره عند أطرافها. يا لها من طريقة معقّدة!! نعم ولكنها أيضًا الطريقة

الوحيدة، تذكر أنهم لا يملكون البعد الثالث، أي أننا لو شاهدنا هذا العالم من أعلى سنرى المربع والمستطيل والدائرة وهم يحتسون القهوة، بينما هم لا يستطيعون النظر من (أعلى) لا يوجد لديهم (أعلى) أصلًا، بل عندهم فقط (أمام) و(خلف) و(يمين) و(يسار).

بالنسبة لهذه الكائنات، فإنك لو أخذت قلم رصاص وخرقت هذه الورقة التي يعيشون عليها فإنهم لن يشاهدوا هذا القلم قطعًا، ولا حتى سيشاهدون الخرق الذي سيحدثه فيها، ولا حتى سيشاهدون الفتحة وهي تتسع مكان القلم، بل كل ما سيشاهدونه من رؤيتهم هو خط يبدأ صغيرًا (في اللحظة التي يخترق فيها سن القلم الورقة) ثم يزداد (كلما ازداد القلم في اختراق الورقة) حتى يصل إلى أكبر حجم له (في اللحظة التي يخترق القلم الورقة بالكامل) حتى يدخل جسم القلم كله. بعد ذلك لن يشاهدوا شيئًا ولن يلاحظوا أي تغيير لو أدخلنا القلم وأخرجناه مئة مرة (لأن الفتحة لن يزداد عرضها أو يقل!).

هذا هو ما سيحدث لنا تمامًا لو زارنا كائن من بعد آخر لا نعلمه، لن نرى منه إلا انعكاس أو ظل أو آثار، ولربما لا نلحظ أي شيء على الإطلاق!

ألهم (إبوت) غيره بهذه الفكرة، ففكرة الأرض المسطحة، عالجها من بعده (هوارد هينتون) في رواية شبيهة تحمل نفس الاسم في ١٩٠٧، ثم الكاتب الروسي (أوسبونسكي) من بعدهما. والغريب أن الثلاثة من المشتغلين بعلم الرياضيات. ترىٰ ما السر؟

يفكر بعض علماء الرياضيات أن العالم الذي نراه الآن قد يكون مجرد صورة هولوجراميّة لعالم آخر رباعي أو خماسي الأبعاد! هناك منهم من بالغ في الشطط وجزم بأن عالمنا يحتوي على أحد عشر بعدًا. وكان يرى أن هذا هو الحل الوحيد لكي يتم حل معادلاته الرياضيّة.

ماذا عن الفيزيائيين؟ في نظرية الأوتار الفائقة يفترضون عددًا من الأبعاد ١٠ أو ١١ أو ٢٦ بعدًا حسب نماذجها المختلفة. هل يمكنك أن تتخيل حجم الأشياء غير المدركة غير المعقولة في عالم يتكون من ٢٦ بعدًا مثلًا بينما أنت تعيش في ٣؟!

لا يعنينا كل ذلك، فالله أعلم بحقيقة الحال. ولكن فقط أردنا أن نوضّح أن حدودك الإدراكية بالغة الضيق والصغر، ولكنك لسبب ما لا تريد أن تقنع بذلك!

حافة العقل وحدوده أدركها الكثير من العقلاء على مر التاريخ، والذين يُطلق عليهم: الفلاسفة الشكوكيون. ربما بدأت بذرتهم في القرن السادس قبل الميلاد عند الأيونيين، ثم نجد (هرقليطس) ثم (أريستيبوس)، ثم (القورنيائيون) الذين أضافوا للشكية مبدأ (ذاتية الأحاسيس)، ثم (بيرون) الذي عاصر أرسطو وأسس مذهب الشك المطلق.

من بعد (بيرون) نجد مدرسة الأكاديمية الجديدة، متمثلة في (أرقاسيلاس) الذي يخبرنا بأننا كبشر لن نعرف شيئًا أبدًا! و(قرنيادس) -ما هذه الأسماء العجيبة؟!- الذي لم يكتفِ بالشك في المعرفة الحسية فقط، بل انتقد المعرفة العقلانية كالمنطق والرياضيات أيضًا.

ثم بدأت الشكية الجدلية: (أناسيداموس) والذي قال باستحالة امتلاك العقل الإنساني لمعيار مطلق يدرك به الحقيقة. و(أجريبيا) الذي وضع خمس حجج تثبت عجز العقل. ثم لدينا الشكية الإمبريقية: (فيلينوس الكوسي)، و(سكستوس).

ثم لدينا شكية العصر الوسيط: أوكام، ومونتيني، وابن خلدون، والغزالي. ثم العصر الحديث: ديكارت، وهوبي، وباسكال، ولوك، وفولتير، وديدرو، وهيوم ثم كانط.

كل هؤلاء الفلاسفة الذين كانت اجتهادات العقل بالنسبة لهم مدار جهدهم الأكبر في الحياة، وربما (أكل عيشهم) أيضًا. كانوا يرون أن العقل البشري قد أثبت عجزه ونقصه وله حدوده الواضحة وحوافه الصريحة. ومن تلك الحدود الواضحة: التناهي!

لذلك كان يقول (سبينوزا): «إن جوهر الله يجب أن يكون لا متناهيًا وبصفات لا متناهية. حيث أن افتراض أنه متناهٍ يعني أنه يحده حد. ومن ثم لن يكون حينها الحقيقة الوحيدة».

﴿﴾

فحينما يتحدث القرآن عن صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ التي تحارُ فيها العقول، ومنها بطبيعة الحال الطريقة التي كان الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها موجودًا قبل الوجود، فهو الأول الذي ليس قبله شيء. يخبرنا القرآن أن هذا أمر طبيعي علينا ألا نقدر على استيعابه بشكل كامل! كما يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ (طه ١١٠).

ومن ثمّ يكون من الحمق - ومن أفعال جحا كما وضّحنا - أن تصرّ على اتباع هذا الطريق والبحث عن هذا الجواب، طالما اتفقنا أنك تتعامل مع كينونة إلهية أكبر بكثير مما يقدر عقلك على أن يحيط بها.

٦

المفعول به

”ولو كان السجل الوحيد ذو المغزى للفكر البشري سيُكتَب

فإنه يجب أن يكون تاريخ أسفه المتعاقب ولا قدرته“

ألبير كامو

من أنت بالنسبة إلى البكتيريا؟ ما العالم كله بالنسبة إليها؟ لا تملك البكتيريا أية أجهزة حسية تتعرف على العالم من خلالها. لا عيون، لا آذان، لا خلايا حسية على الجلد، لا جلد أصلًا لو لاحظت. لديها فقط مجموعة من البروتينات يتعرف كل بروتين منها على مركب كيميائي معين. نحن وبقية العالم بالنسبة لها عبارة عن بعض المواد الكيميائية في شكل محلول ما! هذا هو كل ما تعرفه.

النحل لا يستجيب للضوء الأحمر، ولكنه يرى الأشعة فوق البنفسجية التي لا نستطيع نحن رؤيتها، والخفافيش تتعرف على المواقع عن طريق رجع الصدى بعد إرسال موجاتها فوق الصوتية. بعض الأسماك لديها أعضاء كهربية، والثعابين لديها عيون تدرك بها الأشعة تحت الحمراء، والنحل حساس تجاه الضوء المستقطب، وأما العصافير فتستجيب للمجال المغناطيسي الطبيعي للكرة الأرضية.

من جديد نسأل: ما العالم بالنسبة إلى هذه الكائنات ذات الأجهزة الحسية المختلفة؟ هل هو شيء واحد؟ هل يمكن أن نقول أن العالم الذي تدركه السمكة الكهربية هو ذات العالم الذي يراه الثعبان بعيونه تحت الحمراء؟

يكوّن كل كائن صورته عن العالم من خلال المعلومات التي يجمعها عنه، في حالة الكائنات البسيطة مثل البكتيريا والحشرات فإنها تنتج استجابة حركية فطرية لهذه المعلومات دون أن تعبأ بعناء ترجمتها إلى صورة مكتملة أو إدراك ما. أما الكائنات الأعقد مثل الطيور والثدييات فإنها تكوّن صورة إدراكية عن الواقع من خلال هذه المعلومات المُستَقبلة.

وهكذا، على حسب النوع البيولوجي يتكون ما يسميه العلماء: الواقع البيولوجي، فواقع كل كائن حي ليس هو الواقع الحقيقي بأكمله، ولكنه فقط جزء الواقع الذي استطاع هذا الكائن أو ذاك أن يجمع عنه المعلومات الكافية! ولكن، هل الإنسان استثناء؟

هذه الطفلة التي تراها أنت تلعب الحجلة هناك في تنورتها الصفراء، هل هي طفلة حقًا تلعب الحجلة في تنورة صفراء؟! على سبيل المثال، لا يوجد ألوان في الواقع الحقيقي، ولكن شبكية عينك تحوّل طولًا موجيًا معينًا إلى إشارة كهربية مميزة، ومخك مُبرمج على أن يدركها على هيئة لون ما. وأنت لا ترى جسم الطفلة كسحابة جسيمات برغم أن هذه هي حقيقتها فعلًا. ولأن مخك يدرك الزمن بخلاف الزواحف مثلًا فأنت تفهم أنها تلعب الحجلة لأنك تدرك وتتذكر الحركة القافزة التي كانت تفعلها منذ ثانية مضت.

جهازك العصبي تغاضى عن أشياء، واخترع أشياء، وفسر أشياء، حتى تستطيع أن تكوّن واقعك البيولوجي المتخيّل عن الواقع الحقيقي.

في الواقع جهازك العصبي يفعل ما هو أكثر من ذلك: يغير الشكل المادي للمؤثر الذي يصلك من العالم الخارجي! حين تسمع صوت فحيح الأفعى وترى منظرها المرعب، فإن اهتزازات جزيئات الهواء التي تصطدم بطبلة أذنك، وسيل فوتونات الضوء الساقطة على شبكيتك تتحول داخل جسدك إلى ارتفاع في هرمون الأدرينالين بداخلك.

بالنسبة للكبد مثلًا فهو يدرك تغير درجة الحرارة عن طريق تغير نسبة السكر في الدم. سرعة حركة جزيئات الهواء تحولت للكبد في صورة تغير في تركيز المواد الكيميائية! أي أن الكائنات الحية ذاتها تحدد الشكل المادي للبيئة التي تعيش فيها.

هناك ما هو أغرب بخصوص الواقع البيولوجي، فالبكتيريا التي تعيش في سائل لا تشعر بالجاذبية التي نشعر بها نحن لأنها طافية في هذا السائل. في المقابل فهي تشعر بقوة طبيعية أخرى لا نشعر بها نحن وهي قوة الحركة البراونية Brownian Motion حين تنهال عليها وابل حركة جزيئات السائل الذي تسكنه من كل اتجاه.

أي قوة طبيعية تعتمد على ثلاثة عوامل لإحداث أي تأثير، الحجم والمسافة والوقت. وبما أن جينات كل كائن تحدد حجمه، والمسافة التي تفصله عن الكائنات الأخرى، وسرعة تغييره لحالته. فبالتالي درجة تأثير قوى العالم الطبيعي وعلاقتها بأي كائن مخزنة مسبقًا في جيناته!

نحن مع كل خلق الله نعيش في حالة من القيّومية والقهر الجبروتي الكامل. يُرينا الله العالم بالطريقة التي يريدنا أن نراه عليها، يُخضع كل نوع منا لما يريد أن يُخضعه له. يجعلنا ننظر إلى الملكوت فلا نرى إلا ما يأذن لنا به منه، يخلقنا الله في الصورة التي يشاء على الوضع الذي يشاء حتى ندرك ما يشاء.

يذكرنا ذلك بخطاب الله لنا حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار ٦ -٨)!

فما الذي غرّك يا مفعولًا به!

***

تعال إلى مثال آخر لتلك المفعولية: مخّك.

حجم مخ الإنسان البالغ عمومًا ١١٣٠ سم٣ في النساء و١٢٦٠ سم٣ في الرجال، بالطبع هناك اختلافات فرديّة في هذا، لكن هذا هو المتوسط. أما مخّ الطفل بعد الولادة تمامًا يبلغ حجمه تقريبًا ٣٠٠ سم٣، ليصبح ٩٥٠ سم٣ عند سن ثلاث سنوات، وحوالي ١٠٥٠ سم٣ في سن خمس سنوات.

هذا هو السبب في أنك لو أمررت يدك على دماغ الطفل حديث الولادة ستشعر بأنه يوجد تحت جلده فتحة كبيرة مخيفة فوق الجبهة، هذه هي الـ Anterior Fontanelle، هذه الفتحة موجودة هناك كي تسمح لدماغ الطفل بأن ينمو، ولا تنغلق قبل سن عام ونصف تقريبًا. لو حدث أن أغلِقَت مبكرًا فهذا معناه: إعاقة ذهنيّة.

كل ما أنتجه الإنسان من حضارة عظيمة وأفكار رائعة كان نتاج هذه الـ ١٢٠٠ سم مكعب من الخلايا المخّية، عندما نقصت بمقدار ١٥٠ فقط صار بوسعك أن تخدع صاحبها بألعاب سحرية بلهاء، ويكاد لا يعرف كيف يجمع سبع تفاحات على أصابعه!

يمكنك أن تتخيل ماذا سيحدث لو زاد إذن حجم المخ للضعف مثلًا؟! ما كم الذكاء والقدرات المخّية التي سيحصل عليها ذلك المحظوظ؟! تخيّل د. نبيل فاروق كاتب الخيال العلمي المصري ذلك في إحدى رواياته، فكانت النتيجة رجلًا يتحكم في العالم كله بأشعّة غامضة تخرج من دماغه الجبار. هناك دائمًا أشعة غامضة في قصص د. نبيل على كل حال.

لذلك لا يسعني إلا أن أشعر بالشفقة تجاه من يظن أنه يقدر على أن يحيط علمًا بخالق الأكوان بالألف ومائتي سم مكعب خاصته من الخلايا العصبية!

أنت مفعولٌ بك، لم تختر أن يكون مخك أعظم مخ على الأرض وبرغم ذلك بهذه المحدوديّة الرقميّة. بل في الواقع إنه اختيار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لك، إنه فعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيك، إنها مشيئة الله التي سمحت لك بأن تعلم (بعض) الأشياء بما يشاء! كما يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أعظم آية في القرآن: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة ٢٥٥).

أنت مفعولٌ بك، حين تنظر إلى المرآة فتجد وجهك وشكلك المحفوظيْن اللذيْن لا يمكنك تغييرهما، لقد فُطرت هكذا من دون اختيارك، من دون أن يسألك أحد! هذا بلا شك دليل على

اختلاف المكانة العظمى بينك وبين الفاعل الأعظم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. كما وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسه حينها بـ (العزّة) في قوله: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (آل عمران ٦).

هذه (المفعوليّة) توقفك عند حدّك الطبيعي وتمنعك من الطغيان، كما دار الحوار التالي بين فرعون الذي خرج عن حدّه الطبيعي واعتبر نفسه ندًّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فأراد أن يسأل عن كينونته، وبين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي كان ينظر لله من وجهة نظر مكانته الإنسانية المفعول بها والتي ترى الوجود كله أيضًا مفعولاً به: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۞ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۞ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۞ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۞ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (الشعراء ٢٣ -٢٨).

لا عجب إذن من أن الله قد سنّ القوانين التي تفصلنا عنه في صفاتنا، قد حكم بالأحكام التي تجعلنا لا نساويه، قد خلقنا على طريقة مغايرة عن ذاته الكاملة.

على سبيل المثال جميع مخلوقاته أزواج، بينما هو فردٌ أحد لأنه ليس كمثله شيء: ﴿**جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ (الشورى ١١). وجميعنا ننعس وتنفد طاقتنا بينما هو الحي القيوم: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**﴾ (البقرة ٢٥٥). وجميعنا يفنى ويضمحلّ ويموت والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باقٍ: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ (الرحمن ٢٦ -٢٧).

لماذا نجرؤ على الغرور إذن ونظن أننا قد نلنا من صفات الإله؟! لماذا نُشكل على كيفية صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكأننا نفهمها حقًّا؟! وكأننا نعرف ما نتكلم عنه! وكأننا مثل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس مثلنا، ذاته غير ذاتنا، صفاته غير صفاتنا، أفعاله غير أفعالنا. وحين نتأمل في مفعوليّتنا وفاعليّته، في غلبتنا على أمرنا وفي إرادته، في عجزنا وفي قدرته، لا يتسنّى لنا أن نعتبر عقولنا الصغيرة مصفاة فرز لصفات الله، أو أن نظن في أنفسنا القدرة على الحكم بـ معقوليّة أو لا معقوليّة وجوده! لا يتسنّى لك أن تغترّ إلى هذا الحد!

لماذا؟!

لأنك مخلوقٌ وهو الخالق أيها الساذج!

٧

الظاهر الباطن

"من ليس في قلبه الله، فليس بإمكانه أن يشعر بغيابه"

سيمون ويل

كتب رائد الأدب الإنجليزي (هربرت جورج ويلز) في ١٩٠٤ قصة (وادي العميان) وتحكي عن مجموعة من المهاجرين من أمريكا اللاتينية سقطت عليهم انهيارات صخريّة في جبال الإنديز فعزلتهم بشكل كامل عن بقية العالم، ثم انتشر بينهم مرض أدى إلى التهاب أعينهم وفي النهاية أصيبوا بالعمى هم وكل من ينجبونهم، وبعد عدة أجيال صارت هذه المنطقة المعزولة مدينة كاملة كل من فيها عميان ولا يعرفون أي شيء عن العالم، أو يصدقون أن هناك أصلاً شخص يمكن أن يرى شيئًا غير الظلام الدامس الذي اعتادوا رؤيته ولم يروا غيره!

استمر الحال على ذلك حتى سقط في واديهم مغامر بريطاني كان يستكشف الجبال، وعرف أنه لا يستطيع الخروج من هذا السجن. في اللحظة الأولى ظن أنه سيكون ملكًا عليهم، إذ إنه الوحيد المبصر وسط العميان. لكنه فطن بعد ذلك إلى أنهم كانوا يعتبرونه مجنونًا أصلاً ولم يصدقوا أن هناك نور بالفعل وإبصار وأشياء من هذا القبيل.

في النهاية ولكي يندمج هذا البطل المبصر مع بقية السكان فكّر في أن يفقأ عينيه، ولكنه تراجع عن ذلك في اللحظة الأخيرة لما رأى جمال أشعة الشمس وعلم أنه لن يتخلى عن هذا بسهولة من أجل حفنة من الأغبياء.

هذه قصة شبيهة إلى حد كبير بأسطورة أهل الكهف التي حكاها أفلاطون، وهي لا تمت بصلة بقصة أهل الكهف المذكورة في القرآن لو كان هذا قد خطر ببالك.

ذكر أفلاطون قصة من خياله، تخيل أن مجموعة من الناس يسكنون كهفًا منذ أن وُلدوا في ظلام دامس، ولم يخرجوا منه أبدًا، وداخل الكهف كوة صغيرة في حائط مقابل، في الطرف الآخر يوجد ضوء، بحيث يمر الناس بجانب الكهف فلا يرى أهل الكهف إلا ظلالهم المعكوسة على الحائط.

لا يرى أهل الكهف إلا ظلال المارة ولا يسمعون إلا صدى أصواتهم، ولكنهم يتخيلون أنهم يرون الواقع الخارجي، فإذا أخرجنا أحد أهل الكهف إلى النور ورأى الشمس، والواقع على حقيقته، فإنه سوف يضطرب في البداية ثم يأنس بالواقع الجديد الأكمل من واقع أهل الكهف. ولما عاد إليهم وحاول أن يخبرهم بما رأى. اعتبروا أن بصره قد فسد بالنور ولم يصدقوه، ورفضوا نصيحته في الخروج من الكهف حتى لا تفسد عيونهم مثله.

ذكرت هذه القصص لأنني لا أريدك أن تستخلص مما سبق من النقاط في هذا الفصل أن صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محتجبة عنا بالكامل أو أن الله خفيٌّ عنّا بشكل تام!

هذا ليس بصحيح على الإطلاق، فصحيح أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو اللطيف الذي يخفى على عباده، والباطن الذي لا يوجد ما هو أخفى منه أيضًا، ولكنه أيضًا الظاهر الذي ظهر عليهم وظهر لهم بكل شيء، فليس ثمّة شيء فوقه، أو أظهر منه!

هذا التباين نجده في المثال الذي ساقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا في القرآن حين يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ**﴾ (النور ٣٥).

هذا هو المثال الذي دأب على شرحه علماء التفسير وأهل الوعظ والرقائق منذ فجر الإسلام، ودأبوا على ذكر معنى التشبيهات المذكورة في الآية. المثال الذي يبيّن لنا كيف أن الله أظهر وأوضح من أي شيء آخر!

كوّة في الجدار تسبب تضخيم للضوء وتحميه من التشوّش والتشتت، تحوي بداخلها زجاجة شديدة اللمعان والنقاء كأنها نجم في سماء الصحراء الصافية، والزجاجة تحوي مصباحًا يأخذ وقوده من زيت شديد الصفاء، هذا الزيت لم يأتِ من أي شجرة، بل كانت شجرة مباركة في موقع متميز من أشعة الشمس التي لا تغيب عنها مما يؤهلها لإنتاج أفضل الزيتون وأكمله، مما يجعل زيتها نضرًا صابحًا يكاد يضيء بدون حتى أن تمسّه بالنار!

مثال تشبيهي رائع. لا يمكنك أن تتخيل نورًا أنقى ولا أظهر من ذلك النور. وبرغم ذلك، لا يدرك ذلك النور أي أحد! فبعد هذا المثال مباشرةً يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في نفس الآية: ﴿**يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ (النور ٣٥)!

ليس كل أحد يقدر على رؤية هذا النور إذن! وبنفس منطق الرجل المبصر في وادي العميان. لماذا كانوا عميانًا؟ لأن آلة إدراكهم قد فسدت فلم يروا هذا النور.

فلا تفسدها أنت بيديك عمدًا ثم تقول: لا أراه.

بالطبع لن تراه حينها أيها البائس!

أنا حزين فعلًا من أجلك!

الذين رسبوا في اختبار الخط

(عن سؤال: هل هناك غاية من الخلق؟)

"**كان آينشتاين يقول: «الله لا يلعب بالنرد مع الكون». وكان يكره مبدأ اللاحتمية في بعض تفسيرات ميكانيكا الكم، لأنه يرى أن قوانين الطبيعة ليست اعتباطية. فهل يمكن أن نفترض أن الله (لا يلعب) حين نتحدث عن (إحكام) الخلق، ولكنه (يلعب) حين نتحدث عن (حكمته) من هذا الخلق؟!**"

لسبب ما تشكل ذكريات المدرسة الابتدائية أقوى الذكريات لدينا، بينما لا يمكننا أن نتذكر معظم ما حدث في المرحلة الثانويّة، وبالطبع كلنا يعلم أن أحدًا منا لم يدخل المدرسة الإعدادية أصلًا، بل هي خدعة مشتركة من أهالينا جميعًا. وإلا فأين ذهبت كل هذه الذكريات؟!

من أقوى ما أذكره من هذه الفترة أني في امتحانات الشهادة الابتدائية -وبعد أن اجتزت الكثير من الاختبارات الصعبة- كنت أختبر مادة (الخطّ) حين يكون عليك أن تقلّد الخطوط المرسومة أمامك، لا أحد يرسب في اختبار الخط فعلًا، ليس لأننا نجيد ما نفعله فيه، بل في الحقيقة معظم الطلاب يستحقون أن يرسبوا بجدراة، ولكن لأنه من المستحيل على إدارة المدرسة أن تقنع أهل الطالب بأن من مصلحته أن يعيد عامًا كاملًا من حياته لأنه يكتب كالدجاج.

لذلك لم أهتم كثيرًا بهذا الاختبار، وحين بدأت في التململ أخذت أرسم في منتصف كرّاسة الإجابة وبالقلم الجاف، الكثير من البطّ والمسدسات وأعلام مصر والشمس على ركن الصفحة كالمعتاد! اندهش المراقبون من فعلي، وجاءت مشرفة الدور لترى ما فعلته بالورقة التي ينص القانون على رفض نجاح صاحبها وهي بهذا الشكل.

ما زلت أذكر ملامح وجهها غير المصدقة نصف غاضبة ونصف مندهشة، وهي تسبّني بسبّة (ميري) جدًا: يا تحفة. نظرت لها في عدم اكتراث وقلت لها: لا أحد يرسب في اختبار الخط يا أبلة. قالت: قل لنفسك يا تحفة.

اندهشت وقتها من أن الأمر لم يكن بسيطًا فعلًا، فهذه اختبارات الشهادة الابتدائية حيث هناك مراقبون من الوزارة، وقواعد بيروقراطيّة صارمة، والاحتياج الدائم لختم النسر وإمضاء أستاذة دولتْ على كل شيء. في النهاية، وبعد عدة تدخّلات نجحوا في تبديل ورقتي مع تأكيدات بألا تعيد الرسم وتجاوب على الاختبار يا تحفة.

الراسبون في اختبار الخط هم أسوأ البشر حظًا! أولئك الذين يفعلون الصعب وينسون السهل، الذين يجتازون الأسئلة العسيرة ثم يقعون في أسهل الأسئلة وأهونها، الذين سلكوا أول طريق الإيمان ثم ارتدوا على أدبارهم القهقرى عند منعطف لم يكن زلقًا إلى هذا الحد!

هؤلاء الذين يسألوننا: حسنًا، الله موجود، وهو أعلى وأكبر من أن نحيط علمًا بصفاته، ولكن من أخبركم أنه يسمعنا ويعلم بحالنا وينزل لنا شرائعه ويدعونا لعبادته؟! لماذا لا يكون قد خلقنا ثم هجرنا؟؟

نرى كيف أجابهم القرآن إذن.

١

إهمال؟

"أنت لستَ مهجورًا، إلى أن تشعر أنك كذلك!"

لامين بيرلهارت

خزينك من الجلوكوز والأحماض الأمينية والحديد والفوسفور وحمض الفوليك والماغنسيوم وبقية المعادن هو مخزون صغير ينفد سريعًا، لذلك عليك أن تأخذ هذه العناصر بشكل مستمر مع وجبات غذائك. وأما الجزيئات الأهم لجسدك مثل الماء والأوكسجين مثلًا فليس لديك مخزون منها أصلًا. ولربما هذه من أسباب رحمة الله عز وجل علينا بأن جعل الماء والهواء من النعم المشاع لكل البشر في كل وقت وبلا كلفة تذكر.

النعم الأساسية الموجودة في جسدك تتحصل عليها بشكل مكتسب ومستمر في كل لحظة سوف تتنفس فيها أو تشرب فيها الماء أو تأكل وجبتك التالية. هذا شبيه بنعمة ضياء الشمس مثلًا، هو حرفيًا يذهب كل ليلة ويعود كل صباح، لاحظ أننا لا نتحدث عن شيء موجود دائمًا، ولكن عن شيء يتجدد دائمًا!

ربما كان هذا هو السبب الذي ذكرنا القرآن لأجله بأن علينا أن نعيد الانتباه كل يوم لنعمة تجدد سكينة الليل وضياء النهار: ﴿**وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (القصص ٧٣).

إن هذه أمثلة جيدة على أن نعم الله في الواقع تتجدد عليك بشكل كامل في كل لحظة، أنت الذي حسبت أنها كانت أشياء أعطاكها وكفى، لم تفطن إلى أن عملية الإعطاء مستمرة.

لم تفطن إلى أنك ما زلت واقفًا تملأ جرابك المحدود بنعمه غير المحدودة، فقط من طول وقفتك قد نسيتها تمامًا، بينما لو أصخت السمع لاستمعت إلى صوت تلك النعم التي لا يتوقف دخولها في جرابك كصوت رتيب مستمر دافئ تعتاد عليه أذنك حتى تنساه، مثل صوت ثلاجتك الصاخبة الذي لا تنتبه له إلا حين يتوقف.

هذا يذكرك بأن ربك ليس بصانع ساعات خلق الكون وضبطه ذاتيًا ثم رحل، بل ربك ما زال يحوطك بعنايته وإحسانه في كل لحظة ويلاقيك في كل حين بعين ما تحتاجه.

لذلك تجد أن الله لم يهملنا لحظة، يطعم جائعًا، ويستر عاصيًا، ويجبر مكسورًا، ويرزق محرومًا، ويرحم يائسًا، ويرزق الجميع من حيث لا يحتسب أحد. كما يقول عز وجل: ﴿**يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ (الرحمن ٢٩).

في أولى محطاتنا إذن للنظر إلى الإجابة القرآنية على سؤال الغاية نلاحظ أن القرآن قد عارض صراحةً ذلك المبدأ العقلي المُبسَّط الكسول: إهمال الله لخلقه! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ**﴾ (المؤمنون ١٧). وكما يقول جَلَّجَلَالُهُ في الآية الأخرى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ (الزمر ٦٢).

هناك تلازم بين الإيجاد والرقابة المستمرّة في خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا التلازم يلاحظه الإنسان في التيسير أو التعسير الذي يلقاه في أموره الخاصة. الذي قد يخرج عن نطاق المنطق المادي القائم على الاحتمالات في أحيان كثيرة إلى منطق ميتافيزيقي ممّا وراء الطبيعة! ربما لهذا يشيع مبدأ الـ (كارما) في ديانات شرق آسيا كالبوذيّة والهندوسيّة واليانيّة والطاويّة والسيخ. من هذه الديانات ما هو إلحادي صرف، لا يؤمن بوجود إله لهذا الكون ولكن لسبب ما يتخذون طرق روحانيّة معقدة للحياة فقط، ومن هذه الديانات ما هو وثني تمامًا، ومنها ما هو ليس ديانة أكثر من مجرد مدرسة يوجا قديمة!

برغم ذلك اشتركوا في الإيمان بهذا المبدأ الروحاني: الكارما، تعني أن أفعالك الحسنة والسيئة تنعكس على قدرك في هذه الدنيا، تجد التيسير لك في أمورك، وتنجح في حياتك الزوجيّة، ويتسنى لك اللحاق بالقطار في آخر لحظة. كل هذا ليس اعتباطًا ولكن لأنك تعامل الناس بشكل حسن ولا تكسر إشارة المرور وتطعم جارك معك في وجبة التوابل العجيبة التي صنعتها زوجتك.

أما النصف الغربي من العالم، هؤلاء الذين لا يهتمون بالرياضات الروحيّة إلى هذا الحد، فإنهم لاحظوا أيضًا أن هناك سرًا غامضًا ما يربط عملية (التوفيق) والتيسير هذه، للدرجة التي جعلت الأسترالية (روندا بايرن) تدّعي أنها قد وصلت إلى (السرّ). وأنتجت كتابها الذي يحمل نفس الاسم وبيع منه عدة عشرات من الملايين من النسخ. هو كتاب مليء بالهراء تمامًا في نظري! يتحدث عن قانون الجذب ويخلط قوانين الحركة الفيزيائية بالطاقة النفسيّة وقواعد تنمية الذات. وبرغم ذلك لاقى رواجًا شعبيًا كبيرًا من مختلف الثقافات. من جديد نحن نتعامل مع الاستشكال البشري للطريقة الغامضة التي تُدار بها الأمور.

في المقابل، فإن القرآن يعطيك التفسير الأمثل والوحيد لهذا اللغز. إن الإله الذي خلق كل شيء، لم يكن له أن يخلق هذا الخلق ثم يغفل عنه، هو ليس مهملًا لخلقه، ليس جاهلًا عمّا يدور به، ولا غافلًا عمّا يحتاجه أو (يستحقه) هذا الخلق، هو ليس عاجزًا عن أن يلاقي أهل الإحسان بما يحتاجونه ولا أهل الإساءة ببعض ما يستحقونه، بل هو القدير الذي أحاط بكل شيء علمًا! لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ (الطلاق ١٢).

٢

لهو؟

" الله لا يلعب بالبرد مع الكون "

ألبرت آينشتاين

الشركة الأمريكيّة (جارتنر) المتخصصة في التقنية المعلوماتيّة أعلنت أن الاستثمار في ألعاب الفيديو قد تحوّل حجمه من ١٠٠ مليون في ١٩٨٥ إلى ٤ مليار في ١٩٩٠. أصبحت هذه الاستثمارات ٩٣ مليارًا في ٢٠١٣! بالطبع لا أريد حتى محاولة معرفة حجم هذه الاستثمارات الآن في ٢٠١٥. حقيقة أن البشريّة تنفق كل هذه الأموال على تطوير ألعاب تسنح لك بالعيش في عالم افتراضي يمكنك فيه مصارعة المجرمين بعضلاتك القويّة وإنقاذ حبيبتك من السيارة التي على وشك الانفجار، بدلًا من إنفاقها على محاولة هزيمة المجرمين الحقيقيين في الشوارع فعلًا أو إنقاذ ملايين الأطفال من الموت جوعًا وبردًا، هذه الحقيقة تصيبنا بالغثيان!

طبقًا لمنظمة مكافحة الأمراض CDC فإنه بين عامي ٢٠٠٩ و ٢٠١٠: ١٢٪ من الأطفال من سنتين إلى خمس سنوات، و١٨٪ من الأطفال من سن ٦ إلى ١١ سنة، و١٨،٤٪ من سن ١٢ إلى ١٩ سنة مصابون بالسمنة. هذا البحث لم يضع في اعتباره هؤلاء الذين يعانون من بدايات سمنة بسيطة: (تختخة) أو وزن زائد: (Overweight). هذه الأرقام المخيفة ظهرت مع إدمان ألعاب الفيديو التي جعلت الأطفال مشغولين في مكافحة الزومبي في غرفة المعيشة بدلًا من اللعب والحركة والنشاط الجسدي الحقيقي في الأندية.

تؤثر ألعاب الفيديو أيضًا بشكل سلبي للغاية على معدّل الإنتاجية والحياة الاجتماعية وتأسيسات النجاح في الحياة كما جاءت نتائج دراسة لـ (فونك) و(بوخمان) في ٢٠٠٨. مما أصّل في الوجدان البشري أن ألعاب الفيديو ليست للناجحين! فالعقول العظيمة لا تلعب الفيديو كما يقول (راي برادبوري) الأديب الأمريكي الشهير.

حتى بين مدمني هذه الألعاب يشيع الشعور بالاكتئاب والدونيّة من جرّاء إنفاق الأوقات الطويلة على الخيال العابث، بدلًا من معيشة هذه الحياة فعلًا! لذلك يقول مثلًا باتريك شان (بطل

العالم ثلاث مرات في التزحلق على الجليد): أنا أحب ألعاب الفيديو، لكن بعد فترة تشعر أنك تحتاج إلى القيام من مقعدك وأن تفعل شيئًا ما!

الناجحون لا يضيّعون حياتهم في ألعاب الفيديو! قاعدة يعرفها الجميع، ولأننا نملك هذه النظرة البشريّة إلى هؤلاء الذين يضيّعون أوقاتهم وقدراتهم في عمل عابث ليس له قيمة، فبالتالي نحن نعلم جيّدًا بشاعة من يظنون ذلك في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ! فيذكّرنا القرآن بفداحة هذا الظن السيء به، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ**﴾ (الأنبياء ١٦).

كان آينشتاين يقول: «الله لا يلعب بالنرد مع الكون». وكان يكره مبدأ اللاحتمية في بعض تفسيرات ميكانيكا الكم، لأنه يرى أن قوانين الطبيعة ليست اعتباطية. وهو الأمر الذي نلاحظ أن كل شيء في الكون يدل عليه. فهل يمكن أن نفترض أن الله (لا يلعب) حين نتحدث عن (إحكام) الخلق، ولكنه (يلعب) حين نتحدث عن (حكمته) من هذا الخلق؟!

نجد هذا المعنى واضحًا في قول الله عز وجل: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ (الرحمن ١٩-٢٠)

استعاذة المؤمن من النار حينها هو ربط بين حكمة الله عز وجل وعدله في خلقه، وحكمة الله وعدله في جزائه. ذلك الإله الذي خلق كل هذا الإحكام، كيف نظن به أنه يلهو؟! كما ذكر ابن جرير الطبري في تفسيره للآية: «لم تخلق هذا الخلق عبثًا ولا لعبًا، ولم تخلقه إلا لأمر عظيم».

ولكن أيضًا ما هذا الغرور البشري الفادح الذي جعل بعضهم يظن أنه أهل بأن يكون محطّ اللهو الإلهي لو كان هناك شيئًا من هذا والعياذ بالله؟! إنه كما تخيّل الإغريق آلهتهم: مجموعة من المرضى النفسيين الذين لديهم Issues باستمرار من البشر، فتراهم يفضلون أن يشعلوا حربًا بين الإغريق وأهل مدينة طروادة من أجل أن يتسلّوا بالمشاهدة وتشجيع أبطالهم المفضلين، بينما تنزل (أفروديت) إلهة الحب، و(أثينا) إلهة الحكمة، و(هيرا) ملكة الإلهات إلى الأرض ويحكّمون شابًا مراهقًا (باريس) في: أينا أشد جمالاً! هذا تصوّر بشري مريض لمقام آلهتهم التي جعلوها بكل هذه (النفسنة) والحاجة إلى التسلية.

بينما القرآن يتسم مع النظرة العاقلة في الإنسان الذي يقول إنه على الأقل لو افترضنا أن الإله يريد أن يلهو -وحاشاه ذلك سبحانه- فسيتخذ لهوًا أفضل وأكمل وأعقل وأجمل من هذا الكائن الضعيف المتهالك: الإنسان! كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ (الأنبياء ١٧).

٣

عبثية؟

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ ؟!

سورة النبأ آيتي ١-٢

يعرف كتاب الروايات اليوم أن عصر ما بعد الحداثة يتطلب أن تجعل بطل روايتك أقرب إلى نوع (اللا بطل) : (Anti -Hero)، مثل السياسي الخبيث أو المتهور الأحمق أو مريض الربو الذي لا يستطيع أن يلاحق أي مجرم في الطرقات لأنه سيحتضر مع أول عشرين مترًا يجريهم. لأن هذا النوع من الأبطال قريب فعلًا إلي كل واحد منا، أنت لا تحمل بداخلك (أدهم صبري) الذي يجيد كل شيء من غسيل المواعين وحتى قيادة السفن الفضائية، ولا (شِرلوك هولمز) الذي لا تفوته الهفوة. في الواقع لربما أنت أقرب إلى (هومر سيمبسون) عاشق الدونات الفاشل أو إلى (بطوط) البط الكسول متقلب المزاج الأناني إلى حد كبير ولكنه طيب القلب حقًا ويرعى أبناء أخيه!

برغم ذلك فهم يعرفون أيضًا ضرورة أن يملك هذا البطل شيئًا ما يستحق الحديث عنه، شيئًا يميزه عن باقي سكان الكوكب الذين لا تحب أن تقرأ قصة حياتهم لأنها ببساطة مملة! لربما كان هذا الشيء هو المزيد من العلم أو الذكاء، لربما كان المزيد من سوء الحظ أو المصائب، أو حتى المزيد من الغباء! أي شيء يجعل هذا الشخص مثيرًا للفضول. ومرة أخرى هم يفعلون ذلك لأن هذا أقرب إلى الطريقة التي ينظر بها كل واحد منا إلى نفسه، والشعور بالتميز الذي نُكنّه لأنفسنا دون أن نعترف به!

كل واحد منا يظن بشكل ما أنه يستحق أن تُجرى معه لقاءات صحفية ويتحدث الناس عنه وعن أفكاره! إنها الحماسة التي تعترينا في اللحظة التي نجد أمامنا فيها مكبر صوت وجمهور من البشر يستمعون. أو نجد (مارك) وهو يسألنا سؤاله المعهود: (ما الذي تفكر فيه؟) على صفحة فيسبوك. إنه الشعور الذي وجدناه في أنفسنا منذ بدأنا نتعرف على الوجود.. أنا مميز، أنا مختلف! لذلك تجد الكثير ممن يشكو أنه لا أحد يفهمه، أو تجد هذا الرجل وعلى وجهه ابتسامة ساخرة وهو في

حفل صاخب، أو تلك المرأة التي تشرب قهوتها في شرود فلسفي ما. هم يشعرون أنهم مختلفون عن كل ما حولهم، وهم صادقون في ذلك!

أنت تشعر أنك موجود، موجود جدًا لو صح التعبير! في داخل وعيك الإنساني عالم متكامل من صنعك! في هذا العالم صوت الخوف فيه هو نباح الكلب، لا لشيء إلا لأنك تخاف من الكلب! ورائحة العطر الذي تضعه أمك في الصباح قبل أن تعانقك صار في هذا العالم الخاص هو رائحة الحنان ذاته! في هذا العالم الفريد أنت تملك تخيلًا عن شكل الاشتهاء متمثلًا في منظر وجبتك المفضلة على المائدة. تعرف ما هي صورة الحزن، إنها تلك الصورة التي تراها حين تتذكر أسوأ ذكرياتك المؤلمة. تعرف ما هي أبعاد الحقيقة، إنها تلك القناعات التي وصلت لها بخبرتك الشخصية! في عالمك الخاص قمت بالرجوع للزمن مئات المرات لإصلاح أخطائك، قمت بالتحليق في عوالم خيالية لم يفكر بها مخلوق، وخطبت بنت السلطان، وصارعت قراصنة الكاريبي، وقدت الجيوش ضد روميل!

هذه هي الطبيعة التي خلقنا الله تعالى عليها، هذه هي عظمة الوعي الإنساني الذي اختصنا به دون غيرنا. الشعور بالتفرّد والأهمية والمسؤولية والطموح، القدرة على الحلم والأمل والتمنّي، إمكانية الاختيار والاعتبار وتمييز الصواب، إدراك الوجود وتمييز العالم والإحساس بالجمال.

هذا وعي عظيم إذن! لا بد أنه أعظم من أن ينتهي بسكتة قلبية ناتجة عن تراكم الشحوم، أو حادثة على طريق الساحل! من المنطقي أنه سيستمر إلى ما بعد ذلك. من البديهي أن عملية إنشاء هذا الوعي العظيم من نطفة منيّ غبيّ، لم تكن بلا هدف ولن تمرّ مرور الكرام! من المؤكد أنه لن يُهمل ولن يُنسى ولن يُرحم من السؤال. من المهم أن تسأل نفسك هذا السؤال: ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ**﴾ (القيامة ٣٦-٣٧)؟!

كان ابن القيم يعلق على هذه الآية فيقول: «احتج سبحانه أنه لا يترك الإنسان مهملًا معطلًا عن الثواب والعقاب، وأن حكمته تأبى ذلك، من بعد أن نقله من نطفة منيّ إلى علقة إلى مضغة، ثم خلقه وشق سمعه وبصره وركب فيه الحواس والقوى».

***

يأتيك هذا الجواب القرآني حين تسأل: إذن لربما كان الإله ما زال يحوطنا برعايته ولم يهملنا، وربما كانت له غاية من الخلق ولا يلهو بنا، ولكن لماذا لا تكون هذه الغاية هي مجرد وجودنا في الدنيا، نموت بعد أن نحيا، وهذا كل شيء!

حين تتأمل في التباين الضخم بين الأصل الذي كان عليه الإنسان من كمية سائل صغيرة تحتوي خلايا مثيرة للشفقة وتسبح في بحيرة من الفركتوز، وبين النتيجة التي صار عليها من رجل

مهيب يرأس الدول أو يقود الجيوش، أو امرأة مرهفة الحس تكتب الروايات الدراميّة وتكوّن فلسفتها الخاصة عن الحياة، أو شخص عبقري يحلل ببراعة وذكاء أعوص مسائل الفقه ويحفظ المجلدات السميكة المرعبة.

هذا التباين غريب، إنه يعني أن هناك من (قدر) و(أراد) و(اعتنى) بهذه القطرات لتصير هذا الكائن المبهر بكل ما يحويه في رأسه من أفكار عظيمة وعالم كامل غير منقوص! هذا خلق عظيم ، وتدبير فائق، من المنطقي أن هذا المخلوق الذي حدثت له هذه الطفرة الكبيرة لن ينتهي وعيه بهذه البساطة ويصير إلى التراب ويفنى، ولن يُترَك سدًى.

كان الأستاذ عبد الله الشهري يرى أن هناك ثلاثة مستويات لإدراك الغاية. المستوى الأول إدراك التعقيد في الكون، وهذا لا ينازع فيه أحد.

والمستوى الثاني هو إدراك التنظيم فيه، وهذا ينازع فيه السفهاء من اللادينيين وأما العقلاء فلا يقدرون على إنكاره، مثل اللاديني الشهير (كارل ساجان) الذي اعترف أن «مظاهر النظام في الكون كثيرة».

وأما المستوى الثالث، فهو إدراك الغاية المعقولة من هذا التنظيم وذاك التعقيد. وإلا فلمَ كان كل هذا إذن؟! هل مجرد عبث؟! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ (المؤمنون ١١٥)؟!

لا، لا توجد عبثية على الإطلاق. بل لا بد من وجود غاية جادة من هذا الخلق!

٤

فشل؟

"لو لم يحصل للإنسان معاد، لكان أخسّ من جميع الحيوانات في المنزلة والشرف"

فخر الدين الرازي

بالرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تحوي إلا ٥٪ من سكان العالم، إلا أنها تتربع بلا كبير منافسة على التعليم العالي! إذ إنه في أعلى ٢٠ جامعة علميّة في العالم تأتي ١٧ جامعة أمريكيّة!

جامعة هارفارد هي أعلاهم على الإطلاق، إذ إنها تحتل المركز الأول في جامعات العالم، على سبيل المثال ٢٣ رئيسًا أو ملكًا على مستوى العالم على مر العصور المختلفة حتى لحظة كتابة هذا الكتاب، تلقى تعليمه في هذه الجامعة! أخذني الفضول للبحث عن السبب الذي جعل هذه الجامعة بهذا التميّز، فوجدت أن هذا بسبب درجة الانتقاء العالية التي تتميز بها! تحرص (هارفارد) على الانتقاء العالي، مثل انتقاء المدرّسين بها، مثلًا هناك ٤٧ أستاذًا جامعيًا بهذه الجامعة قد حصلوا على جوائز نوبل (تذكر آسفًا أن عدد جوائز نوبل التي حصل عليها كل المسلمين في كل العصور هو ١٢).

كما أن هناك انتقائيّة أعلى للطلاب الذين يلتحقون بها، ففي العام الماضي (٢٠١٤) لم تقبل سوى ٥،٩٪ فقط من المتقدمين لها من الطلاب! هذه الانتقائيّة ليست مادية، بل لقد دفعت في العام الماضي فقط ١٦٠ مليونًا من الدولارات للطلاب المؤهّلين علميًا غير القادرين على دفع التكاليف المادية للدراسة، ممّا جعلها تشمل تنوّعًا كبيرًا من الطلاب داخل وخارج أمريكا من خمسين خلفية ثقافيّة مختلفة، لا يجمعهم شيء إلا أنهم يستحقون!

لو سمعت عن مدرسة كل من يلتحق بها ينجح وبدون اختبار، فإنك تكوّن فكرة جيدة عن

مدى نجاح هذه المدرسة فعلًا، وأؤكد لك أنك لن تحب أن توظّف أيًا من خرّيجيها في شركتك الخاصة.

ومن تأمل بسيط في خلق الكون، هذا الإحكام الكوني العظيم يتنافى مع هذه النظرة الاختزاليّة لغاية الوجود: الكلّ يتساوى. بل الخلق كله قائم على (الحق)! لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (إبراهيم ١٩ -٢٠). ويحكي عن الرجل العاقل الذكي الذي فهم هذه الحقيقة فيقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران ١٩٠ -١٩١).

الإجابة القرآنية تأتي ذلك الذي يتساءل عن غاية الخلق، وبعد أن علم أن هذه الغاية لا يمكن أن تكون عبثيّة، فهي لا يمكن أن تكون باطلة وفاسدة كذلك! هذه الغاية لا يمكن أن تسوّي بين الصالح والطالح، وتذهب بتعب العاملين سدًى، ولا يمكن أن يكون النظام الكوني مبنيًّا على هذه العشوائيّة في الاختيار، والفوضويّة في التقييم، والاشتراكيّة في الجزاء!

بل وقتها لن يتساوى الجميع فقط، ولكن أيضًا سيفرّ ذلك المتمتع بالشهوات المحرّمة والأموال المنهوبة والمناصب المسلوبة والتسلّط على الرقاب. سيفرّ بفعلته وسيكون قد حاز على فضل الداريْن! ذلك ظنٌّ شنيع بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يسمح بذلك في كونه، هذه المساواة في النهاية لا تساوي إلا (فشل) كامل للنظام الكوني الموضوع، وحاشا لله أن يسمح بهذا الفشل! تَساوي الجميع حينها لن يُساوي إلا بطلان لغاية الوجود، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص ٢٧ -٢٨).

لو كان الإنسان صالحًا وله حياة قاسية، هل ستكون حياته الآخرة بعد الموت قاسية؟ ولو كان فاسدًا وله حياة مرفهة هل ستكون حياته الأخرى كذلك أيضًا؟ هل يليق بعدل الله وحكمته أن يكون محيا كل فريق منهما مساو لمماته؟ لذلك نجد في القرآن رفضًا لهذه الصورة الظالمة، فيقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الجاثية ٢١-٢٢). ونلاحظ في ربط الآيتين السابقتين أن القرآن يستشهد بحكمة الله في خلق الآفاق على الحكمة والعدل في الحُكم والجزاء. وهو قياس عقلي منطقي بامتياز.

كما يقول سبحانه في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (التين ٤-٨). ومن معاني الدين الجزاء. فكما يقول (الفرّاء): «فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعد ما تبين لك من خلق الإنسان الذي وصفناه»؟!

لا يوجد إهمالٌ إذن، ولا لهوٌ. بل هناك غاية، وهذه الغاية ليست عبثيّة، وليست فاشلة باطلة تسوّي بين الجميع . ولكن كيف لنا أن نعرف بذلك؟!

٥

إغفال؟

"عش على مراد الله منك لا على مرادك من الله"

ابن القيم

في قصة الأديب الفرنسي غزير الإنتاج (ألكسندر دوماس) بعنوان (الرجل ذو القناع الحديدي)، تعرّفنا الرواية على ذلك الكائن القابع في سجن الباستيل بقناع على رأسه يخفي معالمه، لا يعرف أحد من هو، في النهاية نعرف أنه توأم الملك السافل الذي فضّل سجن أخيه عن أن ينازعه الملك. المحزن أن أصل القصة حقيقي، إذ إن هناك رجلًا بالفعل قد اعتُقِلَ في سجن الباستيل من ١٦٦٩ إلى ١٧٠٣ وهو مغطًّى بقطعة قماش سوداء طوال هذه المدة.

بالنسبة للرجل ذي القناع الحديدي في رواية دوماس، فقد كان أكبر عذاب له هو عدم معرفة تهمته أو ما هو سبب وجوده في هذا المكان، تمامًا كمثل الذي يعيش بدون دين، إنها العبثية الكاملة في حياة بدون معنى، وأما الله، فلم يكن ليدعنا دون أن يُعلمنا بغايته منّا، إن كانت له غاية، وقد سبق ووضّحنا كيف لنا أن نتأكد بأن له غاية!

إن هذا هو عين ما أنكره القرآن لما قال سبحانه: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (الزخرف ٩-١٠). وهو الاستدلال الذي لاحظه الدكتور (أحمد إبراهيم)، إذ كيف يهدينا الله عز وجل في الطرق والمسالك والبحار والصحاري الجافة ثم لا يهدينا لغايات الآخرة العظيمة؟!

بل لو حدث العكس لكان من الأمور المستهجنة الغريبة أن يرضى الإنسان لنفسه أن يكون إلهه لا يتكلم معه ولا يوضّح له ماذا يريده منه! لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عن هؤلاء الذين عبدوا العجل الذهبي من بني إسرائيل: ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ**﴾ (الأعراف ١٤٨). إذ كيف تعبد من لا يكلمك ولا يهديك إلى ما يريده منك سبيلًا؟!

الله جَلَّجَلَالُهُ لا يفعل معنا ذلك، في المقابل يبيّن لنا ما يجب علينا أن نتقيه وما يجب علينا أن نحذره قبل أي شيء. كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التوبة ١١٥). وظنّك بخلاف ذلك هو الخطأ الأكبر، والتهوين الشنيع من قدر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أن تظن أن الله لم يرسل لنا أحدًا! كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام ٩١).

الله لم يهملنا، لم يتخذ منا لهوًا، لم يخلقنا لغاية عبثيّة، ولا لغاية باطلة فاسدة، بل غاية حكيمة نبيلة لا يوجد ما هو حقٌ سواها، الغاية التي بدونها لا يكون لهذه الحياة معنى ولا هدف، ولا يوجد لها مذاق يستساغ. ثم أعلمنا بهذه الغاية بالطريقة التي اختارها سبحانه.

لا ترسب في اختبار الخط !

الحاسة الأولى

(عن سؤال: لماذا يكون الإيمان بالغيب؟)

"ولكن ماذا لو استجاب الله لهم؟ هل ستَفرُغ جعبتهم من الحجج؟ هل تتوقع أنهم سيسلّمون بهذه البساطة؟ ولماذا يكون إنزال كتاب من السماء أو الإتيان بملائكة أو إسقاط أمطار الذهب عليهم دليلًا أقوى من دليل الخلق والإيجاد نفسه؟ أسيعجزون وقتها عن أن يأتوا بـ (فرضيّات) علميّة وفلسفيّة لتفسير تلك الآيات الجديدة؟!"

أتعلمون؟

أفكر في أننا نثق في أمور غريبة لا تستحق الثقة!

نثق في ذاكرة ذلك الطبيب الباطني أن يتذكر معلومات طبية لربما لم يمرّ عليها منذ عدة سنوات. أن يتذكر العلاج المناسب لحالتنا وألا يختلط في ذهنه بـ (سيانيد البوتاسيوم) على سبيل السهو. قد كانت ذاكرته وخبرته العلمية وتعابير وجهه التي تدل على منتهى الحكمة والرضا الكامل عن النفس يكفون من وجهة نظرنا أن نسلّم له مستقبل غدتنا الدرقيّة!

نثق بعدها في خطه الذي يشبه تعاويذ سحرة (الويكا) أن يقرأه بشكل صحيح ذلك الصيدلي. ولربما لم يكن الصيدلي موجودًا واعتمد على (سيد شحاتة) العامل الشاب الذي يفكر في زواجه وأمه المريضة وصاحبه (متولي) الذي يدينه بعدة مئات من الجنيهات. ومن جديد نحن نسلّم مستقبل كِلْيتنا إلى عقل (سيد شحاتة)!

نثق في مكابح السيارة التي نقودها بسرعة ١٤٠ كيلو مترًا في الساعة، معتمدين على سلاسة الطريق السريع. نثق أنه في اللحظة التي سنحتاج فيها إلى ضغطة الفرامل أن نجد (التيل) سليمًا غير متآكل من كثرة الاستخدام، وأن نجد زيت الفرامل في مكانه الطبيعي غير مسرّب، وأن نجد (ديسك) الفرامل قابلًا لتحمّل الاحتكاك المباشر مع الحديد. إن مصير ذلك الحضن الغالي مع تلك الشاحنة العملاقة يعتمد على كل هذه الثقة العمياء!

نثق في أشياء غريبة، لا نراها، غير ملموسة، غير واضحة، غير مُعتَمد عليها في الواقع. هناك الكثير من الأشياء في حياتنا الدنيا نقوم بفعلها اعتمادًا على هذه الثقة وهذه الحاسّة الخفيّة. رغم أن الأمثلة المذكورة في الواقع لا تستحق كل هذه الثقة، لكننا لا نجد في أنفسنا كبير ممانعة منها، بخلاف أشياء أخرى هي أوثق منها بالتأكيد!

ورغم أن الكثيرين يفضلون استخدام اسم (الحاسة السادسة) على تلك الحاسة الخفيّة التي بها (نشعر) ولا (نرى) إلا أن هذه المرة نحن نتعامل مع حاسة أكبر من مجرّد (شعور)، إنها تلك التي ندرك بها الموجودات بما استدللنا عليه من المقدّمات العقليّة المعتادة، والملاحظات المنطقيّة المُشَاهَدة، والدلائل المتناثرة التي تدل على شيء ما، شيء لم نره بعد ولكننا متأكدون من وجوده! ربما نسميها (الثقة) أو (القناعة) أو (الفكر) أو (الإيمان). لذلك أفضل أن أسميها: الحاسة الأولى، إذ إنها في نظري أقوى من أي حاسة أخرى قد تخدعنا!

حين تراقب أسراب النمل وهي تحوم حول مخلّفات إفطارك، فتذكّر أنك وبدون أن تشعر، وحين كنت تعدّ كوبًا من الشاي، قد ضُمِن لهذه العائلة النمليّة عشاؤها. وحين تخاطر بإنفاق كل مالك على افتتاح محل صغير في شارع مزدحم بالمحلات الصغيرة، فمهما كان ضعف إيمانك أنت حينها تعتمد على هذه الحاسة! عمليّة الرزق هذه يتبين لك فيها أن مبناها على هذه الحاسة الأولى دون أن تشعر، لذلك يخاطبنا القرآن بإحساسنا تجاه هذه القضيّة بالذات، إذ إنها مثال واضح على مسألة الثقة (الغيبيّة) التي نشعر بها بفطرتنا البشريّة، فيقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ**﴾ (سبأ ٢٤). ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (العنكبوت ١٧)!

الإيمان بشيء ما غير مرئيّ هو ليس بأعمى، بل نحن على يقين به أشد من يقيننا بما نراه، وبنفس منطق ذلك الذي يثق في حدْسه أكثر من واقعه، الفارق الوحيد أن الحدْس قد يخطئ، وأما الدلائل التي اعتمدنا عليها في الإيمان ليست بمخطئة.

لذلك نحن لدينا جوابات قرآنية كافية عن ذلك الذي يسأل: لماذا عليّ أن أؤمن بالله وهو غيبٌ عني؟!

١

حتمية

"في غياب أي دليل آخر، فإن الإبهام
وحده من شأنه أن يقنعني بوجود الله"

إسحاق نيوتن

في الاختبارات التي يتم عقدها في الجامعات ذات المستوى العالي من التعليم يدخل الطلاب إلى قاعة الامتحانات ليجدوا ورق الامتحانات موضوعًا أمامهم على المنضدة، ولا يكشفونه إلا في لحظة معيّنة يحددها مراقب اللجنة، حتى يتحقق العدل بين الطلاب في الوقت الذي اختُبِروا فيه، بدلًا من أن يكون هناك تفاوت في هذا الوقت بين من كان محظوظًا ويجلس في مقدمة اللجنة وأخذ ورقته قبل ذلك الذي يجلس في آخرها.

بالطبع نحن لا نعلم أمثال هذه العدالة في الاختبارات في مصر! حيث يمكن في اختبارات الثانوية العامة وهي أهم شهادة تعليمية في مصر، أن يأتي مدرّس أول لطالب (مهم) في لجنته ليُلبّي له طلباته الخاصة!

ولا يُشترط أن تكون ابنًا لأحد الكبار في البلد، فيكفي أن تكون ابنًا لأب متحمّس! فبوسعه دائمًا أن يسير بجانب المدرسة التي تمتحن فيها ممسكًا بمكبر للصوت ويملي لك بالكامل نموذج الإجابة.

الفرق بين نوعي الاختبارات المذكوريْن أن الأول هو اختبار عادل للطالب في فهم المواد التعليمية واستذكارها، والثاني هو اختبار لمدى أهميتك في بلدك، أو لمدى قدرتك على استنتاج أن (سيب ربيع) التي ينادي بها أبوك حامل الدبلوم في مكبر الصوت خارج اللجنة هي في الواقع (س تربيع). وهذا قياس جيّد لمدى ذكائك على كل حال.

تقديم نموذج إجابة للطالب يعني أن اختباره لاغ، هذا هو المفترض أن يحدث في أي مؤسسة تعليمية تحترم نفسها. إذ إنك حينها لم تمنع العدل فقطّ من أن يتحقق بين الطلاب، بل أيضًا ألغيت الغرض من الاختبار كله! ولو كان واضع الاختبار غرضه بالنسبة لك أن تنجح بدون أن يختبر من أنت حقًا لفضّل وسيلة أخرى غير إضاعة الوقت والمجهود في إعداد كل هذه الإجراءات الحكوميّة المعقدة!

يخبرنا القرآن أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو من اختار طريقة الاختبار الغيبي للإيمان! كان الله يقدر أن ينزل آيات ساحرة للأذهان، ليس بوسع أي أحد أن يكذّبها، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾ (الشعراء ٤). كان الله يقدر أن ينزّل آية من السماء تجعل أعتى الكفار يصلبون أعناقهم ناظرين إليها في رهبة، وخاضعين لها في ذل، ولا يقدرون على المخالفة. كان الله يقدر أن يجعل الإيمان به ليس محلًّا للسؤال ولا الاختبار. ولكن ليس لهذا خلقنا الله!

اختيار الله جَلَّجَلَالُهُ يقف ضد هذه الطريقة (السهلة) التي يتساوى فيها كل أحد، لا أحد سيكفر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لو كانت الأمور بهذه البساطة، لو لم يكن الإيمان به يحتاج إلى التسليم للغيب. ولكن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لم يجعل سنته في الدنيا تسير بهذه الطريقة.

لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لله الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (الرعد ٣١). هل سمعتم أنتم عن كلام مقروء نزل من السماء من قبل فزلزل الأرض وقطّع الجبال وأحيا الموتى؟! لا، لم يحدث، لم ينزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أمثال هذه الآيات الساحرة للأذهان من قبل، لأن هذا ينافي التسليم للغيب، لأن الله لا يحتاج إلى هذا، لأن الله لو شاء أصلًا لهدى الناس جميعًا إليه دون أن ينزل ولو آية واحدة!

بل هو قانون وضعه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الحياة الدنيا حين خلقها، ينص على: ﴿**وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**﴾ (آل عمران ١٧٩).

قانون يقضي بأن تقوم القيامة، وتفنى الحياة، وتشتعل النيران في المياه، وتسير الجبال أسرع من السحاب، وتنتهي البشرية بأكملها، في اللحظة التي يتحول فيها الإيمان من الغيب إلى

الشهادة! لماذا؟ لأن الاختبار سينتهي في اللحظة التي يظهر فيها للناس نموذج الإجابة! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ (الأنعام ٨). ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (البقرة ٢١٠).

قانون يقضي بحتمية الغيب، تتبين لك في قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام ٩). هؤلاء الذين ألحّوا في الطلب بأن يكون الرسول المبعوث من الله ملكًا ينزل من السماء، أجابهم القرآن بأن الله لو أنزل ملكًا لجعله في صورة رجل، والتبس الأمر عليهم واشتبه بطريقة أو بأخرى في النهاية، هل هذا رجل حقيقي أم ملك في صورة رجل؟؟ وسينتهي بهم الأمر إلى نفس ذات الحيرة، ويسيرون في النهاية في مسار الغيب الحتمي، إذ إن إرادة الله قد اقتضت أن يكون الإيمان به بالغيب!

هذه الحتميّة يخبرنا القرآن أنها مستمرّة معنا حتى الموت، لن يأتي عليك يوم تشعر فيه بيقين تام كمثل يقينك حين ترى يوم القيامة رأي عين، بل ستبقى لديك مساحة (طبيعية) من الظلاميّة والغموض لأمر الآخرة، لن تُزال هذه المساحة تمامًا حتى تراها بعينك، كما يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن يوم القيامة لما نراه بأعيننا: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق ٢٢)!

لذلك فرّق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بين (علم) اليقين و(عين) اليقين: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (التكاثر ٥ -٧). إذ إنه مهما كان يقينك في الله واليوم الآخر، لن يكون أبدًا مثل ذلك اليقين حين تراهما بعينيك!

هذه المساحة الطبيعية لا تخدش الإيمان، بل هو أمر طبيعي في الإنسان الذي خلقه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ معتادًا على الشعور بحواسه التي أودعها الله فيه، حتى إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد فهم ذلك، حين حكى لنا القرآن أنه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة ٢٦٠)!

كان يبحث عن زيادة اطمئنان، عن إزالة لهذه المساحة، التي نجدها نحن في أنفسنا فنفزع منها، ولم نعلم أن هذا أمر طبيعيّ وسنة من سنن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الدنيا، العيب فقط على من جعل هذه المساحة من الحيرة تكون في نفسه أشد وقعًا وأخطر فعلًا من الظلام الدامس والتخبط الدائم والحيرة المطلقة التي يكون فيها الكافر الذي لا يعلم من أين جاء ولا لماذا أتى إلى هذا العالم!

٢

غابة من الغيوب

"هو الإيقان بما يُرجَى، وبرهان أشياء لا تُرى"

تعريف الإيمان كما جاء في (رسالة إلى العبرانيين ١١:١)

دُعِيَ أحد المصورين من مدينة (تولا) لالتقاط صور في مقر إقامة (ليو تولستوي) بمدينة ياسنايا بوليانا. فسأل المصور تولستوي: «هل الله موجود؟». فسأله تولستوي إن كان قد رأى يومًا ميكروبات تحت المجهر. وأضاف: «لو سألنا أحد الميكروبات هل يوجد مصور من مدينة تولا يدعي رايفسكي، بم تعتقد أنها ستجيب؟».

يؤرّخ الكثيرون لبداية عصر الإلحاد الجديد وأدبياته ذات الخصائص المتميزة، بذلك الكتاب الذي كتبه (سام هاريس) في ٢٠٠٤: (نهاية الإيمان). وفيه يحاول سام أن يقنعنا أنه (عيب علينا) أن نظل (نؤمن) بأشياء لا تُرَى في القرن الحادي والعشرين.

ولكن هل نحن حقًا فقط من يفعل ذلك؟

لنذكر مثالًا واحدًا، وبرغم أن التطور الداروويني مليء بالإغراءات لذكر عشرات الأمثلة على قدرتهم على الإيمان بالغيب، إلا أننا سوف نحاول مقاومة هذا الإغراء ونذكر مثالًا من وحي نظرية الأكوان المتعددة.

نظرية الأكوان المتعددة أو على حد تعبير الفيلسوف (نيل مانسون): «الملاذ الأخير للملحد البائس»، تحاول وضع تفسير بديل لإحكام الكون وتوازنه وصنعه المتقن بأن (تفترض) ببساطة بدون أدنى دليل مادي على أن هناك مليارات الأكوان مثل كوننا وأننا (يا للحظ السعيد) قد تصادف وجودنا في الكون الصحيح. ويهتفون بعبقرية: يشبه الأمر احتمالية الفوز باليانصيب، من الصعب أن تتخيل احتمالية فوز شخص بعينه في هذا اليانصيب ولكن حتمًا لا بد أن (شخصًا ما) قد فاز به!

بالطبع المفاجأة الجميلة أننا نحن هذا الشخص ما.

هذا نوع من الإيمان بالغيب بلا شك! مثل ما قالته الفيزيائية (أماندا بيت) التي هي واحدة من أكبر أنصار النظرية، وهي تتحدث عن نظرية الأوتار وتقول: «هي مبادرة قائمة على الإيمان» Faith based initiative.

لهذا السبب نجد الفيلسوف البريطاني (ريتشارد سونبرن) يقول: «من الجنون افتراض تريليونات الأكوان لتفسير خصائص كون واحد رغم أن افتراض كائن واحد (الله) من الممكن أن يؤدي المهمة بنجاح».

ما هو كم الإيمان الذي تحتاجه كي تؤمن بدون أدنى دليل علمي بوجود مليارات الأكوان (الخربانة) في مكان ما في العالم وأنك موجود لحسن حظن في الكون المظبوط منها؟

وهل هذا (الإيمان الغيبي) منك أكبر أم أقل من إيماني أنا بوجود الله عز وجل؟!

كتب (ستيفن برام) في رسالة إلى أحد التطوريين: «سيدي، أنا مدهوش من قدرتك على الإيمان بالتطور. فهو يتخطى إيماني بالخلق بكثير! إيماني يحتاج كيفية واحدة، وهي حب الإله. بينما إيمانك فيتطلب ثلاثة: أن شيئًا أتى من لا شيء، وأن الصخور تستطيع أن تنتج أشياء حية، وأن الطفرات الجينية يمكن أن تحول دودة شريطية إلى آينشتاين. أنت تربح! لا شك أن إيمانك يتخطى إيماني بكثير».

وكتب (نورمان جيسلر) و(فرانك توريك) كتابًا عنوانه: (لا أملك المقدار الكافي من الإيمان لكي أكون ملحدًا) I don’t have enough faith to be an atheist.

إن كان لا بد لك من الإيمان بالغيب، فلماذا ترفض الإيمان بمفهومي المتكامل المتناسق وتختار أن تؤمن بهذه الحماقات يا سيدي الفاضل؟

يذكّرنا ذلك بقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (العنكبوت ٥٢)!

⁂

اكتشف الفلاسفة والمفكرون على اختلاف اعتقاداتهم ومذاهبهم الفلسفية أننا كبشر نعيش في غابة من الغيوب.

على سبيل المثال ابتكر (إيمانويل كانط) مفهوم التعالي فوق أي تجربة ممكنة Transcendentalism، ويعني به أهمية ارتقاء الوعي بالسلم المعرفي فوق كل تجربة ومفهوم

قبلي. وأما ديكارت فاقترح (سابقًا فيلم الماتريكس بالطبع) أن لربما كنا نعيش في عالم وهمي وواقع افتراضي غير حقيقي. وحاول تأسيس ميتافيزيقا خاصة بالعقل كما أسس كانط ميتافيزيقا الأخلاق.

قرر الفيلسوف (أوكام) أن لا صلة بالعقل لنفي أو إثبات قضايا الدين الغيبية، وفعل هيوم مثله بعده بحوالي أربعمائة عام. وكان رأي نيتشه عن العقل أنه: «خطير يدّعي معرفة كل شيء».

هذه الغابة الكثيفة من الغيوب التي تطال الجميع، العلماء والفلاسفة، أهل الأديان والملحدين، المؤمنين بالله والجاحدين، هذه الغابة التي تقع في النقطة العمياء لعقولنا. إنما يحدثنا عنها القرآن فيقول: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ**﴾ (الحاقة ٣٨-٣٩).

كثيرة هي الأشياء التي لا نقدر على إبصارها.

الغيب مساحة من الظلام وُجِدَت هناك ولا يمكننا أن ننكرها أو نتملص من حقيقة كينونتها. يمكننا فقط أن نجادل ونماري في نوع الغيوب الذي نحب أن نختاره لأنفسنا! وبالطبع مرحّب في كل وقت بهؤلاء الذي سوف يغلقون عقولهم عنه وينشغلون بالواقع المادي، فقط إلى اللحظة التي يصطدمون فيها بحقيقة أنه لا يمكنك حقًا أن تفعل ذلك. الغيب سوف يطاردك في ماديتك التي اخترتها، ووقتها سوف تعيش في الظلام الدائم.

أما المؤمنون، فقد صاروا إلى نور يشق ظلمة غيوبهم، ذلك النور الذي قد انبثق -ككل نور في الواقع- من نور الله عز وجل، فبه تلألأت جميع مصابيح الضياء، وبه يهتدي الإنسان إلى نهاية نفق حيرته الخانق. ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ (النور ٣٥).

٣

استخراج

"إنني أسخر كثيرًا من هؤلاء الذين يظنون أنفسهم صالحين، لأنهم ليس لديهم مخالب ينبشون بها"

فريدريك نيتشه

في عام ١٩٤٩ كتب الروائي العبقري (جورج أورويل) الرواية التي خلّدته، والتي اسمها: (١٩٨٤). فيها تخيّل العالم وقد قُسِّم إلى ثلاثة دول كبيرة، مع بعض المناطق الأخرى التي تتنازع عليها هذه الدول (منها الشرق الأوسط بطبيعة الحال!!). ينتقد أورويل نظام الحكم الشمولي الاستبدادي، حيث تخيّل (الأخ الأكبر) الذي يحكم أكبر هذه الدول بنظام حكم أوتوقراطي فاشي من الدرجة الأولى، حتى إنه يحطّم العلاقات الأسريّة الناجحة حتى لا يبقى أي نوع ولاء إلا للأخ الأكبر!

هذا الحاكم الداهية كان يلجأ إلى المراقبة المستمرّة لشعبه، فالكل يتجسس على جيرانه والكل يعلم ذلك، وهناك كاميرات مراقبة في كل مكان، تمكّن الأخ الأكبر وأجهزته من أن يروا الشعب ويروه، هم يعيشون في العالم تحت شعار (انتبه، فالأخ الأكبر يراقبك) ويخرج عليهم في الكثير من الخطابات ليملي أوامره وقوانينه الجديدة.

ربما يكون أقرب مثال في عصرنا لرواية جورج أورويل هو حاكم كوريا الشماليّة الشهير (كيم جونج أون) الذي لا يبلغ من العمر أكثر من ٣٢ عامًا حتى وقت كتابة هذا الكتاب، وبرغم ذلك استطاع أن يجعل شعبه كله يعيش في رعب حقيقي غير مصطنع منه، بالنسبة لهم هو الذي لا يجب ذكر اسمه، مثل (فولدمورت) في روايات (جوان رولينج). إنه شاب مضحك قصير القامة بدين الوجه تحب أن تراه على شاشة التلفاز وأنت في النصف الآخر من العالم ولكنك أبدًا لا تحب أن تراه وجهًا لوجه في أسوأ كوابيسك طرًا. هو الذي يمنع عن شعبه أن يشاهدوا الأفلام

الأجنبية أو الأخبار العالمية. هو الذي أعدم أحد كبار مساعديه لأنه شعر أنه لم يُصفّق له بجدية في أحد خطاباته!

يعتمد (كيم) سياسة الأخ الأكبر: الكل يعلم ما الذي هو قادر على فعله، الكل يشعر أنه محاط به مراقب منه في كل أحواله، والجميع يتجسسون على بعضهم البعض. لا يمكن في مناخ كهذا أن يحصد إلا الاحترام (غير الحقيقي) والخوف (الحقيقي) والرهبة من المخالفة. وفي حالة كلٍ من (كيم) و(الأخ الأكبر) فإنهما لا يهتمّان سوى بهذا، ولا يريدان من شعبيهما أن (يحبهما) مثلًا أو يشعرا بـ (صدق الانتماء والولاء الداخليّيْن) من ناحيتهم. وأمرٌ جيّد أنهما لا يهتمان بهذا لأنهما لن يحصلا عليه أبدًا!

لا يمكن للأخ الأكبر أن يكون محبوبًا من شعبه وهو لا يهتم بهذا، الناس تتعامل مع الشخص في حضرته بألف وجه ووجه، بينما يتعاملون في غيابه بوجههم الحقيقي.

ذكرني ذلك بالقصة التي يحكونها -ولا أصدقها بالطبع- عن (تشرشل) - رئيس وزراء بريطانيا أيام الحرب العالمية الثانية - والذي كان يستقلّ سيارة أجرة إلى مقر الـ BBC لإجراء مقابلة إذاعيّة - ما الذي يجعل تشرشل يركب سيارة أجرة ويترك موكبه؟!- فقال للسائق انتظرني هنا ٤٠ دقيقة وسأجازيك، قال له السائق: لا يمكنني ذلك، فأنا أريد أن أذهب لبيتي لأستمع إلى تشرشل في الإذاعة.

بالطبع هذا كان قبل انتشار التلفاز، فلا يعلم الناس ما هو شكل تشرشل أصلًا، ومنهم هذا السائق. فرح تشرشل بما أظهره ذلك السائق من حب حقيقي في غيابه له، وأحب أن يكافئه فأخرج له عشرة جنيهات أسترلينيّة، من ثمّ قال السائق: فليذهب تشرشل وخطاباته إلى الجحيم، سوف أنتظرك هنا اليوم كله لو أردت مقابل هذه الجنيهات العشرة!

الولاء والصدق والحب هي أشياء لا تباع ولا تشترى، ولا يمكن الاستدلال عليها إلا لو تركت صاحبها يعبر عما بداخله دون خوف أو هلع. لا يمكن للإنسان أن يُظهر ما هو عليه فعلًا لو لم يكن لديه (الخيار) لذلك!

لذلك يقول (أوسكار وايلد) أيقونة الأدب الأيرلندي: «الإنسان يكون في أقل أحواله مشابهةً لنفسه حين يتحدث بالنيابة عن نفسه، ولكن أعطه قناعًا وسوف يقوم بإظهار من هو بالفعل!»، ويقول كاتب الرعب الأمريكي (روبرت بلوك): «حين تُزَال كل الأقنعة يبدأ الرعب!»، ويقول الفيلسوف الألماني (ميستر إيكهارت): «اذهب إلى حديقتك الخاصة، وتعلم هناك أن تعرف من أنت حقًا!»، ولربما هذا هو السبب في قول سيدنا عمر بن الخطاب: «خذوا حظكم من العزلة».

الوقت الذي تقضيه بمفردك عن أعين المراقبين هو الوقت الذي تقرر فيه من أنت، ما هي القيم التي ستحتفظ بها، ما هو الوجه الحقيقي الذي تملكه! لذلك نجد الحديث الذي رواه ابن ماجه وصححه الألباني، عن ثوبان أن النبي ﷺ قد قال: «لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بيضًا فَيَجْعَلُهَا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هَبَاءً مَنْثُورًا» قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ الله صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ الله انْتَهَكُوهَا».

ضعّف الحديث بعض أهل العلم، لكن يوجد في القرآن ما يؤيد معناه على كل حال، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا**﴾ (النساء ١٠٨).

وعدّها ابن حجر الهيتميّ الكبيرة رقم ٣٥٦: «إظهار زي الصالحين في الملأ، وانتهاك المحارم في الخلوة»! وكان يقول (سحنون) رحمه الله: «إياك أن تكون عدوا لإبليس في العلانية صديقا له في السر»! وعن علي بن أبي طالب: «من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه يوم القيامة». وقال عمر بن عبد العزيز: يا معشر المستترين، اعلموا أن لكم عند الله مسألة فاضحة، وقرأ: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (الفرقان ٩٢-٩٣).

لو لم يكن هناك غيبٌ لما ظهر أي أحد على حقيقته، ولكنّا جميعًا متخفيين مثل إبليس طاووس الملائكة في العبادة، والذي ظهر ما كان يكتم حقًا حين خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وظهر تفضيله له عليهم، مصداق قول الله تعالى: ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ (البقرة ٣٢)!

لو لم يكن هناك غيبٌ لما ظهر ذلك الذي يخاف مقام ربه ويرهب مكانته حقًا من ذلك الذي يدّعي، كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ**﴾ (المائدة ٩٤).

لو لم يكن هناك غيب لما ظهر ذلك الذي يرجو رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وثوابه ولو بعد حين من ذلك الذي لا يريد إلا شهوات نفسه العاجلة، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا**﴾ (مريم ٦١).

لو لم يكن هناك غيب لما ظهر ذلك الذي رفض أن ينساق وراء نزوات نفسه المظلمة، واختار أن يزكيها ويهذبها، كما قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ**﴾ (فاطر ١٨).

لو لم يكن هناك غيب لما ظهر ذلك الذي ارتبط قلبه بالحق والخير، فما أن يبتعد عنه قليلًا إلا ويسرع في العودة إليه وينيب، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۞ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**﴾ (ق ٣١ -٣٣).

لو لم يكن هناك غيب لما ظهر ذلك الذي اختار أن ينصر رسالة ربه ودعوته على حياته وأمواله الخاصة دون أن يكون ذلك ادّعاء أو مداراة لمن يرهبه في العلانية، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (الحديد ٢٥).

❧

وبرغم أن الله يعرفنا جميعًا ويعلم ما نسر وما نعلن، إلا أن ظهور علمه فينا أمام الناس وأمام أنفسنا هو من إقامة الحجة التي ارتضاها الله جَلَّجَلَالُهُ مظهرًا من مظاهر عدله الإلهيّ.

كما فسّر لغزه الإمام (الشاطبي) في كتابه (الموافقات): «المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدًا لله اختيارًا، كما هو عبد لله اضطرارًا».

الغيب إذن يستخرج من الإنسان أحسن ما فيه وأسوأ ما فيه، فيظهر من هو فعلًا، وما معدنه حقًا، وبطريقة يشهد بها الإنسان على نفسه، ويعلم من ذاته أنه لم يُظلَم ولا يلوم أحدًا إلا نفسه! ﴿**إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۞ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۞ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾ (القيامة ١٢ -١٥).

٤

مطالب من فاقدي الأهلية

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

(سورة البقرة آية ١١٨)

يحكون عن (نيلز بور) العالم الفيزيائي الدنماركي الكبير أنه لمّا كان طالبًا في جامعة (كوبنهاجن) ورد في امتحان الفيزياء السؤال التالي: كيف تحدد ارتفاع ناطحة سحاب باستخدام البارومتر -جهاز قياس الضغط الجوي- فكانت إجابة (بور): اربط البارومتر بحبل طويل وقم بتدليته من أعلى الناطحة حتى يصل إلى الأرض ثم قس طول الخيط.

رسب في الاختبار طبعًا بإجابته المستفزّة، فتظلم بأن إجابته صحيحة، بمنطق: اثبت لي إذن أنه لا يمكنك قياس طول الناطحة بهذه الطريقة! تم تعيين خبير للحكم في المسألة، فقال أن إجابة الطالب صحيحة لكنها لا تدل على معرفته بمادة الفيزياء، وأوصى بضرورة إعادة اختباره شفهيًا، ثم طرح عليه الخبير السؤال نفسه مشافهةً.

فكر (بور) قليلًا ثم قال: هناك عدة طرق أخرى لقياس ارتفاع الناطحة غير التي ذكرتها، مثلًا يمكنك إلقاء البارومتر من أعلى الناطحة وتقيس الوقت الذي يستغرقه حتى يصل إلى الأرض وبالتالي يمكن معرفة ارتفاع الناطحة، وإذا كانت الشمس مشرقة يمكنك قياس طول ظل البارومتر وطول ظل الناطحة فنعرف طول الناطحة من قانون التناسب بين الطولين وبين الظلين، أما إذا أردنا تعقيد الأمور فسنحسب ارتفاع الناطحة بواسطة الفرق بين الضغط الجوي على سطح الأرض وأعلى الناطحة باستخدام البارومتر!

إن (بور) هنا يوضح لنا مدى سذاجة مدرّسه الذي أصرّ على أن طريقته هي الطريقة الوحيدة! ويوضح لنا قاعدة (باريتون) حين قال أن أسس الغباء الثلاثة: العناد والغرور والتشبث بالرأي!

يمكننا أن نفهم ما قاله باريتون بالنظر إلى الكيفية (الوحيدة) التي ارتضاها بعضهم للإيمان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بالنسبة إليهم سيكون من السفه أن يؤمنوا لأحد بدون أن يتبع هذه الطريقة العبقرية! انظر إليها: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ (الإسراء ٩٠ -٩٣). ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف ٥٣). ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۞ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (الفرقان ٧ -٨)!!

هناك مثال (باريتوني) آخر، وهو ما فعله الملحد العربي (بسام بغدادي) في أحد محاوراته حين ذكر أنه قد قتل بعوضة ثم قال مخاطبًا الله: لو كنتَ موجودًا فقم بإحياء هذه البعوضة! ثم لما وجد أن البعوضة لم يتم إحياؤها قال في ذكاء: آها! إذن الله غير موجود!

أشفق بالفعل على البعوضة المسكينة التي ماتت كي يتمكن بسام من إثبات أنه قادر على قول أشياء ذكية هو الآخر كما يفعل الغربيون.

يتكرر في القرآن ذكر هذا المطلب من الذين لا يؤمنون بالله: إنزال آية مخصصة لهم، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الواقع قد أغرقنا بآياته الكونيّة المحكمة وآياته الشرعيّة المفصّلة، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت ٥٠ -٥١). ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت ٥٣).

بل إن الآيات التي طلبوها كانت على نوعيّة معيّنة محببة إلى أنفسهم، مثلًا هم يريدون أن يصيروا أنبياء! ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ (الأنعام ١٢٤). يريدون أن ينزل عليهم كتاب مكتوب خصيصًا من أجلهم من السماء أو أن يروا الله جهرة! ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (النساء ١٥٣).

الحقيقة التي لم يفطن لها هؤلاء أنهم أقل شأنًا بكثير من هذا! وقدرهم في أنفسهم أعلى بكثير من قدرهم الحقيقي. كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان ٢١)!

ولكن ماذا لو استجاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهم؟ هل ستَفرُغ جعبتهم من الحجج؟ هل تتوقع أنهم سيسلّمون بهذه البساطة؟ ولماذا يكون إنزال كتاب من السماء أو الإتيان بملائكة أو إسقاط أمطار الذهب عليهم دليلًا أقوى من دليل الخلق والإيجاد نفسه؟ أسيعجزون وقتها عن أن يأتوا بـ (فرضيّات) علميّة وفلسفيّة لتفسير تلك الآيات الجديدة؟!

يخبرنا القرآن أن ما نفكر فيه صحيح تمامًا، وأن ما افترضنا بشأنهم هو عين ما سيفعلون، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**﴾ (الأنعام ٧). تفسير السحر جاهز دائمًا وفي كل الأحيان. مثل تفسير الجنون والهذيان والهلاوس أيضًا دائمًا على أتم الاستعداد لتقديم نفسه في حالة جاءت الآية المطلوبة: ﴿**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ**﴾ (الحجر ١٤-١٥).

ربما يكون أصدق هؤلاء الكفار مع أنفسهم هم آل فرعون الذين قالوها صراحةً وبشكل قاطع حاسم لا يتلوّن ولا يتردد: ﴿**وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (الأعراف ١٣٢).

ولكن آل فرعون لم ينتهوا في هذا العصر، كما لا بد أنك تخيلت!

فقد كتب ريتشارد دوكنز في كتابه القديم (صانع الساعات الأعمى) وكرره في كتابه الأحدث (وهم الإله) أننا لو افترضنا أن تمثال مريم العذراء قد لوّح لنا لتوه، فهل يمكن اعتبار هذه معجزة تثبت صدق الدين؟ أو لو أنا قلت: فلتصبني صاعقة الآن، فأصابتني بالفعل، فهل هذه معجزة أخرى؟ يقول دوكنز: كلا الحادثتين ليست معجزات، لأننا لن نستطيع تصنيفهما أنهما مستحيلان علميًا قط! فقط هما بعيدا الاحتمال للغاية!

وأخذ يشرح لنا قصده، فيقول: يد التمثال الرخامي من الممكن أن تلوّح لنا! وهذا لأن الجزيئات في الرخام الصلب تستمر بالتدافع باستمرار في اتجاهات عشوائية ولكن لأنها عشوائية فحركتها تلغي بعضها البعض. ولكن (تخيل) لو أخذت هذه الجزيئات في التحرك (صدفة) مع بعضها البعض، فمن الممكن نظريًا أن تتحرك يد التمثال للأمام، ثم تتحرك هذه الجزيئات في (صدفة) أخرى في الاتجاه المعاكس، فحينها سوف تعود يد التمثال إلى الوضع الخلفي. وهكذا يلوّح لنا التمثال دون أن يكون معجزة من الله، هو فقط كان احتمالًا بعيدًا!

يذكر لنا دوكنز أن احتمال حدوث هذا في الواقع مستبعد جدًا جدًا لدرجة لا يمكن حسابه إحصائيًا، ويذكر أنه استعان بصديق فيزيائي ليقوم بحساب الاحتمالات من أجله، فوجد أن عمر الكون كله لن يكفي لكتابة الأصفار في رقم عدد المحاولات اللازم حدوثها كي تنجح منها محاولة واحدة! وبرغم ذلك يرى دوكنز أن: Hey، الأمر ليس مستحيلًا يا صديقي!

وهكذا، هل لنا أن نتوقع أن أية معجزة تأتي من الله لإقناع هذا الرجل بأمر الإيمان لن تكون كافية؟ بالطبع، فالأمر كله (صدفة) و(احتمالات) و(ربما) وأشياء من هذا القبيل!

مثل أحد الملحدين العرب الذي صرّح بأنه لو رأى الله وصافحه، لما دل ذلك على أنه خالق الكون. وواحد آخر من هؤلاء يقول: «لو خلق شيئًا أمامي، فلا يوجد دليل أنه هو الذي خلقني»!

إذن ما قاله آل فرعون قديمًا هو ما يقوله كفار زماننا اليوم، كل شيء له تفسير علمي، لا يوجد ما يخرق قوانين الفيزياء، كل المعجزات والآيات الكونية التي نشهدها لها تفسير ماديٌّ ما، إن لم نعرفه الآن فسوف نعرفه غدًا، لا يوجد شيء اسمه إيمان، لأن كل دلائل هذا الذي يسمونه إيمان لا يمكن أن تخرق القواعد العلميّة ولا يمكن أن تخرج عن حيز المعقول لنا، ولا يمكن أن نكون بها أو لها مؤمنين. آل فرعون القدماء، وآل الـ Scientism الحُدثَاء قد اشتركوا في أنهم حتى لا يطلبون أن يكون الإيمان بالشهادة وليس بالغيب، ولا حتى بأن يروا الله جهرة كما طلب أهل الكتاب، بل قرّروا وكرّروا بأنه لا يوجد ما يمكن أن يقنعهم بالإيمان!

سؤالٌ لهم:

إن كان ثمّة إلهٌ هناك، كيف له بأن يخبركم بذلك إذن؟!

آلهة خرافية

(عن سؤال الوحدانية)

"وهناك كمالٌ إلهي آخر لا يتعدد، كمال العلو والقهر، لا يمكن أن يكون هناك أكثر من إله له كمال العلوّ والقهر! معنى أن الإله قد علا على الكل، أنه لا أحد يساويه فضلًا عن أن يعلوه. هذا الكمال متحقق بالفعل ولكن في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، ولو تحقق في غيره معه لكان هذا تناقضًا منطقيًا ومتاهة لا تنتهي، من الأعلى شأنًا منهما، لو كان كلًا منهما أعلى شأنًا من الجميع؟!"

بالرغم من أن مارتن لوثر (مؤسس البروتستانتية، وهو غير مارتن لوثر كينج رجل القانون الأمريكي الشهير) قد أصلح بعض ما في النصرانية من خلل وحجّم سلطة رجال الدين الذين كانوا قد تحولوا إلى نوع (رخيص) من الآلهة: (هات فلوس وأغفر لك)، بالرغم من ذلك إلا أن مارتن لوثر كان يدافع عن عقيدة غريبة على العقل البشري ودخيلة على الفطرة الإنسانية، وهي الثالوث، وكان على ما يبدو يعلم ذلك من نفسه، لذلك أطلق كلمته المخجلة: «إن العقل هو العدو الأكبر للدين، وإنه في صراع دائم مع كلمة الله المُوحَى بها».

بالطبع فإن (ريتشارد دوكنز) الملحد الشهير كان سعيدًا بهذه الكلمة، فاقتبسها في كتابه الشهير (وهم الإله) وعلّق عليها: «كل من يريد أن يكون مسيحيًا فعليه أن يقلع عيني عقله». وفي الحقيقة أنا كنت أتمنى لو أقول لمستر دوكنز الكلمة التي نقولها في العامية المصرية: (بلاش أنت)! يعني من بين جميع العقائد التي يعتقدها الناس، فالإلحاد أولاهم بأن تقلع عيني عقلك. فهو كما يعبر (عدنان إبراهيم) مجرد انتحار عقلي. ولعباس العقاد كلمة مماثلة لكلمة دوكنز تمامًا، ولكن عليه هو: «أنا لكي ألحد فإن عليّ أن أخلع عني عقلي أولًا».

وبالعودة لمارتن لوثر، فإن علينا أن نسأل: لماذا يخلق الله من البداية شيئًا يرفض كلمته المُوحى بها؟! لو كان الله هو الذي تكلم، وهو الذي خلق العقل، فمن أين يأتي التناقض؟ أليس من الأقرب للمنطق إن وجدنا ما يناقض العقل فعلًا (مناقضةً تامة وليس مجرد تحيّر في مناطق لا قبل للعقل للدخول فيها) أن نفترض أن ربما لم تكن هذه كلمة الله المُوحَى بها؟!

يؤمن المسيحيون بأن العقل يرفض الإيمان، ولكن لما تؤمن فإن الروح القدس يحل فيك فيجعلك تتقبل أمر الإيمان، قال لي ذلك عدة أصدقاء من قبل محاولين أن يقنعوني بأن أعتنق المسيحية، مع وعد بأنه: لا تقلق، كل ما يرفضه عقلك الآن سوف تتقبله ما أن يزور قلبَك الروحُ القدس بزيارته المباركة. وهذه في الحقيقة طريقة أخرى لقول: دعنا لا نفكر في الأمر الآن، ولسوف نعتاد مع الوقت وننسى كل شيء.

ربما كان هذا هو السبب في أن تشعر بوجود (حُفرة) عقلية لدى رجال هم من أكفأ الناس عقولًا! كمثال على ذلك تأمل في (وليام لين كريج). الرجل مناظر بارع، ومجادل ماهر، وله فلسفته الخاصة وتفكيره المستقل فيما يتعلق بالكلام عن مشكلة الشر والأخلاق ومبدأ العالم والبرهان الكوزمولوجي على وجود الله. ولكن ما أن يبدأ في الحديث عن الأقانيم، والثالوث، والآب والابن والروح القدس، والإله الذي فدى نفسه ومات من أجلنا ثم قام من بين الأموات، حتى تشعر أنك قد وقعت في (الحفرة) إياها!

على سبيل المثال في معرض كلامه عن التوحيد، فيرى (كريج) أن التوحيد المسيحي يتفوق على التوحيد الإسلامي، في تفسير حال الله قبل الخلق، فعندهم وقبل خلق الكون كان الرب يعيش في (جو أسري دافئ) بدلًا من (الوحشة) التي لا بد أنه كان يعيش فيها في التصور الإسلامي عن الله الواحد المتنزه عن الأقانيم!

بمعنى آخر وحسب تعليق الأستاذ (سامي العامري) على ذلك فإن (كريج) يخشى على الله من الضجر والملل قبل خلق الزمان لو خلا الوجود إلا منه، فوجد في انبثاق نفسه إلى ثالوث ما يملأ تفكيره ويقضي وقت فراغه، بأن يفكر بعضه في بعض، ويغرم بعضه ببعض، وبالتالي يقضي على الملل!

ما علينا من ذلك! تعالوا نتعرف على إجابة القرآن عن سؤال الوحدانية.

١

الاطّراد التاريخي

"يظهر أن تاريخ الدين عبارة عن تحلل أو انحراف من صورة مبكرة خالصة ونقية من التوحيد"

من مقال في دورية Primitive Man

في قبائل (دوجون) الأفريقيّة تحتل النساء الهستيريات منصب الكاهنات! وتزداد الكاهنة في المكانة الدينية كلما زادت نوباتها العصبيّة! فهي بالنسبة لهم على اتصال مباشر مع الآلهة، الآلهة التي هي الأجداد الأسطوريون طبعًا، كل واحد يأتي إلى الأرض صبيّا يبلل ثيابه ثم يكبر ليتعلم كيف لا يبلل ثيابه، ثم يشيخ فيعود ويبلل ثيابه، ثم يموت ليتم اعتباره رمزًا للحكمة وأسطورة للعطاء ويعبدونه. هذا مفهوم بالطبع!

برغم ذلك فإن قبائل (دوجون) تعتقد بوجود إله خالق أعظم وحيد، ويسمونه (أمّا) وأؤكد لك أن هذه التسمية ليس لها علاقة بكلمة (أمّا) المصرية الريفية التي تعني في اللغة العربية (أمي)! وفي اعتقادهم فإن (أمّا) هو إله متعال على كل الآلهة الأخرى، ويقيمون له في كل بيت محرابًا طينيًّا مخروطيًّا، ويتم ذكر اسمه قبل ذكر أسماء الأجداد الأسطوريين إياهم.

في غرب الكاميرون فالقصة مختلفة، هم يعتقدون أن الإله الأعظم خالق الكون اسمه (نيامبي) يعيش أعلى القمر، ولا أحد يستطيع أن يصل إلى مكانه، ولكن لأنه إله عظيم قادر على كل شيء مكتف بنفسه لا يحتاج إلى أحد، فهم لا يعبدونه! بل يعبدون الآلهة الأخرى غير العظيمة التي تحتاجهم!

وأما قبائل أعالي النيل فتعتقد بوجود إله سماوي كبير، هذا الإله ليست له صورة مادية ولا شكل، خلق الخير والشر على سواء، ودعواتهم موجهة إلى الآلهة الصغرى، ولكن في حالة كان الموضوع (كبيرًا) على هذه الآلهة الصغرى يلجؤون له مباشرة!

وعند قبائل (البامبارا) يُعرف الإله الأعظم باسم (فارو). بينما يُعرَف في (أشانتي) باسم (نانا). وفي (إيفا) باسم (ماوو). وفي (اليوروبا) باسم (أولورن). وعند (الإيبو) باسم (شوكو). وأما عند (كينيا) فالإله الأعظم عندهم اسمه (مولونجو). ويلقبه (السوازي) باسم (الرئيس الأكبر).

وهكذا.. جميع شعوب قلب أفريقيا تقريبًا -تلك الشعوب التي هي أشد شعوب العالم بدائيّة وتخلّفًا على الإطلاق- تعتقد بوجود إله متعال خالق للكون، وهناك وسطاء بين البشر وبينه هي ما يسمونه بالآلهة الصغرى. يختلفون بعد ذلك في مدى قدرة هذا الإله الأعظم على تصريف أمور الكون، إلا أنهم يتفقون على أنه قد بدأ الخلق منفردًا!

هذا الاطّراد التاريخي على وحدانيّة (الرب) لا يكاد يسلم منه أحد، فحتى النصرانيّة (المسيحية) دائمة الادّعاء أنها لا تقول بتعدد الأرباب بل الرب واحد، صحيح أن له ثلاث (شخصيّات) في ذوات متباينة لكنهم يرفضون أن يلاحظوا هذا التناقض على أية حال.

هذا الاعتقاد يطال حتى الوثنيين، الذين يعبدون الأصنام بشكل صريح وبطريقة تثير العجب أنهم لم ينقرضوا حتى الآن، إذ إنك تعتقد أن القرن الحادي والعشرين يُفتَرض له أن يكون قد ارتقى بالإنسان إلى الحد الذي يمنعه من أن يعفّر وجهه أمام تمثال جبسي غير محكم الصنع لرجل مفرط السمنة وعلى الأرجح كان يعاني من مرض البول السكري.

فالوثنيّون يعتقدون أن هذه الآلهة إنما هي وسيلة تقرّبهم إلى الخالق الحقيقي، وسواء كانوا من نوعيّة كفار مكة الذين صنعوا تماثيل على هيئة أناس صالحين كانوا يلتّون لهم العجين، أو كانوا من نوعيّة كفار أفريقيا البدائيّة الذين ينحتون الأشجار على شكل طوطمهم الخاص على هيئة ثعبان أو نسر يربط اجتماعيًا بين قبائلهم ويتوسط لهم عند الإله.

بحسب كتاب (نمو الدين) لـ جوزيف مكيب الصادر في ١٩١٨، فإن رأي السير (مونير مونير ويليامز) بروفيسور اللغات السنسكريتية في جامعة أكسفورد وجماعة من الباحثين، أن: «التوحيد متقدم على كل صور الشرك التي ظهرت لاحقًا، فالديانة الهندية مثلًا بدأت بحسب نصوص في (الفيداس) بالتوحيد ثم تحللت إلى صور متعددة للشرك».

وجاء في مقال بعنوان (أصل الدين وتاريخه المبكر) في دورية (الإنسان البدائي) Primitive Man الصادرة عام ١٩٢٩ عن معهد (جورج واشنطن) لدراسات الأعراق البشرية، أن: «يظهر أن تاريخ الدين عبارة عن تحلل أو انحراف من صورة مبكرة خالصة ونقية من التوحيد».

هذا الاطّراد التاريخي بوحدة الخالق لربما هو من بقايا دين الفطرة ودين الأنبياء الذين أرسلوا في كافة بقاع الأرض يبلّغون رسالة الإله الذي استوى على العرش، تلك الرسالة التي تقول لكل كائن بشري على وجه الأرض: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ (طه ١٤).

لذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متحدثًا عن هذه الرسالة الموحّدة التي صنعت هذا الاطّراد التاريخي البشري: ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾ (الزخرف ٤٥)!

٢

نمط الخليقة الواحد

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

سورة الروم آية ٤٠

المكان الذي ذهبت إليه لإصلاح مكابح السيارة كان منطقة واسعة مليئة بأناس أبناء أشياء ما! (سعيد فرامل) و(محسن خراطة) و(عادل شكمان)! هذه ليست شتائم بالمناسبة بل هو مرتاح تمامًا بتعريف نفسه لك بأنه سعيد فرامل. كانت أقصى معرفتي بالفرامل وقتها هو (التيل)، ولكني اكتشفت أن هناك مشكلة أيضًا في (الطنبورة)، لا يمكنك أن تثق في شيء اسمه طنبورة على كل حال، بالتأكيد سيكون شيئًا وغدًا يعطل طوال الوقت!

هناك شيء آخر لا بد أن يستبدله سعيد ولكن لا يوجد مثيل له لاختلاف نوع السيارة عن أنواع السيارات المفضلة لدى معظم الشعب المصري فكان عليه أن يأخذه إلى المخرطة حتى يجري بعض التعديلات عليه كي ينسجم روحيًا مع طنبورتي العجوز. كل مصنع من مصانع السيارات المختلفة قد قرر أن يضع اللمسة الخاصة به على كل قطعة من السيارة ليجعلها متفردة عن باقي أنواع السيارات، صواميل العجلات والـ Safety Valve وغيرها من الأشياء ذوات الأسماء الشريرة التي يمسكها عامل الميكانيكا في احترافية ليصارحك بحقيقة أنها (مش بتاعتها) !

مشكلة التوافق المصنعي هذه تجدها بشكل أكبر في هواتفنا وحواسيبنا الذكيّة، وبعد المشكلة رقم أربعين تبدأ في الإدراك بأنها ليست ذكية إلى هذه الدرجة! كم مرة وجدت نفسك في مشكلة لأنك لا تجد Socket شاحن متوافق مع هاتفك؟؟ أتحدث طبعًا عن عصر (الشاحن التخين والشاحن الرفيّع) قبل شواحن الـ USB الممتازة. هذا غير كارت الشاشة الخاص بك الذي لم يعد يعمل بسبب Update سريع للويندوز جعله لا يتعرف عليه، تدخل إلى موقع الشركة لتحميل التعريف وتتوه قبلها وسط مئات التعريفات لمئات كروت الشاشة يملكها أناس مثلك في جميع أنحاء العالم في حيرة من أمرهم.

يمكنك أن تفطن أننا لا نجد هذه المشكلة في مخلوقات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من حولنا، وبالأخص في أجسامنا نحن! إننا جميعًا متشابهون، بل ومتماثلون في جوانب كثيرة. لولا هذا التشابه لكانت الحياة أصعب كثيرًا مما تعودتَ عليها. يمكنني أن أؤكد لك أن طبيب العيون لن يستطيع أن يفصّل أي نظارة لو كان شعاع الضوء يسلك سلوكًا مختلفًا داخل كرة عين كل إنسان. وأن الجرّاح لن يجرؤ على شق الجلد لاستئصال أية مرارة لو لم يكن يعلم أننا جميعا نملكها في نفس المكان بالضبط منذ أن تعرّفنا على علم التشريح. يمكنك أن تتيقن من أن طبيب الأطفال لن يجرؤ على وصف الدواء لطفلك الصغير لو لم يكن واثقًا من الكيفية التي سوف تتفاعل بها هذه الكيماويّات مع جسده النحيل. يمكنك أن تتأكد أنه لا يوجد أي طبيب نفسي قد يفهم مشاعرك المعقدة المتداخلة تجاه (سُها) إلا لكونك أنت نفسك عدة صفحات محفوظة في كتب علم النفس!

لا يمكن لكل هؤلاء الأطباء أن يقوموا بعملهم لو كان كل جسد إنساني يختلف عن الآخر، وفيسيولوجيا أعضائه تسلك سلوكًا متفردًا عن غيرها من الذوات الإنسانية، لو كانت النفسيّة الإنسانية مختلفة لما استطاع البشر أن يفهموا بعضهم البعض ولا أن يألفوا بعضهم البعض إلى هذا الحد. إننا متشابهون جدًا لأننا في الحقيقة مصدرنا نفس واحدة. كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ (الزمر ٦).

التشابه يكون أكبر من ذلك حين تفكر في المزيد من المخلوقات! فالـ DNA الخاص بك يتشابه بنسبة ٧٥٪ مع ديدان النيماتود، و٦٧٪ مع الذرة، و٦٠٪ مع ذبابة الفاكهة، و٥٠٪ مع الموز! وبرغم أن مملكتي الحيوان والنبات تحتوي كل واحدة منهما على أكثر من مليون نوع مختلف، إلا أنها تشترك جميعًا في نفس القواعد العامة التي تحكم الخلية الحية ونفس وظائف عضيّاتها. والسلوك الدوراني العجيب لإلكترونات ذرة الكربون في معطفك الخريفي هو ذات السلوك العجيب لذرات مشابهة تكوّن جميع خلايا جسدك القابع أسفل هذا المعطف، وهو بالمناسبة سلوك دوراني مشابه جدًا لدورانات الأفلاك البعيدة التي تلمع في سماء ليل أبريل!

الاختلاف الكبير الذي يفصلنا عن باقي المخلوقات من حولنا إنما هو مترادف مع تشابه أيضًا كبير يربطنا - نحن البشر الأذكياء حاملي التكاليف الإلهية المكرّمين من فوق سبع سماوات- بباقي خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من حولنا ليس فقط من ناحية نمط الخلق، ولكن أيضًا في نمط والرزق والقيّومية! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾ (الأنعام ٣٨).

الأمر بسيط، وحل اللغز سهل، إنما الخالق واحد إذن! وصنائعه بديعة ومتفردة بشكل مذهل، مع كونها أيضًا متشابهة بشكل عجيب. وجود هذه الصنائع يؤكد لنا وجوده، وتفرّدها يؤكد إبداعه، وتشابهها يؤكد وحدانيته! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ (غافر ٦٢).

هذا النمط الموحّد في الخلق إنما يدل على وحدة الذات الإلهية التي قامت بخلق كل هذا، لا نجد في هذه المخلوقات نمطا شاذًا مختلفًا يدلنا على إله آخر! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ (الرعد ١٦).

لقد عرفنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أفعاله وخلقه وآثاره، فهذا هو خلقه المتشابه، فأين المخلوقات المختلفة التي تحمل نمطًا مختلفًا لإله آخر نعرفه بها؟! كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ (لقمان ١١).

بل هذه الآلهة ليست فقط لم تخلق شيئًا، بل هي داخلة في خلق الله، إذ إنه البديع الذي لم يُبدِع أحدٌ غيره شيئًا والخالق الذي لا توجد مخلوقات من صنع سواه، أي أن الله هو الذي خلقها أصلًا. لذلك يخبرنا القرآن أن: ﴿**لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ**﴾ (فصلت ٣٧). ويتساءل القرآن: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ (الأعراف ١٩١)؟!

إذن في النهاية يبقى أي (معبود) سوى الله، أو مع الله، أو كوسيلة إلى الله، معبودًا باطلًا لأنه لم يخلق شيئًا يستحق أن يُعبد عليه، ولم يفعل شيئًا نعرف وجوده منه!

فاسمح لي أن أسألك عن كل إله من هذه الآلهة الخرافيّة: كيف لك أن تعرف أنها موجودة؟!

٣

الكمال لا يتعدد

"فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه؟!

أَرَضيتَه في الشكر؟ أم تخاف أن يغلب عليك؟"

من حوار النبي ﷺ مع حُصين الخزاعي

رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قد جمعه حوار مع مجموعة من النصارى أتوا يجادلونه في عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال لهم النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون هناك ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا حيٌ لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى، قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما عُلّم؟ قالوا: لا.

وفي حديث رواه ابن خزيمة عن عمران بن حصين، أن حوارًا آخر جمع النبي ﷺ بوالد عمران (حصين الخزاعي).

قال له النبي ﷺ: كم تعبد اليوم إلهًا؟ قال: سبعة، ستة في الأرض، وواحد في السماء. قال: فإذا أصابك الضر من تدعو؟ قال: الذي في السماء. قال: فإذا هلك مالك، من تدعو؟ قال: الذي في السماء. قال: فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه؟ أَرَضيتَه في الشكر؟ أم تخاف أن يغلب عليك؟ قال: ولا واحدة من هاتين.

في الحقيقة أن الإله إن وُجد (وهو موجود حتمًا) لا بد أن يكون مستغنيًا وبالكلية عن أن يتخذ معه شريكًا في هذا الملك، أو أن (يتبنّى) أو (يلد) ولدًا، أو أن ينبثق منه أقنوم آخر، أو أن ينفصل إلى اثنين أو ثلاثة. ومن باب أولى من كل ذلك يستغني تمامًا عن أن يعتبر البشر -الذين هم خلق من خلقه- أبناءه وذريته!

لذلك يجيبنا القرآن عن سؤال الوحدانيّة بدلالة هذا الكمال الاستغنائي لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام ١٠٠ -١٠١).

هذا المنطق الذي يقضي بأنه لو كان الإله يحتاج لسبب ما إلى هذا الشريك لكان هذا معناه أنه إلهٌ غير مطلق الغنى، وهو ما ينافي الفكرة العقلية السليمة من أن خالق كل شيء، وموجد كل شيء من العدم لا بد وأن يكون مطلق القدرة والغنى والملك والإرادة، لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (يونس ٦٨).

لا يتعدد كمال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أيضًا من ناحية الإرادة، فالإرادة المطلقة لا بد أن تكون واحدة، إذ لو أراد أحد صاحبي هذه الإرادة أن يُنفِذَ إرادته، لكان هذا معناه أن هناك شيئًا سينفذ في الكون دون أن تكون بإرادة صاحبه الآخر. يعني ليست مطلقة تمامًا!

لذلك يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة ١١٦ -١١٧). ﴿مَا كَانَ لله أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (مريم ٣٥).

فلا يمكن لصاحب الإرادة المطلقة أن يتخذ ولدًا، لا يمكن أن يقع على شيء واحد كلمتا (كن) مختلفتان! على أي صورة يكون إذن؟!

على أن هناك من يمكن أن يقول أنه قد يكون هناك إلهان أحدهما أكبر من الآخر، أعلى إرادة من الآخر، أمتن من الآخر، كموقع الأب والابن مثلًا. هنا لا يشكل تناقض الإرادتين مشكلة، إذ إن إرادة الكبير منهما هي التي ستسير.

في النهاية معنى ذلك الكلام أن الإله الأصغر سيتصرف بالحيّز الذي سيسمح به الإله الأكبر! وأنه لن يريد إلا ما يريده له الأكبر! وأنه لن يقدر على مخالفة أمره ولا طوعه، لأن إرادته هي النافذة! في النهاية يبقى لنا أن نقول: ولماذا تسميه إلهًا إذن؟! هذا كائن مسكين تمامًا على ما يبدو لي. كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (المائدة ١٧)!

فيبقى في النهاية من الخطل أن يتعلّق الإنسان ويتوجه إلى إله ناقص كهذا لا يملك أن يمنع إرادة الإله الأكبر في ذاته إن أراد أن يهلكه، فهل تراه سيمنع عنك أنت ذلك؟! ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ۞ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (يس ٢٣ -٢٤).

ﷺ

وهناك كمالٌ إلهي آخر لا يتعدد، كمال العلو والقهر، لا يمكن أن يكون هناك أكثر من إله له كمال العلوّ والقهر! معنى أن الإله قد علا على الكل، أنه لا أحد يساويه فضلًا عن أن يعلوه.

هذا الكمال متحقق بالفعل ولكن في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، ولو تحقق في غيره معه لكان هذا تناقضًا منطقيًا ومتاهة لا تنتهي، من الأعلى شأنًا منهما، لو كان كلًا منهما أعلى شأنًا من الجميع ؟!

لذلك يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿مَا اتَّخَذَ الله مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون ٩١)!!

وهذا هو السبب في أن القرآن يربط بين وحدانية الله عز وجل وبين قهره. فنجد ذلك التلازم المتكرر بين صفتي (الواحد) و(القهار) لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. لأنه لا يمكن للجميع أن يقهر الجميع، ولأنه من الطبيعي أن يكون قاهر كل شيء وكل من عداه هو واحد فقط.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (إبراهيم ٤٨) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا الله الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (ص ٦٥) ﴿لَوْ أَرَادَ الله أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ الله الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الزمر ٤) ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى الله مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر ١٦) ﴿أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد ١٦) ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف ٣٩)

والطريقة الوحيدة التي يمكننا فيها أن نتصوّر عكس ذلك هي أن نتخيل أن هناك صراعًا دائمًا غير محسوم بين هذه الآلهة المتعددة لمحاولة فرض السيطرة وإثبات الهيمنة والعلوّ، من الممكن أن يكون كل واحد فيهم يظن أنه الأعلى شأنًا ويحاول إثبات ذلك للبقية ويتصارعون على الملك. ولكن لك أن تتخيل لو قررت هذه الآلهة المتعددة أن تتصارع فيما بينها، كيف سيكون حال العالم والوجود؟ هل سيكون مكانًا سالمًا آمنًا؟ هل لك إلى أن تنظر في ملكوت السماوات والأرض وتخبرني إن كانت هناك حربًا دائرة هناك أم لا؟!

لذلك يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا الله لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء ٢٢). ولأنهما لم يفسدا، ولأن العالم لم يختل نظامه ولم يخرب، فلا يوجد إلهٌ في الحقيقة سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بل هذا ملكٌ مستتبّ، وكونٌ قد استوى على عرش ملكه إلهٌ واحد، قد علا على الكل، حتى لو افترضنا فرضًا مستحيلًا بأن هناك آلهة أخرى لكانت هذه الآلهة المزعومة تدور في عبوديّة الإله الأعظم وتعبده وتتقرب إليه إذ إنه سيكون سيدها إذن، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ (الإسراء ٤٢ -٤٣)!!

كما كان يقول الإمام بن تيمية:

ولا ظهير له كي يستعين بـــــه   كما يكون لأرباب الولايـــاتِ

والفقر لي وصف ذاتٍ لازم أبدًا   كما الغنى أبدًا وصف لـه ذاتِ

٤

الله أم الماعون؟

"أقسم لك، لو نبت للمنافقين أذناب،

ما وجد المؤمنون أرضًا يمشون عليها!"

مالك بن أنس

في المطاعم الكبيرة لا ينبغي لك أبدًا أن تنسى ثلاث نصائح. أولًا لا تصدق الصور الموجودة على الـ Menu فما تراه أمامك هي دجاجة كبيرة شهية وأوسم منك شخصيًا، بينما ما سيصل إليك هي نفس الدجاجة ولكن بعد أن تجور عليها الدنيا والأزمان وأصابع عم أشرف. ثانيًا لا تثق في المادة اللزجة بجانب حوض الحمام، من فضلك لا تفترض أنها صابون لمجرد أنها لزجة، عليك أن تتذكر أن كمية لا بأس بها من المواد الكيماوية هي لزجة أيضًا، ونصفها أرخص من الصابون في نظر إدارة المطعم بالمناسبة. ثالثًا لا تفتح زجاجة المياه ولا علبة المناديل على الطاولة، قد تظن أنك طالما ستدفع مائتي جنيه في الفاتورة، سيسامحك صاحب المطعم المليونير على هذا، لكنك مخطئ للغاية يا رفيق.

مشاعر كثير من البشر تجاه بعضهم البعض لا يمكن تلخيصها ببساطة في البخل، ولكن في عشق البخل! عليك أن تكسب من كل شيء، عليك أن تأخذ المزيد، لا تترك للناس شيئًا. هذه هي قواعد الحياة البسيطة التي نتوارثها منذ القدم عن أجدادنا الأولين. وفي القرون القادمة ستتغير الكثير من العادات والتقاليد والقيم لكن ستبقى أمثال هذه القواعد (النذلة) باقية محفوظة لا تُمَس.

غير أننا لا نبخل على الناس بكل شيء، هناك الكثير من الأشياء التي نراها مجانية فنبذلها بلا عناء. لا أحد يبخل بإعجابات الفيسبوك، أو بكلمات المواساة، أو بنظرات الشفقة. ربما يصلح هذا في الحقيقة كمقياس لمدى قيمة الأمور لدينا، فالأشياء التي لا نرى لها كبير أهمية نعطيها بسخاء.

مثلًا في قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون ٦-٧). يتبين لك أن هناك من سيهب أجر الصلاة نفسها لعيون جاره، فيجمّل صلاته لأجله حين يراه في المسجد يوم الجمعة. وبرغم ذلك فحين يطلب منه نفس الجار (ماعونًا) كإناء الطهي ليستعمله ثم يعيده، فإنه سيبخل عليه به! هو قد أعطى حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه هدية مجانية لنفس الشخص الذي يبخل عليه بـ (حلة التيفال)!

فما هو يا ترى قدر الله عنده؟!

لهذا السبب يستغني الله تمامًا عن عبادة المرائي، كما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ (النساء ١٤٢). يظنون أنهم قد خدعوا الله بذلك، بل الحقيقة الله هو خادعهم إذ يجعل هذه الأعمال كالهباء المنثور، كأنها لم تكن! ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ عن رب العزة جَلَّ جَلَالُهُ أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»!

كان مسلم بن يسار يقول: «إياكم والرياء، فإنه ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته». وقال مطرّف بن عبد الله: «إن أقبح ما طُلِبَ به الدنيا عمل الآخرة». وهذا لأن كمال الإله يقتضي كمال استغنائه، لا يرغب الإله في عبادة أحد من خلقه يقدم له جزءًا من عبادته والجزء الآخر لشيء أو لشخص أو لإله مزعوم آخر!

الرياء والذي هو الشرك الأصغر، وعبادة غير الله تعالى (الشرك الأكبر) إنما يدلان على أن العبد لم يعرف ربه فعلًا أو عرفه ولم يبال بأن يشكره حق شكره. لذلك يخاطبنا القرآن بالتوحيد ويقرن ذلك بأن يذكرنا برزق الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (فاطر ٣). ويذكرنا بإطعام الله لنا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام ١٤).

كيف تدّعي أنك شكرت الله عز وجل على نعمه بينما أنت ترسل ابتهالاتك إلى عنوان بريدي مُختَلق؟! شكرك لم يصل إلى الله يا صديقي! ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الأنعام ١٣٦).

٥

متعة الاتجاه الواحد

"أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله، أن يطلع إلى قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة غيره"

قالها (أبو سليمان الداراني) وهو يبكي

لما كان أنيس منصور في الهند، وأثناء إقامته في أحد الفنادق، وجد مقالًا في الجريدة يطلق فيه كاتب المقال صرخة إنسانية لإنقاذ الثعابين من مجزرة القتل التي تجري لهم في الهند لدواعي الأكل وغيره، ويلفت كاتب المقال النظر إلى أن قتل الثعابين غير أنه عمل لا إنساني فهو أدى أيضًا لاختلال التوازن البيئي وانتشار كبير للفئران بالتبعية.

بعد قراءة المقال اتصل الأستاذ أنيس بعاملة الاستقبال وحكى لها المقال وقال لها: إلى أي طرف تنحازين أنتِ وإدارة الفندق في قضية قتل الثعابين؟ إلى العاطفة أم المصلحة؟ إلى الإنسانية أم الحيوانية؟ إلى التوازن البيئي أم الانتقاء البيولوجي؟ لم تفهم عاملة الفندق ما يجري، فقال لها أنيس منصور: باختصار يا سيدتي هل تحتوي غرفتي على فئران أم ثعابين؟!

وهو وإن كان موقفًا عابرًا طريفًا لا يستحق أن نستخلص منه العِبَر، إلا أننا نلاحظ أنه من الصعب للإنسان فعلًا من حيث هو إنسان أن يشعر بالدافعيّة القوية تجاه أمر ما من دون أن يكون المحرّك الأساسي له هو مصلحته الذاتية.

في قصة حصار طروادة يحكي لنا هوميروس رغبات ودوافع المشتركين في الحرب، (باريس) كان يريد الظفر بعلاقة غير شرعية مع امرأة جميلة، (آخيل) كان يريد الخيول والأموال التي وعدوه بها لو فاز في الحرب، وأما (هيكتور) فرغبته كانت محترمة نوعًا عنهم، حيث كان يريد تحقيق ذاته بالمجد والرفعة.

ولمّا صوّر الشاعر الموهوب (أمل دنقل) صراع (سبارتاكوس) الروماني في ثورة العبيد، أظهره بمظهر الباحث عن الحرية المتمرد على الطغاة، (الذي قال لا في وجه من قالوا نعم)، سبارتاكوس كان سفاحًا مثله مثل من قاتلوه، ولكن لا يمكن للشاعر أن يشعرك بالتعاطف تجاهه لو لم يتغاضى عن هذه الحقيقة مؤقتًا حتى يستطيع أن يلقي قصيدة غنّاء تقترب من الطبيعة الإنسانية وليست نشرة أخبار حقيقية تشعرك بالتقزز من كل أبطالها.

وبرغم محاولات هوميروس ودنقل لتصوير الدوافع البشرية بشكل أكثر نقاءً وأناقة من حقيقتها غالبًا، إلا أننا في النهاية نرى مصلحة الذات من جديد تتجلى من خلال معاني البحث عن المجد أو التمرد على السلطة التي لا نحبها.

في رأيي فإن الإنسان لا يصل إلى أسمى معاني الإنسانية إلا حين يتحرّك خارج دائرة مصالح ذاته ورغباته الخاصة في خدمة هذا الجسد المتهالك الذي يحمله وتلك النفس الشرهة التي يطويها بين جنبيه.

أصحاب الأعمال الخيرية مثال جيد على ذلك السمو الإنساني، حين يبذل ماله ووقته وجهده في سبيل تدفئة الفقراء وإطعامهم، لكن جميعنا نتفق أنهم لن يكونوا خير مثال على ذلك لو تخلصوا من رغبة المال وسقطوا في رغبة رئاسة جمعيتهم الخيرية أو الشهرة بين الناس بأعمالهم الطيبة، إن فرّوا من إحدى أنانيّات الذات إلى نوع آخر منها، فهم لم يفعلوا الكثير حقًا في اتجاه السمو.

بوصلتك للوصول إلى السمو الإنساني تحتم عليك أن تضع ذاتك خلف ظهرك ثم تركض بعيدًا عن مصالحها الدُنيوية، ولكن لو لم تكن لي وجهة موحّدة أسير لها، فما يضمن لي أنني لن ألتف حول نفسي عدة مرات وأعود بشكل أو بآخر إلى البقعة التي أفرّ منها؟

لذلك فأمر الله لنا بإخلاص عبادته له وحده والتخلص من كل المقاصد الأخرى فوق أنه حق الله تعالى علينا، فهو أيضًا ضمان لسماء روحك، وكمال إنسانيتك، وسلامة قيمك، بعيدًا عن كل تلك الرغبات التي تدفعك إلى خدمة وتشويه ذاتك!

يمكنك حينها أن تدرك الرابطة بين هاتين الآيتين: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الأنعام ١٦١-١٦٢).

Ꙭ

هناك متعة أخرى في نطاق مزايا الانطلاق في اتجاه واحد، وهي متعة توحيد المشاعر!

مثلًا في الإعلانات التي تعتمد على المشاهير، تجد على قارعة الطريق لافتة عملاقة للإعلان عن أحد مزيلات العرق، يظهر فيها ممثل مشهور وهو سعيد جدًا لأنه تخلص من رائحة عرقه. لا أفهم

حينها ما المطلوب مني! هل علي أن أسارع لشراء هذا المنتج لأن هذا الفلان سعيد به إلى هذه الدرجة؟ افترض أن مستقبلاته الشمّية الخاصة به مصابة بالعته! ماذا أفعل حينها؟

ولكني أقدّر من حجم انتشار هذا النوع من الدعاية أنه يؤتي حقًا ثماره. هناك من الناس من لديه الاستعداد بالفعل للسماح لشخص غريب تمامًا عنه بأن يختار له العطر الذي يجب عليه أن يفضله! فقط لأن هذا الشخص محبوب عنده لسبب لا أعلمه.

مباريات كأس العالم التي تصيب العالم كله بالحمّى كل أربع سنوات تصيبني بدهشة أخرى، فهناك نسبة لا بأس بها أبدًا من البشر قد قررت أن تعلّق أحزانها وأفراحها في فترة (المونديال) على مقدار براعة لاعبي فريقها المفضل. تخيل مدى السخرية في أن يكتئب (ماجومبا) من (غينيا الجديدة)، أو يبكي (سباعي) من (باب اللوق) لأن إيطاليا خرجت من البطولة!

هناك طائفة أخرى تفضل أن تعطي حق الولوج الاختياري لمشاعرها الداخلية لإنسان معيّن. ربما تكون حبيبته من الجامعة مثلًا، تكفي رؤياها بالنسبة له لكي يشعر بعدة عصافير ملوّنة تحلّق حول رأسه من فرط السعادة، وتكفي مشاجرة بسيطة كي يرغب في الانتحار بسم فئران منتهي الصلاحية!

مشاعرك الداخلية ليست مجرد ذكريات، أو أفكار، أو حوارات بينك وبين نفسك. مشاعرك ليست مجرد حرارة غضب في صدرك، أو برودة حزن في قلبك.

مشاعرك أعمق من كل هذا. هي أمواج متلاطمة بداخلك، تارةً هي عميقة فلسفية غامضة، وتارة هي سطحية لا تريد من الحياة إلا متعتها الظاهرة. تارةً تفكر في الغد في قلق أو في تفاؤل، وتارةً تفكر في ما مضى بالرضا وبالحسرات. مشاعرك هي ما يحدد ما تكون عليه في هذه اللحظة، ما يحدد لك كيف ترى الدنيا من حولك، كيف ترى نفسك، كيف ترى أصحابك. مشاعرك هي الغرفة المركزية التي تتحكم في أفعالك وتصرفاتك، هي الشفرة الوراثية التي تُنسخ منها كلماتك، هي القوة الخفية التي سترسم عبوسك أو ابتساماتك، هي دفة روحك التي تحدد وجهتك. ببساطة، مشاعرك الداخلية هي أنت!

تخيّل مدى المتعة والراحة النفسية حين تسير هذه المشاعر في اتجاه موحّد؟! حين لا يقف شيء وراء دفّتها إلا سبب واحد يتعلق بالمعبود الواحد الذي اخترت رضاه هو الوجهة الوحيدة التي تسير نحوها وتقصدها! حين لا يقف خلف الحزن والفرح، أو الحب والكره، أو التردد والثقة، أو التفاؤل والقلق، أو الحبور والنفور، أو الملل والحماسة. لا يقف خلف كل هذه الأحاسيس إلا سبب يتعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إنها راحة أكيدة ومانع واضح من التشتت والتمزّق. ناهيك عمّا هو أشد وأعمق من مجرّد مشاعر! عن الوجهة التي تسير عليها في حياتك، والأفعال والتصرّفات التي تحكمك، والطريقة التي ترتضيها لمعيشة حياتك. لذلك لمّا أجابنا القرآن عن سؤال الوحدانيّة ذكّرنا بهذه الراحة النفسيّة الكبيرة التي تجدها مع هذه الإجابة. حين تصل إلى أن الإله واحد! فيخبرنا القرآن قول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف ٣٩). وكما يقول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾ (الصافات ٨٦).

كما يذكرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيقول: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر ٢٩). يذكرك بأن عليك أن تحمده لأنه واحد! عليك أن تثني عليه لأنه إله فرد صمد! حين تتخيل مدى الحيرة والاضطراب لو كنت مطالبًا بأن تعبد شركاء متشاكسين!

وفي المقابل، فإن الإجابة القرآنية التي أخبرتك بوحدانيّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست فقط كفيلة براحتك النفسية من أنك غير مطالب بإرضاء أحد إلا الله، بل أيضًا الحصول على هذه الإجابة كفيل بأن يشعرك بالطمأنينة، من أنه لا يتصرف أحد في هذا الكون إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا تخف ولا تفزع من أي شيء آخر! كما يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (الزمر ٣٦).

فأنت ستبقى واحدًا فقط، إن كان لك إله واحد!

التشخيص، مجرد غرور

(عن سؤال: لماذا خلقنا الله لعبادته وهو لا يحتاجها؟)

"عن السبب الذي من أجله خلقنا الله جَلَّجَلَالُهُ **-نحن وكل الدنيا- يأتي جواب القرآن بكلمة واحدة: البلاء. هذا البلاء إنما كان نتاج إرادة الله** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ**، وهي إرادة إلهية كاملة لا دخل لنا بها إطلاقًا، وليس لنا أن نتساءل عن السبب الذي من أجله أراد الله** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ **أن يخلق خلقًا من خلقه ليبتليهم لأنه في اللحظة التي سيسأل فيها أحدنا هذا سيأتيه جواب القرآن** ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾"

يقول الفيلسوف الفرنسي (فولتير): «السرّ في أنك مثير للملل هو أنك تقول كل شيء»! لربما أنت لا ترى هذا الملل الآن، ولكنك حين تجد أن هناك من شكوكك ما هو غير مبرّر ، لربما حينها تجد أنه قد كان من الممل فعلًا أن تقول كل شيء.

إنه كما يقول (ماسلو) عالم النفس الأمريكي: «إذا لم يكن لديك سوى مطرقة، فإنك ستميل إلى رؤية كل مشكلة على أنها مسمار». لو لم يكن لديك سوى عقليّة التشكيك والاستشكال، فإنك ستجد الأسئلة السهلة أعوص مما هي عليه بالفعل!

سألني أحدهم مرة: «لماذا خلقنا الله؟». قلت له: «لعبادته». قال بذكاء وانتصار: «وهل يحتاج الله إلى عبادتنا؟!». قلت له: «لو كنت قرأت القرآن لوجدت أن هذا السؤال قد تمّ طرحه والإجابة عنه في الصفحة السادسة من المصحف. هذا سؤال تقليدي جدًا!».

وبعد أن وضحت له مقصدي اندهش تمامًا، على ما يبدو لم يكن يتخيّل أن المسألة ستنتهي بهذه السرعة، وأن الشبهة القويّة التي كانت تمثل جدارًا ضخمًا اتضح أنها ليست أكثر من ديكور سينمائي مصنوع من (الفيللين)!

ذكّرتني دهشته بقصة الأعرابي الذي ادّعى النبوة في زمان (المهدي) فأُخذَ وسيق إلى المهدي، فقال له: هل أنت نبي؟ قال: نعم. قال: إلى من بُعثتَ؟ قال: أَوَتركتموني أُبعَث إلى أحد؟! بُعِثتُ في الصباح واعتقلتموني في المساء!

وبالعودة إلى الصفحة السادسة من المصحف، نجد أن الملائكة قد سألت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حين أخبرها أنه جاعلٌ في الأرض خليفة. فقالت: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ (البقرة ٣٠). لم يكن جواب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليهم أكثر من: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة ٣٠). وهذا جواب متعالٍ جدًا لا يصدر إلا من إله.

كان سؤال الملائكة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من أكثر ما استرعى انتباه (جيفري لانج) الملحد السابق الذي أسلم وكتب كتابًا سمّاه: (حتى الملائكة تسأل)! ووضّح جيفري في كتابه أن أكثر ما دعاه إلى اعتناق الإسلام أنه قد وجد في القرآن الإجابات على كل أسئلته. وهي العبارة التي تصلح دعاية ممتازة لموضوع هذا الكتاب الذي تقرؤه الآن!

دعونا نرى إذن كيف أجاب القرآن عن هذا السؤال تحديدًا، وما هو السبب في تسمية هذا الفصل بهذا الاسم!

١

عن البلاء

"كيف يمكنني أن أعرف ضعفي، إذا لم تُختَبر قوتي"

جينيفر بيكستراند

هناك قصة رعب قصيرة جدًا من تلك القصص الشهيرة على الانترنت بحيث لا تعلم أبدًا من الذي كتبها، وعلى الأرجح لم يكتبها أحد المشاهير. تقول القصة: «عدت إلى منزلي فوجدت زوجتي السابقة تحتضن طفلي، لم أعلم ما هو الأكثر رعبًا بالنسبة إليّ. أن أجد زوجتي الميتة تحتضن طفلي الذي وُلِدَ ميتًا، أم حقيقة أن هناك من اقتحم بيتي ووضع الاثنين هناك؟!»

قصص الأشباح والعائدين من الموت هي أشهر قصص الرعب وأقواهم على الإطلاق. الموت مخيف للنفس البشريّة، وسل عن هذا أي شخص اضطرّ للدخول إلى المقابر ليلًا، أو يعمل في مشرحة (زينهم)، أو يدرس الطب ويتعامل مع كل هذه العظام ورائحة الفورمالين، وشكل الجمجمة نصف الضاحك نصف اللامبالي وهي تنظر لك في برود من انقطعت صلته بهذه الدنيا.

هذا كان إنسانًا مثلك والله أعلم أين هو الآن!

أكثر الأسباب قبولًا وراء خوفنا من الموتى أن هذا عالم شديد الغموض وشديد الرهبة بالنسبة إلينا، ومع ذلك فهو مصير محتوم للجميع، ونجلس في خوف ننتظره وننسج حوله الأساطير والخيال.

بينما القرآن يخبرنا أن الموت إنما هو محطة انتقال من عالم إلى آخر، وأن سبب وجوده أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد خلقه ساترًا يفصل هؤلاء الذين تم اختبارهم بالفعل من هؤلاء الذين يخضعون لنفس الاختبار الآن.

فنجد مثلًا في القرآن الكريم قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك ٢). يقول (القرطبي) رحمه الله أن الله جَلَّجَلَالُهُ قدم ذكر الموت على الحياة لأنه إلى القهر أقرب! ويَروي عن قتادة أثرًا يقول: «إن الله تعالى أذل عباده بالموت».

في النهاية نجد أن سبب خلق هذه الدنيا بركنيْها: الموت والحياة، هو اختبار المكلّفين منهم (الإنس والجن) بمن هو أحسن عملًا.

وكعادة أي مُمتَحِن يقوم بتمييز الطالب المُجدّ المتميّز عن الطالب المتوسط أو الضعيف بوضع (مُغريات) له بأن يجيب الإجابة الخاطئة، بينما الذي يعلم ويفهم ما يتكلم عنه فعلًا لا يقع في هذا الفخ أو ذاك.

ولله المثل الأعلى سبحانه، لا نشبهه بأي من مخلوقاته قطعًا، وإنما ذلك تقريبٌ لقوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف ٧). إغراء لضعاف المستوى الإيماني الذين يسهل وقوعهم في فخ حب الدنيا، بينما وقت النتيجة - أي بعد الموت وفناء العالم - يتبين أن من صمد أمام هذا الإغراء كان محقًا، إذ إنه سرابٌ في النهاية! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ في الآية التي تليها: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (الكهف ٨). هنا يتميز الناس حسب قوة إيمانهم إلى فريق يستحق ثواب الله ومكافأته، وفريق يستحق عقابه وغضبه.

عن السبب الذي من أجله خلقنا الله جَلَّجَلَالُهُ -نحن وكل الدنيا - يأتي جواب القرآن بكلمة واحدة: البلاء. كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود ٧).

هذا البلاء إنما كان نتاج إرادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهي إرادة إلهية كاملة لا دخل لنا بها إطلاقًا، وليس لنا أن نتساءل عن السبب الذي من أجله أراد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يخلق خلقًا من خلقه ليبتليهم ويرى من منهم سيكفر ومن منهم سيشكر. ليس لنا ذلك لأنه في اللحظة التي سيسأل فيها أحدنا هذا سيأتيه جواب القرآن الذي كان ردًا على النبي محمد صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أحد المواقف: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران ١٢٨). أو ما كان ردًا على النبي نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في موقف آخر: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (هود ٤٦). أو الذي كان من التعليمات العامة للخلق في كل وقت وحين: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء ٣٦)! إنما هذا من جملة أفعال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإراداته والتي قال الله جَلَّجَلَالُهُ عنها: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء ٢٣)!

وأما الذي من شأنك فهو أنه لا يتم في هذا الاختبار ظلمٌ لك يوم النتيجة! بل في الواقع حجة الله تقوم بالعدل على الجميع وتابع لآخر الكتاب حتى تتأكد من ذلك.

ثم إن من ينجح في هذا الاختبار يكون جزاؤه أعلى مما يتخيل أو يظن! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة ٧). أي أن الناجحين في هذا البلاء هم أفضل خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جميعًا! ليس فقط أفضل ممّن دخلوا الاختبار معهم وفشلوا -وهذا مفهوم طبعًا- ولكن أيضًا أفضل من الذي لم يخض الاختبار، مثل الجمادات والدواب الطائعة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بطبعها، ومثل الملائكة التي لا تحسن أن تعصي الله!

٢

عن العبادة

"كل مَلذوذٍ له لذة واحدة إلا العبادة لها ثلاث لذائذ
إذا كنتَ فيها، وإذا تَذكّرتها، وإذا أُعطِيتَ ثوابها"

عبد الله بن وهب

يحكون عن ملك خرج للصيد فأُصيبت قدمه بالقروح من خشونة الأرض، فأمر الملكُ وزيرَه بأن يبطّن الطريق الذي يسير عليه من أول قصره وحتى الغابة بالمطاط حتى لا تتقرح قدمه، بينما ما قام به الوزير بالفعل كان حلاً أبسط من هذا وأكثر منطقيّة: أهدى له حذاءً مطاطيًا!

هذه هي المشكلة التي يُصاب بها من يظن أن ما يواجهه هي حالة فريدة من نوعها تتطلب تدخّلًا أكثر تميّزًا عن غيره، بينما هو في النهاية مجرّد رجل يحتاج إلى (كوتشي).

هذا شبيه بالمشكلة التي يُقال أنها واجهت روّاد الفضاء الأمريكيين حين كانوا يحتاجون إلى قلم يكتبون به في الفضاء الذي تنعدم فيه الجاذبيّة بطبيعة الحال ممّا يؤدي إلى أن الحبر لا ينزل من القلم. أنفقوا الكثير من الأموال والأوقات للتغلب على هذه المعضلة المتميّزة: نريد قلمًا مقاومًا لانعدام الجاذبيّة. بينما استخدم روّاد الفضاء الروس قلمًا خشبيًا من الرصاص!

المعضلة التي قد تنشأ في ذهن البعض من أن البشر مخلوقون للعبادة برغم أن الله لا يحتاج إلى هذه العبادة، هذه المعضلة نشأت في الحقيقة من التصوّر الخاطئ بتميّز موقع الإنسان من مسألة العبادة، بينما القرآن يقرّ فلسفة مختلفة تمامًا فيها الأمر ليس كذلك على الإطلاق!

فالقرآن يخبرنا أن كل ما حولنا من حيوان أو طائر أو حشرة أو بكتيريا أو ذرّات جماديّة لا حياة فيها إنما هي تسبح لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وتسجد له بطريقتها الخاصة! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۞ وَللهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ (النحل ٤٨ -٥٠). ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ (الإسراء ٤٤)!

فمسألة العبادة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ نحن كبشر -والجن معنا - لسنا مميزين فيها بأي حال، وإنما العبادة والذل والخشوع هي النتاج الطبيعي للعلاقة المنطقيّة التي تربط الخالق ووليّ النعم بالمخلوق الفقير الموهوب له كل شيء! إنها علاقة قائمة على شكر النعم ومخافة البطش ورجاء المزيد من الفضل. هي علاقة لا يؤثّر وجود الثواب والعقاب أو الاختبار والبلاء عليها! إذ لو لم تكن هناك آخرة أو جزاء على الأعمال لظلّت العبادة هي المقابل الوحيد المعقول تقديمه من مخلوقات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولكن الذي حدث فعلًا أن الإنس والجنّ قد اختُصّوا بالإرادة الحرّة، وهي جزء من البلاء الواقع عليهم وأمانة التكاليف التي تحمّلوها، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾ (الأحزاب ٧٢).

ولذلك أصبح هناك اختلاف بين عبادة (المُكلّفين) من الإنس والجن، وبين عبادة (غير المكلّفين) من الشجر والحجر، هذا الاختلاف مفاده أننا (نختار) أن نعبد الله أو لا نعبده، نختار بين الإيمان والكفر، وبين الجحود والشكر، نختار بين أن ننضمّ لركب العابدين في الكون ونتسق مع هذا النسق الإلهي المحكم، وبين أن نشذّ عنه ونكون الاستثناء الوحيد في هذا الكون! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ**﴾ (الحج ١٨).

من أجل ذلك احتاج الإنس والجن على التأكيد على غاية خلقهما دون سواهما من مخلوقات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ! لا تحتاج السماوات والأرض وما فيها من دوابّ أن يذكرها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأن عليها أن تعبد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأنهم لم ولن ينسوا ذلك قط. بل يأتون ربهم في كل حين طائعين، يخافون ربهم من فوقهم، ويفعلون ما يؤمرون.

بينما نحن ننسى طوال الوقت، فنحتاج إلى التذكرة: ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (الذاريات ٥٥ -٥٦)!!

٣

عن الغرور

"لو ظن أحد أنه غير مغرور، فهو مغرور بشدة بالفعل"

كليف لويس

ضمن قائمة الأمراض النفسيّة تنتشر تلك الأمراض التي تحتوي لائحة معايير تشخيصها على الإنكار الشخصي لصاحب هذا المرض، لديك مثلًا مرض الفصام وجنون الاضطهاد والوسواس القهري، كل هذه الأمراض يشترك كثير من أصحابها في أنهم ليست لديهم أدنى فكرة عن أنهم مصابون بهذا المرض، على الأقل في مراحل المرض الأولى قبل أن يبدأ رحلة العلاج السلوكي.

ربما من الاستثناءات النادرة ويكاد يكون الاستثناء الوحيد من هذه الأمراض والتي تُعدّ من أفضل وسائل تشخيصها أصلًا الاعتراف المباشر من صاحبها هو مرض النرجسيّة، ومعناه عشق الذات، فبحسب دراسة أشرف عليها (براد بوشمان) عالم النفس الأمريكي في جامعة أوهايو وتضمنت ٢٢٠٠ شخص هم موضع الدراسة، أن الشخص النرجسي يكفي لتشخيص مرضه أن يتم سؤاله سؤالًا واحدًا فقط: إلى أي مدى تتفق مع مقولة: أنا نرجسي؟! فكما يقول (بوشمان): «هم يفتخرون بذلك، لأنهم لا يعتبرونه شيئًا سيئًا، ويثقون بأنهم أفضل من الأشخاص المحيطين بهم وهم على استعداد للتصريح بذلك علانية»!

النرجسيّة عامةً هي مرض نفسي يعني التعالي والشعور بالأهمية وعشق الذات، نسبةً إلى (Narcissus) وهو صاحب الأسطورة الإغريقيّة الذي كان على درجة عالية جدًا من الوسامة، ولسبب ما لم تحبه (Nemesis) التي كانت تقوم بدور الرقابة على رذائل البشر، فاستدرجته لبركة ماء حيث رأى صورته المنعكسة عليها فوقع في عشقها حتى غرق في البركة من كثرة هيامه بصاحب الصورة!

النرجسيّة تمثل أقصى درجات الغرور البشري، ولكن هذا ليس معناه أن غير النرجسيين قد سلموا من هذا الغرور! نحن كبشر نشترك في هذه النرجسيّة بنسب متفاوتة، فكما يقول (جون شتاينبايك) الكتاب الأمريكي الحائز على جائزة نوبل: «في أغلب الأحيان فالناس ليسوا فضوليين إلا بخصوص أنفسهم»، ويقول (ستيف مارابولي) عالم النفس المعاصر: «كلما زادت نرجسيّتنا كلما كرهناها في الآخرين»، ويقول الروائي اليوناني القديم (سوفوكليس): «لا توجد سوى خطيئة واحدة: الكبر»، وهذا شبيه بما يقوله المؤرخ الأسكتلندي (توماس كارلايل): «الخيلاء هي مصدر وملخّص كل التعاسات والعيوب»، ولخّص لاعب كرة القدم الأمريكي (فرانك ليهي) المسألة كلها في كلمته: «الغرور هو المخدر الذي يخفي آلام الغباء!!».

في تراثنا الإسلامي تجد التحذيرات من الغرور والكبر كأقوى ما يكون. يكفينا من ذلك أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه عنه ابن مسعود وذكره الإمام مسلم في صحيحه. وقال (محمد بن الحسين بن علي): «ما دخل قلب امرئ شيء من الكِبْر قط، إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك أو كثر»، وقال (عبد الله بن المبارك): «لا أعلم في المصلين شيئًا شرًا من العجب»، وجاء في السير للذهبي رحمه الله أن الأمير (يزيد بن المهلب) -وكان ذا تيه وكبر- لما رآه (مطرف بن الشخير) يسحب حلته فقال له: «إن هذه مشية يبغضها الله»، قال: «أوَمَا تعرفني؟!»، قال: «بلى أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة»!

لا يحق للإنسان أبدًا أن يتكبر ويشعر بفضل عظيم له حين يأمره الله بعبادته، ويقول له: ولماذا تحتاجني أن أعبدك؟! من الذي أقنعك بأن الله هو من يحتاج منك عبادتك أيها الكائن المسكين؟! ومن تكون أنت أصلًا؟! إنما أنت هباءة في ملكوت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو أقل من ذلك. وما يحمل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العظيم خالق السماوات على أن يبالي بك أو يهتمّ؟! كما يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**﴾ (الفرقان ٧٧). أي لولا إيمانكم ما كان الله ليبالي بكم إطلاقًا!

هذه المكانة الضعيفة التي هي في الحقيقة أقل بكثير من المكانة المتوهّمة التي يظنها أغلب الناس في أنفسهم، تجعل عقابهم -إن أراد الله أن يعاقبهم- أقل شأنًا بكثير مما كانوا يتوقعونه! كما يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ في آل ياسين المكذّبين: ﴿**وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ۝ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾ (يس ٢٨ -٢٩).

لذلك يحدثنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن عبادة الملائكة التي هي أفضل وأكمل من عبادتنا بما لا يُقارَن، عبادة لا يخالطها السأم أو التعب أو الملل أو الفتور. فيقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا**

فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ (فصلت ٣٨). ثم يوضّح لنا أن هذه الملائكة هي أشد منّا في الخلقة، أجمل منّا في الصورة، أفضل منّا أخلاقًا، أكرم منّا مكانةً، وبرغم ذلك لم يتكبروا أو يغترّوا بأنفسهم مثلما فعلنا! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ**﴾ (الصافات ١١)؟!!

هذا الغرور البشري العتيد هو ما منع الإنسان من أن يدرك أن العلاقة التي تربطه كمخلوق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الخالق لا تسمح له إلا بأن يكون عبدًا ذليلًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طوال حياته، ثم عندما تقوم الساعة يقول: سبحانك ما عبدتك حق عبادتك! لماذا يفعل ذلك؟ لأنه لا يسعه سوى ذلك أصلًا.

مُغمِضُو الجفون في القطار السريع

(عن أسئلة البعث واليوم الآخر)

"نحن إذن أمام اطّراد بشري جديد، في هذه المرة الاطّراد يتعلق بوجود شيء لطيف في الكائنات الحية، وهذا الشيء يذهب بعد الموت إلى مكان ما! ولكن الكثير من البشر فضّلوا أن يتعاملوا مع هذه المسألة بطريقة طريفة وذكيّة للغاية: أغمضوا أعينهم! وبنفس منطق من يركب القطار السريع في مدينة الملاهي فلا يريد أن يرى المهابط المخيفة ولا الارتفاعات الشاهقة التي هي أمامه، يفضل حينها أن يغض طرفه عن كل ذلك ويتجاهله تمامًا!"

في عام ١٩٠٧ قام الطبيب الأمريكي المتديّن والمتحمّس (دونكان ماكدوجال) بواحدة من أكثر التجارب العلميّة تخلّفًا وانحيازًا ولا أخلاقيّة! حيث عمد إلى ستة من المرضى المصابين بالسل في دار للعجائز وكان يعرف أنهم سيموتون حتمًا فثبّت بأسفل كل واحد منهم ميزانًا وقام بوزنهم قبل وأثناء وبعد عمليّة الاحتضار كي يثبت أن هناك جسمًا ماديًا قد خرج من أجسامهم عند الموت: الروح!

كانت النتائج غير مبشرة، حيث أعطى كل واحد منهم نسبة اختلاف ضئيلة وغير متساوية مع بعضها البعض إطلاقًا، إنه وكأن الروح كانت تملك وزنًا مختلفًا في كل مرة. هذا بالطبع كان كفيلًا بإجهاض تجربته (العلميّة) حيث إنها غير خاضعة للقياس بهذا التفاوت الكبير، إلا أن ماكدوجال لم يستسلم وقام بجمع هذه النسب المتفاوتة وقسمتها على ستة، ليخرج بمتوسط (وزن) الروح وهو ٢١ جرامًا!

كرر نفس التجربة مع كائنات أخرى، فلدهشته كان الخروف يزداد وزنه عند الاحتضار ولا يقل! لم تشكل هذه مشكلة أيضًا أمام ماكدوجال المتحمس وكوّن نظرية تقضي بأن روح الخروف تقوم بعمل نفق لخروجها من جسده عند الاحتضار مما يُزيد مؤقتًا من وزنه!

كرر التجربة مع الكلاب ففوجئ بأن الكلاب لا تظهر أي تغيرات في الوزن عند الاحتضار، لا بالزيادة ولا بالنقص، فكوّن نظرية جديدة تقضي بأن الكلاب لا روح لها!

وهكذا لا يوجد ما يمنع ماكدوجال من الفكرة الغريبة التي سيطرت عليه، ومات بعد أن بلغ الرابعة والخمسين من العمر دون أن يفطن إلى أنه قد قضى حياته في الهراء! فالروح من سرّ ربنا وما أوتينا نحن من العلم إلا قليلًا! حتى ذكر ابن حجر في كتابه (فتح الباري) أنه قد قيل أن هناك مائة قول فيها. وهذا إنما يدل على أنه لا يعرف أحد عنها شيئًا فعلًا.

لم يتم أبدًا اعتبار هذه التجارب شديدة الغباء واللاأخلاقية: علمًا. لكن هذا لا يمنع من أن هذه النتائج قد تسرّبت إلى وجدان العامة بشكل أو بآخر! وأنت إن بحثت عن الـ (٢١ جرامًا) -التي توصل لها ماكدوجال كوزن للروح- لوجدت أنها عنوان فيلم درامي من إنتاج هوليود سنة ٢٠٠٣ يتحدث عن نفس المبدأ!

لم يكن الوعي البشري يحتاج إلى تجارب ماكدوجال حتى يوقن بوجود (الروح) على كل حال. فقد كان الإغريق القدماء مثلًا يضعون في فم الميّت قطعة معدنيّة، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن (شارون) سيطلب من الميت أجرًا على عمله. حيث شارون هو عامل (المعدّية) على نهر (ستيكس) الذي ينقل الأموات من عالم الأحياء إلى مملكة (هاديس) حيث يمكث الموتى في

انتظار أن يتم الحكم عليهم وعلى مصيرهم الأبدي. لم تذكر لنا الميثولوجيا الأغريقية عمّا كان سيحدث لو نسى أهل الميت أن يضعوا القطعة المعدنية في فمه، هل سيتركه (شارون) في عالم الأحياء إذن ولا ينقله معه على قاربه؟! ولكن ألن يكون هذا أمرًا جيدًا؟!

القدماء المصريون كانوا ينزعون أحشاء الميّت كلها ويتركون قلبه، لأن القلب هو ما سيتم وزنه على ميزان الآلهة بعد البعث ليتم تقرير مصيره. والفايكنج كانوا يقتلون خادمًا مع السيد الذي وافته المنية كي يخدمه. وبلغ الإيقان بالبعث عند ساكني بلاد الغال قديمًا أن كانوا يقترضون من بعضهم المال على وعد برده في الحياة الآخرة! وكانوا يدفنون موتاهم مُحمّلين بخطابات مُرسّلة إلى أحبابهم الذين ماتوا قبلهم في خدمة بريد عابرة للبرزخ فريدة من نوعها!

وأما الهندوس والبوذيّون والكثيرون من وثنيي أفريقيا يعتقدون بأن الروح لا تذهب إلى عالم آخر ولكن تدخل في جسد وليد جديد، وأنه على حسب أعمالك الصالحة والطالحة يتم اختيار هذا الحاضن الجديد لروحك، فبالتالي قد تكون حياتك الأولى في جسد زعيم القبيلة ولكن لأنك لم تكن ذا أخلاق حميدة فإن حياتك الثانية قد تكون في جسد صرصور يعيش في المراحيض العامة ومصاب بالتهاب المفاصل! هذا هو مبدأ (تناسخ الأرواح) الذي كان موضة فكريّة في الستينات.

نحن إذن أمام اطّراد بشري جديد، في هذه المرة الاطّراد يتعلق بوجود شيء لطيف في الكائنات الحية، وهذا الشيء يذهب بعد الموت إلى مكان ما! وعلى الأرجح يتضمن هذا المكان ثوابًا وعقابًا لصاحب هذا الجسد الذي مات. ولكن الكثير من البشر فضّلوا أن يتعاملوا مع هذه المسألة بطريقة طريفة وذكيّة للغاية: أغمضوا أعينهم! وبنفس منطق من يركب القطار السريع في مدينة الملاهي فلا يريد أن يرى المهابط المخيفة ولا الارتفاعات الشاهقة التي هي أمامه، يفضل حينها أن يغض طرفه عن كل ذلك ويتجاهله تمامًا!

هذا هو الذي يقوم به الكثيرون ممن لا يؤمنون بوجود حساب أو بعث بعد الموت، ولكنهم برغم ذلك لا يعلمون وليست لديهم أدنى فكرة عن كنه المصير الذي ينتظرهم بعد أن يتوقف قلبهم عن ضخ كمية الدم المعتادة التي تبقى جسدهم الفاني المتهالك على قيد الحياة. لا يعلمون ما المكان الجديد الذي سيذهبون إليه، وهم لا يبالون كثيرًا بذلك، واختاروا أن يُغمضوا أعينهم في القطار السريع !

نحن كمؤمنين بالقرآن –ومعنا طائفة كبيرة من أصحاب الديانات الإبراهيمية– نعلم أن هذا المكان هو يوم القيامة الذي سيجمعنا فيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليحاكمنا ويحكم بيننا ويلقى كل إنسان مصيره الأبديّ! كما يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا**﴾ (النساء ٨٧).

هذا القرآن الذي لم يتركنا من دون أن يقدم لنا إجابة شافية عن سؤال البعث.

١

ما هو أهون

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾

سورة الأعراف آية ٢٩

اعتاد خبراء التواصل على أن يذكّروا بأهمية التكرار في إيصال الرسالة، حتى إنهم يقولون أنه ولكي تقنع شخصًا برسالة ما فإن عليك أن تكرر رسالتك ثلاث مرات بطرق مختلفة، من دون أن يفطن إلى أنك قد كررت رسالتك!

الخطاب القرآني أوضح مثال موجود لدى البشرية على الخطاب الإقناعي، ومن ضمن سماته فعلًا النزعة التكرارية لتقرير المعنى وتأكيده. وهو تكرار لا يشوبه الملل أو الإطناب، وإنما هو تكرار من نوع جديد، تكرار مثير للاهتمام في حد ذاته!

من ضمن هذه الأمثلة على التكرار: الحجة القرآنية التي أتت على الرد على من يتعجبون من البعث بكونه عملية مستحيلة الإمكان. حين طالب القرآن كل من له عقل على قدر متوسط من الذكاء أن يفطن إلى أن خالق كل شيء وموجد كل الوجود من العدم، إنما لن يعجز أو يصعب عليه أن يعيد كل شيء كما كان!

لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ مخاطبًا هؤلاء الذين آمنوا به كخالق، ولكن لم يصدقوا في إمكانية بعثهم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ (الحج ٥). ﴿**إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾ (الأنعام ١٣٤).

بل بمقاييس البشر التجريبيّة المحضة، سيكون هذا أهون عليه! ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (الروم ٢٧). ﴿**نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (الواقعة ٦٠-٦٢).

ولكن هناك من البشر من هو فقير الإحساس إلى الحد الذي يجعله لا يفهم شيئًا أبعد ممّا يراه بعينيه، فيضرب لله الأمثال! هل سيقدر الله أن يحيينا بعد أن صرنا ترابًا؟ كيف سيحيي الأمم السابقة بعد أن صارت نفطًا استعملته أنا في سيارتي واحترق وانتهى الأمر؟

فنجد أن القرآن قد أجابهم بنفس الإجابة المنطقيّة والتي تصلح جوابًا لكل أمثلتهم المتعددة والتي مهما بلغ عددها المئات تبقى في النهاية فكرتها واحدة: لا نصدق أن الله يقدر على ذلك! فيقول القرآن: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ (يس ٧٨ -٧٩).

وجمع القرآن كل أمثلتهم سويًّا ورد عليها بنفس الرد مرةً واحدة: ﴿**وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۞ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ (الإسراء ٤٩ -٥١)!!

في أولى إجابات القرآن عن سؤال البعث فإنه يوضح لك أمرين: أولًا البعث ممكن. ثانيًا: الله يقدر عليه.

حين تسألني: لماذا يكون هناك بعث؟!

فإني سأدعوك أولًا إلى إزالة علامة التعجب من سؤالك. بل ولماذا لا يكون؟!

٢

أنت تراه في الدنيا

"في كل مرة أذهب فيها إلى النوم أموت، وحين أستيقظ أحيا مجددًا"

مهاتما غاندي

الجمال النائم ليس في قصص (ديزني) فقط، بل من الممكن أن يُصاب به الناس في الحقيقة! مثل المصابين بمتلازمة (كلاين ليفين) الذين يعانون من اضطراب في النوم يصل إلى درجة الغياب عن الوعي تمامًا لمدة تتراوح من ثلاثة أيام إلى ثمانية أشهر! في هذه الفترة هم قد يضحكون ويبكون بلا سبب ويأكلون بشراهة ويتصرفون كالأطفال، ولكن في داخل رؤوسهم هم لا يفعلون شيئًا سوى مجرد حلم طويل يستيقظون منه بعد أشهر وكأنهم كانوا نائمين فحسب!

هناك اضطراب نومي آخر نعرفه جميعًا وهو السير أثناء النوم. لكن ما يثير العجب أن هناك بضعة حالات تم تسجيلها لأناس خطوا خارج نوافذهم وهم نائمون، مثل مراهق وقع من الدور الرابع في ٢٠٠٧ حين كان يسير وهو نائم ثم لما وقع إلى الأرض أكمل نومه بشكل عادي جدًا!

هناك (لي هادوين) الذي كان يعمل ممرضًا ولكنه كان ينام فيبدأ في الرسم! الغريب أنه كان يخرج لوحات فنية فعلًا والأغرب أنه لم يهتم بالرسم في أثناء يقظته إطلاقًا! وهناك مرض (أمبين) الذي يصاب به بعض السائقين حين يدخلون في نوم كامل ومع ذلك يستمرون في القيادة بأعين مفتوحة. وهناك طبعًا حالات القتل التي تتم أثناء النوم، فحتى عام ٢٠٠٥ تم تسجيل ٦٨ حالة قتل وقعت أثناء نوم القاتل وهو لا يدري شيئًا، مع العلم أن المحكمة لا تحكم للقاتل بهذا إلا بإثبات قوي مثل فحص كهربيّة المخ أثناء هذه النوبات العنيفة لديهم والتي تثبت أن مخّهم الآن في حالة نوم كامل، بل وهادئ أيضًا.

اضطرابات النوم كثيرة، حتى إن أحد فروع الطب في الدول المتقدمة مختص فقط في أمراض النوم ومحاولة علاجها. وغالب هذه الاضطرابات غريب جدًا، وهي تفوق كل المواقف الغريبة التي نحفظها جميعًا عن أشخاص قاموا بأفعال غير معتادة أثناء نومهم، تلك الحكايات التي نرددها في جلسات السمر حول أكواب السحلب.

النوم يشبه الموت فعلًا، في حتميّته وقهره وقدرته على إفقاد صاحبه وعيه وبكل هذه السرعة والسهولة! كما يقول الطبيب النفساني (جوليو تونوني): «يعلم الجميع ما الوعي، إنه ذلك الذي يتخلى عنك كل ليلة عندما ترقد للنوم بلا أحلام، ثم يعود في الصباح التالي عندما تستيقظ»!

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وضّح لنا أن ما يحدث لنا عند النوم شبيه بالفعل لما يحدث لنا عند الموت، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الزمر ٤٢).

وفي الحديث الذي رواه البيهقي والطبراني والبزار عن جابر بن عبد الله، يقول النبي ﷺ: «النوم أخو الموت»!

ما يحدث لنا إذن كل صباح هو في الحقيقة مثال على إحياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للموتى، نستطيع أن نفهم حينها أن إحياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للموتى يوم القيامة ليس بأمر معجز لله سبحانه، وأن استردادك لذاتك حين البعث سيكون بنفس السهولة التي استرددنا فيها وعينا مع أصوات خطوات الباعة في الشارع أو رائحة الإفطار الخارج من مطبخ الوالدة!

Ꮚ

يعطينا القرآن أمثلة أخرى لهذا الإحياء وهذه الإعادة، تتمثل في الدورة المستمرة للضياء والظلام والتي لم تنقطع منذ خلقنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه الدورة التي تعني الطريقة التي قُضيَ بها على الأرض أن تُفني حياتها في دورانها حول محورها أمام الشمس.

هذه هي الحقيقة التي لاحظها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما احتجّ على النمرود وأراد أن يثبت له أن الله يحيي ويميت، فقال له: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ (البقرة ٢٥٨). حيث نرى في كل يوم شكلًا من أشكال الفناء والانتهاء لضوء الشمس يختفي من أمام أعيننا، قبل أن نجده مجددًا في الصباح أمام أعيننا لنعلم أن البدء والانتهاء إنما هما سنتان متلازمتان في خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائمًا! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (المؤمنون ٨٠).

Ꮚ

وهكذا. وأنت تسير في درب الحياة، حاول أن تلاحظ التغيرات الجذرية التي تحدث من حال إلى آخر، والطريقة التي يتحول فيها فجأة وبشكل يثير العجب شيءٌ من نقيض إلى نقيض!

مثل الأرض البعيدة في أواسط أفريقيا التي غاب عنها الماء عدة شهور فتشققت وترسبت الأملاح على جانبيها وتحوّل الطين اليابس إلى ما يشبه الصخر، وما أن يأتيها بقايا المطر الواقع على

خطوط الاستواء حتى تتغير إلى مرعى أخضر تتغذى عليه كل الحيوانات المهاجرة! ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (الحج ٥ -٦).

يمكنك أن تلاحظ أن هذه الإعادة المتكررة هي سنة الحياة من حولك! يمكنك أن تلاحظها في جميع خلايا جسدك التي تتجدد باستمرار باستثناء خلاياك العصبية، حتى إنك بعد فترة من الزمن تكون قد حصلت على كبد جديد تمامًا، وقلب مختلف، وجلد شخص آخر!

تلاحظها في الفكرة الملحّة التي تأبى أن تموت، في العزيمة الراقدة على سرير اليأس تحتضر، ولكنها تتمالك وتحاول القيام من آن لآخر، تلاحظها في الدمعة التي تتساقط مرارًا لنفس الأسباب، وفي الروح المرحة التي سرعان ما تعود بعدما ظننت أنك لن تبتسم مرةً أخرى.

هذا التكرار وهذه الإعادة يَبُثّان فينا الاطمئنان والأمل! الاطمئنان بأن الهواء العليل الذي سيختفي بعد وقت الضحى سيعود فجر الغد مرة أخرى، بأن الفرصة الرائعة التي فاتتك اليوم ستأتيك غدًا ربما في صورة أفضل، بأن الضحكة التي تأخرت عنها اليوم، غدًا تجلس في انتظارها، بأن الذنب الذي اقتنصك في لحظة ضعف، غدًا يأتيك وأنت قويٌّ منيع ضده.

إنه نظام خلق وإعادة كاملَيْن جعلهما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سنةً في خلقه، وبث بعضًا من دلائله في حياتنا الدنيا، تراها أنت فلا يكبر عليك أن تؤمن بأن الله سبحانه سيعيدنا كما خلقنا، و أننا نحن أنفسنا سنكون جزءًا من دائرة البدء والانتهاء التي قضى بها على خلقه! كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۞ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۞ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۞ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**﴾

(البروج ١٣ -١٦).

٣

الخلود الذي بداخلك

”إحساس الإنسان بالخلود هو محاولته النظر فيما وراء القبور
عن طريقة خارج هذا العالم الذي أصبح الإنسان فيه غريبًا “

علي عزت بيجوفيتش

كان إدوارد السابع من أنجح ملوك بريطانيا العظمى، وأُطلِقَ عليه اسم (صانع السلام) لأنه أصلح علاقات بلده بالغة السوء مع فرنسا، يُعرف عصره القصير نوعًا (تسع سنوات) بالعصر الإدواردي، وتميز عصره ببداية ظهور الاشتراكية في بلده وباختراع المحرك البخاري وازدهار التكنولوجيا عمومًا. كيف يتذكر البريطانيون الملك إدوارد اليوم؟ أطفال المدارس قد كفّوا عن حفظ أسماء الملوك، لم يعد أحد يهتم بهذا الهراء. كما أن عملاته المعدنية التي صكها باسمه وصورته قد اندثرت منذ زمن.

ولكن لحسن حظ إدوارد أن أحد الفلاحين الذين ساهموا في تطوير زراعة نوع جديد من البطاطس أطلق اسمه على البطاطس الجديدة في عام تتويجه سنة ١٩٠٢ تكريمًا له. بطاطس إدوارد ما زالت موجودة إلى يومنا هذا، وهي أنسب الأنواع لعمل (البطاطس البوريه). الملك إدوارد العظيم نتذكره الآن كبطاطس وليس كملك! والبطاطس أطول عمرًا من الملوك على كل حال.

نملك جميعًا الرغبة في أن نبقى أطول، أن نستمر أكثر، أن نترسّخ في هذا الوجود، حتى لو ذهبنا نحن بقي لنا أثر، ظهر لمن بعدنا دليل، ظهر لهم شيء، أي شيء يثبت أننا وُجدنا يومًا على ظهر البسيطة. وبرغم ما يبدو من أنها فكرة شاعريّة، لكنني أراها فكرة حزينة! كرجل يسقط من حافة جبل ويحاول أن يتشبث بأظفاره بحبات الرمال التي تهترئ ببطء قبل أن يسقط إلى الأبد!

لاحظ الفيلسوف الأمريكي (وليام إرنست هوكنج) أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي ينتظر الموت، بيْد أنه هو الوحيد أيضًا الذي يظهر أي علامة من علامات الشك في أن الموت يقدر على أن يضع حدًا لوجوده!

ترى لماذا آمن الهندوسيون والبوذيون والطاويون بتناسخ الأرواح؟ لماذا كان يجب أن تخترع لنفسك هذه الحدوتة طالما آمنت بأنه لا توجد آخرة؟ ترى ما سر إيمان معظم الحضارات القديمة بالبعث بعد الموت؟ شارون ونهر الموتى عند الإغريق، وإيزيس وميزان الآلهة عند الفراعنة، ومآدب الفالهالا للمقاتلين الشجعان عند الفايكنج. هل إيمانهم بالبعث برغم عقائدهم الخربة كان من بقايا وحي الأنبياء في الأرض، أم امتدادًا للشعور الوجودي بوجود العدل والثواب والعقاب، أم جزءًا من شعور الإنسان في قرارة نفسه بالخلود؟ أم أنه -كعادة مثل هذه الأسئلة- تكمن الإجابة في جميع ما سبق؟

يعرف الجراحون أن هناك نوعًا من الرعب لدى المرضى يتعلق لا بالألم ولا بمبضع الجراح ولكن بأمبول التخدير! في الماضي -وقبل أن يثق الناس في أن المُخدّرين سوف يفيقون- كان هناك من يرفض أن يتعرض للتخدير ويفضل الجراحة بالألم على أن يغيب عن الوعي. يفضل الشعور بالأوجاع عن اللا شعور!

الشعور بأن هناك لحظة قادمة تتلوها أخرى هو تعريف الحياة ببساطة. ذلك الشعور الذي لا يوجد له بداية ولا نهاية، إنه امتداد زمني للأمام وللخلف، إنها عجلة الوجود -مع الاعتذار للبوذيين- التي لا يوجد لها حد في أولها ولا حد في آخرها، في أذهاننا نحن نشعر دائمًا. في أذهاننا نحن نشعر بأننا سوف نشعر إلى الأبد. في أذهاننا نحن خالدون! الموت ما هو إلا تبدل حال، ومفارقة للبدن، وخطوة أخرى في الطريق الذي بدأناه منذ خلقنا الله ولن نتوقف عنه أبدًا. وقد جاء في الأثر: «إنكم خُلِقتم للأبد، وإنما تُنقَلون من دار إلى دار».

فحين قال لك الله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (البقرة ٢٨). كان يذكّرك فقط! وحين قال: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ (التغابن ٧). كان يذكّرك فقط! وحين قال: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (غافر ٣٩). كان يذكّرك فقط!

يرتعب الجميع من الموت. وفكرة الفناء إلى غير رجعة مع وجود كل هذا الشعور بالخلود لدى الوعي البشري هي فكرة مخيفة. لذلك لما سألوا ريتشارد دوكنز عن أكثر فكرة معزية يفتقدها في الدين فكانت بالنسبة له هي فكرة الخلود. يشتاق إلى أن يعتقد بالخلود.

ولكن الدين السماوي الإلهي قدم لنا الروح التفاؤلية الإيجابية الوحيدة في هذا النطاق. فهو يؤكد أنك ستخلد وتبعث بشكل فردي، وليس إلى شيء غامض جمعي مثل (العقل) عند هيجل، أو (الإنسانية) عند كونت، أو (روح الكون) أو غيره من تصورات الفلاسفة. ولكن ستعود إلى

نفسك أنت، ومعك أصدقاؤك وأقاربك. كما يقول عبد الله بن عمرو: «إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه، مثل رجل بات في سجن فأخرج منه، فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها».

بالنسبة إلى نفس تشعر من داخلها بالخلود، فتصور الدين عن الموت والبعث هو التصور الوحيد الذي ينسجم معها: ﴿**يا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ (العنكبوت ٥٦-٥٨).

٤

حين يكتمل العدل

"يبدو أنه كلما زاد الربح من جريمة قتل ما،

كلما قلت الفرصة لإمساك المجرم ومعاقبته"

أحد علماء الجريمة الأمريكيين

باستثناء الـ (السوشي) وبعض الكلمات التجارية اليسيرة، لا أظن أن هناك أية كلمات يابانية أخرى نحفظها غير (هيروشيما) و(ناجازاكي).

من ذا الذي لم يسمع عن قنابل أمريكا النووية؟ التي لم يكن لها داع فعلًا إلا فرض الرعب والهيمنة في أسوأ صورها، وبنفس منطق (البلطجي) الذي يلوّح بالـ (سنجَّة) في شوارع المطريّة! جميعنا يذكر صورة عش الغراب الشهيرة بالأبيض والأسود مع بعض المناظر المحطمة للأعصاب هنا وهناك لمجموعة بيوت مُبادة أو طفلة يابانية محترقة. إنها الإبادة الشنيعة التي قام بها طيار أمريكي بضغطة زرّ ليتسبب بموت مائتيْ ألف ياباني.

غير أننا لم نسمع غالبًا عن مدينة (نانجنج) الصينية التي اجتاحها اليابانيون أنفسهم وقبل أعوام قليلة من تاريخ القنبلتين الشهيرتين، ليقوموا بقتل ثلاثمئة ألف إنسان! هذه المرة كان القتل بالرصاص والسونكي حين تتلاقى عيناك بعيني قتلاك دون أن تعبأ بذلك! الجريمة أبشع بلا شك، خصوصًا لو عرفت أنها من أشهر المذابح التي ارتبطت بالاغتصاب في التاريخ، حيث تم اغتصاب عشرين ألفًا في اليوم الأول فقط، ولم يغتصبوا الفتيات فقط، ولكن أيضًا الأطفال والعجائز!

احتفظ التاريخ بمذبحة (نانجنج) وغيرها من مذابح اليابانيين في سجلاته المخفيّة حيث لا يتذكرها أحد تقريبًا. وبنفس الطريقة التي احتفظ بها بسجلات قتلى (ستالين) في الحرب العالمية الثانية التي فاقت ضعفي عدد قتلى (هتلر)، لكن بالطبع الكل يعلم أن هتلر مجرم حرب سافل قد نال جزاءه، بينما ستالين استمر في حكمه إلى أن مات على فراشه بجوار زجاجات الفودكا وتشييعات الملايين من محبيه بأعينهم الدامعة وزهورهم الحمراء على قبره الذي لا يزال الناس إلى اليوم يزورونه كل عام!

ماذا عن (ماو تسي تونج) الذي قتل ستين مليونًا من أجل إقامة الثورة الشيوعية في الصين؟ لم ينل هذا الوغد جزاءه أبدًا إلى أن مات. وماذا عن جنكيز خان وهولاكو وفلاد المُخوزِق وكاليجولا ونيرون، وغيرهم من معاتيه التاريخ الذين نشروا الدماء في كل مكان ومات معظمهم على فراشه بسلام لم يعكّره عليهم أحد!

التاريخ لا يرحم أحدًا فعلًا لكنه لا يمانع أحيانًا في الواقع من أن يسجل كل شيء في غرفة مكتبه الخاصة بسجلات باهتة لا يطّلع عليها أحد. العدل -ككل شيء في هذه الدنيا- ناقص بحق، والذين يفلتون من العقاب أكثر من أن نحصيهم! علمتنا السينما أن الجريمة لا تفيد وأن المجرم سينال جزاءه في النهاية، فهل هذا صحيح فعلًا؟

طبقًا لتقرير (شرطة شيكاغو) لسنة ١٩٥١ فإن أكثر من ٩٠٪ من جرائم السطو لم يتم التوصل إلى مرتكبيها. وكشف استبيان (كيفوفر) Kefauver أن المجرمين في أمريكا ينهبون ملايين الدولارات ويتمتعون بها عادة بدون أن يتم القبض عليهم. وحسب استبيان آخر أُجرِيَ في باريس سنة ١٩٧٦ فالفيلم الداعر أرخص إنتاجًا من الفيلم العادي عشر مرات، وأرباحه تزيد على الفيلم العادي بعشرة أضعاف. هل يمكن أن ندّعي أن الأسبان لم يستفيدوا من القضاء على الهنود الحمر في المكسيك؟ أو أن الولايات المتحدة لم تستفد من نفط العراق بعد احتلالها؟

لم يتسنّ لك الانتقام أبدًا من ابن العميد الذي أخذ مكانك في الجامعة، ولا بائع الفاكهة الذي باعك هذه البطيخة البيضاء، ولا سائق سيارة الأجرة الذي سَبّكَ ثم لاذ بالفرار! لم يُقتصّ أبدًا من المسئول عن شهادة البكالوريوس التي حصل عليها ابنك دون أن يتعلم حقًا، ولا عن مياه النيل التي قتلت أباك بالفشل الكلوي، ولا عن دخان قشّ الأرز الذي تقضي كل عام بسببه شهرًا في صداقة دائمة مع السعال. ولربما لا تستطيع أن ترى بعينيك نهاية أي سفّاح من حولك، وما أكثر السفّاحين من حولك!

يصارحنا (علي عزت بيجوفيتش) بحقيقة موجعة، هي أن الجريمة في الحقيقة مربحة، ولكن بشرط واحد، ألا يكون هناك إله!

مظالم الدنيا من حولنا بشعة، ربما أبشع من أن يتحملها المرء في كثير من الأحيان. إنها مرارة القهر، ودموع الحسرة، والرغبة العارمة في الانتقام، والحاجة الصادقة للقصاص، ونظرات العين المنكسرة في صمت بليغ! إنه جوع قارص، وظمأ قاتل. وككل ظمأ في الدنيا هناك ما يرويه ويشبعه. هناك في مكان ما، أو زمان ما، هناك عدل كامل، هناك انتقام جبار، هناك قصاصٌ نافذ. يخبرنا القرآن أن هذا اليوم آت حتمًا: ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ**﴾ (غافر ١٧). لا ظلم هناك، في ذلك اليوم!

هذا دليل وجودي على اليوم الآخر، أننا نحتاج إليه حقًا! فكما يدل شعور العطش على وجود الماء في مكان ما، فشعور الظلم يقودنا إلى وجود العدل الكامل المطلق.

***

هؤلاء الذين أظهروا الجانب المظلم من نفوسهم كان هذا لأنهم لم يكونوا على إيمان بوجود يوم آخر، أو كانوا على علم بذلك ولكنهم لم يهتموا إلى هذا الحد. لك أن تتخيل قدر ما كان سيكون في البشرية من جرائم إن كان الناس جميعًا لا يؤمنون به، أو إن لم يكن هناك يومٌ آخر فعلًا! ما كم الرقابة الذاتيّة المتبقي على أفعالنا حين نؤمن من داخلنا أن كل الجرائم ستمر مرور الكرام؟؟ لذلك يحكي لنا القرآن قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (غافر ٢٧).

ويحكي لنا المنهج الإصلاحي الذي حرص عليه شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، والذي عرف أن إرادة الدنيا دون الآخرة تنتج الكثير من الفساد في الأرض! فقال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت ٣٦). ذلك المبدأ الذي أقرّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله جَلَّ جَلَالُهُ عن الآخرة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص ٨٣). يكفينا الخراب الذي حدث في الدنيا من كل هؤلاء الذين يريدون علوًّا في الأرض وفسادًا، وأما في هذا اليوم، فلا يوجد ظلمٌ هناك ولا خراب!

***

ومن أكبر مظاهر هذا العدل ألا يضيع عمل العاملين، ولا أجر الصالحين، أن يعمل من يعمل في الدنيا وهو على اطمئنان كامل بوعد القرآن له أنه في يوم القيامة لن يجد إلا جزاء ما كان يعمل، ليس ضائعًا كما كان يضيع في الدنيا، بل محفوظ عند الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران ١٩٥). وليس منقوصًا كما كان في الدنيا، بل سيكون كاملًا ومُستوفًى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران ١٨٥). لن يُقابَل المحسن إلا بمثل فعله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن ٦٠).

***

ويحدثنا القرآن عن مظهر آخر من مظاهر هذا العدل وهو القضاء العادل! حيث يفصل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنفسه في النزاعات والخصومات والاختلافات التي لطالما قامت بسببها الحروب والشقاق والعداوة في الدنيا. سوف نعرف الآن من كان المصيب ومن كان المخطئ، سوف نعرف من كان الأحق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كل الحروب الدينية التي قامت على وجه الأرض، سوف نعرف من كان الظالم ومن كان المظلوم، أو من الذي أصاب اجتهاده بين كل هؤلاء الفقهاء! هذا

القضاء الفاصل يحدثنا عنه القرآن فيقول: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (آل عمران ٥٥). ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (الحديد ٥)!

❦

أيضًا يمكننا اعتبار (التفرقة) و(التمييز) من بين مظاهر العدل يوم القيامة! فالمساواة بين المجرم والضحية إنما هو واحدة من أسخف صور الظلم المُقَنَّع، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بريء من هذا. في يوم القيامة يتبين لنا أن هناك نظامًا تفريقيًا كاملًا سيحدث لنا، لن يبقى حجر على حجر، أو يقف أخ بجانب أخيه، أو رجل بجانب امرأته. بل سيمتاز الجميع إلى فريقين، وتعود كل الخيوط الرماديّة الدنيوية إلى لونين من الأبيض والأسود على اختلاف درجتيْهما، فريق هنا وفريق هناك! ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (يس ٥٩). ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ (الروم ١٤). ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى ٧)!

❦

على أن أكبر مظاهر العدل الكامل في تلك الدار أنها تتميز بالعدل في منح العدل! فلا يوجد فيها محاباة لأحد، ولا تختصّ بها فئة عن فئة. لم يتوان القرآن في إقرار هذه المساواة بين البشر في أحقيتهم في التمتع بعدل هذه الآخرة الذي قد طال كل نفس مخلوقة! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام ١٦٤). ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ (يونس ٣٠).

لم يكتف القرآن بذلك! بل انبرى يرد على هؤلاء الذين ظنّوا أنهم اشتروا الآخرة بمكانتهم عند الله، أو أن لهم حظوة ومكانة عند صاحب مفاتيح الجنان تجعلهم الفائز الحصري الوحيد لدار البقاء! لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة ٩٤). ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (البقرة ١١١ -١١٢).

فالآخرة عند ربك للمتقين.

كل المتقين!

٥

عبثية الدنيا

"كل شيء مباح طالما أن الله غير
موجود، وأن الإنسان يموت"

ألبير كامو

ماذا ستفعل لو أعطى لك الإله التاريخ الذي سوف ينهي فيه العالم بأكمله؟

لقد وقع هذا لعدة مجموعات إيمانية، من أبرزهم مجموعة في شيكاغو، حيث أخبر الفضائيون من كوكب (كلاريون) زعيمتهم (دوروثي مارتين) بنوع معين من الوحي أن العالم سوف ينتهي بأكمله قبل فجر يوم ٢١ ديسمبر عام ١٩٥٤ بفيضان هائل، ولكن ليس عليهم القلق لأن الفضائيين سوف ينقذون المؤمنين بحق منهم على ظهر طبق طائر.

باع أفراد الجماعة منازلهم وصفّوا أعمالهم وصالحوا جيرانهم ثم احتشدوا في مكان عبادتهم منتظرين الطبق الطائر الذي سينقذهم قبل ميعاد الفيضان. كان معهم عالم النفس (ليون فيستينجر) هو وفريقه ليرصد ردود أفعالهم حينما يتبين لهم كذب دوروثي، وكتب بعدها كتابه: (حين تفشل النبوءة) وهو كتاب تحليل نفسي اجتماعي للظاهرة، حيث ذكر أنه حين أتت الساعة الرابعة صباحًا ولم يحدث شيء أعلن المؤمنون أن العالم لم ينتهِ لأن الرب الفضائي قد قرر مسامحة أهل الأرض بتأثير نور ابتهال جماعتهم وشدة إيمانهم!

انتظار فناء العالم حدث عدة مرات في التاريخ، ربما أقربها جميعًا حين ظن كثير من الناس أن نهاية العالم ستكون عام ٢٠١٢ بسبب تقويم حضارة المايا اللاتينية التي تزعم أن دورة حياة البشر هي ٥١٢٥ عامًا، وقد بدأت سنة ٣١١٤ قبل الميلاد، فبالتالي سيفنى البشر في ٢٠١٢. قام مجموعة ذكية من السينمائيين باستغلال النبوءة وقاموا بإنتاج فيلم ٢٠١٢ ليحولوا الخرافة إلى بعض الدولارات الخضراء.

نحن على قدر من المعقولية تجعلنا لا نؤمن بهذه الترهات. ولكن هذا لا يعني أن نغفل عن تأكيدات الكثير من العلماء بأن ظاهرة التغير المناخي والسخونة الأرضية ليست هينة على الإطلاق وقد تتسبب في انقراض البشرية في زمن ليس ببعيد.

لا نحتاج حتى إلى ذلك كي نشعر بالخوف، فلدينا كل عام تقريبًا مثال جديد على الخطر العام المتربص بالبشر يتمثل في الأوبئة الجديدة، أرعبتنا الإيبولا وغيرها من الحميات النزفية التي لو خرجت عن سيطرة الحجر الصحي لفعلت في البشر ما تفعله النار في الهشيم، ثم نحن الآن على أعتاب طفرة جديدة في البكتيريا تجعلها مقاومة لكل المضادات الحيوية المعروفة، يعني ذلك ببساطة عودة إلى زمن الطاعون في القرون الوسطى حين ملأ الموتى الطرقات بدون دفن لأن اللحادين أنفسهم ماتوا كذلك. يمكن لأي وباء أن يقرر في لحظة أن يكتب نهاية العالم بشكل سريع ومريع وصادم.

بالنسبة لي كإنسان لا فرق بين أن ينتهي العالم من حولي وبين أن أنتهي أنا فأرحل عنه! ربما لذلك قال النبي ﷺ: «من مات قامت قيامته». فلا يوجد كبير فرق إذن بين أن تقوم قيامتك بنيزك طائش يدمر الأرض في لحظة، أو بطفل يقود توك توك ويقطع الطريق أمامك ليقل الراكبين!

تلك الإمكانية العبثية لانتهاء كل شيء بشكل مفاجئ توحي لنا بأن في الأمر خدعة ما. وهذا صحيح تمامًا كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد ٢٠). والغرور هو الخداع في كلام العرب. الحياة الدنيا بالفعل قد صُممت بطريقة تمكنها من خداع الجميع، باستثناءات قليلة.

كمثال على ذلك تأمل في فروقات الروايات عن الواقع.

الروايات الخيالية تختلف عن الواقع في عدة أشياء، منها الأسماء مثلًا، كل أبطال الرواية يملكون أسماءً مميزة متفردة رنانة، خليل ومراد وأكرم ورشا، بينما في واقعنا الحقيقي كلنا تنويعات على نفس الأسماء تقريبًا، وليست الحياة غير مجموعة من محمد وأحمد ومصطفى وشيماء وبضعة أشخاص آخرين.

ولكن الاختلاف الأكبر بين الرواية والواقع أن بطل الرواية لا يموت -إن مات- إلا في آخر صفحاتها غالبًا. يموت البطل عادة في نهاية القصة بعد أن مرّ بأركان الرواية كاملة: الذروة والعقدة والحل، وتكون ميتته مليئة بالدراما وتأخذ وقتها بشكل كامل، حين يدخل على الأشرار في وكرهم ليحرر ابنه المخطوف فيموت في النهاية بطلقتين تسمحان له بأن يثرثر له بكلماته الأخيرة ثم ينظر له بحنان وينظر للسماء مرتين ويبدأ في الكلام مرة أخرى... باختصار يقتلك أنت بالملل قبل أن يموت فعلًا.

هذا غير أنه لا يموت طبعًا قبل أن يفهم هو ونفهم نحن جميعًا ماذا كانت وظيفته في الرواية وأتي إلى الحياة يفعل أي شيء، لقد كان لحياته معنى كبير احتجنا إلى بضع مئات من الصفحات حتى نستوعبه.

بينما الواقع يختلف كثيرًا عن ذلك، حيث ذكرت لنا إحدى الإحصائيات أن عدد الذين ماتوا في أستراليا بسبب الحوادث الإرهابية فيما بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠١٢ هو ثلث عدد الذين ماتوا في نفس المكان خلال نفس الفترة الزمنية بسبب الوقوع من على السرير!

نموت غالبًا لأسباب عبثية تمامًا في ظاهرها وبشكل مفاجئ للغاية في توقيتها. ما رأيك أن نأخذ هذه الغرزة في الطريق السريع لتختصر علينا المسافة؟ بوم! لقد متّ. أو: ما هذا السعال المتكرر فلنذهب للطبيب، بوم! سرطان، لقد متّ أيضًا.

في الواقع نجد أن حياتنا قد تنتهي في أحيان كثيرة قبل أن نعرف ماذا كان معناها! وقبل أن نختبر الذروة المثيرة فيها حين نحقق ذلك الإنجاز الذي كنا نظن أننا أتينا الدنيا لأجله! في الحياة الواقعية يموت البطل في موضع عشوائي تمامًا من الرواية قبل أن يفهم هو ما الذي يجري في قصة حياته، وربما قبل أن يستوعب أصلًا أنه هو بطل القصة.

ولكن لربما نحن لم ننتبه كثيرًا حين أقسم لنا الله بالعصر، وبالليل، وبالنهار، وبالضحى، أن هذه الأوقات تعني الكثير عنده. لربما لم نفهم أن السبب الذي يجعل من موتنا المفاجئ صباح الغد مفهومًا أن مساء اليوم -وكل يوم- كان ذروة جديدة للملحمة التي تمنيناها..! فقط ننتظر كثيرًا قبل أن نصنع حياتنا، ننتظر أكثر من اللازم، ولا أدري ماذا ننتظر؟؟ ﴿**فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا**﴾ (يونس ١٠٢).

لربما كانت الرواية تحكي الكثير عن البطل في كل صفحة ولكننا أسأنا القراءة، ربما عشنا حياة كاملة ننتظر على هامش أحداثنا الكبرى، ولم نفطن إلى أن هذه الأيام المنقضية كانت هي أحداثنا الكبرى. لربما اليوم، الحاضر، الآن، اللحظة الحالية، هذا هو كل ما هو موجود، هذه هي كل فرصنا، هذه هي ذروتنا المتخيلة قبل لحظة موتنا المفاجئة والتي -برغم ما قد نظن- ستكون في موعدها تمامًا، بنهاية طبيعية وغير مبتورة.

خيارك بالإيمان والتديّن والالتزام بطاعة الرحمن هو خيار عقلاني ومنطقي قبل أي شيء آخر. هو تحايل مضاد على الدنيا التي تريد أن تخدعك فتخدعها أنت. هو انتصار في اختبار الآخرة الذي هو بشكل أو بآخر يقضي بأن البقاء للأعقل. بينما لا عزاء للمغفلين!

٦

خيارات غير متكافئة

"إنما زهد الزاهدون في الدنيا، اتقاءً أن يشركوا الحمقى والجهال في جهلهم!"

إبراهيم بن أدهم

منذ أن كنّا في الثانوية العامة ونحن نقنع أنفسنا أن القادم أفضل وأننا الآن في عنق الزجاجة، ثم كبرنا وأدركنا كما يقول د. أحمد خالد توفيق أن هذه أنبوبة اختبار وليست زجاجة أبدًا!

فأنت بعد الليالي الطويلة في المذاكرة والحفظ تدخل الكلية التي تريدها أخيرًا، فتراقب الأيام الباقية على الخلاص منها، وبعد أن تنتهي منها بالفعل تفاجئك فترة الامتياز، وهي أولى خطوات دخولك إلى عالم العمل الحكومي الرحب، حيث يتحول فيها (إمضاء الحضور والانصراف) من فعل يُقام به إلى مكان يُذهَب إليه!

إحساسك بذاتك مفقود تمامًا حيث تقوم في عز البرد لا للعمل ولكن لوضع توقيعك التعيس في ورقة أتعس أمام عيني موظف مكتئب! ثم تقضي معظم الساعات المتبقية حتى موعد الانصراف في التبضع من كافيتريا المستشفى ذات الأهل الطيبين والأطعمة الشريرة، محاولًا ألا تتقيأ وأنت تشمّ رائحة طهي (الكبد) في الصباح. لماذا يسمحون لأناس يأكلون شطائر الكبد في التاسعة صباحًا بالدخول لحرم المستشفى؟

بعدها تبدأ فترة (التكليف الإجباري) في الوحدة الصحية التي تذهب فيها إلى عملك راكبًا حمارة صغيرة متسخة! ثم تبدأ في التدرّج الوظيفي وتنطلق في رحلة عملك الروتينية المملة، يتحول يومك إلى رحلة شاقة تهدف إلى الوصول للفراش ليلًا. وعندما تصل تتساءل في تعجب عن السبب الذي قد يدفعك إلى القيام ثانيةً؟

تنجب طفلًا صغيرًا تحبه في البداية، سرعان ما ترجع عن رأيك حين يكبر قليلًا ويتحول إلى آلة محطمة لكل ما هو جميل في هذه الحياة بصوت صراخ مزعج ورغبته الدائمة في تهشيم هاتفك كنوع من الهواية. وبعد أن يكبر أكثر يجعلك تمر بكل الأطوار الكريهة في حياتك ثانيةً، ولكن معه هو: المدرسة ثم جحيم الثانوية ثم الكلية والعمل والزواج. إلخ.

وعندما يستقل أبناؤك بحياتهم ويكملون الدورة. تكون هي اللحظة التي تفر فيها أخيرًا من متاعب الحياة لتقع في أحضان سرطان البروستاتا وضيق الشرايين التاجيّة!

لو كنت تنوي أن تكون هذه هي حياتك: مجموعة من المراحل المؤلمة التي تنتظر نهايتها، تعيش في بحث مستمر عمّا يكفل لك المزيد من العيش، وكأنك في حلقة مفرغة ودائرة لا نهائية، لو كنت تنوي أن تكون هذه حياتك فأنت قد اخترت لنفسك عذابها.

بينما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد دعانا أن نكون أكثر عقلانيّة، أن ندرك أننا أتينا لهدف عظيم يتمثل في عبادة رب العرش العظيم. وأنه ليس لأحدنا من هذه الدنيا إلا ما أكل فأفنى، ولَبِسَ فأبلى، وتصدق فأبقى. وأن تكون في الدنيا كعابر سبيل يوشك أن يرحل عنها، وأنه لا عيش إلا عيش الآخرة، وأنه من أرادها وسعى لها سعيها وهو مؤمن فالله يحييه حياةً طيبة سعيدة ويوم القيامة هو أسعد، وأنه من كان في هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا!

هذان خياران غير متكافئيْن إطلاقًا، فالدنيا التي نحيا فيها سريعة الفناء والتحوّل والتغيّر إلى الحد الذي يجعلنا جميعًا نفهم وبدون كتاب تفسير المثل القرآني المضروب لها! ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (يونس ٢٤).

يوجد كبير علاقة ارتباط بين ملاحظتنا لعجلة الفناء التي تطول كل شيء، وبين يقيننا في الدار الآخرة وإرادتها، هذه معادلة مطّردة! يعطينا القرآن مثالًا لرجل تعطّلت عنده هذه الملاحظة، فاختلّت المعادلة ككل: ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾ (الكهف ٣٥ -٣٦).

هذه العلاقة بين تعظيم بقاء الدنيا ونعيمها وبين استبعاد -أو لنقل استحباب إغماض الجفون عن- اليوم الآخر، تتبين من خلال الصرخة التي ألقاها صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه علهم يفيقون! ﴿**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ**﴾ (الشعراء ١٤٦ -١٤٩)؟!

ننحاز أيضًا دومًا للآخرة حين نفطن إلى أن رغباتنا في اللذائذ والمتع تفوق بكثير كل ما تحويه الدنيا منها!

الإنسان مخلوق أصلًا بالكثير من الجشع الذي لا يشبعه شيء، يمكنك أن تقدّر ذلك من حجم الجشع المالي المستمر من حولك، والذي يقوم به الأفراد الساعين للكسب السريع، وتقوم به وبشكل أكبر: الشركات الكبيرة (التايكونات)، التي تمتص أموالك وترسم على وجهك ابتسامة أثناء هذا الامتصاص.

هذا الجشع المستفز ليس في المال فقط! فأنت ترى مثلًا ذلك الذي يقع في عشق فتاة جديدة كل سبعة وعشرين يومًا. وتلك التي ملأت آخر ملليمتر مكعب من دولاب ملابسها، وترغب دائمًا في المزيد. الكثير منا يعاني من الجشع. قد تكون واحدًا من هذا الجمع الكبير دون أن تدري! قد يكون هناك شيء ما لا تقدر على أن تتوقف عن حبه، وعشقه، وإدمانه، وجمعه، والتعلق به، والتحسّر على ما فقدته منه.

الألم في حقيقته واحد، والشعور بأن ثمة ما ينقصك هو شعور أليم، بغض النظر عن إن كان ما ينقصك هو الركوب في درجة مكيفة من القطار العام بدلًا من (العادة)، أو امتلاك (لامبورجيني) بدلًا من (المرسيدس)! ولأنك لن تمتلك كل المادة في العالم، ولأنه سيبقى دائمًا ما ينقصك فلسوف تعيش في الألم باستمرار وتتلقى صفعات الحياة كل صباح.

سرعان ما نفطن إلى أننا لن نحصّل أبدًا القدر الذي نطلبه، وأننا طالما ارتضينا اتّباع رغبتنا فلن نتوقف أبدًا عن الركض، ولن نحصل أبدًا على ما نريد! ستسمع عن نصف نساء العالم اللاتي هنّ أجمل من زوجتك، وستسمعين عن معظم رجال العالم الذين هم أوسم من زوجك. ستسمع أن هناك دائمًا الكثير ممن هو أغنى منك، وهناك طبعًا الكثير ممن هو أظرف منك. معظم الطعام الشهيّ لن نأكله، معظم النكات الجميلة لن نسمعها، معظم الأطفال اللطفاء لن نراهم.

هذه الرؤية الواقعية السوداء تمتزج بجشع رغبتنا في هذا الشيء أو ذاك، فتنتج حالة نفسية غريبة لا تتحمل معها مرارة فراق المفقود، ولا تقدر على ألم البذل والجود! حالة نفسية غريبة هي خليط من الخوف والقلق والتوتر، ممزوجة باللهفة والشغف والتعلق! حالة نفسية غريبة جمعها القرآن في كلمة واحدة، ثم ذكر نتائجها: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾ (المعارج ١٩ -٢١).

إنه تعلق كامل إذن! إنه حكم بلا استئناف ولا نقض، لسبب بسيط أنك أنت من حكم به عل نفسك. إنه سجن ليس له باب ولا سور قد دخلته أنت بقدميك فلا يوجد من يخرجك منه لأنك لن تحتاج إلى غيرك في ذلك، إنه جزاء وفاق من الله عز وجل لكل من زهد في بقيّته التي أبقاها له واشرأبّ بعنقه إلى كل شيء قضاه لغيره.

ليس بوسعك أن تتخلص من ذلك التعلق إلا بتعلق أقوى، وصلة أمتن، وحبل أشدّ! ليس بوسعك أن تتخلص من إدمان الجمع، وقلق السمع، وحب المنع، إلا بصنع شغفٍ آخر أهم، واعتياد لذة أخرى أجمل. ثم الدوام على هذه الصلة الجديدة. فكانت الآيات التالية تقول: ﴿**إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۞ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۞ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ**﴾ (المعارج ٢٢ -٢٧). صلتك الجديدة بالآخرة هي ما سيعينك على النجاة من هذا الجشع، والأجمل من ذلك: يعينك على التخلّص من آلامك حين لا تستطيع أن تُشبِعَه أبدًا!

المحارة

(عن أسئلة القدر)

"في مسألة القدر، فإننا نكون أحوج ما نكون إلى ما يجيبنا به القرآن حين يحدثنا: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فإجابات القرآن تروي ظمأنا للمعرفة، لكننا مع ذلك نعلم أننا محدودون في هذه المعرفة! نستطيع أن نفهم الكثير من الأشياء ولكن سنصل إلى نقطة معينة ونقول بعدها: لا ندري. كلنا لا يدري!"

هناك سؤال وجودي قديم كقدم الوجود ذاته يقول: (من الذي يختار أفعالي؟ هل أنا؟ إذن الله لا يُقدّر! أم يختار الله؟ إذن أنا غير مُلام!) مثل السؤال الذي صاغه (العباس بن يوسف الشكلي) مناظرًا لمخالفه: «أراد الله من عباده أن يؤمنوا فلم يقدر؟ أم قدر فلم يرد؟».

سؤال القدر، وعمّا إذا كان الإنسان مسيّرًا أم مخيّرًا هو المحارة الكبرى، ذلك الذي كان عويصًا للدرجة التي جعلت معظم البشر يتحيّرون فيه، وباستثناء أتباع رسالات السماء منهم، نستطيع أن نقول عنهم جميعًا بشجاعة واثقة: لم ينجح فيهم أحد!

مثلًا أرسطاليس -الشهير باسمه الذي اختصروه: أرسطو، وجيد أنهم فعلوا ذلك- قال بأن الله القديم لا بد أن يكون علمه قديمًا ولا يمكن أن يعلم الأشياء الجديدة! فبالتالي الإنسان هو الذي يقوم بأفعاله باستقلال تام عن العلم الإلهي. هناك يوناني آخر اسمه (أبيقور) جمع الناس في حديقته الخلفيّة وأسس مدرسته الخاصة باجتهاده. هؤلاء أصبح اسمهم (الأبيقوريّون) واختاروا نفس الفكرة: لا دخل للإله بأفعال الإنسان.

المجوس أيضًا اختاروا نفس المذهب، وجزء من اليهود (الذين كانوا يعظّمون التلمود منهم) وجزء من النصارى (مثل الأرثوذكس على وجه التحديد). ومن هؤلاء النصارى رجل كان يعيش في دمشق اسمه (يحيى)، وأقنع أحد المسلمين (غيلان) بنفس الفكرة، فأصبح (غيلان الدمشقي) أول من حاول نشر هذا المبدأ وسط المسلمين: الإنسان هو من يستقل بإرادة فعله عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ!

ولكن كل هؤلاء لم يجيبوا لنا عن التساؤل البسيط الذي قد نطرحه: يعني هناك من الأشياء ما يتم في الكون غصبًا عن الإله؟ أم أنه قد سمح بحدوثها؟ إن كان قد فعل ذلك فهو إذن أراد لها على الأقل أن تتم! أليس كذلك؟

هؤلاء قد رسبوا إذن بجدارة!

هذا يدفعنا إلى محاولة استراق النظر إلى الجهة الأخرى. أولئك الذين أصرّوا على أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الفاعل الحصري الوحيد لكل ما يحدث في الكون، ولأنه لن يسمح بشيء يحدث في كونه رغمًا عنه، فلا بد إذن أن الإنسان يتوهم أنه يختار فعله، بينما هو في الحقيقة دمية من الماريونيت مربوطة حبائلها إلى السماء!

ربما تاريخ هذه الفكرة قديم، فمنهم مثلًا (زينون الرواقي) اليوناني الذي كان يدعو إلى مدرسة فلسفية مادية تمامًا قبل ميلاد المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببضعة مئات من الأعوام. هناك كذلك

الملاحدة القدماء الذين عاشوا قبل بعثة النبي محمد ﷺ وتحدث عنهم القرآن في آية خلّدت عليهم اسم (الدهريّة) فبرغم أنهم كانوا لا يؤمنون بوجود إله فاعل أصلًا إلا أنهم نسبوا كل أفعال الإنسان لحتميّات الطبيعة والوجود!

وهناك كذلك العرب في الجاهلية، والجزء المتبقي من اليهود (الذين لا يؤمنون إلا بالتوراة فقط) والجزء المتبقي من النصارى (ومنهم الكاثوليك) والملاحدة الجدد الذين يرون أن الإنسان لا يختار أفعاله حقًا وإنما يرقص على أنغام شفراته الوراثيّة.

المشكلة في أصحاب هذا المبدأ أنهم لن يفهموا أنفسهم في كل مرة يختارون فيها أن يأكلوا شطيرة من الجبن بدلًا من القشدة، أو يصعدوا الدرج بدلًا من النزول، أو يدخلوا المرحاض بدلًا من الموت باحتباس المثانة!

ما معنى أنهم (اختاروا) أن يفعلوا شيئًا ما؟! أم أنهم يقنعون أنفسهم أنهم يتوهمون الاختيار في كل مرة بينما هم في الحقيقة يتم التلاعب بهم مثل دُمُى (الأراجوز) من خلف الساتر الخشبي؟ هل هم يشعرون بفقدان ذاتي للدرجة التي تجعلهم لا يعرفون من الذي يفكر لهم ويختار لهم أفعالهم الآن؟!

وإن كانوا كذلك، فكيف يثقون في رأيهم أصلًا؟ إن هذا يذكرني بكلمة عالم السلوك البريطاني (بول ماكينا): «يدهشني ذلك الذي يأتي إليّ ويقول أنا إنسان فاقد الثقة بالنفس، وحين أسألهم: هل أنت واثق من ذلك، يقول: بالطبع أنا أثق في هذا تمام الثقة!».

الحقيقة أن هؤلاء قد رسبوا بشكل أكثر إحراجًا من الذين كانوا قبلهم!

بينما القرآن يعرّفنا على الإجابة الوحيدة الصالحة والتي تتوافق مع عقلك في مسألة القدر، والذي هو كما اتفقنا: المحارة!

١

نعمة المصير

"ناصِيَتي بِيَدِكَ"

النبي محمد ﷺ

(أرشميدس) لم يكتشف قانون الطفو في الحمام، هذه قصة مشكوك فيها بقوة. وأيضًا لم يكتشف (نيوتن) قانون الجاذبية حين سقطت تفاحة على رأسه! لقد سادت هاتان القصتان في الوعي الشعبي لأنها تحقق أحلام كل واحد منا: يمكنك أن تصبح مكتشفًا جبارًا بحمام بخار، وشجرة تفاح، وقليل من الحظ! وبالطبع ازداد الأمر سوءًا وكسلًا لما انتشرت القصتان بشكل أكثر تحريفًا، مما جعل أرشميدس يجري عاريًا من الحمام من فرط المفاجأة! وأما نيوتن فقد كان نائمًا أصلًا تحت الشجرة لما وقعت عليه التفاحة.

بالمثل انتشرت خرافات أخرى، مثلًا نظريات)آينشتاين (لم تقل أبدًا أن بوسعك العودة بالزمن للنجاح في مادة الكيمياء، والزواج من ياسمين، وقتل مديرك في الشغل وهو في رحم أمه، لتصبح حياتك رائعة. في الحقيقة النظريات لم تتعرض لحياتك على الإطلاق ولا لحياة ياسمين أو أم مديرك في الشغل.

معظم الناس لم يعرفوا آينشتاين إلا من فكرة (آلة الزمن) وهي فكرة ليس له بها كبير علاقة، في الواقع السفر عبر الزمن إلى الماضي حسب نظرية آينشتاين مستحيل تمامًا، ولكن ما قاله آينشتاين فعلًا أن الزمان نسبي، أي أنه يتباطأ مع زيادة سرعة الحركة، هذا هو كل شيء! وقد كان مندهشًا جدًا إلى أن مات بسرّ شهرته الغريبة التي حققها، وبالطريقة التي خرج بها عن النطاق الأكاديمي الضيق إلى هذه الشعبية العالمية غير المفهومة!

عرف قرّاء الأدب آلة الزمن منذ أن كتب (ويلز) قصته الخيالية الأولى: (آلة الزمن) في ١٨٩٥، وربما منذ أبعد من ذلك. وهناك من لاحظ في خبث أن لو كانت آلة الزمن ممكنة، أليس من المفترض إذن أن يحيط بنا القادمون من الغد ليشهدوا بعضًا من اللحظات التاريخية، أم أن كل ما

نمر به على هذه الدرجة من التفاهة بحيث لا يحب أن يشهدها أحد؟! وعلى ما يبدو كان هناك من يستمع من غرباء الأطوار إلى هذا، فأعد بعضهم بحثًا مطولًا عن صور قديمة تبين أحداثًا تاريخية يظهر فيها رجل من الجمهور بثياب عصرية وبآلات تصوير حديثة لا تنتمي لذلك العصر! هذه من الأمثلة التي تبين لك قدرة البشر على تتبع سفاسف الأمور وإفناء حياتهم فيها دون أن يصابوا بتأنيب الضمير!

ولكن فلنفترض أن آلة الزمن كانت حقيقة! ماذا لو أني قد حصلت عليها في المستقبل فعلًا واستخدمتها عدة مرات، وفي كل مرة أنسى أني استخدمتها، وأعيش حياتي وكأنها حياتي الأولى دون أي تعديل؟!

ربما أنا سافرتُ في ٢٠١٥ إلى مجاهل أفريقيا وأُصبتُ هناك بملاريا حمى الماء الأسود، ثم عدت إلى ٢٠١٤ لأتخذ مسارًا آخر لا يتضمن الماء الأسود في آخره. ربما في ٢٠٠٧ دخلتُ كلية طب الأسنان التي كنت أحلم بها، فتعرفت على مجموعة منحطة في الكلية انتهت بي إلى مقعد وثير تحت كوبري ١٥ مايو بحفنة بيضاء على ظهر إبهامي. لربما حدث هذا كله فعدت إلى عام ٢٠٠٧ مرة أخرى ودخلت كلية الطب، ولكنني نسيت كل شيء عن هذا الموضوع!

ربما أنا صباح اليوم تعرضت لحادث سيارة بشع انتهى بي إلى فقدان عيني اليسرى، فعدت بعدها بالآلة الرائعة إلى اليوم مرة أخرى لأبتعد عن طريق بلبيس نهائيًا دون أن أعلم لماذا فعلت ذلك! ربما أكلت غدًا طبق (البامية) المسبوك الذي أتمناه، ثم استلقيت على الأريكة وقد قرر مريئي أن يشتعل ذاتيًا بلا سبب مفهوم، حينها لربما أنا قمت ودخلت الآلة إياها وعدت إلى اليوم وأوعزت إلى أمي أن غدًا هو يوم مناسب جدًا لمعلبات السردين التي أكرهها بطبيعة الحال.

الكثير جدًا من السوء كان بإمكانه أن يحدث، ولكني لم أتعرض له، بل ولم يخطر على بالي أصلًا! في كل دقيقة تمر يمكنني أن أتخيل مئات الكوارث الضخم منها والصغير، التي كان (من الممكن) أن تحدث فيها، ولكني سالمٌ منها تمامًا!

حينها أفرح بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد وضعني في مسار مغاير انتهى بي إلى اللحظة السالمة التي أعيشها الآن بعيدًا عن كل تلك المصائب المتخيلة. أفرح بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يعبأ بتأففي من هذا التقدير أو ذلك، لمّا علم في علمه السابق أن الخير فيه. أفرح بأن الله لم يستجب للكثير من دعائي الذي دعوته وأنا على جهل عظيم. أفرح بأن الله العظيم جعل من نفسه مقدّرًا لأمور حياتي الخاصة! أنا الإنسان التافه الذي لا يساوي شيئًا! أفرح بأن الله يختار لي. أفرح بأن الله لا يختار لي إلا الخير. أفرح بأنه لم يرضَ بأن يشاركه غيره في ذلك! أفرح بهذه الآية: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (القصص ٦٨)!!

لذلك كان يقول أحد الحكماء: «إني أدعو الله في حاجة فإذا أعطاني إياها فرحت مرة وإذا لم يعطني إياها فرحت عشر مرات لأن الأولى اختياري والثانية اختيار الله علام الغيوب»!!

لم يسمح الله في خلقه بأن تحكمهم العشوائية والعبثية، بل أراد وحكم لنا وعلينا بأن يكون كل شيء على درجة عالية من التقدير. كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر ٤٩ -٥٠). فبرغم أن قدرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كلمح البصر، مما يجعلها في استغناء عن التخطيط المسبق، إلا أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد قدّر كل شيء في خلقه من قبل أن يخلقه. إنها أفعال من اتصف بالحكمة البالغة والحلم الكامل والقداسة التامّة!

⁂

وبقدر ما في هذا من النعمة، بقدر ما فيها من الإذعان والرضا والقناعة!

إذعان من علم ألّا مفر من المصير!

ها أنا ذا أتذكر أن درجاتي في الثانوية العامة كانت هي درجة كلية الطب تقريبًا بالضبط. وأتذكر أنه في امتحان مادة (اللغة الألمانية) كان هناك سؤال اختر mcQ، حللته بأسلوب أقرب لل (حادي بادي) ثم تبيّن أن حلي كان صحيحًا! أي أن كل حياتي في هذه الكلية وما بعدها كان ليتغير فقط لو أن أغنيّة (حادي بادي) أدت إلى اختيار آخر!

أحيانًا يأخذني تفكيري إلى ما هو أبعد من هذا. فأنا أشعر أنني موجود. موجود بشدة لو صح التعبير! لكن ماذا عن التقاء أبي من محافظة الغربية وأمي من محافظة الشرقية في ظروف شديدة الندرة؟ نحن نتحدث عن خليط جني من الشرق والغرب حرفيًا. كل تلك المسارات التي أدت إلى التقاء أمي بأبي وهي كثيرة بحق. ماذا لو كان تغيّر منها مسارٌ واحد؟

وماذا عن تلك المسابقة الشرسة بين ملايين الحيوانات المنوية لينجح منها واحدٌ فقط، ويكون أنا؟ ماذا لو كان قد نجح زميله الآخر الذي تأخر عنه ببضع أجزاء من مليون من المتر؟ كان وجهي سيختلف، طريقة تفكيري ستختلف، كنتُ لأكون إنسانًا آخر!

ملايين الاختيارات العشوائية والخطوات العبثية -كما قد تبدو لنا، وهي ليست كذلك- أدّت إلى تلك المجموعة المعقدة من الاحتمالات التي أدعوها مجازًا: حياتي!

حينها أتذكر قول النبي ﷺ في دعاء الهمّ والحزن عندما يقول: (نَاصِيَتِي بِيَدِكَ). والناصية هي مقدمة الرأس. أشرف ما بالإنسان. والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقودها كما يشاء ويوجه أفعالي حيث شاء.

يهدينا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جميعًا لأقدارنا. هذه واحدة من معاني الربوبية هي اختيار الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لمصيري بالطريقة التي يحبها، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ في القرآن على لسان نبيّه هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (هود ٥٦)!

لهذا السبب إذن كان النبي ﷺ يتذكر مصير ناصية رأسه الذي هو بين يدي الله عز وجل لما يصاب بالهم والحزن! ثم كان يقول ﷺ بعدها في نفس الدعاء : (مَاض فيَّ حُكْمُك، عَدْلٌ فيَّ قَضَاؤُكَ). فشعورك بحتمية القدر ليس كافيًا للاطمئنان وللتسليم (السعيد) له إلا عندما تجمع إليه يقينًا بعدل ورحمة هذا القدر!

فأخبرني حين تتمتم بـ : « اللهمَّ إنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدكَ، ابْنُ أَمَتكَ، نَاصيَتي بيَدكَ، مَاض فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بكُلِّ اسْم هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ به نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ في كتَابكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا منْ خَلْقكَ، أَو اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْم الْغَيْب عنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي». كيف يَبقى بعدها في قلبك أي همٌّ أو حزن ؟!

هذه نعمة المصير! وتلك نعمة الرضا بهذا المصير!

٢

حتميّة الإرادة الإلهية

"أراد الله وأراد الشيطان فكان ما

أراد الشيطان! هذا شيطان قوي!"

مجوسي يناظر منكرًا للقدر

في ملحمة (جلجاميش) السومريّة، يتحدث كاتب الملحمة عن (جلجاميش) الذي كان ثلثي إله وثلث بشر! مما يجعله في قوة الآلهة إلا أنه يموت وليس بخالد.

لم يحب (جلجاميش) ذلك فذهب إلى رجل من البشر -كان هذا الرجل هو الوحيد هو وزوجته من أُنعِم عليهما بالخلود - كي يعرّفه بسرّ الخلود، فقال له: عليك أن تحبس نفسك عن النوم سبعة أيام! لم يستطع جلجاميش أن يفعل ذلك وغلبته نفسه ونام، هنا أشفقت عليه زوجة الرجل -الخالدة هي الأخرى - فدلته على عشب تحت الماء عليه أن يأخذه ويتناوله فيعود إليه شبابه فيطول عمره قليلًا. فعل جلجاميش ذلك ولكنه أجّل تناوله، وبينما هو عائد إلى وطنه قرر أن يستحمّ وترك العشب على ضفة النهر فأخذته أفعى وهربت! فعاد إلى وطنه بدون العشب ومات بعد عدة أعوام كأي رجل آخر يموت بفشل كلوي أو تليف في الكبد!

تذكر أن هذا من المفترض أن ثُلُثَيْه إله! وبرغم ذلك قد قهره النوم بهذه البساطة، ناهيك عن أنه كان يحتاج إلى (النظافة)، وفي النهاية استطاعت أفعى أن تخطف منه عشب شبابه أثناء أخذه (شاور)!

نحن في غنى عن هذا النوع من الآلهة (المُهزّأَة)! في المقابل نحن نؤمن بإله حقيقي له صفات تليق بعظمته وبجلاله، ومن هذه الصفات بالتأكيد أن أحدًا لا يجرؤ ولا يقدر على أن (يخطف) منه شيئًا لا يريده في لحظة غفلة -سبحانه عن ذلك - ولا أن (يرغمه) على فعل شيء في لحظة قهر!

مثل تلك المناظرة السريعة (جدًا) بين غيلان وربيعة، قال غيلان: «يا ربيعة، أنت الذي تزعم

أن الله يحب أن يُعصَى؟»، قال ربيعة: «يا غيلان، فأنت الذي تزعم أن الله يُعصَى قسرًا؟!».

يحدثنا القرآن عن إله له إرادة إلهية حتميّة الحدوث. كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد ١١).

هذه الإرادة التي لا نستطيع أن نمنعها إن قررت أن تصيبنا بشر أو بسوء: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن ١٠).

بل لا يستطيع أن يقف أمام هذه الإرادة إرادةُ الأنبياء أو نصحهم، بل هم في ذلك مساكين تمامًا مثلنا. كما يقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ (هود ٣٤)!

حتميّة الإرادة الإلهية تأتينا جليّة في القرآن الكريم، وتجعلنا ندرك أن أفعال البشر غير منفكّة عن مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكونيّة، وأنهم حتى ولو وقع منهم ما هو ضد ما (يريد الله منهم أن يقوموا به)، فسوف يستحيل عليهم أن يقعوا في ضد ما (أراد الله بأن يحدث في النهاية)!

لذلك يقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ (الأعراف ١٥٥). ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة ٢٥٣)!!

هذه الإرادة التي يتعلق بها حدوث كل شيء من أمر الدنيا أو الدين. فحتى الإيمان لن يدخل إلى قلب امرئ إلا لو شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك! كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٩٩). حتى لو كان الداعي إلى هذا الإيمان أقوى ما يكون: الحواس أنفسها! فحتى لو كان الإيمان بهذه السهولة واليسر فلم يكن ليتم إلا بمشيئة الله في النهاية! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام ١١١).

هذه الإرادة الحتميّة لحدوث الأشياء لا تعني بالضرورة أن هذا هو ما أحبه الله وأراده أن يحدث! ولكي نفهم هذا اللغز، دعانا علماء الإسلام إلى فهم وجهيْن ومعنييْن مختلفيْن لكلمة (الإرادة)!

فهناك الإرادة بمعنى: الشيء الذي يحبه الله أن يحدث، مثل قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ

يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء ٢٧). ﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة ١٨٦). بمعنى أن الله يحب ذلك ويدعوكم إلى ذلك. هذه سمّاها هؤلاء العلماء باسم: الإرادة الشرعيّة.

وهناك الإرادة بمعنى: ما قضى الله في النهاية بأن يحدث، مثل قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ الله أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ (آل عمران ١٧٦). ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ (التوبة ٨٥). وهذه سمّوها: الإرادة القدرية أو الكونيّة.

على كل حال الأسماء والاصطلاحات لا تعنينا في شيء، ولكن ما يعنينا هو: لماذا هناك نوعان من الإرادة الإلهية إذن؟!

السبب وراء أن ليس كل ما يريده الله ويحبه، أراده الله أن يقع فعلًا في الوجود. هو أن الإنسان له إرادة كاملة! فقد يريد الله منه الإيمان وهو يريد الكفر، قد يريد الله منه التوبة، وهو يريد المعصية! ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَالله يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ (الأنفال ٦٧)!!

٣

عن إرادة الإنسان

"إن الله لا يسأل عباده يوم القيامة عن قضائه وقدره، وإنما يسألهم عن أعمالهم"

محمد بن واسع

يحكون أن أحد الأساتذة أجرى اختبارًا لطلابه وقسّمه حسب الصعوبة إلى ثلاثة نماذج، النموذج الأول الأشد صعوبة، والثاني متوسط، والثالث هو الأسهل. ثم خيّر طلابه في أن يختاروا النموذج الذي يريدون. وبعد أن ظهرت النتيجة تبيّن أن كل من اختار النموذج الأصعب حصل على (امتياز) وكل من اختار النموذج المتوسط حصل على (جيد جدًا) وكل من اختار النموذج الأسهل حصل على (مقبول). فاجأهم الأستاذ أنه لم ينظر إلى حلول أي واحد منهم أصلًا، بل كافأهم حسب اختيارهم، وأن الاختبار لم يكن لمعلوماتهم ولكن لأهدافهم وطموحاتهم.

هذه قصة خيالية في الأغلب من قصص تنمية الذات المُبالِغة التي لا أبلعها أبدًا والتي تقنعنا منذ الأزل أن الهدف والطموح هو كل شيء، وأن علينا أن نحلم الأحلام الكبيرة وكل شيء سيكون على ما يُرام! برغم أن جرم تضخيم تقدير الذات لا يقل في الضرر أبدًا عن جرم التقليل من هذا التقدير.

بينما أقرب الأمثلة الواقعيّة لهذا الاختبار فعلًا هو اختبار الآخرة! حيث أخبرنا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنه اختبار إرادة في المقام الأول! وأن كل من سيختار اختيارًا سيحصل على مراده، أو بمعنى أصح: على القدر الذي يريده الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ منه! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾ (الإسراء ١٨ -٢٠). على أنه ليس اختبار إرادة مجردة من العمل. فلك أن تلاحظ قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ (وسعى لها سعيها)! إنها إرادة يتبعها عمل.

منذ اللحظة الأولى لقارئ القرآن يتبين له أن إرادة الإنسان واختياره إنما هما حقيقيّان تمامًا. فمثلًا يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عن أهل الجنة: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (السجدة ١٧). أثبت أن قيامهم بالليل يصلون كان عملًا يُنسَب لهم، إذ إنهم اختاروا ذلك من أنفسهم. وأيضًا يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عن أهل النار: ﴿**وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (النمل ٩٠). فأثبت أنهم هم من اختاروا هذه الأعمال، وهم من تسببوا لأنفسهم في هذا المصير.

هذه الإرادة الإنسانية قد تتعارض مع الإرادة الشرعيّة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كما وضحنا، وحينها يُنفذُ اللهُ إرادةَ الإنسان! هذه من خصائص المكلّفين الذين ميّزهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بحرية الاختيار إلى هذا الحد! بينما الملائكة مثلًا وهم أكمل في الخلقة منّا وأقوى وأجمل، لم يحصلوا على هذه الخصيصة، فقال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ (التحريم ٦)!

وهذه الخصيصة ليست نعمة أو نقمة في حد ذاتها، وإنما هي ابتلاء، قد تؤدي بك إلى أعلى عليين (حين توافق بإرادتك الإنسانية إرادة الله الشرعيّة)، أو إلى أسفل سافلين (حين تخالف بإرادتك الإنسانية إرادة الله الشرعيّة).

ولكن هذه الإرادة الإنسانية لا تنفك بأي حال عن إرادة الله الكونية القدرية! فلا يمكن أن تشاء شيئًا كائنًا ما كان إلا وكانت مشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له أسبق! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (التكوير ٢٧ -٢٩).

لأنه كما اتفقنا: من ذا الذي يقدر على أن يُرغم الله على شيء لا يريده؟!

معنى وقوع شيء في ملكوت الله أن هذا لم يكن خارج المكتوب، لم يكن خارج المشيئة الإلهية، كان مأذونًا به، كان قدرًا!

٤

على مواقع القدر

"وعاجز الرأي مضياع لفرصته،

حتى إذا فات أمرٌ عاتب القَدَرَا"

من حِكَم العرب

في أوائل السبعينيات قتل (هربرت مولين) ثلاثة عشر إنسانًا في كاليفورنيا. حين تم القبض عليه لم ينكر أيًا من جرائمه، ولكنه ادّعى أن على الشعب الأمريكي أن يشكره على فعلته! والسبب وراء ذلك يرجع إلى اعتقاد مولين أن خسائر الأمريكيين من حرب فيتنام كانت المانع الوحيد الذي يمنع زلزالًا مدمرًا سيبتلع كاليفورنيا ويلقي بها إلى المحيط، ولما هدأت الحرب وقلت الخسائر البشرية أمره الله أن يزيد من عدد (الضحايا) البشرية حتى يمنع هذا الزلزال!

هذا نوع من القتلة المتسلسلين المعروفين في الغرب باسم (Visionary Serial Killers) أي القتلة الذي دافع قتلهم هو الرؤى والهلاوس، أغلب هؤلاء يعتقدون أنهم ينفذون ما يأمرهم به الرب في هذا القتل! وهذا شبيه بنوع آخر هو: (Missionay Serial Killers) وهم الذين يعتقدون أنهم يقومون بـ (مهمة الرب) فيخلصون المجتمع من بعض العناصر فيه حتى يرضى عنهم الإله!

هؤلاء وأولئك ينفذون رغبات الرب فيما يبدو لهم، ولكن هذا لم يمنع السلطات الحاكمة من معاقبتهم تمامًا كما لو كانوا ينفذون رغبات الشيطان، لا يعنينا ما يقولون، فنحن نعلم أن الله لم يتكلم إليهم فعلًا، وكونهم لا يريدون تحمل مسؤوليّة أفعالهم فهذا لا يعفيهم من النتيجة.

ربما هذا النوع من القتلة المتسلسلين يمثلون صورة شديدة التطرف لمن يلقي باللوم على الإله في كل ما يفعل من مظالم وآثام. لكن هذا لا يعني أنه لا توجد صور أقل تطرفًا من ذلك التصرّف المدلّل!

فالقرآن يحدثنا عن أن إبليس حين عصى الله بكل تجبّر وتكبّر وبرود، ألقى باللوم على رب العزة في ذلك! كما يقول: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر ٣٩).

ورُوِيَ عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان واقفًا على جبل يصلي، فأتاه إبليس، فقال: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر؟ قال: نعم. قال: فألقِ نفسك من فوق الجبل وقل قُدّر عليّ. فقال: يا لعين! الله يختبر عباده، وليس للعباد أن يختبروا الله.

ولأن هذه هي الطريقة التي يفكر بها الشيطان، فإنه من الطبيعي أن يعلّمها لكل من يوسوس في آذانهم ويثرثر على مآدب الشهوات والعصيان، لذلك كان القرآن على علم بأن هذا الفعل سيصدر من أولاد آدم من قبل أن يقوموا به! كما يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ (الأنعام ١٤٨).

ثم عاد القرآن لتذكيرنا بذلك بعد أن صدر ذلك الفعل منهم بالفعل! ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل ٣٥)!

لا يحق لإبليس ولا للإنسان أن يقوموا بذلك، لأن الإرادة التي أعطاها الله لهم إرادة كاملة غير منقوصة، والدليل على ذلك أنهم اختاروا هذا الفعل طواعيةً، ثم لما اختاروه نسبوه لله، من أدراهم إذن أن الله لم يكن ليريد لهم الطاعة؟ هل اطلعوا على علمه؟ لذلك يقول الله تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام ١٤٨). لماذا لم تختاروا أن تقوموا بالطاعة ثم تقولون أن هذا هو قدرنا الذي أراده الله؟!

لذلك قال النبي ﷺ -في الحديث الذي رواه عنه علي بن أبي طالب وذكره البخاري في صحيحه- «ما منكم من نفس منفوسة إلا كُتِبَ مكانُها من الجنة والنار، وإلا كُتِبَ شقية أم سعيدة» فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال ﷺ: «أما أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فيُيَسَّرون إلى عمل أهل الشقاء». ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل ٥ - ١٠)!

الإجابة القرآنية هذه المرة أتتنا من المعلّم القرآني الأول، النبي محمد ﷺ، حيث نبّهنا إلى أن هذه الآيات قد أعطتك الإرادة الكاملة التي تجعل التيسير أو التعسير من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (نتيجة على (مقدمة) أنت فاعلها، وهو العمل الذي تقدمه، فمن اختار أن يقوم بالعمل الصالح فالله جَلَّ جَلَالُهُ ييسره له، ومن اختار غير ذلك الله جَلَّ جَلَالُهُ ييسره له، حتى يسير الناس في النهاية إلى أقدارهم التي رسمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكنهم مع ذلك يسيرون إليها طواعيةً من دون أن يجبرهم أحد!

ولكن كيف ذلك؟

كيف أن الله قد اختار لهم سلفًا مصيرًا هم سائرون إليه. ثم مع ذلك هم اختاروا بإرادتهم الحرة هذا المصير؟!

كيف لم يحدث ولو مرة واحدة، ولو على سبيل الخطأ، ولو على سبيل الاستثناء، أن يكون اختيارهم (الحر) خارجًا عن اختيار الله؟!

الإجابة: لا أدري!

وأنت أيضًا لا تدري، وكل البشر لا يدري!

كي تفهم أكثر فإني أدعوك للانتقال إلى الفقرة التالية!

٥

السر

"شيءٌ أراد الله ألا يطلعكم عليه

فلا تريدوا من الله ما أبى عليكم"

ابن عمر رضي الله عنه

تساءل الروائي الأسترالي (جارث نيكس) في روايته (سابرييل): «هل الماشي هو من يختار الطريق، أم الطريق هو من يختار الماشي؟!»، وتساءل الروائي الأمريكي (نيكولاس سباركس) في روايته (مشية للذكرى): «هل سألت نفسك يومًا لماذا كان يجب على الأشياء أن تصير إلى ما هي عليه؟!»، وهو شبيه بسؤال مواطنه الأمريكي الآخر (جيم بوتشر) في روايته (الليل الأبيض): «ما هي فائدة أن أملك خيارًا حرًا طالما لا يستطيع المرء أن يخطو ولو مرة واحدة فوق قدره؟!»!

هذه الحيرة عند الأدباء نجد أضعافها وسط الفلاسفة والمفكرين.

تهكّم (فولتير) في روايته الفلسفية: (الساذج) بنظرية الفيلسوف الألماني (ليبنتز) بأن عالمنا هو أفضل العوالم الممكنة، فتخيل قصة الخادم الساذج الذي يرى أن كل شيء على ما يرام، ولكن الحياة تعصف به حتى يصل بائسًا إلى إسطنبول، فيسأل رجلًا تركيًا عن أصل الشر، فينصحه بالصمت، وأن يعمل دون أن يفكر، فهذا وحده هو ما يجعل الحياة تطاق. وتنتهي الرواية على هذا النحو. وعلى حد تعبير (إلياس بلكا) فإن فولتير قد سخر في روايته تلك من العقل وضعفه أكثر مما سخر من ليبنتز.

في رواية فلسفية أخرى للفيلسوف (ديدرو) بعنوان: (جاك الجبري)، تخيل ديدرو حوارًا مطوّلًا بين الخادم جاك الجبري الذي يعتقد أن هناك قدرًا مهيمنًا على كل شيء، وبين سيده الذي يعتقد أنه متحكم جيد في مصيره. وملاحظة (بلكا) على رواية ديدرو أنها تكشف اضطراب مؤلفها تجاه مشكلة الحرية والعلية، فهو واعٍ بتعقدها وغير قادر على حلها، ولذا كانت الرواية

اعترافًا بقصور العقل في مواجهته لإشكالات أكبر من طاقته. لذلك لم تكن نهاية رواية (جاك الجبري) تختلف عن نهاية رواية (الساذج).

اعتبر الفيلسوف الفرنسي (رينوفيي) أن كيفية التوفيق بين (الحرية) و(الحتمية) هي الإشكالية الفلسفية الأولى عبر التاريخ! ويرى الفيلسوف الفرنسي الآخر (فولتير) أن هذه القضية تتجاوز طاقة العقل لذلك هي غير ممكنة الفهم والإدراك. وقال الفيلسوف الأسكتلندي الشهير (ديفيد هيوم) أن مشكلة الحرية والضرورة تبين بوضوح حدود العقل وعجزه عن النفاذ إلى بعض الأمور! وأما (لافيل) فقد قال أن إشكاليّة الحرية هي حتف النظر العقلي! بينما شكّلت مسألة القدر المحور الرئيسي الذي تدور حوله فلسفة كل من (بوهم) و(جرسونيد) و(لوكيي)!

كانت الميتافيزيقا عند كانط هي علم حدود المعرفة! هي تلك المعرفة التي تنبعث من اصطدام العقل بحدوده، لأنه لا يمكن لأي علم طبيعي أن يكشف عن باطن الأشياء!

الفلاسفة الميتافيزيقيّون بشكل عام (هؤلاء الذين يهتمون بالبحث في ماهيّة الأشياء وعلل الوجود إلى آخر هذه الأشياء) توصلوا في النهاية إلى الكلمة التي أقرّها عليهم أستاذ الفلسفة (زكريا إبراهيم) حين قال: «الأصل في الحرية هو سرّ هيهات لنا أن نزيح النقاب عنه»!

هذا السرّ هو ما عناه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه حين قال في كلمته الخالدة التي جعلتها آخرًا لأنها أفخرهم بلا منازع: «القدر سرّ الله جَلَّجَلَالُهُ في خلقه فلا نكشفه»! أي لا تحاول أن تميط اللثام عن هذا السر فهو لن ينكشف أبدًا، ليس لك، وليس لي، وليس لهؤلاء الأدباء، وليس لأولئك الفلاسفة، وليس لأي أحد!

مسألة القدر عسيرة على الفهم البشري بشكل عام، وعلى اختلاف ثقافات أو ديانات هذا العقل البشري! لذلك فإن القرآن ينبهنا إلى إدراك هذا العُسر حين يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ (الحديد ٢٢).

إن القرآن يعلم أنه من العسير علينا أن ندرك كيف أن كل مصيبة صغيرة أو كبيرة حدثت على وجه الأرض أو سوف تحدث إنما هي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الله هذه الدنيا بأسرها! لذلك تؤكد الآية علينا أن ذلك الأمر الذي نستصعب فهمه إلى هذا الحد إنما هو على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسير!

في كتابه (التأملات)، يقول (ديكارت): «ليس لدي أدنى سبب يجعلني أتذمّر من كون الله لم يمنحني قدرة أعظم على الفهم. أو أنه لم يهبني نورًا طبيعيًا أكثر مما وهب. فمن الطبيع أن تظل هناك أشياء غير مفهومة بالنسبة لفهم محدود. ومن الطبيعي أن يظل الفهم المخلوق محدودًا».

في مسألة القدر، فإننا نكون أحوج ما نكون إلى ما يجيبنا به القرآن حين يحدثنا: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء ٨٥)! فإجابات القرآن تروي ظمأنا للمعرفة، لكننا مع ذلك نعلم أننا محدودون في هذه المعرفة! نستطيع أن نفهم الكثير من الأشياء ولكن سنصل إلى نقطة معينة ونقول بعدها: لا ندري. كلنا لا يدري!

سُبُّوح!

(عن سؤال وجود الشرور والآلام في الدنيا)

"نحن نتعامل إذن مع مشكلة مستوردة! وقضيّة يتم التقليد فيها دون أن نفطن إلى أن وضع المسلمين وخلفيتهم الثقافية على اختلاف كبير مع هذه العقليّة! ففي حين يؤمن النصارى أننا أبناء الله وأن الله مستعد للموت من أجلنا، نجد لدينا نحن قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ من الذي ادّعى في الإسلام أننا أبناء الله أو أحباؤه بذواتنا؟ لو كان هذا صحيحًا لكان من الغريب حقًا أن يعذبنا الله في الدنيا أو الآخرة بذنوبنا! ولكن الحقيقة أننا مجرد بشرٌ ممن خلق"

في استفتاء أمريكي كان هناك سؤال: لو أُتِيحَ لك أن تسأل الله سؤالًا واحدًا تعلم أنه سيجيبك عنه، فماذا سيكون السؤال؟ كان السؤال الذي حصل على أعلى نسبة في التصويت هو: (لماذا هناك ألم ومعاناة فيِ هذا العالم؟). وكتب (لي ستروبل) كتابه (قضية الإيمان) ورتّب فيه أهم ثمانية اعتراضات تُشكل على الإيمان فكانت مشكلة الشر هي الأولى منهم. وفي رأي الفيلسوف (رونالد ناش): «كل الفلاسفة الذين أعرفهم يؤمنون أن أهم تحدٍّ جاد للإيمان بالله كان في الماضي، وكائن في الحاضر، وسيبقى في المستقبل، هو مشكلة الشر». تلك المشكلة التي هي على حد تعبير الفيلسوف الملحد (جورج بوخنر): «صخرة الإلحاد».

في سجالات المؤمنين والملحدين، نجد مشكلة الشر حاضرة بصفتها الراعي الأكبر للمناظرة. مثل مناظرة (ستيفن لاو) مع (ويليام لين كريج) في ٢٠١١ بعنوان (هل يوجد إله) حين اكتفى (لاو) بعرض شبهة الشر فقط. وذات الأمر تكرر في مناظرة (كريج) مع (مايكل تولي). بل وحتى في المناظرات العلمية مثل مناظرة (مايكل روس) مع (فزالا رنا) والتي كانت تتناول التطور والتصميم، نجد روس يصرح أن السبب الوحيد الذي يمنعه عن الإيمان بالتصميم (أو بالإله بمعنى أصرح) هو مشكلة الشر.

مشكلة وجود الشرمشكلة متأصلة عميقة قديمة تمس الجميع، وهي من المشاكل العامة لكل الأديان والثقافات، بل وحتى تمثل مشكلة للملحد الذي ليست لديه أدنى فكرة عن سبب إدراكه لمعنى الشر في عالم مجرد من السحر والقيم والموضوعية. وللأسف عادةً ما نجد عند البعض أجوبة خاطئة عليها، مثل الهندوسية التي قررت أن الشر ليس موجودًا في العالم، ولكنه مجرد (مايا) أي وهم في أذهاننا. أو مثل البوذية التي قررت العكس، الوجود كله شر ويجب علينا أن نهرب منه في أسرع وقت ممكن، بالتأمل للوصول إلى الانطفاء والنرفانا.

بينما الجواب على إشكال الشر في القرآن الحكيم محكم، بسيط، متقن وكامل.

١

عن المشكلة التي لا تفزعنا

"يعجز جميع الرعب الموجود على الأرض عن

انتزاع السماء ممّن وجدوها يومًا. بشرط أن يجدوها"

علي عزت بيجوفيتش

الأديب التشيكي المكتئب الشهير (فرانتس كافكا) كانت فلسفته الإيمانية بسيطة وصادمة للغاية:)الله موجود ولكنه شرير(! وصدمتنا من هذه العقيدة يستدعي منّا أن نتساءل: لماذا نتعجب من إنسان يؤمن بذلك؟!

ربما العجيب بالفعل هو ما يفعله بقية الفلاسفة والمفكرين الذين تخاصموا في القضية الفلسفية الشهيرة الخاصة بوجود الشر، منذ أبيقور وحتى شوبنهاور، كان الخصام الرئيسي بينهم هو كيف يسمح الله مطلق الخيرية بوجود شرور في العالم، فيتساءلون: هل الله عاجز إذن أو شرير كي يحدث ذلك؟!

من ثم انقسموا إلى من يؤمن بحكمة الله وعدله ورحمته من خلال الشرور، ومن يؤمن بعدم وجود إله أصلًا، رغم أن وجود الشر أمر مستقل عن وجود الله وكان الأقرب للمنطق هو الإيمان بعقيدة كافكا تلك عن الإلحاد بشكل كلي! فاستشكال وجود الشر إنما يطعن في علم الله أو قدرته أو رحمته، وفقط! وليس وجوده. فيمكننا دائمًا أن نتخيل وجود إله (شرير) والعياذ بالله كما فعل كافكا، وهذا سيكون أقرب للمنطق. فلِمَ لم يحدث ذلك؟ أم أن البشر مخلوقون بجهاز داخلي غامض مبرمج على أن الله لابد بألا يكون شريرًا ولا عاجزًا أبدًا؟!

طِيب الله ورحمته وجماله وحكمته وقدرته وعلمه وصدقه هي من أكواد ذلك الجهاز الذي وجدناه في أنفسنا حين كنا بعد صغارًا لا نجيد جمع البرتقالات على أصابعنا وبرغم ذلك كنا مستعدين لفعل أي شيء خيّر كي يحبنا الله لأننا كنا نعرف أن الله طيب ويحب الطيبين! ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**﴾(الروم ٣٠).

لذلك كان صادمًا للكثيرين ما فعله الحبر اليهودي (هارولد كوشنر) والذي قرر في كتابه (عندما تحدث الأمور السيئة لأناس طيبين) عام ١٩٨١ أن الله عز وجل يريد أن يمنع الشر من العالم لأنه (طيب) ولكنه لا يقدر على ذلك لأنه (عاجز) للأسف!

وبرغم أن اللاهوتيين النصارى يؤمنون بالكثير من السوء فيما يخص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مثل ما في كتابهم المقدس في عهده القديم في سفر التكوين ٦:٦ (فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه)! إلا أنهم وفي معرض سجالهم للملاحدة في مشكلة وجود الشر سارعوا برفض فكرة (عجز الإله) تلك التي قدمها بعض أحبار اليهود ولم يتقبلوها أبدًا. ربما كانت هذه من آثار هذا (الكود) العظيم الذي فطرنا الله عليه.

نحن لسنا مفطورين فقط على وجود الله والحاجة إليه ولكننا مفطورون أيضًا على كل تلك الصفات التي يتصف بها الله وتجعلنا في اطمئنان كامل من أن تكون حاجتنا إليه.

نحن غارقون في قبح النقص ولكننا خُلقنا مُبرمَجين على أن الله له جمال الكمال، نحن نعيش في حياة شريرة ولكننا نعلم أن خالقنا طيّب وسوف يعيننا على النجاة منها، نحن نرى دناءات البشر من حولنا فتذكرنا قلوبنا بأن الله أعلى وأجلّ.

ربما يرجع تاريخ مشكلة وجود الشر والعذاب إلى (أبيقور) اليوناني الذي زعم أن هناك مشكلة منطقيّة في الاعتقاد بأن يكون الإله مطلق الخيريّة ومطلق القدرة وبرغم ذلك لا (يريد) أو لا (يقدر) على منع الشرور. أريد منك الآن أن تتذكر أن (أبيقور) هو فيلسوف (اللذة)، ذلك الذي كان يرى أن الحياة عبارة عن الفرار من الألم إلى اللذائذ.

أريدك أن تلاحظ شيئًا آخر. أن الغرب المسيحي -والذي يستشكل أهله أكبر ما يستشكل وجود الشرور في الدنيا- إنما يؤمن أن الإله قد قرر التضحية بابنه الخاص من أجل أن يفدي خطايا البشر، وقام هذا الإله ابن الإله بالصراخ ألمًا على خشبة الصلب من أجل البشر الذين هم أبناء الرب وأحبابه بذواتهم. وتظهر لك الأفلام الأمريكية قصص الرعب المتمثلة في الشيطان (ساتان) الذي لا يهدف إلى (إغواء) البشر -كما يؤمن المسلمون- ولكن إلى (قتلهم)!

هل يمكننا أن نستنتج أن الشر عند أبيقور، وعند الغرب في الأساس هو مظهر من مظاهر النشوز عن الحياة اللذيذة الممكنة؟ ففي حين ترى الكثير من الأمم أن تحقيق الفضائل الكبرى وتحمل المشاق في سبيل بلوغ المجد هو غاية الحياة، نجد أن الحياة تفقد معناها بشكل عبثي عند الإنسان الغربي المعاصر حين تتكدر بالآلام.

كما كان يقول (ريتشارد شودر) حيث كان يرى أن المتعرض للشر هو ضحية القوى الطبيعية فاقدة القصد. أن الشر نوع من (الضوضاء) المزعجة في دراما الحياة. أن المعاناة ليس لها أدنى صلة بأية حبكة للحياة باستثناء المقاطعة الفوضوية.

ووضح لنا ذلك الأديب الأيرلندي (كليف لويس): «المشكلة الجوهرية للحياة الإنسانية عند الحكماء في القدم هي الوفيق بين الروح والحقيقة الموضوعية. وكان الحل متمثلًا في الحكمة، وترويض النفس والفضيلة. أما العقل الحديث فيرى أن المشكلة الجوهرية هي إخضاع الحقيقة لرغائب الإنسان».

لماذا يحدث ذلك؟ وما سر تلك الخلفية الثقافية للإنسان الغربي عن (جنة الأرض)؟

نجد في كتابات اليهود عن (سفر الرؤيا) تمجيدًا للمسيح (المنتقم) الذي ينتظرونه يأتي كي يحقق العدالة في الأرض. فالعالم الذي يكون فيه العادل تعيسًا هو عالم بلا معنى عندهم. تذكر أن اليهودية هي الخلفية الدينية والثقافية الواجبة للمسيحية الذين يؤمنون بالعهد القديم والجديد معًا. وتبنى القديس أوغسطين ذات الفكرة في المسيحية، وتبناها حتى ماركس في الاشتراكية: الجنة على الأرض، أرض المعاد، هنا والآن بدلًا من أسطورة مملكة الإله.

نحن نتعامل إذن مع مشكلة مستوردة! وقضيّة يتم التقليد فيها دون أن نفطن إلى أن وضع المسلمين وخلفيتهم الثقافية على اختلاف كبير مع هذه العقليّة! ففي حين يؤمن النصارى أننا أبناء الله وأن الله مستعد للموت من أجلنا، نجد لدينا نحن قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ (المائدة ١٨). من الذي ادّعى في الإسلام أننا أبناء الله أو أحباؤه بذواتنا؟ لو كان هذا صحيحًا لكان من الغريب حقًا أن يعذبنا الله في الدنيا أو الآخرة بذنوبنا! ولكن الحقيقة أننا مجرد بشرٌ ممن خلق.

لذلك فنحن كمسلمين في الحقيقة لا نفزع من فكرة وجود الشر، لا نرى في هذا عيبًا في إيماننا، لا نستشكل البلاء أو نجزع من القضاء أو نصب غضبنا على السماء. كما يقول المستشرق البريطاني (كنث كراج) في كتابه (بيت الإسلام): الإسلام «لا يجد أن الثيوديسيا ضرورية للاهوته ولا لعباداته».

في المقابل فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يدعونا إلى النظر إلى مصائب الدنيا على أنها (مأذونٌ) فيها من الله الذي كان يقدر على منعها لو شاء. وأن هذه المصائب ليست منفكة عن علم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولا حكمته. وأنها ستكون شديدة على النفس وتحتاج إلى هداية من الله لقلب المتعرض لها! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (التغابن ١١)!

٢

عن الدنيا التي لا تستحق

"لا يقصد القرآن العزلة عن حياة الأرض، إنما يقصد تصحيح المقاييس الشعورية والاستعلاء على غرور المتاع الزائل"

سيد قطب

أنت كطبيب تعيش أزمة متكررة ومملة في كل مرة تضطر فيها إلى الكشف على طفل صغير لما يراك قادمًا نحوه بمعطفك الأبيض وعلى وجهك ابتسامة شنيعة. وبالرغم من أنك لا تحمل في يدك إلا كشاف ضوء صغير أو سماعة بريئة تؤلم أذنك أنت أكثر بكثير مما ستؤلمه، إلا أنه يبدأ في صراخ حاد متواصل وينظر لك بهلع حقيقي لا يتأثر بابتسامتك الشنيعة السابق ذكرها. كل ذلك بسبب أن أم هذا الطفل ككل أمهات الأطفال في الواقع قد اعتادت على أن تقول له في كل مرة يرفض فيها أن يأكل القرنبيط المسلوق الذي تعده: «سأحضر لك الطبيب كي يعطيك الحقنة».

إذن حضرتك أم كسولة قد قررتْ ألا تُحسّن من درجة طهيها للقرنبيط، ثم قررت ألا تتعلم أساليب تربوية جديدة أفضل من (الأكلاشيه) المحفوظ إياه!

أنت سمحت لهم يا صغيري أن يقنعوك أنني أكبر خطر يهددك في الحياة، وظننت أنك ستكون آمنًا طالما ابتعدت عن كل طبيب وعن كل حقنة، لكنك ساذج جدًا. ماذا عن المغتصبين والسفاحين واللصوص والسايكوباثيين الذين يستمتعون بضربك دون سبب؟! ماذا عن أبلة (لواحظ) مدرسة الرياضيات التي ستلاحقك بـ (خرزانة أسوانيّة) لأنك لم تجلد الكشكول بالجلاد الطحيني؟! ماذا عن دراجتك الجديدة التي ستُسرق من أمام منزلك، فيُعوّضك أبواك بدراجة أجدد، فقط لتُسرَق من أمام مدرستك؟!

أبواك لطيفان يا صغيري فأخفيا عنك حقائق هذه الحياة. قررا أن يقنعاك أن العالم مكان آمن لا داعي للخوف منه. لقد فعلا ذلك فقط لأنهما مرعوبان بالفعل من كل شيء! أنت تحسب أن الصغار هم من يخافون ولا تعلم شيئًا عن خوف الكبار! مشاعر الخوف الحقيقية لم تختبرها بعد، ولكنك ستفعل.

حين تكبر سوف تتعلم الخوف من شرطي المرور بدفتره الصغير. سوف تتعلم أن تشعر بضربات قلبك حين تراقب أسعار السلع التي اشتريتها في يوم قبضك لراتبك الهزيل. سوف تتعلم الفزع مع رقم ٤٢ الذي سيظهر على (الترمومتر) الخارج من حلق طفلك الصغير حين يصاب بالتهاب حَلْقِي صديدي في الثانية صباحًا.

نحن الكبار نخاف جدًا يا صغيري، نخاف طوال الوقت. الخوف المزمن هو معنى الحياة بالنسبة لنا، وتعريف (اليوم) هو مشقة وعناء القلق من الغد. وما منا إلا وهو كذلك، ولكن يذهبه الله بالتوكل.

هذا الخوف هام جدًا، بدونه كنا سنصبح جميعًا فراعنة. أنت ترى كل هذا الجبروت في وجوه الناس، كل هذا الكبر، كل هذا الغرور. تخيل أن كلهم يخافون مهما بلغت قوتهم وغناهم! التايكون صاحب المليارات يكاد يجن من الهلع وهو يراقب حركة أسهم شركاته في البورصة، ورئيس أقوى الدول يموت من القلق على ابنه وإدمانه للمخدرات!

تخيل لو كان الله قد خلقنا في بيئة آمنة كيف كان ليكون تجبرهم وعنادهم؟! كيف كانت لتكون الحياة مع مجموعة من البشر دون أن تنكسر؟! كنا سنأكل بعضنا البعض يا صغيري. إننا الآن سيئون، وبدون الخوف كنا لنصبح أسوأ بما لا يقاس!

هذه المُكابدة التي تصيب كل أحد هي رحمة من الله علينا! الخوف والقلق والمشقة والعناء والتعب، كل هذه أدوية يا حبيبي، يعالجنا الله بها حتى نتعلم أن البكتريا تقدر علينا، والفقر يقدر علينا، والبرد يقدر علينا، والألم النفسي يقدر علينا، وظلم البشر يقدر علينا. جميع نوائب الدهر تقدر علينا. يعلمنا الله ذلك حتى لا ننسى ولو للحظة واحدة، أن خالق كل شيء ومدبر كل شيء بالفعل يقدر علينا!

هذا يا صغيري ما أخبرنا به الله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**﴾ (البلد ٤ -٥)؟!

***

هناك بعض الإحصائيات تقول أن الناس لا يصدقون أنهم يقعون تحت الإحصائيات! أننا جميعًا نصدق أن الأشياء السيئة تحدث وبكثرة، ولكن للآخرين فقط. وأنه كما يقول الدكتور أحمد خالد توفيق لو قال القائد لجنوده قبل المعركة: أتوقع ألا ينجو ٩٠٪ منكم. لنظر كل واحد منهم إلى زملائه وقال في نفسه: سوف يُؤلمني فقد الرفاق!

ونتيجة لهذا التبسيط المُخل في نظرنا إلى الواقع، نقع بسهولة في قول الله تعالى: ﴿**لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ**﴾ (فصلت ٤٩). تكون صدمتنا أكبر حين نصاب

بما لا بد أن نصاب به، لأننا ظننّا أن قصة حياتنا هي حكاية أخرى من والت ديزني. بينما في الواقع الحياة الخالية من المنغّصات، هي في الجنة فقط. نتعلم هذا حين نكبر في السن، وبالطريقة الصعبة غالبًا!

***

هل عالمنا هو أفضل العوالم الممكنة؟ وهل هذا سؤال مهم أصلًا؟

دعنا نبدأ في الجواب على الشق الثاني. أهمية هذا السؤال يمكنك أن تفطن لها حين تتأمل في عبارة يسيرة أطلقها أبو حامد الغزالي في كتابه (الإحياء): «ليس في الإمكان أحسن مما كان». ثم فصّل أكثر في كتاب (الإملاء على إشكالات الإحياء): «ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبًا ولا أكمل صنعًا». ثم رد عليه (البقاعي) في كتاب: (تهديم الأركان من ليس في الإمكان أبدع مما كان)! ثم رد السيوطي على البقاعي في كتاب: (تشييد الأركان في ليس في الإمكان أبدع مما كان)! وبصفة عامة ولكي لا تصاب بالملل، فقد كانت رسالة الدكتوراة للمستشرق (إريك أورمسبي) عام ١٩٨٤ بعنوان (الثيوديسيا في الفكر الإسلامي: النزاع حول كلمة الغزالي، أفضل العوالم الممكنة) والتي عرض فيها خلاف علماء المسلمين في قبول عبارة الغزالي عبر سبعة قرون هجرية.

لم يكن علماء الإسلام ليسكتوا بسهولة على عبارة عابرة وردت في كتاب (وعظي) لأحد علماء المسلمين يمكن أن يُتوهَّم منها أن الله عز وجل لم يكن ليقدر على خلق دنيا أخرى خالية من المنغصات والأكدار كدنيانا. وبرغم أن الغزالي والمدافعين عنه لم يكونوا يقصدون ذلك، إلا أن تأصّل عقيدة المسلمين بأن دنيانا دار ابتلاء وكدر حال بينهم وبين قبول مثل هذه العبارة.

منذ اللحظة الأولى التي نحاول التعرّف فيها على إجابة القرآن عن وجود الشرور في العالم، فإننا نلاحظ نظرة القرآن إلى الدنيا على أنها دار (ابتلاء) و(مِحَن) وليست دار (رفاهية) أو (دلال)!

الإنسان مخلوق في هذه المكابدة، وهو الأمر الوحيد الذي كان يصلح لطبيعة الدنيا واختبارها، والأمر الوحيد الذي كان يصلح لطبيعة الإنسان المليء بالتجبّر والتكبّر، والأمر الوحيد الذي كان يصلح لطبيعة العقوبة التي ابتُليَ بها آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما خرج من الجنة!

حينها لا نتعجب أن نكون في دار فيها جوع وظمأ وآلام حرّ الشمس وقت الضحى وآلام البرد في العراء. لا نتعجب من ذلك لأننا نعلم أننا سبق وقد نزلنا من المكان الوحيد الذي لم تكن موجودة فيه هذه الآلام، كما يخبرنا القرآن بقول الله جَلَّ جَلَالُهُ لآدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عن الجنة التي كان يحيا فيها: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى**﴾ (طه ١١٧ -١١٩).

لذلك –ومن قبل ذلك– لم يدّع القرآن أبدًا أن نعيم الدنيا هي هدفنا، أو أكبر همنا، أو غاية وجودنا، أو أنها تستحق أصلًا اهتمامنا! في المقابل فإن القرآن دائم التذكير لنا بأن هذه الحياة الدنيا إنما هي متاع قليل القيمة قصير العمر رخيص الثمن، وأن الآخرة هي المستحق الحقيقي لأحلامك بالنعيم والرفاهية! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ (العنكبوت ٦٤).

وأن استشكال الناس للتفاوت في تقسيم الأرزاق إنما كان بسبب نظرة معظّمة إلى هذه الدنيا بدون أن تستحقها إطلاقًا! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ**﴾ (الرعد ٢٦).

ꕥ

هذه النظرة للدنيا، على أنها دار مكابدة وابتلاء في الأساس، وعلى أنها لا تستحق أن تكون هي الغاية المرادة منك، تتفق مع (الآلام) التي قد يأمرك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بارتكابها في حق نفسك بنفسك! لا يكون أمرًا عجيبًا أن ترتكب في نفسك بعض الألم والحرمان لو كانت الدنيا عندك بهذه القيمة الهيّنة التي يصر القرآن على تمريرها إلى ذهنك، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا**﴾ (النساء ٧٧).

لذلك لا يستشكل المؤمن بالقرآن مسألة الحدود فعلًا، حيث يرى فيها عذابًا دنيويًا يخفّف من عذاب الآخرة! لو كنت غير مؤمن بالآخرة، لكان من الطبيعي أن تأخذك الرأفة بمن يُطبّق عليه الحد. أما لو نظرت إلى كل من الدنيا والآخرة النظرة الحقيقية التي يستحقها كل منهما لكان يسيرًا عليك فهم هذه الآية: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾ (النور ٢)!

في أولى إجابات القرآن عن سؤال الشرّ إذن ينبهنا إلى ضرورة أن نصحح المفهوم الخاطئ لدينا، الدنيا لا تستحق أن تكون هي مبتغاك!

٣

عن النعم التي هي أكثر

"يا ابن آدم، إذا أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك، فغمّض عينيك"

بكر المزني

هل تعرف تلك الإصابات اليومية الصغيرة التي لا تكاد تخطئ أحدًا منا؟

تلك القُرَح الفَمَوية البيضاء الأليمة التي تفاجئك بدون أن تتوقع في يوم ما حين تستيقظ من نومك مثلًا. في هذه القرح تصبح الأعصاب الناقلة للألم مكشوفة أمام حركات لسانك العابثة. فلا تستطيع أن تأكل أو أن تتكلم حتى! كل هذا بسبب نقص بعض الخلايا الطلائية (Epithelium) في مكان القرحة ذي البضعة ملليمترات. بينما يغطي الـEpithelium جميع أنسجة جسدك، دون أن تتذكر على الإطلاق أن تشكر الله على هذه النعمة!

ماذا عن الشد العضلي الذي يصيب عضلة قدمك بعد مباراة حماسية من كرة القدم؟ الألم المبرح الذي لا يعطيك الفرصة للكلام أو الشكوى، فقط تعض على أسنانك وتنتظر حتى ينتهي. كل هذا الألم بسبب نقص بعض عملات الطاقة (ATP) في عضلتك عن مقدار حاجتها له، مما أدى إلى أن تدخل خلايا عضلتك في التنفس اللاهوائي وتنتج حمض اللاكتيك المؤلم. فهل خطر على بالك حين تعد نعم الله عليك أن تضع في عين الاعتبار مليارات جزيئات الـ ATP التي تمرح في كل مكان من جسدك؟!

وحين تصاب ببعض الاكتئاب وتتمنى أن لو كنت في عداد الأموات، ويفتت الكرب فؤادك، دون أن يكون هناك سبب واضح لهذا الحزن! فتذكر أن كل هذا بفعل نقص بعض الدوبامين، الناقل العصبي الذي يمرح في الوضع الطبيعي بين نوايا مخّك القاعديّة، والذي يسبب نقصه كل هذا الاكتئاب والحزن، والذي لم نتذكره أيضًا من ضمن النعم التي أحببنا أن نحمد الله عليها!

لذلك يعرف علماء الطب أن العضو الذي لا تشعر به هو على الأرجح سليم، والعضو الذي تشعر بوجوده في جسدك يعني على الأرجح أن فيه عطبًا ما!

ربما تكون هذه هي حكمة أن يذيقنا الله بعض الانزعاج اليسير أحيانًا في عضو ما من الجسد فقط كي يذكرنا بأنه موجود! بأنها نعمة تستحق الشكر.

مثلًا، هل جرّبت أيام اختبارات الجامعة أو أيام العمل المضغوطة حين كنت تضطر إلى شرب عدة أكواب من القهوة؟ وسواء كانت قهوة أمريكية مائعة أو قهوة عربيّة بطعم الهيل الرائع أو قهوة تركيّة ثقيلة ذات رائحة زكيّة وقوام سميك، ففي كل الأحيان أنت تعلم أن الإكثار منها سيؤدي بك إلى الإكثار من زيارة الحمام! إنه تأثير القهوة المدرّ للبول (Polyurea) وهي تأثيرات مزعجة دائمًا. ولكن هذا يجعلك تتساءل عن كُنه النشاطات اليومية غير المحببة للنفس التي يبذلها مكرهًا مريض السكر أو بشكل أشد مريض السكر الكاذب (Diabetes insipidus) والذي قد يصل به الحال إلى إفراغ عشرين لترًا من البول يوميًا!

هذا يقع في نطاق ما يسمّى بالـ (الأعراض الفيسيولوجية)، وتعني هي الأعراض التي تشبه الأعراض المرضيّة في صورتها ولكنها تقع لأسباب طبيعية تمامًا.

أتخيل أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من حكمته أيضًا في خلق هذه الأعراض الفيسيولوجية أن يذيقنا جزءًا من المعاناة التي عند غيرنا، ولو مرة، ولو بشكل مخفف للغاية، ولو على سبيل التذكرة وليس الابتلاء. يذيقنا ما يشعر به هذا وذاك من الذين حرموا شيئًا بسيطًا جدًا أنت تتمتع به ولا تدري لكم هو عزيز حقًا!

إن الأعراض الفيسيولجية تخبرنا بقاعدة يسيرة تتمثل في أن كل لحظة تمر عليك في عافية لهي هدية ثمينة قد عرفت أنت الآن قيمتها، وأنها محض فضل من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الذي قد يلحقك بهؤلاء الذين منها قد حُرموا! قاعدة قد نصّت عليها الآية: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾ (النحل ٥٣).

والسؤال هنا: لماذا لا نتذكر النعمة إلا بعد فقدها؟! لماذا لا نشعر بالامتنان لذلك الشيء الصغير الذي نملكه في كل حين إلا بعد أن نشعر بألم فقده؟! لماذا نحتاج دائمًا إلى تلك التذكيرات اليومية، وهذه الدروس اليسيرة حتى نفطن إلى معنى قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ**﴾ (فصلت ٥١)؟! لماذا نعرض عند النعم وننسى، ثم عندما يصيبنا الشرّ نعوي بكل هذا البكاء، ونتذمّر بكل هذه الشكوى، ونلجأ لكل هذا الدعاء العريض؟!

بل هناك سؤال آخر، لماذا لا نرى النعم إلا على (مانيكانات) الآخرين، بينما لو لبسناها نحن تصبح غير مرئية بالنسبة لنا؟!

فكلٌ منا مثلًا لديه أمنية ما يضعها نصب عينيه، يظن أن حياته ستتغير تمامًا فقط لو أنه استطاع أن يحوز على هذه الأمنية أو تلك. ينظر لزميله الذي عنده ما يرغب فيه، ويتساءل ترى هل هو يقدر النعمة التي هو فيها؟ ألا يعلم أنه مستعد لفعل المستحيل في سبيل ما هو عنده؟!

وهناك آخرون ينظرون لك قائلين في أنفسهم نفس الكلام. هناك حتمًا من يتمنى من سويداء قلبه شيئًا لربما أنت تملكه ولا تدري كم هو نفيس إلى هذا ا لحد!

ماذا عن الألبينو (عدوّ الشمس) ذو البشرة باهقة البياض والذي يتمنى أن يحصل منك على بعض الخلايا الصبغية Melanocytes ؟ هناك من يتمنى أن يكون شريانه التاجي أوسع. أو أن تكون الأجسام المضادة لديه أقل عنفًا فيحميه من أوجاع النقرس الذي لا يريد أن يترك أصبع رجله الأكبر في حاله أبدًا! وهناك من يحقن نفسه بإنسولين الخنازير كل صباح متسائلًا كيف كانت لتكون الحياة لو كان عنده إنسولين طبيعي مثلنا؟! كانت لتكون أسهل بالتأكيد!

كلٌ منا لديه أمنية ما، ولا يعلم أنه قد حصل بالفعل على آلاف الأمنيات. فقط، كانت هذه أمنيات الآخرين!

***

كان سفيان الثوري يشرح قول الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ١٨٢) فيقول: نسبغ عليهم النعم ونمنعهم شكرها». وكان الحسن البصري يقول: «إن الله يمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكره عليها قلبها عليه عذابًا». وكان ينصح: «أكثروا ذكر هذه النعمة، فإن ذكرها شكرها». وكان رأيه في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات ٦): «يذكر المصائب وينسى النعم».

لم يقتصر الأمر ببعض الناس إلى مجرد حتى تذكر المصائب فقط! بل إنهم يراكون المصائب، ويجمعون كل الشر في العالم ليعرضوه لك، انظر! انظر إلى هذه الحياة الشريرة، اغتصاب وقتل وفقر ومرض وزلازل وبؤس وحزن وشره وطمع وحسد وغضب وخيانة... إلخ. بينما قد قيل: إن كل شرور العالم لا تزيد على ما يعانيه كائن واحد يعاني أعظم البلاء! لأننا من المفترض أن نقيس الشرور التي يتعرض لها الفرد الواحد من جنس الناس ككل.

ولكن ماذا لو فعلنا ذلك؟ نجمع كل الشرور في العالم على الآلة الحاسبة ونحاسب المؤمنين بالرقم الهائل الذي سيخرج على شاشة الحاسوب، الآن سوف يطالبك المؤمنون ببساطة بأن تفعل العكس أيضًا، تجمع كل ما في الكون من خير سويًا ونقارن الرقمين.

غير أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، فهم يعلمون أن الخير في دنيانا أكثر من الشر، النعم أكثر من المصائب، الصحة أكثر من المرض، عدد المرتوين بالماء الزلال أكبر من عدد العِطاش، عدد المتمتعين بالطعام أكبر من الجوعى. يعلمون ذلك ويتجاهلونه ببساطة. يعدّون المصائب وينسون النعم! ييأسون من روح الله ويكفرون آلائه، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ**﴾ (هود ٩).

٤

عن الله الذي هو أكرم

"سمعتُ المفسرين من كل جانب

يقولون في قوله: أغنى، أي أرضى"

سفيان الثوري

يشقى الجمل في الصحراء بشح مائها وجفاف هوائها وحرارتها القاسية. ولكن الله عز وجل وهب الجمل ما يعينه على ذلك. غزارة في شعر الأذن تحميها من الرمال، وصفين من الرموش الطويلة على عينه تحميها من الحصى والغبار، وفتحتي أنف قابلتين للفتح والغلق بإرادته لتحميه من الأتربة، وخف قدمه المفلطح المتسع يحميه من الغوص في الرمال ووسائة قرنية ذات جلد سميك على مقدمة الصدر والركبتين لحمايته من الاحتكاك، وكليتين بقدرة فائقة على تنقية الأملاح مما يمكنه من شرب ماء البحر، ويتحمل فقد الماء بنسبة تصل إلى ٢٨٪ من وزن جسمه بالمقارنة لبقية الحيوانات التي تموت عند فقد الماء بنسبة ١٤٪ من وزن جسدها. هذا غير لونه الشاحب الذي يعكس الحرارة عن جسده، ومخزون على ظهره من ١٢٠ كيلو جرامًا من الدهون تنتج عند احتراقها في جسده الماء وثاني أكسيد الكربون مما يمكنه أن يتحمل حتى شهر ونصف بدون أن يشرب.

لا يرى حيوان الخلد لأنه يعيش تحت الأرض فأعطاه الله شوارب حساسة يدرك بها الأشياء، ولا تملك الضفدعة أسنانًا للمضغ فأعطاها الله تجويف فم واسع يكفي لبلع الفريسة كاملة. الحرباء بطيئة الحركة فأعطاها لسانًا بالغ الطول يساعدها لصيد الحشرات، وحيوان البرنقيل بالغ الصغر والضعف فأعطاه أقدامًا مكسوّة بالريش يخرجها خارج صدفته لتعلق بها فرائسه، وأما الديدان الألفينية التي لا تأكل الأشياء الميتة أعطاها ٣٦٠ قدمًا تجعلها صيّادة سريعة.

لا يملك جلد الفيل أي غدد دهنية، ولكي لا يشعر بالبرودة فهو لا يملك غددًا عرقية كذلك. بينما البطريق الذي يعيش في درجة حرارة -٨٠ يملك طبقة دهنية سمكها عشرة ملليمترات لتشعره

بالدفء. ورضيع الحوت الأزرق الذي يرضع تحت الماء بصعوبة عوّضه الله بعضلات كبيرة في ثدي أمه تضخ كمية هائلة من اللبن في فمه في لحظات معدودة. والأخطبوط ذو الجسد اللحمي المغري الذي يعيش بدون صدفة واقية وسط الكائنات التي تشتهيه عوّضه الله بملايين الخلايا ذات الصبغات اللونية تحت جلده تساعده على التماهي وسط الصخور والاختفاء.

لا يملك النبات ذراعين لإيصال الماء لسيقانه الطويلة، فأعطاه الله القدرة على (النتح) من خلال الثغور لسحب الماء إلى الأجزاء البعيدة. والثعابين من ذوات الدم البارد لا تقدر على التحكم في حرارة جسمها فأعطاها جلدًا مضادًا للماء ومُغطًى بالحراشف يحميها من أن تصاب بالجفاف تحت شمس الصحراء اللافحة. وأما أسماك القرش المستدفئة ذات الأسنان بالغة الصغر فأعطاها خياشيم كالمنخل في الشقوق الطويلة خلف الفم ليعلق بها الطعام الطافي.

حصان البحر يعيش في البحار الضحلة المليئة بتيارات الماء القوية فأعطاه الله ذيلًا يُثبّته بالنباتات فلا ينجرف. وبلح البحر يربط نفسه بخيوط قوية من صنعه في الصخور. وأما عَلَقة السيانوبكتيريا ضعيفة الحيلة التي لا تُرى بالعين المجردة فأعطاها الله قدرة متميزة على صنع الغذاء السكّري حرفيًا من الماء وثاني أكسيد الكربون.

الله عز وجل ليس بذلك الإله الذي يخلق خلقه ثم يتركهم هملًا. وحين يحرمهم من بعض نعمه يحوطهم برعاية منه تعوّض الكثير من هذا الحرمان! وهو القائل سبحانه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ (الشورى ١٩).

✽✽✽

حتى الإنسان أيضًا نجد ذلك عنده، ففي دروس الطب نتعلم أن هناك نوعًا من المرضى يملكون نقصًا في إنزيم (مُختزِل الجلوكوز سادسي الفوسفات) G6PD، بسبب هذا النقص فهو لا يمكنه أن يتناول أي طعام أو دواء يحوي عوامل مؤكسدة، وإلا سوف تدخل كريّات دمه الحمراء في نوبة تحلّلية خطيرة، هذا هو مرض أنيميا الفول لو كنت سمعت عنه من قبل. المشكلة أن من ضمن الأدوية التي تحوي العوامل المؤكسدة هي الأدوية المضادة لطفيل الملاريا Antimalarial Drug والسؤال هنا: ماذا لو أصابت الملاريا هذا المريض بنقص هذا الإنزيم؟! هل سنتركه يموت؟

سأل الأطباء هذا السؤال ولكنهم سرعان ما فطنوا إلى عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ! حيث إن طفيل الملاريا لا يمكنه أن يعيش في جسم الإنسان إلا اعتمادًا على سلسلة أيضيّة معينة اسمها Pentose Shunt وهذه السلسلة المسئول عن إقامتها هو إنزيم G6PD نفسه! أي أن طفيل الملاريا يدخل إلى جسم ذلك المريض الذي لا يستطيع أن يتناول العلاج المناسب له، فيموت من تلقاء نفسه!

أيضًا هرمون الـ Calcitonin يضمن لكل عظمة في جسدك ألا تُظلَم وتُسلَب ما تحتاجه من الكالسيوم. والقُطر المناسب للقنوات الطحاليّة الصغيرة Splenic Tubercles يحافظ على حق خلايا الدم الشابّة في الحياة، بحيث لا يعلق بها إلا الخلايا الهَرِمة فيعمل عليها الطحال لهضمها والتخلص منها. بينما لا يمكن أن تتذمّر خلايا مخك من كثرة الأعباء عليها لأنها الأوفر حظًا بحصولها على خمس الدورة الدموية بالكامل.

كل هذا من عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإنصافه.

ولكن هل شعرت يومًا بشعور ذلك الذي يكرمه أحدهم بفوق ما يحتاج، أكثر من الحد الذي يتوقف عنده قلقه، يتخطاه إلى ذلك الحد الذي يجعله في أمان واطمئنان كاملَيْن؟

إن كبدك الذي يعمل بـ ٢٠٪ من طاقته، ويراقب في كل يوم مخزونه الاحتياطي رباعي الأخماس، يشعر بهذا السخاء! كليتاك التي تعمل بدلال واسترخاء وهي تعلم أن نصف كلية واحدة قادرة على الوفاء باحتياجاتك، تشعر بهذا السخاء. يمكنك أن تعيش بربع معدتك فقط، وبنصف أمعائك الدقيقة، وبعشر أمعائك الغليظة. ولكن كل هذه الزوائد نوع من السخاء.

سُئِلَ الإمام عليٌّ عن قول الله تعالى.. ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**﴾ (النحل ٩٠). فقال: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضّل.

نعم عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رائع، وأروع منه حين تذوق إحسانه. عندما يتفضل عليك بأكثر من حاجتك، عندما تصيبك عطاياه دون أن تحتسب، عندما تُفاجأ بخيراتٍ إضافية، بينما أنت ما زلت في خيراته القديمة.

علينا أن نتذكر نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذن قبل أن نتذكر حرمانه، علينا أن ننظر إلى منته وفضله قبل أن ننظر إلى بلائه، علينا أن نفطن إلى كرم الله الذي هو أسبق، وإلى المنن التي هي أغلب، وفي النهاية: ﴿**وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ (لقمان ١٢).

٥

عن الإنسان الذي يتدلل

"إذا كنتَ لا ترضى عن الله

فكيف تسأله أن يرضى عنك؟"

يحي بن معاذ

الطفلة التي أتتنا مُشوّهة الوجه حين مضغها كلب مسعور، سوف يغير هذا اليوم من كل شيء بخصوصها، لم تعد فتاة جميلة الوجه، سوف تتذكر جيدًا يوم أن رأت وجهي الشاحب في قسم الطوارئ، فقد كان هذا هو أسوأ يوم في حياتها.

نرى الكثير من (أسوأ يوم في الحياة) في استقبال المستشفيات العامة، فقط تكون هذه هي أسوأ أيام الآخرين! الرجل الذي تُوفّيت ابنته بين يديه قد مر بأسوأ يوم في حياته. والشاب الذي اضطررنا إلى أن نشرح لأهله أن سقطته من فوق النخلة قد أفقدته قدرته على السير للأبد قد مر بأسوأ يوم في حياته. والطفل الذي نجا وحده بعد حادثة سيارة أفقدته أمه وأباه وإخوته جميعًا، وظل يبكي طوال الليل لا بسبب ساقه المكسورة، ولكن بسبب روحه النازفة، قد مر حتمًا بأسوأ أيام حياته، وبالنسبة لهذا الطفل بالذات فلربما كان هذا هو أسوأ أيام حياتنا نحن أيضًا.

بالمناسبة، ما هو (المتر)؟ كيف اتفق البشر على وحدة معيارية يرجعون إليها لقياس الأطوال؟

المتر عبارة عن قطعة من البلاتينيوم المحفوظة في درجة حرارة صفر، في خزائن المكتب العالمي للأوزان والمقاييس. وبنفس الطريقة، فالكيلو جرام عبارة عن أسطوانة من البلاتينيوم والإيريديوم تم صنعها في ١٨٩٩، وتم حفظها في (سيفر) بالقرب من باريس في فرنسا.

حين يصاب المريض بالألم، فهو ليس شيئًا ماديًا يمكننا وضعه على الميزان، فكيف يقيس الطبيب مقدار ما يشعر به من الألم؟ نقول له: على مقياس من واحد لعشرة، حيث عشرة هو أسوأ ألم مررت به في حياتك، فما هو مقدار ألمك الآن؟!

كيف يمكننا أن نقيس الحزن، المعاناة، الأسى، الشقاء، الابتلاء أو المصيبة؟ ما هو رقم عشرة الخاص بك الذي تقيس بمعياريته بقية أحزانك؟

لما رأيتُ الطفلة التي مضغها الكلب سألت نفسي، ماذا حين تكبر الفتاة ويبدأ عقلها السارح في رحلته الجامحة في أسئلة الوجود، هل لنا أن نتوقع أن يكون أول سؤال لها، لماذا سمح الله بأن يحدث لي هذا؟

والآن لنفترض أن الله لم يسمح بأن يحدث لها هذا؟ ولنفترض أن رقم عشرة الخاص بتلك الفتاة، تلك المصيبة التي مرت بها رقمها الحقيقي الموضوعي في عالم الشرور والمصائب: ٤٥. الآن الله تدخل ومنع تلك المصيبة من الحدوث، صار أسوأ أيام حياتها هو ذلك اليوم الذي رسبت فيه في الدراسة والذي رقمه الحقيقي بالنسبة لعالم الشرور هو ١٣ مثلًا. لنا أن نتوقع الآن أن الفتاة صارت إذن في نعيم حقيقي، من ٤٥ إلى ١٣، الله قد منّ عليها بـ (شر) أقل بلا شك. ولكن هذا افتراض خاطئ. فاليوم الذي رسبت فيه في الدراسة صار رقم عشرتها الجديد. وحين يسألها أحدهم ما مقدار الألم الذي تشعرين به فستجيب صادقة: أشد أنواع الألم، ولسوف تسأل غالبًا: لماذا سمح الله بأن يحدث لي هذا؟!

ما الذي سوف يرضي الطفلة؟ ما الذي سوف يرضي أيًا منا؟ حتى لو كان أقصى ما نصاب به هو مقدار من الشر قوته (١)، فسيبقى هذا هو رقم عشرة الخاص بنا. وسوف نظل نسأل، لماذا سمح الله بأن يحدث لنا هذا؟

يؤمن النصارى أن الله هو أباهم الذي في السماء، ولكن الأديب الأيرلندي (س. إس. لويس) لاحظ ساخرًا أن الناس لا يريدون حقًا أبًا في السماء، ولكن يريدون (جدّو) في السماء! ذلك الذي يكون رده على كل طلب من البشر: (حسنًا، طالما أن هذا يسعدكم)، وكل همه هو أن يحظى الجميع في النهاية بيوم طيب! لا يريد حقًا إلهًا ولكن (خادمًا) يرفه عنه!

في الحقيقة، وسواء أحببنا ذلك أم لا، فالله ليس بخادم مقهور على خدمة عبيده، ويذكرنا الله في قرآنه: ﴿**أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۝ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ**﴾ (النجم ٢٤-٢٥). الإجابة: لا، ليس له كل ما يتمنى، ليس يستحق كل ما يهواه، الله وحده له الآخرة والأولى، يعطي منهما من يشاء، ويحرم منهما من يشاء.

***

هل تعرفون من الذي كان يفهم عن الإله ذلك؟ مجموعة من أسوأ الهمج للأسف! ما قصتهم؟

الصينيون القدماء وبالأخص الذين عاشوا زمن حكم سلالة (شانج) كانوا يعاملون المرأة بكرم أخلاق لا ينكره أحد. حيث كانوا يقتلون البنات الشابات كقرابين للآلهة بشكل نظيف وصحي

قبل دفنهنّ، وهذه (چنتلة) بالفعل لو قارنت ذلك بما كان يحدث للشباب الذكور الذين كانوا يُقتلون كقرابين بعد أن يُعذّبوا بشكل جيد أولًا.

لم يكن حال أوروبا أفضل فيما يخص القرابين البشرية، حيث ذكر المؤرخ اليوناني (سترابو) أن (الكلت) كانوا يعذّبون الأضحيات البشرية لأنهم كانوا يظنون أن تشنجات موتهم ستحوي تسريبات من تعاليم الآلهة! وأما في أفريقيا فقد ذكر (جوستاف فلوبير) أن القرطاجيين كانوا يلقون بالأطفال في النيران إرضاءً للإله مولوخ حتى يتفضل عليهم بإنزال المطر. بينما في أمريكا الجنوبية نجد حضارة الأزتك التي تعتبر من آخر الحضارات عملًا بالقرابين البشرية، فنحن نتحدث عن ٥٠٠ عام فقط من الآن كان الأزتيّون قبلها يشقّون بطون بعضهم البعض ليستخرجوا القلوب النابضة حتى يبقى إله الشمس راضيًا عنهم على الدوام.

لم أكن أظن أن هذا الحماس الديني للتضحية سوف يستمر بنفس الإخلاص لو كان أبناء الأغنياء هم الذين يتم التضحية بهم بدلًا من أفراد الشعب البؤساء. غير أن (هربرت جورج ويلز) كان يخبرنا في كتاب (موجز تاريخ العالم) أنه في العصر الحجري الحديث كانت القبائل تختار أجمل وأرقى البشر للتضحية بهم من ذوي العائلات الرفيعة، هذا كان يُكسب قربانهم نوعًا من الأناقة. وأما العصر الحجري الوسيط فكان الإنسان منهم يعمد فيه إلى إيذاء نفسه بنفسه كجدع الأنف أو قطع الأصبع استمطارًا لنعم الآلهة.

كانوا متخلّفين عقليًا! لا شك في ذلك، يعيشون في ظلمات الوثنيّة ووساوس الشياطين التي أوعزت إلى الناس أن الإله يحب أن يرى الدماء حتى يرضى وتستمر علينا نعماؤه، بينما الله عز وجل فعلًا لا يريد منا إلا أن نعمل في الأرض صالحًا بعد أن نؤمن به إلهًا واحدًا.

ولكنك برغم كل ذلك لا تستطيع أن تغفل تلك اللمحة السائدة وسط كل هذه الشعوب من تعظيم (حق النعم)! كانوا يرون أن نعمة المطر أو بقاء ضوء الشمس أو رخاء ماء النيل، تحتاج من البشر إلى التضحية في سبيلها حتى يستحقوها، وأنه لو حدث وانقطعت عنهم في أحد الأيام لكان هذا معناه أن قرابينهم لم تكن كافية لإرضاء الآلهة.

كانوا يرون أنها سوف تكون صفاقة كبيرة منهم لو انتظروا تجدد هذه النعم في ارتخاء وعجرفة من ينتظر خادمه عائدًا بحاجته من السوق. كانوا يرون أن موقع الإنسان من الإله لا يعطيه الحق في أن يلهو في حياته مستمتعًا بكل هذه المنافع التي وجدها في الدنيا بدون أن يفعل أي شيء يقوم مقام شكرها. كانوا يرون أن الإله لو منع عنهم أو عن بعضهم جزءًا من نعمه فلن يكون من حقهم شكايته في أي محكمة أو التسخّط على أفعاله لدى أي قاض. كانوا يرون أن الإله (يتفضل) عليهم بالنعم، دائمًا هو يتفضل، ولو شاء وقطع أفضاله في أي وقت فهو ليس بظالم لهم، بل هم فقط لم يُضحّوا كفاية.

كانوا أغبياء دمويين همج، ولكنهم كانوا أعقل قليلًا من بعض المتحضرين اليوم الذين لم يُقدّروا الله حق قدره، وينظرون إلى أفضاله وكأنها حقوقهم، فإن وجدوها قالوا هذا لي، وإن افتقدوها قالوا قد ظلمنا ذلك الذي في السماء.

يعتبر الإنسان ذلك الذي يحسن إليه بإحسان ما لمرة واحدة أنه كريم، ولو مرتين أنه جواد، ولثلاث مرات أنه طيّب. وأما لو أحسن إليه ألف مرة فيعتبره بشكل ما يقوم بتأدية واجبه نحوه وليس تفضلًا منه أو منة! بل ويتهمه بالتقصير ويصب جام غضبه عليه في اللحظة التي يتوقف فيها عليه إحسانه. أين حقي يا هذا؟! ربما لهذا مثلًا قد نشعر بالامتنان للصديق الذي يعد لنا وجبة الطعام في السفر، وقد لا نشعر بهذا الامتنان لأمنا التي تعده لنا في كل حين.

وفي مقام الإحسان والمنن والعطايا فلا يوجد مثال أوضح من ذلك الرب الرؤوف ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**﴾ (طه ٥٠). أي أعطى خلقه كل شيء! منن الله عز وجل وعطاياه اعتدنا عليها في حياتنا دائمًا، ليس لأننا نستحق ذلك بشكل ما، ولكن لأن رحمة الله عز وجل وكرمه كانا أكبر منا ومن حقوقنا بكثير! فحين نفقد أحد هذه المنن في وقت ما نتلفّت حولنا بغضب ونقول: أين هي؟ أين الصحة التي كنت أملكها؟ أين المال الذي فقدته؟ أين كبريائي الذي تبعثر في هذا الموقف المحرج؟ أين درجاتي التي فقدت كرامتها في ذلك الاختبار العسير؟ أين سعادتي التي تاهت عن الطريق لقلبي منذ عدة أسابيع؟

كل هذه النعم كانت من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ تفضلًا منه ومنة. وليس أننا نستحقها منه أو نوجبها عليه بشكل من الأشكال! مجرّد وجودك في هذه الحياة هو أمر يعني أن الله قد امتنّ عليك وأذن بهذا الوجود. فلو مات الطفل في بطن أمه قبل أن يولد، أتراه كان يستحق شيئًا من الله فعلًا؟ أتراه قد حُرِمَ من شيءٍ كان واجبًا على الله أن يعطيه له؟

معنى أنك تتحرك الآن أن الله قد رزقك بأعضاء الحركة، فلو أن الله قد جعل أحدهم يُولَد مشلولًا، أيعني هذا أنه قد ظلمه؟ ومن الذي استحق من الله أصلًا بأن يرزقه بهذه الأعضاء؟ إنما هو محض تفضّل منه سبحانه، وحرمانه له -ولو افترضنا أنه لم يكن لحكمة وهذا افتراض خاطئ كما سنوضح بعد صفحات يسيرة - هو أمر خالٍ من الظلم تمامًا.

هذه النظرة الصحيحة للنعم بأنها ليست استحقاقًا نطالب به، بل محض تفضّل من المنّان، هي نظرة تتعارض مع الطريقة المُجحِفة التي يمتاز بها بعض الناس في نظرتهم للأمور! حين يرون أن كل نعمة هم فيها كانت بسبب أنهم (يستحقونها) وكل حرمان لديهم هو (ظلم) من الإله حين منع عنهم ما هو لهم! كما يحكي القرآن لنا عن حال أحدهم: ﴿**فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾ (الزمر ٤٩). أي أنه يقول أن هذه النعم قد أوتيتها على علم من الله بأني أستحقها.

هذا الغلوّ في الزهو والغرور ورؤية فضل النفس وأهميتها يصل إلى ذروته عند بعض الناس أحيانًا فيجعلهم يجزمون بأن هذا الفضل الإلهي كما كان لهم في الدنيا فلا بد أن يكون لهم في الآخرة، لماذا؟ لأنهم أهلٌ لذلك! ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ (فصلت ٥٠)!

ليت هؤلاء اطّلعوا على إجابات القرآن ليعلموا مدى الوهم الذي هم فيه، ليعلموا كيف أن علاقة النعم التي تربطنا بالإله كانت من اتجاه واحد، اتجاه المنة والفضل من الإله وحده!

***

لا تكفيني لحظات السعادة حتى أفكر في لحظات فقدها! أخاطب نفسي حين أستلقي مُعافًى على أريكتي، هل ستظل بنفس سعادتك تلك حين تفكر أنك غدًا قد تفقد ساقيك، عينيك، أحد والديك، زوجتك أو ابنتك؟ هل تشعر أنك على ما يرام حين تفكر في عجلة الفناء التي تدور عليك وعلى أحبابك؟! وأنت تفكر في كل اللحظات التي تقربنا من قبورنا، من مصائب أقدارنا، من عجز آخر عمرنا؟ حين تفكر أنك في كل عام تمر على يوم ميلادك فتسعد، وتمر على يوم وفاتك دون أن تلاحظ لأنك لم تعرفه بعد؟

لا تكفيني لحظات السعادة حتى أفكر: هل سأكون على ما يرام حين تُسلب مني في دنيا كُتب على كل ما فيها أن ينال حظه من الفناء؟ حينها أجيب نفسي: وماذا عن كل تلك الأوقات اللطيفة التي تمر عليك محمّلة بهدايا الإله قبل أن يدركها الفناء؟ هل كنت تطمع في جنة الأبد؟ هل كنت تطمع في خلد الرغد؟ وكم يكفيك يا هذا من السنين حتى تقنع؟!

في طرقات المشفى أجد الألم، أجد العواء والنحيب، لا يشعرني هذا بكبير كمد عليهم، فسويعات الألم الحاد ما أسرع أن تمر، إنما هي لحظات من الحياة قاسية ولكنها سوف تمر. ولكني أتسمر في كل مرة أرى فيها العجز، الشابة العمياء، والفتى المقعد، وهذا العجوز المسكين! العجز يعني امتداد من اللحظات القاسية إلى أن يشاء الله، ترى، أي صبر يحتاجون حتى يبقوا جذوة رضاهم عن ربهم في صدورهم متقدة؟! حين أرى العجز أتساءل عن حالي حين أكون مكانهم، هل أصبر كما أراهم يصبرون، أم يمتلئ صدري بالحريق؟ حينها أجيب نفسي: أتراك لو متّعك الله عشرين سنة ثم سلبك نعمه، هل ظلمك حين سلبك؟ أم أنه كان قد امتن عليك بلا مقابل منك بسنين من الخير عشرين؟ فكم يكفيك يا هذا من السنين حتى تقنع؟!

أحيانًا أخرى أسأل أسئلة أخرى، أقول لنفسي: ماذا فعلت؟ هل كانت لي من حياة قبل حياتي أفنيتها في السجود والصدقة فكافأني الله بجسد سليم، وعينين مبصرتين، وبيت واسع، وأبوين رؤوفين؟ هل خضعت إلى اختبار حين كنت في صلب آدم فنجحت فيه فكافأني الله بالخير والنعيم؟

هل أقدم في كل يوم مائة من القرابين الثمينة لمولاي فيأتيها لسان نار من السماء فيأخذها فأستحق استمرار هذه العطايا اليومية؟ ماذا فعلتُ لك يا ربي حتى تكافأني؟ أم أنها ليست مكافأة؟ أم أنها مجرد منح بلا ثمن؟ تعطيها لمن تشاء ولا تسأل عن الحساب؟ ترى لو أعطاك أحدهم منحة بلا سبب، هل يصل بك غرورك أن تظن أنه سوف يعطيك إياها إلى يوم الدين؟ فكم يكفيك إذن يا هذا من السنين حتى تقنع ؟!

أحيانًا أقول لنفسي، علي أن أمهر المعاهدة بتوقيعي! تلك المعاهدة التي تجزم بأني لن أتذمر حين أتذمر عن حق! أني لن أجزع حين يأتي يوم فناء النعم الموعود، أني لن أسخط حين يأتي آخر يوم من أيام الرغد الممدود. علي أن أمهر المعاهدة بتوقيعي، وأكتب تحت توقيعي، نعمي، وآلائي، وعطاياي المجانية، وبجانبها تاريخ اليوم.

وبأسفلها أدوّن: كانت السنون يا ربي كافية لي حتى أقنع .

٦

عن الصبر الذي لا مفر منه

"ألا إنه لا إيمانَ لمن لا صبر له"

علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كتب (صامويل بيكيت) مسرحية كاملة يدور محورها حول انتظار مجيء رجل يُدعى (جودو)، وتنتهي دون أن يظهر على الإطلاق! كان بيكيت (عبثيًا) Absurdist وكانت هذه فلسفته عن الحياة، أنها مجموعة من التوقعات الرائعة والانتظارات المرجوّة التي تخيب في غالب الأحيان.

إذا أردت أن تختبر فلسفة (بيكيت) فما عليك إلا سؤال الصائم هل كان دائمًا الكوب الأول من الماء عند الإفطار بنفس الروعة التي كنت تتوقعها تحت شمس الظهيرة المتوحشة؟ أو اسأل أي زوجين شابين مرّ على زواجهما عدة أسابيع، هل شعرت أنك كنت تبالغ قليلًا في تخيّلك لروعة الزواج؟ اسأل كل ناجح في دراسته إن كان قد شعر وقت النتيجة بنفس المشاعر التي كان يتوقعها وقادته إلى مواصلة الليل بالنهار، واسأل الذي ادخر أمواله وصرف إجازاته في سبيل رحلة مصيف إن كانت القاذورات التي داس عليها في قاع البحر وحبات الرمال التي التصقت بفروة رأسه كانت في نطاق توقعاته.

أحيانًا أشعر أن الإنسان مخلوق بجهاز أحلام داخلي أجمل بكثير من واقعه، أن تصميمه الداخلي يجعله دائمًا يبالغ في توقعاته. وكنتيجة لذلك تعتاد خيبةُ الأمل عتبةَ بابه، ولربما اعتادت بابه أكثر من اللازم فتصبح صاحبة بيت، ويبدأ الإحباط يفكر له بدلًا منه، ويتحول إلى النقيض، فيبدأ في توقع الأسوأ دائمًا.

جودو وغد! عليك أن تدرك ذلك. في أغلب الأحيان لا يأتي، في أغلب الأحيان لن تكون دنياك بنفس مستوى روعة أحلامك، كثيرًا ما ستشعر بصفعة على أحد خديك، وغالبًا ستكون مؤلمة، وسيتناسب هذا الألم طرديًا مع المسافة التي تفصل واقعك المرّ بحلمك السابق. قانون فيزيائي لن يتغير لأجلي ولا لأجلك. لن يحابي أحدًا ولن يراعي أنك لطيف وطيب القلب.

الحل بسيط، علينا أن نكف عن الأحلام وننزل إلى أرض الواقع. لكن الكلام رخيص، فنحن لن نستطيع أبدًا أن نكفّ عن الأحلام والتوقعات العالية! ببساطة لأنها ألذّ من اللازم، وأجمل من أن تُترك! لأننا نحتاجها حتى نشعر بالحد الأدنى من الحماس الذي يُنهضنا من على مرقدنا صباحًا.

فلو لم نستطع تغيير الحلم، فلنغيّر الواقع نفسه إذن! والجميل أن هذا مقدور عليه! يمكننا ألا نصاب بخيبة الأمل على الإطلاق. يمكننا أن نجعل أقدار الله لنا بنفس الروعة التي في أحلامنا! ولربما أروع. يمكننا أن نصاب بنوع من التعالي الصحي على الحياة الدنيا، فنشعر أننا أكبر وأهم من أن تأتينا دنيا سخيفة بشيء على غير مرادنا، أو أن تسبب لنا إحباطًا أو يأسًا. يمكننا أن نخدعها فتفعل بنا الأفاعيل فنفاجئها بأن هذا ما أردناه أصلًا، وأنها لم تفعل شيئًا بهذه المصيبة أو تلك إلا تحقيق رغبة أخرى من رغباتنا.

حينها سيموت جودو إلى الأبد. لأن الواقع ولو خالف حلمنا، فلن يخرج عن كونه متعة أخرى ولذة أخرى وأجر أكبر! أمر عجيب فعلًا، حتى النبي ﷺ نفسه تعجب منه حين قال: «عَجَبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليسَ ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمنِ، إن أصابته سراءُ شكرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابَته ضراءُ صبر، فكان خيرًا له».

يعملنا (أيوب السختياني) كيف نتعامل مع جودو فيقول: «إذا لم يكن ما تريد، فأرد ما يكون»!

الصبر هو ذلك المفتاح الذي يغير الواقع من حولك إلى واقع آخر ترضاه، فقط حين ترضى عنه! هذه ليست فلسفة وعظية فارغة، بل هي إذعان لإحدى حقائق الحياة المرة، وهي أن كل الناس يُبتَلى، وجزعك عند المصيبة لن يضر أحدًا غيرك، وفهمك لحكمة الله منها هو فقط ما سيكفل لك الصبر عليها، ويوضح عمار بن ياسر الفرق بين من يدرك ذلك ومن لا يدركه فيقول: «إن المسلم ليُبتَلى بالبلاء فتحط عنه ذنوبه كما تحط الورق من الشجر، وإن الكافر ليُبتَلى بالبلاء فمثله مثل بعير أُطلق فلم يدرِ لمَ أُطلِق، وعُقِلَ فلم يدرِ لمَ عُقِل». وربما لأجل هذا قال النبي ﷺ: «ما أُعطِيَ أحدٌ عطَاء أوسع من الصبر»!

كان سفيان الثوري يقول: «يحتاج المؤمن إلى الصبر كما يحتاج إلى الطعام والشراب»، ويقول ربيعة الجرشي: «لو كان الصبر من الرجال لكان كريمًا»، وقيل للبطال: ما الشجاعة؟ قال: «الصبر ساعة»، ورأى إبراهيم التيمي رجالًا في أغلال سجون الحجاج فقال لهم: «إن الله قد رآكم أهلًا ليختبركم، فأروه أهلًا أن تصبروا له». ويلخص عبد الله بن المبارك الأمر فيقول: «من صبر فما أقل ما يصبر، ومن جزع فما أقل ما يتمتع».

سألنا القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (الفرقان ٢٠)؟؟

ومهما كان جوابنا، فقد ذكّرنا الله في ختام الآية بأن: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان ٢٠).



عن السعادة التي هي أعقد مما نظن

"النجاح هو أن تحصل على ما تريد،

السعادة هي أن تريد ما حصلتَ عليه"

ويليام باتريك كينسيلا

صديق فاز لتوه باليانصيب (٣١٤ مليون دولار) وصديق آخر أصيب بشلل نصفي في حادث، لو عدنا إلى كليهما بعد مرور عام، أيهما سنجده أكثر سعادة؟

في محاضرة له، عرض عالم النفس الأمريكي (دانييل جيلبرت) دراسة تتبعت مجموعتين من الناس، المجموعة الأولى تضمنت ٢٢ من رابحي اليانصيب والمجموعة الثانية فيها ٢٩ من المصابين بالشلل في الحوادث، وبعد عام تبين أن مستوى السعادة لكل من المجموعتين متساوٍ! لم أصدق ذلك بالطبع، الناس يتحدثون بالهراء طوال الوقت، ولا أجد سببًا يجعل من (جيلبرت) استثناء، لذلك بحثت عن أصل هذه الدراسة حتى وجدت الورقة العلمية التي نشرها الباحثون (بريكمان) و(كوتس) و(بولمان) في ١٩٧٨، وكان جيلبرت صادقًا بالفعل.

هل فكرت مرة وأنت في أحد الأسواق التجارية الكبرى أن تلقي نظرة على وجوه الذين يشربون قهوتهم مع الـ dessert في ستارباكس وبجانبهم عدة مئات من أكياس بضائع Zara و Armani، هؤلاء الأوغاء الأغنياء، هل يبدون لك حقًا أسعد من غيرهم؟ أم أنك تلاحظ تلك اللمحة على وجوهم التي تخبرك أن مستويات السعادة لا بد أن تكون أعمق مما تظن!

في أواخر الثمانينات أُجري مسح على ١٧٠ ألف شخص في ١٦ دولة صناعية باستمارات استبيان قياسية، تبين أن مستوى الرخاء الاقتصادي للدولة ومتوسط سعادة أفرادها لا يرتبطان، دخل الألماني كان ضعف دخل الأيرلندي، لكن الأيرلنديين كانوا أسعد، البلجيكيون كانوا أفقر وأسعد من الفرنسيين، وأما اليابان فكانت من أثرى الشعوب وأتعسها في نفس الوقت!

ماذا عن الأفراد داخل الدولة الواحدة؟ ماذا لو قارنّا الفقراء والأغنياء؟ بحوث كثيرة، منها دراسة أجريت في (إلينوي) عام ١٩٩٣ اتفقت نتائجها جميعًا أن الأغنياء كانوا أسعد من الفقراء ولكن بفارق ضئيل جدًا، وأنه بشرط توافر الحاجات الأساسية للإنسان وهي (السكن والطعام والملبس والصحة) فإن أية فروقات في الدخل تسبب فروقات طفيفة جدًا في السعادة. هل يذكرك ذلك بـ: «من أصبح آمنًا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»؟

دراسات أخرى أثبتت خطأ توقعاتنا الأخرى عن السعادة، البيض في الدول العنصرية ليسوا أسعد من السود، خريجو الجامعة ليسوا أسعد من خريجي الثانوية، والشباب ليسوا أسعد من المسنين.

ما سبب ذلك؟ وما الذي يصنع السعادة إذن؟ كان هذا هو هدف دراسة طويلة تمت في أربع سنوات على ٧٠٠٠ شخص، أعيد مسح ٥٠٠٠ منهم بعد ١٠ سنوات، ليخرجوا بأن من تعرضوا لتغييرات عنيفة في حياتهم مثل الطلاق أو الهجرة أو الإفلاس، لم يكن لهذه التغيرات أي أثر على سعادتهم على المدى البعيد! إنه وكأن كل واحد منا لديه (نصيب) معلوم من السعادة، مقدار معين لا يتأثر على المدى الطويل بأحداث حياته، وهو ما يسميه علماء النفس بالـ Set point.

الـ Set point هي أشهر النظريات النفسية الآن للسعادة، يقولون أن كل واحد منا لديه نقطة ضبط معينة لحالته المزاجية، قد تفوز بثلاثمائة مليون دولار في اليانصيب، وتتقافز في الشوارع فرحًا، ولكنك سوف تحتاج إلى ثلاثة أشهر فحسب حتى تعتاد على ذلك وتعود إلى نقطة ضبطك المعتادة. قد تصاب بالشلل النصفي في حادث ويقطّع الكرب فؤادك ولكنك سوف تحتاج من ثلاثة إلى ستة أشهر فقط في الغالب لتعود إلى نصيبك المعتاد من السعادة.

وهكذا، خلقنا الله لتقرصنا الحياة أو تغدق علينا من خيراتها هنا وهناك، ولا ندري أنا في النهاية سوف نتلاقى على ذات المقاعد الخشبية المتماثلة الخالية من حماس البدايات أو لوعات الفجأة. خلقنا الله بطريقة تضمن لكل واحد منا ألا يصاب في الدنيا بأكثر من قدرته على التحمل، أو أن يُنعّم بأجمل من قدرة الحياة على اختباره! خلقنا الله نتكيف، نعتاد، نتملص، ونملّ!

خلقنا الله في دنيا كل ما فيها يفنى، كل ما فيها ينتهي، كل ما فيها ينفد! الخير والشر، الرزق والمنع، السرور والكسور، كل ما عندنا ينفد: ﴿**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (النحل ٩٦) فقط الذين صبروا يستحقون أن يجزيهم الله بأحسن ما كانوا يعملون!

كان الحكماء قديمًا يقولون: الصبر ساعة، صاروا الآن فقط يقولون: الصبر ثلاثة أشهر!

٨

عن الشر الذي هو ليس كذلك

"لا أبالي على أي حال أصبحت، فيما أحب أو فيما أكره لأني لا أدري الخير فيما أحب أم فيما أكره"

عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

هناك قصة فانتازيّة شهيرة جدًا في التراث الغربي، تُدعى (موعد في سامرّاء)، القصة من تأليف الكاتب البريطاني (سومرست موم) -والتي لها أصول في التراث الإسلامي، فنجد مثلها في (الحلية) عن خيثمة مرويّة عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ- وهي عن التاجر الذي يسكن في بغداد وأرسل خادمه إلى السوق، فيرى الخادم ملك الموت يحدق فيه بثبات، ففزع منه وشعر أن موعد موته قد حان. فامتطى جواده وانطلق يعدو نحو سامرّاء. فلما رأى التاجرُ ملكَ الموت بعد ذلك سأله لماذا كنت تحدق في خادمي حتى أفزعته؟ قال لم أقصد أن أخيفه ولكني كنت متعجبًا جدًا من وجوده في بغداد، حيث إني من المفترض أن أقبض روحه غدًا في سامراء!

خطرت هذه القصة على ذهني حين فكّرتُ بأن مريض السكر يعيش طوال حياته يعاني من ارتفاع السكر في الدم، ثم قد لا يموت بعدها إلا بغيبوبة نقص السكر! بينما مرضى الضغط العالي الذين قد يعانون أصلًا من زيادة كمية الدم في عروقهم فإنه من أسباب موت بعضهم هو الهبوط النزفي الحاد للدورة الدموية! والطفل الذي يعاني من الجفاف، قد لا يقتله إلا الطبيب حين يحاول أن يعيد إليه السوائل بطريقة سريعة (Overhydration)!

الهروب إلى سامرّاء يتكرر كثيرًا في دروس الطب. ولكنه يتكرر أكثر في دروس الحياة!

كم من رجل ادّخر أمواله لشراء سيارة فارهة، كانت بعد ذلك تابوته الحديدي السامرّائي على قارعة الطريق. وكم من مجتهد للوصول إلى كلية، أو درجة وظيفية، أو مكانة علمية، صارت بالنسبة إليه المعنى المجسّد للفشل واليأس. وكم من حبيبين قد وصلا في الرومانسية إلى حد الزوجة، ثم هما الآن في محاكم الطلاق، وعلى وجههما أعتى علامات البؤس والعذاب، لقد فرّ كل منهما إلى سامراء الخاصة به!

في مدرسة الحياة نتعلم أن الإنسان لا يتعلم أبدًا من مدرسة الحياة! أنه يسعى أحيانًا إلى جنته، ولا يدري كم ألوان العذاب التي قد تحويها جنته، أنه يهرب من شقائه ولا يتخيل لكم سيشتاق إليه!

ظاهرة الفرار إلى سامرّاء لا تحدث بسبب رغبة ذاتيّة غامضة في تحطيم الذات. ولكن بسبب الجهل الإنساني المتوغّل والذي يكون جهلًا مركبًا في معظم الأحيان! الجهل بأنك تجهل!

هذا الجهل -وبعد أن نلاحظ نتائجه في تجربة لنا أو اثنتين- يدفعنا إلى اليقين في أننا لسنا أفضل من نخطط لأنفسنا طريق الحياة والنجاة فيها. التسليم لهذه الحقيقة هو ما تهدف إليه الآية التي تذكرنا بـ: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة ٢٦٦)!

لذلك كان يقول ابن عمر: «إن الرجل ليستخير الله فيختار له فيتسخط على ربه! فلا يلبث أن ينظر في العاقبة فإذا هو خير له». وكان يقول (علي عزت بيجوفيتش) وهو في السجن: «لقد أنقذتني هذه المحنة الكبرى من مئات المحن الصغيرة التي كان من الممكن أن تأكلني وتستنزفني كل يوم بشكل منتظم شيئًا فشيئًا».

***

عملية اختيار المصير لو كانت بأيدينا نحن، لكنّا فرحنا في البداية، ثم دمّرنا كل شيء بعد ذلك، ثم ندمنا على ما فعلنا في نهاية الأمر!

فَبِداخل كل منا طفل صغير يتمنى لو كان للحياة لوحة keyboard. تخيّل كم اللذات والمتع التي ستحصل عليها لو كان لديك زرّ (Search) عندما يقرر هاتفك المحمول أن يختبيء أسفل المكتب، ولا يحلو له ذلك إلا لو كان صامتًا! أو عندما تجد زرّ (Refresh) في لحظات السأم والتعب! تخيل لو تستطيع أن تنسخ من محبيك عدة نسخ وترفعها على بريدك الإلكتروني كاحتياط في حالة فقدهم! تخيل لو تستطيع أن تضغط على (Undo) بعد أن تتلفظ بكلمات غبية تسيء إليك أو إلى أحد أصدقائك في أحد المحافل العامة!

أن تتحكم في حياتك، وتأخذ بزمام الأمور، لهو حلم بشري عتيد. من منا لم يندم أو يتحسر على مفقود؟ من منا لم يتمنَّ وصل المحبوب؟ من منا لم يبكِ في لحظات الشعور بالضياع، وفقدان الأمل، وينظر حوله في ذهول متسائلًا: ترى ما أحضرني هنا؟ من بنى هذه الجدران الأربعة؟ وماذا أفعل في هذا المكان؟!

والآن تخيل لو أنك أُعطيتَ هذه القدرة في مساحة محددة هي جسدك! حاول أن تشكّله كما تشاء. أستطيع أن أتخيل أنك ستتصرف بنفس الحماقة التي كنت سأتصرف بها.

ستجد أن كل عضلة من جسدك أقصر من اللازم، أقصر من المسافة بين المنشأ Origin والمدخل Insertion . تمط شفتيك متعجبًا ثم تقوم بإطالتها إلى الطول المناسب، فقط لتتسبب في ضياع (الشدّة) الانقباضيّة الدائمة فيها Tone وتضمر هذه العضلات للأبد!

ستحاول تنظيف أمعاءك الخاصة بك من كل البكتيريا القذرة Flora التي فوجئتَ بأنها تستوطنها كسكن دائم لها! ولكنك ستدرك الخطأ الذي وقعت فيه حين ترى كم الالتهابات التي ستصاب بها حينها والتي كانت تحميك منها هذه الطفيليات الكريهة!

ستفكر في أنك تحتاج إلى المزيد من مصانع الدم، ستجد أنه ليست كل العظام ينتج نخاعها خلايا الدم، فتقوم بزرع نخاع عظمي نشط في كل عظمة، بما فيها عظام الوجه، فينتفخ وجهك ويتضخم ويتشوه تمامًا!

ستضاعف قوة الجهاز المناعي لتحمي جسمك أكثر من أمراض العدوى، فقط لتقع في أحضان أمراض المناعة الذاتيّة (Auto-immune diseases) حين يقرر جهاز مناعتك الجديد الشرس أن يهاجم خلايا جسدك الخاص!

بعد عدة محاولات خرقاء ستفطن أخيرًا للحقيقة. أنك لست أفضل من يدبر حال نفسك. بل على الأرجح أنت أسوأ من يدبر حال نفسك!

لو أن الله قد ترك لك تدبير جسدك لتسببت في دماره في عدة دقائق. فلماذا أيها المسكين تظن أنك قادر على تدبير أمر حياتك كلها، وتحزن لأنك لا تستطيع ذلك؟!

بينا الحال مع الله جَلَّجَلَالُهُ جدّ مختلف. فاللهُ يعلم!

يعلم ما في الشهادة، ويعلم ما في الغيوب. يعلم على أيّ حال ستنهي يومك، في أيّ مجال سيجول خاطرك الآن. يعلم في أي سحابة تقبع نقطة الماء التي ستروي عطشك في يومٍ ما بعد العودة متعبًا من العمل، ويعلم اسم اللحّاد الذي سيقلبك على يمينك في قبرك.

إنها حقيقة نختبرها في كل حين. أن البون الشاسع بين جهلنا المطبق وبين علم الله، لا يعطينا أبدًا الحق في الشكوى من أي شيء يصيبنا منه.

هذا البون الشاسع لا نملك معه إلا أن يقودنا إلى الرضا الغريب عن كل ما نكرهه، إلى التصديق التام لكل ما يقوله، إلى الاستسلام الكامل لكل أمر، إلى الحذر البالغ من كل نهي. يدفعنا إلى رؤية الحق والخير في كل ما يقذفه إلينا من تشريع أو تقدير.

لماذا؟

لأنه يعلم ما تجهله القلوب.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (سبأ ٤٨)!

٩

عن الحكم التي قد تخفى

"لولا مصائب الدنيا لقدمنا على الله مفاليس"

إبراهيم المغربي

مهما كان المركز الذي يحتله الطعام في قلبك، ومهما كان الرقم الذي يظهر لك على ميزانك، فإننا جميعًا وبلا استثناء قد جربنا تلك اللحظة المريضة التي نتعرف فيها على لؤم الجوع حقًا، ونعرف لماذا أجمعت الأمة على تكفيره! حينها لو خلوْت بطبق تشتهيه من الطعام تذوق أجمل معاني الحب، إنها العاطفة الصافية التي لم تلوّثها الضغائن. والعشق المجنون الذي كان سيجعل قيسًا يخجل من فشله.

وبعد أن تنتهي المذبحة، وتستلقي على الأريكة بزاوية ١٢٥ لتساعد حجابك الحاجز على القيام بعمله وإبقائك على قيد الحياة. حينها لربما أنت تفكر في عدد الملايين من البشر الذين يعانون في هذه اللحظة بالذات مما كنت تعاني منه قبل عدة دقائق! وكم يا ترى تكون نسبة من سيحصلون على مثل هذا الطبق العزيز من هؤلاء المساكين؟!

تكبر قليلًا وتراقب في سعادة مغتاظة، أو حزن مستلذ، زميلك الذي كان يجلس بجانبك في درس الكيمياء، وهو يسير بجانبٍ كائن منفوخ البطن، ويحمل كائنًا آخر منفوخ الخدود. فتسعد له وتغتبط، ولكنك أيضًا تتأثّر وتتذمّر، وتُحبَط وتتحسّر، لأنه لم يحن موعد زواجك أو إنجابك إلى هذه اللحظة. يجعلك هذا تفكر في حال المساكين الذين زاروا ساحل الأربعين من العمر، ولمّا يُرزَقوا بعد!

وهكذا.. في كل مرة تذوق نوعًا من الألم، تفطن إلى حجم خزانة هذا الألم من حولك، تفطن إلى معنى جديد من معاني المعاناة، وهي أن تعاني من كثرة ما تراه من المعاناة! أن ترى هذا وذاك من المبتليْن فتشعر بالحزن لحزنهم، وتتمنى لو كان بإمكانك أن تشتري فرحتهم بكل ما تملكه.

لو صارت أصوات البشر من حولك تتناغم وتتآلف وتُختصَر في صوت واحد، لسمعت صوتًا يشبه في بعض جوانبه صوت الأنين.

الأنين هو صوت المحرومين. هو صوت المحتاجين. هو صوت ذلك الذي لا يجد ما يحتاجه من مال، وتلك التي لم تكن دنياها على مستوى حلمها. صوت الشاب الذي لم يَصِرْ زوجًا، وصوت الزوجة التي لم تَصِرْ أمًّا.

وهو أيضًا صوت ذلك الجنين في بطن أمه وهو يعاني من كمية الأكسجين الشحيحة المارة بحبله السرّي. صوته وهو يتساءل لماذا لا يحصل على ما يحتاجه؟ ولماذا يكون رزقه شحيحًا؟ دون أن يعلم أنه لولا هذا الحرمان الهوائي Hypoxia التي تعيشه خلايه، ما كانت أفرزت كليتاه هرمون الـ Erythropoietin وأنه ما كان ليحصل بفضل ذلك على معدلات هيموجلوبين تتجاوز حد العشرين! مع العلم بأن هذه المستويات العالية من الهيموجلوبين في خلاياه هو السبيل الوحيد له كي لا يشعر بحرمان هوائي حقيقي بعد الولادة.

قد حصل الجنين على إجابته إذن!

حرمانه مما يحتاج، كان هو عين ما يحتاج!

إن صوت الأنين المتصاعد يسأل عن حاجاته، عن إكمال أرزاقه، عن أحلامه وأمانيه. يجيبه صوت آخر شجيّ يتصاعد من مكان ما ويتلو علينا قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ (الشورى ٢٧)!

لم يكن الله أبدًا ببخيل أو شحيحة يداه! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يمينه ملأى، كريمٌ يعطي بلا حساب ولا حد ولا مراجعة. ولكن لعله قد حرمك من هذه النعمة أو تلك لأنه يعلم أنك تحتاج إلى هذا الحرمان أكثر مما تحتاج إليها فعلًا! لذلك يقول الله: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾ (الحجر ٢١).

ربما الكثير من الناس يظنون أن (الأخذ) أفضل دائمًا من (المنع). وأن كل ناقص لديهم سيكون أجمل لو اكتمل. بينما في الحقيقة قد يكون النقص هو عين الحسن!

فالغمّازات التي تجمّل الوجه هي في الواقع (ضعف) أو انشقاق في عضلة من عضلات الوجه اسمها: Zygomaticus Major ! والعيون الزرقاء الجميلة كان سبب زرقتها هو (فقرها) من الخلايا الصبغيّة في قزحيّتها! بينما الشعر الناعم الأملس أصبح كذلك لأنه (ليست لديه) طبقة نخاعيّة غنية بالبروتين كتلك التي تملكها الشعور الخشنة المجعدة!

هناك أمثلة كثيرة للفكرة الفلسفية ذاتها. أحيانًا كثرة الموارد أسوأ من قلتها، أحيانًا بطر النعمة لا يقل سوءًا عن ألم الفقد، أحيانًا يكون عدم كمالك هو سبب جمالك! لذلك كان بعض الحُكماء يقولون: «واعلم أن نعمة الله فيما منعه عنك أعظم من نعمته فيما أعطاك»!

غير أنه من العسير علينا تصديق ذلك. أو على الأقل من العسير أن نصدق ذلك الآن. ولكن لّما نصاب بالفعل بتجربة أو اثنتين سوف نتأكد من هذا بأنفسنا.

هذا ما وقع للناس الذين عاصروا مال (قارون) ورفاهيته فتمنّوا ما كان عليه من هذا النعيم. هذا التمنّي الذي كان شديدًا لدرجة أن هناك من العقلاء من نصحهم وقال: ﴿**وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ (القصص ٨٠). فلم يأبهوا كثيرًا بنصيحتهم! ولكن لّما رأوا بأعينهم أن رفاهية قارون جعلته مفسدًا في الأرض، وأن هذا الفساد جلب عليه الوبال والغضب الإلهي والعقاب الشديد. لّما رأوا بأعينهم كل هذا وشاهدوا بيت قارون مخسوفًا به الأرض، حينها فهموا وأدركوا: ﴿**وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾ (القصص ٨٢)!! الآن رأوا أن حرمان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم كان نعمة ومنة! الآن شاهدوا فضل الله في منعه بعد أن كانوا يشاهدونه فقط في عطائه!

لا يقتصر الأمر على المنع فقط، ولكن حتى الضرر الواقع، فقد يكون أحيانًا رحمةً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يعلم عنك أكثر مما تعلمه عن نفسك، ويعلم أن ربما كان هذا العطاء سببًا في فسادك بعد ذلك، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ (المؤمنون ٧٥). هؤلاء صنف من البشر وحالة من أحوالهم يعلمها الله عنهم أن لو رفع عنهم ما يشتكون منه لاستمرّوا في ضلالهم وظلمهم دون أن يردعهم رادع أو يوقفهم انكسار!

في أحيان أخرى فإن السبب وراء هذا المنع أو هذا الضرّ أن يكون محض اختبار من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليصفّي به هذه الصفوف والصنوف المختلطة من البشر!

فهؤلاء الذين يدّعون أن جميعهم أبرار أتقياء يراقبون الله في أفعالهم في السراء والضراء، فلنرَ إذن ما هم بفاعليه حين تُضيّق عليهم الأموال والأرزاق ويكونون في فقر وحاجة ثم تسنح لهم فرصة الغش أو السرقة، هل يستغلونها؟! أم يصبرون؟! لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ (البقرة ١٥٥). ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾ (محمد ٣١).

في المقابل فإنه لو لم يكن هناك تضييق وكان الاختبار بهذه السهولة لنجح الجميع، واختلط من يستحق بمن لا يستحق وسط هذه الجموع الناجحة! لذلك يقول اله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ (آل عمران ١٧٩). بل تعجّب القرآن

من هؤلاء الذين ظنوا مجرد الظن أن عدل الله وحكمته يسمحان بأن يمضي الناس ويعبروا من الدنيا على الآخرة دون أن تحدث مثل هذه التصفية، فيقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت ٢-٣).

هناك حكمة أخرى أنبأنا الله بها لمثل هذه البلاءات غير الرحمة والتصفية، وهي حكمة الإنذار والتهديد! أن يذوق ذلك المعتدي أو تلك المتسلّطة جزءًا يسيرًا من عقاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الدنيا، لعل ذلك يعيد إليه رشده، مثل الصدمة الكهربائية التي يستخدمونها مع مرضى الذهان العقلي، شيئًا من العذاب يراه المتجبّر فيخاف ممّا هو أكبر منه من العذاب. هذه الحكمة قد أخبرنا بها القرآن حين قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة ٢١).

غير أن المجرمين يتفاوتون في إجرامهم، ولأن هناك من الناس من لا يمنعهم عما يريدون من الضلال شيء، وسيتصرّفون دائمًا بنفس الغباء التقليدي الذي امتازوا به في ظنهم أنهم لن يقدر عليهم أحد. لذلك لن ينتفع كل الناس بهذا الإنذار الربّاني! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (التوبة ١٢٦).

وهناك من الناس من هم أقل من هؤلاء إجرامًا. الصنف المنتشر من البشر الذي يصيب ويخطئ، ويتأرجح بين الضفتين. نحن نعرف هذا الصنف بالذات أكثر من أي صنف، لأننا جميعًا منه وبلا استثناء. وقد وضّح لنا القرآن أننا قد أخذنا حظّنا أيضًا من الأضرار الواقعة والحرمان من الأرزاق، بسبب ذنوبنا وآثامنا وأخطائنا الكثيرة. إن الإله الرحيم -ولأنه رحيم- سوف يقوم بمعاقبتنا عليها بشكل سريع وبسيط في الدنيا، وسيبقى ذلك أخفّ وأفضل كثيرًا من أن تدّخر عقوبتنا في الآخرة!

هذا هو ما يُعرَف باسم (تكفير الذنوب) وهو أمر تحب أن يحدث معك بالتأكيد، لأن الصداع، أو الشجار مع زوجتك، أو (الحكّة) اليسيرة في جانب سيارتك الجديدة، سيبقون دائمًا وأبدًا أسهل وأيسر وأرحم من نفحة من عذاب ربك يوم القيامة! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران ١٦٥). ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء ٧٩).

لذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: «يكفر الله عن المسلم حتى بالنكبة وانقطاع شعسه والبضاعة يضعها في كمه فيفقدها». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إذا كان الرجل

مقصرًا ابتُلِيَ بالهم ليكفر عنه». وقال الحسن: «إنا إن لم نؤجَر إلا فيما نحب قل أجرنا، وإن الله كريم يبتلي العبد وهو كاره، فيعطيه عليه الأجر العظيم».

غير أننا نكون قد أسأنا بالله الظن، وأحسنّا الظن بأنفسنا إلى أقصى حد لو تخيلنا أن كل ما نخطئ فيه يُردّ إلينا بهذه العقابات البسيطة! فالحقيقة أن ذنوبنا وآثامنا أكثر بكثير من قدرتنا على العدّ، بينما كل ما نكرهه مما يصيبنا فهو أقل من ذلك بما لا يُقاس! لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾ (الشورى ٣٠). لذا لما كان (عمران بن حصين) يبتلى في جسده كان يقول: «ما أراه إلا بذنب وما يعفو الله أكثر»!

***

وهناك حكمة خامسة، تتمثل في شرح وتفسير ما يحدث لهؤلاء الصالحين من تضييقات، هؤلاء أخيار بالفعل، فلماذا يتعذّبون بكل هذه الأضرار؟!

يخبرنا القرآن أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إنما أراد لهم علوّ المكانة التي قد تأتي بطبيعتها ببعض الألم! وأنه أحب أن يسمع منهم دعاءهم وشكواهم وسؤالهم، فأعطاهم سببًا لهذه الشكوى منهم! مثل مريم عليها السلام التي أراد الله أن يرفع ذكرها إلى يوم القيامة بين معظم الجنس البشري! ومن أجل ذلك كان عليها أن تتحمل الكثير من البلاء، لدرجة تمنّيها الموت! كما أخبرنا القرآن عنها: ﴿**فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ۞ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا**﴾ (مريم ٢٣ -٢٤).

***

إذن فحكمة الله قد تخفى علينا بعض الأحيان! وقد تتنوع هذه الحكم ما بين الرحمة بعباده الذين لا يعلمون ما كان سيصيبهم لو كانوا حصلوا على مرادهم، وبين التصفية والغربلة لصفوف الناس الذي يبدون قبل البلاء على سواء، وبين الإنذار الإلهي لهؤلاء الذين أجرموا في حق أنفسهم علّهم يفيقون قبل فوات الأوان، وبين المعاقبة الفوريّة السريعة على بعض من ذنوبنا الكثيرة لترفع عنا عقوبة الآخرة الأشدّ، وبين الرفعة الإلهية التي قد تأتي إلى عباد الله الصالحين في صورة متخفّية، ولكن هؤلاء العباد الصالحون يفهمونها أكثر منّا على كل حال!

وهناك من الحِكَم ما هو أكثر وأكثر مما لا نعلمه، وقد لا نعلمه أبدًا!

هذا لا نجيده بطبيعة الأمر! ولكن ما يجيده بعضنا للأسف أن يأتي إلى صورة الحزن، صورة المرأة الباكية، أو العجوز المكسور، أو الأرض الخربة، أو الدماء المتناثرة، أو الفقر اللئيم. يأتي إلى هذه الصور فيطيل التحديق فيها ثم يسارع في الخروج من مسرح الحياة قبل أن يكتمل العرض، قبل أن يرى مشهد النهاية، أو أن يتساءل حتى عمّا وراء الكواليس!

١٠

عن الشر المجاني

"بسبب عدم محدودية علم الله ومحدودة علمنا، فإن غموض الشر في هذا العالم هو ما علينا أن نتوقعه"

ستيفن وِيكسترا

«كل الناس تظن أنها تملك أفضل كلب في العالم، ولا يوجد أحد منهم على خطأ»! هكذا قال (بورش) معبرًا عن حب جميع الناس للكلاب، تلك الكائنات المسكينة التي تثير الشفقة بنظرة إلى طعامك حتى يمكنك أن تتركه كله له عن طيب خاطر فلا تندم. لسبب ما لا يشفق الناس بذات الطريقة على الصرصور، برغم أنه لا يؤذي أحدًا هو فقط يريد أن يحصل على طعامه ويرحل، ولكننا مستعدون دائمًا لإطعامه ضربة سريعة من الحذاء لمجرد أن شكله قبيح. لذا فالسؤال: هل نحن نحب الحيوانات حقًا أم أننا فقط نحب من (يصاحبنا) منهم؟

لاحظ (سيتورات جوثري) والذي كتب كتابًا حول نسبة المشاعر الإنسانية إلى الحيوانات أن (أنسنة) كل شيء من حولنا ليس محصورًا في الحيوانات فقط، بل نحن نتحدث طوال الوقت إلى النبات والسيارات وأجهزة الكمبيوتر، وأن «الدافع لاكتشاف صفحات الوجوه على السحب والأغصان المتشابكة والأشكال الأخرى غير البشرية، والشعور بوجود إنسان يتحدث من خلال أصوات مبهمة من الليل، يبدو أمرًا عالميًا»!

وهذا شبيه بالمشكلة الأخرى التي تحدث عنها عالم الأحياء التطورية (ريتشارد لوينتون) وسماها بمشكلة (التشابه والتناظر) Analogy & Homology فالتناظر يعني خصائص مختلفة في كائنين ولكن لهما أصل جيني أو تشريحي مشترك، مثل جناح الخفاش وذراع الأسد. فكلًا منهما هو ذراع لدى كائن ثديي. وأما التشابه فيعني صفات متشابهة لدى كائنين ولكن ليس بينهما أية صلة، مثل جناح الخفاش وجناح النسر! بالتأكيد يبدو لك جناح الحشرة أقرب صلة لجناح النسر من ذراع الأسد، ولكن هذه ليست حقيقة. التشابه موجود فقط في عين الملاحظ!

هذا التشابه في عين الملاحظ هو ما يجعلنا نظن أن العبودية والملكية في عالم النمل والنحل مثل العبودية والملكية في عالمنا، بينما في الحقيقة ملكة النمل هي كائن حبيس في ركن ما من البيت يقوم بالتبويض باستمرار لإنتاج أفراد أخرى، وليس لها من بعد ذلك أية سلطة أو مكانة خاصة. كذلك فالخجل والعداونية والأنس وغيرها من الصفات لدى البشر ليس لدينا أي دليل على أنها هي هي ذات الصفات لدى الحيوانات. نحن فقط نقوم بأنسنتهم بانتظام بناء على التشابه المُلاحَظ.

ولكن هل الألم استثناء؟

كان ديكارت يرى أن الحيوانات لا تتألم ولكن تصدر فقط رد فعل آلي غير واع. بينما أخبرتنا السنة النبوية أن الحيوانات تشعر بالألم بالفعل، فمن ذلك لعن النبي ﷺ لذلكً الرجل الذي وسم الناقة، وإخبارنا بمصير المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها، أو تلك التي دخلت الجنة في كلب، أو دعوته لنا العامة بالإحسان إلى الحيوانات ورحمتهم في قوله: «في كل كبد رطبة أجر». ولكن هل هو ذات الألم الذي نشعر به؟

ذكر عالم الإيثولوجي (علم دراسة سلوك الحيوانات) جون جودال في كتابه الذي كتبه بالاشتراك (القتلة الأبرياء) أن تجربة مشاهدة الحيوانات الضارية وهي تفترس ضحاياها وبرغم ما في المشهد من ألم إلا أن التجارب وضحت أنهم يموتون في غضون دقائق يسيرة ولا يشعرون بكبير ألم. هذا غير مزية أخرى للحيوانات وهي غياب الوعي، فالحيوانات لا تملك رؤية ذاتية بتجربتها وليس لديها إحساس واع بذاتها بشكل غير متقطع على مدار الحياة. وتتفق الدراسات الفلسفية للوعي أن الوعي عند الكائنات الحية متدرج غير موحّد، وليس على شكل واحد. وأما أكبر الميزات التي تمتلكها الحيوانات هي أنها لا تملك القدرة على (مراكمة) الألم. فكل الألم لديهم لحظي، لا يتذكرونه ولا يستدعونه للحضور عند حدوث ألم آخر فتتكون عليهم جبال الهموم كما نفعل نحن للأسف. وبالرغم من أن الدراسات أثبتت أنها تملك ذاكرة فعالة إلا أن ذات الدراسات أثبتت أنها تعيش الماضي والحاضر وكأنهما واحد، لا يتحمل الحيوانات تصورًا عن الزمن فبالتالي ليس لديها وعي زمني تراكمي عنه. ويا ليتنا كنا كذلك مثلها!

لماذا أثرثر عن الحيوانات؟!

ربما السبب هو الرغبة في مناقشة ما يعرف باسم (الشر المجاني) وهو المصطلح الذي دأب الفيلسوف الملحد (ويليام رو) على إعادة تكراره كثيرًا مؤكدًا أنه الشبهة الباقية من سؤال الشر مما لن تجيب عليه الأديان. فالشر المجاني هو ذلك الشر الذي لن يحصل من جرائه خير أكبر منه أو يساويه، ويضرب (رو) على ذلك مثالاً: موت غزالة على حافة طريق وهي تتألم. ويقول: ما الذي أفادته الغزالة من فعل الله هذا فيها؟ لا اختبار، لا ابتلاء، لا صبر، ولا وعد بالجنة.

ولكن لحظة يا رو! من قرر أن الحيوانات لا تحصل من هذا على خير؟!

أنت قررت في شبهتك أن الله هو من فعل فيها هذا، فحريٌّ بنا أن نفترض أن الله هو الذي يرزقها بالطعام والهواء العليل من غير أن تفعل شيئًا تستحق هذا به. إذن الله يعطيها في كل وقت خيرًا (مجانيًا) أيضًا كما قدّر عليها الشر المجاني!

ثم من أدرانا أن الله لا يعوّض هذه الحيوانات عن الألم الذي يصيبها في الدنيا؟ ذلك الألم الذي سبق واتفقنا أنه لا يماثل آلام البشر لا في صورته ولا في شدته ولا في أثره على النفس. من أدرانا أن الله لا يرزقها من بعد الوجع ما يجبر به كسرها؟ لا يوجد ما يمنعنا من افتراض ذلك، فقط نحن نجهل! ولكن ما نعلمه عن الله هو: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف ١٥٦).

لذلك قال الفيلسوف الأمريكي (ويليام أليستون): «الحجة اللاهوتية الإلحادية لإنكار وجود الله باعتماد القول بوجود الشر قد أفسدَت بالثقة غير المبررة في قدرتنا على القول: إن الله لا يملك حججًا كافية للسماح بوجود بعض الشر الذي نراه في العالم»!

في الحقيقة إن الشر المجاني نوع من (المتشابهات) في عالم (محكم) الصنع. نوع من (الجهل بالحكمة) في وجود يثبت أن لله دائمًا حكمة. نوع من (عدم العلم) بتفاصيل مواطن الرحمة في كون نراه مبنيًّا على قواعد الرحمة. وكما اتفقنا من قبل، فإن اتباع المتشابهات وتضييع المحكمات أقل عقلًا بما لا يقاس من الاعتراف بالجهل والتسليم بأنه: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران ٧).

١١

عن ضريبة الحرية البشرية

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾

سورة البقرة آية ٣٠

في أواخر القرن التاسع عشر وحيث كان (مندل) ما زال يلعب بحبوب البازلاء، لم يكن علم الوراثة الذي أسسه قد اكتمل بعد، وبرغم ذلك ظهرت في الأوساط العلميّة فكرة (اليوجينيا) لتدّعي أن علينا أن نسعى إلى التحسين الوراثي للبشر، ونعامل بني آدم بالطريقة التي عامل بها مندل البقوليات، فنأتي على سلالات البشر التي (تستحق) ونحاول أن نكثر من نسلها، ونأتي على سلالات البشر (المعيبة) ونحاول أن نقلّل من تناسلها، حتى نقضي في النهاية وبالتدريج على الأنواع الغبية والمريضة والفقيرة من البشر عن طريق تحديد نسلهم نهائيًا!

كانت فكرة أن هناك أجناسًا من البشر أفضل وأعلى وأذكى من الباقي متداولة وغير مستهجنة في السبعين عامًا التالية، وسواء كانت من ساسة مثل (هتلر) و(تشرشل)، أو فلاسفة مثل (برتراند راسل)، أو كانت من رجال علم مثل (جوليان هكسلي) آمنوا بها كامتداد طبيعي لإيقانهم بالتطور. أصغى هتلر لأفكار اليوجينا بشكل أدق من اللازم، وكان أشد المتحمسين للتجربة، حيث أمر في ١٤ / ٧ / ١٩٣٣ بإخصاء ٤٠٠ ألفًا من شباب السود واليهود والغجر لأنهم لا يملكون حق إمرار صفاتهم الوراثية الرديئة للجيل الجديد، وتم تنفيذ هذا فعلًا باستخدام ترددات عالية من أشعة إكس! وأما في الولايات المتحدة فقد تم التعقيم القسري لـ ٦٣٦٧٨ شخصًا فيما بين عامي ١٩٠٧ و١٩٦٤ كما يقول (آلان تشيس) في كتابه (تركة مالتوس).

بعد الحرب العالمية الثانية التي لعبت العنصريّة فيها الدور الأكبر، والتي خسرنا فيها عدة عشرات من الملايين من البشر، صارت العنصريّة من التابوهات المحرّمة، وصار رجل الشارع يشمئز من الشخص الـ Racist. لكن هذا لم يستمر طويلًا، فمع انحسار اليسارية بدأت اليوجينيا

في الظهور مرة أخرى، ففي عام ١٩٩٤ تم نشر كتاب (منحنى الجرس) لمؤلفيْه: (ريتشارد هيرنشتاين)، و(تشارلس موراي). وتم اعتباره كتابًا علميًا، الكتاب يدعو لفكرة واحدة: الذكاء صفة وراثية فبالتالي هناك من الشعوب ما هو أذكى من الآخر، لذلك علينا نحن البيض أن نشفق على السود لأنهم لن يتقدموا أبدًا ولا مانع من أن نحكمهم من آن لآخر! وفي عام ٢٠٠١ نشر (ريتشارد لين) كتابه: (اليوجينيا، إعادة تقييم) وهو كتاب عنصري مقرف للغاية، ومن جديد تم قبوله في الأوساط العلمية.

ربما تكون (العنصرية) واحدة فقط من الصفات السيئة التي قد يتصف بها الإنسان الذي لم يهذّب أو يزكِّ نفسه بالقدر الكافي. هذه العنصرية قد تؤدي إلى استرخاص حياة الآخرين وبخس قدرهم إلى الدرجة التي (تُسهّل) عليه أن يبدأ الحروب العالمية من أجل أن يسيطر عرقه (الأعلى) على بقاع الأرض التي لا تستحقها الأعراق الأدنى من البشر! أو أن يذهب إلى أفريقيا فيأخذ بعضًا من سكانها ليكونوا عبيدًا عنده، لأن نسبة الخلايا الصبغية في بشرتهم كانت أكبر من أن يعترف بهم كبشر يشاركونه في أحقيته للحرية والحياة حتى قُدّر العدد الذي وقع ضحية للصيد البشري (حرفيًا) من ١٣ إلى ١٥ مليون إنسان! أو أن يهاجر إلى الأمريكتين فيُفني سكانها الأصليين أو يكاد لأنهم مختلفون عنه! وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت الحكومة الأمريكية تدفع مبلغًا من المال لمن يأتي بفروة رأس هندي. وكان رئيس الولايات المتحدة السابق (جون كوينسي آدمز) يقول: «حرب البيض ضد الهنود هو قانون الطبيعة»! ناهيك عن أنه إلى الآن ما زال يسميهم باسم (الهنود الحمر) وهي تسمية كانت ناتجة عن خطأ (كولومبوس) الذي كان يظن أن هذه هي الهند، ولكن الإنسان الأبيض يرفض أن يصحح خطأه إلى اليوم. فهم بالنسبة إليه أقرب إلى (الأشياء المُكتَشَفة) التي تُلصَق عليها التسمية الأولى!

ولكن ليست العنصرية هي الصفة السيئة الوحيدة التي قد يتصف بها الإنسان. فهناك البخل والحرص على المال والجشع الذين قد يدفعونه إلى أكل الميراث والغش والسرقة وامتصاص حياة الناس ببطء بدون كثير اهتمام. وهناك الشهوة الجنسية التي قد تدفعه إلى الاغتصاب والتحرّش وخيانة شريك الحياة. وهناك الرغبة في العلوّ والظهور التي قد تدفعه إلى الكذب والنفاق والنميمة. وهناك الغضب الذي قد يدفعه إلى السباب والإيذاء والقتل في كثير من الأحيان.

❦

كان (توماس هوبز) يرى أن الإنسان كائن خيّر بطبعه، بينما كان (جان جاك روسّو) يؤكد على أن الإنسان بطبعه هو أشرّ الكائنات. ومن الجليّ أن كليهما مخطئ! فالإنسان قد يكون أفضل من الملائكة وقد يكون أسفل من الشياطين.

ولكن هناك الكثير جدًا من السوء يمكننا أن نتوقعه من البشر الذين يحملون هذه الصفات دون أن يهتم الكثير منهم بتهذيب أنفسهم وصيانتها! الكثير جدًا من الشرور والمصائب ننتظر وقوعها على الأرض في كل لحظة يحيا فيها هذا النوع من الجنس البشري عليها! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة ٢٠٥).

هذه هي ضريبة حرية الإرادة البشريّة! لو أردنا أن نحيا في مجتمع خالٍ من الشرور البشريّة لكان هذا معناه أن يتدخل الله ليمنع الإنسان من شرّه، بمعنى آخر: أن يُجبرَ اللهُ الإنسانَ على الخير. بمعنى ثالث: أن تُنزَع من الإنسان حرية إرادته. بمعنى رابع وأخير: ألاَّ يكون هناك داعٍ للحياة الدنيا، ولا لخلق الإنسان بعد وجود الملائكة!

***

على أن الله لم يتركنا وحدنا لهذه النزوات الإنسانية أن تلقي فينا كل هذه الشرور من دون أن يتدخل بشرعه وأمره وقدره.

بل أمر اللهُ الإنسانَ بألا يكون من المفسدين في الأرض: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النساء ٢٩). يعني: لا تقتلوا بعضكم البعض. وأوضح له أنه لا يحب هذا الصنف من البشر: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة ٦٤). وأغلظ له في العقوبة يوم القيامة: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة ٣٢). وأمر عباده المؤمنين في الدنيا بملاحقة ومعاقبة هؤلاء المفسدين: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة ٣٣)!

لم يكتفِ القرآن بذلك بل وضّح لنا أيضًا أن دائرة الفساد قد تعود عليه في الدنيا إن شارك هو فيها بنفسه! كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء ٩). أي هؤلاء الذين سوف يتركون من بعدهم ذرية ضعيفة من الأطفال عليهم أن يتقوا الله ويتحرّوا العدل والإحسان مع اليتامى، حتى ييسّر الله لهم من بعد موتهم من يحسن إلى أطفالهم أيضًا! إنها دائرة (السَلَف) و(الدَّيْن) التي يعرفها عموم الناس من تجاربهم في الحياة، فالبرُّ لا يبلى والذنب لا يُنسَى والديّانُ لا يموت، فافعل ما شئت فكما تدين تُدان!

***

يأتي أحدهم فيقول: ولكن لماذا لا ينتقم الله من كل من يظلم؟ لماذا لا ينزل عذابه على كل أحد يبغي على غيره؟

هذا السائل يحسن الظن بنفسه أكثر من اللازم! إنه يفترض أن الله جَلَّجَلَالُهُ لو فعل ذلك فإنه لن يتضرر ولن يكون من الذين تنزل عليهم صواعق السماء! بينما في الحقيقة كلنا يستحق! من الذي لم يرفع صوته على والديْه، أو يكذب على معلمه، أو يخدع من يشتري منه، أو يضرب طفلًا، أو يُبكِ امرأة، أو يقطع رحمًا، أو يخلف وعدًا؟؟ يذكرني ذلك بكلمة (أنيس منصور): «لا تغضب من أَحد، فأنت أسوأ كثيرًا مما تعتقد»!

كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون. وأما هؤلاء الذين يصرّون على تقديس أنفسهم هم أسوأ البشر طرًّا. في الحقيقة كلنا -بشكل أو بآخر وباختلاف وتفاوت كبير - ظالمون فعلًا! لذلك كان جواب القرآن على هذا السائل أن قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَـٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ (النحل ٦١)!

١٢

عن الدين الذي يحمينا من الشر

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّٰه لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾

سورة البقرة آية ٢٠٥

في (٢٠٠٧) التقى جمع من العلماء في مؤتمر (ما وراء الإيمان، العلم والدين والعقل والبقاء)، ألقى الفيزيائي الملحد (ستيفن واينبرج) كلمته: «بالدين أو بدونه سيكون هناك أناس خيّرون يفعلون أشياء خيّرة، وأناس أشرار يفعلون أشياء شريرة، ولكن لكي يفعل الخيّرون أشياء شريرة، فهذا يتطلب الدين». فصفق الجمع تصفيقًا حادًا.

حسنًا، الدين يسمم كل شيء، أليس هذا ما قاله كريستوفر هيتشنز؟ وبالطبع فأكثر الأديان ارتباطًا بالإرهاب هو الإسلام. لقد حرصوا على تحفيظنا ذلك دائمًا في كل مكان. ولكننا نجد في الحقيقة على موقع الـ FBI مقالة بعنوان (غير المسلمين قاموا بتنفيذ أكثر من ٩٠ ٪ من الجرائم الإرهابية في أمريكا). بينما على موقع Loonwatch نجد دراسة أوروبية تقول: كل المسلمين إرهابيين ما عدا ٩٩،٦ ٪ منهم فقط!

ولكن دعونا نلقي نظرة على دين الإرهاب الحقيقي، أو لنقل، لا دين الإرهاب.

في مجلة (اليوم) بتاريخ ١٥ / ٣ / ١٩٨٨ ذكرت أن رجال (لافرينتي بيريا) اعتادوا في فترة حكم (ستالين) الشيوعية أن يخطفوا الفتيات الصغيرات الجميلات من الشوارع ثم يضعوهن في السيارة ويأخذوهن إلى رئيسهم، وعادةً ما تختفي هذه الفتيات بعد ذلك إلى الأبد.

وفي عدد ١٧ / ٣ / ١٩٨٦ذكرت أن تقديرات الغرب لضحايا النظام الشيوعي في روسيا هي من ٨-١٠ مليون إنسان في حملة التطهير الستاليني من ١٩٣٦-١٩٣٨ وأما في فترة حكمه كاملة من ١٩٢٤-١٩٥٣ فقد كانت حصيلة القتلى ١٥ مليون إنسان. وذكر (خروتشوف) في خطابه في

المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي أنه من بين ١٣٩ عضوًا ومرشحًا للجنة المركزية الذين وقع عليهم الاختيار في المؤتمر السابع عشر للحزب فإن ٩٨٪ منهم اعتُقلوا وأُعدموا. تحت مبرر ستالين المفضل (عدو الشعب). وأما (أوكرانيا) فقد جوّعها ستالين عقابًا حتى قتلَ منهم ٤ ملايين.

أما في الصين، وأثناء ثورتها الثقافية التي قام بها (ماو تسي تونغ) الشيوعي فقد تم قتل ٣ ملايين ضحية (هذه الأرقام الرسمية فقط) وعانى مائة مليون إنسان من اضطهاد وتعذيب واعتقال، وذلك حسب تصريحات (هُو ياو بانج) الذي كان يشغل منصب السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني وقتها.

ماذا عن هتلر؟ وبرغم أننا لا نعرف بيقين إن كان هتلر ملحدًا أم لا، إلا أن أفكاره داروينية بامتياز، فقد برر توسعه العسكري خارج حدود ألمانيا بأن إرادة القوة متأصلة في القوانين الأزلية للطبيعة، وما كان له إلا أن يسلم لهذه القوانين ويخضع لها للأسف. يا له من مسكين!

هناك أفكار (نيتشوية) لدى هتلر أيضًا، مثل ما ذكره في كتابه (كفاحي) عن السلام الذي «لا يأتي عبر سعف النخيل الذي يحمله النائحون المسالمون الباكون وإنما عبر سيف قاهر يعمل في خدمة ثقافة عليا».

هناك ملحد سافل آخر هو (بول بوت) والذي حكم كمبوديا ما بين ١٩٧٦ و ١٩٧٩ فأباد في هذه الفترة القصيرة ٢٥٪ من شعبه! وذلك حسب ما هو مسجل رسميًا في دفاتر الدولة. لقد كان هذا واضحًا من البداية على كل حال، فقد أعلن في راديو الدولة في بداية حكمه أن كمبوديا لا تحتاج إلا إلى مليون واحد أو اثنين من الشعب لإقامة اليوتوبيا الملحدة الخاصة به، وأما باقي الشعب فلا فائدة منه. والذين كانوا يرفضون تلك الرؤية كانوا يقتادون إلى الصحراء ليحفروا قبورهم بأيديهم ويُدفنوا أحياء لأن الرصاص أثمن منهم، فيما يعرف باسم (حقول القتل الكمبودية) والتي تم اكتشاف ٢٠ ألف مقبرة جماعية منها تحوي ٣ ملايين جثة على الأقل.

وهناك الجنرال (راتكو ميلاديتش) الذي قتل في ١٣ / ٧ / ١٩٩٥ ثمانية آلاف مسلم في البوسنة معظمهم من النساء والأطفال، باستخدام النيران والسكاكين والبنادق.

❧

أطلق ديستويفسكي صرخته المحذرة في رواية (الإخوة كارمازوف): «إذا لم يكن الله موجودًا فكل شيء مباح». وينبهنا (ديفيد بيرلنسكي) أن الفلاسفة والمفكرين لما لاحظوا انحسار الدين خارجًا من مؤسسات الثقافة الغربية في بداية القرن العشرين، انتابهم إحساس مزعج بأن ثمة شر عظيم قادم. وقد كانوا محقين.

على الفور ذاق العالم الغاز السام، والأسلاك الشائكة، والمواد شديدة الانفجار، وتجارب تحسين النسل، والمدفعية الثقيلة، وحقول القتل الجماعي، والقنابل العنقودية، والغواصات الهجامة، والنابالم، والصواريخ البالستية عابرة القارات، والمنصات الفضائية العسكرية، والأسلحة النووية.

أثناء الحرب العالمية الثانية، كان أحد جنود الألمان ينتظر عجوزًا يهوديًا يحفر قبره قبل أن ينقض عليه بالرصاص، فما كان من العجوز إلا أن انتصب وقال له: إن الله يرى ما تفعل. ثم خر صريعًا.

ولكن، على رأي بيرلنسكي، فإن الجندي لم يكن يؤمن أن الله يرى ما يفعل!

ما لم يؤمن به هتلر، أو ستالين، أو ماو، أو بوت، أو ميلاديتش، أو الجستابو، أو منظرو الحزب الشيوعي، أو الآلاف من المرتزقة أن الله يرى ما يفعلون!

إذا كان واينبرج يريد أن يقنعنا أن الدين فقط هو القادر على جعل أناس خيرين يفعلون أشياء شريرة، فعليه أن يفسر لنا كل هذا الفساد الذي يظهر في الأرض حين يحكمنا اللادين، أو يمسك بيديه مدفعًا رشاشًا أمام أجساد عزّل. هل كل هؤلاء كانوا أشرارًا بطبعهم وتحرروا من ضبط الدين الذي كان يبقيهم في تحكم هادئ؟ إذن فالدين يمنعنا من الشرور إذن. أم أن هؤلاء كانوا أخيارًا وأفسدتهم تلك الفكرة القائلة أننا محض حيوانات في عالم من الطبيعة الوحشية بدون رقيب أو حسيب، لا داعي للقلق إذن من الله فهو غير موجود. كما يخبرنا القرآن عن حال هؤلاء: ﴿**لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً**﴾ (التوبة ١٠) ووضح لنا لماذا لا يبدون قدرًا من (القلق): ﴿**كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾ (الأنعام ١٠٨).

يفسر لنا القرآن كل شيء حين يقول: ﴿**وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾ (البقرة ٢٠٥).

١٣

عن مشكلة الشر عند الملحد

"يجد الوجودي حرجًا بالغًا في ألا يكون الله موجودًا فبعدم وجوده تنعدم كل إمكانية للعثور على قيم في عالم واضح"

جان بول سارتر

منذ طفولتي وأنا أتمنى أن أستيقظ لأجد نفسي في مدينة البط، أو بلاد العجائب التي زارتها (أليس)، أو حتى عالم (أوز) المدهش. إنه إبداع الأخوين (جريم)، و(لويس كارول) و(فرانك باوم) و(كريستيان أندرسن) و(والت ديزني) وغيرهم، الذين أغرقوا خيال البشرية بعوالمهم السحريّة الرائعة المليئة بالغابات الخضراء والخرفان البيضاء وكعك التفاح الشهيّ والحيوانات الثرثارة.

هذا جو غير ملائم في واقعنا العربي على كل حال وغير مفهوم! فقصص الأطفال لدينا تنبع من واقعنا نحن، فأنت تستطيع أن تفهم وجود (النداّهة) بجانب (الترعة)، لكن حاول أن تتخيل مثلًا موقف الضفدع الذي تحول فجأة إلى أمير، وهو يحاول أن يقنع مدام (سحر) في السجل المدني بأنه موجود ويستحق شهادة ميلاد!

معظم هذه القصص هي في الأصل أساطير وحواديت كانت تحكيها الجدات لأحفادها على مر العصور حتى جمعها هؤلاء أو استوحوا منها كتابتهم. هي إذن قصص تتحدث عن الواقع البشري كما يتخيله البشر في أبسط الصور وأكثرها رمزية. ولعل أكثر ما قد تلاحظه فيها هو عنصر المبالغة والحدّية! فلا بد للأميرة أن تكون أميرة أحلام في جمالها، ولا بد للمرأة الشريرة أن تكون ساحرة شمطاء تستمتع بقتل الأطفال، بينما تجد (عبقرينو) الرمز المجرّد للعبقرية، لا يوجد ما لا يستطيع اختراعه، وعم (دهب) رمز الثراء، لديه خزينة مليئة بالأموال، يسبح بها طوال اليوم.

هذه المبالغات تدل على الحجم الضخم للمعنى المجرّد الذي يحمله صاحب هذا التراث (الإنسان)! الإنسان يحمل بداخلة صوره المثاليّة الصافية عن القيم، والتي تكون في العادة أكثر

تركيزًا وأنقى كثيرًا من تلك الموجودة فعلًا في الواقع، وعلى مرّ أطوار حياته يتعلم الفجوة الكبيرة بين هذه القيم كما هي في وجدانه وبين نفس القيم كما هي في سلوكه وسلوك الناس من حوله!

خذ عندك مثلًا المراهق العاشق الذي يقرأ شعر (أبي فراس الحمداني) ويقطف الأزهار في الحديقة، هو في الواقع يملك بداخله المعنى المجرد للحب، ويبحث عن شخص يركّبه عليه، فما أن يجد أول فتاة قد تصلح لذلك حتى يهديها كل تلك المشاعر، وهي بالطبع قد لا تستحق كل هذا، لأنه في الواقع يبالغ بشدة! وفكر في قيمة الوفاء مثلًا، هي بداخلنا كقيمة مجردة أكبر بكثير من وجودها في البشر، لذلك يمتلئ المجتمع بهؤلاء الذين يبكون على خيانة أصدقائهم لهم.

هناك فجوة بين القيم الصافية التي خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الإنسان وبين سلوكه المعتاد فعلًا، ليست التجريديات والحدّيات موجودة في واقعه كما تخيل هو في أساطيره الشعبية.

إنها اللحظة التي تصطدم فيها الطبيعة التجريدية للإنسان بكل خياله السريالي ومثاليته الحالمة، بالعالم المادي الذي وجد نفسه فيه وسط رائحة العوادم وصوت نفير السيارات في الطريق المزدحم. اللحظة التي يدرك فيها الإنسان أن وعاءه المادي الذي يحتوي روحه هو أصغر منها بكثير، وأن إنسانيته شيء وجسده شيء آخر. اللحظة التي يدرك فيها عظمة الخالق سبحانه الذي أهداه منظومة قيم أوسع منه شخصيًا ويشترك في فهمها جميع أبناء جنسه، ذلك الخالق الذي قد تفرّد بمصدريّة القيم والأخلاق، ثم تفرّد بالدلالة عليها!

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده هو الذي أعلمنا بمعنى الخير وبمعنى الشرّ! الذي خلق فينا جهاز التمييز الأخلاقي، فجعلنا جميعًا نفهم ما هو الحسن وما هو القبيح! إنها نوع من الهداية المتفرّدة التي اختصّ بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، كما اختصّ من قبل بنوع الهداية للحق والطريق المستقيم والذي يتبين لنا في الآية: ﴿**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ (يونس ٣٥). أي أن كل من سوى الله لا يملك أن يهدي غيره ولا يستطيع إنما هو لا يهتدي إلا أن يُهدَى، أي أنه المفعول به دائمًا في معادلة الهدى. هي آية توضح لنا أن الله وحده هو الذي يهدي للحقِّ والرشاد والنهج القويم، كما كان وحده دائمًا هو من يهدي جميع الخلائق قبل ذلك وبعد ذلك لمعنى الحق ولمعنى الرشاد ولمعنى النهج القويم!

❧

لو لم يكن هناك إله، فكيف نفسر قدرتنا على فهم الخير من الشر وتمييزهما عن بعضهما؟! في عالم بدون إله فإننا سنكون محض (نفايات نجميّة) كما يقول (كارل ساجان)، أو مجرّد (أجساد بيولوجيّة) كما يقول (كريستوفر هيتشنز)، أو نحن فقط (قرود أخرى) كما يقول (ريتشارد دوكنز)! أيُّ معنىً للخير أو للشر في عالم كهذا؟! كيف تشعر النفايات النجميّة بالحسن وبالقبيح؟!

لو كان ما يقولونه صحيحًا، فلماذا -وعلى عكس ما يظنون - نجد أننا نفهم ما هو الشرّ فعلًا؟! وبطريقة نتفق عليها جميعًا، حتى هم لن يخالفونا فيها!

لذلك يقول (مايكل روس): «الرجل الذي يقول أنه من المقبول أخلاقيًا أن يتم اغتصاب الأطفال الصغار مخطئ تمامًا كذلك الرجل الذي يقول أن ٢+٢=٥»!

الجميل أن (روس) نفسه ملحد أيضًا! لكنه يعلم أنه من المعاندة والجدال الباطل أن ندّعي أنه لا يوجد ما يتفق عليه البشر بشأن الأخلاق والقيم.

هذا على عكس (دوكنز) مثلًا الذي قال: «لا يوجد خير ولا شرّ، لا يوجد سوى عدم المبالاة القاسية»! ثم بعد ذلك لما سُئِل إن كان يتبرع بأمواله لصالح أعمال خيريّة، قال: «نعم، وإن سألتني عن السبب الذي يدفعني لذلك فإني سأقول لك: لا أعلم»!

ولكننا نحن نعلم!

❧

في مناظرة (برتراند راسل) مع (فريدريك كوبيلستون) قال راسل: «أنا أشعر أن بعض الأشياء جيدة والأخرى قبيحة. أنا أحب الأشياء الجيدة التي أعتقد أنها جيدة، وأكره الأشياء التي أعتقد أنها قبيحة. أنا لا أقول إن هذه الأشياء جيدة لأنها تشارك في الصلاح الإلهي».

فقال كوبلستون: «نعم، ولكن ما هو مبررك للتمييز بين الجودة والقبح؟». قال راسل: «بإمكاني أن أرى أنهما مختلفيْن». قال كوبلستون: «فبأي ملكة إذن؟». قال: «بمشاعري».

علق أحد الفلاسفة على هذه المناظرة: «لقد كان كوبلستون مؤدبًا للغاية، ولو كنت مكانه لأجبت: "تدعو بعض الحضارات إلى أن نحب جيراننا، وتدعو أخرى إلى أن نأكلهم، والاختيار قائم في كل منهما على المشاعر. فهل عندك تفصيل لأي منهما؟!"».

❧

يمكنك مثلًا أن تدّعي أن خسران فريقك المفضل لكرة القدم، هو شرّ، ولكن سيخالفك الرأي حتمًا الذي يشجّع الفريق المقابل! يمكنك أن تظن أن نزولك في ترتيب دراستك من المركز الأول للمركز الثاني هو شرّ، ولكن صاحب المركز الأول سيراه أكبر خير حدث له هو!

في الحقيقة هذا مما تختلف فيه وجهات النظر وزاوية الرؤية، إذن لا يمكننا أن نعتمد على (المفهوم الشخصي) للشرّ.

ولكن يمكننا أن نتأكد أن هناك (مفهومًا موضوعيًّا) له! سيكون ثابتًا بين الناس على اختلافهم، فالقتل والاغتصاب والسرقة والغش والخيانة، كل هذه شرور سيتفق عليها (وونج) من كوريا، و (زوربا) من الكونغو، و(ليلى) من الإمارات. كل البشر على اختلاف هيئاتهم وثقافاتهم سيتفقون على معنى الشرّ في جوهره!

إحساسك بوجود آلام من حولك، هو في حد ذاته دليل على وجود إله خلق في نفسك جهاز استشعار لهذه الآلام! حيث إن الشرور لديها عندنا معانٍ (موضوعية) بحتة يمكن للجميع أن يتفقوا عليها!

هذا هو المعنى الذي أشار له القرآن حين قال الله تعالى عن النفس البشرية: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ (الشمس ٧-٨).

١٤

عن ثنائية الوجود الأزليّة

"لو لم يوجد الليل لحُرِمنا من منظر النجوم الرائع، وهكذا يجردنا الليل من الرؤية ويساعدنا الظلام على أن نرى"

علي عزت بيجوفيتش

فكّر في راكب طائرة من (لوس أنجلوس) إلى (الرباط) حين يقضي عدة ساعات نائمًا على كرسيه المريح، ثم ما إن يصل إلى محطته حتي يبدأ في التذمر. تخيل أني ثنيتُ ركبتي خمس عشرة ساعة في هذه الرحلة، ثم اضطررت إلى الوقوف ساعة أخرى في المطار حين وصلت. فنبدأ نحن في الرثاء لحاله بحق، لقد تحمل الكثير بالفعل! هذا قبل حتى أن نعلم أن الوجبة التي كان يأكلها كانت باردة والقهوة كانت رديئة ولم يكن الفستق طازجًا. لقد كانت هذه الرحلة أسوأ رحلة قام بها على الإطلاق.

برغم أن الرحلة التي قطعها في شطر اليوم اعتاد إنسان ما قبل القرن العشرين على أن يقطعها في ستة أشهر على متن قطعة خشب بلهاء تدّعي أنها سفينة مع عواصف ليلية دائمة ودوار بحر لا يمزح، ففقرات عظامه تئنّ من البرد ليلًا ومعدته تلعب الأكروبات صباحًا لتغرق ملابسه بالقيء، ومن آن لآخر ينزلق أحد أولاده إلى الماء، وربما ينجح بعدها في إنقاذه وربما لا، وفي النهاية وباحتمالية لا تتجاوز الخمسين بالمئة تصل سفينته آمنة إلى وجهتها. لا بد أنه سيكون وقتها قد نسي ما دفعه إلى القدوم إلى هنا أصلًا! لقد كانت هذه الرحلة أيضًا أسوأ رحلة قام هو بها على الإطلاق!

أحيانًا تأتينا فتيات إلى استقبال المستشفى الجامعي بهبوط نفسي حاد، جهازها العصبي الباراسمبثاوي لم يتحمل ألمها العاطفي فأعطى إشارة إلى قلبها أن يبدأ في التكاسل التدريجي المتعمد عن أداء وظيفته وينهي حياة هذه البائسة، هي لا تدّعي، هي بالفعل ضغطها قد وصل إلى حافة الستين وهو أمر خطير بالفعل. بسؤالها عن السبب تنظر لك بـ (صعبانيّة) وتقول: «أحمد سامي تركني»!

ولكن ماذا لو لم يكن أحمد سامي تركها؟ ماذا لو كان تزوجها وقضت معه أحلى قصة حب لمدة سنتين ثم أخذها في رحلة، وتوقف بسيارته على جانب الطريق حتى يشتري لها بعض الفول السوداني الذي تحبه فصدمته سيارة وهو يقطع الطريق فتلقفته سيارة نقل كبيرة في اتجاه الطريق العكسي لتستقر رأسه المقطوعة في النهاية على حجرها وهي في السيارة؟! ماذا ستفعل حينها؟ جهازها العصبي لن يفعل شيئًا أكثر مما يفعله بها الآن! هي استنفذت كل طاقتها ومقدرتها على الحزن في أمر أتفه بكثير من كل المصائب اللذيذة التي قد تصاب بها بعد ذلك.

الفكرة أن الإنسان لديه مقدرة معينة على الحزن لا تتعلق فقط بالحجم الحقيقي لمصائبه ولكن بالطريقة التي ينظر بها إليها! الطفل الصغير الذي يبكي بحرقة لأنه لم يخرج مع زملائه إلى رحلة مدينة الملاهي يعيش نفس مقدار الحزن الذي تعيشه أنت حين تفشل في زواجك أو عملك. هو فقط لا يعلم أنه يبالغ الآن! لم يتعلم بعد كيف يصنّف أحزانه إلى درجات وألوان معينة حسب شدتها لأنه لم يذق مقدارًا كافيًا من هذه الأحزان! مع الوقت يبدأ في التعلم، وبعد أن يكسر ساقه، ويفقد جدته، ويرسب في الاختبار، ويهاجر صديق عمره إلى (ليبيا)، يبدأ في فهم متى يحزن ومتى يبكي ومتى يتضايق قليلًا ثم ينسى كل شيء!

الحزن إذن هو ما يعلم الإنسان ألا يحزن! تأتيه المصيبة فتتربع على عرش آلامه النفسية فعندما يصاب بأعلى منها تنزل الأولى عن عرشها منهزمة وتصبح شيئًا عاديًا يتعايش معه بسهولة! هذه هي الطريقة التي نعتاد بها على الإسهال والزحام والأرق والحذاء الضيّق ورياح الخماسين وتمزق الرباط الصليبي وكرسي الطائرة المؤلم وخيانة أحمد سامي. أننا جرّبنا ما هو أسوأ!

إنها رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القائل لصحابة النبي ﷺ بعد غزوة أحد: ﴿**فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ**﴾ (آل عمران ١٥٣). الحزن أحيانًا أهم مما يبدو، الحزن أحيانًا يخفّف بعضه بعضًا، الحزن أحيانًا هو أنفى للحزن!

❦

تعال يا سيدي إلى حانوتي الكئيب، سوف أشرح لك لماذا يجب عليك أن تدلف إليه.

هذا الذي هناك هو التشكّك الذاتي، سوف يبقيك مستيقظًا فترة معتبرة قبل كل نوْمة تتساءل عن مدى قدرتك على الوصول إلى ما تريده، ثم ستنام في النهاية حين تفطن إلى أنك لم تعد متأكدًا من صلاحية مقاييسك بحد ذاتها، لكن ميزة هذه البضاعة يا سيدي أنك ستصبح أكثر تقبلًا للمسارات التي سبق وأن رفضتها، التردد يجعلك تنظر هنا وهناك، ربما حينها تعثر على الأشياء الجميلة المتخفية.

المُعلّق هناك هو القهر، هل يقهرك الحب أو الظلم؟ تقهرك الرغبة أو الحاجة للمال؟ هذه هي البضاعة المناسبة لك إذن. القهر سوف يؤلمك حقًا، لا، لا، ليس لديك فكرة، إنه سافل عليم يدرك كيف ينال منك، كل لمسة منه سوف تذيقك آلام نزغتها لشهور طويلة، لكن يا سيدي برغم هذا فإني أدعوك أن تأخذ مني هذه البضاعة، أنت لا تعلم كم أفادت زبائني، لا تعلم كم الناجحين من حولك الذين يقتاتون على مرارة الغضب!

أما هذا، فهو اليأس، أقدم بضائعي وأكثرها رواجًا، اليأس هو العدم، ببساطة هو الشر كله، علقم في فمك، وهن في جسدك، سم لروحك، أقسم لك أنه غير مفيد بأي حال. فقط هو سيء لدرجة تكفي بأن تقرر ألا تجربه مجددًا، هو سيء لدرجة أنك تقسم ألا تسمح له بالتسرب إلى روحك في المرة القادمة.

هذا الشيء الأسود هناك هو الندم، إنه قبيح المنظر واللون والمذاق، الندم سوف يجعلك في حالة جنون مطبق، سوف يدفعك للتساؤل عن كل الأشياء التي لم تكن، سوف يصيبك بالرعب من كل الأشياء التي لن تكون. الندم جيد من أحد الوجوه، فهو يجعلك تتيقن بنفسك من الحقيقة التي يراها الآخرون ولا تراها أنت، الندم يذكرك بأنك تخطئ، وأن أخطاءك أحيانًا لا تمر، أحيانًا تصبح داكنة، مرعبة، غير قابلة للإصلاح. إنه واحد من أذكى بضائعنا يا سيدي.

أما هذا هناك فهو النقص، يمنحك شعورًا بالجوع الدائم، سوف تشعر أنك تحتاج دائمًا إلى شيء ما، سوف تسير في الأسواق محملقًا في وجوه الناس كالمجذوب متسائلًا: إلى ما تسعون أيها الحمقى؟ وإلى ما أسعى أنا؟ سوف تشعر دائمًا بحكة في روحك، ولن يستطيع ظفرك أن يصل إليها أبدًا. لكن النقص بضاعة طيبة، إنه يعني أنك إنسان، سوف يذكرك نقصك دومًا بطبيعتك البشرية، سوف يربطك إلى واقعك بخيط طويل غير مرئي، يسمح لك بالحركة إلى مدى، يسمح لك بالغفلة إلى حد.

حانوتي مليء، كل هذه الأرفف مكدسة بكل هذه البضائع الطيبة. الناس يتهامسون عني، يقولون أني عجوز مخرّف، أبيع الطاقة السوداء، أبيع الدموع والأسى، أبيع الأحزان للناس في أكياس.

دعك منهم يا سيدي. هم فقط لا يعرفون كيف تكوّنهم بضائعي، لا يدركون كيف يشكّلهم الحزن، كنحات بارع وقع على كومة من الطين اللازب، كرسام متحمس اشترى لتوه مجموعة من الألوان، كأديب أمسك قلمه بعد أن عاد لتوه من وادي عبقر.

كم قصيدة شعر يا سيدي تعرفها تتحدث عن شاعر سعيد ليست لديه هموم أو مشاكل؟ كم أديب تعرفه كان يتميز في حياته الشخصية بالاكتئاب والعزلة واستعذاب الحزن؟ ما بين عنترة

والمعرّي وكافكا وهيمنجواي، تجد أن أدب كل منهم لم يكن ليوجد لولا أنه كائن مُعذّب يمشي على قدمين. وبالمناسبة، أيهما تفضل أن تراه على الشاشة، قصة حب ناجحة سعيدة، أم واحدة فاشلة مستحيلة غير مكتملة؟ أية رواية تظن أنها ستكون جيدة، رواية عن مشاعر مجموعة جنود في خندق الحرب، أم قصة حياة مليونير يعيش كل يوم حياته الرغيدة الهانئة؟

لماذا يا سيدي حين يصبح الإنسان أديبًا يبرع في تصوير الحزن أكثر مما يبرع في تصوير الفرح؟ أم أن الحزن هو ما صنع منهم أدباء من البداية؟ لماذا يقول الأدباء أن الشعراء يقتاتون على الشر الموجود في العالم؟

لماذا أغاني الحب يا سيدي دائمًا معذّبة؟ لماذا لا يغني أحدهم إلا عن حبيبة رحلت أو رفضت؟ كل قصص الحب التي اكتملت بالزواج لماذا خرس أصحابها إلى الأبد؟ أم أنهم فطنوا إلى أنهم لن يستطيعوا كتابة أغنية جميلة عن ذلك غالبًا؟ وهل يتخلى الناس عن علاقات حبهم المستقرة في سبيل علاقات أخرى فوضوية ومضطربة لأنهم تعلموا أن حقيقة الحب لا بد بأن ترتبط بالمعاناة؟

هل يقتصر الأمر على الأدب والغناء؟ أم أن المفكر كذلك لا بد من أن يكون حزينًا؟ ما بين سقراط إلى فوكو، اذكر لي يا سيدي كم فيسلوفًا سعيدًا تعرفه؟! ولماذا الصورة الكتابية اليابانية للفعل (يفكر) تعني: (يشعر بالحزن)؟

هل يصنع الحزن عمقًا للصورة المسطحة الملقاة على ظاهر الحياة؟ هل يضيف بعدًا ثالثًا للموجودات ثنائية الأبعاد من حولنا؟ هل الحزن يا سيدي هو الوسيلة التي توصلنا لها لترك بصماتنا الوجدانية على هذا العالم البارد؟ هل فهمنا منذ الأزل أنه الفرشاة الوحيدة التي لدينا إن أردنا أن نلوّن دنيانا الرمادية بألوان صبغاتنا الخاصة لنراه كما نشعر أننا يجب أن نراه؟

هل الحزن عرض جانبي لترياق الوجود لا بد من تحمله؟ أم أنه المرارة التي تعطي للنبيذ طعمه وترغم مدمنه على استساغة مذاقه؟ هل هو وسيلة للهروب من التشابه، للشعور بالتفرد، والتحلي بالأناقة؟ أم أنه يا سيدي سجن منصوب حول كل واحد منا يجعله فريدًا فقط لأنه وحيد؟!

هل الحزن يشكلنا حقًا؟ أم أن الحياة هي من تنحتنا على صورته؟!

***

الشر! ذلك الذي يمثل مع الخير ثنائيّة لا بد منها لكي نفهم كليهما! لكي نفهم معنى الخير لا بد من أن يكون هناك شر في الوجود! لذلك يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ (الشورى ٢٨). فلن يفهم الناس أبدًا مدى جمال وخيريّة وأهمية المطر النازل من السماء إلا لو جرّبوا قنوط القحط وأسى الجفاف!

يعرف الأطباء ذلك من مراقبتهم لسلوك الأيونات على جدران الخلايا العصبيّة. عملية الاستثارة (Depolarization) لا بد من أن يتبعها عملية إعادة لحالة الاستقطاب الساكن (Repolariztion)! لو انفردت إحدى العمليتين بالوجود لما استطاعت الأعصاب أن تنقل أي إحساس أو حركة.

يعرف علماء الفيزياء ذلك أيضًا، فهم يعرفون أن أي موجة في الوجود من أول أمواج الماء وحتى أمواج الضوء مرورًا بأمواج الراديو و(الميكروويف) فإنها لا بد تتكون من قمم (Crests) تمثّل أعلى نقطة للموجة في هذه اللحظة، وقيعان (Troughs) تمثل أخفض نقطة لها في تلك اللحظة. لولا وجود القمم والقيعان ما استمرّت هذه الموجة في الحركة أبدًا.

علماء الاجتماع والاقتصاد يعرفون ذلك أيضًا، فهم يعلمون أن التفاضل في الغنى والفقر بين طبقات المجتمع، والتنوّع في مكاناتهم الاجتماعيّة الذي يجعل منهم عامل النظافة والمهندس والبائع ومصفف الشعر. هذا التفاوت والتنوّع هو السبيل الوحيد الذي يحفظ لهذا المجتمع توازنه، وتُقضى فيه حاجات البشر، ويرزق الناس بعضهم البعض. والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد أخبرنا بذلك حين قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾ (الزخرف ٣٢). ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ (الأنعام ١٦٥).

الأدباء يعرفون ذلك أيضًا أكثر من أي أحد، فهم يدركون أن ركنا الحياة هما الـ Ups & Downs . يعرفون أهمية أن يتذكروا وجود (العقدة) في رواياتهم حتى تُحلّ في النهاية فيكون للقصة معنى!

هذه الثنائيّة لا بد منها كي يوجد للوجود وجود! لا يمكن أن نحيا في نظام حدّي لأنه سيكون أشبه بعالم أحادي الأبعاد، غير مفهوم، غير مُتخيّل، غير مؤهّل لاحتواء البشر ومعيشتهم. لا بد من أن يكون هناك (خلف) حتى نفهم وجود (الأمام)، لا بد من أن يكون هناك (تحت) حتى نصدق أن هناك (فوق). فلا يمكن الاستغناء عن أحد ركني هذه الحياة في ابتلاء الدنيا! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ (الأنبياء ٣٥).

***

الشرّ قد يكون دليلًا على وجود خير من ورائه! علامة على فرج قريب وأمل آتٍ!

كما كانت تقول (شارلوت برونتي): «أحلك اللحظات كثيرًا ما تسبق انبلاج الفجر»! ويقول (إبراهيم بن العباس الصُّولي): «أبى لي إغفاءَ الجفون على القذى، يقيني أن لا ضيقَ إلا سيُفرَجُ»!

مثل بكاء الطفل الرضيع الذي يبعث على القلق ويثير العاطفة بشدة، أنت لا تحب لهذا الكائن اللطيف أن يتألم. وبرغم ذلك فإن بكاءه من ألذ ما قد تسمعه في لحظة الولادة، حين يصافح بوجهه الصغير دنيانا الأصغر منه، وحين يبدأ بأنفاس متلاحقة وصرخات مرتابة رحلة حياته الأشد تلاحقًا وارتيابًا. بكاؤه في تلك اللحظات هو الطبيعة التي لا طبيعة غيرها.

في سنن الحياة القدرية نتفهم وندرك أن أذى الألم قد يعني أحيانا شذى الأمل، وأنه بالعناء قد يقوى الرجاء، وأننا قد نستدل على قدوم اليسر بما نلاقيه من العسر، وأننا قد نحسب الشر في حادثة قدرها الله للخير، وأننا لا نعلم شيئًا إلا ما يرينا الله إياه، وأنه ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (التغابن ١١).

سنن الحياة القدرية تخبرنا أن علينا ألا نتوقف مع صورة الألم الظاهرية وننسى الرحمة المختبئة بداخله، تخبرنا أن علينا أن ننصت جيدًا لصوت العِبرة المصاحب لأصوات عَبَراتنا، تخبرنا أن علينا ألا ننسى أن كل هذا قد أُنزل بعلم الله. فعدني ألا تنسى هذا.

هل تذكر يا صاحبي يوم كذا وكذا حين استيأست؟ حين ظننت أن هذا على الأرجح آخر يوم تريده من الحياة؟ حين كنت تتساءل في تعجب: وهل سيأتي علي يوم أبتسم فيه من جديد؟ حين كنت ترمق كل من يطمئنك بأن الغمة سوف تنكشف بنظرات الكراهية والتكذيب؟ أتذكر هذه الأيام؟ لقد انتهت يا صاحبي، عدني ألا تنسى هذا.

عدني بالله عليك! عدني أن تكون عادلًا مُنصفًا شاكرًا حافظًا لجميل صنع الله فيك، عدني أنك لن تكون صاحب ذاكرة متحيزة ناقمة لا يعلق بها إلا مواضع الألم والحزن وتطرد منها عامدًا كل شيء لطيف. عدني ألا تتذكر المرات التي دعوت الله فيها فلم تجد الإجابة العاجلة وتنسى كل تلك المرات التي وجدت إجابة دعائك أسرع مما ظننت.. عدني ألا تنظر إلى من حولك نظرة من يقول: يا ليتني كنت مثلهم، ثم لا تنصت السمع لأصوات نظراتهم المصوبة إلى بعض نعمك الخفية وهم يقولون: ويا ليتنا كنا مثله.

مثلما قال الله عز وجل: ﴿**فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ**﴾ (الروم ٤٨-٥٠).

فحين تأتيك البشرى بعد الإياس، فعليك أن تنظر حينها إلى آثار رحمة الله.

عدني يا صاحبي ألا تنسى أنك رأيت يومًا آثار رحمة الله!

الطريقة!

(عن النبوات والوحي والرسالة)

"فإن من يكفر بهم يكون علينا أن نسأله: وهل آمنت بما جاءوا به من طريق آخر مثلًا؟! يعني أنت رفضت رسالتهم لأنك لم تقنع بهم، أو بهيئاتهم، أو بفلسفتهم، أو بمعجزاتهم. ثم آمنت بعد ذلك بإله خالق واحد يستحق العبادة، وبيوم المعاد والبعث؟؟ لا، لم يحدث. في الحقيقة أنت رفضت (القضية) قبل أن ترفض (حاملها)، أنت كفرت بـ (الإله) قبل أن تكفر بـ (رسله)، أنت عاندت أهم حقيقة في هذا الوجود لأنك كنت من الحماقة بمكان تجعلك تحدّق في إصبع من يشير لك إلى القمر، من دون أن تفطن إلى أن هذا لا يغيّر من حقيقة وجود القمر في شيء!"

ورد في مجموعة أمثال (راي) المكتوبة عام ١٦٧٠ المثل الإنجليزي القائل:

«A bad workman quarrels with his tools».

أي أن الصانع السيء سوف يتشاجر دومًا مع أدواته ووسائله ويلقي باللوم عليها، إذ إنها في نظره ستكون السبب في فشله، وليست مهاراته الناقصة.

وهناك مثل ياباني يقول: «تشير إلى القمر، فيحملق الأحمق في إصبعك»! وهذا لأن الأحمق سوف يتشاجر هذه المرة مع أدواتك أنت! وسوف ينسى القمر الذي تشير إليه، ويحملق في إصبعك الذي تشير به.

لم يتركنا العرب من غير أن يدُلوا بدلوْ أمثالهم في هذه المسألة، فنقلوا لنا القول الخالد: «كل لبيب بالإشارة يفهم». وقال (الفلتان الفهميّ): «العبد يُقرعُ بالعصا، والحرّ تكفيه الإشارة»!

***

وضّح لنا القرآن أن أمر الإيمان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وبوحدانيّته إنما هو في الحقيقة يلمع في الوجدان البشري الطبيعي الذي لم يظلم نفسه بتعمّد إخفاء حقائق الوجود عنها! هذا اللمعان قد لا يحتاج في الواقع إلا مجرّد (تذكير) منه سبحانه بإرساله للرسل.

لذلك نجد القرآن قد عبّر عن مهمة الأنبياء بـ (التذكير)، فيقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ**﴾ (الأنعام ٧٠). ويقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ (الكهف ٥٧). ﴿**بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۞ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ**﴾ (الصافات ١٢ -١٣)!

لذلك فالباحث -بحق- عن الحقيقة لن يهتم كثيرًا بشخص من يشير له إليها، بقدر اهتمامه بالحقيقة نفسها. لن يقف كثيرًا عند شخص النبي أو الرسول الذي أرسله الله إليه بقدر وقوفه على القضيّة ذاتها التي أُرسِلَ بها هذا الرسول! لذلك يحكي لنا القرآن هذه المفارقة والمقارنة بين حال هذا وحال ذاك، فيقول: ﴿**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ**﴾ (يونس ٢).

فالمؤمن قد آمن بما جاء به (الرجل) لأن قضيته تشرح نفسها من وضوحها وقوتها وجلائها، وأما الكافر فنظر إلى الرجل ليصيح بذكاء: هذا ساحر مبين! فماذا عن الرسالة التي جاء بها إذن أيها الذكيّ؟!

فنجد ابن القيم يقول عن نبوة النبي محمد ﷺ: «ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به والملة التي دعا إليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته».

ولذلك نجد الآية تصف حال المؤمن الذي يدعو ربه ويقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ (آل عمران ١٩٣). وتجد الملائكة توبّخ الكافرين يوم القيامة فتقول لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (الزمر ٧١). وتسمع قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين يقول: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف ٦٣).

(مناديًا - رسل - رجل) هكذا في هذه الآيات ذُكِرَت بدون أوصاف أو تقييدات أو استطراد لذكر دلائل نبوّتهم! دائمًا فالاهتمام منصبّ على وضوح وقوة وصلاحية القضية التي يدعون إليها، أكثر بكثير من الذي يدعوهم إليها! كما يقول جَلَّجَلَالُهُ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المؤمنون ٧٣).

هذه القضيّة التي لم يدخر هؤلاء الرسل جهدًا في توضيح صلاحها وهدايتها. هم لم يدعوا إلى أنفسهم، ولم يدعوا إلى قضيّة غريبة أو مستهجنة أو خالية من الدلالات العقليّة الخاصة عليها.

لذلك تستمع في القرآن إلى هذا الرسول وهو يصف (نُبل) قضيّته فيقول: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (هود ٨٨). أو تستمع إلى ذاك الرسول وهو يصف (قوة) قضيته فيقول: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ (الزخرف ٢٤).

أو تستمع إلى القول الذي أمر الله نبيه محمد ﷺ أن يقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (الأعراف ١٥٨). وهو يؤكد أنه ليس طرفًا في المعادلة، وليس غاية مقصودة لذاتها، وإنما هناك ما هو أهم منه بكثير! مثلما قال عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من قبل: ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران ٥١).

❧

فإن من يكفر بهم يكون علينا أن نسأله: وهل آمنت بما جاءوا به من طريق آخر مثلًا؟! يعني أنت رفضت رسالتهم لأنك لم تقنع بهم، أو بهيئاتهم، أو بفلسفتهم، أو بمعجزاتهم. ثم آمنت بعد ذلك بإله خالق واحد يستحق العبادة، وبيوم المعاد والبعث؟؟

لا، لم يحدث. في الحقيقة أنت رفضت (القضية) قبل أن ترفض (حاملها)، أنت كفرت بـ (الإله) قبل أن تكفر بـ (رسله)، أنت عاندت أهم حقيقة في هذا الوجود لأنك كنت من الحماقة بمكان تجعلك تحدّق في إصبع من يشير لك إلى القمر، من دون أن تفطن إلى أن هذا لا يغيّر من حقيقة وجود القمر في شيء!

لذلك فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد حكم على هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾ (النساء ١٥٠) بأنهم هم الكافرون حقًا. لا لأن صنيعهم كان انتقاصًا من قدر هذا البشري الذي أرسله الله رسولًا لهم، ولكن لأن صنيعهم كان انتقاصًا من قدره هو ذاته سبحانه! كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام ٩١).

وبرغم ذلك، فإن القرآن سيجيبنا عن أسئلتنا الخاصة بأشخاص هؤلاء الأنبياء والرسل. صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

١

الوحي

"إِنِّي لأُصَدِّقُهُ بِمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ!

أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غُدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ"

أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

أحد فروع الباراسيكولوجي يتعلق بالأحلام ذات الطابع التبشيري أو التنبؤي، يعني ما يحمل دلالة تتحقق بالفعل في المستقبل. وفي كتاب (إرنست بوزانو) بعنوان (حول ظواهر الاستشفاف) ذكر أنه قد سجل ألف حالة من حالات أحلام الظواهر التنبؤية. وانتقى منهم ١٦٠ حالة ممن لا غبار عليهم من ناحية إثبات حدوث ذلك. وأما كتاب (شارل ريشي) بعنوان (المستقبل والشعور القبلي بالحدث) فقد أورد ١٤٨ حالة تعرضوا لذات الظاهرة.

لا أملك الاستعداد لتصديق هاتين الدراستين بهذه السهولة، فقد علمتني الحياة أن أتحسس مسدسي في كل مرة أسمع فيها كلمة (باراسيكولوجي) حيث تجد خرافات العلم تتسكع في هذا الاتجاه غالبًا. ولكن الفكرة أنني أؤمن تبعًا لعقيدتي بوجود هذا النوع من الأحلام فعلًا، مما يجعلني متسامحًا مع (استنتاج) البحث، بغض النظر عن البحث نفسه.

الرؤيا معروف وجودها بالتجربة عند عامة الناس، لذا اعتبر بعض فلاسفة المسلمين كالفارابي إمكان النبوة بالاستدلال بالرؤيا. كان الفارابي واحدًا من الذي حشروا عقولهم في كل ركن من أركان أسئلة الوجود، ولم تكن النبوة باستثناء بالنسبة إليه، إلا أن إمكان الرؤيا قد أقنعه، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبرنا أن الرؤيا جزء من ٤٦ جزءًا من النبوة بالفعل!

في أول أسئلتنا حول النبوات يأتي السؤال: ماذا عن الوحي؟ وكيف يمكن له أن يحدث؟

ولأنه من المفترض أن سلسلتنا متصلة من أول الكتاب إلى آخره، فإني سأفترض أنك تؤمن سلفًا بوجود الله، وبأنه خلقنا لغاية، وأن له أمرًا يريد أن يبلغنا إياه. فها هنا سؤال. أيهما أكبر في

إمكان العقل عليه، وجود الله بكامل صفاته المحيّرة للعقل، متعاليًا على الزمان والمكان، أزليًا قبل الوجود، وآخرًا بعد الانتهاء؟ أم إمكانية أن يوحي الله إلى من يشاء من عباده بطريقة ما؟

لا شك أن الأول أكبر، لذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص ٦٨). وهو هنا يوضح لك الارتباط بين تمام الإرادة في الخلق، وتمام الإرادة في اختيار رسله. ويقول سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ١-٥). وهو هنا يوضح لك كيف أن الله الذي خلق الإنسان من علق، قادر من باب أولى على أن يعلم أي إنسان تعليمًا خاصًا بالوحي ما لم يعلم.

من الطبيعي أن تتعجب النبوات. كيف لا تتعجب؟ هذا رجل بشري مثلي ومثلك ولكن يأتيه الوحي من السماء من فوق كل تلك الدنيا الشاسعة التي نحياها، ليخبرنا بمراد الله منا. هذا أمر عجيب لا شك! لكنك سرعان ما تفطن إلى أنك تصدق فيما هو أكبر من ذلك، في وجود ذلك الذي في السماء، والذي لو كان موجودًا لما كان كبيرًا عليه أبدًا أن يفعل ذلك. لذلك يجب حينها أن ينتفي العجب: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف ٦٣).

لذا ففي أولى الإجابات عن سؤال النبوة، نجد أنه يخبرنا أنها وفي أقل أحوالها: ممكنة!

٢

أمة واحدة

"والله إن خرج هذا الأمر إلا من

المشكاة التي خرج منها أمر عيسى"

النجاشي

كوّن (لويس باستير) عالم الكيمياء الفرنسي و(روبرت كوخ) الطبيب الألماني ثنائيًا متكاملًا في علم البكتيريا واستطاع الأول قهر مرض الكَلَب، واستطاع الثاني أن يتحدّى الدرن. برغم ذلك كانت بينهما خلافات قويّة لدرجة تبادل الاتهامات والتراشق بالألفاظ أحيانًا في المؤتمرات العلمية!

ما كان يحدث بين الأدباء أشد من ذلك، ولا يقتصر ذلك على السجالات الأدبية الشهيرة مثل تلك التي كانت بين (جرير) و(الفرزدق). ولكن يمكنك أيضًا أن تفتح كتاب (المعارك الأدبية في مصر) لـ (أنور الجندي) لتفطن إلى مدى الاستنفاد الزمني الذي مرّت به السجالات الأدبية في العصر الحديث في مساحة جغرافيّة محدودة كمصر، تشمل معارك مرّ بها أدباء كبار مثل زكي مبارك والمازني والعقاد وطه حسين وغيرهم!

كعادة العامّة -الذين يحملون في باطنهم الكثير من الحكمة- قد لخّصوا لنا هذه الظاهرة في قولهم: (عدوّك ابن كارك). أي أن من يقوم بنفس مهنتك سوف يكون عدوّك لا شعوريًّا! وهو أمر يمكنك التأكد منه حين تلاحظ النظرات المتحسّرة ومصمصة الشفاه التي يقوم بها المحامي حين يقرأ عقدًا كتبه محام آخر، أو التلميحات المستمرّة من طبيبك لك بأن الطبيب السابق الذي كان يعالجك هو سبب كلّ المشاكل الصحية التي تمرّ بها الآن من أول إصبعك المتورّم وحتى مشاكلك العاطفيّة الخاصة!

وكلما كانت الوظيفة تشمل استقطاب الناس وجذبهم والتفاف الناس حول صاحبها، كانت الخلافات أشدّ. لذلك فإن فئة الساسة مثلًا سوف تشملٍ أكبر عدد ممكن من الأمثلة على هذه الضغائن والخلافات، مما سيكون من السخف أن نذكر مثالًا على ذلك أو اثنين، لأن كلًا منا يعرف وحده عشرات الأمثلة!

يبقى أصحاب الفئة الوظيفيّة الوحيدة التي خلت من هذه الظاهرة هم الأنبياء، والذين كانوا أدعى الناس لذلك لو كانوا يدعون إلى أنفسهم! هؤلاء الأنبياء الذين لم يكتفوا بأن لم يُذكر عن أحدهم ولو مثال واحد بأي سند تاريخي ممكن عن انتقاص وجّهه لنبي آخر. ولكن أيضًا كانوا يصدّقون بعضهم البعض ويمدحون بعضهم البعض ويعظّمون بعضهم البعض.

يذكّرك القرآن بهذه الحقيقة التاريخية حين نسمع قول عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عن الكتاب الذي جاء به أخيه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ**﴾ (آل عمران ٥٠). أو تسمع قول مؤمن آل فرعون التابع لرسالة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو يتذكر رسالة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ويذكّر قومه بها: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ (غافر ٣٤). أو تسمع قول شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو يذكّر قومه برسالات أنبياء لم يكن بينه وبينهم علاقة دم أو نسب، ولكنهم كانوا إخوانه في الدعوة الواحدة: ﴿**لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**﴾ (هود ٨٩).

لذلك فالمسلمون لا يفرّقون بين هؤلاء الرسل. بالنسبة إليهم، فهم جميعًا حاملو رسالات السماء الذين لا يستحقون منهم إلا الاحترام والتوقير والتعظيم. ولو كفر واحد من المسلمين بـ عيسى ابن مريم عليهما السلام لخرج من دين الإسلام بنفس السرعة التي سيخرج بها لو كان قد كفر بمحمد عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ!

ربما لهذا اندهش ساسة الغرب من المظاهرات التي ملأت البلاد المسلمة اعتراضًا على (آلام السيد المسيح) لأنه أهان المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. اندهشوا بمنطق: وما شأنكم أنتم به؟! ولم يعرفوا أن المسلمين يؤمنون بالآية: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**﴾ (البقرة ١٣٦). وأن هذا القرآن قد ربّاهم على أن: ﴿**هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء ٩٢)!

مثلما فعل النبي محمد ﷺ من قبل، في القصة التي ذكرها البخاريّ في صحيحه، لما رأى اليهود يصومون يوم عاشوراء احتفالًا بنجاة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من فرعون في هذا اليوم، فصامه وقال: نحن أحق بموسى منكم!

ولأنهم من بعضهم البعض، ويشبهون بعضهم البعض، كانت رسالتهم واحدة في مجملها، كانت تدعو إلى شيء موحّد بدورها! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء ٢٥). وحكى القرآن لنا كيف أن وحدة رسالتهم كانت من القوة بمكان ما جعل القرآن يعبر عن هذه الرسالات (مختلفة اللغات والظروف) بنفس

التعبير اللغوي العربي القرآني في سورة الشعراء، حيث ذكرت لنا السورة أن جميع الرسل المذكورين فيها تقريبًا قد قالوا نفس الكلمات تمامًا بلا خلاف في حرف واحد! وهي: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ١٠٦ -١٠٩) (الشعراء ١٢٤ -١٢٧) (الشعراء ١٤٢ -١٤٥) (الشعراء ١٦١ -١٦٤) (الشعراء ١٧٧ -١٨٠)!!

هذه الوحدة بين الأنبياء كانت بسبب وحدة المصدر الذي أُرسِلَ إليهم منه! معنى ذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -ومنذ أن خلق البشرية - قد اختار طريقة موحّدة للاتصال الإلهي / البشري! هذه الطريقة لم يعرف البشر غيرها، واطّردوا عليها. ولذلك لم نسمع طوال حياتنا عن طريقة أخرى تواصل بها معنا الله غير طريقة الأنبياء والمرسلين! كما يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل ٤٣).

ونبوّة النبي محمد ﷺ كانت واحدة من هذه الرسالات التي لم يعرف البشر طريقًا غيرها، لذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران ١٤٤). بل وتعجب القرآن من هؤلاء الذين رفضوا رسالة محمد ﷺ وكأنه قد أتاهم بشيء جديد! أو بوسيلة غير معتادة! أو كأنه قد خرق ذلك الاطّراد التاريخي، وهذه الطريقة الموحّدة التي كانت في آبائنا الأولين! فيقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون ٦٨). لذلك كان رد النجاشيّ ملك الحبشة الذي كان نصرانيًّا، لما سمع آيات القرآن التي أُنزِلَت على محمد ﷺ، أن قال: «والله إن خرج هذا الأمر إلا من المشكاة التي خرج منها أمر عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ»!

لماذا نصدّق بالأنبياء والرسل؟؟!

لأنه لو كان ثمّة إلهٌ هناك وقد خلقنا لغاية يريد أن يعلمنا بها فالتاريخ يخبرنا بأن هذه هي طريقته في ذلك! ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج ٧٥).

لأن هؤلاء العباد المصطفيْن الأخيار قاموا بما هو متوقع منهم تمامًا بالنسبة لمجموعة من (موصّلي الرسائل الإلهية)، قاموا بإنكار أنفسهم، وكانوا أمةً واحدةً!

٣

هم

"إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته"

عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لو كنتَ تعرف (ديل كارنيجي) فإنك على الأرجح قد سمعت به من خلال كتب تنمية الذات خاصته، مثل كتاب (دع القلق وابدأ في الحياة) وكتاب (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس) هذان كتابان أشهر من نار على علم، واستحوذا على معظم شهرة كارنيجي الذي يُعدّ بحق الأب الروحي لهذا الفرع من المعرفة.

على أن كارنيجي له كتاب آخر على منوال مختلف واسمه (المشاهير) ويهدف فيه إلى ٢٥ شخصية عالمية غيرت التاريخ من وجهة نظره ليعرض مقتطفات سريعة من حياتهم.

الملاحظ في هذا الكتاب أنه كان يخلط (الشهرة والتأثير) بـ (طيبة) هذا الإنسان نفسه! وطوال الكتاب ينتابك العجب من ذلك السلوك حتى إنه يصف (ستالين) بأنه ترك القصر الإمبراطوري وسكن في شقة صغيرة كان يقطنها أحد خدم القيصر من قبل. فتجعلك تقول: يا له من شخص لطيف!

بينما الحقيقة فعلًا عن ستالين، هي ما تقوله عنه ابنته الخاصة والوحيدة: (سفيتلانا ستالين) حيث تقول: «أبي كان بسيطًا جدًا، وقحًا جدًا، قاسيًا جدًا»! إنه كان من أكبر سفلة المجرمين في التاريخ! كما ذكرت مجلة (لوبوان الفرنسية) في دراسة خاصة بعنوان (الأربعة الدمويون) أن (ستالين) هو أكبر طاغية في التاريخ فقد تسبب بوفاة أكثر من ٥٠ مليون إنسان بين عامي ١٩٢٧ و١٩٥٣. وحتى إن كانت المجلة الفرنسية قد بالغت، فعدد قتلاه يتم حسابه بالملايين في أكثر الدراسات تعاطفًا معه ورقّة!

ما فعله (كارنيجي) يفعله الكثيرون من الناس الذين لا يميّزون بين قوة تأثير إنسان ما، وبين ما كان عليه هذا الإنسان في نفسه من القيم والأخلاق ومعامل الجودة الإنسانيّة التي فطر الله جَلَّجَلَالُهُ الناس عليها وعلى حبها في البشر!

هذان طرفان مختلفان تمامًا في التقييم، وليسا بالضرورة يجتمعان! فـ(ديزني) صاحب الرسوم المبهجة والذي عرّفنا بعوالم مدينة البط السعيدة، هو في الواقع الحقيقي أقرب لمصاص دماء، استمدّ أمواله وشهرته من جهد آلاف الرسامين الصغار الذين لم يُنسب لهم شيء من أعمالهم! و(أديسون) الذي تعرفه البشريّة كلها بأنه قد غيّر تاريخنا بمصباحه الكهربائي وبمئات الاختراعات الأخرى، قد (سرق) في الواقع الكثير من أعمال مخترعين آخرين أقل منه في الشهرة! وبينما كان (نيكولا تسلا) هو المخترع الحقيقي للراديو الذي سرق منه (ماركوني) فكرته ونسبها إلى نفسه. وبمناسبة (ماركوني) فهو كان في كتاب كارنيجي أيضًا ويظهره كشخص عبقري أمين آخر!

وأما الأنبياء والرسل فقد حازوا على نصيب الأسد في كل من طرفي هذا التقييم. فهم كانوا على قدر هائل من التأثير البشري، وكانوا أيضًا على قدر عظيم من الأخلاق والقيم والسيرة الذاتية العطرة والذمّة ناصعة البياض!

يمكننا أن نلاحظ ببساطة أن كل الرغبات الدنيوية هي رغبات وليدة ومسكينة بالمقارنة بالوحش الأكبر: الرغبة البشرية للأوراق الخضراء والذهب الأصفر وكل ما يلمع وكل ما يُجمع وكل ما يُكال. الرغبات البشرية في كثير من الأحيان يمكن فك رموزها وتبسيط تعقيدها إلى رغبة بسيطة وهي البحث عن المال. فنحن كما قال الله عز وجل، نحب المال حقًا حبًا جمًا.

علّمنا محققو القصص البوليسية أن نبحث دائمًا عن الدافع، وعلمتنا الحياة أن الدافع في الحقيقة هو الذي يبحث عنا. لذلك كان في نظري من أجمل وأقوى عبارات القرآن تلك العبارة التي قالها مؤمن آل ياسين لقومه: ﴿**اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ (يس ٢١). اتبعوا أصحاب الذمّة السليمة والأخلاق الحسنة والسيرة العطرة.

لم يقتصر الأمر على الذمّة المالية والاجتماعيّة فقط، ولكن هناك أيضًا الذمّة الأخلاقية، مثل تلك التي اشتهر بها النبي محمد ﷺ وسط قومه الذين كانوا على علم بأنه لم يشرب الخمر ولم يخن العهد ولم يكذب أو يظلم أو يسبّ أو يفحش أو يدخل أحد بيوت البغاء التي كانت تملأ مكة!

هذا النبي الذي كانوا يعرفون تمامًا صدق القرآن حين قال عنه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (ن ٤). لذلك كان التساؤل القرآني شديدًا عليهم حين طالبهم بإعمال عقلهم الذي يشهد لهم بالتاريخ الحميد لهذا الرجل بما يتعارض مع جرم ادّعاء النبوة، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**﴾ (المؤمنون ٦٩)؟!

وهناك جانب آخر من براءة هذه الذمّة ، وهو انتفاء المكاسب المحتملة!

فلو كان هذا النبي أو ذاك يريد أن يعلو على قومه لما اختار أن يعادي كبراء القوم كل هذا العداء، ما كان اختار أن تكون دعوته من النوع الذي يحبه ضعفاء القوم المطحونين في رحى الحياة أكثر من المترفين المدللين الذين يملكون المال والجاه والشرف! لذلك ما حدث هو بالفعل ضد ذلك. لم يفوزوا إلا بمعاداة قومهم لهم، كما قيل لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ (هود ٦٢). وقيل لشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود ٨٧). استهزاءً وكأنهم يقولون: إنك لأنت السفيه الضال!

لو كان الأنبياء يريدون ذلك لوافقوا هؤلاء على حلول وسيطة على طاولة المفاوضات! لوافق النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طلبهم بتبديل بعض الآيات التي لم يحبها أشراف القوم في القرآن! ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس ١٥).

لو كان هو من ألف القرآن لكان استجاب لهم بالتبديل والحذف لما يريدون، وحينها لم يكن سيشرّد في بقاع الأرض بين حرب وهجرة وفقر وتجريح بسبب هذه المعاداة، بل كان سيكون الصديق والشريف والحبيب في قومه، وتفد إليه كل قبائل العرب تتعلم منه وتقدسه، وهو مرتاح على أريكته يأكل الضأن والثريد، فقط لو أنه بدّل بعض أبيات شعره بأخرى! في المقابل يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ (الإسراء ٧٣).

فماذا سيستفيد؟!

ويحكي لنا القرآن تصرّف نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي كان سيكسب أعلى فئات المجتمع غنىً ومكانة وعلوًّا، فقط لو أنه طاوعهم وتخلّص من الفقراء الضعفاء الأراذل من مجلسه، إنها فرصة عظيمة إذن للباحث عن المال أو القوة أو الشهرة أو القبول، ولكن لم يكن له أن يفعل ذلك عَلَيْهِ السَّلَامُ أو أن يقول غير: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (هود ٢٩).

لم يقتصر الأمر على مجرد الزهد في العلوّ وعدم طلبه. بل لم تكن أصلًا هذه المكانة الاجتماعية الرفيعة التي يقدسها الناس في أعين هؤلاء الرسل شيئًا أمام عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي قدّسوه وألّهوه ولم يروا سواه. كما يحكي لنا القرآن رد شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال له قومه:

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (هود ٩١). أي لولا قدر عشيرتك وأهلك، واسمك الذي تحمله، ومكانتك الاجتماعية بيننا، لولا ذلك لكنّا رجمناك! كان رده عليهم: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ (هود ٩٢) هذا رجل لا يرى -ولا يريد أن يرى- إلا الله!

ليس هذا كل شيء، ولكن مما يدل على صدقهم أنهم آمنوا بأنفسهم كل هذا الإيمان الذي يجعل نفوسهم تتقطّع حزنًا على من لم يؤمنوا برسالتهم! إن كانوا مدّعين، فلم العناء إذن؟!

هذا الحرص يظهر من تاريخ وسيرة النبي محمد ﷺ، والذي حكى عنه القرآن فقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف ٦). ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء ٣). وباخعٌ: أي مهلك. يذكر في القرآن أنه يهلك نفسه من الحزن على من لا يؤمن بدعوته (هل هذا سلوك رجل يدّعي؟) ولا يذكر في القرآن (لو كان ألفه بنفسه) أي إشارة من قريب أو من بعيد إلى حزنه على خديجة حبه الأول، أو عمه أبي طالب؟!

هذا الحرص والألم الداخلي كان سمة عامة بينهم جميعًا، حتى إن صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وبعد أن أهلك الله قومه الذين عاندوه وآذوه، وقف على آثارهم وقال: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف ٧٩). وهو قريب مما قاله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ في نفس الموقف: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف ٩٣). ويحكي لنا القرآن عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قال عن قومه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ (نوح ٥ -٧). لم كان العناء؟!

كانوا يحرصون عليهم كما يحرصون على أنفسهم، كانوا يريدون أكثر ما يريدون في هذه الحياة الدنيا أن ينقذوهم من مصير مظلم كانوا موقنين به، ولم يره هؤلاء! هذه الرأفة البادية والرحمة المستمرة بهم، إنما تصلح دليلًا مستقلًا على صدق ما يدعونهم إليه! كما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة ١٢٨).

❧

الأنبياء الذين تكبّدوا عناء دعوتهم لم ينالوا من أجل ذلك مالًا أو رفاهية، مات النبي موسى في تيه الصحراء، ومات النبي محمد ودرعه مرهونة، وكاد النبي أيوب أن يموت من الجوع، عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

هم الذين لم يطلبوا أجرًا ولا جاهًا ولا منزلة. هم الذين كانت تعاليمهم أعظم عندهم من أنفسهم، وكانت أخلاقهم أسبق لدينا من شهرتهم. هم الذين فرّطوا في الكثير من الفرص للفرار

من المعاداة، وفرّطوا في فرص أكثر منها ليكونوا أحباب الشعب وأبطال الحضارة والتغيير! هم الذين لم يدفعهم كل هذا البخس لكرامتهم المعتادة وكل هذا الظلم لمكانتهم الحقيقية على أن يكونوا غلاظ القلوب، قساة الأنفس، مسلوبي الرأفة!

هم دعاة الرحمة، وفرسان الأناة، وأعمدة النقاء، وينابيع البراءة، وأبطال القيم، وأغلفة الجمال، وأنوية الأناقة. هم اختيارات الله الذي كان قد كشف مسبقًا عن مكنونات صدور العالمين. هم رسل ربي صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٤

بشريّون

"إنما أنا عبد"

النبي محمد ﷺ

يحكي (أنيس منصور) في كتابه (حول العالم في ٢٠٠ يوم) عن رحلته التي قام بها للقاء الدلاي لاما الرابع عشر (تينزن جياستو) زعيم التبت (وإلههم) والذي طردته الحكومة الصينية إلى الهند بعد احتلالها للتبت في أوائل الخمسينات، تينزن يبلغ من العمر الثمانين عامًا الآن ولكنه وقت رحلة أنيس منصور كان شابًا ثلاثينيًا نحيلًا ومع ذلك يؤمن قومه أنه خليفة الإله يمشي على الأرض.

يحكي لك كيف وقف الريفيون البوذيون البسطاء أمام شرفة الدلاي لاما بالساعات كي يخرج عليهم ليتمتم بكلمات غامضة سريعة ثم يرحل وكلهم هناء وسرور أن تفضّل عليهم الإله بالخروج عليهم من (البلكونة) ويلقي عليهم ببركات كلماته، ثم يحكي لك الأستاذ أنيس كيف أنه قد نال شرفًا لا يتخيله أحد هؤلاء القوم بأن وضع الدلاي لاما يده على أرنبة أنفه في أول اللقاء، وبعد أن جلس لاحظ الأستاذ أنيس أن ساق الدلاي لاما كانت مليئة بالدمامل وعليها آثار الحكّ، وهذا يعني أن يده المباركة التي وضعها على أنفه نقلت له كل جراثيم الدنيا! وكانت هذه الذكرى المقززة من أقوى ذكرياته في هذا اللقاء!

إن ما يقوم به الدلاي لاما يشبه ما يقوم به الدجّالون في بلادنا المسلمة الذين يقنعون العامة أن لهم فضلًا ما يجعلهم يستطيعون أن يرزقوك بالولد الذي تحلم به ولكن عليك أولًا أن تتبرع بعدة آلاف من الجنيهات. على ما يبدو بركات سيدنا الشيخ لا تعمل إلا بوضع العملة، مثل كبائن هاتف الشوارع!

على أن كل هذا ليس بشيء أمام ما كانت تقوم به الكنيسة الكاثوليكية في النصف الأول من الألفية السابقة، حيث يحكي (آرون جوريفيتش): "تطورت عبادة القديسين في العصور الوسطى

إلى درجة أنها أخذت خصائص العبادة الوثنية، وتقبلت الكنيسة هذا الأمر، كانت العلاقة بين الناس وبين القديسين واضحة، ففي مقابل ما كان يقدمه التابعون للأبرشيات من صلوات وقرابين كانوا بدورهم يترقبون أن يتلقوا الثواب كاملًا في صورة معجزة. والقديس الذي لم تكن له معجزات لم يكن يتمتع بشعبية أو جلالة!».

امتد الطغيان الكنسي من عامة الناس إلى الملوك، فقد وصلوا إلى مرحلة أن كانوا المؤسسة الرئيسية لد (شرعنة) االاجتماعية طوال التاريخ الأوروبي منذ إمبراطورية (شارلمان)، حيث كان الملوك وقتها يحكمون بـ (أمر) الله، لأنه واقع عليهم (فضل) من الله، كما فسّرت الكنيسة لعامة الشعب، وكان أحيانًا رجل من العامة يُصَبّ عليه (فضل الله) فيصبح ملكًا، بينما يُزال (الفضل) من الملك السابق، مثلما حدث للملك تشارلز الأول، والدليل على زوال (فضل الله) عن الملك تشارلز أن قُطِعَت رأسه كما قال الجنرال (كرومويل)!

واستمر الطغيان الكنسي حتى وصلت إلى فكرة (صكوك) الغفران الإلهي التي يمنحها رجال الدين النصراني إلى الكرماء الذين يغدقون الكنيسة بأموالهم! من جديد هم يوزّعون البركات الإلهية على حسب هواهم. وكانت أمثال هذه التصرّفات هي ما دفع (مارتن لوثر) إلى الثورة على الكاثوليكية والدعوة إلى البروتستانتية والتي تقلّص من حجم تأثير رجال الدين في الدين والسياسة!

دائمًا وأبدًا كان من عادة الدجاجلة على اختلاف دياناتهم، استغلال الدين للتمسّح بصفات الإله وادّعاء القدرة على دفع الضرر وجلب المنافع. ومن الغريب أن أدعى الناس لفعل ذلك (الأنبياء أنفسهم) كانوا في حالة إنكار تام للذات، بحيث لم يدّخروا جهدًا في إقرار وتكرار أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فضلًا عن أن يملكوه لغيرهم! أنهم لا يعلمون إلا ما يُعلّمهم الله إياه. أنهم مجرد بشر مثلنا مثلهم.

كما أمر الله جَلَّجَلَالُهُ نبيه محمد ﷺ أن يقول: ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأعراف ١٨٨). وكما يقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ**﴾ (هود ٣١).

الأنبياء يقررون أنهم مساكين تمامًا، لم يدّعوا أنهم على علم بما يحدث لنا غدًا، بل هم ليسوا على علم بما يحدث لهم هم، وهم لا يخجلون أبدًا من هذه الحقيقة! ﴿**قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ (الأحقاف ٩).

هذا الفقر المطّرد، وهذا الاعتراف بالضعف، بسبب أنهم مجرد بشر، يفعلون ما يفعله البشر: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء ٨). ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (فصلت ٦).

وكان لا بد من أن يكونوا بشرًا وليسوا ملائكة مثلًا. لسبب بسيط، أنك في المعتاد لا يحدث أن تقابل ملاكًا يمشي على الأرض فتتمنى له صباحًا سعيدًا وتكمل طريقك إلى عملك! لا، بل لو كان هناك ملاكٌ على الأرض لكان هذا خارقًا لكل ما هو معتاد أو معروف لدى البشر! كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا ۝ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (الإسراء ٩٤-٩٥). يعني وقتها سيخرج الإيمان بهذا الرسول المَلَك من نطاق (الغيب) إلى نطاق (الشهادة). وقد سبق ووضّحنا في فصل سابق كيف أن الإيمان لا بد وأن يكون بالغيب لا بالشهادة!

لا بد أن يكونوا بشرًا، لأنك تحتاج إلى نبي يتكلم بنفس لغتك ومصطلحاتك الدارجة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ﴾ (إبراهيم ٤). فلو كان هذا النبي من جنس خلقي آخر أصلًا، لواجهت بعض الصعوبة في ذلك!

لا بد أن يكونوا بشرًا لأن بشريّتهم ستوقعهم في الخطأ! كما أخطأ النبي محمد ﷺ وعاتبه القرآن في عدة مواضع: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب ٣٧). ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ (عبس ١-٣). ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة ٤٣). وحينها سيتسنى لك أن ترى كيف يتعامل البشري الصالح مع الله جَلَّجَلَالُهُ حين يخطئ، وكيف يتعامل الله معه! سوف ترى كيف هي رحمة الله جَلَّجَلَالُهُ وعفوه، وكيف هو خوف النبي ﷺ ورهبته من خطئه!

لا بد أن يكونوا بشرًا محدودي القدرات كغيرهم من البشر، مثلما قال الله جَلَّجَلَالُهُ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ (الأنعام ٣٥). أي أنك لن تستطيع أن تأتي بهذا النفق الأرضي أو السلم السمائي، ولن تستطيع أن تأتيهم بما يطالبونك به: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (الأنعام ٥٧). لا بد من ذلك حتى ندرك من هذه الإمكانيّات المحدودة أنه وبرغم كونهم قد صاروا أنبياء إلا أن هذا لن يجعلهم أبدًا يشاركون الله جَلَّجَلَالُهُ في ملكه، أو إرادته، أو قدرته، أو علمه، عن كل شريك أو منازع!

لا بد أن يكونوا بشرًا ممّن خلق ليست لهم من المكانة والمنزلة عنده أكثر من أن يكونوا مجرد عباد صالحين له سبحانه. كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عنهم: ﴿**ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (الأنعام ٨٨). ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾ (الفرقان ١). لا بد من أن يكونوا كذلك حتى ندرك أن مكانتهم السامية بين خلقه، ومنزلتهم الرفيعة عنده، لن تعفيهم من أن يكونوا لله ذليلين، له منقادين، ليس لهم عليه سلطان، ولم يتخذ منهم أحدًا وليًا من الذل!

كان لا بد أن يكونوا بشرًا، حتى نعرف نحن من هو الله حقًا!

٥

التعامل الإلهي

"لم يُعرَف أن الحماسة قد حققت مآثر عظيمة كهذه من قبل"

(هيجل) متحدثًا عن الإسلام

قال مرة أحد سفراء الهند في الأرجنتين: «السفير هو شخص يفكر مرتين قبل أن يقول لا شيء»! حيث لك أن تتخيل كم الرعب الذي يكون فيه السفير لو ثرثر وتكلم بكل ما يحلو له! هو لن يخاف من الدولة التي هو فيها حيث لديه حصانة دبلوماسية بطبيعة الحال تحميه من أي ضرر أو اعتقال أو مساءلة. ولكنه سيكون مرعوبًا بالطبع من الدولة التي يمثلها، والتي يتحدث باسمها بأشياء غير محسوبة ولا توافق عليها حكومته!

وفي حالة الأنبياء والرسل فإن مثال السفير لا ينطبق تمامًا، حيث الأمر أخطر بما لا يقاس، أن يتحدث أحدهم بالنيابة والرسالة عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. لو أخطأ في ذلك فهو يعلم أن حسابه لن يكون يسيرًا! يمكنك أن تلحظ هذا من كلام عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما يسأله الله جَلَّ جَلَالُهُ يوم القيامة: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (المائدة ١١٦). فيقول: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة ١١٦)!

لو افترضنا أن هؤلاء الأنبياء دجّالون، ويتحدثون عن الإله كذبًا، فلماذا لا ينتقم الله منهم إذن؟! هل لا يعلم أنهم قد تكلموا باسمه؟ أم أنه لا يهتم؟!

لذلك لما قال المشركون عن النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يفتري الكذب على الله، قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الشورى ٢٤). فما الذي سيمنع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذن من أن يتدخل لمنع هذا الافتراء؟!

بل إن أحد هؤلاء الأنبياء لو تقوّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما لم يوح إليه، لو ادّعى واختلق شيئًا من تلقاء نفسه، لما استطاع أحد منا أن يمنع عنه عقاب الله الشديد الواقع به! كما يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة ٤٤ -٤٧).

❀

هذا الخذلان الإلهي لمن يدّعي النبوة وهو ليس بنبي، قد طال بالفعل الكثيرين! فلديك مثلًا (غلام أحمد القادياني) الذي ادّعى النبوة في العصر الحديث، حيث وسائل الإعلام الكفيلة بإيصال صوته إلى العالم كله، وبرغم ذلك لم يسمع معظم الناس عنه ولا عن دعوته المشوّهة ولا رأوا وجهه -لحسن حظهم البالغ- ومات في النهاية في الحمام بنوبة إسهال قويّة!

وأما (الحسن بن الصبّاح) الذي ادّعى الإماميّة، وأسس في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي الدولة النزاريّة الباطنيّة، كان يغري أتباعه بنبات القنّب الهندي (الذي نعرفه اليوم باسم الحشيش) فيغيّب عقولهم، وقال (ماركو بولو) الرحالة الإيطالي أن الحسن بن الصباح كان يُدخل أتباعه إلى حدائق غنّاء مدعيًا أنها جنة عدن.

وبالتالي حصل على واحد من أكثر الجيوش ولاءً وهم (الفداويّة) الذين كانوا مجموعة من الانتحاريين المتحمسين الذين ينفذون له عمليات الاغتيال التي يموتون فيها ولا يهتمون، حتى أطلق الغرب على دولة الحسن بن الصباح اسم: دولة الحشاشين Hashshashin. ومنها أتت الكلمة الإنجليزية: Assassin وتعني: سفاح!

هذا الحسن قد مات في قلعته واختلفت الأقاويل في سبب موته. وفي كل الأحوال فهو قد ترك دولته وأتباعه في قلعة محصّنة وحيدة وقد عادت الجميع من حولها وبالفعل انتهت على أيدي المغول في ١٢٥٦ ثم أجهز على باقيهم الظاهر بيبرس في ١٢٧٣. لم ينصره الله أو يظهره على أحد، وإنما كان (الحشيش) والجنون وقلة العقل هو ما جمع حوله أتباعه فقط!

❀

ربما كان هذا التعامل الإلهي بالخذلان لمدّعي النبوة الدجاجلة هو واحد من أكبر العوامل التي تفرق بينهم وبين الأنبياء الصادقين. ونتذكر عند ذلك القصة التي رُوِيَت عن ملك من ملوك النصارى من ولد قيصر سمع من يسب النبي محمد ﷺ، فجمع علماء النصارى وسألهم عن المتنبئ الكاذب، كم تبقى آثار نبوته؟ فأخبروه بالنقل لما عندهم من أخبار أن المتنبئ الكاذب لا يبقى أثره إلا مدة قريبة (حوالي ثلاثين سنة). فقال لهم: هذا دين محمد له أكثر من خمسمائة سنة وهو ظاهر مقبول متبوع. فكيف يكون هذا كذابًا؟».

حيث نجد أن نصرة الله لأنبيائه شيء آخر! فلديك مثلًا نبي الإسلام محمد ﷺ الذي أسس دولته في ثلاثين عامًا فقط لتبدأ من بضعة خيام في مدينة (يثرب) إلى دولة الإسلام التي كانت أطول الإمبراطوريّات الحاكمة عمرًا في التاريخ: ١٣٠٠ عامًا تقريبًا.

الأمر الذي جعل رجلًا عنصريًا بشدة مثل (مايكل هارت) والذي أقام منذ ستة أعوام فقط (٢٠٠٩) مؤتمرًا للحفاظ على الإرث اليهودي النصراني الأمريكي من المهاجرين المسلمين والأفارقة! هذا الرجل الذي لا يدّخر جهدًا ولا مناسبة في توضيح أنه ينحاز إلى الرجل الأبيض النصراني وكل ما عداه فهو أقل منه. قام بتأليف كتابه الأشهر: (المئة، ترتيب أكثر الشخصيات تأثيرًا في التاريخ)، وكانت أول شخصية فيه: محمد ﷺ. واعتذر هو عن ذلك بعدها وقال: أنا لا أعتقد أن نبي الإسلام محمد أعظم من المسيح مثلًا، ولكن هذا كان لتأثيره الكبير في إنشاء دولة الإسلام وثقافتها!

وأما (ويل ديورانت) فيقول في (موسوعة الحضارة): «وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس لقلنا إن محمدًا كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع من المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به إلى دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء. وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يُدانِه فيه أي مصلح عبر التاريخ كله. وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم دينًا سهلًا واضحًا قويًا وصرحًا خلقيًا».

بينما كان رأي (صامويل هنتنجتون) في كتابه (صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي): «لا آدم سميث ولا توماس جيفرسون سيفون يفيان بالاحتياجات النفسية والعاطفية والأخلاقية لأصحاب الديانات الأرضية، ولا المسيح قد يفي بها، وإن كانت فرصته أكبر. على المدى الطويل محمد سينتصر»!

هذه النصرة التي عبّر عنها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصورة متحدية للغاية في قوله: ﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ (الأنعام ١٣٥).

وكان رد القرآن على هذا الذي ظن أن الله لن ينصر نبيّه، أن قال له: ﴿**مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾ (الحج ١٥). بينما كان رده على من كان يتربص وينتظر نوائب الدهر أن تنال من شخص النبي ﷺ، أن قال له: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۝ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ**﴾ (الطور ٣٠-٣١).

لاحظ أن اثنين من الاستشهادات الأخيرة كانت من سور مكية، أي نزلت قبل الهجرة، وقت الضعف والمسكنة والمقاييس المادية المتراجعة تمامًا. وبرغم ذلك كان النبي **محمد** ﷺ واثقًا من النصرة والتمكين. لماذا؟ لأن هذا هو التعامل الإلهي المعتاد مع رسله وأنبيائه، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ (الصافات ١٧١ -١٧٣)!!

نجد الحجة العقلية البديعة في القرآن تخبرنا: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ**﴾ (يونس ١٧). فهو هنا يشرح لنا أن النبي لو كان كاذبًا فهو ظالم، ولو كان صادقًا وعانده قومه فهم ظالمون، فما علينا إذن إلا أن نرى التعامل الإلهي مع كل واحد فيهم، ونرى من منهم لم يفلح لنعرف أنه من المجرمين!

٦

القرآن

"إن هذه الريشة المبدعة ما مسّت جامدًا إلا نبض بالحياة

ولا عرضت مألوفًا إلا بدا جديدًا، كسائر معجزات الحياة!"

سيد قطب

ترجم (أنيس شروش) المبشّر النصراني الفلسطيني كتابًا شبيهًا بالقرآن من العربية للإنجليزية، والكتاب مكتوب بواسطة اثنين من أصحاب الأسماء المستعارة، وعلى الأرجح فإن الدكتور أنيس واحد منهما، على حد قول أنيس: «إن الكتاب مشابه للقرآن من حيث الأسلوب والجوهر، لكنه يحتوي على رسالة الإنجيل». وذكر أنيس أنه فعل ذلك ليثبت أن القرآن يمكن معارضته. وليس كما يدعي القرآن أنه يعجز من يحاول أن يعارضه. وسمى أنيس كتابه (الفرقان الحق) وقد صدر علنًا في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٩.

تعالوا نرى بعض آيات الفرقان الأمريكي: «يا أيها الذين ظلموا من عبادنا لقد جاءكم الفرقان الحق يبين لكم كثيرًا مما كنتم تجهلون من الإنجيل الحق، ومما كنتم تكتمون» (سورة الصلب: ١، ص:٤٤). «فرقان أنزلناه نورًا ورحمة للعالمين، وما يزيد الذين كفروا إلا نفورًا، إذ جعل الشيطان على قلوبهم أكنة أن يفقهوه، وفي آذانهم وقرًا، ويزيد الذين آمنوا بالإنجيل الحق من قبله نورًا وإيمانًا فوق إيمانهم، فهم لا يعثرون» (سورة الفرقان:١٣، ص: ٥٦). «وما كان لكم أن تجادلوا عبادنا المؤمنين في إيمانهم وتكفروهم بكفركم فسواء تجلينا واحدا أو ثلاثة أو تسعة وتسعين فلا تقولوا ما ليس لكم به من علم وإنا أعلم من ضل عن السبيل» (سورة التوحيد:٢).

هل يذكركم ذلك بكتاب آخر؟ يعني حتى كان بإمكانك أن تختار ألفاظًا مختلفة أو أساليب بلاغية جديدة. أي شيء يدل على الإبداع.

ويبدو أن كاتب الفرقان قد ملّ أو شعر بالإرهاق عند وصوله إلى سورة إبراهيم، فلم يعد يبالِ حتى بأن يصنع كبير تغيير في الآية الأصلية قبل نسخها، فنجد أنه يقول: «ومثل الذين كفروا

وكذبوا بالإنجيل الحق أعمالهم كرماد، اشتدت به الريح في يوم عاصف، لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال الأكيد» (سورة الثالوث: ١٨، ص:٦٦). بينما الآية الأصلية تقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (إبراهيم ١٨). آها! لقد بدل (أكيد) بـ (بعيد)! لقد فهمت الآن.

يبدو أن الدكتور أنيس قد فهم المعارضة المذكورة في القرآن من باب التحدي بطريقة خاطئة، فالقرآن يتحداك بالفعل بأن تأتي بكلام مثله، ولكن بشرط أن تحتفظ بكرامتك وأنت تفعل ذلك! المعارضة شيء وغش تلامذة الابتدائية من كراسة النصوص شيء آخر.

ما فعله أنيس شبيه بما فعله مسيلمة الكذاب من قبل، فقد ادعى أنه سوف يأتي بقرآن كما أتى النبي بقرآن، فقط هناك فارق واحد، القرآن الذي جاء به مسيلمة كان يقول: «الْفِيلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ، لَهُ زَلُّومٌ طَوِيلٌ»! ويقول: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْجَوَاهِرْ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَهَاجِرْ». ويقول: «وَالطَّاحِنَاتِ طَحْنًا، وَالعَاجِنَاتِ عَجنًا، وَالخَابِزَاتِ خبزًا، وَالثَّارِدَاتِ ثَرْدًا، وَاللَّاقِمَاتِ لَقمًا، إِهَالَةً وَسَمْنًا». سمنة؟!

لذلك لما وفد عمرو بن العاص (قبل أن يسلم) إلى مسيلمة، فقال له مسيلمة: «ماذا أنزل على صاحبكم في ذلك الحين؟» قال: «أنزل عليه سورة وجيزة بليغة: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر ١-٣). ففكر مسيلمة ساعة ورفع رأسه وقال: «وأنا أنزل عليّ مثلها». فقال له عمرو: «وما هي؟». قال: «يا وبر، يا وبر، إنما أنت إيراد وصدر، وسائرك حفر نقر». ثم قال لعمرو: «كيف ترى يا عمرو؟». قال له عمرو: «والله إنك لتعلم أني أعلم أنك كاذب»!

ﻫ

ثق تمامًا أن هذا القرآن لو لم يكن على قدر معجز من البلاغة والإتقان ما كانت صناديد قريش اللغوية -والذين كانوا أحرص الناس على إحراج النبي محمد ﷺ وانتقاص دعوته- تركت الفرصة إلا واستغلتها لتشهّر بهذا الخطأ أو تلك الركاكة في هذا الكتاب الذي سبب لهم الكثير من المشاكل والحروب والصراعات! بل وتحداهم القرآن أكثر من مرة وبشكل يظهرهم بمظهر سيء وضعيف للغاية، دون أن يكون لديهم القدرة على إجابته فضلًا عن إفحامه!

تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة صغيرة على نفس القدر من الفصاحة والإسباغ المتين، مع ملاحظة أن كل وسائل المساعدة ممكنة، وكل الخيارات مفتوحة، وكل التحالفات والتجمّعات متاحة

لإخراج أفضل نتيجة ممكنة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس ٣٨).

قالوا: هذه ترهات وأباطيل وكلام فارغ! فاجأهم القرآن بأن تحداهم بأن يأتوا هم أيضًا بترهات وأباطيل وكلام فارغ بشرط أن يكون على نفس القوة من ناحية الأسلوب والوضوح والقوة! ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود ١٣).

المقصود أن القرآن كان معجزة حقيقية كما قال النضر بن الحارث الكافر لقومه الكفار: «يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد. قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر. لا والله، ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة تخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر. لا والله، ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه. وقلتك: مجنون. لا والله، ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه. يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم. فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم»!

القرآن أتى بأسلوب خطابي جديد بالنسبة للعرب، فهو ليس بشعر ولا بنثر ولا بخطابة ولا برسائل، ليس أسلوبه معروفًا لدى العرب من قبل. ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس، عربهم وعجمهم.

بل حتى ليس ككلام النبي ﷺ نفسه! فيمكنك ببساطة أن تلحظ أن أسلوب الأحاديث النبوية وألفاظها وبلاغتها شيء، وأسلوب القرآن وألفاظه وبلاغته شيء آخر تمامًا. لو كانا من نفس المصدر (نفس النبي محمد)، فلماذا اختلفا؟

وليس هذا الكتاب بمجال للسرد والتفصيل في بيان معجزة القرآن اللغوية على كل حال. يمكنك أن تطّلع على هذا التفصيل في كتاب (النبأ العظيم) لمؤلفه عالم الأزهر المصري الفذ (محمد عبد الله دراز)، أو كتاب (إعجاز القرآن) للأديب الرقيق (مصطفى صادق الرافعي)، أو عشرات الكتب البديعة التي فصّلت في هذا الأمر وقررته. فإن لم تكن قد قرأت أحد تلك الكتب من قبل، فأنا أقترح عليك أن تبدأ فيها سريعًا.

هناك جوانب أخرى لإعجاز القرآن، وهو إخباره بالغيوب!

مثل إخباره بأن النبي ﷺ سوف يتغلب على كفار زمانه من قبل أن يحدث هذا: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ (آل عمران ١٢). من أين توقع النبي ذلك؟! وقد كان وضعهم العسكري في حال ضعيف جدًا بالنسبة إلى أعدائهم.

بل وفي الآيات الأخرى التي نزلت في مكة بينما هم مضطهدون من كل صوب: ﴿**أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۞ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ (القمر ٤٣-٤٥). حتى كان عمر بن الخطاب يتعجب من هذه الآية، وتذكرها وابتسم وهو يراقب كفار مكة يفرون من أمام المسلمين بالفعل في غزوة بدر.

وإخباره بأن الروم سوف تغلب الفرس في بضع سنين (عدد من ٣ إلى ٩ من السنين): ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾ (الروم ٢-٣). هل لك أن تتخيل أن يراهن رجل عاقل مثل محمد ﷺ بكل شيء يملكه على أمر يوف يتبين فيه كذبه بعد تسع سنوات؟! ولكن ذلك لم يحدث. فالروم قد غلبوا الفرس بالفعل بعد تسع سنوات من الآية، وهذا لأن الآية كانت من عند علام الغيوب.

وإخباره بتحقق رؤيا النبي بدخول مكة: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ**﴾ (الفتح ٢٧). وإخباره بهلاك رؤوس الكفر وموتهم على الكفر: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾ (المسد ١-٣).

***

هناك جانب ثالث من الإعجاز، وهو الإعجاز التشريعي.

أقر (مارسيل بويسارد) أن «أصول القانون الدولي الحديث مستمدة بالأساس من دواوين الفقة الإسلامي». ونجد أن تشريع نابليون مستمد من الفقه المالكي. بينما تم الاعتراف بالشريعة الإسلامية كمصدر عالمي للتشريع في القانون المقارن الدولي في (لاهاي) في ١٩٣٢، وفي المؤتمر الدولي بواشنطن عام ١٩٤٥، وفي شعبة الحقوق بالمجمع الدولي للقانون المقارن في باريس عام ١٩٥١.

كيف يمكن للنبي وهو الذي امتهن التجارة ورعي الغنم أن ينجح في تشريع كل جوانب الحياة بهذا التكامل المفاهيمي المعقد؟ يخبرنا القرآن بإجابة هذا اللغز: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ**﴾ (النساء ١٠٥).

وهناك جانب رابع للإعجاز: إعجاز عدم مخالفة القرآن للعلم التجريبي في تفصيلة واحدة برغم أنه قد نزل قبل الثورة العلمية بألف عام على الأقل، وهذا سوف نتحدث عنه في فصل لاحق. وجانب خامس للإعجاز: إعجاز موافقته للفطرة والعقل وإجابته لكل أسئلة الوجود الإنسانية المليئة بالحيرة والمزالق والمتاهات. ولعل هذا الكتاب الذي تقرؤه الآن يكون دليلًا على هذا النوع من الإعجاز بالذات!

والسؤال الآن، هل يمكن للنبي محمد ﷺ أن يأتي بكتاب معجز كهذا من تلقاء نفسه؟

أدعوك إلى قراءة الفصل التالي.

٧



"يمتَنع أن يُجعَل الخبر المجرد المحتمل

للصدق والكذب دليلًا وحجة على الناس"

ابن تيمية

أتبسّم في كل مرة أقرأ فيها هذه الحكاية التي أعشقها: ففي السيرة النبوية لابن هشام أن (العباس بن مرداس) الشاعر أتى النبي محمدًا ﷺ فقال له ﷺ: أنت القائل:

«فأصبح نهبي ونهب الـ عبيد بين الأقرع وعيينة»؟؟

فقال (أبو بكر الصديق) يصحّح الخطأ الشعري الموسيقي الذي وقع فيه النبي محمد ﷺ: «بين عيينة والأقرع» فقال ﷺ: «هما واحد»، فقال أبو بكر: «أشهد أنك كما قال الله: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ**﴾ (يس ٦٩).»!!

وأعجب من ذلك، حين تقرأ تفسيرات وتأويلات وخلافات علماء الإسلام في ذكر لغز الواقعة المذكورة في صحيحي البخاري ومسلم أن النبي محمدًا ﷺ نادى على أصحابه وقال لهم: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»! فقال (الأخفش) في محاولة تفسير ذلك اللغز: أن الرجز ليس بشعر. وقال (المازري) و(ابن القطاع): أن الرجز شعر، ولكن المقطوعات الكلاميّة الموزونة في كلام الناس غير المقصود نظمها في قصيدة - كحال هذا الحديث - ليست شعرًا. بينما أتى علماء آخرون بأدلة تؤكد أن هذا النظم لم يكن من نظم النبي ﷺ نفسه ولكن كان يتمثل كلام أحد أصحابه قاله له!

وعلى كل حال، فلا يعنينا ذلك الآن بقدر ما يعنينا أن نفهم لماذا كان هذا الكلام من النبي ﷺ لغزًا عند علماء الإسلام إلى هذا الحد؟!

الحقيقة أن السر في ذلك أن أحدًا لم ينقل في التاريخ ولا السيرة كلها -التي نقلت الشاردة والواردة من كلام النبي محمد ﷺ - أن النبي قد نظم شعرًا قطّ أو كان يقدر على نظمه أصلًا لو أراد!

إلى هذا الحد يبلغ الاطّراد التاريخي على ذلك! للدرجة التي جعلت هذه الكلمات المقفّاة اليسيرة -التي يحسنها معظم الناس ممّن ليسوا بشعراء - تثير كل هذا العجب والاستشكال لدى علماء السيرة والحديث!

هناك اطّراد تاريخي آخر بخصوص النبي محمد ﷺ يتعلق بأميّته وعدم قدرته على القراءة أو الكتابة. هل لك أن تتخيل رجلًا يحاول أن يخدع الناس بأنه لا يقرأ ولا يكتب ثم ينجح في هذا من دون أن يراه أحدهم ولو مرة واحدة وهو يقرأ شيئًا سهوًا؟! ينبهنا القرآن على أن هذا لم يحدث في الحقيقة قط! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ (العنكبوت ٤٨).

كان العرب يسمّون بالأميين وسط أهل الكتاب، لندرة من يعرف القراءة والكتابة فيهم، وكان من يقرأ أو يكتب معروفًا وسط القبائل، فلم تكن أمية النبي محمد ﷺ موضع جدل أو شك بينهم. لذلك لما أراد الكفار أن يدّعوا أنه قد أخذ هذه العلوم القرآنية عن غيره ادّعوا أنه قد (اكتتبها) أي بحث عمّن يكتبها له، أو أنها قد (أمليت) عليه: ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ (الفرقان ٥). أو (درّسها) لها أحدهم: ﴿**وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ**﴾ (الأنعام ١٠٥). أو (تعلمها) في مكان ما: ﴿**ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ**﴾ (الدخان ١٤). ولم يقولوا قرأ أو كتب، لأنهم يعلمون أنه ما قرأ من قبل ولا كتب.

ولكن ماذا عن التعليم؟ هل يمكن أن يكون تعلم من أحدهم؟

سيتعلم من من؟ لا يوجد في مكة رجل علم، وما غاب عنها غيبة طويلة، ولم يقابل إلا ورقة بن نوفل وبحيرى الراهب (إن ثبتت قصة ذلك الأخير) ولم يجلس مع أي منهما إلا الساعة أو الساعتين بمقاييس زماننا. وأما الحنفاء الذين كانوا على دين إبراهيم في مكة، فلم يعرف منهم أحدًا. فهذا زيد بن عمرو يقف عند الكعبة ويقول: والذي نفسي بيده ما منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ويسجد على راحته.

فنحن إذن أمام رجل لا يستطيع أن ينظم بيتًا واحدًا من الشعر ولا يستطيع القراءة ولا الكتابة ولا المراسلة. وعاش على ذلك أربعين عامًا من دون أن يسمع الناس عنه شيئًا ولا يلاحظوا عليه أي طموح للظهور أو أي رغبة في الخطابة والقيادة. لم يكن يحب ولا يجيد إلا الاعتزال في غار للتأمل، والتجارة لكسب العيش، وحياة سعيدة هادئة وهانئة مع زوجته خديجة رضي الله عنها. ثم فجأة يظهر لنا بكتاب معجز فصيح رائع لغويًا وبيانيًا وتاريخيًا! من جديد فالقرآن ينبهنا على

أن هذا أمر يحتاج إلى مزيد انتباه منّا. حين يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس ١٦). إذ لماذا انتظرتُ إلى هذه اللحظة حتى أعلن فيها كل هذه المواهب الدفينة وبشكل مفاجئ وصادم ومثير للعجب؟!

❧

كان النبي ﷺ معروفًا بالصدق بين قومه، ولما سألهم إن كانوا يصدقونه لو أخبرهم بأمر جلل، قالوا: «ما جربنا عليك إلا صدقًا».وكان عتبة بن ربيعة الكافر يقول لقومه الكفار: «وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب». وكان أمية بن خلف الكافر يقول: «والله ما يكذب محمد إذا حدّث». ولما سأل الأخنس بن شريق أبا جهل: «أترى أن محمدًا يكذب؟» قال له: «كيف يكذب على الله؟ وقد كنا نسميه الأمين لأنه ما كذب قط؟». مصداق ما قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ (المؤمنون ٦٩).

كان صدقه بالنسبة إلى قومه محل إجماع ووضوح ولم يكن عليه لبس قط، لذلك لما كذّبوه لم يكونوا يكذبونه فعلًا، ولكن كانوا يرون أنه فقد وعيه، أو شاعر مؤمن بنفسه، أو كاهن ممسوس من الجن. لذلك يقول الله لنبيه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام ٣٣). وفي قراءة أخرى: ﴿يَكْذِبُونَكَ﴾ فعلى القراءة الأولى: هم لا يقولون إنك كاذب، وعلى القراءة الثانية: هم لا يجدونك كاذبًا!

❧

جاء في سفر (إشعياء) ١٢:٢٩ «يُدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له: اقرأ هذا. فيقول: لا أعرف الكتابة». هل ذكرتك هذه القصة بأحدهم؟

وجاء في سفر (التثنية) ١٨:١٧-٢٢ أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدما نزل من جبل الطور مخاطبًا بني إسرائيل قال لهم: «قال لي الرب، أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به». يجعل كلامه في فمه؟ أي لا يعرف القراءة والكتابة إذن فيكون وحي الله له شفهيًا بخلاف بقية أنبياء بني إسرائيل. فهل ذكرك هذا بأحدهم؟

وجاء في إنجيل يوحنا ٢٦:١٤ «وأما المُعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته». يعلمهم كل شيء؟ هل مثل أن يقول مثلًا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة ٣)؟ ويذكرهم بكل ما قاله عيسى؟ هل مثل أن يقول مثلًا: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ (المائدة ٤٨)؟

وجاء في الإصحاح ١٧:١٣ «وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب». فمن جديد، هل يذكرك ذلك بأحدهم؟

وجاء في إنجيل يوحنا ١٦:١٤ «وسوف أسأل الرب وسوف يعطيكم برقليطوس آخر يبقى معكم للأبد» وبرقليطوس هو الأمجد والأشهر والأكثر استحقاقًا للمديح، بمعنى آخر هو الأحمد! كما قال (ويل ديورانت) في قصة الحضارة: «لفظ محمد مشتق من الحمد، وهو مبالغة فيه، كأنه حمد مرة بعد مرة، ويمكن أن تنطبق عليه بعض الفقرات في التوراة تبشر به». فهل يذكرك هذا بقول الله تعالى في القرآن عن مقولة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لبني إسرائيل: ﴿**وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ (الصف ٦)؟

ଓଃ

كان النبي ﷺ يجادل بعض أصحابه في أمر، ثم يأتي في اليوم التالي بالقرآن الذي يثبت أنه كان على خطأ كبير وكان صاحبه على صواب! مثل لما راجع عمر بن الخطاب النبي في صلاته على عبد الله بن أبي بن سلول، فقال له النبي ﷺ: «أخّر عني يا عمر. إني خُيّرت فاخترت»! تخيل أن ينزل القرآن في ذات اليوم: ﴿**وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**﴾ (التوبة ٨٤). أي رجل عاقل يفعل ذلك بنفسه إن كان يفعله بنفسه؟!

كان يحدث للنبي أمر بينه وبين زوجته لا يعلمه أحد من الناس، فيذاع في القرآن ليعلمه جميع الناس. وليس هذا وفقط. ولكن يُخطّأ النبي فيه. فمن الذي يفعل ذلك بنفسه إن كان يفعله بنفسه؟!

كان أحيانًا تحدث مناظرة كبيرة بينه وبين خصمائه من كفار قريش، وينتظر النبي الليلة والاثنتين والعشرة دون أن يأتيه الوحي ليعلمه كيف يرد! مثل لما أقبل النضر وعقبة إلى قريش، وقالوا له قد جئناكم بخبر فصل بيننا وبين محمد، قد أخبرنا اليهود أن نسأله عن أمور، ولما سألوه، قال لهم: غدًا أخبركم، ثم انقطع الوحي عنه أسبوعين! وبعدها نزلت سورة الكهف فيها تفصيل ما سألوا عنه وفيها قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ (الكهف ٢٣-٢٤). فمن ذا الذي يفعل بنفسه ذلك إن كان يفعله بنفسه؟!

كان النبي ﷺ قوّامًا بالليل حتى تتفطر قدماه في معزل عن الناس الذين غيّبهم النوم في ظلمات الليل في خيمته في الصحراء. لماذا يفعل ذلك لو كان يعلم أنه مدّع؟ كان لا يأمر بأمر إلا وكان له أول ممتثل، ولا ينهى عن نهي إلا وكان عنه أول منته، لمَ يحرص على اتباع التعاليم الشاقة إن كان يعلم أنها من اختلاقه؟ كان مضيّعًا لشباب عمره في التجارة والحياة الهادئة البعيدة عن الأضواء، لمِ لم يطلب الجاه أو الشهوة وقت فوران الشباب؟ كان القرآن لا يذكر عن تفاصيل

حياته شيئًا، لا يتحدث عن مكنونات صدره شيئًا، لا يطري نفسه أو يمجد عقله وإنما يثني على الله وحده ويذكر اسمِ نبي الله موسى ١٢٤ مرة ويذكر اسم نبي الله عيسى ١٦ مرة ويذكر اسم محمد ٤ مرات فقط. لِمَ يغفل نفسه لو كان القرآن من اختلاقه؟

لما دعا النبي ﷺ أحد أكابر ثقيف للإسلام، قال له: «والله لا أقول لك كلمة واحدة، إن كنتَ صادقًا فأنت أجل في عيني من أرد عليكم، وإن كنتَ كاذبًا فأنت أحقر من أن أرد عليك». فهل يشتبه أفضل الخلق وأكملهم بأرذل الناس وأوضعهم؟!

وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية أن من يدّعي النبوة كذبًا هو أكذب الكاذبين، ومن يصدق في ادّعاء النبوة هو أصدق الصادقين، فإنه سيكون يسيرًا عليك أن تميّز بين هذا وذاك في النبي الذي أُرسِلَ إليك.

كان العرب ينظرون في وجه النبي ﷺ، ويقولون: هذا ليس بوجه كذاب.

وأما نحن ففد حُرِمنا ذلك. حُرِمنا أن نرى النبي ﷺ، ومع ذلك آمنّا به. لأننا نظرنا في أمره، وفي خبره، وفي سيرته، وفي القرآن الذي قد جاء به.

ولكن كان ابن مسعود يتعجب من حلاوة إيماننا الغيبي بنبيه! فلما جلس إليه التابعون يمتدحون الصحابة وسبقهم، قال لهم: «إن أمر محمد كان بيّنًا لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحدٌ قط إيمانًا أفضل من إيمان بغيب». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿الم ۞ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ (البقرة ١-٣). نعم! لقد كان ابن مسعود يرى أن هذه الآية قيلت -فيمن قيلت فيهم- فيك أنت يا سيدي الكريم ساكن القرن الحادي والعشرين.

هل تعلم من أين تعلم ابن مسعود ذلك؟ من النبي ﷺ نفسه! حيث رُوِيَ أنه جلس مع أصحابه مرة، فسألهم: «أي الخلق أعجب إليكم إيمانًا؟». قالوا: «الملائكة». قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟!». قالوا: «فالنبيون». قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟!». قالوا: «فنحن». قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟». ثم قال ﷺ: «ألا إن أعجب الخلق إليّ إيمانًا لقومٌ يكونون من بعدكم يجدون صحفًا فيها كتاب يؤمنون بما فيها!

النبيّ ﷺ يضع يده الحانية على ظهرك، فتلتفت إليه بوجل وتوتر لتجد ابتسامته الدافئة على شفتيه ويقول لك: أعرف بأمرك. أعرف أنك لربما تكون تصرخ في كل من يمر بجوارك في الطريق بانفلاتة أعصاب من تعب من الكتمان، وتقول لهم: الأمر ليس بهذه البساطة. أنتم لا تعرفون الجهد الذي أبذله بداخلي للحفاظ على إيماني. لا تفهمون كم أنا منقسم بداخلي إلى اثنين. لا تدركون كم سؤالًا يستجدّ، كم نغزة في قلبي أجد، وكم فكرة في صدري تتردد، فأخاف منها وأرتعد.

يقول لك النبيّ: لا تقلق. لأن قلقك مفهوم! لا تفزع. لأنه من الطبيعي أحيانًا أن تفزع! لا تجزع. فأنت لا تخوض اختبارًا سهلًا. ونجاحك فيه ليس حدثًا اعتياديًا يسيرًا. بل أنت قد أثرت تعجبي منك! لفتّ نظري إلى صنعك. أثرت فضولي كي أراك يوم القيامة. فأحببتُك من قبل أن تولد!

يقول لك النبيّ: لقد حدّثتُ أصحابي عنك، قلتُ لهم أنك ستأتي تؤمن بكل ما أقوله بدون أن تراني، بدون أن ترى أثر النور على وجهي فتعلم أنه وجه نبي، أو ترى ارتعادة جسدي حين يأخذني الوحي، أو تلمس السكينة المتدفقة من بين كلماتي في وسط جلسات السمر.

يقول لك النبيّ: أنت وإن حُرمتَ من كثير من الشهادة، فأنت في نوع آخر من الشهادة. أنت وإن زاد عليك ما أنت فيه من الغيب، فأنت قد رُفعَت عنك بعض الغيوب. يمكنك يا بُنيّ أن ترى صدق أمري في صوت الطيور فوق الشجر، في أَنين روحك وقت السحر، في تبعات الأثر، وأضواء المجهر، وضيق المفر، وحتم القدر.

يقول لك النبيّ: أنت شاهد على صدق ديني! حين جاءت أخبار إلى رجل غريب في زمان بعيد بأن كان هناك محمد يقول بأن الرب واحد فاعبدوه. أنت شاهدٌ على أني لم أختلق ما تكفي السنين لكشف كذبه. لم أفترض ما تقدر الشعوب على تخييب ظنه. لم أتكلم بما يناقض عقلك أنت. أنت الذي لم ترني، ولم تعاين أمري، ولكنك نظرت إلى إرثي، فقلت: هذا نبيّ!

يقول لك النبيّ: تركتُ فيك دينًا نقيًا فلا تشوّبه. رأيتُ فيك شيئًا بديعًا فلا تخرّبه. ظننتُ فيك ظنًا جميلًا فلا تخيّبه.

يقول لك النبيّ: يا حبيبي الذي آمنتَ بي ولم ترني.. أنا في انتظارك.

المخدر الأنيق

(عن العلم التجريبي)

"فالمسألة مسألة (زاوية رؤية) و(وجهة نظر)! فلو اتخذت مسبقًا اتجاه الإيمان ونظرت إلى الوجود، لوجدت كل شيء يدل على هذا الإيمان. ولكنك لو أعميت نفسك عن حقائق الإيمان مسبقًا، فأنّى للحق أن يصل إليك؟! لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات ٢٠ -٢١). قد فاز إذن هؤلاء الموقنون بزاوية الرؤية الصحيحة، وازدادوا بآيات الكون يقينًا!"

تجد المرأة أحيانًا وحشًا مخيفًا في غرفة المعيشة المظلمة له جسم كروي وثلاثة أذرع وصوت خوار مخيف، فتفزع وتصرخ قبل أن تدرك بعد بضعة أجزاء من الثانية أن هذا ابنها الحبيب الذي أحب لسبب ما أن يشرب بعض المياه الغازية في الثانية ليلًا ويتجشأ وهو يحك بطنه العملاق! هذا لأن اللوزة أو (الأميجدالا) -وهو جزء من المخ مسئول وظيفيًا عن شعورنا بالخوف- وصلتها المعلومات مرتين، مرة بشكل سريع وغير دقيق عبر المهاد المخّي (Thalamus)، ومرة بشكل أبطأ وأكثر دقة عن طريق قشرة المخ الأكثر اتزانًا وهدوءًا واستيعابًا للموقف.

الأميجدالا تدرك أنك في موقف خطر الآن وبناء عليه تتخذ وضعيّة الهروب أو التصرّف، حتى إنها تخاف قبل أن تدرك ما هذا الذي تخاف منه! هذه الحساسية المفرطة والمبالغة الشديدة من الأميجدالا تحمينا من أدنى احتمالية لأن نتأذّى على حين غفلة.

غير أن هذا غير كافٍ في الحماية، فلو لاحظت لوجدت أننا لا نعيش فوق الشجر، حيث الخطر لا يُشترط أن يكون غريزيًّا دائمًا، بل هناك خوف لا بد لك أن تتعلمه! لا بد لك أن تفهم أن الكهرباء مؤذية قد تقتلك، وأن الرسوب في الامتحان قد يتسبب في ضياع عام من عمرك، وأن جمهور المستمعين قد يلفظك بعد ذلك إن بدوْتَ أمامهم متلعثمًا. هناك من الخوف ما هو مهم لنا أن نتعلم أن نشعر به! هذا ضروري لنا حتى لا نتأذّى -وبرغم وعينا بالموقف- ولكن عن جهل من أن هذا أو ذاك قد يؤذي! ومرة أخرى فالأميجدالا هي المسئولة عن هذا أيضًا، عن تعلّم واكتساب الخوف بواسطة بروتين (ببتايد المفرز من الجاسترين) : (GRP).

يمكنك أن تتوقع أن هذا لا يمرّ دون بعض الآثار الجانبية. وأن عملية تعلم الخوف التي كان الغرض منها الحماية لربما تسببت أيضًا في قلق غير مبرر، أو هلع زائد عن الحد! بعد أن تعلمتَ أن تخاف من الامتحان، وأسفر ذلك عن دراسة جدية لمدة شهرين لكتاب القسم، حان الوقت الآن وفي ليلة الامتحان بأن تنسى القلق، حتى لا تقضي ليلتك كلها مع قولونك العصبي أو أظافرك المقضومة. حتى الخوف الغريزي منه أيضًا ما نحتاج إلى أن ننساه، فأنت مفطور على الخوف من ذوات الأنياب، لكن تحتاج إلى أن تتعلم ألا تخاف من الكلب الذي اتخذ -رغمًا عنك- مدخل بيتكم سكنًا دائمًا له.

لذلك خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا وسيلة لنسيان الخوف. شفرة كمبيوتر تمحي تركيبة العواطف المعقّدة التي تسببت في هذا القلق. ومرة ثالثة أودع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا السر في الأميجدالا، وفي بروتين مستقبلات (NMDA) الخاصة بها!

إذًا اللوزة الصغيرة الموجودة في منطقة متطرفة من مخك تقوم بحمايتك جسديًا واجتماعيًا ونفسياً دون أن تشعر. تقوم بالمحافظة عليك من أقل الأخطار، وتعلمك ما هي هذه الأخطار، وتجعلك تنسى الخوف من الأخطار الزائفة. نوع من الرعاية لا تراه، ولكنه قريب منك جدًا! رعاية تصلح كمثال على رعاية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا، تصلح كدليل على أنه لم يهملنا، تصلح كتذكير دائم لنا بمدى قربه منا سبحانه القائل: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ (ق ١٦)!

من تأملك في جسدك الخاص تدرك أن الله جَلَّجَلَالُهُ حق، وكل أفعاله ووعوده حق! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ (الروم ٨). فبالطريقة الصحيحة لاستخدام العلم التجريبي تصل به إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتدرك بنفسك أن العلم هو محراب من محاريب الإيمان!

يدفعك العلم أيضًا إلى الرهبة من الخالق وأن تقدره حق قدره! إذ إن من خلقك وسواك وأحكم تقديرك وصنعك إلى هذا الحد، هو أشد منك قدرة، وأشد منك بطشًا إذا غضب! ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾ (فصلت ١٥).

كل هذا ونحن لم نخرج عن دائرة الجسد الإنساني الضعيف. فما بالك بالأرض الرحبة، والسماء المُرصّعة، والكون الفسيح؟! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (غافر ٥٧).

فالمسألة مسألة (زاوية رؤية) و(وجهة نظر)! فلو اتخذت مسبقًا اتجاه الإيمان ونظرت إلى الوجود، لوجدت كل شيء يدل على هذا الإيمان. ولكنك لو أعميت نفسك عن حقائق الإيمان مسبقًا، فأنّى للحق أن يصل إليك؟! لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ (الذاريات ٢٠ -٢١). قد فاز إذن هؤلاء الموقنون بزاوية الرؤية الصحيحة، وازدادوا بآيات الكون يقينًا!

العلم التجريبي من وجهة نظري: رائع. إنه سهّل لنا الكثير من مصاعب هذه الحياة، وعرّفنا على عظمة الكون الذي نحيا فيه، ومدى الجمال الخلقي والتناسق الكوني والإتقان الوجودي الذي ينسج لنا الحياة من حولنا.

لم نكن لنتعرف عليه إلا لأن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أذن لنا بذلك، وأراد لنا أن نرى غيضًا من فيض دلائل قدرته من خلاله.

العلم التجريبي رائع إذا نظرت إليه كما ينظر القرآن إليه، واتخذته منظارًا تنظر من خلاله على أفعال الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وقدرته في الوجود.

ولكن، هناك فاشلون. دائمًا هناك فاشلون!

١

القرآن لم يذكر لايارتو

"أنت لا تجد كتابًا أعظم إثباتًا للأسباب من القرآن"

ابن القيم

لم يجد اليابانيّون القدماء سببًا قويًا يفسّر لهم القوة التي تقف خلف الشلالات ومجاري الأنهار والأمواج المتلاطمة في البحار والمحيطات وفوهات البراكين إلا أن تكون مسكنًا للعديد من أرواح الكائنات البشريّة (الحساسة) والتي يسمّونها: (الكامي)! وأما السبب الكامن وراء اضطراب الأمور والقرارات في بلاط الإمبراطور كان الشياطين والأرواح الخبيثة التي كانت تسكن هذا البلاط، لذلك كان الحرّاس في بلاط الإمبراطور مأمورين بأن يقذفوا رماحهم بشكل دوري دائم منتظم وبطريقة عشوائية تمامًا من أجل طرد وإخافة الأرواح الخبيثة التي تحاول التسلل لما وراء الأسوار العظيمة!

وأما البابليون القدماء فكانوا يفسّرون (سبب) المرض والوباء بأنها شياطين استطاعت أن تتسلل من أبواب البيوت والشقوق، وأما سبب مرض الأطفال المتكرر بشكل خاص عند الآشوريين هو أن هناك شيطانًا متخصصًا في الأطفال فقط، وهو عدوّ الأطفال واسمه (لايارتو)!

ولذلك كانت مهمة الطبيب عندهم (أو الكاهن بمعنى أصح) أن (يفاجئ) الشيطان الذي يسكن جسد المريض بأنه يعرف اسمه وحقيقته، فيأخذ في الاسترسال في ذكر أسماء الشياطين المحتملين! على ما يبدو كانوا يعتقدون أن هذا الإجراء يصيب الشيطان بـ (الحرج) من أنه قد انكشف أمره!

وأما (الفايكنج) -وهم جدود ساكني بلاد (النرويج) الآن- فقد فسّروا ظاهرة قوس قزح، بأنها مسكن الآلهة حيث مستقرّ (أودين) كبيرهم وزوجته (فريجا) الجميلة الفاتنة! وفي هذا المكان تقام الاحتفالات بالأبطال الشجعان الذين يموتون في الحروب. وأما سبب السحاب من وجهة نظرهم، أن (فريجا) تغزل هذا السحاب بتوكيل من بقية الآلهة. وأما سبب البرق والرعد، فهي

تعبيرات عن غضب (ثور) ابن (أودين) و(فريجا) الذي يملك مطرقة هائلة من الفولاذ ويطلقها على الأعداء والعصاة فيقضي عليهم. يملك (ثور) اثنين من الإخوة التوائم، وهما (بولدر) الجميل الذي يفسر لنا ضوء الشمس وفصل الصيف الرائع، و(هولدر) الكفيف الحزين الذي يفسر لنا الظلمة وفصل الشتاء القاتم!

اعتاد القدماء -ممّن لا يملكون علمًا ولا هدًى من السماء ولكن يملكون قدرًا واسعًا من الخيال- أن يفسّروا الكثير من الظواهر اعتمادًا على هذه الأفكار الخيالية، وبعد أن تقدم بالناس العلم، أخذوا في فهم الظاهرة العلميّة الحقيقية التي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (سببًا) وراء هذه الأحداث، فالزلازل ناتجة عن انزلاقات في الصفائح الصخريّة للأرض، والأمطار الغزيرة سببها التقاء رياح مختلفة في درجة حرارتها ورطوبتها، وأما اختلاف فصول الشتاء والصيف كان بسبب (ميل) محور دوران الأرض حول الشمس بزاوية (٢٣،٥) درجة.

غير أن القدماء لم يكونوا يعرفون ذلك، وإنما (فسّروا) ظواهر الطبيعة لديهم بتفسيرات تبدو في رأيهم هي المنطق الوحيد. إذ كيف تفسّر ما نراه من شروق الشمس من جهة وغروبها من جهة أخرى، إلا أن هذا يعني في الواقع أن الشمس تدور حول الأرض؟! يبدو ذلك واضحًا للعين. ولكنهم لم يفطنوا أن لربما كانت هناك تفسيرات أخرى، غابت عن ذهنهم، ولربما كانت هذه التفسيرات أيضًا (تتفق) مع ملاحظاتهم!

هذا شبيه بالحوار الذي دار بين الفيلسوف النمساوي (لودفيج فيتجنشتاين) وتلميذته (إليزابيث آنسكومب) حول مسألة الليل والنهار، حيث سألها فقال: «لماذا كان من الطبيعي التفكير بأن الشمس تدور حول الأرض بدلًا من القول بدوران الأرض حول محورها؟» أجابتْ (آنسكومب): «في ظني أن الوضع (يبدو) كما لو أن الشمس هي التي تدور حول الأرض». أجاب (فيتجنشتاين): «حسنًا، ما الذي كانت سـ (تبدو) عليه الحال إذن لو كانت الأرض تدور حول محورها»؟!

***

في ١٩٦٧ كتب الطبيب الفرنسي (موريس بوكاي) كتابه: (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، دراسة في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، وذكر فيه أن القرآن هو الكتاب المقدس الوحيد الذي خلا من الأخطاء العلمية، وهو الأمر الذي لم تنجُ منه لا التوراة ولا الإنجيل ولا المؤلفات البشرية الأخرى. على سبيل المثال فأرسطو قد كتب ثلاثة كتب في الطبيعيات لم تعد فيهم تقريبًا جملة واحدة الآن صحيحة.

على سبيل المثال لا الحصر، في سفر التكوين ورد أن خلق آدم قد تم قبل خلق الحيوانات. وهو الأمر الذي يتعارض مع العلم تبعًا للسجل الحفري. بينما لا نجد في القرآن ذلك في أية آية، بل ولا في الحديث. بل تدل ظواهر الآيات على خلاف ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة ٣٠).

مثال آخر: تزعم التوراة أن الله خلق النبات قبل الشمس (وهو الأمر الذي يعتبر من مدارات السخرية وسط الغربيين)، وأن الله هيأ الأربعاء للحياة قبل النجوم والشمس والقمر. بينما نجد الترتيب القرآني عكس ذلك: فأجرام السماء سبقت ظهور النهار، وكل ذلك سابق على الأرض: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (النازعات ٢٧-٣١).

مثال آخر: في الإنجيل الزعم بأن الأرض أصلها الماء، بينما يؤكد القرآن على أن الماء هو أصل كل شيء حي، وليس الجمادات (وهو ما يتفق مع العلم بالمناسبة): ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء ٣٠).

وإذا فهمنا كلام العلماء والمفسرين بأن المقصود بالأيام الستة للخلق في القرآن بأنها ستة أوقات وليست ستة أيام بالمعنى الإنساني (٢٤ ساعة) ولا بالمعنى الأخروي (خمسون ألف سنة)، مثل قول الأصفهاني عن (اليوم) في اللغة: «أنه يعبر به عن أي مدة كانت». وقال ابن كثير: «واختار فريق من المفسرين أنها محض مدد». وقال ابن عاشور: «بمعنى أن السماوات والأرض خُلقت عالمًا بعد عالم ولم يشترك جميعها في أوقات تكوينها». لو فهمنا ذلك لفهمنا أن قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت ٩). يعني أن خلق الأرض تم في ثلث العمر الجيولوجي للكون، وهو ما (نستأنس) به في ظل النظريات الحديثة التي تقول أن عمر الكون ١٣,٧ مليار عام، وعمر الأرض منها ٤,٥ مليار عام. أي ثلث عمر الكون أيضًا!

✿

يمكنك أن تتخيل كمّ الأخطاء العلمية التي كان سيقع فيها القرآن لو كان (اختلاقًا) من بشري عاش قبل الثورة العلمية بأكثر من ألف عام؟! كم الأساطير والخرافات التي كنا سنجدها فيه تشرح لنا (السبب) المادي الذي يقف حول هذه الظواهر! كم (الاختلاف) بين الكلام الذي يُدّعى أنه من عند الله وبين خلق الله وسننه في الوجود فعلًا! يذكرنا ذلك بقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٨٢).

٢

فاعليّة الأسباب

"لا أنكر أن العلم الطبيعي يفسر، ولكنني أفترض وجود الله لتفسير هذه القدرة الحاصلة للعلم على التفسير"

ريتشارد سوينبرن

المخ هو (رادياتير) عند أرسطو! مجرد جهاز تبريد للأوعية الدموية. وأما القدماء المصريون فاعتبروه نوعًا من الأحشاء فكانوا يتخلصون منه في أقرب سلة مهملات عند التحنيط. وفي العصور المظلمة لأوروبا ساد اعتقاد بنظرية القزم Homunculus وهو شخص قزم عاش داخل الدماغ واتخذ كل القرارات.

لقد تبين بعد ذلك أن المخ أهم وأعقد من ذلك بكثير.

هناك صورة قديمة مخيفة لرجل اسمه (فينياس جيج) هو عامل أمريكي في السكة الحديد انفجر فيه ديناميت في عام ١٨٤٨ دافعًا قطعة معدنية شرسة إلى رأسه أطارت بجزء من دماغه فعليًا، ومع ذلك لم يمت. عاش بعد ذلك وشُفِيَ إلا أنه أظهر تغيرات كاملة في الشخصية، بعد أن كان محبوبًا مرحًا مساعدًا صار أنانيًا عصبيًا موبخًا. الجزء الذي تم تخريبه في دماغ جيج هو الفص الأمامي من المخ، أثار هذا سؤالًا مخيفًا لدى علماء الأعصاب عن مدى علاقة الدماغ بالشخصية.

بعد ذلك بما يقرب من سبعين سنة استطاع الدكتور (وايلدر بينفيلد) أن يكتشف ما هو أبعد. حيث لاحظ أن إثارة بضعة أجزاء من الفص الصدغي لدماغ المرضى باستخدام قطب كهربي، كان يثير المريض للتحدث فجأة عن أحد ذكرياته! فهل الذكريات أيضًا لها ما يحركها في الدماغ البشري؟!

من أربعمائة سنة فقط، اخترع الإنسان التلسكوب لتقريب الأشياء البعيدة، ومنذ اللحظة الأولى عرف جاليليو ماذا سوف يفعل بالاختراع الجديد. وجهه على الفور إلى السماء، وفي خلال ١٥ عامًا من ذلك الوقت عرف الإنسان عن الكون تجريبيًا أكثر مما عرفه منذ بداية تاريخ البشرية. هنا ظهرت مشكلة، أنت تنظر إلى أشياء لطالما اعتبرتها الكثير من الأديان على أنها آلهة،

أو قواها الخارقة، أو حتى بيوض مفقوسة وأحذية عالقة في السماء! والآن أنت تراها لتكتشف أنها مجرد غازات، وصخور، وأراضي، لها ثقوب، وأطوار، وحلقات، وحفر. ما هذا؟ هل كانت الأديان تخدعنا؟ كذا فكر الكثير ممن نظروا إلى السماء بآلاتهم الجديدة. وفي حالة الكثير من الأديان، فهم كانوا على حق، بالطبع كانت تلك الأديان تخدعهم!

لذلك أتى البعض بعد ذلك، وبعد أن أثبت العلم الكثير من الأشياء، ليرى أن العالم لم يعد في (حاجة) إلى الإله، فقد فسّر له العلم كل شيء، وقالوا أن ما لم يفسره لنا العلم بعد سوف يفسره بعد ذلك، وأن وظيفة (الإله) الآن هو أن يسد ثغرات العلم حاليًا، وأطلقوا عليه (إله الفجوات)!

***

في المقابل فإن القرآن فرّق في سبب هذه الظواهر بين (السبب الأول) وهو إرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي (أراد) لتلك الظاهرة أن تحدث، ثم (أمرها) بأن تحدث، و(قدّر) لها الأسباب التي تجعلها تحدث على هذا النحو بالذات. وبين (السبب المادي) الذي جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وراء هذه الظاهرة أو تلك! هذا لأن قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يخلق بالأسباب وبدون أسباب، ولكن القرآن أخبرنا أن سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وطريقته التي اختارها، هي أن يخلق بالأسباب! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عن ملك ذي القرنين: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝ فَأَتْبَعَ سَبَبًا**﴾ (الكهف ٨٤-٨٥).

يتضح هذا من الطريقة التي وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها جريان السفن على البحر بأنها من فعل الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ (يونس ٢٢). وأنها بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ**﴾ (الروم ٤٦). وبرغم ذلك وصف أيضًا (السبب) الذي يقف وراءها، بل وأقر بفاعليته، وهو الريح التي لو سكنت ما جرت هذه السفن! ﴿**إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ**﴾ (الشورى ٣٣). إلى هذا الحد تبلغ قوة هذا السبب وتأثيره! إلى حد انتفاء جريان السفن في اللحظة التي تسكن فيها هذه الرياح، برغم أنها تجري بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ! ولكن لأن الله هو من جعل الرياح سببًا لهذا الجريان.

هناك مثال آخر، وهو في الطريقة التي وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها إنزال المطر! حيث ذكر الله تعالى أن هذا من فعله هو: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا**﴾ (الشورى ٢٨). ثم ذكر أنها بسبب الرياح التي تسوق السحاب المحمّل ببخار الماء، فقال الله جَلَّجَلَالُهُ يصف الطريقة التفصيلية التي يُنزل بها هذا المطر: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ (الروم ٤٨).

ومثال ثالث عكس السابق، هو كيف وصف الله فعل الإنسان بأنه فعلًا منه هو سبحانه، برغم أنه أثبت الاثنين: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال ١٧). حينها تفهم كيف تتسق آيات الله الشرعيّة مع آياته المبثوثة في الوجود، من أن كل شيء بأمر الله، ومع ذلك هناك سبب منطقي مفهوم معقول قائم لهذه الأشياء، معترفٌ بفاعليّته، وبتأثيره. فهنا في القرآن نحن نؤمن بالسبب، ونؤمن بمن أجرى السبب.

كما تساءلت مريم عليها السلام (المؤمنة الصدّيقة) عن الأسباب فقالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ (آل عمران ٤٧). وسؤالها عن الأسباب لم ينافِ إيمانها بالله، ولكن كان يعني قناعتها بأن الله يخلق من خلال الأسباب. ولكن ربما ما كان غائبًا عن ذهنها في هذه اللحظة، أن الله الذي خلق هذه الأسباب وأجراها، فهو قادرٌ على أن (يوقفها) أو (يستبدلها) في أي وقت يشاء، كما قال لها الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران ٤٧).

***

هل أخبرك عن واحدة من ميزات الدين الإسلامي؟ أنه لا يعتمد في تفسيراته للكون والحياة، على السحر، أو الشياطين، أو الكهنوت الغامض، أو الطقوس على المذبح الروماني. الإسلام يخبرك بقاعدة عامة، أن لكل شيء سببًا. أن الله يخلق كل شيء من خلال السبب. يُقيم الكون من خلال القوانين. يُسيّر الكثير من مخلوقاته عن طريق المادة!

حين تكون مسلمًا فإنك لا تشعر بفزع أو جزع أو اضطراب أو تعجب، حين تستخلص بعض القوانين التي تسير بها الأجرام السماوية، أو حين تقدر على الوصول إلى الجزء المادي الدماغي المسئول عن تخزين الذكريات، أو التفكير المنطقي، أو التصرفات الاجتماعية العامة. أو حين تفهم كيف تتحرك الأشياء، كيف تقوم الزلازل، لماذا تثور البراكين، أو كيف ينزل المطر.

حين تكون مسلمًا لن تشعر أبدًا بأنك تفقد (الداعي) للإيمان بإلهك -والعياذ بالله- مع كل اكتشاف علمي جديد. لن تجلس بتوتر خلف شاشة حاسوبك تنتظر في (وجل) الكشف العلمي الجديد الذي سوف يغير من نظرتنا القديمة للطريقة التي تسير بها الأمور! لن تشعر بالـ (التهديد) من العلم أو الزمن أو التقدم أو المعرفة البشرية.

حين تكون مسلمًا فأنت تعلم يقينًا أن كل ما هنالك أنك تتعرف بشكل أقرب على أفعال الله. ترى بعينيك بعض الأسباب التي جعلها سببًا في خلقه لهذه الظاهرة أو تلك. تصبح أكثر خضوعًا لذلك الإله الذي لم يخلق فقط بـ (كن) فـ (كان المخلوق). بل خلق بـ (كن) فكان المخلوق وكان سببه معه مبثوثًا في الوجود!

حين تكون مسلمًا فإنك تصبح سعيدًا بعلمك، مطمئنًا بدينك، راضيًا عن ربك، شاهدًا على غناه!

٣

الخطايا

"نصف ما سنعلمكم إياه خطأ، والنصف صواب. المشكلة أننا لا نعرف أي نصف هو الخطأ وأي نصف هو الصواب"

عميد الطب في هارفارد (تشارلز بورويل) لطلابه

هل سمعت من قبل عن قبيلة (تاساداي)؟ كانت حديث العالم في السبعينات. حيث أعلن (إليزيدا) وزير الثقافة الفيلبيني في ٨ يوليو ١٩٧١ عن اكتشاف قبيلة من العصر الحجري تحيا منذ مئات السنين في عزلة تامة، هذه القبيلة ليست فقط لم تعرف التكنولوجيا ولكنها لا تعرف أيضًا النحت ولا الأسلحة ولا الرعي ولا الزراعة ولا المنازل ولا حتى الملابس! كان التاساداي رجال كهوف حرفيًا، يسكنون الكهوف ولا يسترون عوراتهم إلا بورق التوت، مع حياة مسالمة وعارية وفوضى جنسية كاملة. كانوا يمثلون حلم العالم الغربي في السبعينات الغارق في شعارات الهيبيز والسلام والمخدرات والثورة الجنسية.

حاول علماء الإنسانيات من العالم كله زيارتهم ولكن الرئيس الفليبيني (ماركوس) اعترض على تلويث براءتهم بالتجارب والفحوصات وأقام لهم مستعمرة ضخمة مغلقة في أواخر نفس عام اكتشافهم، وفي ١٩٧٥ كتب جون نانس كتابه: (قبيلة تاساداي الوديعة) وبيعت منه أعداد مهولة. وفي ١٩٨٦ استطاع صحفي سويسري التسلل للمستعمرة فوجد أفراد التاسادي يلبسون الجينز ويأكلون الأرز ويتاجرون في السوسيس! اتضح أن هؤلاء ممثلون وأن الأمر كله خدعة من وزير الثقافة الذي هرب خارج البلاد بملايين الدولارات التي جُمِعت كتبرعات للحفاظ على نقاء التاساداي.

كانت الثورة الجنسية تجتاح العالم وقتها، فلا يوجد أيسر من انتشار فكرة تدعمها الهرمونات لو أخذت رأيي! وكان الشباب يفكر أن النقاء الفعلي هو نقاء الطبيعة والفطرة هي فطرة الحيوانات،

ومقاومة الشهوة الجنسية شيء سخيف، وكانت التاساداي دليلًا على أن الإنسان كان ينعم بذلك السلام والتناغم الطبعي ولكن تلوث بالتابوهات والأديان، وبعد أن تبين أن التاساداي ليسوا إلا مجموعة شباب فلبيني يحبون السوسيس، تناسى العالم تلك الكذبة وكأنها لم تكن وتمسكوا بالفكرة وكأنه لم يتم (إحراجها)!

هذا معتاد بالنسبة لـ (خدع) العلمية عمومًا، فلديك (إنسان بلتداون) الذي تم اكتشافه في ١٩١٢ ليمثل الحلقة المفقودة بين الإنسان والقردة العليا، ولمدة عشرات السنين تم اعتباره الدليل الأعظم على التطور باعتباره الحفرية الأقدم للإنسان العاقل، وبعد أربعين سنة ثبت أنه كان مُزيّفًا بالكامل! لم يشعر أحد من أنصار التطور بالـ (حرج) وقتها.

لم تنفد جعبتنا من الأمثلة الخاصة بالخدع العلمية.

خذ عندك مثال رسومات (إرنست هيجل) عن الأجنة، والتي تعمد تزوريها حتى تبدو صور أجنة الفقاريات في مراحلها المبكرة متشابهة، مما يثبت التطور. اعترف (هيجل) بتزوير هذه الصور في ١٤ / ١٢ / ١٩٠٨. ونقل نص اعترافه كاملًا (فرانسيس هيتشينج) في كتابه (عنق الزرافة). ولديك أيضًا حفرية (إنسان جاوا) والتي تم غشها عام ١٩٨١ بالتوليف بين عظام جمجمة قرد كبير وعظام فخذ إنسان، واعترف صاحبها بالغش بعد ٣٠ سنة.

ليست كل (الفضائح) تقع في نطاق الخدع. فلدينا مشكلة التعجل دائمًا!

مثل عام ١٩٠٥ لما عالج (فرويد) الطبيب النفسي الشهير، ابنًا لأحد أصدقائه كان يعاني من خوف عصابي غير مبرر من الخيول، وهو ولد صغير يدعى هانز جراف، وبعد جلسات التحليل النفسي خرج فرويد بأغرب نظرية ممكنة حيث قرر أن خوف هانز الصغير من الخيول سببه شعور الولد بالذنب الناتج عن رغبته الدفينة بممارسة الجنس مع أمه والتي كبتها في نفسه خوفًا من أبيه الغيور! ثم ذكر فرويد نتائج هذا التحليل في كتابه: (تحليل فوبيا لدى صبي ذي خمسة أعوام) والذي ذكر تلاميذه بعد ذلك أن بوادر نظريته الخاصة بعقدة أوديب (وهي تفسير مادي مشوه لنشأة الدين لدى الإنسان) قد جاءت براهينها من خلال هذه الواقعة واعتبروا واقعة هانز مع الخيول تلك لحظة فارقة للبشرية ككل، كما ذكر تلميذ فرويد (كورت آيسلر).

جاء بعد ذلك (كريستوف إيشينرودر) وقدم تفنيدًا لتحليل فرويد في كتابه (هنا أخطأ فرويد)، وذكر تحليلًا مختلفًا، حيث اعتمد على واقعة حدثت بالفعل وهي أن هانز قبل أن يصاب بهذه الحالة مباشرة رأى حصانًا يسقط من إعياء العمل وهو عاجز مقيد في لثامه مما أصابه بالخوف والصدمة لذلك يقول (إيشينرودر) أن نظريات فرويد كانت مجرد وهم وثرثرة فارغة، ويقول

عالم البيولوجيا البريطاني الحائز على جائزة نوبل (بيتر مدوّر) أن التحليل النفسي غير العلمي هو الخدعة الأكثر بشاعة في القرن العشرين، ويرى الرسام (أندريه ماسون) أن هذا النوع من التحليل النفسي يعتمد كله على الأساطير اليونانية.

نظريات فرويد قد سادت (المجتمع العلمي) لفترة لا بأس بها حيث قدمت تفسيرًا ماديًا إلحاديًا للوعي الإنساني والعقل الجمعي البشري فيما يخص الإله والدين. وكعادة هؤلاء استمدوا نظرياتهم من (زاوية رؤية) و(اتجاه منظور) خاص بهم لملاحظات بريئة بسيطة نسجوا حولها (الأساطير العلمية)، لتتحول في النهاية مشاعر خوف صبي من الخيول، إلى نظرية عقدة أوديب التي تفسر تأليه الإنسان البدائي الأول للإله بأن هذا يرمز لشعوره بالذنب تجاه أبيه بعد قتله له لأنه كان ينافسه جنسيًا على أمه!

***

الأخطاء العلميّة (البريئة)، ولدينا مثال (إسحاق نيوتن) الذي يعتبره الكثيرون أعظم عقل علمي على مر عصور البشرية جمعاء. والذي سادت نظرياته العالم كله لمئات السنين، قبل أن يأتي آينشتاين بنظريته النسبية العامة (General Realtivity) عام ١٩١٥ ليصحح رؤيتنا للجاذبيّة، ويشاكس نيوتن نفسه بتعديل النموذج القديم الذي كان قد وضعه.

وعلى ذكر (آينشتاين) العبقري فهو لم يسلم من بعض هذه الأخطاء، مثل (الثابت الكوني) : (Cosmological Constant) الذي اخترعه كمحاولة يائسة لكي يجعل معادلاته تتفق مع مبدأ ثبات الكون الذي كان -مع بقية علماء عصره- يؤمن به. اعتبر آينشتاين بعد ذلك أن الثابت الكوني هو الخطأ الأكبر الذي قام به في حياته، وخجل منه بشدة!

وهناك الكثير من (الاكتشافات) و(الإثباتات) العلميّة التي تبيّن بعد ذلك أنها كانت خاطئة! مثل (القنوات المريخية) : (Martian Canals)، التي لاحظها أول مرة الفلكي الإيطالي (جيوفاني سكيابارلي) عام ١٨٧٧، ومن بعده الكثير من الفلكيين، وهي شبكة من القنوات تظهر على سطح المريخ، أخذ الأيرلندي (تشارلز بورتون) في عمل خريطة كاملة لهذه القنوات، وجاء عالم الرياضيات الأمريكي (بيرسيفال لاويل) ليقفز إلى استنتاج غريب جدًا، أن هذه القنوات إنما هي شبكة ري صنعها فضائيّون! وبعد كل ذلك تبيّن للجميع في بدايات القرن العشرين أن هذه القنوات مجرد وهم بصري (Optical Illusion) ناتجة عن التلسكوبات العتيقة كسراب الصحراء الذي نتوهم أنه ماء وهو مجرد انعكاس!

يذكرنا ذلك بحادثة اكتشاف أشعة N Rays على يد الفيزيائي الفرنسي (رينيه بولندلو) -العضو البارز في أكاديمية العلوم الفرنسية- وذلك أثناء دراسته لأشعة X Rays وقام عدد من

الفيزيائيين الفرنسيين بتكرار التجربة، وجميعهم أكد صدق الاكتشاف. وحصل رينيه بعد ذلك على جائزة تقديرية من ذات الأكاديمية عام ١٩٠٤، ثم تبين بعد ذلك أن أشعة N Ray ليس لها وجود أصلًا وأنها مجرد وهم توهمه جميع الفيزيائيين الذين شاركوا في التجربة. ويقول (جين روستاند) معلقًا على ذلك: «المدهش في الموضوع هو العدد غير الاعتيادي للعلماء الذين خُدِعُوا»!

هناك أيضًا الـ Phrenology أي علم معرفة الدماغ، الذي كان سائدًا في القرن التاسع عشر وسط الأطباء وعلماء النفس، ويعني القدرة على استنتاج أبعاد الشخصية وما يحب وما يكره الإنسان فقط من شكل تضاريس جمجمته من الخارج، فتجد الطبيب من إياهم يمسك برأس المريض و(يحسّس) عليها حتى يدرس شخصيته! مات هذا (العلم) تمامًا وتم اعتباره من خرافات العلم (Science Fringe)، لكنه في زمنه كان آخر المكتشفات الحديثة، بل والعنصريون في ألمانيا النازية وإمبراطورية بلجيكا الاستعمارية في الكونغو ورواندا كانوا يستخدمونه لإثبات أن العنصريّة (فضل بعض الأعراق البشريّة على البعض الآخر) لها أصول علمية!

ماذا عن نظرية (التمدد الأرضي) : (Expanding Earth)؟! والتي آمن بها علماء من وزن داروين ونيكولا تسلا. تحاول النظريّة أن تفسر حركة القارات الجيولوجية ونشوء الجبال الجديدة، بأن الأرض في الحقيقة تتمدد ببطء، وهي نظرية معاكسة لنظرية أخرى كانت سائدة في وقتها وهي نظرية (البرودة الأرضية) : (Global Cooling)، التي اقترحها الجيولوجي (جيمس دانا) وتتحدث عن (انكماش) الأرض. على كل حال قد ثبت خطأ هذه النظرية وتلك، فكلًا من التمدد الأرضي والانكماش الأرضي صارا من العلم الزائف بعد اكتشاف الصفائح التكتونيّة (Plate tectonics) في ١٩٧٠!

وهناك نظرية (الفلوجيستون) : (Phlogistion theory)، الذي كانوا يظنونه جزيء غير مرئي لا يظهر إلا بالاشتعال ويفسّر عملية الاحتراق. ونظرية (الطبعة الأموميّة) : (Maternal Impression)، حيث تؤثر الأم في شخصية جنينها من خلال أفكارها الداخلية! ونظرية الكوكب (فولكان) : (Vulcan)، الذي اعتقدوا وجوده بين الأرض والمريخ وقالوا أنه التفسير الوحيد لحركات المريخ الغريبة التي يأتي بها في دورانه حول الشمس، قبل أن يفسّر لنا آينشتاين بنظريته النسبية العامة هذه الحركات!

وهناك من يظن أن هذه الأخطاء العلميّة كانت في الماضي -قبل الثورة المعرفيّة والنمذجة العلميّة (Scientific modeling) والذي صار العلماء لا يقبلون أي بحث علمي لا يتسق معها- على أنهم في الواقع مخطئون!

ففي عام ١٩٨٩ نشر عالم الكيمياء الكهربيّة البريطاني (مارتن فليشمان) مع زميله الأمريكي (ستانلي بونز) بحثًا أقام الدنيا ولم يقعدها. حيث ادّعوا أنهم قد أقاموا تجربة ناجحة للاندماج البارد (Cold Fusion). والاندماج البارد يعني أن يحدث تفاعل نووي ينتج الطاقة النووية المعهودة بدون الحاجة إلى درجات حرارة مليونيّة كما هو معروف، بل يحدث هذا الاندماج في درجة حرارة الغرفة، وهو ما يعني إمكانية الحصول على طاقة نووية نظيفة وخالية من الأخطار!

لك أن تتخيل أثر ذلك على المجتمع الإنساني التي تعوي مصانعه وسياراته في كل حين بحثًا عن الطاقة، من الإنتاجية الزائدة والبيئة النظيفة والسلام العالمي بعد انتفاء السبب وراء معظم الحروب: السيطرة على مصادر الطاقة! لذلك اهتمت وسائل الإعلام الشعبية بهذا البحث، ورسمت الخيال وأحلام اليقظة في وعي العامة، ولمدة شهور قليلة تم اعتباره خطوة بارزة في تاريخ العلم.

وفي أواخر نفس العام لاحظ كثير من العلماء أنهم لا يحصلون على نفس النتائج عند قيامهم هم بالتجربة، ومع الوقت بدأت تظهر الكثير من الأخطاء في بحث (فليشمان) و(بونز)، لدرجة أن البعض اتهمهما بتلفيق النتائج بالكامل وتزوير الحقائق، وفي النهاية خرج تقرير من (إدارة الطاقة الأمريكية) (USDOE) يفيد بوقف تمويل كل الأبحاث التي تبحث خلف الاندماج البارد، باعتباره من العلم المضلّل (Pathological science) والذي لن يؤدي بنا إلى أية نتيجة إيجابية!

وهناك الكثير من الأمثلة الأخرى على الطريقة الغريبة التي يتم بها تضليل المجتمع العلمي بفكرة خاطئة قد تستمر لمئات السنين قبل أن يتبين أنها مجرد حماقة!

غير أن هناك من يحدثنا عن إجماع المجتمع العلمي. بالطبع هو لا يقولها بهذه الأناقة، ولكن يقولها غالبًا بأسلوب تلامذة المدارس: (كل العالم يقول...).

بغض النظر عن أن كلامه لا يكون صحيحًا دائمًا، ولا يكون هناك إجماع ولا شيء، لا على التطور ولا على غيره من النظريات العلمية مثار الجدل، بغض النظر عن ذلك إلا أننا لدينا ما نقوله بخصوص هذا الشأن.

يقول (ألفن بلانتنجا): «ونحن جميعًا نعلم النظريات العلمية التي حظيت في وقت ما بالإجماع ثم نُبِذَت، مثل نظرية السيال الحراري، والنظريات التساقطية Effluvial theories في الكهرباء والمغناطيسية، والقوى الحيوية في علم وظائف الأعضاء، والأثير الناقل للضوء، ونظريات التوليد التلقائي للحياة...» وقائمة بلانتنجا تطول.

وبمناسبة الإجماع، يقول الكاتب (مايكل كريتون) في محاضرة ألقاها في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا: «أنا أعد العلم الطبيعي المبني على الإجماع تطورًا في غاية الخبث ينبغي أن يُجمّد

مكانه. تاريخيًا دعوى الإجماع كانت الملاذ الأول للأوغاد لـ (تجنب النقاش) بزعم أن الأمر محسوم! لنكن واضحين، ليس للعلم الطبيعي علاقة بالإجماع. أعظم علماء الطبيعة في التاريخ تكمن عظمتهم تحديدًا في قدرتهم على (كسر) الإجماع. لو كان إجماعًا لما كان علمًا تجريبيًا ولو كان علمًا تجريبيًا لما كان إجماعًا».

***

حين نتحدث عن خطايا التعامل مع العلم التجريبي، فإليك الخطيئة الأولى: الغرور والتعالي، والظن الأجوف بدون كبير داع أننا قد وصلنا إلى القمة العلمية التي ليس من بعدها بعد! هذا الغرور الذي نبّهنا القرآن على قبحه في قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ (غافر ٨٣).

هذا الغرور سيقودك إلى الخطيئة الثانية: الجدال بدون علم، أو بعلم ناقص! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ**﴾ (الحج ٨). والعجز عن التفرقة بين المساحة المضيئة بـ (الحقائق) العلمية والتي لك أن تتحدث فيها، وبين المساحة المُغَيَّمة بـ (الفرضيّات) والتي ليس لك أن تثق فيها إلى هذا الحد! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (آل عمران ٦٦).

وهذا يقودنا إلى الخطيئة الثالثة: الخلط بين (اليقين) و(الاحتمال)، بين (الحقيقة) و(الفرضيّة)، وبين (القانون) و(النظريّة). وهذا ما ربّانا عليه القرآن حين يذكرنا دائمًا بأن نفرّق بين (العلم) و(الظن الواهم). كما يقول: ﴿**وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ (النجم ٢٨). ويقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ**﴾ (الأنعام ١٤٨)!

هذا يذكرنا في الواقع بالخطيئة الرابعة: لا تُخرج مسلّمات العقل عن نطاق الحقائق، فليست الحقيقة مقتصرة على نتائج المعمل. حتى لا تقع في فخ الـ Scientism والتي هي أقرب لدين يقدّس العلم المادي القابل للتجربة والقياس ويرفض كل ما سواه. والذين هم محطّ سخرية الأذكياء من الفلاسفة والمفكرين -في كل زمان ومكان وعلى اختلاف عقائدهم- الذين يعرفون أن عابدي المعمل سيرفضون أن يسلّموا بأن ١+١=٢ إلا لو وضعوا أمام (أعينهم) برتقالة وبرتقالة ليصيرا برتقالتين، كما يفعل تلاميذ الصف الأول الابتدائي! وذلك لأنهم جعلوا (الملاحظة) أعلى من (التفكّر). ولسان حالهم عن كل ما هو ليس بـ (مادة) أن يقولوا عنه: ﴿**إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ**﴾ (الجاثية ٣٢).

ولا تنس الخطيئة الخامسة: هؤلاء الذين اتخذوا البناء العلمي (في ظنهم) وسيلة إلى (الهدم) لا (البناء). وكان حظهم من ثورة المعرفة الإنسانية إتقان المراء به. لم يهتموا بأن يتخذوه وسيلة للإفادة والأفعال، قدر اهتمامهم بأن يُؤدلِجوه للجدال! هؤلاء الذين تجدهم في كل ركن من بلادنا، يتكئون على أريكتهم، ينقّبون في أبحاث علمية لم يفهموها حق فهمها، ولم يتأكدوا من صحتها في نفسها، ليتخذوها دليلًا على موقفهم من الإيمان. كسل معرفي كامل، وانهيار تام لقيمة الحق والبحث عنه. إنهم كما قال الله جَلَّجَلَالُهُ في مثلهم: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ (الكهف ٥٦).

وهناك الخطيئة السادسة أيضًا: عمليّة صنيعة (الوهم) والبناء الهرمي الكامل على قواعد (مُختَرعة)، وتأليف المصطلحات، ثم توفيق الأدلة على هذه المصطلحات، لتبقى في النهاية المُؤلّفات التي بنيناها بأنفسنا في نظرنا وكأنها كيان مستقل، وكأنها حقائق مفروغ منها، لتتخذ مكانها وسط المحاجّات المنطقيّة، دون أن نتذكر أو نعبأ بأن نتذكر أننا نحن من بنينا كل هذا! متى يفطن أصحاب الخطيئة السادسة أن مصطلحاتهم لا تمثل حجة في ذاتها، وليس لها عندنا كبير قيمة، إن هي إلا أسماء! إن هي إلا ظاهر من القول ليس له كبير حقيقة! كما قال النبي هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (الأعراف ٧١). ويقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الرعد ٣٣).

وأما الخطيئة السابعة: فهو تزوير الحقيقة، واستغلال المنصب الأكاديمي، والكلام العلمي المنمّق في إدخال أيديولوجيتك الخاصة والانتصار لها! ألّا يكون هناك أي ارتباط بين المقدمة والنتيجة إلا مجرد (إيمانك) المجرّد عن الدليل بأنهما مترابطان. فلو اتبعت هذا المسلك لن يكون غريبًا أن تدّعي أن اكتشاف الحمض النووي DNA يقدم دليلًا على التطوّر، أو أن الانفجار الكبير يقدم تفسيرًا بديلًا عن الإيمان بالخلق والتكوين. لا تفعل ذلك من فضلك لأن هذا السلوك مفضوح تمامًا لدى أغلبنا، ويُظهرك بمظهر سيء للغاية، ويدل على أنك في الواقع في أزمة استدلاليّة! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عن أهل الكتاب لمّا خلطوا الحق والباطل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران ٧١).

وإليك الخطيئة الثامنة: كفّ عن اعتبار كل ما لا يتناهى إلى نطاق (علمك) الضيّق، أو حيز (فهمك) الأضيق، أنه ليس بعلم ولا شيء يستحق أن يسترعي انتباهك! كفّ عن ذلك، لأن الرضا عن النفس بهذه الطريقة هو دأب الأغبياء في كل مكان وزمان، ممن يرفضون أن يصدقوا أنهم لربما ليسوا عباقرة إلى الحد الذي يجعلهم يحيطون علمًا بكل شيء في الوجود. الخطيئة الثامنة هي أن تقع فيما وقع فيه هؤلاء الذين تحدث عنهم القرآن فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (يونس ٣٩).

وأما الخطيئة التاسعة: فهو أن تكون من داخلك مهزومًا وضعيفًا إلى الحد الذي يجعلك تحتاج إلى أحدهم حتى يؤكّد لك صحة عقلك! تحتاج إلى من يصدّقك ويرضى عنك في إيمانك حتى تطمئن إلى هذا الإيمان! ولا مانع لديك حينها من أن تلوي أعناق الآيات حتى توافق آخر أبحاث Nature. ولا تخجل حينها من أن يكون السبب الذي يدعوك إلى الاطمئنان لآيات الله هو أنك رأيت صورة لرجل أشقر على الانترنت تظهره وهو يلوّح بيديه ليشرح كيف أن هذه الآية أو تلك وافقت ملاحظاته المعمليّة. إنك حينها تكون كمن قال الله جَلَّجَلَالُهُ فيهم: ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ (الزمر ٤٥).

وهذا شبيه بالخطئية العاشرة: وهي ما يحدث لك حين يتبين أن هذا الإعجاز العلمي أو ذاك غير صحيح أصلًا. وأن الرجل الأشقر مثلًا في الواقع كان يقوم بإعلان تجاري عن أحد أنواع الصابون قبل أن يأخذ أحدهم صورته ويلفّق عليها القصة كاملة (لأن هذا المتحمس مصاب بالخطيئة التاسعة السابق ذكرها). لو كنت تعاني حينها من (ارتباك) أو (تحيّر) لربما كان هذا معناه أنك تعاني من أعراض الخطيئة العاشرة. والتي ذكرنا القرآن بها في قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ (الحج ١١).

العلم التجريبي رائع . ولكن لكي يصير كذلك، عليك أن تكف عن ظلمه، وتأخذ حذرك من هذه الخطايا العشر!

٤

خارج النطاق

"يبدأ الإلحاد بشبهة ثم ينتهي بشهوة، لذلك فهو يبتدئ بالبحث عن الدليل، ثم ينتهي إلى معاندة الحقائق وتكلف البديل"

سامي العامري

في ٢٧ ديسمبر ١٨٣١ رحل الشاب البريطاني (تشارلز دراوين) على متن سفينة (بيجل) -التي كانت سفينة حربيّة ثم تحولت إلى سفينة استكشافات- إلى واحدة من أشهر الرحلات الاستكشافية في التاريخ. انطلقت السفينة إلى أمريكا الجنوبية وأستراليا ونيوزيلاندا. واستمرّت الرحلة خمس سنوات جمع خلالها (داروين) عيّنات من الأماكن التي زارها، وبالأخصّ جزر (جالاباجوس).

وبعد أن عاد إلى بلاده أخذ في دراسة هذه العيّنات، لاحظ أن هناك (تشكيلة) متنوعة من طيور جالاباجوس مثلًا، وكلها شبيهة ببعضها البعض، على أن هناك اختلافات يسيرة بينها في حجم وطول المنقار أو ألوان الريش وما إلى ذلك. وفي نفس الفترة أخذ في الاهتمام بتربية الحمام وبالطريقة التي يمكن بها للإنسان الحصول على مواصفات معيّنة مرغوبة في سلالة الحمام الجديدة في حالة قام بالتهجين بين السلالات المناسبة للآباء.

غير أنه في نفس الفترة أيضًا أطال في التأمّل في كتاب (مالتوس): مقالة عن السكان -والذي سبق وأشرنا إليه- وهذا الكتاب كان يشرح ببساطة كيف أن الجنس البشري يتكاثر أكثر من معدل زيادة غذائه، مما يعني أنه في النهاية سيصل إلى مرحلة الصراع من أجل البقاء.

استمرّ داروين في هذه العزلة لمدة عشرين عامًا كوّن خلالها نظريته، وكانت العزلة ستستمر إلى ما هو أكثر من ذلك، لولا أن (ألفريد والاس) عالم الأحياء البريطاني بدأ في نشر أبحاثه في ١٨٥٨ والتي هي قريبة الشبه جدًا بأبحاث داروين، ففضل داروين أن يخرج لنا فكرته في كتابه (أصل الأنواع) في ١٨٥٩.

فكرته كانت أن كل الأحياء على وجه الأرض لها أصل واحد وسلف مشترك ولم يتم خلقها بانفراد، ولأن الموارد الغذائية كانت أقل من هذه الأحياء، قام الصراع من أجل البقاء بتحفيز الطبيعة للقيام بدور مُربّي الحمام الذي يختار من السلالات أقواها ليحصل على أفضل الأبناء، فيما يعرف باسم: الانتخاب الطبيعي، Natural Selection. أي أن هناك نوعين مثلًا من السلالات تسعى لنفس الطعام، أحدهما أسرع وأقوى من الآخر فبالتالي هو من سيفوز بالطعام، ليستمر في الحياة ويتناسل، بينما سيموت الأبطأ على الأرجح من دون أن يتسنى له أن يترك ذرية. وهكذا، ومع مرور الزمن يصبح لدينا ذرية ونسل فقط لصاحب الصفات الجيدة الماهرة، أي أن الطبيعة تختار الأفضل دائمًا، مما يؤدي بنا إلى التطوّر العشوائي في النهاية Evolution. ثم تتسبب الظروف الجيولوجية في انعزال هذه المجموعات لتتطور كل منها بشكل مختلف، مما يؤدي بنا إلى نشاة الأنواع المختلفة، وهكذا ينشأ أعلى وأقوى هذه الأحياء (الإنسان) من أصل بسيط جدًا يتمثل في كائن وحيد الخلية: (الخلية الحية الأولى).

(حدّوتة) مثيرة للاهتمام! ولا يعنينا نقدها الآن في هذا الكتاب الذي لم يُعدّ لذلك، وهي على كل حال أكثر النظريّات إثارةً للجدل في تاريخ العلم، ليس فقط لأنها تطوّرت إلى أشكال أكثر تعقيدًا من خلال عدة قفزات في القرن الواحد والعشرين فيما يعرف باسم (الداروينية الجديدة). ولكن أيضًا لأن الصراع فيها حَدّي للغاية، وعلى مر المئة والخمسين عامًا الماضية، كان العلماء ينقسمون فيها ما بين مؤيد (جدًا) ومعارض (جدًا) للنظرية!

على أن أكبر الأسباب التي جعلت هذه النظرية مثارًا للجدل، أن قضية أصل الإنسان في الحقيقة هي حجر الزاوية لكل أفكار العالم، فكما قال بيجوفيتش: «أي مناقشة تدور حول كيف ينبغي للإنسان أن يعيش، تعود إلى الوراء حيث مسألة أصل الإنسان». فهي تمثل المسرح الذي يُعرض عليه صراع الخلق والتطور، بينما في كواليسه يدور صراع آخر حول الدين والإلحاد، غيْر أننا نلاحظ أن طرف الدين دائمًا أقل حماسة في نقد الداروينية عن حماسة الطرف المقابل في إثباتها. إذ إن التطور لا يشكل خطرًا على الدين مثل ما يشكل نسفه خطرًا على الإلحاد!

⁂

الذي يعنينا فقط في هذه النظرية الآن هو أن نلقي الضوء على بعض الجوانب شديدة الغموض و(التحيّر) فيها، والتي تجعل مؤيّديها -قبل منتقديها- يقرّون أن هذه مناطق (ظلاميّة) لا يستطيع العلم أن يجيبنا عنها لأننا (لم نكن هناك حين حدثت)!

على سبيل المثال، وكما يقول (ديفيد بيرلنسكي) -عالم الرياضيات اليهودي، والذي هو من أشد معارضي هذه النظرية- دعونا نتأمل في الحوت، من المعروف أنه حيوان ثديي يعيش في

الماء. ولأن الداروينية قد رتّبت ظهور الأحياء بدءًا من البكتيريا وانتهاءً بالثدييات، فإن هذا معناه أن الحوت لم يتطور عن الأسماك، ولكن كان كائنًا ثدييًا ما (بقرة مثلًا) ثم تطوّر إلى صورة تمكّنه من العيش في المحيط الواسع.

والآن لكي يستطيع هذا الكائن الثديي أن يتحول من حيوان يعيش على اليابسة إلى حيوان يعيش في الماء فهو يحتاج إلى تغيّرات في جلده، وفي جهازه التنفسي، ونظام الرضاعة، والتغذية، وإفرازات اللعاب، والعين، والسمع .. إلخ، قام بيرلنسكي بحساب هذه التغيرات اللازمة فوجد أنها ٥٠ ألف تغيرًا! تذكر أن الداروينية تعتمد التغيّر التدريجي البطيء من حالة إلى أخرى، أي أن علينا أن نجد آلاف آلاف الحفريّات لكائنات وسيطة تمثل النقلة التي مرّت بها البقرة لتصل إلى الحوت! وهكذا بين كل نوع ونوع من الفصائل (Species). إلى أن تصل في النهاية إلى ملايين الحفريّات المطلوب وجودها.

مشكلة ندرة الحلقات الوسيطة في السجل الحفري هي مشكلة مُعتَرف بها بين مؤيدي النظرية، وحتى داروين نفسه، قد قال أن هذه من الألغاز التي تواجهه، ولكنه وضع افتراضًا مبني على أساس أن أماكن اليابسة والمحيطات على هذه الأرض (ربما) كانت معكوسة في الأزمنة الغابرة، فبالتالي (ربما) كانت الأحياء القديمة تعيش على الأماكن التي تحتلها المحيطات الآن، فبالتالي (ربما) كانت كل هذه الحلقات الوسيطة تقبع تحت الأطلنطي ونحن لا ندري! هذه (رُبّمات) كثيرة جدًا يا سيد داروين!

مثل محاولتك لأن تفاجئ ابنك -وعلى الطريقة الأمريكية- حين يبلغ الثامنة عشرة من عمره بشريط فيديو متصل لحياته منذ أن كان رضيعًا وحتى وصل إلى الثانوية، بحيث تسجل كل يوم ثانية واحدة لوجهه، وبعدة عشرة سنوات من المفترض أن يكون لديك فيديو لمدة ساعة يحوي ٣٦٠٠ صورة وعند عرضها بشكل متوالي يظهر (حركة) متصلة لوجهه منذ أن كان صغيرًا ويكبر أمام عينيك. ولكن ما حدث هو أنك حين حاولت أن تعيد تشغيل الشريط وجدت أنه عبارة عن ٣ أو ٤ صور فقط (ثابتة) (منفصلة) (متقطعة) لمراحل عمرية مختلفة من عمره فقط، إنه ليس شريط فيديو على الإطلاق، إنه لوحة قصيرة من الصور.

السجل الحفري المفصّل المتصل لانتقال الأنواع مفقود. والطبقات الرسوبية (كما أكد على ذلك مرارًا التطوري الكبير جولد) لا تكشف أبدًا عن الظواهر التي قصدها داروين. كما يعلق البيولوجي (جوناثان ويلز): «الداروينية ليست شجرة كما يصورونها، إنها مجموعة حشائش مستقلة حيث تظهر الكائنات فجأة منفصلة عن بعضها البعض». وفي مطلع بحث (روبرت كارول) بعنوان (الحفريات الفقارية والتطور) ذكر أن معظم السجل الحفري لا يدعم تفسيرًا تدريجيًا صارمًا. لاحظ أن التفسير التدريجي الصارم هو قلب نظرية داروين وروحها ذاته!

وكما يقول الفيزيائي (أميت جوسوامي) تعليقًا على ذلك: «إذن ما هو الدليل على النظرية؟ ما الذي يحاول هؤلاء إثباته بالظبط؟!». وهي نفس النتيجة التي توصل لها (كولين باترسون) من كبار علماء الحفريات حيث قال: «لقد استيقظت ذات يوم واكتشفت أنني بعد عشرين عامًا من العمل في التطور لا أجد دليلًا عليه سوى تخمينات اعتباطية». وقال: «نعم، أتفق معكم تمامًا. لا توجد أحفورة واحدة نستطيع أن نجادل بشأنها».

❧

هناك مشكلة أكبر وأهمّ: الجمال! فالداروينية فسرت بقاء الأقوى، ولكن ماذا عن بقاء الأجمل؟؟ من جديد، فإن داروين قد توقّف عند هذه المشكلة، ولكنه افترض أن الانتخاب الجنسي يقوم مقام الانتخاب الطبيعي في الحفاظ على الأجمل. بمعنى أن الإناث تختار الأجمل من الذكور لتخصيبها، فبالتالي تنقرض الفصائل القبيحة. بالطبع هذا لم يفسر لنا سبب حب الإناث للجمال، أو سبب وجود قيمة الجمال في هذه الحيوانات العجماء أصلًا!

هناك مشكلة أكثر عمقًا: الاختلاف الذكائي البالغ للإنسان عن كل ما سواه، الوعي البشري الفريد الذي جعله مميّزًا عن بقية الأحياء على الكوكب. كانت هذه المشكلة من الضخامة بمكان ما جعل (والاس) شريك داروين في فكرة الانتخاب الطبيعي، يتراجع عن فكرته فيما يخص الإنسان، واعتبر أنه استثناء لا يقع في سلسلة التطور، لأن القشرة الدماغية الهائلة قدّمت طفرة كبيرة للغاية تفصل الإنسان عن أقرب الحيوانات قربًا له في سلسلة التطور. لكن من جديد، فأصحاب الداروينية تمسّكوا بها، وافترضوا في هذه المسألة أنهم أمام أحد الألغاز العلمية التي ستنكشف في (يوم) ما! ناهيك عن أن بعضهم أبدى تشاؤمًا من إمكانية الوصول لحل هذا اللغز يومًا. وعبّر (دانيل دينيت) الملحد عن إشكاليّة تكون الوعي البشري العظيم بقوله: «ثم حدثت المعجزة»! معجزة؟! Ok يا سيد دينيت!

تتعرض الداروينية لألغاز أخرى، مثل الطريقة التي تطورت بها العواطف، أو المشاعر. أو السبب وراء وجود الأخلاق والقيم. أو كيف نفسّر كل هذه الروعة والإتقان في الحياة بالطفرات الجينية العشوائية، في الحين الذي لا نجد فيه إلا أمثلة شديدة الندرة على وجود طفرات جينية حميدة الأثر، بل معظمها يسبب العاهات والمرض! وفي كل مرة تواجه هذه الألغاز فالإجابة هي: (لا ندري، ربما، من الممكن، احتمال)!

❧

ماذا عن صناديق داروين السوداء؟

تلك الأفكار التي عبر عنها داروين نفسه في كتابه (أصل الأنواع) بأنه لو تم إثباتها فستكون نسفًا لنظريته تمامًا! مما يدفعنا إلى التفكير أنه لو كان قد امتد به العمر إلى زمننا وكان يحمل قدرًا من الإنصاف أو الاتساق مع الذات لتخلى عنها فورًا.

مثل الفكرة التي عبر عنها في الفصل التاسع من الكتاب: «إذا ظهرت (فجأة) أنواع عديدة من جنس واحد أو عائلة واحدة فهذا قاتل للنظرية خصوصًا مع إدراكنا لبطء التغيرات خلال عملية الانتقاء الطبيعي».

وهذا بالظبط هو ما حدث عزيزي داروين في اكتشاف الانفجار الكامبري. وهو الانفجار الذي جرى (طبقًا لطبقات الأرض) منذ حوالي ٥٤٠ مليون سنة. فطبقًا لحسابات عالم البيولوجي (جوناثان ويلز): تخيل كما لو كان تاريخ الحياة على الأرض (٣،٥ مليار عام تقريبًا) هو ٢٤ ساعة فقط. فمنذ الواحدة صباحًا، مرورًا بالصباح، والظهر، والغروب لم يحدث شيء تقريبًا، ثم فجأة وما بين الساعة التاسعة مساءً والتاسعة ودقيقتين: تنفجر أغلب أشكال الحياة على سطح الأرض فجأة في شكلها الحالي المكتمل!

تمسك أنصار النظرية الداروينية بها كعادتهم برغم هذا الصندوق الأسود، وقالوا أن لربما كانت طبقات الأرض (غير أمينة)!

هناك صندوق أسود ثان، وهو ما أخذه داروين على نفسه في الصفحة ١٥٤ من كتابه (أصل الأنواع): «إذا أمكن إثبات وجود أعضاء معقدة لا يمكن أن تكون قد تكونت بفعل عدد هائل من التغيرات الطفيفة المتتالية، فسوف تنهار نظريتي تمامًا»، ثم عقّب على ذلك بقوله أنه لم يجد أية أمثلة على ذلك. غير أن (مايكل بيهي) قد وجد.

قدم مايكل بيهي نظريته الخاصة بالتعقيد غير القابل للاختزال، ويعني به آلة معقدة بطريقة مترابطة لا يمكن أن يكون لأي جزء من أجزائها قيمة وهي منفصلة، فقط تكون لها قيمة إذا كانت مترابطة. والمثال الذي ضربه لذلك هو مصيدة الفئران التي تتكون من مجموعة أخشاب ومسامير و(سوستة). حيث لو أزلنا أي جزء من المصيدة لن تنتج العمل بربع كفاءة حتى، ولا بأي كفاءة على الإطلاق، هذا غير أن كل جزء منفصل من المصيدة ليس له أي قيمة في عملية الصيد.

وجدنا عدة أمثلة من هذا في عالم الطبيعة، وكان أوضح مثال على هذا في نظر بيهي هو (السوط البكتيري) الذي تستخدمه البكتيريا في عملية الحركة بقوة دفع تصل إلى سرعة دوران: مائة ألف دورة في الدقيقة. ناجمة عن محرّكات دوارة (المحركات السوطية) التي توجد على سطوحها. تبدو هذه المحركات وكأنها مواتير مصممة من قبل شركة (مازدا)، تحتوي على

العديد من الأجزاء الميكانيكية المكونة من بروتينات، أجزاء دوران، وأجزاء ثابتة، وخواتم ربطية، وبطانات، ومفاصل ميكانيكية، وأعمدة دوران ناقلة للعزم. ٣٠ مكون بروتيني مختلف. ولو تمت إزالة أحدها يتوقف السوط عن العمل.

كيف يمكن أن ينشأ مثل هذا السوط بالتغيرات التدريجية البطيئة؟ بمعنى: كيف طوّرت البكتيريا بطريقة ما بعض هذه المكونات وهي غير ذات فائدة لها، وما الذي سوف يدفعها إلى أن تحتفظ به طالما لا يقوم بأية وظيفة وهو بمفرده؟!

الداروينية، ومن كثرة ما تعرضت لمفاجآت لتنظيراتها اضطرت إلى تعديل نفسها كثيرًا حتى تتوافق مع الملاحظات واللاملاحظات الجديدة! وعلى حد تعبير (أميت جوسوامي): «أنصار نظرية التطور يفعلون اليوم كما كان يفعل أنصار نظرية أن الأرض هي مركز الكون قديمًا. حيث كان السابقون يقومون برسم عدد لا نهائي من الحلقات والحلقات ليبرروا دوران الأفلاك حول الأرض ليتمكنوا من التمسك بنظريتهم، وأنصار الداروينية يفعلون اليوم الشيء ذاته تجاه أي اكتشاف يغير من مبادئ النظرية. وكل كشف جديد يتطلب رسم دائرة جديدة، وصارت النظرية حبلى بالدوائر عاجزة عن التنبؤ بشيء»!

❧

على أن أكبر هذه الألغاز التي واجهوها كان لغز نشأة الحياة! وهو اللغز الذي لا يتعلق بالداروينية نفسها، ولكن يلزم لأهلها أن يقدموا تفسيرًا له، إن كانوا سينطلقون من الداراوينية إلى نفي الحاجة إلى وجود الله. فنظرية التطور حاولت تفسير كيفية نشأة الأنواع، لكنها لم تفسّر كيفية نشأة الخلية الحية الأولى. وداروين قد اعترف صراحةً أنه لا يملك إجابة عن هذا السؤال، وأما (مايكل روس) الذي كتب سيرة داروين الذاتيّة فيرى أنه ربما كان هذا نتاجًا لترتّب الأحماض الأمينية على (بلّورات) فائقة بطريقة ما!

بينما أتى (فريد هويل) عالم الفضاء البريطاني الأبرز بنظريّة عبقريّة للغاية، تشي بأن الحياة نشأت على الأرض بواسطة (بذرة فضائيّة) من كائنات أذكى، وقدّم فكرته في عام ١٩٨٢ في كتابه «التطور من الفضاء»، بعد النظر إلى الاحتمالات الضئيلة للغاية من وجهة نظره لنشوء الحياة على الأرض حيث قام بحساب احتمال الحصول على السلسلة الضرورية من الإنزيمات حتى لأبسط خلية حية دون تبذّر فكان الاحتمال هو واحد على $١٠^{٤٠٠٠٠}$! وبما أن عدد الذرات في الكون المعروف يعد متناه في الصغر عند مقارنته به ($١٠^{٨٠}$ فقط)، فهو قد احتج بهذا على أن الأرض ربما كانت تحت تحكم خارجي. فقال: «ولو تابعنا بشكل مباشر ومستقيم في هذه المسألة، ودون أن نبالي بالخوف من مخالفة الرأي العلمي السائد، نصل إلى استنتاج مفاده أن المواد البيولوجية

بما تحويه من قياس ونظام يجب أن تكون ثمرة تصميم ذكي، ولا توجد أي احتمالية أخرى يمكنني التفكير بها»!

هذا لم يتغير مع مرور الزمان بسهولة، حيث إن (ريتشارد دوكنز) المعاصر والذي هو أشد المتحمسين للداروينية في عصرنا الحالي، ليس لديه كبير اعتراض على افتراض (هويل) ويرى أنه (لربما) فعلًا كانت كائنات فضائية غامضة هي السبب وراء تكوين هذه الخلية الحية الأولى. لا ندري لماذا لم يسألوا أنفسهم: ومن أين أتت هذه الكائنات الفضائيّة؟! يبدو أنه وكما يقول الإعلامي الأمريكي (بين ستاين) معلّقًا على هذا: «هم لا يعترضون على افتراض التصميم الذكي إذن، هم فقط لا يحبون أن يكون هذا الذي قام به هو الله»!

يقول (مايكل دنتون) عن ذلك: «لا شيء يوضح استعصاء مشكلة أصل الحياة على الحل كحقيقة أن تفكر بعض النخب العلمية العالمية بشكل جاد في فكرة أن الحياة تم بذرها في الأرض من خلال كائنات فضائية».

بينما أشد الافتراضات قبولًا لدى معظم أنصار نظرية التطوّر الدارويني، هو أن العوامل الكونية مثل البرق والتفاعلات الكيمائية بالتراب هي التي أنشأت هذه الخلية بالصدفة!

❧

وإذا أردنا أن نخرج عن نطاق الداروينية قليلًا، فماذا عن نظريّات نشأة الكون ككل؟! يؤمن غالبية الفيزيائيين اليوم بالانفجار الكبير كنظرية تفسّر لنا نشأة الكون المشاهد من مُفرَدَة كونية (Singularity) ذات الكثافة والكتلة غير المتناهيين، والحجم القريب من الصفر، والتي تمددت في لحظة معينة لتكوّن الكون كله. هذا الاعتقاد بصحة هذه النظرية لا يتأثر بديانة هؤلاء العلماء أو موقفهم من وجود الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ. ولكن من يؤمن منهم بالله سيرى أن الله هو الذي خلق هذه (المُفرَدَة) وأمرها بأن تكوّن الكون على هذه الطريقة البديعة. بينما الملاحدة من هؤلاء سيقعون في لغز: ومن أين أتت هذه المفردة؟!

ادّعى بعضهم أنها قد بزغت من العدم فجأة وبشكل تلقائي! ولكي لا يتسبب قولهم هذا في كسر قواعد المادة والطاقة التي هي ألف باء الفيزياء. افترضوا أن كمية المادة في كوننا تساوي كمية ضديد المادة تمامًا Anti -matter وأن كمية الطاقة الموجبة تساوي كمية الطاقة السالبة تمامًا. وبذلك يصبح الكون في حقيقته يساوي صفرًا، فلا مانع من أن يبدأ كجسيم يخرج من العدم لأنه هو الآخر أصلًا عدم! يناصر كل من (فكتور ستينجر) و(ميتشيو كاكو) هذه الأفكار. هذا شبيه في الحقيقة بقولك أن رجلًا خرج من بيته ولف العالم كله في ٣٦٠ درجة ثم عاد إلى بيته كمن لم يخرج من بيته قط!

بينما فضّل آخرون التمسك بفكرة أن الكون يحتوي على القوانين الفيزيائية التي تمكنه من أن يخلق نفسه. وهو الافتراض الذي قدّمه (ستيفن هوكنج)، وهو ما رد عليه عالم الرياضيات (جون لينوكس) ببساطة: «إن القوانين بذاتها لا تخلق شيئًا إذ هي ليست سوى وصف لما يقع تحت ظروف معينة، إن ما فعله هوكينج هو الخلط بين القانون والوسيلة».

وفي كل الأحوال فهؤلاء وأولئك لم يزعموا أبدًا أنهم متأكدون من كلامهم، بل هم يعلمون أنهم (ربما) كانوا على صواب.

❁

وهكذا نرى أن الفضول البشري عتيدٌ حقًا فيما يخصّ ما لا يعلمه! كل ما لا يتناهى إلى العقل البشري من العلم يثير غيظه بالفعل، ويدفعه إلى البحث عنه والتحيّر بشأنه، هذه لمحة من صفات النفس البشرية عمومًا والتي أخبرنا بها القرآن في قول الخضر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**﴾ (الكهف ٦٧ -٦٨)؟!

ونتيجة لهذا الفضول يأتون بالفرضيّات المحتملة لذلك، ولكن وقتها يتساءل العاقلون إن كان ما يقولون هو الحقيقة، أليست من صفات هذه الحقيقة أن تكون واحدة؟! معنى أن تكون واحدة أن تكون كافية مغنية موثوقًا بها، ولكن لماذا يراها كثيرة إلى هذا الحد؟ لماذا هم مختلفون فيها كل هذا الاختلاف؟! إن هذا كما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن مثل فعلهم: ﴿**إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ**﴾ (الذاريات ٨)!

ثم يتساءل العاقلون أيضًا، إن كان ما يقولون هو الحقيقة، فلماذا تكون ظنًّا واحتمالات؟ لماذا تحوي كل هذا الكم من (ربما، من الممكن، لا ندري بالظبط ولكن نفترض.. إلخ)؟؟! أليس من المفترض لهذه الحقيقة أن تكون (علمًا) وليست (ظنًا)؟ إن هذا كما يقول القرآن: ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ (يونس ٣٦).

ثم يتساءل العاقلون، إن كان ما يقولون هو الحقيقة، فلماذا لا نجد لها أبعاد الحقيقة؟! فالحقيقة التي هي حقيقة بالفعل، يكون طولُها: الإقناع، وعرضُها: الإحاطة، وارتفاعُها: المعقوليّة! إنها ليست كالحقيقة تفسر الكون والخلق بكل تعقيداته. فهي كالباطل الذي ذكره القرآن تمامًا: لا يبدئ ولا يعيد! كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**﴾ (سبأ ٤٩). أي أنه الشيطان لا يخلق أحدًا ولا يحييه، كما قال قتادة، أو أنها الأصنام لا تُبدئ خلقًا ولا تحييه، كما قال الضحّاك، أو أنه استفهام بمعنى: «فأي شيء بقي للباطل حتى يعيده ويبدئه؟؟!» كما قال القرطبي.

❁

ليس هؤلاء وأولئك موقنين بما يقولون فعلًا. بل هم في شك كامل منه، ولكن هذا الشك سيسلّيهم ويلهيهم عن التماس الحقائق الكبرى في الوجود بالطريق الذي لا بد لهم منه، وهو طريق الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم لا يحبون هذا الطريق على كل حال. لذلك التماسهم للغيب بطرائقهم المشكوك فيها هذه، وبرغم أنها تظهر بمظهر العلم والحكمة إلا أن المؤمن -الذي قد وصل إلى حقائق الوجود بطريقة يثق فيها هو ويتيقن- سينظر إلى هؤلاء على أنهم في الواقع يلعبون! مثلما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عن مثلهم: ﴿**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ**﴾ (الدخان ٩). يمكننا أن نتوقع أن نتائج هذا الالتماس الغيبي الشكوكي في الواقع أقرب للعبثية من الجدية، أقرب للضلال من الهدى، أقرب للخطأ من الصواب!

هذا الذي نلاحظه الآن من تخبّط على غير هدى منهم، كان من نتاج خروج العلم التجريبي عن (النطاق) الذي يستطيع أن يكون فيه! حين نبحث بأدوات العلم (التي يمكن تطبيقها على الموجودات في المعمل) في حقائق الوجود الكبرى التي لم نشهدها بطبيعة الحال فإن هذا يوقعنا في إشكاليّة استدلاليّة كبيرة. كما يقول (ديفيد بيرلنسكي): «من منظور العلم الحقيقي، ما دامت لا توجد تجربة معروضة فأنت في ورطة! ولا تملك أدنى فكرة عن كفاية هذه الأدلة على الغرض المراد منها أم لا»! وهو الأمر الذي يمكننا أن نلاحظ أن القرآن نبهنا عليه، كما يقول: ﴿**مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ**﴾ (الكهف ٥١).

يقول التطوري الشهير (ستيفن جولد): «نحن نعلم أن هناك الكثير من الأحداث التطورية التي لم تترك أثرًا يمكننا من الاستدلال عليه تجريبيًا. وبالتالي فلا نستطيع أن نضع سؤالًا علميًا بخصوص تلك الأحداث، على سبيل المثال فأنا أشك أننا سنستطيع أن نحل أصل لغة الإنسان».

هذا الذي يحاولون الوصول إليه هو محض غيب بالنسبة للإنسان، وهذا هو السبب في كونهم يصلون في النهاية إلى حائط مسدود لا يمكنهم عبوره، ويضطرّون حينها أن يقولوا الكلمة التي يحاولون إقناعنا أن العلم لا يعرفها، وهي كلمة: لا ندري! ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن هؤلاء الذين يحاولون أن يلتمسوا (الغيب) بأدواتهم الناقصة: ﴿**وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ (سبأ ٥٣). كمثل من يحاول أن يقذف هدفًا بعيدًا جدًا عنه بحجارة، لا قوة يديه ستُوصِل حجارته إلى ما يريد، ولا قوة عينيه ستُعلمه أين يجب أن يرمي بالضبط! سيصبح حينها راميًا بحجارته من ذلك المكان البعيد على غير هدًى آملًا أن تصل بطريقة ما، وبحظٍّ ما، إلى وجهتها الصحيحة!

ولكنهم مع ذلك يقبلون برضا نفس كامل أن يأخذوا هذا الذي يقولون إلى القبر، ويقبلون أن يُفنوا حياتهم في الدفاع عنه، ويقبلون أن يكون لديهم قدرًا من القناعة يدفعهم إلى أن يغضوا الطرف عن كل ما لا يحيط به عقلهم بالفعل. في النهاية هم يقومون بما يقوم به المؤمنون بالفعل!

هم عندهم إيمان غيبي فعلًا: Faith. الفارق الوحيد أنه ليس إيمانًا بالله، ولكن بالعلم! هم متدينون فعلًا: Theists والفارق الوحيد أن دينهم ليس العبوديّة، ولكن العلم! هم كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ فيهم: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (العنكبوت ٥٢)!!

ألم أقل لكم في البداية، هناك فاشلون!

دائمًا هناك فاشلون!

وجه دورق آرغيل (جورج كاميل) سؤالًا إلى داروين عن أدلة التصميم العجيبة في تزاوج زهرة الأوركيديا. فقال داروين: «هذه الفكرة كثيرًا ما كانت تعصف بعقلي».

ثم هز رأسه وأضاف: «وفي أحيان أخرى تتلاشى».

بعدها بعام واحد مات داروين.

٥

التلوّث

"أتصورتَ العلم أنه بحث نزيه عن الحق؟

حسنًا. لقد كنتَ مخطئًا!"

ديفيد بيرلنيسكي

ماذا يمكن أن يحدث لعالم يقدم نظرية جديدة تعارض السائد؟ نعم، أعلم ما ستقوله، سوف يقوم (رجال الدين) ضيقو الأفق بعضّه وخمشه وحرقه ثم اغتصاب جثته كذلك. ولكننا هنا بصدد سؤال آخر: ماذا يمكن أن يحدث له من (العلماء) الآخرين؟

في عام ١٨٢٤ توصل (جاوس) لإثبات خطأ إحدى بديهيات الهندسة الإقليدية، ولكنه خاف من رد فعل (المجتمع العلمي) فلم ينشر بحثه وكتب في رسالة لصديقه مبررًا: «إني أخاف من صراخ الجهلاء». بعدها بعامين توصل (لوباتشفسكي) لنفس النظرية تسبب ذلك في سلسلة من الاضطهادات له انتهت بإقالته من منصبه كرئيس لجامعة كازان، وتم تجريده بعدها من جميع الألقاب والمناصب الجامعية الأخرى! ثم في ١٨٧٠ جاء (ريمان) ليعضد نتائج أبحاث الاثنين وتم الاعتراف رسميًا بعدها بالهندسة غير الإقليدية، والتي اعتمد عليها آينشتاين لإثبات النسبية العامة.

من الواضح إذن أن مجرد معارضة (المألوف) تثير غضب (العلماء) أحيانًا.

أما (آليساندرو فولتا) فتمت معارضة أبحاثه لأنها تناقض نظريات (جالفاني) الخاصة بالكهرباء الحيوانية، وبعد ستة أعوام انتصر فولتا بإثبات أبحاثه.

من الواضح إذن أن مجرد معارضة (النظرية السائدة) تثير احتقان (العلماء) أحيانًا.

وفي عام ١٨٦٤ لاحظ (جون نيولاندز) أننا لو رتبنا العناصر الكيميائية تصاعديًا حسب وزنها الذري، فبعد كل ٧ عناصر منها سوف نجد نفس الخواص الفيزيائية والكيميائية المتقاربة. استهزأ المجمع الملكي به وسألوه ساخرين: وهل لو رتبنا العناصر أبجديًا سنجد نفس النتائج؟! كان عليهم

أن ينتظروا مجيء (منديلف) بعد خمسة أعوام كي يثبت الفكرة الغريبة ويكملها في صياغة الجدول الدوري، أحد أكثر الاكتشافات العلمية أناقة على مدار التاريخ.

من الواضح إذن أن الأفكار الأنيقة (البسيطة) تثير سخرية (العلماء) أحيانًا.

مع (جريجور مندل) كان الأمر مختلفًا، فبرغم دقة تجاربه، لم يتم الاحتفاء بها وظلت طي النسيان أكثر من ثلاثين عامًا، والسبب أنه لم يكن أكاديميًا مرموقًا، وعلى حد وصف بعض ممتحنيه: لم يكن يدري المصطلحات العلمية، لذا نشر بحثه في مجلة محلية مغمورة، وبالرغم من أنه المؤسس الأول لعلم الوراثة فإنه مات بدون أن يثني عليه أحد.

من الواضح إذن أن خروج العلم (من غير دوائره الرسمية) يثير استهجان (العلماء) أحيانًا.

وفي عام ١٩٥١ تمكنت عالمة التبلور (روزاليند فرانكلين) من الحصول على أول صورة لانكسار أشعة إكس في الحمض النووي، والتي أظهرت أن له شكلًا حلزونيًا منتظمًا، فصاغت فرانكلين ورقتها العلمية في ذلك، ولكنها لم تنشر، والسبب كما يقول المؤرخون هي دوافع متحيزة ضدها من رئيسها وزملائها الذكور! وبعدها بسنتين أعلن واطسون وكريك زميلاها ورقتهم الخاصة بالـ DNA بدون ذكر فرانكلين أو دورها وحصلا على جائزة نوبل بمفردهما.

من الواضح إذن أن التحيزات الجنسية تنال من (العلماء) أحيانًا.

لا تخلط بين العلم كحقيقة مجردة لا يمكن أن تخدعنا أو تتحيز ضدنا، وبين العلماء الذين هم بشر ينالهم من التحيزات المسبقة والأمراض الوجدانية ما قد ينال من أي أحد، بل ربما كانت التنافسات والأطماع الشخصية والانحيازات التأكيدية التي تميز المدارس العلمية مرتعًا أخصب لنمو أنواع الجهالات المختلفة.

ما الذي يدفع العلماء إلى التلوث؟

ما قد يدفع كل إنسان إلى التلوث في الحقيقة!

القناعات الشخصية والتحيزات الفكرية والتفضيلات النفسية والخلافات الاجتماعية والخلفيات الثقافية والهيئات السياسية والاقتصادية، وفوق كل ذلك هوى النفوس!

فلنبدأ مع السياسة.

أي فلسفة سياسية يجب أن تنطلق من رؤية حول فطرة الإنسان، لأنها سوف تطالب الناس بالثورة، بالتضحية، وأحيانًا بالموت، فيجب أن يكون لديها جواب لمعتنقيها عن سبب قيامهم بذلك.

يجب أن تثبت أن البديل الذي ستقدمه أكثر اتساقًا مع فطرة الإنسان، لذلك كان (ماركس) يرى أن هناك فطرة حقيقية للإنسان، وأن البشر يحققون ذواتهم بالتلاعب المخطط له بالطبيعة.

وفي القرن الثامن عشر، كانت هناك نظرية فلسفية سائدة، وهي نظرية ضد الفقراء ولصالح الملكية عمومًا، مثل نظريات (توماس هوبز) وغيره، ومثل نظريات رجل آخر قد ذكرناه منذ قليل. نعم، مالتوس!

كان مالتوس يرى أن الإنسان يتكاثر بمتوالية هندسية، وموارده تزداد بمتوالية حسابية، وبالتالي سوف نقضي على بعضنا البعض، والحل الوحيد من وجهة نظره كان وضع الرقابة على الفقراء لئلّا يتكاثروا أكثر. واستُخدِمَت نظرياته لمهاجمة قانون الفقراء الإنجليزي. ونحن نعلم أن (داروين) قد بنى تصوره عن العالم الطبيعي وفقًا لنظرية مالتوس. إن ما فعله (داروين) هو أنه قد سحب المناخ السياسي السائد في عصره على (ملاحظاته) البيولوجية ليبني (أيديولوجية) مهجنة من كليهما!

❧

ماذا عن تلوث العلم برأس المال وبالقوى الاقتصادية الكبرى؟

العلم ينتج السلع، أي ينتج المال، ومن أجل ذلك فمن الطبيعي أن تتحكم القوى الاقتصادية والسياسية بما يقدمه العلم، ومن الطبيعي أن تسعى إلى أن تأخذ من العلم الأفكار التي تتناسب مع استمرارية تلك القوى وتلك البنى الاجتماعية، وتجعله مشروعًا وطبيعيًا في المجتمع. كما كان يقول (فوكس داي): «إن مهنة العلم الطبيعي تزداد اختلاطًا بالسلطة والسياسة كما هو مشهود من معاملة أولئك الذين لا يسبحون مع تيار الإجماع العلمي على مسائل لم يقم عليها دليل بعد»!

❧

والآن لننتقل إلى الأحكام الاجتماعية المسبقة.

ذكّرنا (ريتشارد لوينتون) أن العلماء لا يكونون منذ بداية حياتهم علماء طبعًا، وإنما يكونون أولًا كائنات اجتماعية منغمسة في الأسرة وفي الدولة، فبالتالي ينظرون للعالم بالعدسة التي صاغتها تجربتهم الاجتماعية. ويقول العالم التطوري الكبير (ستيفن جاي جولد): «إن طرق تعلمنا عن العالم تتأثر بقوة بأفكارنا الاجتماعية (المسبقة)، وبطرق التفكير (المنحازة) التي لا بد أن يطبقها كل عالم على أية مشكلة، إن الصورة النمطية للطريقة العلمية الموضوعية تامة العقلانية يتعاطاها أفراد العلماء كماكينات آلية منطقية ليس إلا أسطورة لخدمة المصالح الذاتية»

❧

وأما دور المجلات العلمية فكبير بلا شك!

أقوى وأشهر طرق تقويم المجلات العلمية هو معامل (التأثير) للمقالات الموجودة بها، ويعني كثرة (الاستشهادات) به كقرينة على قوة المادة العلمية. أي أن المجلة العلمية يتم تقييم أبحاثها علميًا بـ... (مدى شهرتها!).

لذلك فمن الطبيعي أن يلجأ محررو المجلة إلى قبول الأبحاث (الشائقة) التي من المفترض أن تحقق شهرة كبيرة وسط المجتمع العلمي، والاعتذار عن قبول الأبحاث المرهقة التي لا يهتم لها الكثير من الناس! بل بعض المجلات وظفت محررين ليسوا بعلماء ولكنهم محترفين في كتابة موضوعات الإثارة!

من أجل هذا الخلل، فقد أعلن عالم الأحياء (راندي شيكمان) الحائز على جائزة نوبل، مقاطعة معمله للنشر في المجلات العلمية الكبرى مثل Nature, Cell & Science لأنها «تشوه البحث العلمي وتسبب استبدادًا يجب كسره».

***

ماذا يمكن أن يلوّث الأبحاث العلمية أيضًا؟ نعم بالطبع، الدوافع النفسية!

فبعد أن اختلط فيلسوف العلوم البيولوجية (ديفيد هل) بالعديد من الحوارات مع العلماء ورصد ما يدور في أروقة المؤسسات العلمية، أبدى رأيه الواضح وقال في كتابه (العلم كإجراء): «أجدني متفقًا مع من يرى أن وجود العلم التجريبي ومنطقه النهائي يمكن تفسيرهما في ضوء ما يقع من تحيز وغيرة ولا عقلانية»!

وأشار (توماس كون) في كتابه (بنية الثورات العلمية) من أن العلم التجريبي لا يتقدم بشكل خطي تراكمي منتظم، بل عبر قفزات ومنعطفات مفاجئة، تقف وراءها جملة من العوامل النفسية والاجتماعية، بما في ذلك نزوات العلماء وأهواؤهم الخاصة، والتي قد تصل إلى حد الانتقام من بعضهم البعض، أو الرغبة الشخصية في إخراس الأقران على حساب الحياد المنتظر من هؤلاء.

وقد أشار (ديفيد هل) إلى ذلك أيضًا، فيقول: «مرة تلو الأخرى، وصف لي العلماء الذين قابلتهم تلك الدفعة القوية التي تمنحها عبارة (سوف أُري ابن العاهرة) لأبحاثهم»!

وللعالم التطوري الكبير (ستيفن جاي جولد) شهادة بخصوص هذا الشأن، فيقول في كتابه (الحياة الرائعة): «لم تصل السذاجة بأكثرنا إلى حد الإيمان بالخرافة القديمة التي تدعي أن علماء العلم التجريبي نماذج مثالية لل(موضوعية) غير المتحيزة. وأنهم (منفتحون) بدرجات متساوية على كافة الاحتمالات. ويصلون إلى استنتاجاتهم فقط على وزن (الدليل) ومنطق (الحجة). نحن

ندرك أن (التحيزات) و(التفضيلات) و(القيم الاجتماعية) و(المواقف النفسية)، كل ذلك يلعب دورًا قويًا في عملية الاكتشاف».

وهناك ما هو أسوأ من ذلك! تلك الدوافع الخفية التي لا يمكن قياسها فضلًا عن التعرف إليها، وهو الأمر الذي عبر عنه عالم الاجتماع (نوربرت إلياس) أنه: «الأمل في أن تتماشى نتائج أبحاثهم مع نظريات صدعوا بها من قبل». وأشار (توماس كون) إلى فرضية (عباد الشمس)، وأما (مايكل بوليني) فأشار إلى ما يعرف بالـ (المعرفة الخفية) أو (المستترة). وهو الأمر الذي لاحظ (عبد الله الشهري) أنه يشبه (الميل إلى الحدس) والثقة في قناعات الفرد ذاته! وهو ما يدفعنا إلى خفض جدار الثقة قليلًا في نتائج أبحاث العلماء ولا شك.

***

يجب علينا أن نتذكر ونحن نتحدث عن العلماء أننا لا نتحدث عن العلم كحقيقة موضوعية، وإنما عن ذوات تنتسب إلى هذا العلم، كما يقول (إدموند هوسرل): «المعرفة فيما هي عليه من الهيئات معيش نفسي. إنها معرفة لذات عارفة، قبالتها موضوعات معروفة»

من فضلك لا تنس أننا هنا نتحدث عن بشر!

من فضلك لا تنسَ أن الإنسان بطبعه كان ﴿**ضَعِيفًا**﴾ (النساء ٢٨) ﴿**هَلُوعًا** ﴾ (المعارج ١٩) ﴿**عَجُولًا**﴾ (الإسراء ١٧) ﴿**كَفُورًا**﴾ (الإسراء ٦٧) ﴿ **قَتُورًا** ﴾ (الإسراء ١٠٠) ﴿**ظَلُومًا جَهُولًا**﴾ (الأحزاب ٧٢) ﴿**أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾ (الكهف ٥٤) وبرغم كل ذلك فهو ﴿**خَصِيمٌ مُبِينٌ**﴾ (يس ٧٧)

من فضلك لا داعي لهالة القدسية الملائكية التي تضعها فوق ثوب المعمل، هي لا تليق بك ولا تليق به، وهو مزيج مضحك على كل حال!

٦

الإطار

"من يصنع الإطار يحكم النتيجة"

قاعدة في علم النفس

كثير من الناس يظنون أن (كوبرنيكوس) قد أعدمته الكنيسة الكاثوليكية حين خرج بنظامه الفلكي المضاد لذلك المذكور في الكتاب المقدس، ولكن الحقيقة أن كوبرنيكوس قد مات بشكل طبيعي في السنة التي طُبِع كتابه فيها، واشتُهرت نظريته بعد موته.

وبالمثل جاليليو لم يتم إعدامه حين نصر أفكار كوبرنيكوس ولكن تم اضطهاده بشكل شنيع بالطبع، وتمت محاكمته واعتذر هو عن أقواله فيها من وراء قلبه، اعتذرت الكنيسة الكاثوليكية عن تلك الإساءات لجاليليو في ١٩٩٢، أي بعد موته بـ ٣٠٠ عام! يبدو اعتذارًا متأخرًا قليلًا على كل حال.

ربما من تم إعدامه بالفعل وحرقه من قبل الكنيسة هو عالم الفلك والفيلسوف جوردانو برونو، وسبب ذلك على الأرجح كان إنكاره لكثير من العقائد اللاهوتية الكنسية مثل وجود الجنة والجحيم والثالوث وليست آراؤه الفلكية.

العدد الأكبر من الذين نالوا الاضطهاد الكاثوليكي الحقيقي بأبشع صوره من الحرق والتعذيب كانوا من المخالفين في العقيدة مثل محاكم التفتيش التي أعدمت الآلاف من المسلمين والبروتستانت، وأما العلماء التجريبيون فبرغم أن الكنيسة عادت كل نتائجهم التي أظهرت عوار اعتقادهم، إلا أنهم لم ينالوا كل هذا الكم المشهور من الاضطهاد والتضييق، بل ذكر (لورانس برنسيبيه) مؤلف كتاب الثورة العلمية أن معظم العلماء التجريبيين الذين قادوا عصر النهضة كانوا ينطلقون من أساس ديني وإيماني في الأصل.

في المقابل لو أردنا أن نلقي نظرة خاطفة على الثورة الفرنسية والتي هي علمانية في أصلها ونهجها، نجد أنها أعدمت الكثيرين من المثقفين والعلماء لشك قادة الثورة في انتماءاتهم مثل عالم

الفلك (باتي) وعالم الكيمياء (أنطوان لافوزييه)، وكان يقول قاضي الإعدامات وقتها: الثورة لا تحتاج إلى عباقرة.

الساسة الملحدون نالوا القسط الأكبر من ذلك التاريخ العدائي مع العلم التجريبي، مثل ستالين الذي حرّم قوانين مندل الوراثية لأنها تعارض الحتمية المادية الذي يؤمن بها، وأعدم (نيقولاي فافيلوف) من أجل ذلك. وأما ماو تسي تونج زعيم الصين الملحد وقائد الثورة الشيوعية هناك فقد كان صاحب السمعة الأقذر في معاداة المثقفين والعلماء في الفترة التي عُرفت باسم الثورة الثقافية، بل وصرّح في اجتماع لحزبه عام ١٩٥٨ بأنه دفن ٤٦ ألف عالم وهم أحياء. وأما كمبوديا في فترة حكم الملحد بول بوت فقد قامت في الفترة بين ١٩٧٦ و١٩٧٩ بإعدام كل من يرتدي نظارة سميكة خشية أن يكون مثقفاً.

لا تسمح لكل من يكفر بالله عز وجل بأن يتكلم عن (العلم) وكأنه قد اشتراه من البقالة تحت بيتهم، ويضعك رغمًا عنك في خانة المتدين الوغد معادي العلم. لا تسمح له بأن يقنعك بأن كل ما يتلفظ به هو علمي تمامًا وأنه إنما يتبع التجربة والدليل أينما ذهبا به. لا تسمح له بأن يتستر بأفكاره القبيحة خلف ستار العلم الجميل. وحين ترى من يثرثر بكلام كثير لا يفهمه حق فهمه لأنه قرأ ثلاثة كتب ونصف فاعتبر نفسه عضوًا في نادي المثقفين، فلا تسمح له أخي الكريم حينها بأن يصدق نفسه.

لا تسمح لهم بأن يصنعوا الإطار دون وجه حق لصنعه: ﴿**إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (يونس ٦٨).

❧

بعد أن يقوموا بـ (شراء) العلم، فسأخبرك بما سيفعلونه بعدها أخي الكريم.

في البداية سوف يقيّدون العقل الطبيعي للإنسان. ذلك العقل الذي وهبه الله عز وجل له قبل أن (تشكله) فرضيات مناهج الفلسفة والعلوم الطبيعية. وقبل أن (تحصره) قرائن وطرق العلم. سوف يقيدون ذلك العقل بمجموعة من الشروط، تؤدي إلى توجيه طرق التصور والحكم والفهم وتمكن للوصول إلى معرفة محددة بعينها. وهذه يا أخي الفاضل الخطوة الصفريّة التي تسبق كل الخطوات!

بعد ذلك سوف يجعلون هذه الشروط محصورة في العالم المادي الطبيعي، فيما يعرف باسم الفلسفة الوضعية. مثل ما جاء في خطابات (داروين) ورسائله إلى (آزا جراي) في ٢٠ / ٧ / ١٨٥٦ وإلى (تشارلز ليل) في ٢ / ٨ / ١٨٦١ والتي توضح أن (داروين) كان من متبعي فلسفة (كونت) الوضعية.

ما هي فلسفة (كونت) وما خطرها؟

(أوجست كونت) أسس للمذهب الوضعي الذي يرى أن العلم الصحيح يجب أن يتحرر من الاستناد إلى الله أو أي من الكائنات الأخرى غير القابلة للملاحظة. يجب فقط أن نركز على الظواهر القابلة للاختزال في هيئة قوانين.

أسمعك يا أخي الفاضل تذكر أن هذا كلام جيد ومنطقي. أرأيتَ! لقد دخلت في (إطارهم) بالفعل. سأريك لماذا لا يعتبر هذا كلامًا جيدًا للعلم قبل الدين!

وثّق (إميل برييه) في كتابه (تاريخ الفلسفة) أن (كونت) قد رفض -وبناءً على فلسفته- الاعتراف بحساب الاحتمالات، وذم كل جهد علمي للتعرف على أصل الكون، أو تحديد المكونات الفيزيائية للنجوم. كما رفض اهتمام الفيزياء بالبحث في مكونات المادة. أو أي نظرية في تطور الأجناس. أو أي بحث أنثروبولوجي عن الأصل التاريخي للمجتمعات!

إنهم سوف يقنعونك أن هدفهم العلم، في الحقيقة هم يهدفون إلى إطار معين من العلم، ويخافون ويكرهون ما عداه. ولنطلق يا أخي الفاضل على هذه الخطوة: الخطوة الأولى.

الآن لننتقل إلى الخطوة التالية: المادية الصرفة. لا يُسمح في هذه الخطوة أن تفكر حتى مجرد تفكير أن تبحث عن الله بأدوات العلم التي معك. أنت تعرف أن الله خارج المعمل بطبيعة الحال، وأنه لا سبيل للوصول إليه بنتائج العلم التجريبي، ولكنك كنت تطمع أن تستنتج الوصول إليه عقليًا بناء على نتائج العلم التجريبي، أليس كذلك؟ حسنًا، لا يمكنك أن تفعل ذلك أيضًا! هذه هي الخطوة الثانية يا سيدي.

لماذا لا يمكنك أن تفعل ذلك؟ أنت تسأل أسئلة كثيرة! سأخبرك.

يقول الملحد (سكوت تود): «حتى لو كانت جميع المعطيات تشير إلى مصمم ذكي، فإن مثل هذه الفرضية يجب أن تكون مُستبعدة من العلم، لأنها تمثل نظرة غير مادية»! بمعنى آخر: سوف نعاند الحقيقة بشكل صريح ولن يصيبنا الخجل من ذلك!

ويفسر سبب ذلك الملحد التطوري (ريتشارد لوينتون) في مقاله على موقع (نيورويك بوك) بعنوان (مليارات ومليارات الشياطين): «نحن نصطف مع العلم رغم السخافة الصريحة لبعض نماذجه، ورغم إخفاقه في الوفاء بكثير من وعوده، ورغم التسامح الذي يبديه تجاه القصص المقررة بلا أساس، كل ذلك لأن لدينا التزامًا مسبقًا بالمادية، نحن مضطرون بـ (ولائنا) المسبق للأسباب المادية لـ (صناعة) أداة بحثية وحزمة من المفاهيم التي من شأنها أن تنتج تفسيرات مادية مهما كانت مصادمة للحس. إذ لا يمكن (أن نسمح) للقدم الإلهية بالولوج من الباب»!!

هل فهمتَ الآن السبب؟ (لا يمكن أن نسمح للقدم الإلهية بالولوج من الباب)!

مثلما كتب (فيكتور ستينجر) كتاب (الإله، الفرضية الفاشلة، كيف أثبت العلم عدم وجود الله). وكما يقول (ديفيد بيرلنسكي) فبرغم أن ستينجر هو الذي قد كتب الكتاب، إلا أنه يُرَاد لنا أن نفهم أن (العلم) هو من قام بالبرهنة اللازمة! ويعلق (بيرلنسكي): «إذا كان العلم يعارض الدين، فليس ذلك راجعًا إلى شيء تشتمل عليه مقدمات أو نتائج النظريات العلمية. إنها لا تنبس ببنت شفة عن الله».

والآن ننتقل إلى الخطوة الثالثة: سوف نقتل الفلسفة!

فـ (ستيفن هوكنج) سيقول: «الفلسفة ماتت». و(بي زي مايرز) سيقول: «الكثير من الفلسفة سيدمرك». و(ريتشارد فاينمان) سيقول: «إن الفلاسفة في الخارج دومًا هناك لإطلاق تعليقات حمقاء» . و(لورانس كراوس) سيقول: «الفلسفة تذكرني بنكتة وودي آلن: إن الذين لا يستطيعون أن يفعلوا يدرسون، والذين لا يستطيعون التدريس يدرسون الرياضيات».

لا حاجة لنا إلى هذه (التقاليع) الإنسانية القديمة، لا حاجة لنا إلى التفكير والتأمل. المعمل سوف يحمل شعلة الإنسانية الجديدة.

ولكن، انتظر يا أخي الفاضل، قبل أن نقتل الفلسفة، سوف نستعير منها أولًا بعض المسلمات الفلسفية التي لا يمكن إثباتها بالعلم التجريبي، مثل أن (الكون له وجود حقيقي مستقل عن إدراكنا). وأنه (كون قابل للتعلم). وأنه (محكوم بقوانين معينة). وهكذا.. بعض المسلمات الفلسفية البسيطة نحتاج إليها لبناء المعمل الخاص بنا، وسنتغاضى عن كوننا لا نستطيع إثباتها بأدواتنا بأية طريقة. وأما الباقي فلا نحتاج إليه وسنرميه في أقرب سلة مهملات.

الآن يا سيدي أنت مستعد للخطوة الرابعة: سوف نقصي كل من لا يؤمن بالخطوات السابقة من ساحة العلم والمعرفة! وحين أقول نقصيهم، فأنا لا أعني تجاهلهم، بل أعني إقصاءهم حرفيًا.

مثل (فرانسيس كولينز) رئيس مشروع الجينوم البشري المؤمن بالله، كيف جرؤ على أن يصحب إيمانه معه إلى داخل رئاسة المعاهد الصحية الوطنية الأمريكية؟! حتى ولو لن ينطق بكلمة عن الله، فنحن نعلم أنه يحمله داخل قلبه، مما يعني أنه أحمق!

فبالتالي سوف يهاجمه (سام هاريس) بشدة بحجة أنه: «سيؤثر سلبًا على المشروع العلمي لأنه متنكر للرؤية المادية للوجود». وسوف يقول عنه (جيري كوين) أنه «مثير للخجل للمعاهد الوطنية الصحية، وللعلماء، ولجميع البشر العقلاء»! وأما (بي زي مايرز) فسيقول عنه: «شخص مغفّل يؤمن بفكرة الخلق» وأن: «جميع ما كتبه حيال طريقة تفكيره في العلم مجرد زبالة».

نعم، قال: زبالة!

أرى يا سيدي أنك مصر على فهمي بطريقة خاطئة، تفهم أنني أقصد الإقصاء بمعنى أننا سوف نكتفي بإلقائهم بالزبالة في سباب الصحف والمجلات. هذا كان فقط لأننا لسنا مسئولين عن الأمر، ليست في أيادينا سلطة، أما لو كانت السلطة معنا سوف نقوم بكل بساطة بطردهم فعليًا من المؤسسات الأكاديمية. ويمكنك أن تتأكد من قدرتنا على فعل ذلك من خلال قراءة كتاب (ذبح المنشقين، الحقيقة الصادمة عن حقيقة قتل مهن المتشككين في الداروينية) للبيولوجي (جيري بريجمان). أو يمكنك مشاهدة الفيلم الوثائقي (Expelled) المتحدث عن نفس المبدأ.

والآن لننتقل إلى خطوتنا الأخيرة: ابحث عن الله. نعم، الآن، وسط هذا الإطار الذي وضعناه في الخطوات السابقة. ابحث عن الله الآن.

ولكن، تذكر. غير مسموح لك بأن تستنتج أي شيء غير مادي، أو أن تتبنى أية رؤية فلسفية فوقية، أو أن تستخدم عقلك الطبيعي غير المقيّد. ولكن.. نحن نتعامل بروح سمحة هنا، هيا اذهب وابحث عن الله، لا تخجل.

ماذا؟ لا تجده؟ ألم نقل لك أنه غير موجود ولم تصدقنا؟

أهلًا بك في إطارنا الحاكم. أهلًا بك في دائرتنا المفرغة يا سيدي!

٧
السلطة

"غالبًا ما تكون الموضوعية أول ضحية عند خوض العلماء التجريبيين معركة متعلقة بالقضايا الاجتماعية"

ويليام برود

كتب عالم الرياضيات (ديفيد بيرلنسكي) ساخرًا: «رغم أن العادة جرت بتشبيه نظرية داروين بالنظريات العظمى للفيزياء الرياضية بحجة أن التطور ثابت ثبوت الجاذبية، نجد نزرًا يسيرًا جدًا من الفيزيائيين يعتمد القول بأن الجاذبية ثابتة ثبوت التطور. إنهم أدرى وليسوا بأغبياء»!

الرياضيون عمومًا يندهشون من ثقة الداروينيين بأنفسهم.

لذلك كان شيئًا يشبه المشاجرة هو ما قام بين علماء الرياضيات من جهة وعلماء الأحياء التطوريين من جهة، وذلك في عشاء ودّي جمعهم في (جنيف) في بيت الفيزيائي (فيكتور ويسكوف) في منتصف الستينات. حيث أبدى الرياضيون تعجبهم من الثقة المفرطة التي يتحدث بها البيولوجيون عن قدرة الطفرات العشوائية على تجميع المعلومات الجينية اللازمة لتطوير بنى حيوية جديدة.

كانت فكرة الرياضيين أنه طالما تتحدثون عن (لعبتنا) نحن بحساب الاحتماليات والأرقام فاسمحوا لنا بأن نصارحكم أنكم عدم المؤاخذة مجموعة من الحمقى.

يبدو أن المشاجرة كانت كبيرة فعلًا لدرجة أن الرياضيين قد قرروا استكمالها في ١٩٦٦ حين أقاموا مؤتمرًا ضخمًا لهم في معهد (ويستار) في فيلادلفيا وترأسه السير (بيتر مِدَور) الحائز على نوبل، والذي بدأ افتتاحيته للمؤتمر بقوله: «السبب الرئيسي لهذا المؤتمر هو شعور واسع النطاق بعدم الرضا عما يمكن التعبير عنه بالقبول الشائع لنظرية التطور وما يسمى الداروينية الجديدة».

عرض الرياضيون في المؤتمر المشكلة الحسابية الهائلة المتضمنة في عدد الجينات والبروتينات الوظيفية إلى عدد التراكيب الممكنة، حيث هناك ١٠ أس ١٣٠ تسلسل ممكن للأحماض الأمينية

لتشكيل بروتين طوله ١٠٠ حمض أميني، لذلك كانت الإجابة في نظر أغلبية فيزيائيي ورياضيي المؤتمر في منتهى الوضوح: لا توجد أية إمكانية عقلانية لحدوث هذا!

وبحلول أواخر الستينات كانت الثقة العلمية في الداروينية الجديدة تتراجع مع الكشوفات التي كانت تتوالى في عدة فروع علمية، علم المستحاثات، وعلم تصنيف الأحياء وتسميتها، وعلم الأحياء الجزيئي، والوراثة.

بحلول الثمانينات بدأت التشققات في الظهور في الـ (تابوو). فكتب (مايكل دنتون) كتابه: (التطور، نظرية في أزمة) في ١٩٨٦، وكتب (سوران لاڤتراب) كتابه: (الدراوينية، تفنيد الخرافة) في ١٩٨٧، وكتب (ستيوارت كاوفمان) كتابه (أصول النظام) في ١٩٩٣، وكتب (براين جودوين): (كيف غير الفهد بقعه) في ١٩٩٥، وفي نفس السنة كتب (نايلز إلدريد ج): (إعادة تصميم داروين)، وكتب (رودوولف راف): (شكل الحياة) في ١٩٩٦، وهو نفس العام الذي كتب فيه (مايكل بيهي) كتابه الشهير (صندوق داروين الأسود)، وكتب (والاس آرثر): (أصل بنى الجسد الحيواني) في ١٩٩٧، وختم (جيفري شورتس) القرن العشرين بكتابه: (الأصول المفاجئة، الحفريات والجينات وظهور الأنواع) في ١٩٩٩.

وفي اعتراف غير مسبق، وكما هو موثق على موقع مجلة Science، اجتمع أكثر من ١٥٠ عالمًا من علماء التطور في أحد المؤتمرات بجامعة شيكاغو لبحث آليات ظهور الأنواع، وكان السؤال المحوري حول ما إذا كانت تغيرات الهندسة الوراثية وطفرات الجراثيم كافية لشرح ظواهر التطور الماكروي وظهور الأنواع الجديدة أم لا، وكانت الإجابة الواضحة هي: لا.

لاحظ (فيليب جونسون) -كما لا بد أنك لاحظت الآن- أن هناك تناقضًا بين الشكوك التي كان يبديها البيولوجيون التطوريون في دراساتهم الاختصاصية، وبين الخطاب التوبيخي المتعالي الوعظي الذي يصدرونه للعامة! وهو الأمر الذي لاحظه بيرلنسكي بعده بعدة سنوات، فيقول: «في خصوصية الردهة التابعة لكلية سوزان ب. أنتوني، يُسرّون القول بعضهم لبعض كم هو جيد جدًا أن العامة لا يملكون أدنى فكرة عما توحي به أدبيات الأبحاث فعلًا». بينما رمقه أحد الحاصلين على (نوبل) في البيولوجيا من فوق نظارته وقال له: «داروين؟.. هذه سياسة الحزب وكفى»!

كانوا يتعاملون بشيء من الحيطة فيما يتعلق بـ (سمعة) الداروينية، أو على حد تعبير (جونسون): «شيئًا ما حول الأسلوب الخطابي للداروينيين يخبرني أنهم يخفون شيئًا».

تحولت الحيطة إلى نوع من الهلع، ثم إلى شراسة ولامعقولية أحيانًا، مثل ما جاء في البيان الرسمي الذي أرسلته (الأكاديمية الوطنية الأمريكية للعلوم) إلى المحكمة العليا خلال قضية (العلم الخَلْقي) في لويزيانا: «أحد الخصائص الأساسية للعلم هي الاعتماد على التعليلات الطبيعية

المادية»، بمعنى آخر هم قرروا أن نظرية الخَلق ليست علمًا لأن العلم يجب أن يقول بأنه لا يوجد خلق!

وصلت هذه الشراسة إلى درجة أن رفضوا نظرية علمية تمامًا مثل نظرية التصميم الذكي بدعوى أنها نظرية (متدينة) لأنها تفترض وجود (تصميم) وهو ما يمكن أن يجرنا -والعياذ بالله- إلى افتراض وجود خالق مثلًا.

وفي ديسمبر ٢٠٠٤ أطلق الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية دعوى قضائية للمطالبة بمنع مدرسة (دوڤر) في بنسلفانيا من مجرد إعلام طلبتها بوجود كتاب عن التصميم الذكي في مكتبتها يمكنهم الرجوع إليه!

ربما لا يوجد كبير شبه بين بدو قريش الهمج الذين كانوا يصرخون في ضعفائهم ومتبوعيهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت ٢٦). وبين السادة العلماء المتحضرين الذين يقبعون في أكاديمياتهم الأنيقة ويقررون ما الذي يجب وما الذي لا يجب أن يعلمه عامة الناس من أمثالنا.

ربما لا يوجد كبير شبه بينهما فعلًا، لكن بنظرة ثانية متأنية أكثر مع بعض التفكير، وبعض التجرد، وبعض التأمل، ربما يمكنك أن تسمع بأذن الخيال تلك الصرخة اليائسة: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ (الأحزاب ٦٧).

وهذه المرة، وفيما يخص هذه الصرخة بالذات، فلربما نجد كبير شبه فعلًا بين أهل البدو وأهل مانهاتن!

ذكر عالم البيولوجيا التطوري (ريتشارد لوينتون) أنه، وعمومًا، لكي تتمكن مؤسسة ما من (شرعنة) العالم، وتقديم تفسيرًا له يتبعه الناس، فيجب عليها أن تتوفر لها ثلاثة شروط.

أولًا يجب أن تكون فوقية، قادمة من مصدر خارج عن الصراع الإنساني، يجب ألا (تبدو) كنتيجة لصراع القوى السياسية والاقتصادية، العلم ويملك هذه الميزة. برغم أنه ليس كل ما (يبدو) يكون صحيحًا وليس كل مل يلمع ذهبًا. وثانيًا يجب أن تكون نتائجها صحيحة وذات مصداقية ومستوحاة من مصدر دقيق. ومن جديد فالعلم يملك هذه الميزة. على الأقل في أذهان الناس. وثالثًا يجب أن تكون مؤسسة لها طابع سري ومبهم، وتكون إجراءاتها المتخصصة مبهمة لدى العامة وتحتاج إلى تدخل من الأخصائيين (أبناء المؤسسة) لشرحها. وهنا يصبح لابن المؤسسة العريقة الحق في إضافة أيدلوجيته على تلك العمليات العلمية المبهمة، ويحوّل صدق الفكرة ونورها إلى زيف الأيديولوجية وظلامها كما قال بيجوفيتش.

العلم ليس مجرد مؤسسة لتفسير العالم المادي، بل يقوم باستمرار بتشكيل الوعي السياسي والاجتماعي. العلم ليس مجرد مجموعة حقائق تتعلق بالعالم، بل هو الجسد المتكون من التأكيدات المتعلقة بالعالَم والتي يقدمها (العلماء). وتأكيدات العلماء عن العالم وكيف يرونه هم تمثل جزء كبير من أساس الوعي الإنساني العام. وتحمل الشرعية الخاصة بها من شرعية قدسية كلمة العلم ذاتها، ومن أساتذة الجامعة المشاهية ومن وسائل الإعلام العالمية. التعليم لا يُراد منه في أغلب الأحيان أن نكون مؤهلين لتطوير العالم وتسخيره فقط، ولكن أن يشكل مواقفنا الاجتماعية كذلك. ومن هنا يقول (دانييل ويستر) السياسي الأمريكي: «التعليم نوع من أنواع الشرطة. أكثر حكمة وتحررًا».

هذه (السلطة) العلموية التي تفرض على أذهان عامة الناس ذلك الشعور الوهمي بقدرتنا على تفسير كل شيء، أو أن كل شيء يجب أن يخضع تحت هذه السلطة الحاكمة، يعبر عنها القرآن بلفظ (السلطان)، بمعنى (موقع القوة) الذي يجعلك تطلق الأحكام الشمولية على العالم وتسعى إلى فرضها على الجميع. كما يقول الله تعالى: ﴿**لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ**﴾ (الكهف ١٥). ﴿**أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ**﴾ (الصافات ١٥٦). ﴿**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ**﴾ (غافر ٣٥).

ويذكرنا القرآن بأن هذا (التخويل) بمنح هذه السلطة أو امتلاكها لا يجب أن يخرج من داخل هذا العالم، بل يجب أن يكون متعاليًا (فعلًا وبحق) عليه وعلى صراعاته الإنسانية. وكما كان يقول فتجنشتاين «أن مجموع قيم هذا العالم لا تجد معناها إلا خارج العالم لا داخله». فكذلك يقول القرآن: ﴿**أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ**﴾ (الروم ٣٥). ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ الله بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ**﴾ (النجم ٢٣).

***

المشكلة أن العلم لن يستطيع أن يقدم البديل أبدًا، مهما حاول أن يبني سلطته الكاملة، فلن تكون كاملة! إن لديه الكثير مما يفقده، وفي كل فجوة تفسيرية يملؤها يتسبب في عدة فجوات جديدة. وفي اللحظة التي يملأ فيها كل الفجوات ويجيب فيها عن كل الأسئلة العلمية، فسوف يُفاجأ بأنه لم يجب بعد على أي من الأسئلة الأساسية في الحياة كما قال فيتجنشتاين!

كما كان يقول العالم الفيزيائي الكبير (إرون شرودينجر): «الصورة التي يقدمها العلم عن الواقع من حولي صورة ناقصة جدًا. إنه لا يتكلم ببنت شفة عن الأحمر والأزرق، المر والحلو، الألم واللذة، إنه لا يعرف شيئًا عن الجميل والقبيح، الحسن والسيء، الله والخلود. يتظاهر العلم أحيانًا بأنه يجيب عن الأسئلة في هذه المجالات، ولكن غالبًا ما تكون إجاباته سخيفة للغاية إلى درجة أننا لا نميل إلى أخذها على محمل الجد»!

ونتيجة لهذه السلطة العاجزة -وكأي سلطة عاجزة- فإنها تشعر بالتهديد! يشعر أصحاب السلطة العِلموية بأن الدين يتهددهم، الفلسفة تتهددهم، العلوم الإنسانية تتهددهم، كل من يملك القدرة على تقديم رؤى شمولية أكثر قدرة على استيعاب حقائق الوجود غير مرحب به!

هناك أمر آخر غير مرحب به، النقد! فكما قال (ديفيد بيرلنسكي): «مثل الحزب الشيوعي في عهد لينين، فالعلم الطبيعي معصوم من الأخطاء لأن أحكامه جماعية. لا حاجة للنقاد وبما أن الحاجة إليهم منتفية فهم غير مرحب بهم».

سلطة شعبوية + أيديولوجية + إقصاء لغيرها من السلطات + ادّعاء العصمة الاعتبارية.

هل يمكنك ألا تلاحظ أننا نتعامل مع نوع من الأديان هنا؟

دين اسمه العِلمَويّة Scientism. وككل دين سوف يسبك أتباعه بحماس بمجرد أن تعرّض باعتقادهم للحظة. أتباعه الذين يدّعون أنهم ليسوا (تابعين) ولكنهم يفعلون بانتظام كل تلك الأشياء التي يفعلها من يتبع شيئًا ما!

في سبيل العلم سوف نتغاضى عن كثير من القصور، سوف نتناسى الكثير من تاريخ أخطائه وخطاياه، في سبيل العلم سوف نقتل العلوم الإنسانية، سوف نسخر من علوم الاجتماع، سوف نشنق آخر رجل دين بأمعاء آخر فيلسوف.

سوف يكون علينا أن نفترض الأشياء ونقول: لربما كانت كذا. ثم سيتولى كُهّاننا مهمة حذف (ربما) في الأجيال اللاحقة. العلم سوف يجيب عن جميع الأسئلة، سوف يكشف لنا في المستقبل ما نجهله الآن، فقط علينا أن نؤمن بقدرته! سوف يفسر لنا ما غاب عنا من الماضي، فقط علينا أن نثق بغيبياته الكثيرة. العلم هو الحقيقة الوحيدة.

الأمر كله أشبه بكهنوت! كهنوت حقيقي له سلطة القبول المجتمعي وله صكوك حرمان يُعاقَب بها من لا يؤمن به. ولكنه كهنوت بزي موحد فاتن له لمعة جذابة نجح في أن يُعلي قيمتها في المجتمع ويُرخّص سبل الحصول عليها.

هل تريد يا سيدي زينا الموحد لكهنوت العِلموية؟ إنه زي رائع، ما عليك إلا أن تلبسه فتصير النجم اللامع وسط ظلام الأغبياء، سوف تصبح المُعلّم، سوف تصبح المُبشّر بفجر الـ (ثايموس) وقوة الإنسان الجديد. هل تريد هذا الزي الرائع؟ إنه رخيص الثمن، ليس عليك أن تقرأ كتابًا واحدًا. ليس عليك أن تفهم طلاسم كهنوته. ليس عليك أن تشاركنا في حراسة الشمعة. فقط عليك أن تأخذه مجانًا وترتديه. أنت منا الآن!

من ذا الذي سيرفض قبول هذا الزي الرائع؟!

العدل الإلهي

(عن قيام الحجة ووجود العذاب في الآخرة)

"لا يتصور أحدٌ منّا أن يحيا في هذا العالم دون غلافه السميك! الحياة في العراء مخيفة، وأخوف منها الحياة عاريًا. لذلك يُصاب جسدي بالقشعريرة حين أفطن إلى المعنى الكامل لـ (التعرية) و(التجرّد) الذي نحن فيه أمام الله! حين نقف يوم القيامة أمام الله عز و جل فيكشف لنا عن مكنوناتنا. تلك الأسرار الدفينة التي أجدنا إخفاءها عن الناس، وأجدنا إغفال أنفسنا عنها، وأجدنا نسيان كل ذلك بعدها"

يقول الكاتب الأمريكي (أورين وودورد): «النجاح ليس صعبًا للدرجة التي يُظهرها الراسبون»! حيث لا يكون الأمر فعلًا بهذه الصعوبة، ولكن لأن هناك من رسب، أصبح من ينظر من بعيد يظن أن الأمر بهذه الصعوبة!

وما أكثر الراسبين يا عزيزي!! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (يوسف ١٠٣). ويقول: ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (الأنعام ١١٦). الراسبون أكثر من الناجحين إذن!

ولكن ماذا ستنفع كثرتهم؟ هل يغيّر هذا من حقيقة الأمر شيئًا؟! هل لأن معك في صف الكفر الممثل الذي تحب نكاته، والسياسي الذي تجذبك شخصيته، والعالم الذي تُعجب بأبحاثه، هل لأن معك هؤلاء، سوف يغيّر هذا من أنك قد جانبتَ الصواب؟! يذكرنا القرآن بهذه الحقيقة حين يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ (الزخرف ٣٩). لن ينفعكم أنكم سويًا، لن ينفعكم أنكم مجتمعون!

كثرة هؤلاء الراسبين جعل البعض يظن شططًا أن لربما كان هناك خللًا ما في طريقة عدل الإله وسريانها على خلقه، سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عما يقولون علوًا كبيرًا! ولكن الأسوأ من هذا هو من يجعل كثرة الراسبين سببًا لرسوبه هو! مثل داروين الذي كتب في مذكراته الخاصة أن لو كان الإله موجودًا فمعناه أن أخاه وأباه يُعذّبان الآن لأنهما لم يكونا مؤمنيْن به، فلذلك اختار ألا يؤمن هو الآخر به! كانت الحقيقة مريعة بالنسبة إليه فاختار أن يتجاهلها وكأنها لم تكن. يجعل كفر غيره مبررًا لكفره هو! تمامًا مثلما فعل فرعون من قبله، كما نبهنا القرآن إلى قوله لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى**﴾ (طه ٥١) فرد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببساطة: ﴿**عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى**﴾ (طه ٥٢)!

١

الفشل

"لقد رأيت إنسانًا جديدًا وحشًا لا يُقهَر، فوقفتُ أمامه مذعورًا"

أدولف هتلر مفتخرًا بإنسان النازية

في بيان (جيوفاني بيكو) الذي تخيل الله عز وجل فيه يلقيه إلى الإنسان، يقول: «أنت يا من لا تُحدّك حدود، سوف تقرر بنفسك ما ستكونه بنفسك، وفق ما تمليه إرادتك الحرة التي جعلتُك في يديها». ويذهب (فارسيليو فاسينو) عميد فلاسفة المذهب الإنساني، إلى ما هو أبعد من ذلك فيقول: «الإنسان لم يعد خليفة الله في أرضه فحسب، بل شريكه في العلم والإبداع»!

ما هذا الغرور؟ ما هذا الاعتداد الغريب بالنفس البشرية؟ هل يمكننا أن نغفل قول الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل ٢٢)؟

ذكر الكاتب هيرمان روشينج (والذي كان قد انضم للنازية لفترة ثم غيّر توجهه وهاجر من ألمانيا) أن النازية كانت محض رغبة في خلق الإنسان الأعلى: السوبر مان، وذكر أن هتلر أسر إليه قائلًا: «لقد رأيتُ إنسانًا جديدًا وحشًا لا يُقهَر فوقفتُ أمامه مذعورًا». (فريدريك نيتشه) الفيلسوف الملحد الشهير يقول عن نفسه: «إن قولي إن العالم تمثيل لي قضية لا بد أن يقبل بها الجميع». و(عبد الله القصيمي) الملحد السعودي الشهير يقول عن نفسه (من قبل إلحاده حتى): «ولو أن ما عندي من العلم والفضل، يقسم في الآفاق أغنى عن الرسلِ»! زادك الله تواضعًا يا شيخ عبد الله!

ما هذا التكبر؟ ما هذا الاعتداد المضحك بالنفس؟ هل يمكننا أن ننسى قول الله عز وجل: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان ٢١)؟

وفي أطروحة (فوكوياما) عن نهاية التاريخ كان يبشّرنا بفجر الـ (ثايموس).

الثايموس لفظ يوناني يشير إلى الحيوية والاندفاع الروحي، وفي نظر فوكوياما هو اسم جامع للصفات النفسية التي دفعت بالإنسان (عمومًا والغربي خصوصًا) في اتجاه التحرر والنزعة الاستقلالية.

تكررت هذه الفكرة في تراث الإنسانية بتعابير مختلفة، فأشار (أفلاطون) إلى زخم الروح. وعبّر عنها (ميكافيللي) بتطلّب الإنسان للمجد. وعند (توماس هوبز) هي الزهو والخيلاء. وعند (جان جاك روسو) هي حب الذات. وتحدث عنها (ألكسندر هاميلتون) تحت مصطلح حب الشهرة. وهي عند (جميز ماديسون): الطموح، وعند (هيجل): الاعتراف. وأما (نيتشه) فعبر عن هذه الفكرة بأن الإنسان هو الحيوان ذو الوجنتين الحمراوين.

الثايموس عند فوكوياما هو صهر كل تلك المعاني السابقة في بوتقة واحدة، وفي نظره هي المحطة الأخيرة من حركة التاريخ: «النظام الليبرالي العلماني الديمقراطي». وبالطبع فالثايموس هو استغناء تام عن الله عز وجل.

هل يمكننا أن نغفل عند ذلك قول الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق ٦-٧)؟

ذكر (انجلهارت) و(ويلزل) في كتابهما: (الحداثة، التغير الثقافي، والديمقراطية) واحدًا من أهم أسباب تجريد الإنسان الحديث من الدين والماورائيات (أو بحد تعبير عالم الاجتماع ماكس فيبر: زوال السحر عن العالم)، وكان هذا السبب هو: «الشعور بالـ (اقتدار) وبالتالي خفوت الشعور بالافتقار».

فهل يمكننا أن نغفل عند ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ (يونس ٢٤)؟

حين نتحدث عن العدل الإلهي، فمن الطبيعي أن نتساءل، إن كانت حجج الله عز وجل على عباده في الدنيا كافية، فلماذا هناك كفار؟ ولماذا هم كثيرون؟ ولماذا يكثرون في هذا الزمن بالذات؟ نجد أن القرآن يخبرنا -كما الواقع يخبرنا- أن أول أسباب ذلك هو الكبر والغرور والاستنكاف عن عبادة الله عز وجل.

ما دفع (بسام بغدادي) الملحد العربي الشهير أن يقول ذات مرة: «حتى لو افترضنا أن الله الإبراهيمي موجود، فخير لي أن أدخل النار باختياري عن أن أدخل الجنة مكبلًا بأغلال العبودية»!

ففي القرآن نجد تفسيرًا لتلك الحالة، يقول الله عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف ١٤٦).

مجرد مصروفين!

مجرد مساكين!

***

هناك سبب آخر للفشل، وهو إمهال الله عز وجل! يظن الواحد منا أن الله إن لم يعاقبه على كفره، إن لم يؤاخذه على خطئه، أنه غير موجود، أو أنه نسي، أو أنه بالضرورة قد سامح! بينما كل ما في الأمر أن الله حليم.

يُحكَى أن ملحدًا قرويًا قال لجاره المسيحي المتدين وهم يزرعون: أنت ادعُ الله بالبركة والرزق، وأنا سأسبه، ولنر في وقت الحصاد من منا سوف يفوز.

فلما جاء الحصاد في شهر أكتوبر، وجد الملحد محصولًا وفيرًا أكبر من ذلك الذي يملكه جاره المسيحي، فقال له: ماذا لديك لتقوله الآن عن الله أيها الأحمق؟ رد عليه: إن الله لا يُصفّي حساباته في أكتوبر!

في الإنجيل في إصحاح (٤) من رسالة بولس لأهل كورنثوس: «لا تحكموا في شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب الذي سينير خفايا الظلام ويظهر آراء القلوب».

ولدينا في كتاب الله الحكيم: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ (آل عمران ١٧٨).

***

وهناك سبب ثالث، وهو الاتباع والانقياد، والذي يكون أعمى في كثير من الأحيان.

يرى الأستاذ (عبد الله الشهري) أن «كل رؤية يُراد تعميمها على الحياة لها أئمة يدعون لها ويؤسسون لها يصبرون عليها، ولها أتباع لم يكونوا ليتبنوا فحوى تلك الرؤية ويستجيبوا لها لولا بيان ودعوة أولئك الأئمة».

بكامل غض النظر عن إن كان ذلك التابع صعلوكًا من عصر الكهوف، أو بروفيسور من القرن الحادي والعشرين، في النهاية إن كان بناء كفره العالي يعتمد على ما يقوله الآخرون فهو لا شك مدعوّ يوم القيامة بإمامه الذي كان يقتدي به: ﴿**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾ (الإسراء ٧١). والإمام هو القدوة في أغلب كلام العرب، وهو اختيار ابن جرير الطبري في الآية.

***

وهناك عشرة أسباب أخرى عددتُها في القرآن تفسر لنا: لماذا يوجد الفاشلون!

مثل الغفلة: ﴿لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ (الكهف ٢٨). وتعمّد الابتعاد عن الله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام ٢٦). والحيرة العمياء المُهمَلة من صاحبها: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ (المؤمنون ٦٣). والنعيم المترف غير المقرون بالشكر: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (آل عمران ١٩٦). والشك المستمر إلى يوم القيامة دون حسم من تفكر أو يقين: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج ٥٥). والهوى المتبع : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الأعراف ١٧٦). وعدم فهم فحوى الدين وعدم محاولة الفهم من بعد ذلك: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٧١). وكراهية الحق: ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (المؤمنون ٧٠). والانشغال والالتهاء في السخرية بالمؤمنين عن أهم حقائق الوجود: ﴿اتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (المؤمنون ١١٠). والأوهام المبنيّة من قصور الرمال وأوراق (الكوتشينة): ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام ١١٦).

إنما هو اختبار من الله لهؤلاء الذين لا يتفكرون في أمر أنفسهم، أن كان فيها كل هؤلاء الفاشلين لينظر إن كنا نريد الله أم نريد فقط لو كنا نرعى مع الهمل؟ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان ٢٠).

وكان ربك بصيرًا.

٢

السرائر

﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾

سورة طه آية ٧

(ساللي) و(آن) هو اختبار كلاسيكي نفسي للأطفال، حيث يُقدَّم للطفل دميتان هما (ساللي) و(آن)، ثم يشاهد الطفل أن ساللي تضع بعض الحلوى أسفل الوسادة وبعد أن تغادر الغرفة تقوم آن بأخذ الحلوى من تحت الوسادة، ثم تدخل ساللي الغرفة، فيقوم الأخصائي النفسي بسؤال الطفل: «أين المكان الذي (تعتقد) ساللي أن به الحلوى؟».

كان الأطفال قبل سن الرابعة والنصف يجيبون: «في جيب آن»، وذلك لافتقادهم لاكتمال نمو النظر العقلي، فيفترضون أن معتقدات أي أحد هي معتقداتهم ذاتها، وأن ساللي تعتقد أن الحلوى في جيب آن لا لشيء إلا لأن الطفل نفسه يعلم ذلك. أما الأطفال أكبر من سن الرابعة والنصف فكانوا يجيبون ببساطة: «تحت الوسادة»، وذلك لأن نظرية العقل تقول أنهم في هذه السن قد كونوا قدرة على مقارنة القضية التي يمكن لغيرهم من الناس أن يقيموا حولها معتقدات مختلفة عن اعتقادهم. ووفقًا لعالم النفس الإنجليزي (سيمون بارون كوهين) فمرض التوحد يحدث حيف يفشل الطفل في تنمية هذه القدرة لديه، المتوحّدون مكفوفون عقليًا.

الكذب على الناس بدون تنمية هذه القدرة أمر مستحيل، لأنك كي تتمكن من إتقان الأكاذيب يجب عليك أن تفهم أولا أن غيرك يمكنه أن ينسج أفكارًا مختلفة عن أفكارك، وأن هذه الأفكار قد تكون خاطئة، وأنك أنت بالذات قد تجعلها كذلك. لذلك لا يستطيع الأطفال قبل إتقان هذه الملَكة العقلية من الكذب بشكل احترافي أو مقنع.

الطفل قبل اكتمال نظره العقلي هو جزء من العجينة الأوّلية الموحّدة التي صُنِعَ منها البشر، ثم يكبر ليتعلم كيف يتمايز في داخل عقله، وكيف ينفصل العالم إلى (أنا) و(الآخرين)، حينها فقط يبدأ في التشكل إلى إنسان مستقل. ولربما لهذا قال النبي ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ فَإِذَا أَعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا»!.

وهكذا ننضج مع الزمن، باحتراف الاعتماد على اختلاف رؤانا للواقع عن رؤية الناس، والاستفادة من ازدواجية زاوية المنظور في التلاعب بهم أو التحايل عليهم أو الأهم: الاختباء منهم!

نختبئ عن الناس ونكوّن غلافنا السميك حول ذواتنا، نتقن أن نزرع في أذهان الناس الصورة التي نريد أن يأخذوها عنّا، نفعل ذلك في اطمئنان من يعلم أن ساللي لن تفهم أبدًا كما نفهم نحن أن الحلوى لم تعد تحت الوسادة. يزداد سمك أغلفتنا مع الزمن، وحين نكون على أعتاب النضوج نرى بعضنا البعض فنظن أننا نعرف من نراهم، ولا ندري أن كل واحد منا إنما هو في جزيرته المعزولة عن الجميع.

لا يتصور أحدٌ منّا أن يحيا في هذا العالم دون غلافه السميك! الحياة في العراء مخيفة، وأخوف منها الحياة عاريًا. لذلك يُصاب جسدي بالقشعريرة حين أفطن إلى المعنى الكامل لـ (التعرية) و(التجرّد) الذي نحن فيه أمام الله!

حين نقف يوم القيامة أمام الله عز و جل فيكشف لنا عن مكنوناتنا. تلك الأسرار الدفينة التي أجدنا إخفاءها عن الناس، وأجدنا إغفال أنفسنا عنها، وأجدنا نسيان كل ذلك بعدها. تلك السرائر التي سوف يحاسبنا الله عز وجل اعتمادًا عليها، فما الحيلة التي نملكها حينئذٍ؟! ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ**﴾ (الطارق ٩-١٠)

ෆ

وفي نمطي الشخصي من زاوية علم النفس وحسب تقسيم نظرية MBTI لأنماط الشخصية، يتميز من هم مثلي بأمور أحب أن أذكر منها أمرين، الأمر الأول هو حب الناس (أنا بالفعل أحب الناس جميعًا تقريبًا!) لأننا نجيد النظر إلى الجانب الجيد الخفي من البشر. أعتبر أن كل من أقابله هو أفضل مني في شيء ما، ربما هو ألطف مع أبنائه، أو أوفى لزوجته، أو أبرّ بأبيه العجوز، أو أذكى في تعامله مع المال، أو أسرع مني في حل ألغاز المجلات الهزلية! هناك بعض الجوانب ليست من ميزاتي ربما تقبع في مملكة ما يتقنه.

الأمر الثاني هو ترسخ جذور القيم بداخلنا، مهما كانت هذه القيم، والتي لا يشترط أن تكون في نطاق الأخلاق والسلوكيات بالمناسبة، فحين تتجذّر بداخلنا قيمة ما، فإننا لن نستطيع أن نعيش بسلام أبدًا عند انتهاكها. هذا يجعلني أنظر إلى الناس نظرة حذرة، فأنا أحبهم جميعًا، لكن حين يخرق أحدهم أحد قيمي لا أستطيع من داخلي أن أتجاهل ذلك.

وكما لا بد أنك توقعت فاجتماع هذين الأمرين يجعلني دائمًا حائرًا فيما يخص البشر، أعتبر الإنسان من حيث كونه إنسانًا شيئًا جميلًا نابعًا من إبداع الله تعالى وقيّوميته لأخلاقنا ورغباتنا

وطموحاتنا الإنسانية المثيرة للإعجاب دائمًا، وبرغم ذلك أعتبره أيضًا ملوثًا دائمًا بخطايا انتهاكات القيم التي هي أجمل ما خلقه الله تعالى فينا.

ربما تنظر إلى شخص أوروبي لا يشرب الخمر ولا يعربد مع النساء على أنه شخص جيد، لكن هتلر كان كذلك. هل هو شخص جيد؟ ربما ننظر إلى (نلسون مانديلا) فنعجب بإصراره وأمله طوال فترة سجنه الثلاثين، لكن كيف نتجاهل جرائم ميليشيات رمح الأمة؟

حين تقابل شخصًا لا تعرفه في مكتب عام أو وسيلة مواصلات، هو بكل ما يطويه بداخله من درجات الأسود والأبيض عبارة عن ممثل كومبارص على هامش حياتك أنت! دخل إلى المسرح كي يقول شيئًا عابرًا مثل: «الجو بارد»، ثم اختفى. والآن انظر إليه، هل تعرف أي شيء عنه؟!

ما الخير؟ ما الشر؟ من هم الناس؟ وإلى ماذا يسعون؟ ما الذي يجعلنا جيدين؟ صالحين؟ ما الذي يجعلنا طالحين أو موصومين بالعار؟ من الذي سوف يقرر ما يستحقه كل واحد منا؟ من الذي سيزن بميزانه الدقيق أعمال اليمين وأعمال الشمال؟ من الذي يحيط بكل الجوانب الخفية للتقييم الكامل؟ من الذي نظر إلى ما بداخل كل واحد منا فيقدر أن يحدد أن هذا العمل الأسود يستحق أن ينمحي، وأن هذا العمل الأبيض يستحق أن يتم إبطاله؟

هو الله وحده! الله هو من يعلم كل شيء عن كل واحد منا، كل ما فينا من جمال، كل ما فينا من نقائص، الله وحده من يقدر أن يقضي على جريمة ما، مثل الكفر به، على أنها الجريمة الصفرية التي لا ينفع معها خير، الله وحده من له أن يحدد فضيلةً بعينها، مثل التوبة الدائمة، على أنها الفضيلة التي قد لا يضر معها ذنب.

حين يجمعك الله مع كل ممثلي الكومبارص في حياتك الذين ما عرفت عنهم شيئًا، حين يصبح مصير كل واحد منا معلقًا بالدرجة اللونية الحدّية التي سوف تتشكل فيها درجات نفسه الرمادية، حين ننتظر تصنيف من سيفرّقنا إلي فريقي الخير والشر، فالله وحده يحكم حينها فلا معقب لحكمه، والله وحده يرحم حينها فيسع كل شيء، والله وحده يعذّب حينها فيحصي كل شيء، والله وحده يقضي حينها فلا يظلم مثقال ذرة!

يذكرك القرآن بذلك: ﴿**إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۞ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۞ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾ (القيامة ١٢-١٥).

٣

الأربعة

"إننا نعرف الله بالفطرة، ناموس منقوش بالطبع من الله"

مارتن لوثر

في سؤال العدل الإلهي تتجلّى لنا حقيقة ساطعة، أن الله لم يجعل على العباد حجةً واحدة، ولا اثنتين، ولا ثلاثًا، ولكن أربع حجج!

أول هذه الحجج هي الفطرة! أننا جميعًا مخلوقون على شفرة موحّدة تدلنا وتقودنا إلى الإله في النهاية! من أكواد هذه الشفرة: الشعور الثابت بداخلك بالفقر والحاجة باستمرار، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر ١٥). ذلك الشعور الذي تكفينا الإشارة إليه حتى تتذكره في نفسك. دعك من المكابرة فأنا أعلم أنك جرّبته مرارًا!

ومن أكواد هذه الشفرة: المبادئ العقلية الأولية المغروزة بداخلك! والتي خلقها الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فينا يوم أن وهبنا الأفئدة: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل ٧٨). تلك المبادئ التي تخبرك بأن الجزء أصغر من الكل، وأن لكل حادثة سببًا وراءها، وأن وراء كل نظام هناك إرادة اختارته. هذه المبادئ التي غُرِزَت فيك منذ أن خلقك الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فتستطيع بعد ذلك أن تفهم على أساسها مبادئ الإيمان!

على أن أقوى أكواد هذه الشفرة: الشعور بالله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وبوجود الرب وبأننا عبيده. كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ (الأعراف ١٧٢).

نحن نشعر بعالم الغيب فقط بسبب هذه المشاهدة، كما يقول الشيخ (الشعراوي): «لولا هذه المشاهدة، لما استطاع إنسان أن يستوعب قضية الإيمان بالغيب، وفي قمتها الإيمان بوجود الله».

ولدهشتهم، فإنا هذه المرة سوف نصدقهم إن قالوا لنا أنهم لا يشعرون بهذه الفطرة في وجود الخالق، والسبب أن أحدًا ما -قد يكون صاحب هذه الفطرة أو غيره- قد أفسدها يا عزيزي! كما في الحديث الذي في صحيحي البخاري ومسلم ورواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أن: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه».

ولذلك -وبالرغم من أن هذا الكود هو أقوى دلائل الفطرة على الإطلاق- فإن هذا الدليل وهذه الحجة لا تصلح بمفردها، لأن الفطرة قد تتلوّث وقد تفسد. وما أكثر الملوّثين!

ثاني هذه الحجج هو العقل، حيث وهبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكل المكلّفين، ومن وُهبوا عقلًا ناقصًا أو مريضًا فهم معذورون لا يُعذَّبون. وثالث هذه الحجج هي الآيات الكونية المشاهدة من حولنا، والتي أودع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها دلائل قدرته وحكمته ووحدانيّته. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد تكفّل بأن تصل هذه الحجة إلى كل أحد، كما يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (فصلت ٥٣).

وأما رابع الحجج وأهمها على الإطلاق فهي الحجّة الرساليّة، كما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ (النساء ١٦٥). فلن يبقى لأحد منهم أي وجه يتكلم به بعد أن أتمّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حججه الأربعة.

❦

بدون أي واحدة من هذه الحجج الأربعة، يُعدّ الإنسان معذورًا عند الله، غير أن حجة الفطرة وحجة الحسّ ثبتتا لجميع الخلق. وأما حجة العقل، ففاقدها (مثل المجنون)، أو ناقصها (مثل الطفل) معذور، وحجة الرسالة ففاقدها أيضًا معذور.

لذلك يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ (الإسراء ١٥). ويقول عن خزنة جهنم أنهم يسألون -استنكارًا وتعجبًا- كل فوج يرد إلى جهنم: ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾ (الملك ٨)؟!! لأنهم يعلمون أن الله لا يعذّب أبدًا من دون نذير!

تأكد أن الله لا يعذّب معذورًا. وهذا العذر هو عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هو أعلم به مني ومنك، فأنت قد ترى الرجل كافرًا أمامك في بلد بعيدة ما، ولكنه لربما يكون عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معذورًا لأنه لم تبلغه رسالة السماء، أو بلغته ولم يفهمها، أو فهمها على وجه مناقض لما هي عليه (في أصلها). فيعقد الله جَلَّ جَلَالُهُ له -مع غيره من المعذورين- اختبارًا آخر يوم القيامة. لأن الله قد اقتضى عدله أن سنّ سنته: ﴿**أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ**﴾ (الأنعام ١٣١).

٤

السابقة

"إني أستحي من الله، أن يعلم مني:
أن رحمته تعجز عن أحد من خلقه"

ابن المنكدر

لي أصدقاء ملحدون ولا أدريون وربوبيون، أحافظ على صداقتي مع الأذكياء منهم جميعًا بعد أن تفشل (غالبًا) المحاورة بيننا، تقريبًا أجمعوا على وصفي بمزية واحدة، أني مستمع جيد ومتفهم لما يقولونه بخلاف معظم من يتحدثون معه. عن نفسي كنت أفضل -لو كانوا سيصفون لي مزية واحدة- أن أحصل على الوسامة أو الذكاء أو براعة المناظرة، لكن للأسف أوضع في الـ Listen-zone منهم دائمًا لسبب لا أعلمه.

الحقيقة أنا أعلمه، ولأني أكثر من يفهم نفسه، فأنا أعلم جيدًا لماذا يقولون ذلك، لأنني بالفعل أتفهم ما يقولونه ومنشأ حججهم المختلفة بغض النظر عن علمي بأن حججهم ليست بحجة على الله بالطبع.

يختلف الأمر تمامًا مع أصحاب طرائق التفكير السطحية منهم، تقريبًا يجمع هؤلاء على وصفي بأني عصبي غير صبور، أحدهم قال لي بعد ما سألته عن انطباعه بعد لقائي أنني أجدت إخفاء رغبتي في تحطيم رأسه، إحداهن كنت أكلمها هاتفيًا بنبرة تبدو لطيفة بينما أنا في الحقيقة أتسلى بكتابة خطابات انتحار على تطبيق الـ (واتساب) لأصدقائي.

لا أطيق طريقة التفكير السطحية حين يتعلق الأمر بأخطر قرار في حياة الإنسان! مثل طالب الثانوية الذي يلح في الاتصال بي في ساعات الصباح الأولى لأنه لا يستطيع المذاكرة، حيث بدا له أن (الفراغ الكمومي الأزلي) قد أثبت له عدم وجود الإله، أنا قدّرت الصراحة أننا قبل امتحانات الثانوية جميعًا نشعر بفراغ كمومي أزلي ما، وجربت أناقشه بهدوء، فتبين أنه للأسف لا يعرف حتى الفرق بين فيزياء الكم والفيزياء الكلاسيكية، وبرغم ذلك أصر أنه لم يعد هناك إله فبالتالي لا حاجة للدخول لامتحان الثانوية.

الصراحة كل من جرب ذلك يعلم مقدار الإرهاق النفسي والذهني الذي تلاقيه كي تضطر أن تتناقش مع أحدهم في مسألة يسبق علمك فيها علمه بعدة عشرات من الكتب، لا عن تعالٍ ولكن عن واقع، يبدو الأمر صعبًا ومنهكًا للغاية ولولا شفقتي على هؤلاء ما استطعت أن أتجاوز خمسة دقائق من الكلام. ومن الذي يفعل ذلك ويصاب بكل هذا (الملل)؟ إنه أنا، كائن تافه تمامًا متوسط التعليم والثقافة وعلى قدر غير مميز من الذكاء.

لذلك أندهش من الله!

هل تدرك معنى أن يحيط الله علمًا بكل شيء في عالمي الغيب والشهادة ثم حين يخاطب المتنكرين له الكافرين به يضرب لهم الأمثال، ويحكي لهم القصص، ويعيد لهم العبر، ويكرر لهم الوعظ، ويذكرهم بما قاله، ثم يذكرهم بأنه ذكرهم، ثم يعيد مثلًا آخر، ويحكي قصة جديدة، ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف ١٧٤).

الأجمل أن الله لا يبالي بمن يكفر به، إنه مستغن عنهم تمامًا، وهو يخبرهم متعاليًا دائمًا أن: آمنوا به أو لا تؤمنوا. هذا فعله لهداية من لا يبالي الله به! فأي رحمة لدى الله بمن يبغضهم؟! وأي عدل عنده بمن يعادونه؟!

لو كنتَ منكرًا لوجود الله، أو كان لديك شك في ذاته، صفاته، أو استحقاقه للكمال. فهل لك أن تضع احتمالًا، مجرد احتمال، بأنه موجود بالفعل، وعلى الصفات التي -نحن المسلمون- نؤمن بها، وأنه هو سبب وجودك، ومصدر أرزاقك، وولي نعمك المتعددة.

افترض معي أنه بالفعل كان يرزقك بماء الشراب كل يوم، وبالنسيم كل ليلة، وأن عينك بديعة الصنع كانت كذلك لأنه أراد لك أن تحصل على عين بديعة الصنع، وليس لأن الانتخاب الطبيعي كان أنجح من اللازم. وأن ساقيك اللتين تنقلهما حيثما شئت كانتا محض تفضل منه لك في سبيل راحتك وسعادتك وليستا نتاج صراع أجدادك الأعمى من أجل البقاء.

افترض معي أن الله موجود ونحن جميعًا مؤمننا وكافرنا نعصيه ليل نهار، بالجرائم والمصائب الكبير منها قبل الصغير، نظهر للناس الحسن ونبطن له القبيح، نتجاوز في كل يوم مراحل جديدة من الجرأة على الله. نقطع بسرعة تلك المسافات نحو حدود سياج الإيمان البعيدة. نقف على عتبات الكبائر ونتساءل ترى إلى أي حد هي لذيذة؟ وبعد ما نشبع من الخطايا نقول: توبة. ونعلم ويعلم الله أنها ليست توبة، نحن فقط غير جائعين الآن! ثم تلين مبادؤنا وتقسو قلوبنا، ننسى خطايانا ولن ننسى أبدًا ما نراه من أفضالنا، تتضخم الأنا ويضعف الضمير، نصبح أسرع غضبًا، أسهل استسلامًا، أبرد حماسًا للخير. ونعامل الله بما هو أسوأ في كل يوم!

افترض أن الله موجود وأنه يرزقنا بالنعم في خفاء فنتساءل هل هذه النعم من الله فعلًا؟ أنا لا أراه. يرزقنا بالنعم في كثرة فنتساءل هل يعطينا الله النعم فعلًا أم أنها كانت في حياتنا دائمًا؟ يرزقنا بالنعم في لحظات الحاجة، فنأخذ حاجتنا، وقلّما نقول يا رب شكرًا. يرزقنا بالنعم في لحظات العصيان، فنتقوّى بها على المعصية. ثم لا نقول يا رب عذرًا.

افترض أنه موجود وأنه كان يسترنا في الذنب فنصبح أكثر اطمئنانًا في المرة القادمة. يحسّن سيرتنا وسط الناس فنستمع إلى مدحهم ونزداد غرورًا. يعلمنا بعد جهل فنسكت برهة، وننظر للناس خلسة، ونقول في أنفسنا: نحن أعلى منهم وأجل، ثم يستمع لكل ذلك فيأمر ملائكته أن يمهلونا. وبعد أن يزداد ما نحن فيه من السوء يلهم ملائكته أن استغفروا لهم!

افترض أن الله موجود وتذكر كم يعاملنا الله بما هو أجمل في كل يوم!

افترض معي أن الله -كما نؤمن به نحن- قد أرسل بالفعل الرسول تلو الرسول إلى البشر ليحذرهم وليبشرهم، أنه قد رغّب المؤمنين في الدعوة إليه كوسيلة ضمان بأن يصل وحيه إلى أذنيك. افترض أن القرآن بالفعل كلام الله عز وجل، وأنه يفصل الآيات ويعيد فيها ويكرر لا لشيء إلا لكي يجيب عن أسئلتك، ويرشدك إلى الصواب، ويسرد الحجج ويزيد في الإيضاح.

افترض أنه موجود وكان يسمعك في كل مرة كنتَ تسخر منه، كنتَ تجادل فيه، كنتَ تماري عن أنه -والعياذ بالله- قبيح، ظالم، ديكتاتور، متسلط، سادي، كما ذكرت أنت لي يا صاحبي مرارًا. وأنه وفي هذه الأثناء لم يوقع عليك أية عقوبة، ولم يسلب منك أية نعمة، وكان يوحي إلى آلاف الخدم في جسدك، أن اسهروا على عنايته، ويرسل الأرزاق تحوطك من فوقك ومن خلفك، دون أن يستفزه الغضب أو تستبد به رغبة الانتقام.

افترض أنه كان موجودًا ويعلم -كما نؤمن نحن- ما في القلوب ويسمع ما في الصدور وعلم من قلبك أنك لا تحبه، لا تعظمه، لا تحذر حتى لاحتمالية سماعه لخطرات قلبك.

افترض كل ذلك ثم أخبرني، لو كان هذا الإله موجودًا وبهذه الصفات، أليست رحمته قد سبقت غضبه؟ أليس حلمه أسبق من عقوبته؟ أليس إحسانه قد غلب على نقمته؟ أليس صادقًا حين قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام ١٢).

هذا يا صديقي هو الإله الذي نؤمن به، وأما ذلك السادي الذي في ذهنك فليس بموجود، ولو كان موجودًا ما كان تركك لتكفر به.

إلهنا سبقت رحمته غضبه، لا يهلك عليه إلا هالك. هو علّمنا ذلك، عقولنا أخبرتنا بذلك، فطرتنا أملت علينا ذلك، فلو أخطؤوا في صفاته فقد أخطؤوا في وجوده.

فلو كان الله موجودًا فهو رحيم، ولو كان الله قاسيًا فهو غير موجود!

لا يوجد سبب يجعلك تكره شريرًا لا يوجد، ولا يوجد سبب يجعلك تهرب من موجود لا يظلم!

يا صاحبي، قد أتفهّم أنك لا تتيقن في وجود الله، ولكني لا أستطيع أن أفهم كيف لا تحب فكرة وجود الله! كيف لا تبكي على نفسك حين فقدتَ الله!

يا صاحبي، كيف لا تشتاق لله؟!

٥

الذهول

"الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا"

علي بن أبي طالب

الأحلام لها منطق خاص بها، كل شيء تراه واقعيًا ومنطقيًا تمامًا، ربما ترى مثلًا أن رئيس المجر في صالون بيتكم يشرب شايًا بالحليب، بينما تقفز ابنة أختك من الشرفة وتطير في السماء، قد تتعجب من هذا وأنت في الحلم ولكن ليس لأنك على علاقة شخصية برئيس المجر، ولا لأن ابنة أختك تجيد الطيران، ولكن لأنك كنت تظن أن الجميع على علم بأن رئيس المجر يحب أن يشرب الشاي (سادة)!

وحين تستيقظ تبدأ في اكتشاف الثغرات المنطقية الموجودة في هذا المشهد الذي كان واقعيًا تمامًا منذ قليل! لذلك تجد أن العالم المُنسّق الجميل في نظرك وقتها، لم يكن بهذه المنطقيّة حين انتقلت إلى عالم آخر، له قواعده الأخرى.

كل شيء كان مرتبًا ومتناسقًا صار في حالة يرثى لها. هنا ظرفٌ آخر، هنا قواعد أخرى!

البناء المتناسق نحرص على صنعه بأنفسنا حين نهتم بشيء ما فعلًا فنحرص على أن يبدو على قدر كبير من المنطقيّة! نقوم بصياغة الحجج الذاتيّة لتصرّف ما أو اعتقاد معيّن. ليس فقط لإقناع الآخرين أننا لا نقوم بأمر خاطئ، ولكن -والأهم- لإقناعٍ أنفسنا نحن بذلك. حتى يُبقينا ذلك قادرين على مواصلة هذا التصرّف أو ذلك الاعتقاد دون أن نُصاب بعذاب الضمير، أو وخز المسؤوليّة!

وهكذا تتوالى الحجج والبراهين! فالكذبة كانت (مجاملة)، والسُبّة كانت (خروجًا عن الشعور)، وإفشاء السر كان (لأجل المصلحة)، والرياء كان من رجل أقنع نفسه أنه (قدوة)، وخيانة العهد كانت (لتغيّر الظروف)، والنظرة المحرّمة التي نظر بها إلى زوجة جاره الحسناء، كانت فقط (للتأكد من شيء ما)!

على أن أكثر ما يمكن أن تجده مثالًا واضحًا لهذه (الحجّة الذاتيّة) هو أمر الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتجد الكافر من هؤلاء يصنع لنفسه بناءً كاملًا متناسقًا في رأيه، وهو يظنه على قدر هائل من المعقوليّة للدرجة التي تجعله يجزم أنه سيستخدمه في الدنيا والآخرة.

فتجد أحدهم يخبرك أنه غير خائف من ملاقاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مثلًا لو تبيّن أن اعتقاده فيه غير صحيح، لأنه سوف يقف أمام الله حينها بشجاعة ليقول له: لماذا أخفيتَ نفسك عني؟؟ أو: أنت تعلم أني اجتهدتُ بعقلي! أو: أنت تعلم أني لا أستحق العذاب.

هو يظن أن المنطق الذي يفكر به الآن، سوف يصطحبه معه إلى دار الآخرة بشكل كامل غير منقوص، وأنه سوف يقدر على صياغته بنفس العبارات الرنّانة ذات الصدى والتي كان يقولها في الدنيا! ويا له من ساذج!

فنحن في عالم، وهناك عالم آخر. بعد أن يتم الانتقال سوف نصبح في حالة من الذهول، ذهول من استيقظ من نومه توًا فوجد نفسه في مكان غريب له قواعده المختلفة. لذلك يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»، وكتب رجل إلى أخيه: «أما بعد، فإن الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما هو الموت، ونحن في أضغاث أحلام، والسلام». ويقول أبو حامد الغزالي: «ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفًا له في الحياة. كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفًا له في النوم». وفي سورة (ق) نجد قول الله عز وجل عن هذا: ﴿**لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ (ق ٢٢).

حيث إنه في العالم الآخر، ذي القواعد الأخرى. ينهار هذا البناء المترابط تمامًا، ويفشل هذا المنطق اللطيف، ويضلّ عن كل الحجج المفتراة التي كان قد نسجها لنفسه. تمامًا مثل حالنا في الحلم الفانتازي الذي قد نجده منطقيًا تمامًا، فقط إلى اللحظة التي نستيقظ فيها لنفطن إلى أن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عن ذلك اليوم: ﴿**انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (الأنعام ٢٤). ﴿**وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (القصص ٧٥). ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (هود ٢١).

سوف يضلّون ويتيهون عن كل ما كانوا يفترونه من حجج، سوف ينسونها بشكل كامل! سوف يُصابون بحالة ذهول تام عن كل ما كانوا جهّزوه، وأعدوه، ونمّقوه من حججهم في ذلك اليوم. ليس لأن أحدًا سوف يقوم بإخراسهم، ولكن لأنهم سوف يتأكدون بأنفسهم، وحين تنكشف لهم حقائق الوجود رأي عين، أنهم لم يكن لهم أن يكفروا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأي حال! وأنه لا توجد ثمّة حجة واحدة صامدة أمام براهين الإيمان، التي كانوا في عمىً عنها في الدنيا، وصاروا الآن يرونها بشكل واضح تام دون التباس من هوى أنفسهم، ودون غمامة من غمامات غفلات الحياة الدنيا!

لذلك ينبّهنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى لمحة أخرى من لمحات هذا الذهول، وهو في قوة الحواس وشدتها يومئذ. تلك الحواس التي كانت في حالة ارتخاء وشلل -عمدًا- عن وظيفتها يوم أن كانت في الدنيا، صارت الآن تعمل بأقصى طاقتها، لتُجلّي لهم كل الحقائق! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (مريم ٣٨). وهو تعبير لغوي تعجّبي عربي يعني: ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا! إنها مقارنة بين حالهم الذي سيكونون عليه في الآخرة من نفاذ وقوة إحساسهم بأمر الإيمان وقتها، وبين الضلال المبين الذي هم فيه الآن!

وهناك لمحة ثالثة من لمحات هذا الذهول -عكس اللمحة الأولى- وهي في التذكّر! نعم، يتذكر الإنسان وقتها ما كان نسيه في الدنيا من كل أعماله الصالحة أو الطالحة، كل الجرائم التي ارتكبها في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (ولا يضرّه سبحانه ذلك شيئًا)، وفي حق الناس، وفي حق نفسه! كل المصائب التي قام بها يومًا -وأعظمها يوم اتخذ قراره بالكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- والتي عفا عليها الزمن وتبخّرت من ذاكرته طويلة المدى. يوم أن يموت فيبعثه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سوف يتذكر كل ذلك: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۞ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر ٢٣-٢٤). ولكن هل تراه ينفعه ذلك حينها؟! ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس ٩١).

وهناك لمحة رابعة من هذا الذهول، تتمثل في الطريقة التي يرون بها أعمالهم -التي كانوا يظنونها في الدنيا على قدر من الأهمية والخيرية- وهي تتبدد أمام أعينهم وكأنها لم تكن! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ (النور ٣٩). مثل سراب الصحراء الذي يراه الرجل من بعيد فيظن أنه بركة ماء، وما هو إلا وهم بصري كان فيه، ويتأكد له ذلك (بنفسه) بالفعل حين يقترب منه فلا يجد أنه كان شيئًا!

وأما اللمحة الخامسة والأهم والأكبر من لمحات هذا الذهول، فهي اكتمال علمهم وتبلوره بشكل تام في الآخرة! سوف يعلمون كل شيء الآن، لماذا كان من الضروري أن يؤمنوا بالله في الدنيا، لماذا كانت حججه علينا حينها كافية، لماذا كفروا هم، ولماذا آمن غيرهم، ولماذا صاوروا إلى ما صاروا إليه من العذاب، ولماذا هم يستحقون هذا العذاب!

إنه فهم الغيب بعد أن صار شهادة، إنه اكتمال البصيرة التي صارت الآن بصرًا، وإتمام التصوّر الذي صار الآن صورة. كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (النمل ٦٦). أي سيكتمل علمهم في الآخرة، كما يقول القرطبي رحمه الله: «لأنهم رأوا كل ما وُعِدوا به معاينةً فتكامل علمهم». ولكنهم الآن في الدنيا في شك منها، ولكنهم الآن ما زالوا على العمى!

لمحات هذا الذهول الخمسة تُنبئنا بأن هؤلاء لن تكون لديهم الرغبة يومها أصلًا للسؤال عن العدل الإلهي، لأنهم سوف يرون بأنفسهم كل شيء، بالقدر الكافي الذي سيجعلهم في صمت ذاهل وسكون خاشع .

لم تكن حجج الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليهم في الدنيا بناقصة أبدًا، ولم يكونوا مظلومين أو مبخوسين في حقهم، بل فصّل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهم كل شيء، حتى يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأعراف ٥٢). ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل اشترطوا أن يحصلوا على العلم التأويلي الإلهي كاملًا رأي عين قبل أن يتخذوا قرار الإيمان! فيقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الآية التي تليها: ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (الأعراف ٥٣).

ولا ينفعُ حينها الندم!

٦

الرعب

"اللهم إن النار أذهبت مني النوم"

شداد بن أوس الأنصاري

كان الحسن البصري مشهورًا بالحزن. بالكثير من الحزن!

فقال يونس: «ما رأيتُ أحدًا أطول حزنًا من الحسن». وقال إبراهيم بن عيسى اليُشكريّ: «ما رأيته إلا حسبتُه حديث عهد بمصيبة». وقال (مسمع) لـ (حكيم بن جعفر): «لو رأيتَ الحسن لقلتَ قد بُثَّ عليه حزن الخلائق من طول تلك الدمعة وكثرة ذلك التشنج»!

ما يا ترى سبب هذا اللغز؟ لماذا كل هذا الحزن والبكاء؟

إليكَ التفسير.

بكى الحسن يومًا فقيل له ما يبكيك؟ قال: «أخاف أن يطرحني غدًا في النار ولا يبالي». وقال يونس: «كان الحسن يقول: نضحك ولعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا، فقال لا أقبل منكم شيئًا»

لقد كان خائفًا من النار إذن.

لم يكن وحده. فقد كان (عثمان بن عفان) يقول: «لو وقفتُ بين الجنة والنار وخيّرت بين أن أصير رمادًا أو أن أصير إلى أحدهما، لاخترتُ أن أكون رمادًا». وقال (أبو ذر الغفاري): «وددتُ لو أن الله خلقني يوم خلقني شجرد تُعضَد». وقال (عمران بن حصين): «وددتُ أني رماد تذروه الرياح». وكان (سعيد بن المسيّب) كثيرًا ما يقول: «اللهم سلم سلم» وهو في مجلسه. وقال عبد الأعلى: «ما جلس قوم مجلسًا فلم يذكروا الجنة والنار إلا قالت الملائكة: أغفلوا العظيمتين!».

عندما تركب سيارتك الواقفة في الشمس في وقت الظهيرة في أحد أيام شهور الصيف القائظة، لتفاجأ بشدة حرارة هواء السيارة، والذي لا يكتفي بإلهاب جلد وجهك، وإغراقك في عرقك في عدة ثوان، بل يتسلل أيضًا مع أنفاسك مارًا بالحلقوم وبطانة أنفك خارجًا وداخلاً مع كل شهيق وزفير، حينهاً تشعر وكأن روحك تلتهب حقًا من الداخل.

حينها لا بد أنك سوف تتذكر قول الله تعالى عن أهل الشقاء من أصحاب النار: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (هود ١٠٦). ولربما بعدها تسعك ثقافتك أن تتذكر ما قاله القرطبيّ رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: «الزفير إخراج النفس، وهو أن يمتلئ الجوف غمًا فيخرج بالنفس، والشهيق رد النفس».

ثم يزيدنا القرطبي بقوله: «والزفير والشهيق من أصوات المحزونين»!

وحين تجد أن حلقك قد تحول إلى قطعة كبيرة من القطن. تسرع إلى بيتك حينها لتتوجه أول ما تدخل إلى ثلاجتك وتفتح زجاجة المياه الباردة، وقبل أن تشرب منها تنظر لها بكل امتنان وحب وحنان، ثم تروي ظمأك! هذا هو ما فعله عبد الله بن عمر رضي الله عنه لما شرب ماءًا باردًا، فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: «ما يبكيك؟» قال: «ذكرت آية في كتاب الله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (سبأ ٥٤). فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ (الأعراف ٥٠).

وحين تصطدم بأي شيء في هذه الحرارة الشديدة، فإن الحر الذي ألهب روحك، كفيل بأن تؤثر عليك هذه الخبطة أكثر كثيرًا من المعتاد على المستويين الجسدي والنفسي.

حينها لا بد أنك سوف تتذكر قول الله تعالى عمّا يضرب به أهل النار على رؤوسهم: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (الحج ٢١) كما جاء في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّ مِقْمَعًا مِنْ حَدِيدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ فَاجْتَمَعَ لَهُ الثَّقَلَانِ مَا أَقَلُّوهُ (أي ما رفعوه) مِنْ الْأَرْضِ»

فأي قوة تلك التي يُهوى بها على رأسه؟! وأي معدن ذاك الذي لا يذوب بنار جهنم؟!

وأما حين يدخل فصل الشتاء فإنك لا بد تتذكر أن العذاب بالبرد موجود في جهنم: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ (ص ٥٧) والغسّاق هو الماء شديد البرودة. وأنهم وقتها يهربون من النار إلى البرد: كما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «يستغيث أهل النار من الحر فيغاثون بريح باردة يصدعَ العظام بردها فيسألون الحر»! وعن مجاهد: «يهربون إلى الزمهرير فإذا وقعوا فيه حطم عظامهم حتى يسمع لها نقيض»!

فلما يجدوا أنها كانت فكرة بائسة يهربون من البرد إلى النار! كما يقول كعب: «إن في جهنم بردًا هو الزمهرير يسقط اللحم حتى يستغيثوا بحر جهنم». وعن عبد الملك بن عمير قال بلغني: «أن أهل النار سألوا خازنها أن يخرجهم إلى جانبها فأخرجوا فقتلهم البرد والزمهرير حتى رجعوا إليها فدخلوها مما وجدوه من البرد» .

إنها دائرة جهنمية مغلقة.

علينا أن نخاف! علينا أن نخاف للغاية!

ما المنطق في أن ترفض تصديق وجود عذاب شنيع لا تقدر على أن تتخيل شدته لمجرد أنه عذاب شنيع لا تقدر على أن تتخيل شدته؟! ومن الذي أخبرك بالعكس؟!

إن القرآن لم يتوانَ عن تذكيرنا بحجم بشاعة هذا المصير في النهاية. وكان من المفترض لك حين تعرفه أن تخاف منه فتهرب منه، وليس أن تنكره فتقع فيه!

وضّح لك القرآن أن الله يريد لك أن تخاف حين ذكر لك أصناف العذاب! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ**﴾ (الزمر ١٦).

ذلك الخوف الواقع في قلوب المؤمنين يحبه منهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هو خوف يعني أنهم يدركون مقام العبودية الذي هم فيه، ويقدّرون الله حق قدره، ويعظّمونه حق عظمته!

لذلك يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن صفات المؤمنين الفائزين بالجنة: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ**﴾ (المعارج ٢٧). في مقابل هؤلاء الذين لا ينفع معهم كل ذلك التخويف، وكانت قلوبهم أكبر قسوة من أن تشعر، وأرواحهم أشد يبوسًا من أن تقلق، وأنفسهم أكثر جفافًا من أن تهتزّ! يا للحسرة على هؤلاء الذين يخوّفهم الله من الابتعاد عنه، فيزدادون عنه بعدًا! ﴿**وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا**﴾ (الإسراء ٦٠).

هذا الرعب من النار لم يدّعِ أحد أنه عن غير استحقاق، ولا أنه غير طبيعي ، ولا حتى إنه غير مقصود! إنما لا يزال القرآن يذكّرنا بضرورة أن نأخذ أمر الدين على ما يستحقه من الجدية: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ**﴾ (الطارق ١٣ -١٤)!

وألّا نتناسى أو نتغافل عن هذا الخبر المهول: ﴿**قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ**﴾ (ص ٦٧ -٦٨)!

وأنه من الأفضل لنا أن نبكي بدلًا من أن نضحك: ﴿**أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ**﴾ (النجم ٥٩ -٦٠)!

وأنه يجدر بنا أن نسارع في الاستجابة إلى بارئنا من قبل أن يمسّنا هذا المصير المُرعب: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ**﴾ (الشورى ٤٧)!

إن من ينكر العذاب لمجرد أنه مخيف إلى هذا الحد، ألا يضع في ذهنه أن لربما كنّا نحن على صواب، لربما هو غير ذكيّ إلى هذا الحد، لربما كان كل ما سخر منه موجودًا بالفعل. ماذا سوف يفعل حينها؟! أو كما كان التساؤل القرآني: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾ (فصلت ٥٢)؟!

تقول لي: فماذا لو متَّ أنتَ فلم تجد ما آمنتَ به؟ تقول لي: ماذا لو أغمضتَ عينيك للمرة الأخيرة فلم تستعد وعيك في مكان آخر؟ تقول لي: ماذا لو رحلتَ عن دنيانا بورعك عن اللذائذ ثم لم تجد بعثًا ولا نشورًا؟

أتظن أن الأمر رهان وأنا سوف أغتاظ لأنك كسبته؟ الأمر ليس كذلك يا عزيزي. أم تحسب أن هذه حبكة مخيفة بالنسبة لي؟! أنا أتمنى من سويداء قلبي أن تكون أنت على حق. أتمنى لو لم يوقظني أحدهم بعد الموت للحساب. أتمنى لو متُّ فصرت نسيًا منسيًا.

أنت تحسب أني في جدالي معك حول الله واليوم الآخر أنتظر في سرور وطمأنينة أن نموت أنا وأنت كي أريك أني على حق وأنتصر في الجدال. أنت لا تعلم أني أنتظر بيقين نعم ولكن بحزن كامل وخوف شديد. هل تحسب أني سعيد بأن هناك آخرة وحساب وسؤال وعرض وميزان؟ هل تحسب أني مطمئن لأني مؤمن بالله عز وجل من أني لن يمسني السوء؟

ذنوبي فاقت قدرتي على العد، أنا مؤمن أنها مكتوبة كلها. واجباتي لم أؤدِ تمامها، أنا مؤمن أنها تنتظرني كلها. وإن سألني الله فقال: لمَ جعلتني أهون الناظرين إليك؟ فهذا عذاب وحده، عذاب ألا أجد لنفسي اعتذارًا ولا حيدةَ.

أنا أفرح بأن الله سيعذب الظالمين، فقط حتى أتذكر أني واحد من الظالمين. أنا أبتهج حين أتذكر عدل الله في الآخرة ثم تذرف عيني حين أتذكر ما سوف يحل بي من عذاب إن عاملني الله بعدله في الآخرة! أنا أتذكر الجنة فتغلب دموعي بسمتي لأني أعلم أني لا أستحق شيئًا من الجنة، ولو دخلتها فلأن ربي فقط كريم.

لو استطعت لساعدتك على أن تكسب رهانك معي، ولكني -مثلك- معدوم الحيلة مسلوب الإرادة مغلوب القضاء نافذٌ فيّ الأمر من الله. وأقرأ كلمات الله إذ يقول: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**﴾ (النساء ١٢٣). فأشعر في صدري بوخزة من ينتظر أمرًا ثقيلًا مخيفًا ويعلم أنه ليس منه بد.

تأتي متظرفًا وتقول لي: ماذا لو لم يحدث ذلك الذي تنتظره؟ أقول لك: يا ليت هذا يحدث! يا ليتني أموت فلا أُحاسب وتموت أنت فلا تُحاسب. يا ليتني لا يمسني ولا يمسك عذاب ولا حساب.

ولكن ليس بأمانينا يا صديقي. سوف نُجازى بما عملنا من سوء، فلا ينجو إلا من كان الله له وليًا نصيرًا.

٧
الرأفة

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

سورة العنكبوت آية ٤

في ١٩٩٩ وقف (كوميدياني) أمريكي شهير على خشبة المسرح يسخر من الأديان في نوع من أنواع الكوميديا المفضلة عند الشعب الأمريكي (Stand Up). هذا الرجل في عداد الأموات الآن، والله أعلم بحاله، لكني لا أظن أنه الآن يضحك على نكاته!

كان الرجل على المسرح وقتها يتحدث عن العذاب الإلهي الأبدي الذي تعدك به الأديان في حالة لم تؤمن بالله، فيقول: «أنت ستمضي حياتك السرمديّة وسط النيران والدخان والعذاب الشنيع المستمر إلى نهاية الزمان، ولكن مع ذلك... فالله يحبك»!

كانت نكتته تلك شهيرة للدرجة التي أُعجب بها الكثيرون من الملحدين لسنوات طويلة! وجدتُها على مواقع ترفيهية غربية، ومجموعات إلحادية عربية على مواقع التواصل الاجتماعي، ومترجمة على (اليوتيوب) أيضًا! لم أفهم السبب في هذا إطلاقًا غير أن تكون حياة هؤلاء بالبؤس الكافي ولا يضحكون في حياتهم جيدًا!

على كل حال، فالديانة النصرانيّة المحرّفة فقط هي من يمكن (إحراجها) بهذه الفكرة. حيث يزعم أتباعها بالفعل أن الله يحب كل البشر لأنهم صنيعته، فبالتالي أنت بذاتك محبوب لدى الرب الذي خلّصك من قيد الشيطان بفدائه بابنه من أجلك. حين نتحدث عن النصرانية، فإن العاطفة تمثل جزءًا كبيرًا من بنائها الفكري.

بينما الإسلام لم يزعم أبدًا نفس الزعم، بل أقرّ القرآن بشكل صريح وواضح ببطلان هذه الفكرة: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ (المائدة ١٨). فالحبيب بالفعل لا يعذب حبيبه، وهذا لا يعني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن يعذب أحدًا من البشر، بل يعني أن ليس كل من هو من البشر بالضرورة حبيبه!

وبشكل واضح وصريح أيضًا وضح لنا القرآن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، لن يكتب هذه الرحمة لكل أحد، ولن يسوّي بين من يستحق ومن لا يستحق. كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ١٥٦). لا يستحق كل أحد أن يعامله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برحمته في الآخرة، ولكن بالتأكيد لن يخرج أي أحد عن معاملة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعدل!

قد يُشكل أحد على مسألة وجود العذاب باعتبار: وأين رحمة الله من هذا؟! والسؤال الأهم: ومن قال أن من يعذبه الله فهو مرحوم؟! لو كنا قلنا ذلك لكان هذا تناقضًا واضحًا بالفعل. بينما القرآن يوضح لنا أن الله جَلَّجَلَالُهُ يعامل من شاء بما شاء. كما يقول سبحانه: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (العنكبوت ٢١). وأنه كما اتصف بكمال الرحمة والمغفرة، اتصف أيضًا بكمال العزة والجبروت والانتقام، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر ٤٩-٥٠).

ويذكّرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الحقيقة دائمًا حتى لا نركن إلى أحد ركني هذه الصفات ونميل معها بشكل أكثر من اللازم مما ينسينا الركن الآخر منها! فيصبح أحدنا يائسًا من رحمة الله لأنه لا يرى إلا عقابه، ويصبح الآخر مطمئنًا للغاية وبشكل غير ذكي على الإطلاق، فقط لأنه لا ينظر إلا إلى رحمته سبحانه، بينما القرآن يقول لك: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة ٩٨).

ليس بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبين عباده خصومة! الله جَلَّجَلَالُهُ والعياذ بالله ليس ساديًّا يستمتع بتعذيب الناس أو حرقهم. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن ذلك علوًا كبيرًا! إنما الله لا يريد لأي أحد من خلقه أن يُصاب بهذا العذاب: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۞ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء ٢٦-٢٨). وهو يبيّن لنا أن العذاب غير مقصود لذاته أو مراد لأصله، فيقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء ١٤٧).

ومن أجل ذلك لم يكن العذاب على حين غفلة، ومن دون تحذير، بل أقام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن التحذير: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (يس ٦٠-٦١). ثم يوم القيامة ولما تزفر النار ويفزع من صوتها كل أحد، يعيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علينا نفس الكلمة حينها، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ. نفس الكلمة التي قالها في كتابه وعرفناها منه في الدنيا، لتدل على أن الله

حذّرنا وخوّفنا من هذا المصير ليمنعنا منه. ولكن أبى البعض إلا الهلاك، أبى البعض إلا العناد، أبى البعض إلا الحماقة!

꧁꧂

غير أن هناك من الناس من يفترض أن وجود العذاب يعني التساوي بين كل المجرمين. وتراه بعد ذلك يتعجب: وكيف يُسوّي الله بين الكافر السفاح الزاني معاقر الخمور، وبين الكافر اللطيف الملازم للكنيسة؟!

إنه هنا يفترض أن النار دركة واحدة، وأن كل من هو (مُعذَّب) يعذب بنفس المقدار. والحقيقة أن هذا أمر خاطئ تمامًا، فالقرآن يخبرنا أن: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ**﴾ (النحل ٨٨). فأعمال الكافر اللطيف تعود عليه تخفيفًا من عذابه يوم القيامة، وأعمال الكافر السفاح تعود عليه عذابًا فوق العذاب، والنار دركات بعضها أسفل من بعض، أسوأ من بعض، أشد إيلامًا من بعض، بما لا يقاس!

꧁꧂

وهناك من الناس من قد يفكر أن في وجود العذاب نوع قسوة! ويرى أن المفترض أن يتم الاحتفال بالجميع في النهاية مثلًا! أو أن يفلت المجرمون بعقابهم! بينما لو أصيب أحدهم بمظلمة شديدة في الدنيا، فإنه ينسى كل هذه الخواطر، ولا يتمنى فقط أن لو كان العذاب في الآخرة يطال هذا الظالم، ولكن أيضًا أن يراه بعينيه!

وهناك من الناس من هو أشد غرابة من هذا. يقول: عذاب الناس على مظالمهم في حق الناس يوم القيامة مفهوم، ولكن لماذا يتم تعذيب الكفار بالله حتى ولو كانوا إنسانيّين خلوقين أذكياء؟!

هو إذن قد افترض ورأى وقرر أن حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الناس أقل شأنًا وأوضع مكانة من حقوق الناس على بعضهم البعض! ويرى أن الرجل الذي أساء إلى جاره أو إلى قطته الأليفة هو رجل شرير يستحق العقاب، بينما الرجل الذي جحد حق الخالق وولي النعم الذي وهب له كل شيء، هو رجل طيّب لم يؤذِ أحدًا ولا يستحق العقاب!

وكلٌ من النوعين الأول والثاني لديه نفس المشكلة في النهاية، أنه افترض أن له أن يقرر ما الذي يجب أن يحدث في الكون! نسي أنه لم يخلق أحدًا، ولم يملك ذرة، وليس له من الأمر شيء! لذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهؤلاء ومن على شاكلتهم ممّن تمنّى عدم وجود عذاب في الآخرة، أو أن يكون هناك عذاب لطائفة معيّنة دون الأخرى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ (النساء ١٢٣).

ليس بأمانيّكم إذن، وليس لكم به شأن!

٨

العدل

"هل هناك من هو أشد صممًا وعمىً

من ذلك الذي اختار ألا يسمع ويرى؟"

مثل إنجليزي

يعرف علم النفس عدة وسائل دفاع نفسيّة Defense mechanisms والتي يقوم بها لا وعي الإنسان حين يتعرض للصدمات. منها على سبيل المثال: الإسقاط Projection وتعني إسقاط المشكلة بأكملها على شخص آخر وكأنه لا يعاني منها، أو بمعنى أصح إسقاط المشكلة على غيره (لأنه) يعاني هو منها! والتبرير Justification ويعني اختلاق الأعذار والأسباب المحتملة لهذا الفعل الذي قام به، ومحاولة إثبات أن الظروف هي التي اضطرّته إليه وليس أنه مجرد وغد آخر! واللوم Blame وهو واضح بالطبع، أي إلقاء اللوم على شخص آخر في فعلته.

هذه الدفاعات النفسيّة ليس لها علاقة بالخوف من العقاب، بل وليس لها علاقة بوجود عقاب من عدمه، بل هو سلوك بشري نفسي معتاد يقوم به لا وعينا باستمرار عند الوقوع في خطأ أو مشكلة أو صدمة ما، ليس للضرورة للهرب من حكم الناس، ولكن أيضًا للهرب من حكم أنفسنا نحن.

تزداد هذه الدفاعات النفسية في القوة كلما زاد حجم الصدمة واتسعت دائرة المصيبة، وهو الأمر الذي قد تلاحظه أنت بسهولة حين تفطن إلى أنه من اليسير عليك أن تعترف -لنفسك على الأقل- بأنك كنت السبب في الأزمة الماليّة التي تمر بها أسرتك لأنك أنفقت الكثير من الأموال على مشروع تجاري لم ينجح. هذا أمر تتلقى اللوم عليه وتعترف به في نفسك وأمام الناس دون أدنى مشكلة، لأن هذا في الأصل ضرر مُحتَمل ومشكلة بسيطة.

بينما لو فكرتَ بينك وبين نفسك أن لربما كان أسلوب تربيتك القاسي مع ابنك هو سبب المرض النفسي والانقباض السوداوي الذي يمر به، لربما حينها تجد كبير ممانعة ومقاومة من نفسك،

والكثير جدًا من وسائل الدفاع المختلفة بين الإسقاط والتبرير ولوم الآخرين، أنت حينها ستكون مستعدًا لإلقاء اللوم على الكون كله قبل أن تفكر في إدانة نفسك بهذا. إذ إن المصيبة الواقعة كبيرة جدًا، وتحمّلك لها لن يكون يسيرًا أبدًا عليك سواءً بوعي أو بلا وعي!

النفس البشريّة إذن لا تعترف بخطئها بسهولة! سواءً كان هذا للفرار من العقاب (لذلك يعرف خبراء القانون أن الاعتراف هو سيد الأدلة على الإدانة). أو كان هذا للفرار من لوم المجتمع (كما يتحدث خبراء التربية عن ضرورة التغافل عن عقاب الأبناء بين الحين والآخر من أجل تشجيعهم على تحمّل مسؤولية أخطائهم). أو كان هذا للفرار من وخز الضمير وألم تحمّل المسؤوليّة الذاتية واللوْم الداخلي العنيف!

لذلك عندما يحدثنا القرآن عن اعتراف أهل النار على أنفسهم بأنهم (يستحقون) ذلك. سيكون هذا دحضًا لأي شك أو شبهة فيما يخص العدل الإلهي معهم في إدخالهم النار!

كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عنهم: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۞ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ (الملك ١٠ -١١). ويقولون عن أنفسهم: ﴿**رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ**﴾ (المؤمنون١٠٦). فقم بتوفير جهدك في الدفاع عن الحقوق المزعومة لهؤلاء، لأنهم هم الذين سيخذلونك حينها يوم القيامة بهذه الاعترافات الواضحة!

إنه العدل الإلهي الذي هو خارج نطاق الشبهات والظنون، للدرجة التي جعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها كل إنسان قيّمًا على أفعاله، ويطلب منه أن يتولى حساب نفسه على أفعاله! كما يقول سبحانه: ﴿**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾ (الإسراء ١٣ -١٤).

❧

العدل الإلهي لم يتوقف عند هذا الحد، بل إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يبيّن لنا ويفصّل في رد الخواطر التي قد ترد على أذهاننا وتتساءل: هل من الممكن أن يكون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -والعياذ بالله- قد أفرط أو بالغ أو تعدّى حد الجرم في العقوبة أو ظلمهم؟!

حينها يجيبك القرآن.

بأن الله جَلَّجَلَالُهُ حرّم الظلم على نفسه: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (النساء ٤٠). ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ (فصلت ٤٦).

وأن هذا الظلم -الذي لا ينبغي لله- يتأكد ذكرُ منعه في يوم القيامة خصوصًا: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ (غافر ١٧). ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء ٤٧).

وأن الله جَلَّجَلَالُهُ لا يكلف النفوس فوق طاقتها: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (المؤمنون ٦٢). ولا يحاسب نفسًا على جرم غيرها: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الإسراء ١٥).

وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعلم بمن (يستحق) العذاب: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۞ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ (مريم ٦٩ -٧٠). وأعلم بما كانوا فاعلين: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (الزمر ٧٠). وأنهم استحقوا هذا العذاب بسبب ظلمهم لأنفسهم لم يُظلمهم أحد: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۞ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۞ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (الزخرف ٧٤ -٧٦).

بل وأنهم لو أخرجهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأعادهم إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر والعصيان!! كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام ٢٨).

كل هذه الأدلة إنما تدل على العدل الإلهي الكامل غير المنقوص، في قيام حجته على خلقه واستحقاق من يعذبه الله منهم للعذاب.

غير أني أظن أني أعرف ما تفكر فيه يا صديقي!

تفكر أن هذه مغالطة منطقيّة! كيف أستدلّ من القرآن الآن على صحة العدل الإلهي؟ ماذا لو كان القرآن لا يمثل بالنسبة إليك حجةً معتَرفًا بها، أو كنت تشكك في صحته، فكيف إذن أزعم أنه عليك أن تسلم بصحة العدل الإلهي اعتمادًا على أدلته؟!

إن هذا شبيه بمعضلة أهل (كريت)!

يحكون أن رجلًا يقول: «كل أهل كريت كذّابون». ولكن تبين لنا أن هذا الرجل من كريت. فأخذنا في التفكير: لو كان ما يقوله الرجل صحيحًا، لكان هذا معناه أنه كاذب بدوره، لأنه هو أيضًا من كريت. ولو كان كاذبًا فهذا معناه أن ما يقوله غير صحيح، أي أن أهل كريت صادقون. ولو كان أهل كريت صادقون، لكان هذا معناه أن هذا الرجل صادق. ولو كان هذا الرجل صادقًا لكان هذا معناه أنهم كذابون. إذن هو كاذب، إذن هم صادقون... إلخ. وهكذا يمكننا أن نستمر إلى قيام الساعة في هذه اللعبة!

هذه من أشهر المعضلات المنطقيّة. ولعلك لاحظت أن هذا سلوك حرصت على اجتنابه طوال الكتاب، فطوال الكتاب كنت حريصًا على تبيين (الحجة) العقلية في الآية القرآنية وليس أن أقدم الآية كـ (دليل) فقط يجب عليك أن تسلم به.

فلماذا أقع في هذه المغالطة الآن؟!

السبب يا عزيزي أن منشأ المشكلة لديك في العدل الإلهي أصلًا هي عذاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالنار لمن يستحق العذاب منهم. ولكن من أين لي أو لك أن تعرف بوجود النار أصلًا وبأن الله سيعذب فيها الناس؟ الإجابة: من القرآن.

ومن أي كتاب أتيت لك بالأدلة على العدل الإلهي؟ الإجابة: من القرآن!

إذن بما أن المصدر واحد، فالأمر بسيط.

لو كان المتكلم صادقًا، فهو صادق في الأمرين. ولو كان –وحاشا لله– المتكلم كاذبًا فهو كاذب في الأمرين.

فلو كان هناك نار فلا يوجد فيها ظلم.

ولو كان هناك ظلم فلا يوجد نار أصلًا!

أخطر أنواع الطمأنينة

(عن اختلاف الأديان)

"اختيارك للّا دين يبقى اختيارًا في النهاية، وبغض النظر عن الأصل الذي وُلِدتَ عليه، وعلى الديانة التي كان عليها أبواك، فأنت (قد) اخترت بكامل قواك العقلية، خيارًا من هذه الخيارات، اخترتَ أنت الآخر اختيارًا ما برغم أن هناك -على زعمك- عدة آلاف من الاختيارات الأخرى، وتزعم أن اختيارك هذا هو الصحيح برغم أنه -على زعمك أيضًا- فالاحتمالات لا تقف في صالحك. فطالما سلّمنا أن هناك حقيقةً في مكان ما، فلا بد إذن من وضع احتمال، أن يكون هذا الدين أو ذاك هو الاختيار الصحيح. حينها أنت قد قمت بأسوأ عملية كسل قد تقوم بها في حياتك!"

وجدتُ في أحد مقاطع (اليوتيوب) الملحد الشهير (ريتشارد دوكنز) وقد سُئِل ذات مرة من فتاة نصرانيّة عن موقفه من وجود الله، قالت: «ماذا لو كنتَ مخطئًا؟».

فقال (دوكنز): «كل شخص من الممكن أن يكون مخطئًا. ربما نحن جميعًا مخطئون لأننا لا نصدق بوجود وحش معكرونة، أو وحيد قرن وردي، أو قدر شاي طائر! أنتِ وُلدتِ في أمريكا فأصبحت نصرانية، ولكن لو كنتِ وُلدتِ في الهند لكنتِ هندوسية، ولو كنتِ وُلدتِ في الدنمارك أيام الفَايكنج لكنتِ تؤمنين بالإلَه (ثورَ)، ولو كنتِ وُلدتِ في اليونان أيام الإَغريق لكَنتِ تؤمنين بالإله (زيوس)، ولو كنتِ وُلدتِ في وسط أفريقيا لكنتِ تؤمنين بالإله (جوجو) الساكنَ في قمم الجبال، لا يوجد أي سببَ لاختَيارك الإله الإبراهيمي لَكي تؤمني به إلا مصادفة الزمان والمكان. فأنتِ حين تسأليني ماذا لو كنتَ مخطئًا، سأقول لكِ أنا: وماذا لو كنتِ أنتِ مخطئة بشأن الإله (جوجو)؟!».

في نهاية المقطع تصفيق حاد من الجمهور لدوكينز على (إفحامه) للفتاة! وقد تم استخدام (الجرافيكس) ليشرح فكرة المقطع من قناة إلحادية غربية ما، ثم تمت ترجمته إلى العربية من قناة إلحادية عربية ما. على ما يبدو كل هؤلاء يرون أن رد دوكنز كان عبقريًا!

لا أظن أن هناك أي دليل يمكنه أن يقدمه (وحش المعكرونة) ليثبت لنا وجوده، وحش المعكرونة نفسه لم يهتم بذلك! وأما فنجان الشاي الطائر فهو مثال يتردد على لسان هذا الرجل بالذات أكثر من اللازم، وفي العديد من اللقاءات التي خاضها، يبدو أنه معجب بنفسه إلى أقصى حد لأنه قد وصل إلى هذا المثال (الذكي) فيأبى أن يتركنا في أي مناسبة بدون أن يذكّرنا به. لا أحد يحب من يكرر نكاته يا (مستر دوكنز)!

الجزء الآخر من كلامه يتعلّق بمسألة تركه لجميع الأديان لأنها (مختلفة)! حينها لا يهتم دوكنز ولا أي واحد آخر من الذي صفّقوا خلفه بأن يفكر لبضعة دقائق، في أن الإله الذي نتحدث عنه هو إله لطيف غير مادي ملكٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ، بدأ الخلق منفردًا وهو يرعاه ويكلؤه، فهو غير الإله (زيوس) الذي كان له أبناء (آلهة) غير شرعيين، أو الإله (ثور) الذي كانت مطرقته الفولاذيّة دميته المفضلة والحيلة الوحيدة التي في جعبته، أو الإله (جوجو) الذي نقّب دوكنز في كتب الأساطير كثيرًا حتى يُعلمنا بشأنه!

يستنكر القرآن ذلك المسلك الغريب، بل عليك أن تكف عن الادّعاء عن أن الآلهة الباطلة والإله الحق على سواء! ﴿**أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ**﴾ (الصافات ١٢٥) ﴿**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (النحل ١٧).

دائمًا تتكرر نفس الحيلة على ألسنة الذين لا يؤمنون بالله: بأي إله نؤمن؟ على أي دين نتديّن؟ بأي منهج نسير؟ طالما الأديان مختلفة، وكلها يزعم أنها على صواب، فلا بد أن الجميع على خطأ. وإجابة سؤال الأديان لا بد أن تكون (لا شيء مما سبق)!

على أن لنا أن نتساءل، ولماذا لا يكون جوابهم واحدًا من هذه الإجابات المخطئة؟؟ يعني يمكننا أن نضع عددًا من الخيارات: الإسلام - النصرانية - اليهودية - الهندوسيّة .. إلخ، ثم في النهاية نضع خيار: اللادينية.

اختيارك للّا دين يبقى اختيارًا في النهاية، وبغض النظر عن الأصل الذي وُلِدتَ عليه، وعلى الديانة التي كان عليها أبواك، فأنت (قد) اخترت بكامل قواك العقلية، خيارًا من هذه الخيارات، اخترتَ أنت الآخر اختيارًا ما برغم أن هناك -على زعمك- عدة آلاف من الاختيارات الأخرى، وتزعم أن اختيارك هذا هو الصحيح برغم أنه -على زعمك أيضًا- فالاحتمالات لا تقف في صالحك. فطالما سلّمنا أن هناك حقيقةً في مكان ما، فلا بد إذن من وضع احتمال، أن يكون هذا الدين أو ذاك هو الاختيار الصحيح. حينها أنت يا صاحبي قد قمت بأسوأ عملية كسل قد تقوم بها في حياتك!

في الإسلام ليس لدينا وقوف كثير عند مسألة الأسماء، لأن دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النازل من السماء: واحد، ولربما كان في مرحلة ما من تاريخ البشريّة هو دين نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو دين بني إسرائيل، أو دين النبي محمد ﷺ. فكل هؤلاء من الأمم التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنها: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة ١٣٤). لذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كل هذه الأمم البشرية التي عاشت في أزمان وأماكن مختلفة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (البقرة ٦٢).

إنها تلك النظرة التي ينظر بها الإسلام إلى غيره من الأمم، وهي أن الله لم يخلقهم فقط ليكونوا حطب جهنم! بل إن القرآن يرد بوضوح على هؤلاء الذين ظنوا في أنفسهم أنهم أحباب الله لدرجة أن يكونوا هم الفائز الحصري الوحيد بالجنان: ﴿**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (البقرة ١١١ -١١٢).

كل من آمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، وصدّق برسله جميعهم، فهو يستحق في نظر الإسلام أن يكون من الفائزين، سواءً وُلِدَ في زمان (الماموث) أو وُلِدَ في زمان (البلوراي). وسواء كان يسكن سفوح جبال الألب، أو جبال أطلس. وسواءً عرف الله ووحّده بنبيٍّ أُرسل إليه، أو بفطرته التي لم يلوّثها. وسواءً كان من جنس الرجل القوقازي الأبيض، أو الأصفر، أو أسود البشرة.

جميع هؤلاء ينادي عليهم القرآن ليخبرهم بتساويهم أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنهم لا يتفاضلون إلا بما احتوت قلوبهم من التقوى، كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات ١٣).

لذلك لما سأل فرعونُ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن كل هؤلاء البشر الذين خلقهم الله. كل هؤلاء الذين لم يُرسَل إليهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. أتراهم كلهم كانوا على ضلال إذن؟! لماذا تظن أنك تحتكر الحقيقة وأنت لم تولد إلا من سنين قليلة؟! هكذا سأل فرعون حين قال: ﴿**فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى**﴾ (طه ٥١)؟! كان جواب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عليه حينها: ﴿**عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى**﴾ (طه ٥٢)! فموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بشر يولد في موعد أراده الله، ويظل على الأرض عدة سنوات ثم يموت، لهذا لا نعبد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أيًّا من الأنبياء وحاملي الوحي عليهم السلام، ولكن نعبد الله جَلَّجَلَالُهُ الذي لا يضل ولا ينسى عباده، ويعلم ما كان عليه هؤلاء العباد، وما يستحقون من النعيم أو العذاب!

المؤمن يرى هذه الحقيقة أمام عينيه: نحن لسنا في مسابقة لبيان من الذي وُلدَ على الدين الصحيح! أو ما هو العرق البشري الذي هو على صواب بشأن اختيارات دينه! لا يرى المؤمن في الحقيقة إلا أننا جميعنا في موقف واحد من قضية الإله، حيث نقف جميعًا في جهة الفقر إليه، ونسعى لعبادته بالمنهج الذي أنزله هو، لا بما حرّفته أيدي البشر.

كما يُملي القرآن على النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الموقف الصحيح الذي يجب أن يكون عليه، فيقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ (الشورى ١٥).

هناك المزيد من التفسير والإجابة تتضح لك في النقاط القادمة!

١

بأهدى

"المراهقة هي التحول من التفكير المادي إلى التفكير المعنوي"

محمد إسماعيل المقدم

أحيانًا أقف على رأس العم عصام في كافيتريا المشفى الذي أعمل به أراقبه يصنع قهوتي لأتأكد من أن المقادير صحيحة، فقد اعتدت أن القهوة غير المضبوطة كفيلة بإفساد صباحي. لذلك كان ما حدث صباح ذلك اليوم مأساة حقيقية!

كنت متعجلًا واضطررت لعدم التدقيق وأنا أصنع قهوتي في المنزل، لم أجد ملعقة صغيرة فاستخدمت ملعقة الطعام الكبيرة لوضع السكر في الكوب بالتقريب، ثم لم تستطع الملعقة الكبيرة الدخول في وعاء البن الصغير فصببته من الإناء صبًا بالكوم، ثم لم أجد إلا قطرات حليب قليلة وكانت تبدو سميكة مخيفة تنذر بأن صلاحيته انتهت غالبًا، ثم أكملت بوضع نوع حليب آخر منزوع الدسم مقزز الطعم الذي أكرهه. بعد أن انتهيت فكرت في التخلص من هذه القهوة السافلة ولكني كنت أحتاج إلى الكافيين، شربتها ولدهشتي كانت لذيذة جدًا، ألذ من قهوتي المثالية المعتادة!

لا أملك مقدارًا كافيًا من شجاعة الملل كي أستخلص العِبَر من كوب قهوة عابر غير مهم. ولكن هل يا ترى نحن نبالغ في الاهتمام بتركيبتنا المثالية المفضلة غافلين عن الجمال الكامن وراء سعة الاحتمالات؟

لماذا نحب التكرار في سماع المقطوعات الغنائية؟ لماذا يبدو المقطع الصوتي أجمل حين تسمعه للمرة العاشرة عن مرته الأولى؟ فكرَت (إليزابيث مارجوليس) في ذلك وكتبت كتابًا كاملًا لشرح هذه الظاهرة: (بالتكرار، كيف تلعب الموسيقى بأدمغتنا)، هناك ملحّنون من أمثال (ستيف ريتش) و(فيليب جلاس) كانوا لا يفعلون شيئًا في مقطوعاتهم الصوتية إلا تكرار كثير (جدًا) من نفس اللحن القصير، وهناك من لاحظ أن السيمفونية الخامسة لبيتهوفن تلعب على نفس الحيلة النفسية.

يعشق الدماغ البشري تكرار اللحن لأنه يدغدغ عتبة الممانعة العقلية التي نقوم بها في وعينا لأي شيء جديد، نتقبل الصوت الذي ألفناه بسلام وارتخاء، نحب الأصوات المُعادة لأننا نشعر بالراحة والطمأنينة في دفء الألفة والاعتياد!

ينبغي أن تكون أكثر احترامًا لعقلك البشري وتعترف بأن التغيير مخيف لك! اعترف ببساطة أنك لا تحب الأفكار الجديدة، المغامرات المثيرة، التجارب غير معلومة العواقب، البشر الغرباء الذين يقتحمون عليك حياتك في لحظة ما. كلما فهمتَ ذلك من نفسك أسرع كلما كان أسهل لك في أن تعد الخطة للخروج من سجن دائرة الارتياح المعتادة إلى رحب الاحتمالات الواسع.

كان هناك من يعشق دائرة المألوف في عقيدته، في أخلاقه، في عباداته، ورؤيته لهذا الوجود مترامي الأطراف، ويقول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف ٢٣).

فأمر الله رسولهم بأن يقول لهم ببساطة: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ﴾ (الزخرف ٢٤)؟

هل تملك شجاعة الاعتراف بأنك تخاف الخروج من دائرتك المريحة إلى كل تلك الأشياء الأهدى؟ هل تملك صلابة التحدي الذي يتطلبه من يريد أن يكون دائمًا ساعيًا للأهدى؟

حسنًا لحسن الحظ فجميعنا نملك هذه الشجاعة في مرحلة عمرية معينة، ولسوء الحظ لا ينجح الجميع في استغلالها! أتحدث عن مرحلة المراهقة بالطبع!

***

في أحد أسئلة موقع Debate المختص بالتصويتات الشعبية، كان هناك سؤال: «هل يُعتبر المراهقون دومًا أحد مُغيّري قواعد اللعبة في الأحداث السياسية؟؟». كانت إجابة ٨٠٪ من الناس على هذا السؤال بالموافقة.

المراهق يثور على كل شيء بالفعل، بدءًا من الطريقة التي ربّاها عليه والداه والتفضيلات الشخصية التي اختاراها له طوال عمره، ومرورًا بالقيم والأعراف السائدة في المجتمع والتشكك فيها، وانتهاءً بطريقة اختيارهم لملابسهم، ولعل الأخيرة هذه من أكثر الأشياء التي يودّ الكبار لو كانوا يستطيعون التحكم فيها بالفعل!

لذلك اعتاد المراقبون أن يُصابوا بالدهشة من الطريقة التي تجعل المراهق لا يتوقف أبدًا عند (حواسه)، كما يقول (هنري رولينز) الموسيقي: «المراهقة هي طاعون على الحواس»!

والتي تجعله يتمرّد على الآباء للدرجة التي يصفه بها (ديف باري): «لا يوجد ما هو أكثر إحراجًا للمراهق من آبائه»! ويقول الدكتور (عبد الكريم بكار): «لا تجزع إذا وجدت ابنك المراهق لا يرغب في الظهور معك أمام الناس، فهذا شيء طبيعي»!

والتي تجعله مغموسًا في حقائق الحياة للدرجة التي لاحظها الصحفي (أرنولد جلاسو): «إخبار المراهق بحقائق الحياة يشبه أن تقوم بإعطاء سمكة حمّامًا من الماء»!

هذا المراهق هيّأه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه السن بأن يكون على قدر غير عادي من التفرّد بذاته وباختياراته، فيخرج عن الحدود الوراثيّة المألوفة، ويخرج عن طور الشبه بأي من والديه، كما يقول عالم السلوك (لورانس بيتر): «الوراثة هي ما يجعل كلًا من أبوي المراهق يتساءل بتعجب عن الآخر»! بينما يصفه الكاتب (جون باتيل) بقوله: «المراهق لا يملك أي نوع من الولاء المسبق تجاه أي شيء»! ويقول الدكتور (بكار): «لا يتقبل المراهق ما تحدثه به عن ذاته بيسر وسهولة»! وتقول (جيمي كرتيس): «أنت لو رأيت مراهقًا فأنت ببساطة ترى الكثير من عدم التأكد»! وتقول (جوان تشين): «كل المراهقين لديهم رغبة في الفرار بطريقة ما»!

اعتدنا على أن ننظر للمراهق بنظرة مُبسّطة خالية من التعقيدات، نراه مجرد باحث عن متع الحياة، ولكن الحقيقة أن المراهق يبحث أول ما يبحث عن ذاته هو! إن المراهق هو مجرد طفل بدأ أول طريقه في الشعور بالمسؤولية والتفرّد. إنه لا يختلف عن الكبار -الذين يشعرون دائمًا بهذه المسؤوليّة- في أي شيء إلا أنه فقط (يبدأ) طريقه، بكل الحماس الذي يعتري كل من يبدأ طريقه في شيء ما!

هذا الذي يتعجب منه المراقبون وعلماء النفس من كل مكان في العالم، ليس على هذه الدرجة من الغرابة في وجهة نظري، حيث خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإنسان مخلوقًا بداخله جهاز الشعور بالمسؤوليّة والانفراد بالذات والقدرة الداخليّة على تمييز الصواب بشكل منفرد بدون تحيّزات مسبقة أو ولاءات خادعة. ثم جعل هذا الجهاز لا يعمل إلا في مرحلة عمرية معيّنة، ثم يستمرّ معه هذا الجهاز مفعّلًا بقية عمره!

***

لذلك فلا عجب من أن جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه السن (سن البلوغ المتزامنة مع مرحلة المراهقة) هي السن التي تم تكليفه فيها بحقائق هذا الوجود! أنت لم تعد طفلًا الآن يتلقى تعليماته من والديه! بل يمكنك الوصول بنفسك للحقيقة، يمكنك السعي خلف الدين الصحيح، يمكنك التفكّر والتعقّل وإعادة النظر بكل ما رباك عليه أبواك، يمكنك أن تعقل الآن ما هو الصواب، وما هو الخطأ، حتى لو كان هذا يخالف البيئة المكانيّة أو الزمانيّة التي نشأت فيها، حتى لو كان هذا يعني أن تتحدى جميع الأعراف والتقاليد! لو مات طفل قبل أن يصل إلى هذه السن فهو (معذور)، ولو مات بعد أن وصل إليها فهو (مُكلّف)!

لذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن هؤلاء الذين يرفضون أن يتبعوا الدين الصحيح لأنهم وُلدوا على دين آخر: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ١٧٠).

حجّة (الوراثة) ليست صالحة بأي حال إذن! بل أنت تسبّ نفسك حينها، عندما تقنعنا أنك غير قادر على تمييز الصواب بنفسك من دون أن يقودك أحدهم. حين تظن أنك (معذور) في اتّباع الضلال لمجرّد أنهم (قالوا لك) أن تفعل! لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عن أمثال هؤلاء: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ (الصافات ٦٩ -٧٠). ويقول عن هؤلاء الذين ظنوا أنهم قد يفلتون من العقاب (لأنه لم يكن ذنبهم) أن وجدوا آباءهم على هذا الدين أو ذاك: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ (هود ١٠٩).

بل أنت قادر على تمييز الهدى، ومن باب أولى من المفترض أنك (تحب) أن تتبع الهدى، وأنك لو وجدت ما هو أهدى مما وُلدتَ عليه فأنت مطالبٌ باتباعه. كما حكى لنا القرآن أنه قد قال بعض الناس لرسولهم لما جاءهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف ٢٣). فما كان جوابه إلا أن قال لهم: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ (الزخرف ٢٤)؟!

على أن عمليّة (استشكال) ما كان عليه الآباء و(تغييره) ليست مطلوبة لذاتها! فلو اتفقنا أن هناك منهجًا صحيحًا وحقيقة في مكان ما، أليس من الممكن أن تكون أنت بالذات قد وُلدتَ على هذه الحقيقة الصحيحة؟! هناك من الناس من يُولدون على المنهج الصحيح لأن آباءهم كانوا أحسنوا الاختيار. هؤلاء حازوا على فضل كبير من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (آل عمران ٧٣ -٧٤). هؤلاء قد منّ الله عليهم بمنة عظيمة. إذن، خروجك منها سيكون هو أكبر خطأ!

لذلك فكما أخبرنا القرآن عن خطأ هؤلاء الذين اطمأنّوا بشكل كامل لما وجدوا عليه آباءهم، فإنه أخبرنا أيضًا بجريمة من غيّروا ما كانوا هم عليه من الدين الصحيح إلى دين فاسد! فيحكي لنا القرآن كيف أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ طلب من ربه أن يكون هناك من ذريته أيضًا أئمة في الدين كما كان هو: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ١٢٤).

هؤلاء الذين بدّلوا نعمة الله كفرًا. هؤلاء الذين كان معهم الهدى فغيّروه إلى الضلال. لربما كانوا أجرم وأظلم من النوع السابق!

٢

العبث

"أَوَكُلَّما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ لجدله ؟!"

مالك بن أنس

هل سمعت عن الراستفارية؟ الديانة التي نشأت في جامايكا في أمريكا اللاتينية في ١٩٣٠ لتقديس الإمبراطور (هيلا سيلاسي) الذي يعتقدون أنه تجسيد للرب، الجميل أن (سيلاسي) هو إمبراطور أثيوبيا التي تقع في أفريقيا وأنه هو نفسه أرثودكسي. حاكم دولة أخرى تقع في قارة أخرى يتبع ديانة أخرى يقرر مجموعة من العمال السود في جامايكا فجأة أنه ربهم الذي جاء ليحملهم مع كل السود في العالم إلى الأرض الموعودة! لتتحول ألوان علم أثيوبيا الأخضر والأحمر والأصفر إلى ألوانهم المقدسة، وتصبح الجدائل (الضفائر) الأفريقية هي تصفيفة الشعر المحببة عند الإله، وأما تدخين الماريجوانا فنوع من الصلوات المباركة لديهم.

لماذا نتحدث عن الراستفارية؟ لماذا نعرف ما هي الراستفارية أصلًا؟ هل يتوقع أحد أن تؤخذ هذه الديانة الظريفة على محمل الجد؟! لكن الحقيقة أن عدد الراستفاريين حول العالم يصل إلى المليون، وسبب هذا المليون العجيب أن (بوب مارلي) المغنّي الشهير اعتنق الراستفارية!

على الفور بدأ الناس في اعتناق الدين الجديد لأنهم كانوا يحبون موسيقى الريجي التي عرفهم عليها مارلي، كما ذكر (تشاد سبيكر) في دراسته المنشورة عام ١٩٩٨ بعنوان (الريجي كمُغيّر اجتماعي: انتشار الراستفارية).

في ١٩٨١ شهد العالم انحسارًا في اعتناق الراستفارية، والسبب هو أن مارلي قد مات في هذه السنة، الغريب أن هيلا سيلاسي نفسه كان قد مات قبل ذلك بستة أعوام فلم ينتبه أحد! برغم أن سيلاسي هو -احم- ربهم، وموت الإله من المفترض أن يكون حدثًا هامًا في حياة الأديان على كل حال.

ولكن هل حقًا ما فعله هؤلاء الناس مع ديانة بوب مارلي الموهوب يختلف كثيرًا عما يفعله آخرون مع ديانة (أو لا ديانة) هوكينج أو ماصك؟

على صعيد آخر، في ١٥٥٥ وبعد حروب طويلة بين الكاثوليك والبروتستانت، تم التوقيع على اتفاقية صلح (أوغسبرغ) في ألمانيا بين فرديناند الأول وبين عصبة شمالكالديك، نصت الاتفاقية أن كل دوق يحكم دويلة ما من دويلات الإمبراطورية الرومانية المتهالكة، من حقه أن يختار لدويلته الدين المفضل، ويذكر المؤرخون عن هذه الفترة أن الناس كانوا يستيقظون حرفيًا في الصباح على مرسوم ملكي بتغيير دينهم لأن الحاكم السابق قد مات أو خُلِع، وعليهم أن يسارعوا بتغيير دينهم مع الحاكم الجديد ما لم يرغبوا في تجربة الحرق على الخازوق بالتأكيد، وبرغم أنك تظن أن الحرق أو الخازوق، كلًا منهما يكفي بمفرده لتوضيح الفكرة، إلا أن محاكم التفتيش كانت تخالفك الرأي في هذا بالطبع.

وعلى صعيد ثالث لا يفوتنا أن نذكر قصة الرجل الحكيم مالك بن أنس الذي دعاه أحد الناس إلى المحاججة الدينية على طريقة (اللي يشيل)! بمعنى من يُغلب من الآخر في المناظرة يتبعه في اعتقاده، فما كان من الإمام مالك إلا أن رد عليه: وماذا لو غلبنا رجل ثالث؟ نتبعه أنا وأنت؟ «أَوَكُلَّما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على محمد ﷺ لجدله ؟!»

وطالما ذكرنا عدة أصعدة بالفعل فاسمحوا لي أن أمر سريعًا على صعيد أخير، ذلك الخاص بأبي طالب عم النبي الذي كان يعتقد أن دين ابن أخيه خير الأديان الموجودة، وبرغم ذلك أصر أن يموت على دين الأصنام خوفًا من أن يأكل الناس وجهه. المشكلة أن الناس تغير دينهم بعد ذلك وأكلوا وجهه في النهاية برغم كل شيء!

أحد أجمل تلك النصائح التي أسداها القرآن لطَيف البشر الواسع على اختلاف أطوالهم الموجية، هي تلك النصيحة اللطيفة رباعية الكلمات: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (ص ٦٧).

هي نصيحة، وبكامل غض النظر عن أي شيء آخر، بأن نقدّر أهمية ذلك الذي نطلق عليه: دين الإنسان. نصيحة بأن نستعظم شأن أي خبر يدعي بأنه قد جاءنا من السماء. نصيحة بضرورة تجنّب النبأ العظيم جميع أنواع التفاهة! تفاهة المناظرات وأديان المجتمعات والآباء السابقين أو مقدار حبنا لأغنية (نو وومان نو كراي)!

***

هل تذكر حين تحدثنا عن (حجة) الوراثة في الفصل السابق؟ حسنًا، ليست (الوراثة) هي المثال الوحيد لدينا على (عبث) و (كسل) الاختيار، فهناك -كما رأيتَ- أساسات أخرى للاختيار قد تكون أكثر عبثًا من ذلك وأضلّ سبيلًا!

وهناك المزيد! مثل الظن الأحمق غير المبرر لأحدهم بأنه طالما قد سبقه أحدهم إلى هذا الاختيار، فهذا يعني بالضرورة أنه غير صحيح! كما أخبرنا القرآن عن قول بعضهم: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ**﴾ (الأحقاف ١١). وهو ما يجعل هناك من الناس من يستشكل الدين الذي ندعوهم إليه لا لشيء إلا لأنه (يُدعَى) إليه ولم يصل إليه باجتهاد بحثه وجولات فكره الخاص. لماذا ذلك؟! لأنني عبقري يا سيدي لا يمكن أن يسبقني أحد إلى شيء ثم يتبين أنه صواب!

ومثل أن يُوكِلُوا عملية الاختيار هذه إلى (رؤساء) السلطة الدينية خاصتهم! فيدخل طائفة كبيرة من بني إسرائيل في النصرانية لأن (رؤساءهم) أحبوا ذلك، ويرفضون الدخول في الإسلام لأن (رؤساءهم) لم يحبوا ذلك لسبب ما! لذلك يقول الله جَلَّجَلَالُهُ عنهم: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ (التوبة ٣١). ولا ننسى أن هناك بالطبع في زماننا من (العِلمويين) من هو على استعداد لتغيير دينه ألف مرة إذا قرر (مشاهير العلماء) ذلك.

ومثل أن يعتبر أصحاب كل طائفة أنهم يحتكرون الحقيقة بطبيعتهم! يرفضون أن يؤمنوا إلا بما اختُصّت به هذه الطائفة عن غيرها من الوحي والرسالات. مثلما يخبرنا القرآن: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ**﴾ (البقرة ٩١). بينما في الحقيقة كل الأنبياء من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وبرسالة واحدة يصدقون بعضهم بعضًا.

❦

على أننا حين نقول: كسل، فإننا لا نعني الكسل بمعنى الخمول الجسدي، ولا حتى الفكري، ولكنه أقرب لكسل النفس عن التعطّش للحق أيًّا كان مكانه! إنه بمعنى أصح اختيار نابع من (هوى) النفس أكثر من كونه نابعًا عن الرغبة في الحقيقة.

لفهم ذلك جيدًا، أدعوك للانتقال إلى الفقرة التالية.

٣

الهوى

"ما أشدّ فطام الكبير"

مالك بن دينار

في الولايات المتحدة نوع من الإعدام يعرف بالـ (Lethal Injection). عن طريق حَقن المحكوم عليه بالإعدام بمجموعة من الأدوية أغلبها منوّمات تُدخل المعدوم في النوم الذي لا يستيقظ منه أبدًا. المشكلة أني سمعت أحدهم يذكر مرة أن القائمين على هذا النوع من الإعدام يقومون بمسح ذراع المعدوم أولًا بالكحول قبل تركيب الـ Cannula القاتلة! لم أصدق في البداية ولكني وجدت هذا الكلام موثقًا بالفعل على ويكيبديا كخطوات متّبعة ومُعترَف بها في هذه الإجراءات! وظيفة الكحول في عملية الحقن الطبي عمومًا هي حماية المريض من أن يُصاب بالعدوى أثناء (غرز) سن الإبرة في وريده. والآن، تخيل كمية السخرية في أن تحمي الرجل الذي تقوم بقتله الآن من أن يصاب بالعدوى أثناء العملية!

التفسير النفسي الوحيد الذي وجدته لهذه المفارقة هو الهوس البشري العتيد بالـ (الخطة المفترضة)! ذلك الوضع الذي تقرّه أذهاننا لطريقة عمل الأشياء من حولنا، أو القالب الذي قررنا مسبقًا أن تتم به مجموعة مختارة من العادات. دون أن نكترث أن هذه الخطة قد تكون سخيفة جدًا في وقت ما، أو لا معنى لها في موقف بعينه. طالما الأمر يسير وفق الخطة فلا بأس.

هناك أمثلة كثيرة على اتّباع البشر لـ (خططهم المفترضة) في أمور حياتهم الخاصة. لا بد مثلًا من أن تبدأ انتقادك لأحدهم بـ (مع احترامي لفلان) حتى لو كان مضمون كلامك بعد ذلك سيكون الشرح التفصيلي لـ: (لماذا هذا الفلان غير محترم أصلًا)! ويرى طبيب الطوارئ طوال مسيرته المهنية عدة عشرات من حالات الاحتضار بين يديه في المستشفى فلا يمنعه ذلك من إكمال كوب الشاي، برغم أن نفس الطبيب قد يصاب بالصرع لو رأى عملية احتضار في حادثة سيْر في الشارع. لأنه تبعًا لخطته المفترضة، فالشارع ليس مكان الموت!

لا بد من شراء (طقم الصيني) قبل الزواج، ولا بد من أن تقسم العروس لأمها أنها لن تستخدمه أبدًا إلا في المرات القليلة التي تأتي فيها (إليزابيث) ملكة بريطانيا إلى بيتها للعشاء! لا بد أيضًا من (اللبّانة) في طقم الشاي، برغم أنه لم يُقدَّم لي الشاي بجانب اللبّانة في أي بيت أزوره. فلا بد إذن أن (إليزابيث) هي من تنال وحدها هذا الشرف!

الخطط المفترضة ليست منطقية على الإطلاق، ومعظم هذه الأمثلة المذكورة هي أمثلة مَرِحة غير خطيرة بالفعل! ولكن المشكلة الحقيقية مع هذه الخطط المفترضة، هي أنه بالإضافة إلي الخَطط العامة، فإن كل إنسان لديه مجموعة خاصة به منها، سيتصرف هو ويحاكمك أنت بناءً عليها. وحين تتعجب من غياب ضميره في هذا الفعل الشرير أو ذاك ستفطن إلى أن ضميره قائم كله على أساس خططه المفترضة. والتي معظمها مجهول لديك بالمناسبة!

عن نفسي، فعندما أسير على قدمي، فإن أصحاب السيارات جميعهم أوغاد لا يتركون لك الفرصة للسير برغم أنك أولى منهم بالطريق، وعندما أركب سيارتي فإن كل السائرين همج لا يعرفون معنى النظام ويزاحمونك باستمرار. عندما أكون أنا الطبيب في غرفة الكشف فإن المرضى المتضايقين من الانتظار جهّال لا يفهمون معنى الطابور أو الصف، وحين أكون مريضًا وأنتظر كثيرًا في العيادة فالطبيب الذي بالداخل كسول بالطبع أو مُحابي. حين يعلق أحدهم باستظراف هازئًا من منشور لي على أحد مواقع التواصل فهو سخيف، وحين أمزح مع أحدهم معلقًا على منشور له فلا تعجبه مزحتي فهو متعجرف.

لسنا أشرارًا عن عمد، نحب أن نعدل في كثير من الأحيان ولو على أنفسنا أو الأقربين، ولكن لا يثق أحد منا في ميزان غيره، لا نثق إلا في ميزاننا الخاص، نقسم أننا لن نطفف فيه ولن نكيل بمكاييل مغايرة، فقط ننسى إبهامنا الموضوع على رمانة الميزان! ننظر إلى أفعالنا وأفعال الناس من زاوية رؤيتنا الشخصية، وننسى أننا لا نقبع في مكان محايد. نحن في الحدث دائمًا متأرجحين، لا يمكن أن يكون إبهامنا في المكان الصحيح ونحن متأرجحون. رمانة الميزان لا تكون في المنتصف أبدًا. نخطئ أكثر مما نظن ونظلم أكثر مما نتخيل. وهذا لأن خططنا المفترضة ليست موضوعية، ولا منطقية حتى في أكثر الأحيان.

هذا النوع من الخطط المفترضة يمكننا أن نسميه (هوى النفس)، ذلك الذي يدفعك إلى الاعتقاد بأن كل أحكامك على أفعالك وعلى أفعال الناس رائعة للغاية. وقد يؤدي بك إلى الإصرار على السقوط في بركة الوحل بينما على وجهك ابتسامة بلهاء!

هذا (الهوى) ليس صوابًا إذن في كل جوانبه. وبرغم ذلك فإنه لا يمكننا أن نتخلص منه بسهولة، لأن هذا ضد الطبع البشري أصلًا، سأظل أنا وأنت دائمًا لنا تفضيلات وافتراضات،

ومخططات ومنطلقات، ومقاييس خاصة نحاكم بها أنفسنا وغيرنا. لن نستطيع أبدًا أن نقتل كل خططنا المفترضة!

ولكن المفترض أن تقوم به هو أن تنزل من عليائك، وعن ذلك العرش الذهني الذي نصّبه كل واحد منا في ذهنه فوق الناس جميعًا ثم تربّع عليه! أن تعيد برمجة جميع خططك حتى (تتبع) (الكود) الصحيح. أن تتحمل آلام فعل كل هذا، وبأن يصير هذا الألم بعد ذلك عندك لذة!

لذلك ففي الإسلام نجد الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ، وذكره الكثيرون من أهل الحديث في كتبهم: «لاَيُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»! ضعّف سندَ الحديث الكثيرُ من أهل العلم، فعلى الأرجح أنه لم يثبت عن النبي ﷺ، وبرغم ذَلك يشهد بصحة معناه الكثير من آيات القرآن مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (ص ٢٦). وبيّنت لنا الآية القرآنية الأخرى، كيف أن اتباع الهوى سيجعلك في موقف لا تُحسَد عليه عمومًا من الانفراط والضياع، فقال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ (الكهف ٢٨).

حين حدثتُك عن أكسل أسس الاختيار، ذكرتُ لك عدة أمثال منها، كل هذه الأمثلة تقع في ذات النطاق: هوى النفس!

كان ابن عباس يقول: «الهوى إله معبود»، وقرأ: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ (الجاثية ٢٣). ويقول أبو سليمان الداراني: «أفضل الأعمال خلاف هوى النفس». ويقول مالك بن دينار: «ما أشد فطام الكبير!». ويقال: «الهوى شريك العمى». وكان بعض الحكماء يقول: «عين الهوى عوراء».

إن هوى النفس قاتل مأجور محترف يجيد عمله، لا يمكنك أن تشعر به وهو يقتل جهاز استشعار الحقيقة في داخلك لأنه سيتسلل إلى هدفه في داخلك في صمت. لا يمكنك أن تستدل على وجوده بعد ذلك لأنه سيحرص جيدًا على إخفاء آثاره. لا يمكنك أن تدّعي البراءة بعد ذلك لأنك أنت من استأجره، حين كان حرصك على تفضيلات نفسك وإلف خططك المفترضة أكثر من حبك للحقيقة.

وللفيلسوف العَدَمي الشهير (فريدريك نيتشه) في تمهيد كتابه الشهير (هكذا تكلم زرادشت): «لا يكفي لطالب الحقيقة أن يكون مخلصًا في قصده، بل عليه أن يترصد إخلاصه، ويقف موقف المشكك فيه. إياك أن تقف حائلًا بين فكرتك وبين ما ينافيها، فلا يبلغ أول درجة من الحكمة من لا يعمل بهذه الوصية. عليك أن تُصلي نفسك كل يوم حربًا وليس لك أن تبالي بما تجنيه من نصر أو تجني عليك جهودك من انحدار. فإن ذلك من شأن الحقيقة لا من شأنك»!

هذا الهوى استحوذ عليهم تمامًا حتى صاروا مجرد دمية تلعب بها أصابعه وتحركها كيفما شاءت! تغيّرت حواسهم أنفسها، فصارت لا تتوجه إلا إلى ما تحبه النفس وترضاه. وخلطوا بين ما (تكرهه) نفوسهم وبين ما هو (مكروه) في نفسه. ومزجوا بين معيار العقل في (الحكم) على الأمور ومعيار النفس في (تفضيل) هذه الأمور!

وماذا كانت النتيجة؟؟ صاروا كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية ٢٣). وصاروا عندما يأتيهم الحق يكرهونه: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (المؤمنون ٧٠).

لذلك يخبرنا القرآن عن هؤلاء الذين كانوا يتمسّكون بـ (دينهم) في مقابل دعوة النبي ﷺ فقالوا لبعضهم البعض: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (الفرقان ٤٢). إلى هذه الدرجة بلغ تمسّكهم بهذه (الحقيقة) من وجهة نظرهم! يدفعك ذلك للتساؤل: فلماذا هم على خطأ إذن؟! هم اجتهدوا ووصلوا إلى هذه الحقيقة. فينبهك القرآن في الآية التي تليها: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (الفرقان ٤٣).

لا تُغفِل الهوى! لا تُغفِل أبدًا دور الهوى.

٤

المدرسة الإبراهيمية

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

سورة النحل آية ١٢٣

(من فضلك تبرع لي بمبلغ صغير لأني أريد شراء طائرة خاصة ثمنها ٦٥ مليون دولار)

هذه ليست مزحة بل هي حملة تبرعات حقيقية قادها القس والداعية الأمريكي (كريفالو دولار) في أوائل ٢٠١٥. كريفالو كان يعلم أن المبلغ كبير ولكنه وضع ثقته في أفئدة المسيحيين الذين سيتبرعون لأجله لشراء هذه الطائرة كي يستخدمها في الدعوة فقط.

لم يكن دولار هو المُغرم الوحيد بالطائرات، فالقس الأمريكي الآخر (مايك موردوك) اشترى طائرتين خاصتين بأموال لا يعرف أحد من أين حصل عليها، كل ما قاله أن الله أهداه لفكرة جعلته يربح آلاف الدولارات، وقد أكد مرارًا أن الطائرات يستخدمها فقط للدعوة أيضًا.

أما الداعية التليفزيوني الأمريكي (كينيث كوبلند) الذي اشتهر هو وزوجته بالترويج لـ (الطب البديل من خلال الصلاة) فقد نجح بالفعل في تلقي تبرعات كافية لشراء طائرة خاصة ثمنها ٢٠ مليون دولار بعد أن أكد لأتباعه أنها لأعمال الدعوة فقط، برغم أن التقارير أكدت أنه سافر بها إلى كولورادو والهند وسيريلانكا لدواعي الإجازة والترفيه العائلي.

جميل أن الله عز وجل قد فسر لنا الكثير من ألغاز الحياة في القرآن، فلدينا مثلًا عن ذلك قول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (التوبة ٣٤). وبالطبع المسلمون فيهم مثل ذلك الكثير والكثير، ربما لذلك قال سفيان بن عيينة في تفسيره لهذه الآية بالذات: «من فسَد من علمائنا كان فيه شبهٌ من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا كان فيه شبهٌ من النصارى!».

كان الوثنيون في شمال أوروبا الإسكندنافية يقدمون قرابينهم لكهنة المعابد يذبحونها ويأخذونها لهم، من المحرم لديهم أن تسأل عن مصير القرابين بعد ذلك وإلا تكون أهنت الآلهة. وفي حضارة المايا في أمريكا الوسطى كانوا يقدمون القرابين على هيئة تماثيل من الذهب الخالص تذهب لكهنة المعابد. بينما في أفريقيا السوداء إلى الآن يقدم الوثنيون أفخر جلودهم وأموالهم إلى ساحر القبيلة، لأن أحدهم (هو الساحر نفسه) قد أخبرهم أن هذه هي طريقة إرضاء الإله.

كل هذه الديانات تدعي أنها سوف تخبرك عن عنوان بيت الإله ورقمه البريدي لترسل عليه هداياك وصدقاتك. بينما دينِ الله الحق يخبرك في كل زمان ومكان أنه لا يريد منك طعامًا ولا رزقًا، وأن قرابينك لن ينال الله منها لحومٌ ولا دماء. وأن تقربك إليه حقًا إنما هو في إطعام جائع، أو العطف على عجوز، أو الشفقة لحال يتيم، أو شربة ماء تسقيها لكلب له كبد رطب.

كيف لك أن تكون متأكدًا من أنك لا تعبد الإله الخطأ؟

لأنك تعبد الإله الذي لم تره، ولا تعرف صورته، وليس له كهنة معبد يجمعون له قرابينه، أو يحرسه رجال دين يسمعون منك صلواتك واعترافاتك بالذنوب. لأنك لا تعبد إلهًا أخرجه لك أحدهم من الأرض ونحت هيئته على طواطم الشجر، أو أنزله لك أحدهم من السماء ونقش صورته على جدران المعابد.

لا يمكنك أن تعبد الإله الخطأ طالما أنت لا ترسل عبادتك إلى عنوان بريدي ما! إذ ماذا لو كان العنوان الذي أملاه لك أبوك وجدك قد حرّفته ألسنة عجائز الأجيال؟

ولكنك تفعل كما فعل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لما نظر في السماء ثم تفكّر ثم تحيّر ثم تأفّف ثم تخوّف ثم قرر فقال: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (الأنعام ٧٩). إني وجهت وجهي لذلك الذي خلقني، أيًا كان، أينما كان، كيفما كان. وأما البشر، فهم يكذبون في العناوين.

الأمر بسيط، كي لا تخطئ في تحديد إلهك الحق، عليك فقط أن تلتحق بالمدرسة الإبراهيمية! هل سمعت من قبل عن المدرسة الإبراهيمية؟

❦

حكى لنا ابن الجوزي في كتابه (زاد المسير) قصةً رواها (أبو صالح) عن (عبد الله بن عباس) رضي الله عنهما، الله أعلم بمدى ثبوتها عنه، ثم مدى صحتها في نفسها أصلًا، ولكنها على كل حال من القصص اللطيفة التي نستأنس بها. وهي أن النبي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما شبّ وتكلم، قال لأمه: من ربي؟ فقالت: أنا. قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك. قال: فمن رب أبي؟ قالت: اسكت!

برغم أن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان نبيًّا يأتيه الخبر من السماء، إلا أن القرآن حكى لنا كيف كان يفكّر عقله بأمر الإيمان، وبطريقة يمكن لأي أحد أن يتعلمها منه من أمثالنا الذين لا يأتيهم خبر السماء، ولكنهم مرحّب بهم دومًا في هذه المدرسة الإبراهيمية!

من ضمن دروس هذه المدرسة، ذلك الدرس الذي جرى أمام الأجرام السماويّة! ويخبرنا به القرآن في قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ (الأنعام ٧٥ -٧٨)!

هناك اختلاف كبير بين المفسّرين في إن كان هذا هو تفكير إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فعلًا قبل أن ينزل عليه الوحي، أو كان هذا مجرّد مناظرة واستعراض ومناقشة بينه وبين قومه. وعلى كل حال، لا يعنينا أن نحدّد بالضبط أي القولين هو الأصوب، إذ إنه وفي كل الأحوال، تبقى هذه الآيات درسًا نفيسًا يجدر بنا تعلُّمه!

حذرًا من عقاب الآخرة، واحترامًا لعقلك وكرامة نفسك، فإني أدعوك ألّا تعفّر وجهك في التراب لعبادة الإله الخطأ! لا يوجد إله يستحق أن تعبده طالما كان إلهًا باطلًا مخترعًا. مهما سمّيناه بالأسماء المنمّقة، ونسجنا حوله الأساطير، ووضعنا له الطقوس الوثنيّة المناسبة، وكونّا دينًا أو فلسفة متكاملة تحت رعايته. ففي النهاية كل هذا لا يعطينا سببًا أو داعيًا يكفينا لعبادته، لأنه يبقى في النهاية من اختراعنا نحن! كما قال يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لصاحبيه في السجن: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ**﴾ (يوسف ٤٠).

إنه كما قال إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه في درس آخر يُعلّمه لنا: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ**﴾ (الزخرف ٢٦ -٢٧). ويقول في موضع آخر: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ**﴾ (الشعراء ٧٥ -٧٨). كل هذه الآلهة لا تستحق عبادتي وسوف أتبرأ منها باستثناء الإله الوحيد الذي يستحق ذلك! هو الإله الحق، الذي خلقني.

لو فعلتَ ذلك فإنك لن تخطئ مطلقًا في جواب سؤال: من إلهك! فبدون كبير عناء، تستطيع أن تتيقن أن إلهك الذي تعبده هو ذلك الإله الموجود منذ الأزل، والذي خلقك ويهديك إليه، حتى لو لم تستطع أن تعرف الكثير من صفاته أو أفعاله. إنها ذات القاعدة التي دل عليها مؤمن آل ياسين قومَه: ﴿**وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ (يس ٢٢)؟!

هي قاعدة بسيطة إذن. أنا موجود، وبالتالي أنا أعبد ذلك الذي أوجدني!

لذلك، وبالعودة إلى الدرس الإبراهيمي الأول الذي بدأنا به كلامنا، فلمّا تبين أن الكوكب والقمر والشمس لا يستحقون عبادتنا، لجأنا إلى القاعدة البسيطة إياها في معرفة المعبود الذي يستحق! كما قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعدها: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (الأنعام ٧٩).

◆

كلمة (حنيفًا) الموجودة في الآية السابقة تنبّهنا على درس إبراهيمي آخر. وهو أن هناك نوعًا من (الامتناع) و(التحرّز) و(التبرؤ) ليسوا بأقل أهمية من عملية العبادة نفسها!

(حنيفًا) تعني مائلًا عن كل ما هو باطل، منحرفًا عن كل ما هو كذب، مُبطلًا لكل ما هو مزيّف! الحنيفيّة تعني نقاء الإيمان بالله جَلَّجَلَالُهُ من كل شوائب الإيمان بغيره، تعني الرفض العقلي للاتباع الأعمى المجرّد عن الدليل، تعني عزة النفس وغناها عن أن تتذلل لمن لا يستحق!

هذه الحنيفيّة كانت من فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولكن لا يمكننا أن نغفل التطبيق الإبراهيمي البديع لها، حتى إن الله جَلَّجَلَالُهُ يحب من بقية عباده أن يتمثّلوا به فيها، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (آل عمران ٩٥). ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ (النساء ١٢٥). ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (الأنعام ١٦١)!

◆

المسلمون بقيادة نبيهم محمد ﷺ قد تربّوا جيدًا في المدرسة الإبراهيميّة، وصاروا يتمثّلون أول دروسها الذي بدأنا به كلامنا! كما يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله وَلَكِنْ أَعْبُدُ الله الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ**﴾ (يونس ١٠٤)! فإن كان الناس في شكٍّ أي دين هو الصحيح، فسيكون يسيرًا عليك أن تصل إلى الحقيقة. حين ترفض كل الآلهة الباطلة وتلجأ إلى الإيمان بالإله الحق الوحيد الذي سيكون مصيرك إليه في النهاية، هو الذي خلقك وهو الذي سيتوفاك. حينها لن تجد إلا دينًا واحدًا هو من يوحّد الله حق توحيده، فالزمه!

القرآن يعلّم المسلمين الدرس الإبراهيمي الآخر: الحنيفيّة. حين يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾ (البقرة ٢٥٦). تلك الحنيفيّة التي تعلمك أن (تكفر) قبل أن (تؤمن)! وأن تتبرأ من أن تتورط في عبادة شخص أو شيء قد (طغى) عن حد عبوديّته وادّعى أنه يستحق عبادتك له!

المدرسة الإبراهيميّة تقوم بإخراج جيل من المؤمنين المطمئنّين بأنهم لم يُخطئوا العنوان ولا ضلّوا الطريق. لماذا؟؟ لأنهم نظروا في الملكوت من فوقهم، وقالوا لأنفسهم: نحن سوف نعبد (فقط) الذي صنع كل هذا، والذي أوجدنا وهدانا وسوف يتوفانا، والذي يتولانا بفضله ونعمه ويرعانا!

هذه يا صديقي هي الوحدانية. هي الحنيفيّة. هذا هو الطريق!

٥

العناكب

"لو كانت الفكرة هي ما سيُحسَب،

فيجب أن يستخدم الجهل آلة حاسبة!"

جوش ستيرن

لا يستطيع العنكبوت أن يطارد أي فريسة لأنه بطيء جدًا، فبالتالي يقوم ببناء عشّه بشباك من خيوط حريريّة تعلق فيها فريسته فيذهب إليها ليحقنها بسمّ يشلّ حركتها ويتغذى عليها بعد ذلك.

ولكنه لا يستطيع أن يبني هذا العش بالنهار، لأن الرياح والحشرات الكبيرة ومكنسة والدتك وهي تنظّف البيت باستمرار تقوم بتدمير عشّه كلما بدأ فيه. لذلك يلجأ إلى بناء عشه في الليل بعيدًا عن كل ذلك.

غير أنه -وباحتماليّة كبيرة جدًا- يتحطّم عشّه في وقت قصير بعد ذلك بسبب الأشياء التي ذكرناها، فيقوم حينها بأكل هذا العشّ القديم (حرفيًّا) وينسج منه عشًّا جديدًا بعد ذلك، وهكذا دواليْك.

لّما أقرأ قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت ٤١). أتخيّل العنكبوت وهو في بيته يشعر بكامل الطمأنينة من داخله لهذا البناء المحكم الذي هو في عين الناظر قد يبدو على قدر كبير من الاتّزان، ثم يأتي طفل يلعب بكرته فيحطّم هذا البيت الكبير في أقل من ثانية، بأضعف القوى الممكنة، وبأكثر حركاته عبثيّة، ومن دون أن يفطن إلى أنه قد حطّم بيت العنكبوت أصلًا!

هؤلاء الذين يبنون دينهم على غير أساس سليم من الوحدانيّة والحنيفيّة يشبهون هذا العنكبوت في طمأنينته الكاملة ببنائه من دون أن يفطن إلى أنه بناء هشّ للغاية! ومهما كانت قوة خيوطه التي يُقال أنها أقوى من الفولاذ، ففي النهاية سيبقى هذا البناء (وأمام أضعف قوة ممكنة تُوجَّه إليه من الحق): أضعف البيوت!

لذلك يفسّر لنا القرآن الكريم هذه المفارقة بين قوة (الدين الحق) في منطقه وحجّته وعقلانيّته، وبين هشاشة (الأديان الباطلة) وبنائها الرخو. فيقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء ١٨)! كما لو كان الباطل رجلًا أتته ضربة الحق فهشّمت دماغه. سيخرّ وقتها على الأرض بأسرع مما يتصوّر.

☙

وبالعودة إلى ما بدأنا به هذا الفصل، لما تساءل الملحد الشهير (دوكينز) بلسان حاله: أي دين عليّ اتباعه إذن حتى لا أكون مخطئًا؟! فيكون علينا نحن أن نتعجب من هذا! أهذا هو ما يقنع به الملحدون أنفسهم قبل أن يخلدوا إلى النوم؟؟! أيقولون لذلك الجزء من نفوسهم الذي يصرخ فيهم بين الفينة والأخرى أن كل الأديان تتساوى؟؟! أيرون حقًا أن دين الوحدانيّة ودين الأنبياء شبيه بأديان التعاويذ أو الأساطير أو الأقانيم أو التلمود أو الطواطم؟!

أنت لو كنت قرأت هذا الكتاب من أوله، لفهمتَ كيف أن دين الإسلام هو الدين الوحيد الذي سوف تجده هناك يتلاقى مع امتداد إجابات أسئلتك الوجوديّة! من أول إيمانك بوجود إله، ومرورًا بيقينك في وحدانيّه، وأنه قد خلقنا لغاية محددة، وأنه أعلمنا إياها عن طريق النبوّات والرسل، وأن هؤلاء الرسل يصدقون بعضهم البعض وأتوا بنفس العقيدة ونفس الدعوة ونفس الدين القويم: أن اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر. حينها تعلم أن رسالة النبي محمد ﷺ لم تشذّ عن النمط السابق ذكره، ولم تختلف عنه أو تتخلّف في شيء! إنها رسالة تأتي بشكل تلقائي وبدون تكلّف مع سلسلة تفكيرك التي بدأتها أول ما بدأتها حين نظرت إلى السماء فوقك وقلت في نفسك: هل يا ترى هناك إله في هذا الوجود؟!

هذا التسلسل الوجودي تلاحظ اتساقه مع الإسلام، حين تستمع إلى قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف ٨١). فعلى المعنى الذي ذكره السُدّي، واختاره ابن جرير، أنه من باب التجوّز معهم في الخطاب، والمُجادلة بالافتراض. أي لو كان أيها المشركون بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هناك ولدٌ للإله حقًا، لكنتُ أنا أول المصطفّين في عبادته وأولى الناس باتخاذه إلهًا! ليس ديني عن تعصّب لقول أخذتُه ثم لن أرجع فيه، بل أنا مع الحق أينما كان، أريد أن أعبد إلهي الذي خلقني بالصورة التي هو عليها!

ولكن هذا مع ذلك مستحيل! لا يمكن أن يكون للرحمن ولد، سبحانه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن ذلك، فهذا سيكون تنقّصًا كبيرًا من قدرته وغناه وإرادته سبحانه، لذلك يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الآية التي تليها: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الزخرف ٨٢). حتى لا تظن -ولو للحظة - أن هذا الافتراض الذي تجوّزنا فيه معهم في الخطاب قد يكون على قدر -ولو قليل - من الصواب.

☙

تلاحظ اتساق التسلسل الوجودي إياه مع دين الإسلام حين تلحظ أننا لا نفرّق بين الرسل! كل الرسل أحبابنا، كلهم من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يكون بوسعنا أن نكفر برسالة أحدهم دون الآخر، كما يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (البقرة ١٣٦).

في المقابل أنت لا تتسق مع هذه السلسلة المستمرّة لو كنت يهوديًا ورفضت نبوة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو كنتَ نصرانيًا ورفضت نبوة محمد ﷺ، لأن هذا يعني أن هناك خللًا في الطريقة العقلية السليمة التي تثبت بها رسالة أحدهم، إذ توافرت المعجزات والتأييد الإلهي والدعوة إلى الخير والقيم وتصديق الأنبياء في شخص النبي محمد ﷺ مثلًا، ثم أتيت أنت وكفرت به، حينها سيكون لزميلك اللاديني أن يسألك: ولماذا آمنتَ أنت إذن بنبوّة فلان أو فلان من غيره من الأنبياء؟!

***

تلاحظ اتّساق التسلسل أيضًا مع الإسلام، حين تستمع إلى قول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (العنكبوت ٤٦). هؤلاء الذين هم شركاؤنا في الإيمان بوجود الله وباليوم الآخر وبالنبوّات والوحي، يستحقون معاملة أفضل من غيرهم، والخصومة التي بيننا وبينهم هي بطبيعة الحال أقل! وستكون كثرة المحاجّات معهم ليس لها كبير داع. حين نؤمن أن هناك إلهًا في هذا الوجود، فدعونا من المحاجّات التي تستغرق الأعمار في إثبات أيّنا على صواب، ولنقم أنا وأنت بالامتثال والتسليم لهذا الإله، فنحن نؤمن برسالة موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام أجمعين، وإلهنا هو إلهكم، ونحن له مسلمون! ماذا يبقى لغير المسلمين إذن من حجج؟! ما الأساس الإيماني السليم الذي يرتكز عليه أحد أصحاب الديانات الأخرى وفوّته المسملون عن عمد أو جهل؟! لا يوجد، إنما نحن نتساق مع الحق أينما كان.

لذلك فالقرآن أمعن في إقرار هذا المبدأ، والتأكيد للمخالفين بأنهم هم من اختاروا الافتراق! هم الذين انحرفوا عن الخط المستقيم المرسوم من قمّة الهرم العقدي إلى أسفله. كما يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران ٦٤).

ماذا تُرى يكون السبب الذي يتولون من أجله؟! اللهم إلا أن يكون حب الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو (الإكليروس) الذي يجعلهم يُقدّسون رجال الدين، أو العاطفة العمياء التي أقنعتهم أن الإله قد قتل نفسه من أجلهم! في النهاية يبقى أي سبب يدفعهم إلى عدم الإقرار معنا بهذه الكلمة السواء سببًا خارجًا عن السياق العقلي الذي بدأناه!

من أجل كل هذا -ومن قبل هذا- يمتنّ علينا القرآن بنعمة الإسلام العظيمة، كما يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ**﴾ (الحج ٧٨).

نعمة الإسلام التي لربما معظم من يقرؤون هذا الكتاب الآن قد حصلوا عليها بالفعل، منّة أن تكون على النهج الوحيد الذي على صواب! نعمة أن تكون متأكدًا أنك لست مُخطئًا، ليس لأنك في طمأنينة زائفة، ولكن لأنك بالفعل لستَ مخطئًا!

نحتاج إذن إلى نصيحة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ التي ذكّر بها بنيه: ﴿**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ (البقرة ١٣٢)!

فاللهمّ آمين!

المثل الصيني

(هي مجرد خاتمة)

يقول الفيلسوف الدنماركي (سورين كيركجور): «الحقيقة هي فخ! لا يمكنك أن (تحصل) عليها من دون أن تقع في شباكها. فلا تستطيع أن تحصل على الحقيقة بإمساكها ولكن بأن تقوم هي بإمساكك»!

لا، لم يكن هذا هو قول (سورين) الذي أردتُ أن أختم به الكتاب، كان قولًا آخر فيه شيء عن الأطفال أو شيء من هذا القبيل! ما عَلَيْنا منه الآن.

على كل حال، هناك ما هو أجمل من كلام (سورين)، مثلًا كان بعض الحكماء من الصحابة يقولون: «من التمسني فلم يجدني فليفعل بأحسن ما يعلم، وليترك أقبح ما يعلم، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفني». وقال مرة (حاتم الأصمّ): «لا تنظروا إلى (من) قال، ولكن انظروا إلى (ما) قال». يعني دعك من صاحب الكلمات واهتم بكلامه هو. هذا يذكّرني بقول لقمان الحكيم الذي سُئِلَ: أي الناس أعلم؟ قال: «من ازداد من علم الناس إلى علمه». وهو يشبه أيضًا قول الأصمعي حين سُئِلَ: بم نلتَ ما نلتَ؟ قال: «بكثرة سؤالي وتلقّفي الحكمة الشرود»!

أفكر الحقيقة في حجم الجريمة التي ارتكبتها في حق نفسي، فقد كان الخطيب البغدادي يقول: «من صنّف فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس». فأنا أعرف أن الناس لا ترحم عادةً أطباق العقول. دعك من أنني ثرثرت كثيرًا، كثيرًا جدًا في الواقع! وقد جاء في (عيون الأخبار): «كانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله». هل يا ترى كان عقلي أقل أم أكثر من كلامي؟ لا أظن أن أي عقل معروض على طبق سيبدو لائقًا على أية حال!

أفكر أيضًا في أمر آخر أن كل الناس يحفظون المثل الصيني «لا تعطني سمكة، ولكن علّمني كيف أصطادها»، غير أن قليلًا من الناس يفطن إلى أن قائل هذا المثل لا بد أنه قد نام جائعًا إذن عدة ليالٍ حتى تعلّم الصيد! أظن أنه كان سيكون من الحكمة أن يأخذ منه السمكة ويتعلم أيضًا كيف يصطادها!

وبغض النظر عن أفكاري وعن الأمثال الصينية والأسماك، فدعونا نتأمل في هذه الآيات الستة عشرة من سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۝ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ۝ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ

عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ۝ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (الإسراء ٣٦-٥١).

هذه الآيات المعدودة قد استدللت في مواطن مختلفة من هذا الكتاب -استدلالًا عقليًا وليس نقليًا فقط- بآية منها على الاستحالة المنطقيّة لتتبع النطاقات الخارجة عن حدود العلم البشري. وبآية منها على أن تفاصيل القرآن وهداياته قد تكون سببًا ومدعاة للكفر والنفور عند البعض. وبآية منها على أن كمال علو الإله يقتضي وحدانيته إذ لو تعددت الآلهة لدارت في عبودية الإله الأعظم. وبآية منها على أن كل مخلوقات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تقوم بوظيفة العبودية إذ أنها الشيء الوحيد المتسق مع طبيعة علاقة الخالق بالمخلوق. وبآية منها على أنه من أدلة البعث العقلية أن الذي خلق كل شيء من العدم قادر على إعادته من باب أولى!

كل ثرثرتي في هذا الكتاب لم يكن لها كبير داعٍ إلا لمن لم يتذوق بعد حلاوة كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بينما في الواقع يمكن لأي أحد أن يحصل على خمسة من المعاني الكبار -التي ظللت أدندن عليها طوال الصفحات الستمائة- في أثناء قراءته لست عشرة آية من سورة الإسراء في معرض تلاوته لورده اليومي وهو مُتّكئ على مسند ظهر قطني في زاوية مسجد بأسفل بيته في أحد الأحياء المزدحمة بالسكان!

الفرق وقتها أن الآيات قد أوصلت لك هذه المعاني وأكثر منها بكثير بشكل مختلط مندمج مختصر بديع. فالقرآن يدغدغ ببساطة كل ممانعاتك الفكرية حين تتلوه، فأنت تشعر بحلاوة القرب قبل أن تعرف بعقلك ما هو سبب هذا القرب، وتشعر بلذة المناجاة من قبل أن يصل تفكيرك المادي إلى حقيقة هذه المناجاة! القرآن يتفهم حينها أنك لست مجرد آلة حاسوبية، بل يصل إليك بالعقل والقلب معًا. وحين انتهاء قراءتك تجد نفسك وقد شُفِيتَ من قبل حتى أن تعرف ماذا كان مرضك حينها!

هذا الكتاب الذي بين يديك لم يكن الغرض منه أن تحصل على الإجابة النموذجية، أو الحل النهائي، أو وضع حدود للتساؤلات. بل يمكنك أن تنظر له إلى أنه مثال طويل نوعًا، مجرد مثال على الإجابة القرآنية عن أسئلة حديثة عويصة ما كنا نظن أن توجد إجاباتها في القرآن القديم.

لا يعني ذلك ألا تستفيد من أي شيء قرأته هنا، أو أن هناك حرجًا في أن تبدأ من حيث انتهى الآخرون. ولكن فقط لا تجعل السمكة التي أخذتها في يديك تمنعك من أن تتعلم الصيد!

ولكني تذكرتُ الآن قول (سورين كيركجور) الذي أردتُ أن أنهي به الكتاب: «كثيرٌ من الناس يصلون إلى استنتاجاتهم عن الحياة تمامًا كأطفال المدارس، فهم يخدعون معلميهم بنقلهم الإجابة من الكتب بدلًا من أن يصلوا لها بأنفسهم».

وتذكرتُ قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ (القمر ١٧).

أظن أن لديك مصحفًا. أليس كذلك؟!

المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.

٣. الجامع لأحكام القرآن - أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي.

٤. تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء إسماعيل بن كثير.

٥. زاد المسير في علم التفسير - أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي.

٦. المختصر في التفسير - مركز تفسير للدراسات القرآنية.

٧. خواطري حول القرآن الكريم - محمد متولي الشعراوي.

٨. الجامع المسند الصحيح المختصر - محمد بن إسماعيل البخاري.

٩. المسند الصحيح - مسلم بن الحجاج.

١٠. سلسلة الأحاديث الصحيحة - محمد ناصر الدين الألباني.

١١. معارج القبول في شرح سلم الوصول - حافظ الحكمي.

١٢. التوحيد الذي هو حق الله على العبيد - محمد بن عبد الوهاب.

١٣. فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد - عبد الرحمن آل الشيخ.

١٤. القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة - عبد الرحمن المحمود.

١٥. إشكالية العذر بالجهل في البحث العقدي - سلطان العميري.

١٦. النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى - محمد الحمود النجدي.

١٧. بيان موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول - أبو العباس بن تيمية.

١٨. الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - أبو العباس بن تيمية.

١٩. أعلام السنة المنشورة في اعتقاد الطائفة المنصورة - حافظ الحكمي.
٢٠. الكلمة المقدسة - محمد بن إسماعيل المقدم.
٢١. فطرية الدين وبيان معنى أن كل الناس يولدون مسلمين - محمد إسماعيل المقدم.
٢٢. جمع القرآن، مدخل في سؤال وجواب - أحمد سالم.
٢٣. الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد - سعود العريفي.
٢٤. منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية - سعود العريفي.
٢٥. مقدمة في أصول التفسير - أبو العباس بن تيمية.
٢٦. قواعد التفسير جمعًا ودراسة - خالد السبت.
٢٧. الطريق إلى القرآن - إبراهيم السكران.
٢٨. المشوّق إلى القراءة وطلب العلم - علي بن عمران.
٢٩. لا أعلم هويتي، حوار بين متشكك ومتيقن - حسام الدين حامد.
٣٠. الإلحاد، وثوقية التوهم وخواء العدم - حسام الدين حامد.
٣١. النبأ العظيم - محمد عبد الله دراز.
٣٢. موسوعة الرد على الملحدين العرب - هيثم طلعت.
٣٣. الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيجوفيتش.
٣٤. هروبي إلى الحرية - علي عزت بيجوفيتش.
٣٥. وهم الشيطان، الإلحاد ومزاعمه العلمية - ديفيد بيرلنسكي.
٣٦. ميليشيا الإلحاد - عبد الله العجيري.
٣٧. شموع النهار - عبد الله العجيري.
٣٨. الإلحاد للمبتدئين - هشام عزمي.
٣٩. التطور نظرية علمية أم أيديولوجيا - عرفان يلماز.
٤٠. حتى الملائكة تسأل - جيفري لانج.
٤١. الجواب عن سؤال الشر - اللجنة العلمية بمنتدى التوحيد.

٤٢. تفكيك الإلحاد، حقيبة تدريبية - مهاب السعيد.

٤٣. نهاية حيرة، حقيبة تدريبية - مهاب السعيد.

٤٤. أسمار - مهاب السعيد.

٤٥. رحلتي من الشك إلى الإيمان - مصطفى محمود.

٤٦. حوار مع صديقي الملحد - مصطفى محمود.

٤٧. الله - مصطفى محمود.

٤٨. القضية لا تزال مفتوحة - سلمى حسب الله.

٤٩. رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ - ثامر غشيان.

٥٠. هناك إله - أنتوني فلو.

٥١. العودة إلى الإيمان - هيثم طلعت.

٥٢. الإلحاد يسمم كل شيء - هيثم طلعت.

٥٣. الميديا والإلحاد - أحمد حسن.

٥٤. الكل مبتلى، ولكن - أحمد حسن.

٥٥. رحلة عقل - عمرو شريف.

٥٦. آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين - أبو الفداء بن مسعود.

٥٧. تصميم الحياة - ويليام ديمبسكي وجوناثان ويلز.

٥٨. العلم ودليل التصميم في الكون - مايكل بيهي، ستيفن ماير وويليام ديمبسكي.

٥٩. صندوق داروين الأسود - مايكل بيهي.

٦٠. الانتواع الخادع - كيسي لسكين.

٦١. سحر الواقع - ريتشارد دوكنز.

٦٢. وهم الإله - ريتشارد دوكنز.

٦٣. تطور الإنسان - برنارد وود.

٦٤. التصميم العظيم - ستيفن هوكنج وليونارد مولدينو.

٦٥. الإنسان لا يقوم وحده - كريسي موريسون.

٦٦. صانع النار - مايكل دنتون.

٦٧. قدر الطبيعة - مايكل دنتون.

٦٨. الفيزياء ووجود الخالق - جعفر شيخ إدريس.

٦٩. الجائزة الكونية الكبرى - بول ديفز.

٧٠. لعبة الممكنات - فرانسوا جاكوب.

٧١. ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان - عبد الله الشهري.

٧٢. سابغات - أحمد يوسف السيد.

٧٣. أفي الله شك - حمد المرزوقي.

٧٤. الغيب والعقل - إلياس بلكا.

٧٥. أصل الأنواع - تشارلز داروين.

٧٦. منذ زمن داروين - ستيفن جولد.

٧٧. داروين - مايكل روس.

٧٨. داروين مترددًا - ديفيد كوامن.

٧٩. الداروينية المتأسلمة - عمرو عبد العزيز.

٨٠. التاريخ الإسلامي الوجيز - محمد سهيل طقّوش.

٨١. الرحيق المختوم - صفي الرحمن المباركفوري.

٨٢. المحكمات - الشريف حاتم العوني.

٨٣. حياتنا وإن طالت - جوناثان سيلفر تاون.

٨٤. هل تحكم على الكتاب من عنوانه - جوليان باجيني.

٨٥. علم النفس التطوري - ديلان إيفانز وأوسكار زاريت.

٨٦. معنى الخلود في الخبرات الإنسانية - وليام إرنست هوكنج.

٨٧. عجائب الفيزياء - كريستوفر بارجودسكي وفرانكلين بوتر.

٨٨. العلمانية، نشأتها وتطورها وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة - سفر الحوالي.
٨٩. تاريخ الفلسفة الحديثة - يوسف كرم.
٩٠. تاريخ الفلسفة اليونانية - يوسف كرم.
٩١. تاريخ الفلسفة للمبتدئين - يوسف كرم.
٩٢. مشكلة الشر ووجود الله - سامي العامري.
٩٣. فمن خلق الله - سامي العامري.
٩٤. أفي النبوءة شك - سامية ياسين البدري.
٩٥. المذاهب الفلسفية الإلحادية الروحية وتطبيقاتها المعاصرة - فوز الكردي.
٩٦. حي بن يقظان - ابن طفيل.
٩٧. فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال - ابن رشد.
٩٨. المراهق، كيف نفهمه؟ وكيف نوجهه؟ - عبد الكريم بكار.
٩٩. الديانات في أفريقيا السوداء - هوبير ديشان.
١٠٠. النهاية، الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون - فرانك كلوز.
١٠١. فيزياء المستحيل - ميشيو كاكو.
١٠٢. كون آينشتاين - ميشيو كاكو.
١٠٣. مستقبل العقل - ميشيو كاكو.
١٠٤. موسوعة غرائب المعتقدات والعادات - محمد كامل عبد الصمد.
١٠٥. أشهر خمسين خرافة في علم النفس - سكوت ليلينفيلد، ستيفن جاي لين، جون روشيو، وباري بايرستاين.
١٠٦. ارتقاء الحياة، الاختراعات العشرة العظيمة للتطور - نيك لين.
١٠٧. ماذا لو - راندال مونرو.
١٠٨. الأرض المسطحة - إدوين إبوت.
١٠٩. الثورة العلميّة - لورنس برينسيبيه.
١١٠. الثورة البيولوجية - أحمد مستجير مصطفى.

١١١. علم اسمه الضحك - أحمد مستجير مصطفى.

١١٢. علم اسمه السعادة - أحمد مستجير مصطفى.

١١٣. قراءة في كتابنا الوراثي - أحمد مستجير مصطفى.

١١٤. اختراق عقل - أحمد إبراهيم.

١١٥. الإجماع الإنساني - رضا زيدان.

١١٦. إنك على الحق المبين - محسن العواجي.

١١٧. وهم الإلحاد - عمرو شريف.

١١٨. التصميم الذكي، فلسفة وتاريخ النظرية - ستيفن ماير.

١١٩. لمحات من إبداع الخالق - نبيل فرحات.

١٢٠. البيولوجيا حين تكون أيديولوجيا - ريتشارد لوينتون.

١٢١. الموسوعة البصرية عن كل شيء - كيم برايان، لورا بولار، بيتر كريس، مايك جودمان، أندريا ميلز، كارول ستوت، ريتشارد واكر، كلير واتس، جون وود كوك وجون وود وارد.

١٢٢. ثلاث قصص علمية - أحمد شوقي.

١٢٣. روائع المقال - هوستون بيترسون.

١٢٤. ديوان إيليا أبو ماضي.

١٢٥. الاقتصاد في الاعتقاد - أبو حامد الغزالي.

١٢٦. معرفة الإنسان من نظرة - فرانك شيلين.

١٢٧. مقالة في مبدأ السكان - توماس مالتوس.

١٢٨. ١٠١ أسطورة توراتيّة - جاري جرينبرج.

١٢٩. النبوءات - نوستراداموس.

١٣٠. المشاهير - ديل كارنيجي.

١٣١. المئة، ترتيب أكثر الشخصيات تأثيرًا في التاريخ - مايكل هارت.

١٣٢. المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية في القاهرة.

١٣٣. المورد - منير البعلبكي.

١٣٤. حياة السلف بين القول والعمل - أحمد بن ناصر الطيار.

١٣٥. من طرائف الحكمة - محمد الصالح العميل.

١٣٦. الأطفال وبيت الحكايات - يعقوب جريم وفيلهلم جريم.

١٣٧. عقل بلا جسد - أحمد خالد توفيق.

١٣٨. الألعاب الفائقة تستمر طوال الصيف - براين ألديس.

١٣٩. رجل المائتي عام - إسحاق أزيموف.

١٤٠. وادي العميان - هربرت جورج ويلز.

١٤١. موعد مع الحياة - خالد صالح المنيف.

١٤٢. الأوديسّة - هوميروس.

١٤٣. ١٩٨٤ - جورج أورويل.

١٤٤. حول العالم في ٢٠٠ يوم - أنيس منصور.

١٤٥. قصاصات قابلة للحرق - أحمد خالد توفيق.

١٤٦. الطب الإكلينكي - كومار وكلارك.

١٤٧. البصريات الإكلينيكيّة - أندرو إلكينجتون.

١٤٨. البصريات الإكلينيكية - هيثم النشار.

١٤٩. فيسيولوجيا العين - هيثم النشار.

١٥٠. تشريح العين - محمد عمر.